جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية ـ قسنطينة

معهد الحضارة الاسلامية

شعبة اللغة العربية وآدابها

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

رسالة المشرق لمحمد اقبال

(دراسة أدبية)

اعداد الطالبة :
سكينة قدور

اشراف الاستاذ الدكتور :
حربي أمين سليمان

1411 ـ 1412 هـ/1991 ـ 1992 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى و الدي الذي فتح لي الدرب على مصراعيه . و ماكان يهمه وهو الريفي بعاداته وتقاليده إلا أن نطلب العلم الذي به نهذب أنفسنا ونربيها .

كما أهدي باكورة أعمالي العلمية إلى كل من حبب إلي طلب العلم و شوقني إلي جنانه الوارفة الظلال . وإلي كل من أعانني عليه ولو بكلمة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة البحث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة البحث

شدّني وأنا طالبة بمعهد الآداب واللغة العربية ماكان بعض أساتذتي يطرحونه من أفكار عن الادب الاسلامي وعن الكتابات الاسلامية ، فوجدتني انجذب الى روايات الدكتور نجيب الكيلاني بعدما نهلت الى حدّ التخمة من الروايات ذات الاتجاهات المختلفة (اشتراكية ، تحررية ... وجودية ، نفسية تكرس لعقدة أوديب والكترا ونظريات فرويد) .

منذ ذلك الحين وأنا أحدّث نفسي بالبحث فيما أسميته (نحو علم نفس أدبي اسلامي) يتحرك فيه الابطال ، وتجرى فيه الاحداث وفق سنن الله التي لاتبديل لها .

وظلت فكرة الادب الاسلامي المحور الرئيسي الذي يحظى باهتمامي ، لجدّته من جهة ولحاجته الى من ينهض به ، هذا الى جانب اهتمامي بالادب الجاهلي ليقيني أنه الوسيلة الاولى لخدمة كل متخصص في الأدب .

أما معرفتي باقبال فلم تكن تتعدى تلك المعلومات البسيطة التي صادفتني في بعض المعارض الاسلامية ، وما كنت أحسبني أستطيع الخوض في عالمه الذي لا أعرف منه الا رؤوس أقلام ، لو طلب الي أن أكتبها وألخصها حينما لما زدت عن قولي : «هو شاعر ومفكر ومصلح مسلم» هندي .

وأنا أقبل على اختياره موضوعا لدراستي وقفت أمام لغة الشاعر اذ كلّ أعماله مكتوبة امّا باللغة الفارسية أو الاردية ، وأنا ما أزال زغب الحواصل لم أمتلك بعد ناصية الفارسية رغم ما أجده في نفسي من ميل اليها . ولكن تشجيع أستاذي د/ طلعت محمد أبو فرحة ، صرفني السابق - جعلني أقبل عليه وكلّي أمل أن أخرج منه وقد كوّنت لنفسي رصيدا حسنا في اللغة الفارسية تلبية لنداء نفسي الخفي من جهة وخدمة لحاجة الدارسة الى مثل هذا التخصص ، وان أقدم للمكتبة الجزائرية عملا يسقط بعض فراغها في هذا المجال .

استقر بي الامر على محمد اقبال ، وبقي الموضوع من غير تحديد ، فعاودني التردد مرة أخرى خوفا من التقصير في حق هذا الرجل ، لاسيما بعد قراءة ماجاء في ثنايا كتاب الندوي روائع اقبال وهو أن الدراسات التي كتبت عن اقبال في لغات شتى تشارف الالفين .

ذهبت الى أستاذي المشرف والحزن يملأ نفسي الراغبة في المواصلة وعقلي الذي يقيده منهج البحث العلمي الذي يقتضي منه الوضوح في طرح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصوف والغموض في التعليمات .

ماذا أكتب عن اقبال بعد هذا الكمّ الهائل من الدراسات ؟

وقد تمثل استاذي - جزاه الله خيرا - شكّي وتردّدي مرة أخرى بكلمة ثبتتني على الصوف وكان مما قاله : ان صاحب الدراسة الالفين حول اقبال لم يتردد أمام الألف وتسعمائة وتسعة وتسعين دراسة ، فتجدم شيئا جديدا ، فلم لايكون بحثك الدراسة الواحدة بعد الالفين ؟ .

فلا أنسى لأستاذي فضله وتشجيعه ، كما لا أنسى له وهو العضو في جمعية أصدقاء اقبال فضله في توجيهي الى ديوان رسالة الشرق وبذلك اقتنعت أن البحث الذي أنا مقبلة على انجازه قد توفرت فيه الجدّة والفائدة ان لم تكن على تقدير - للمكتبة الاسلامية ، فللمكتبة الجزائرية .

ومما أذكر - مما كان سببا آخر في تمسّكي بالموضوع - أنني كلّما سئلت عن موضوع بحثي أجيب : محمد اقبال ، دراسة أدبية لأحد دواوينه ، فأسأل مباشرة ومن محمد اقبال ، وأجدني مضطرة الى التعريف بمجهول .

والحسن أنني منذ أن بدأت رحلتي مع اقبال وأنا أجد ما يثبتني على البحث ويزيد من تمسكي به يوما بعد آخر ، فمن سبيل فهمه اضطررت الى الاطلاع على الفكر الصوفي فوجدت فيه لذة وطلبا للمزيد . وجدتني أغوص في أغوار التاريخ الفارسي والتاريخ الاسلامي اذ هو بالنسبة الى ثقافتي القديمة معين جديد ، وفي سبيل فهمه لجأت الى بعض أعلام الفلسفة الغربية لشرح بعض وجهات نظره ومواقفه ، ولأجله عدت الى الأدب المقارن ، لاسيما الدراسات التي تجمع بين الآداب الاسلامية والآداب الغربية فقد كان الديوان ردّا على ديوان الشاعر الالماني غوته الديوان الشرقي للشاعر الغربي الذي كان بدوره صفحة من أشعار حافظ الشيرازي بعناوينها وأفكارها ، وكان صفحة للثقافة الاسلامية .

وبعد تعديل من اللجنة العلمية استقر البحث على عنوان : « رسالة المشرق لمحمد اقبال دراسة أدبية » بعد ذلك وبمساعدة من مشرفي د/ حربي أمين سليمان الذي قبل الاشراف علي في منتصف الطريق ، فعدّل من عناصره وأشار عليّ بحذف بعضها ، فوجدت في نصائحه حديث العالم الراسخ الذي يقدم لكل أمر علّته وسببه ، ووجدتني انقاد لمنهجه العلمي ومنطقه وتوجيهاته الجادة والصارمة في آن ، بعد ذلك استقر عنوان الدراسة على رسالة المشرق لمحمد اقبال دراسة أدبية وعدت سبعة فصول .

وقد ارتأيت ترجمة الديوان رغم علمي أن الدكتور عبد الوهاب عزام ترجمه قبلي الى العربية نظما . بل انني جمعت تحليل الموضوع مايقارب العام الى أن حصلت على النص الاصلي للديوان في المجموعة الكاملة لأعمال اقبال الفارسية .

كان الدافع الى ترجمة الديوان نثرا تلك الترجمة الشعرية التي كثيرا ما تذهب بالمعنى حرصا على الوزن ، وبعد حصولي على النص تأكدت لي ضرورة ترجمته الى العربية نثرا وكان الدافع الاقوى من سابقه ، ذلك أن ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام لم تكن كاملة ، فقد أسقط منها الهدية (أو التحية) وهي المتكونة من واحد وثمانين بيتا ، ومن القسم الاول من الديوان ثمانية وسبعين رباعية (مائة وستون بيتا أي مايقارب نصف المنظومة ، ومن القسم الثاني أسقط أربعة عشر قطعة وقصيدة (1) ، ومن القسم الثالث المتكون من خمسة وأربعين غزلية لم يترجم إلا أربعة وعشرين غزلية أي مايقارب النصف ، كما أسقط من القسم الرابع والاخير حوالي ثمانية عشرة قطعة ، هذا الى جانب الابيات التي كان يسقطها من حين لآخر .

وهكذا وجدت مبررا آخر أقوى لترجمته نثرا اذ كثيرا ماتكون الترجمة النثرية أقرب الى النص الاصلي ، ولأن موضوع بحثي هو ديوان رسالة المشرق وليس مقتطفات منه ، وهذا عرض للفصول التي استقر عليها البحث :

الفصل الاول بعنوان : (الوجود البريطاني والحركات الاصلاحية الاسلامية في شبه القارة .) هو فصل تمهيدي يحدد البيئة التي عاش فيها الشاعر بامتدادها باختلاط الاجناس فيها ، بصراعاتها السياسية والدينية والطائفية ، بلغاتها الكثيرة ولهجاتها المتشعبة ، فقد تضافرت هذه الظروف جميعا لطبع شخصيات أبناء المنطقة بطابعها فكانت أحيانا بقساوتها سببا في تفوق بعضهم ، وقد كان اقبال واحدا من أبناء الهند الذين حملوا بصمات كثيرة من ذلك الوسط الشائك وكانت أكبرها مساحة بصمات الروح الاسلامية العريقة في شبه القارة ، وقد كان ذلك سببا في التركيز على الوجود الاسلامي في شبه القارة وما لقيه من كيد المستعمر والهنادك من جهة ومن تعتيم بعض المؤرخين . فركزت على صراع الاسلام مع الهندوس ثم على الاستعمار البريطاني فدور المدارس الاسلامية في بعث الوعي ، وختمت الفصل بما كان للعلماء من كفاح في سبيل التحرر في خضم الهنادك وكيدهم .

---

1 ـ المراد بها سائر الاشكال الفنية .

الفصل الثاني : بعنوان : (محمد اقبال ، حياته وآثاره .)
خصصته لحياة الشاعر وقسمته الى شطرين ، تناولت في الاول أسرة اقبال ومولده ونشأته وتعليمه وأسفاره ثم خروجه الى الحياة . وقد رأيت أن وراء كل تفوق عوامل الى جانب المؤهلات الفردية ولذلك خصصت الشطر الثاني لتلك الموجهات ، والتي كان الاسلام بكل روافده في مقدمتها جميعا . وفيه تعرضت لآثار اقبال بمافيها أعماله المكتوبة والعيد انية فكان ذلك تعريفا باقبال الذي كثيرا ما عانيت في تعريف سائلي به وكثيرا ما حاولت أن أعقد مقارنة بين شهرته في الاوساط الاسلامية وشهرة معاصره طاغور (1)
الفصل الثالث : بعنوان (ديوان رسالة الشرق ، تعريف وعرض)
بدأته بتمهيد حول الادب الفارسي في شبه القارة الهندية وقسمت الفصل الى قسمين ، تناولت في الاول التعريف بالديوان ، فعرفت به انطلاقا من عنوانه : "پيام مشرق" أي رسالة المشرق ، كما تحدثت عن سبب نظمه انطلاقا من الديوان ، فقد كتب اقبال في أعلى الديوان العبارة التي كتبها شاعر الالمان غوته في ديوانه : "لله المشرق والمغرب" وجاء بعدها بالعنوان وتحته كتب : "در جواب نظم شاعر آلماني گوتى" أي في جواب ديوان الشاعر الالماني غوته . وقد اعتبرت اقبال رسول الشرق الى الغرب بردّه على تحية الشاعر الالماني غوته التي وجهها الى المشرق وظلت بلا صدى أو ردّ حتى أجاب اقبال نيابة عن الشرق كله .
كما اعتبرته رسولا الى الشرق بما قدم له من انتقادات وعلاجات ونصائح .
وتطرقت الى نظم الديوان ونشره والترجمات التي عرفها .
أما القسم الثاني فتناولت فيه عرضا موجزا لمحتويات الديوان وقد سهل تقسيم الشاعر له عملية العرض هذه ، اذ تناولت كل قسم منه على حدة مبتدئة بالمقدمة ثم القصيدة ثم منظومة "شقائق الطور" ، فمنظومة "أفكار" فالخمر الباقية" وأخيرا "طور الفرنج" ، وهو تعريف موجز واجهت فيه مشكلة التكرار في بعض المواضيع وبخاصة ما تعلق بالعشق الصوفي ، الى جانب طبيعة الشعر الفارسي القائم في كثير من الاحيان على استقلال كل بيت عما بعده ـ شأنه شأن الشعر العربي ـ وقد ملت الى الاختصار ليقيني أن في الفصول التالية تغطية لكثير مما أغفل في عرض المحتويات .

---

1 ـ أما طاغور فقد قرأنا عنه وله في كل مراحل تعلمنا على صفحات الجرائد وفي الكتب وسمعنا عنه من أساتذتنا ، وأما اقبال فمع تأخر وصول أخباره الينا فان المكتبات ما كانت لتروى ظمأ من يبغي التعرف عليه .

الفصل الرابع : وعنوانه (رسالة المشرق والتراث الاسلامي)

بدأ الفصل بكلمة موجزة عما حلّ بأدبائه ونقاد العالم الاسلامي من انقياد أعمى لمناهج الغرب وأساليبه وأسرته في الكتابة ، وانتهيت الى موقف اقبال في الادب ، وهو مساهمة منه في وضع أسس الادب الاسلامي النابع من تصوّر اسلامي .

وتوكيدا منّي لعظمة التصور الاسلامي وعبقريته كان هذا الفصل ، فقد لاحظت وأنا أتتبّع الديوان أنه اتسم الى حدّ بعيد بالتصور الصحيح لما حوله ، فكان بذلك تصوّرا اسلاميا لله وللكون والانسان ولكل مايحيط به . وفيه لاحظت أن الله كان غاية الغايات ونهاية الاهداف التي يصبوا اليها بشري ، وفيه يقف الانسان الخليفة لله كما صوّره القرآن وكما ينظر اليه الاسلام ، يتنازعه أصله الترابي وروحه النورانية ، كما لم تكن الحياة في نظر اقبال جنة وارفة الظلال وانما كانت مزيجا من خير وشر ، وكان الكون في الديوان بفراشه ويراعه وصقوره وشموعه وشاعته وياسمينه عابدا ومعلما للانسان نهج العبودية المتمثل في السعي والبذل والتضحية والجلد .

وبناء على هذه الملاحظات التي سجلتها ارتأيت أن أتناول صلة الديوان بالقرآن الكريم فتطرقت لاقتباساته وللقضايا التي وظف فيها تلك الاقتباسات كما تتبّعت المعاني القرآنية التي تأثر بها ، وركزت على بعض الاخلاق والآداب القرآنية وبعض الأمراض التي سرت في مجتمعه متسلما سرت في الغابرين ، نحو خوف الموت والكبرياء ، وغير هذا كثير في النفحات القرآنية كقصص الانبياء الذي اتخذه اقبال رمزا وأداة للعلاج وانتقاد كثير من خطايا العصر وأمراضه .

ووفاء للمصدر الثاني وتوكيدا لتصوّر اقبال الاسلامي عرجت في المبحث الثاني من الفصل على علاقة الديوان بالحديث الشريف متبعة في ذلك ما اتبعته في المبحث الاول أي الاحاديث المضمنة ثم معاني الاحاديث الوظفة فيه ، وأشرت الى جانب الحديث الشريف حضور التاريخ الاسلامي المعلّم بصفحاته الناصعة لكن الاثر الاسلامي لايتأتى عند هذه المصادر لاسيما والعمل مكتوب باللغة الفارسية ، فهناك الاثر الصوفي الذي وجد بقوة في الديوان ، وفرض كثيرا من مواضيعه ورموزه متمثل العلاقة بين المرشد والمريد ، حقيقة الصوفي السفر والعشق ، الفقر .

ومنه انتهيت الى اعتبار الديوان احد بواكير الادب الاسلامي الواضحة المعالم والتصور في ذلك الحين الذي لم يظهر فيه بعد مصطلح الادب أو الفن الاسلامي الا في حدود ضيقة كما في مقدمة رواد الشرق العربي الامير شكيب أرسلان(1)

الفصل الخامس : وعنوانه (رسالة الشرق بين الثقافة الفارسية والثقافة الغربية) انما قسمت هذا الفصل بين هذين لأن الديوان مكتوب بالفارسية ولايخلو من فكر وثقافة فارسيين خاصة وقد تمثل اقبال منهما وأتقن الفارسية منذ الصبا ،غير أنني لم أركز على كل أثر فارسي وانما تتبعت بعض القطفات من التاريخ والقصص الفارسيين اللذين استفاد منهما اقبال في الجانب الاسطوري أكثر من غيره ، ولم تكن غايته الاهتمام بالتاريخ مادة جامدة ،حيث أخذ منه رموزا واستخلص عبرا ودروسا ،مثل قصص ملوك الفرس ، والى جانب هذا تطرقت الى علاقة الديوان بالشعر الفارسي فأرجعت بعض تضمينات اقبال الى أصحابها كما أشرت الى بعض الشعراء الذين تأثر بهم ،ولايعني الا الاعتراف بتقصيري في ذلك لافتقار المكتبات من حولي الى دراسات في الادب الفارسي تاهيك عن دواوين الشعر سواء في لغتها أو مترجمة .

ويكفي أن ديوان اقبال ومجموعته الكاملة وكل ما اعتمدته في هذا البحث من مراجع فارسية انما وصلني من باكستان .

أما القسم الثاني فخصصته لعلاقة الديوان بالثقافة الغربية وقسمته الى مبحثين . الاول بين اقبال وغوته ،افتتحته بمقدمة في الأدب المقارن وتاريخ العلاقات الادبية بين الشرق والغرب ثم درس كل من غوته واقبال في الوساطة بين ثقافة الشرق والغرب واهتمام الالمان بالدراسات الشرقية ،ومنه قمت بمقارنة سريعة بين الشاعرين في ديوانيهما ، مشيرة الى نقاط التشابه والاختلاف لاختلاف ثقافة كل منهما .

وفي القسم الثاني تناولت علاقة اقبال بالغرب انطلاقا من الديوان ،فتتبعت مواقفه من كثير من فلاسفة الغرب وعلمائه وساسته وأنظمته بين اعتراف بالفضل حينا وانتقاد لاذع مرّ آخر .

وهذا ما جعلني انتهي في الاخير الى اعتبار اقبال محاورا فلسفيا وأدبيا نِدّا الى جانب كونه وسيطا بين الثقافتين .

---

1 ـ واضح الندوي ـ أدب الدعوة الاسلامية ،مؤسسة الرسالة ،ط 2 ، 1408 ـ 1987 بيروت ،ص 34 .

الفصل السادس : بعنوان (رسالة المشرق ، دراسة أسلوبية)

قسمته الى قسمين تناولت في الاول منهما البناء الخارجي للديوان ، متتبعة في ذلك القوالب التي اطرها ، وانتهيت الى أنه صاغ أفكاره في جلّ أجناس الشعر الفارسي المعروفة ان لم نقل كلها ، بتفاوت وجود ها في الديوان بتفاوتها في الشعر الفارسي فهناك القوالب التي يكثر تردد ها في دواوين الشعر الفارسي ومنها مايقلّ فلا يوجد في الديوان الكامل الا المنظومة الواحدة .

وسجلت في ثنايا دراستي ملاحظات حول تجديد اقبال وابداعه في تلك القوالب ، فمنه ماكان في الاغراض إذ لم يكن كثيرا منها لكل مايمكن أن تعبّر عنه لغة ، فأخرجها من جمود ها على بعض الاغراض دون غيرها ، ومنه ماكان في التخلص من بعض ما تواضع عليه القدامى ، ومنها ماتعلق بالاوزان ومنها ما تعلق بعدد الابيات التي حدد ها الدارسون لبعض الاشكال ، وقد لاحظت ميل اقبال للأوزان الخفيفة بعيدا عن طلب التعقيد وركوب الصعب ، وذلك تأكيدا منه بأن العبقرية حسن تأليف بين العناصر البسيط وليست الزاما للتفنن بما لايلزم ، فلم يتردد في الديوان الا خمسة من البحور الشعرية كلّها خفيفة (الجزء ، الرمل ، المتقارب ، الخفيف ، المتدارك) وتناولت في القسم الثاني دراسة لبعض الظواهر اللغوية في الديوان ، تطرقت في البداية لظاهرة الالفاظ العربية فتعرضت للألفاظ العربية مفردة ومركبة ، المكتوبة منها وفق قواعد اللغة العربية والمكتوبة وفق قواعد اللغة الفارسية .

وقد لاحظت أن أغلب التراكيب العربية قرآنية ، مستمدة من قاموس القرآن الكريم كما سجلت أن ألفاظ هذه الالفاظ العربية مفردة ومركبة لم يخل من طابع فارسي يجعلها تنسجم مع ماحولها ، وربما كان أكمل نموذج لها المقتبس من القرآن الكريم .

بعد ها تناولت ظاهرة الترادف التي أعطت الديوان سمة فنية خاصة .

وأخيرا ظاهرة الاضداد التي وفق اقبال الى حدّ بعيد في الجمع بينهما ، فحقق لنصه حيوية وجاذبية يرضع قارئه أمام آفاق رحبة للتأمل والتدبر .

الفصل السابع : بعنوان (البناء الداخلي لرسالة المشرق "الصورة الشعرية")

قسمت الفصل الى قسم نظري تحدثت فيه عن طبيعة الصورة الشعرية وعناصرها اذ أهم مافي العمل الادبي مايقدمه من صور للتعبير عن الاحاسيس والفكر والانفعالات أين تلتحم الفكرة بالاداة الفنية ، فبدلا من الدراسات النقدية القديمة التي تبحث في الاساليب البيانية والبديعية كل على حدة ، قامت الدراسات الحديثة أساسا على دراسة الصورة الشعرية أو الصورة الادبية ، وقد حاولت في تجديدي لطبيعة

الصورة الشعرية ووظيفتها ان أؤكد على جمعها بين الوظيفتين ،الفنية الجمالية والاجتماعية لأن أي ابداع فني لاينطلق من فراغ ولاينطلق الى فراغ ،فهو وليد الحياة والواقع بكل مافيهما وموجه الى الواقع بكل مافيه .

وبعد هذا القسم النظري انتقلت الى الدراسة التطبيقية فتعرضت للصورة الشعرية في رسالة المشرق ولوسائل اقبال في بنائه لها ،وقد يعترض معترض على اخضاعي الديوان وهو المكتوب باللغة الفارسية لدراسات أدبية قائمة على الادب العربي . والحقيقة ان مثل هذه الدراسات الحديثة أصبحت قاسما مشتركا بين الاداب العالمية كلها ،فالصورة الشعرية لاتخص أمة دون أخرى .

وقد بدأت هذه الدراسة التطبيقية بالصورة القائمة على التشبيه ولم أبحث فيها عن مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ،وانما عن صورة كاملة معادلة لفكرة قائمة في ذهن الشاعر ووجدانه ،أعقبتها بالصورة الشعرية القائمة على الرمز وقد لاحظت أنه استقى معظمها من التراث الصوفي ومن الطبيعة بكل مافيها من أحياء وجمادات .

وقد لفت انتباهي في محور استلهامها اقبال من التراث ،اضطرتني غزارتها الى اعتبار التراث واحدا من عناصره في التصوير ،لأن غايته لم تكن نقل التراث أو التعريف بالماضي وانما توظيفه توظيفا جديدا من أجل غايات أخرى تجمع بين الافادة والامتاع ،وفي هذا المحور لاحظت قدرة اقبال على التحكم في مادة التراث باختلاف مشاربه ،فلم يتحول الى عبد مطيع خاضع لتراث الأمم الاخرى ،بل طوع مادة التراث كلها لخدمة مايريد ايصاله من أفكار .

وبعد هذا جئت الى تصوير اقبال بالقصة ،فقد ارتكز على الإسلوب القصصي الى حد كبير اذ لا تكاد تخلو صفحة من سرد أو حوار حتى في اعقد المسائل السياسية والدينية والادبية والاجتماعية ،وكثيرا ماكان أبطال قصصه من الكون والطبيعة ،والملاحظ أن صوره القصصية لاتقرأ للمتعة فحسب والاعجاب بسعة خيال الشاعر وقدراته الفنية ،ولكنها تقرأ أيضا لتربية النفوس وتوجيهها الى مافيه الخير ، وانهيت الفصل بالتقاط بعض الصور من الديوان وهي التي رأيت أن عناصر التصوير الأدبي اكتملت فيها ، فكانت نموذجا لابداع اقبال ،وقد ركزت في دراستي للصور الشعرية في الديوان على حرص اقبال على التوفيق بين الاداة الفنية والغاية فالاداة جمالية فنية والغاية هادفة مربية وصالحة ومنتقدة ،وما ذلك الا نتيجة ليقين الشاعر برسالة الكلمة وأثرها في النفوس والمجتمعات ، كما سجلت ملاحظة أخرى وهي أن الشاعر المبدع الملتزم لزمام اداته يستطيع أن يرتقي بصوره الى معالجة

كل مايخطر ببالـه ويـدور كلّ ما حولـه من قضايا ،وقد ضرب اقبـال في ذلك مثـالا رائعا فعالج بأدواتـه البسيطـة الفلسفة والسياسة والتصوف والتاريخ والديـن والفـن والأدب والحيـاة بكل مايبد ت فيهـا .

وأخيـرا ختمت البحث بخلاصـة موجزة لخصت فيهـا أهـم ماتوصلت اليـه من نتائـج وعذري ان قصرت أن الموضوع كان متشعبا وأن مراجعـه كانت بعيد قالمنال وكـان وصولهـا عبر مراحـل امتدت الى مابعد الكتابـة ،ممـا اضطـرني الى اعادة الكتابـة أكثـر من مـرّة وعذري ان قصرت أن موضوعي بكـرا لم يلجـه أحـد قبلـي .

المصـادر والمراجـع :

تنوعت مصادر البحث ومراجعـه بحسب طبيعـة الموضوع فمنهـا المكتوب بالفارسيـة والمكتوب بالعربيـة ومنهـا المكتوب بالفرنسيـة والمكتوب بالانجليزيـة (1) وتنوعت أيضـا بيـن كـتاب تاريخي وأدبي وفلسفي وكتاب عام وذلـك بحسب الخطـة التي وضعتهـا للبحـث كما تنوعت بيـن كتب ومجـلات ومحـاضرات وذلك تبعـا لشهـرة اقبـال وكثـرة المهتمين بـه باختـلاف تخصصـاتهم لتشعب جهـوده ،بيـن دارس أدب ودارس فلسفة وعالـم ديـن وباحث عامّ .

والحقيـقة التي يجب تسجيلهـا أن أي واحـد من هـذه المراجع لـم يتناول الديـوان موضوع بحثـي بالدراسـة بل انـنّي لـم أجـد عنـه مقـالا واحـدا أو صفحـة كـاملـة أو فقـرة اللهـمّ ، الّا اشـارات طفيفـة ، ولحـلّ ذلك مازادني رغبـة في تقليب الديوان والنظـر اليـه مـن جوانـب شتى عـلّني أغطـي بدراستي ما عـانيتـه من نقص في المـادة العلميـة ،أمـا ما سبقنـي من رسائـل جامعيـة حـول اقبـال فكـان حـول د واويـن اخـرى غيـر الديـوان الذي اخترتـه ،أو كـان دراسـة عامـة ، وهـذه أهـمّ الدراسـات التي استفدت منهـا في البحث :

أولا : المصـادر : أول مصـدر هـو الديـوان موضوع الدراسـة في لغتـه الاصليـة ،ضمـن "كليات اقبـال فارسي" ، وضمـ ديوان "پيـام مشـرق".

تـأتي بعـده دواويـن اقبـال المترجمـة الى العربيـة .

ثـانيا المراجع : قسمتهـا الى مراجـع عامـة وأخـرى متخصصـة .

أ ـ الدراسـات العـامة : وهـي التي تناولـت اقبـال بصفـة عامـة (حياتـه ،أعمالـه ـ فلسفتـه ـ متفرقـات من سيرتـه ...) أهمهـا :

1 ـ جـاويـدنامـه اقبـال ،للدكتور جـاويد اقبـال (باللغة الفارسية) وهي دراسـة مسهبـة تتبـع فيهـا المؤلـف حياة أبيـه بكل مراحلهـا وتفاصيلهـا فجـاءت في اربعـة مجلدات .

2 ـ محمـد اقبـال ،سيرتـه وفلسفتـه وشعـره للدكتور عبدالوهاب عـزام وهو الذي استطاع فيـه بحكم تخصصـه واقامته بباكستان كثيرا أن يـلـم بجوانب كثيرة من حياة اقبـال وأدبـه وقـد

---

1 ـ بـل منهـا المكتوب بالاردية وقد تـركتـه جـانبـا اذ لم أجـد من يتقـن هذه اللغة .

وجدتني أرجع اليه في جلّ فصول البحث ،وربما كانت المرجع الاول لمعظم الدراسا العربية اللاحقة له .

3 ـ العلامة محمد اقبال ـ حياته وآثاره للدكتور أحمد معوض ،وفيه وجدت نفسا جديدا هو نتاج تخصص المؤلف في الدراسات الادبية الفارسية مما جعل كتابه غنيا وبعيدا عن تكرار كتاب الدكتور عبدالوهاب عزام .

4 ـ The Ardent Pulgrim ـ لاقبال سنخ ،وفيه تتبع حياة الشاعر من بدايتها الى نهايتها مع تعليقات على شعره .

5 ـ الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي لكل من محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان وفيه مقتطفات عن حياته وملاحظات حول افكاره ودراسات لشعره الى جانب ترجمات لبعض قصائده ،وقد كان كتابهما الثاني اقبال والفلسفة الاسلامية في شبه القارة الهندية ،تكرارا واعادة لجلّ ماجاء فيه .

ب ـ الدراسات المتخصصة : وهي تلك التي اعتنت بالجانب الادبي والفني في ابداع اقبال والدراسات النقدية والبلاغية والادبية العامة ،أهمها جميعا :

1 ـ علامة اقبال غزل فارسي للبروفسور محمد منوّر ميرزا (بالفارسية) وهي الدراسة التي أفادتني بتعليقات عديدة حول الديوان موضوع دراستي لاسيما مايتعلق بالقسم الخاص بالغزليات ،اذ كشف وهو المتخصص في الدراسات الاقبالية ورئيس أكاديمية اقبال بباكستان ،عن تأثر اقبال بكبار شعراء الفارسية امثال حافظ ونظيري وميرزا غالب .

2 ـ Studieg In Iqbal . لسيد عبد الواحد محمد أشرف وفيه قام المؤلف بدراسة لشعر اقبال ومقارنات بينه وبين عدد من شعراء المشرق والمغرب،اشال جلال الدين الرومي وغوته ودانتي وبراونينگ وقد أفدت منه الى حدّ بعيد في علاقة اقبال بغوته .

3 ـ فنون الشعر الفارسي للدكتورة اسعاد عبدالهادي قنديل

4 ـ دراسات في الشعر الفارسي ،د/ محمد عبدالمنعم .

وقد استندت اليهما في دراستي للقوالب الفنية في الديوان وحاولت من خلالهما أن أضع يدي على جديد اقبال وتجديده .

5 ـ الانسان في الادب الاسلامي المعاصر ـ للدكتور عادل الهاشمي ،اعتمدته باعتباره أول دكتوراه في الادب الاسلامي في تحديد التصور العام للأدب الاسلامي

6 ـ الصورة الشعرية ونماذجها في شعر أبي نواس .

7 ـ الصورة في شعر بشار ـ د/ عبد الفتاح صالح نافع .

8 ـ الصورة الفنية في النقد النقدي والبلاغي ،جابر أحمد عصفور .

9ـ أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر ،د / ربيعي محمد علي عبد الخالق .

10 ـ دراسات في النقد والادب ،ألن تيت ،مترجم .

هذه المراجع ودراسات أخرى استعنت بها في دراستي للصورة الشعرية في الديوان . وقد لاحظت أن جلها ركز على الصورة الشعرية (أو الادبية) كأبداع فني وقد ركزت الى جانب الابداع الفني على وظيفة تلك الصورة وغايتها ،وتلك طبيعة الأدب الاسلامي .

11 ـ مبادئ علم الادب المقارن ،الكسندر ديما .

12ـ الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ـ غوته .

13 ـ Les Maitre Ponseurs لمؤلفه اكنز على .

وقد أفدت من هذه المراجع وغيرها في دراستي لعلاقة الديوان بالثقافة الغربية.

14 ـ التصوف الاسلامي (في جزأين) ، د / زكي مبارك .

15 ـ الادب في التراث الصوفي ،د / عبد المنعم الحفني .

16ـ الرسالة القشيرية للقشيري وقد افدت من هذه المراجع وغيرها في تتبع الاثر الصوفي .

هذا الى جانب دراسات خاصة بالتاريخ والفكر الاسلامي استعنت بها في الفصل الاول والثاني لابراز الجانب الاسلامي في شبه القاره الهندية مثل كتاب كفاح المسلم في تحرير الهند ،لعبد المنعم النمر ،وكتاب الاعظمي ،حقائق عن باكستان ، والندوي الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية .

ولم تمنعني طبيعة البحث من العودة الى أمهات المصادر العربية مثل المخصص لابن سيده ، ونهاية الأرب للنويري ،واسرار البلاغة لعبد القاهر ،بل أن طبيعة البحث أعادتني الى القرآن الكريم والى كتب الحديث ،وذلك فضل لهذا البحث اذ ردتني الى هذين المصدرين .

الصعوبات والمشاكل :

لا أدعي أنني واجهت صعوبات في رحلتي مع هذا البحث ،لأن ذلك أمر طبيعي ،وقد مررت في مرحلة الليسانس ببحث التخرج وعرفت أن دروب العلم والمعرفة لابد لها من زاد ذو حدين : صبر وسعي دؤوب .

وقد واجهتني في دراستي عقبات بعضها مادي وبعضها الاخر أدبي

ـ أما العقبات المادية فتتمثل في فقر المكتبات من حولي الى المراجع والمصادر الخاصة باقبال خاصة وبالادب الفارسي على وجه العموم ، ويكفي دليلا على هذا أنني قضيت مايقارب العام على تحصيل البحث في الاشتغال بالفصل الاول (التمهيدي) والفصل الخاص بحياة اقبال على قلة ما حولي من مراجع ، انتظارا للديوان

موضوع دراستي في نسخته الاصلية ، الى أن تداركتني رحمة من ربي بمساعدة من القائمين على أكاديمية اقبال بارسال أعماله الفارسية الكاملة ، (كليات اقبال ، فارسي) ودراسات أخرى أنارت درب بحثي .

ونسي سبب تجاوز هذه العقبات المادية تنقلت عبر مكتبات الوطن ، فبعد مسح لما حولي بالشرق الجزائري سافرت الى الجزائر العاصمة أكثر من مرة وان كان الذي عدت به من مكتباتها ضحلا لايعتمد لاعداد بحث صغير فمابالك برسالة للماجستير .

ثم اضطرني البحث مرة أخرى للسفر الى المشرق العربي ، فكانت الرحلة الاولى الى القاهرة أين اطلعت على رسائل جامعية كانت بعض دواوين اقبال موضوعا لها . وعدت بعدد من الدراسات ، والاعظم من هذا اتصالي بأساتذة متخصصين أصحاب تجارب طويلة في الميدان أمثال الدكتور أحمد معتوق والدكتور حسين مجيب المصري اللذين أشكر لهما توجيههما ومساعدتهما لي .

وأعقبت هذه الرحلة بأخرى الى سوريا ، وفيها قصدت دمشق وحلب أين أكملت ما كان ينقصني من مراجع ، وأكملت ذلك أيضا بالاتصال بالاساتذة أسترشد بآرائهم ، وعلى رأسهم الدكتور محمد التونجي الذي أشكر له مساعدته وقد يسره لجهد وان الذي تزودته من هاتين الرحلتين هو يقيني ان أحدا لم يسبقني الى الديوان بالدراسة مما جعلني أعود منهما أصلب عودا .

وكانت العقبة الاخرى الى جانب مشكلة المصادر والمراجع ، السفر الطاجي لمشرفي السابق د / طلعت محمد أبو فرحة ، أين بقيت بلا مشرف ستة أشهر كاملة وما أثقلها وأطولها في نظر الباحث بما فيها من توتر وخوف وضياع للوقت ، واني لأشكر مرة أخرى لاستاذي د / حربي أمين سليمان الذي تلقاني وقبل الاشراف على بحثي فخلصني من الخوف على مصيره .

- أما العقبات الادبية (أو العلمية) فكون دراستي - على تقديري وحسب ما تحت يدي من مراجع - دراسة بكر لم أسبق اليها ولو بمقال ، مما جعلني أشعر بعظم ما أنا مقدمة عليه ، وكثيرا ما اعتبرت دراستي للديوان ارتجالا ، أسأل الله أن يأتي بعدي من يقومه ويكمل نقصه .

ولا أعني اذ أشير الى هذه الصعاب أن اشتكي منها ، لأن طبيعة أي بحث أو على تتطلب ذلك ، بل انني وجدت لذة - هي لذة الباحث العلمي - في تتبع تلك العقبات ومواجهتها وتحديها ، وقد اجتزتها بتوفيق من الله بما بثه في من حب للطلب الدائم والصبر ، وقد علمتني هذه الصعاب كثيرا ، وأكسبني تحديها صداقات علمية وأدبية ماكنت أحلم بها أو خطرت لي على بال ، ولله الحمد والشكر أولا وأخيرا .

الشكر والتقدير .

أبدأ بالشكر لأستاذي المشرف الذي كثيرا ما دغدغني بمنهجيته القويمة وصرامته في البحث العلمي ، ولكل الأساتذة الذين أناروا سبيلي بتوجيهاتهم .
وأثني بعطر المكتبات الذين لم يألوا جهدا في امدادي بكل ما احتاج اليه وبتوجيههم وسؤالهم التطييب ، الى حدّ أشعروني أن الذي أنجزه هو بحثهم أيضا الذي ينتظرون صداره بفارغ الصبر وقد كان هذا حافزا آخر لواظبتي .
وأخص اخواني بمكتبة الجامعة الاسلامية ، وبمكتبة الجامعة المركزية بقسنطينة اذ عاملونا من فيها وكأننا أبناءها ولم يبخلوا علينا بشيء ، وكذا القائمون على مكتبة مسجد الآداب واللغة العربية بمعهد الساسي - هذا ولا أنسى المكتبات الخاصة وعلى رأسها مكتبة الضياء التي وجدت فيها كل المساعدة .
وأشكر الدكتور بعاوية اقبال الذي أوصل ندائي لأكاد بعيدة اقبال بباكستان التي ظل القائمون عليها على صلة بي الى يومنا هذا ، وظللت أتلقى منها ما يصدر عن اقبال ، وأسرلا ادراكها لي بأنه يسوان لما كانت هذه الدراسة .
كما أشكر السفارة الباكستانية في كل من الجزائر والقاهرة ودمشق على ما تلقيته منها من مساعدات ، والسفارة الايرانية بالجزائر فقد زوّدتني بقواميس استعنت بها على الترجمة ، وكل من ساعدني على طبع هذا البحث واخراجه ، هذا ولا أنسى شقيقتي التي طالما أعطتني من وقتها الثمين بترجمتها لكل ما احتاج اليه من اللغتين الفرنسية والانجليزية .
أخيرا لا يسعني الا أن أشكر كل من ساعدني في هذا العمل بكتاب أو نصيحة أو تشجيع أو دعاء بالتوفيق في ظهر الغيب .
شكرا لكل من أمدني في هذا البحث ولو بكلمة .
وجزاهم الله الجميع عني خيرا .
أسأل الله أن أكون قد أعطيت البحث حقه من الدراسة والعناية وأن أكون قد أفدت به وبلغت غايتي .
((وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)) .

الطالبة : سكينة قدور .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الوجود البريطاني و الحركات الإصلاحية الإسلامية في شبه القارة .

تمهد : طبيعة المجتمع الهندي

1- الإسلام و صراعه مع الهندس

2- الوجود البريطاني في الهند

3- المدارس الإسلامية ودورها في بعث الوعي

4- المسلمون و الحركات التحررية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طبيعة المجتمع الهندي

تمهيد :

اذا فتن العالم بالشرق عموما فان فتنته بالهند بلغت أوجها فهي سحر الشرق ومرتع الخيال فيه ، وطن الغموض وينبوع الحكمة والغنى الروحي .

وقد كانت الهند وماتزال حلم المغامرين ،ونشوة السائحين ،ولاسيما في بلاد الغرب . بل أن سحرها طغى على الفكر البشري إلى حدّ اختلط في ذهن الرجل الاوربي الشرق بالهند ، وغلطت غيرها من بلاد الشرق الاخرى ، ربما الأكثر فتنة . واستقر في الافهام أن الهند هي الشرق ولا وجود لغيرها . وليس الأمر بعجيب في بلد امتدت أطرافه وترامت واختلطت فيه الاجناس وتباينت ظروفه الى حدّ التضاد (1) .

وحتى جغرافية الهند توحي بالسحر ، فأرضها أشبه ماتكون بثمرة الكمثرى ،أو كما يقول الهنود عنها "جامبو دفيبا" (2) .

تقع شبه القارة الهندية في آسيا الجنوبية ،وهي عبارة عن مثلث غير منتظم السيقان قاعدته جبال هملايا وقمته رأس كومورين . يحدها من الشمال سلسلة جبال الهملايا ،ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان ، حيث تقع أفغانستان وايران وخليج العرب ،ومن الشرق خليج البنغال ويحيط بها من جهتين نهر الاندوس وبراهما پوترا ، ويحدّها من طرفها الجنوبي سيلان ،كما أن الاقليم الشمالي منها يتجه الى الشرق حتى جبال آشام . ومن أشهر جبال القارة الهندية جبال "هملايا" ،جبل "ساندكوه" وجبال "عنبر" و"الوار" . أما أشهر أنهارها فنهر "الكانك" (الغانج) "وبراهما پوترا" "والسند" "والكاتيا" "والتابتي" . ومن أشهر بحيراتها "نايميتي تال" "وسُيرناجار" "والديبار" ، وهي من أشهر مخازن الماء في العالم .

---

1 ـ فباكستان الشرقية مثلا أشبه بجنة فيحاء ، في حين أن باكستان الغربية أقرب الى صحراء جرداء ... (محمد حسن جوهر ، باكستان ،ص 5)

2 ـ محمد اسماعيل الندوى ـ الهند القديمة حضارتها وديانتها ، دار الشعب بمصر 1970 ،ص 11 ، والهند شعبها وأرضها ـ ماثوراما مودا ك... ـ مكتبة النهضة المصرية 1964 ص 25.

ـ والجانبو ثمرة تشبه الكمثرى ،ودفيبا تعني الجزيرة (الوجعين نفسها)

ومناخ الهند من أكثر المناخات قبولا للأبحاث الجوية نظرا لجبالها الكبيرة المتراصة وتعرضها لكثير من التيارات الهوائية، الى حد كاد تأن تحتوى فيه مختلف درجات الحرارة في العالم، وقد تبع تنوع المناخ فيها تنوع النباتات[1].

هذا وان ارتباط الهند بتاريخ عريق امتد الى آلاف السنين قبل الميلاد أضفى على طبيعتها سحرا آخر، فتلك السلسلة الجبلية هملايا فرضت قداستها على الشعب الهندي، فكانت عندهم ملاذا للشعراء وملجأ للالهة، سماها بعضهم رب اللوج وأبلغها اتصالها بالاساطير القديمة مقام الاله "فشنو"[2]، ففيها تنسك "سيفا" (اله الدمار) وعندها تترك الودائع والاحبة[3].

ولعل ذلك ماحدا بالشعراء الى اعتبارها كائنا حيا. وهذه الجبال نفسها تثير في النفوس معاني تجربة روحية تجعل فصل هملايا عن تصورات الكون والاساطير والخرافات الهندوسية والبوذية ضربا من الخيال. فقد ترسخ في ذهن الهندي أنها أصل العالم ومركزه، وغدت بعد ذلك مركز الشعر والتصوف الهندي وفحل الشعراء الذي لاينضب.

ومن الثلوج المتراكمة على سفوحها تتلقى الأنهار وتفيض بخيرها على الشعب الهندي، فمنها ينبع نهر "الغانج" الذي سمّاه أبناء البلاد "كانكا ماتا" (Ganga Mata) أي "الغانج الام" ومن أعظم أمنيات الهنادك القيام برحلة الى منابعه لمقابلة رجال الدين المنتشرين حوله. والناس يحبون هذا النهر لخيره العميم، ولاتصاله بالجبل المقدس عندهم، ثم لارتباطه بتلك الاسطورة التي جعلت منه فرعا من فروع "كنك" الجاري في الجنة، وهم يعتقدون

---

1 - محمد فريد وجدي - دائرة معارف ق20 مجلد 10، دار المعرفة بيروت، ط 3، 1971، ص540 - 541.

2 - روجيه غارودي - حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات لبنان، ط 1978/81 ص114 (فشنو اله الحفظ أما سيفا فاله الدمار (Petit larrousse,1966).

3 - لويس رينو - الادب الهندي - ترجمة بهيج شعبان - دار بيروت 1955، ص27.

أن من جرى عليه ماؤه غفرت كل خطاياه"[1].

وان طائفة منهم يريدون أن تحرق جثتهم على شاطئه وأن يلقى برمادها في مياهه من أجل دورة حياة جديدة في اعتقادهم . وهم يغتسلون فيه إيمانا منهم بأن مياهه تغسل عنهم خطاياهم وتقربهم الى الله . وعن نهر الغانج تتفرع روافد كثيرة منها نهر "الجمنا" الذي يلتقي به عند مدينة "الله آباد" وهو ثاني الانهار المقدسة عندهم[2] وشبه القارة الهندية غنية بعدد نهرها القديمة التي تشهد على تاريخهما القديم وعلى الشعوب الكثيرة التي أبت الا أن تساهم بحظ وافر في تشكيل طوائف الهند وبناء حضارتها ، فقد قصدها الفينيقيون واليونان واللاتينيون والجرمانيون والايرانيون[3] والذي يمكن استنتاجه من هذه الاجناس البشرية المختلفة التي دخلت البلاد ، أن الهند أغرت بثرواتها من أحجار كريمة وعطور وأفاويه الشعوب التي أمتها وكان بريق الثروة سببا مباشرا لوقوعها في قبضة استعمار البريطاني الا أن اقبال المسلمين عليها تنزه عن مثل هذه الطامع ، ذلك أنهم قوم استجابوا لنداء ربهم وحملوا على عاتقهم تبليغ رسالة الاسلام ، والحقيقة أن صلة البلاد العربية بالهند تعود الى ماقبل الاسلام ومن مظاهر تلك الصلة وجود عشرات من الكلمات الهندية في اللغة العربية أشهرها مسميات البضائع الهندية التي تسربت من البلاد العربية ، وعدلت حتى تلائم طبيعة اللغة العربية تلك المسميات "المسك" وأصله في السنسكريتية "مشكا" و"الليمون" وأصله فيها "ليمو" و"الكافور" ، وأصله "كاربورا" ، و"الصندل" وأصله "چندن" ، و"التارجيل" وأصله فيها "نارگيلا" ، و"الفلفل" وأصله "پيپيلي"[4] ، ولا يخلو الشعر العربي من هذه المسميات كما لايخلو القرآن الكريم منها .

---

1 - البيروني - تحقيق ماللهند من مقولة - طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - الدكن - الهند 1377 ، 1958 ، ص 463 .

2 - مانورما سوداكر - الهند شعبها وأرضها ، ص 35 - 36 وحوار الحضارات ص 115 - 116 .

3 - محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ط 1 ، ص 36 .

4 - القاضي أطهر المباركبوري - العهند والعرب في عهد الرسالة - ترجمة عبد العزيز عزت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 1973 ، ص 31 - 41 .

أما السيوف الهندية فنالت شهرة واسعة في البلاد العربية لجودتها فقالوا هندي ومهنّد وهنداوي للسيف المصنوع من حديد الهند ومنه اشتقوا هنّد السيف (أي شحذه) وقالوا : كل حسام محكم التهنيد[1] وهذا يؤكد عمق الصلة بين الهند والبلاد العربية والتي ظلت قائمة الى ما بعد ظهور الاسلام ،ولكن الطابع الغالب عليها آنذاك كان تجاريا ،فقد كانت بضائع الهند تفد الى البلاد العربية ومنها تسوق الى مختلف بلاد العالم .

أما بعد ظهور الاسلام ،فان عامل الدين تسرّب اليها في البداية مع التجار المسلمين ووصل الى شواطئ ملبار[2] ، ثم كانت بعد ذلك الفتوحات الاسلامية لها ،وكان فتح محمد بن القاسم الثقفي عام 93 هـ (711 م)[3] ،وتعاقبت بعد ذلك الاسر المسلمة على الهند (الغزنويون ، الغور ، المماليك ،الخلجيون ، الطغلقيون ،اللوديون ، المغول) وكل أمر البلاد أخيرا الى شركة الهند الشرقية ثم اسفرت هذه الاخيرة عن الاستعمار البريطاني .

وإذا خبا نجم الامبراطورية الاسلامية في شبه القارة الهندية فان جهود أبنائها لاتزال تذكر منذ القرن الأول الهجري . وأمام التضحيات الجسام التي قدموها للدولة الاسلامية الجديدة نجد من يصفهم بالطمع والجشع[4] ، ولو طمع المسلمون في أموال الهند لما فكروا في تعميرها ولما فرّطوا في الاهل والأوطان ،لقد أقاموا في الهند من غير رجعة من أجل خلق مجتمع إسلامي جديد آمن مستقر ، فكيف ينهب المسلمون خيرات البلاد والى أين تحمل وقد استقر بهم المقام فيها ، لاشك أنها تعود على الهند وشعبها بعد ما كانت مكدسة في المعابد .

---

1 — محمد اسماعيل الندوي — تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ،ص 37 .

2 — المرجع نفسه ص 16 .

3 — البلاذري ،فتوح البلدان — محقق ، دار النشر للجامعيين 1377 هـ (1957م) ص 612 .

4 — انظر على سبيل المثال الهند شعبها وأرضها ص 115 — 121 . وتاريخ الحضارات العام ص 581، وقصة الحضارة ج 3 ، مجلد 1 ، ص 287 .

وأن غير المسلمين اعترفوا لهم بالفضل على الهند وتعبيها إشال جواهر لال نهرو في كتابه(DISGOVRY OF INDIA) والباحث الهندي ك م ـ پانيكار (1).

أما المؤرخ الغربي جون پول فقال : " اتفق كثير من المستشرقين على أن الاسلام لم يهدم المعالم الهندية بل أعطاها رونقا واضحا ... وبفضله تحققت في شبه القارة وحدة سياسية متكاملة . (2) وقال المؤرخ المعاصر ن ـ س ـ مهتا (N.C.MEHTA) في كتابه الحضارة الهندية والاسلام : " ان الاسلام قد حمل الى الهند مشعلا من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الانسانية في عصر مالت فيه الديانات الى الانحلال والتدني ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية ، لقد كانت فتوح الاسلام في عالم الافكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة " .(3).

---

1 ـ الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص126 ـ 127، و الندوي تاريخ الصلات بين الهند و البلاد العربية ص40.

Jean paul, L' ISLAM ENASIE , B. HISTORIQUE, PAYOT, paris, P131-2

3 ـ الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص127.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

١ ـ الاسلام وصراعه مع الهندوس .

عاش المسلمون والهنادك في شبه القارة الهندية جنبا إلى جنب ينعمون في ظل الحكم الاسلامي منذ الفتوحات الأولى بالأمن والاستقرار ، من دخل من أبناء البلاد في الدين الجديد فله ما للمسلمين ، ومن بقي على دينه لم يرغموه على تركه والدخول في الدين الجديد ، وأما الدماء المسفوحة على أرض الهند والحروب العنيفة ، التي حمي وطيسها فأمر طبيعي لأن أبناء البلاد لم يعرفوا بعد طبائع أصحاب الدين الجديد ولم يطلعوا على حقيقة حملته الذين تحملوا في سبيله متاعب السفر والموت وفراق الاهل والوطن .

ثم إن النفس البشرية ميالة للذود عن ديارها ، نافرة من كل دخيل .

وما أن اطلع الاهالي على الاسلام وأهله حتى أقبلوا عليه من مختلف الطبقات الاجتماعية ، أما من بقي منهم على دينه القديم فقد خص الاسلام وأهله بالتقدير والاحترام . فعاشت الهند الاسلامية والهندية جنبا إلى جنب ، بعد امتزجتا وتفاعلتا لتطبع الهند في الأخير بطابع الحضارة الاسلامية الهندية ، فقد كان المسلمون يحترمون رهبان الهند وحكماءها وعلماءها ويدرسون فلسفاتها ، والهنادك يحترمون علماء المسلمين وأولياءهم ويحتفلون بالأعياد الاسلامية (1) لما وجدوا في الشعب الفاتح والجار الجديد من سماحة ومثل سامية . ومع وجود مقاطعات وإمارات تحت حكم الهنادكة ، فان ذلك لم يكن مدعاة لإثارة الفتن . فقد اذن لهم الحكام بالاستقلال الذاتي مع الولاء للسلطة العليا في البلاد بالاشراف على أبناء جنسهم حتى يتسنى لهم القيام بطقوسهم الدينية وعباداتهم وما أكثرها بحيث لو تفرغ لها الواحد منهم ليل نهار لما أكملها .

---

1 ـ حسن أحمد محمود ـ الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ـ دار النهضة العربية ط 1968 ص 235 ـ 236

ولكن على الرغم مما في العقائد الهندوسية من خرافات وأوهام هي أقرب الى زمن الاساطير ، أبسطها وأيسرها استعدادهم لقتل مئات أو ألوف من البشر اذا بلغهم أن بقرة ذبحت ، على الرغم من ذلك عاشوا مع المسلمين وتحت حكم المسلمين من غير أن يسجل لهم التاريخ مذابح كالوصمات التي سجلها لهم التاريخ الحديث والمجازر الشنيعة التي حفظها لهم ، واذا علم أن الهندوكي يعتبر الناس جميعا أنجاسا لايجوز الدنو منهم أو ملامستهم أو مؤاكلتهم ، ولكي يخاطب هندوكي مسلما فلابد عليه من الاغتسال وتغيير الثياب حتى يتطهر ويحق له بعد ذلك ممارسة أعماله الدنيوية كالأكل والشرب . اذا علم ذلك ازداد التعجب واتسعت مساحة التساؤل عن الزمن الذي عاشه المسلمون والهنادكة ولم يسمع فيه عن صراع بين الفئتين .

ولقد كان المسلمون في الهند تجارا ومزارعين ورجال دين وحكاما ، ولا مندوحة لاختلاطهم بأوساط الهنادك ، ثم أن التاريخ سجل أن من الهنادك من دخل في سلك الوظائف الحكومية وفاز بأعلى المناصب ، ومنهم من دخل المدارس وجلس فيها مع أبناء المسلمين دون أن تقوم بينهم صراعات أو مجازر كالتي يحمل عصر التقدم الينا أنباءها ، اللهم الا ما كان يقع بين الحكام من حروب وثورات على الملك بعيدا عن الشعب ومنشأى عن التعصب الديني والطائفي . هذا وان أشد الحكام المسلمين نصرة للدين وتعصبا له كان أشدهم حرصا على الرعية وأكثرهم عدلا بين الناس وارأفهم بهم . وان كانت السياسة التي اتبعها المسلمون في الهند سببا في اطفاء أي صراع وفي خلق جو من الهدنة فان صمت الهنادك وطاعتهم ومسالمتهم انما كان بسبب طبيعة الدين الجديد وسمو مبادئه وتمكنها من نفوس المسلمين الفاتحين (قادة وحكاما وعامة الناس)

هذا السعي جانب المساعي الحميدة التي بذلها الحكام المسلمون منذ دخولهم الهند والتي تعددت أشكالها في عهد أباطرة المغول في سبيل تقريب الهوة بين أهل الهند جميعا وبناء أمة واحدة .

ومن أباطرة المغول من أباح لنفسه الزواج من هندوكية وما لهذا كتاب، ومنهم من أكرم الهنادك بالوظائف الحكومية السامية والقيادات وعهد اليهم بمهام ذات شأن في البلاد، ومنهم من رفع عنهم الجزية رأفة بهم، بل ان الحكام تركوا للأهالي حرية الاعتقاد وحموا معتقداتهم. وكان ان جنى المسلمون ثمرة تسامحهم فيما بعد، عندما مال سلطانهم نحو الافول وحلت بهم النوائب وفقدوا مرافقهم وقوتهم ونروتهم، رد لهم الهنادك أحسن صنيعهم بأضعاف مضاعفة من الكيد والخيانة والمكر والتقتيل والتشريد، فما ان ضعف سلطان المسلمين وتقهقر أمام الاستعمار الانجليزي للهند حتى قلب لهم الهنادك ظهر المجن وراحوا يكيلون لهم المكائد مقابل أطماع زهيدة. ومما يجب الاشارة اليه أن العقائد الهندية لا يمكن أن تخلق وحدها مثل ذلك الصراع العنيف الذي نشب بين الفريقين والعداء الفاحش الذي اشتعلت ناره، خاصة وأن الصراع لم يظهر الا مع بداية الوجود الاروبي، بل ان للوجود الغربي يد في العمل على تقويض الامة الهندية وخلق طوائف متضادة يصعب اجتماعها على أرض واحدة وتحت حكم واحد.

فمنذ أن وطئت أقدام الاروبيين أرض الهند وهم يثيرون الفتن ويدفعون بأبناء الهند الى التناحر، وقد كان الانجليز اشدهم جميعا الى الحد الذي يمكن فيه اعتبارهم الباعث الاول للشقاق الناشب بين الطائفتين. وليس هذا فهم من وراء ذلك الهندوس، وانما ملاحقة المسلمين واضطهادهم لأنهم كانوا أول من حمل لواء المقاومة اذ دفعوا بكل مايملكون في الحرب الاخيرة التي أطلقوا عليها اسم المحنة الكبرى (1857)(1) لما شهدوه فيها من رعب وهول لم يسبق لهم أن رأوا له نظيرا، ولم يبق لهم من الاملاك مايعادل الخمسة بالمائة من عامة أملاكهم في الهند، بعد ما استولى الانجليز على بعضها و أهدوا البعض الآخر للهنادك، ثم أن الانجليز استولوا على المورد الوحيد المتبقي لهم وهو الاوقاف(2).

---

1 ـ د / أنور الجندي، العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، دار المعرفة ط 1، 1970، ص 105.

2 ـ د / عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند، مكتبة وهبة، مصر ط 1، 1384 هـ، 1964 م، ص 28.

واتبع السيخ والمراتا (1) كيد الهنادك فانقضوا على المسلمين يهزأون بدينهم ويسومونهم سوء العذاب على مرأى من الحاكم الجديد (بريطانيا) ولاساكن فيه يتحرك، ولا محاولة منه لوضع حد للمجازر التي لامبرر لها سوى العداء الصريح للمسلمين، واتحاد جميع الفئات والطوائف ضد المسلمين، وقد تعمد الاستعمار الانجليزي تقويض أركان الاسلام في الهند وتحويل مايمكن تحويله من أبنائه عن دينهم، ولما تيقنوا من بعد هذه الغاية فقد رأوا أنه من الخير للسياسة التبشيرية والمخطط الاستعماري أن يتقربوا الى الهنادك ويفتحوا لهم المدارس والوظائف العالية، بينما يظل المسلمون بعيدا عن الميدان، لأنهم قاطعوا كل ماله صلة بالمستعمر وانزووا بعيدا عن التعامل مع الحكم الجديد وحاق بهم التأخر والانحطاط والجهل والانغلاق على أنفسهم وهجر كل ماله صلة بالانجليز (2) وازداد صمتهم بعد ثورتي 1863 ـ 1868.

وهكذا أخذ التصدع ينخر جسد تلك الامة التي ضحى في سبيل وحدتها حكام الهند المسلمين بالاموال والأرواح وتمكنوا الى حد ما من لم شملها، وكان لهم الفضل على البلاد وأهلها، وهي التي كانت يوم دخلوها طوائف وشيعا وأجناسا مختلفة وكانت لهم اليد الطولى في خلق طوائف من الناس من أهل البلاد تعيش متسالمة متحابة، متعارفة بعد التقاطع والتدابر، تعارفا لم تذق طعمه فيما غبر من الدهر ناسية ماكان بين بعضها والبعض الآخر من الاحن والشحناء (3).

وفي بلد كثرت فيه الديانات كثرة شعبه واتساع ساحته كالهند لم يقتصر الصراع على الهندوسية والاسلام وان كان أشده وأعنفه، وانما امتد ليشمل ديانات أخرى اتخذت من الاسلام عدوها الوحيد مثل المسيحية.

---

1 ـ السيخ طائفة مذهبية في الهند أسسها گورو نانک (guru nanak) في القرن الخامس عشر الميلادي، كتابهم الديني گرنته (granth) يؤمنون بالله ويعتقدون التناسخ الارواح، تدل على تقاربهم مع عقائد المسلمين ويرى الدارسون أن مانشأ من تباعد انما كان بسبب كل طائفة بالاخرى. (فصول في تاريخ الحضارة الاسلامية، طه ندى، ص202 ـ 203 وفرهنگ عميد).

2 ـ د/ عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند ص41.

3 ـ لوثروب ستودارد ـ حاضر العالم الاسلامي ـ مجلد 2، جزء 2 دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 1394 ـ 1983، ص 132.

وحتى الهندوسية نفسها لم تكن العقيدة الجامعة لمن ليس له دين آخر . فقد احتار الهنادكة في تعريفها ولم يجدوا لها سوى تعريفا سلبيا لايرسم معالمها فقالوا : "ان كل من يمكن الهند وليس هو من أهل الديانات الاربع المعروفة أي البوذية والمسيحية واليهودية والاسلام ويقدس البقر فهو هندوكي . (1). وهو تعريف فضفاض اضطرهم الى اصطناعه وجود أناس ينتمون الى الهندوسية مثل السيخ ، كما اضطرتهم اليه رغبتهم في لم الشعثات الباقي في الهند ليشكلوا لانفسهم قوة الاتباع .

والزعيم "غاندي" و "ولكانند" من الذين أجازوا ضم الفئات التي لا تؤمن بما لويدا الى الديانة الهندوسية ، قال غاندي محاولا ضم كل من لا اعتقاد له : "من حسن حظ الديانة الهندوسية أنها تخلت عن كل عقيدة ولكنها محيطة بجميع العقائد الرئيسية والجواهر الاساسية للاديان الاخرى" (2).

ولكن الهندوسية مع كل هذه التساهلات وجدت منافسا قويا اجتذب بقيمه ومثله العليا الكثير من أبنائها رغم رسوخ قدمها في التاريخ ، ولعل هذا عامل آخر من عوامل كره الهنادك للمسلمين خاصة وأن الاسلام لم يقتصر على الطبقات المنبوذة التي يمكن اعتبار دخولها الدين الجديد اضطرارا ، اذ فيه خلاصها من مرارة التمييز الطبقي في عقيدتها ومن بقائها منبوذة الى الابد ، فقد دخل فيه الاسياد والحكام واطمأنوا اليه ، لذلك فان الهنادكة لا يغتفرون للمسلمين شيئا واحدا وهو أن الاسلام ببساطته ونقائه ويسره جلب اليه ويجلب كل يوم آلاف الناس يقبلون عليه طائعين مختارين .

وقد استمرت ساحة الصراع الديني محتدمة بشكل جلي بين المسلمين والهنادك ، يدفعهم المستعمر الى التناحر كلما سنحت الفرصة الى ذلك ، والهدف ابادة العنصر المسلم الذي هو على كثرته أقلية قليلة وسط أغلبية هندوسية متعصبة (3)

---

1 ـ د / احسان حقي ، باكستان ماضيها وحاضرها ، دار النفائس ، بيروت ، ط1 ، 1393 ، 73 و 1 ، ص 114 .

2 ـ مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، عدد 2 ، سنة 2 ، 1389 هـ ، ص 115 ـ 117 .

3 ـ اذ يمثل المسلمون ربع سكان الهند .

واذا كان من علامات تعصب الهندوكي وشعوره المقيت تجاه المسلم أنه لا يأكل في وعاء أكل فيه مسلم ولا يشرب من اناء شرب منه مسلم من قبل ولو عقم وغسل آلاف المرات، وليس القصد من الاكل والشرب اجتماع المسلم والهندوكي على اناء واحد، لأن ذلك غير وارد عندهم على الاطلاق ـ وانما القصد منه أن كل ما مسّه المسلم واستعمله يبقى نجسا الى الابد ولا يجوز مسه ولا سبيل الى تطهيره (2)، ولو من نهر الخانج نفسه. وهذا ما يعيد طرح التساؤلات السابقة مرة أخرى، كيف عاش الهنادك والمسلمون قرونا دون أن يظهر شعور من هذا النوع، وكيف نفسر تصرفات الهنادك الخطيرة وتعاونهم مع الاستعمار البريطاني وتآمرهم معه ضد المسلمين نعود فنقول بأن الاستعمار الانجليزي هو صاحب الدور الاكبر في هذا المجال.

---

1 ـ د/احسان حقي ـ باكستان ماضيها وحاضرها، ص 121.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 ـ الوجود البريطاني في الهند :

اجتازت أخبار الهند وسحر خيراتها البحار والمحيطات وطرقت بباب الاوربيين فكانت صناعات الهند مع أنها تقليدية الاولى في العالم، مثل الاقمشة القطنية، النيلة، الوسليت، القطيفة، العطور، الخزف والورق (1) هذا الى جانب التوابل والشاي والاحجار الثمينة التي كانت اوربا تدفع الكثير في سبيل الحصول عليها، اذ لم تكن لتصلها الا بعد المرور بالبحر الاحمر وموانئ الخليج الفارسي . وهذا يدل على أن تجارة المحيط الهندي كانت في أيدي المسلمين وهو ما حدا بالاوروبيين الى أن يبحثوا عن سبيل للاتصال المباشر بالهند وموارد ها دون وساطة المسلمين .

وكان أول اتصال بحري مباشر بين الهند وأوربا عام 1498م عندما وصل فاسكو دي جاما الى ميناء سيالكوت(2) ثم احتل البرتغال "ملقا" من جزر الهند الشرقية عام 1511م وراحوا يثيرون الفتن بين المسلمين والهندوس ليخلو لهم جو التجارة لاسيما وأن البلاد كانت مقسمة الى امارات لايضطر حكامها سوى الى الحدود الضيقة التي تفصلها عن غيرها (قبل تأسيس الامبراطورية المغولية) .

وقد حصلوا على تصريحات من أولئك الامراء لانشاء شركات تجارية على سواحل الهند ، وانفردوا بخطوط الملاحة العالمية الموديه الى الهند مايقارب قرنا من الزمان (3).

وقد رحب بعض سلاطين المغول بالبرتغاليين وأعطوهم امتيازات عديدة كاستمال السلطان جلال الدين محمد أكبر (963 ـ 1014هـ/ 1605 ـ 1605م) والسلطان نور الدين محمد جهانگير (1014 ـ 1037هـ/ 1605م ـ 1627) (4) ، في حين ردعهم شاهجهان (1037 ـ 1067هـ/ 1628 ـ 1656م) لتجاوزهم حدود التجارة (5) .

1- JAQUES DUPUS, HISTOIR DE L'INDE , PETITE Bibliotheque, payot P 117

2- و ل ديورنت ، قصة الحضارة ، الهند وجيرانها ترجمة زكي نجيب محمود ، ج 3 ، مجلد 1 طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط 3 ، 1968 ، ص 401 .

3- JAQUES DUPUS, HISTOIRE DE L'INDE , P. 158.

4 ـ ففي عهد جهانگير أسست شركة الهند الشرقية البريطانية (1615م)

أحمد الساداتي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة ، ج 2 ، ص 143).

5- جمال الدين الشيال ، تاريخ دولة أباطرة المغول الاسلامية في الهند دار المعارف ، مصر ط 1 ، 1957 ص 279 ،

الا أن الامبراطورية المغولية لم تعمر طويلا تحت ضربات القوى البحرية الاخرى وتحولت الى ملكة تابعة للملك الاسباني فيليب الثاني (1).

ولم تضعف التجارة الاوروبية في الهند بضعف البرتغال، حيث حل الهولنديون محلهم، كما أقبل الفرنسيون والدانماركيون على سواحل الهند وطفقوا ينشئون المؤسسات التجارية، فأسس الهولنديون شركة مازي ليباتام (MASILIPATAM) عام 1606 م كما أسس الدانماركيون شركة بشمال كاريكال (2).

الا أن أهم نشاط على السواحل الهندية على الاطلاق هو شركة الهند الشرقية التي أسست عام 1600 م (3)، وعند ذلك الحين والبريطانيون يتقربون الى الحكام ويحصلون على الامتيازات ويقيمون المراكز التجارية (في سورات، برهانبور، أجمير، أكرا، كمبات ...) (4)، وما أن حل عام 1647 م، حتى أصبح للشركة عشرين مركزا تجاريا. وعلى الرغم من جهود الاوروبيين التبشيرية في الهند فانهم لم يظهروا رغبة في الاستيلاء على البلاد الا عام 1686 م حين أعلنت شركة الهند الشرقية عزمها على اقامة مستعمرة انجليزية واسعة في الهند (5).

ولم يرق البريطانيين ان يروا منافسين لهم وخاصة الفرنسيين، فسعوا لزحزحتهم وأقنعوا لويس الخامس عشر باستدعاء حاكم شركة الهند الفرنسية، فخلا لهم الجو بعد ذلك (6)، وفي غفلة من سلاطين الهند وأمرائها كان تجار الغرب يشيدون القلاع ويبنون الحصون ويدربون الجنود، ولم يتوان رجال شركة الهند الشرقية عن انارة الامراء ليصفو لهم الجو.

وبعد أن تيقنوا من ضعف الحكام بدأوا بمنازعتهم، فكان لهم أن استولوا على مقاطعة البنغال عام 1757 م (7) ومن ذلك الحين غرق الانجليز في النهب الذي لم يرق حتى أبناءهم، قال ريتشارد بيكر في رسالة الى سادته بلندن عام 1769 م: " لابد أن يحز في نفس اي انجليزي أن يكون لديه من الاسباب مايدعوه الى الظن بأنه منذ تولت الشركة جمع الديواني صارت أحوال

---

1 - عبد العزيز سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، دار النهضة العربية بيروت، 1973، ص 546 - 549

2 - JAQUE DUPUS, HISTOIRE DE L'INDE, P.186

3 - ول ديورانت، قصة الحضارة، المرجع السابق، ص 402.

4 - محمد حسن الاعظمي، فتى الهند وقصة الباكستان، دار الفكر العربي القاهرة ص 313.

5 - الندوي (محمد اسماعيل) تاريخ الصلات، مرجع سابق، ص 246.

6 - الساداتي تاريخ المسلمين في شبه القارة ج 2 ص 224 و

7 - [illegible]

الناس في هذا البلد أسوأ مما كانت عليه من قبل ... فلا ن في هذا البلد البديع الذي كان يزدهر تحت أشد الحكام استبدادا وتعسفا أخذ يتدهور على الدمار . (1)

ومع هذا الفوز لم يبادروا لاحتلال البلاد ، فقد كان عليهم أن ينتظروا قرنا من الزمن يعكفون فيه بنزام الامور ، ولكن قرن الانتظار هذا لم يخل من تدبيرات وانتصارات ، كما لم يخل من التوسع وبسط النفوذ على مناطق كبيرة ، فما بين 1817 - 1830 عقدت معاهدات عديدة كلها لصالح الانجليز كما سماها ولنجتون ، "معاهدة مع صفر على اليسار" (2) .

وبعد أن دعم البريطانيون وجودهم وصرفوا انظار المنافسين عن صيدهم الثمين أيقنوا أن النصر حليفهم ، ففي ذلك القرن من الزمن أسسوا بحد السيف حينا وبالحيلة والدهاء أحيانا سلطة لا تنازع ، امتدت من السند الى البراهما پوترا ومن الهملايا الى رأس كومورين ، وأصبحت الشركة التجارية سيدة البلاد بلا منازع ، حينها أيقن الشعب الهندي المنهك القوى أن الانجليز يريدون احتلال الهند كلها حكاما ومبشرين ، فهبوا عن بكرة أبيهم مسلمين وهندوس في العاشر من ماي 1957 م وتدفقوا كالسيل العارم على تلك الثلة من الانجليز فقطعوا بعض كبار ضباطهم ، الا أنهم استطاعوا فيما بعد بالشدة والاغراء تشتيت شمل المجاهدين في السابع عشر من سبتمبر من السنة نفسها ، فاستسلم الناس في يأس شديد بعد فشل المحاولة الاخيرة .

وهكذا أزيح الستار عن الشركة التجارية ، وانسحبت بعد ما بنت أمبراطورية الهند وتوقفت ادارتها رسميا عام 1858 م لتتولى الحكومة البريطانية الادارة المباشرة للبلاد .

هذا عن الجانب السياسي المشحون بالحروب والمؤامرات ، أما الجانب الثقافي الحضاري فمما لا شك فيه أن الثورات لم تترك مجالا لعمران البلاد

---

1 - ك ، م بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد توفيق دار المعارف ، مصر ، 1962 ، ص 103 .

2 - المرجع نفسه ص 150 .

ولا لاقامة التعليم فيها أو تطوير صناعاتها ، بل ان حروب الانجليز على جبهات مختلفة كانت سببا في القضاء على ماخلفه الحكام المسلمون وبخاصة المغول - من معالم حضارية - .

ولعل مايمكن اعتباره مساهمة من الانجليز في بناء الحضارة الهندية ماكان بعد عام 1858م ، ثم انها كانت عفوية لم يقصدوا من ورائها ارساء دعائم اقتصاد البلاد ، بقدر ماقصدوا ارساء دعائمهم في الهند ومد أيديهم الى كل مايمكن أن تدر به الهند ، فالمدارس والجامعات للتغريب ، والسكك الحديدية للتحكم في بضائع البلاد ...

وفي لمح البصر تحول الاقتصاد الهندي الى أيد بريطانية جعلت من البلاد سوقا احتكارية ، وسوقا رائجة بالبضائع البريطانية التي حاربت الصناعات الهندية المشهورة وأغرقت السوق الهندية بسيل نتاج الثورة الصناعية . وأبعد تالغة البلاد الرسمية لتحل محلها الانجليزية ، والشريعة الاسلامية ليحل محلها القانون الانجليزي في حين تبقى الشريعة مقتصرة على الاحوال الشخصية .

وتحت وطأة هذه الظروف القاسية صار من أحب المواضيع الى مثقفي الهند وكتابها وصحفييها حال الهند وفقرها ونزيف ثرواتها ، من ذلك الدراسة التفصيلية التي قام بها داد نيد هاى ناوروجي أحد زعماء الحركة الوطنية الهندية ، واختار لها عنوان « الفقر والحكم غير البريطاني » ، وهو يقصد - في تهكم - بغير البريطاني الظالم لأن بريطانيا كثيرا ماعلقت شعارات العدل وتسمت بالعادلة « BRITISH RULE » وبأسلوب تهكمي كشف الكاتب حتى من خلال العنوان بأن مالحق بالشعب الهندي لم يكن الانجليز طرفا فيه مادامو يرفعون شعارات العدل .

3 - المدارس الاسلامية ودورها في بعث الوعي :

اينما حلّ المسلمون حلت معهم المدارس وتهافت الناس على طلب العلوم ، لأن تعاليم الاسلام الشاملة جعلت من كل مرافق حياة المسلم مدرسة يتلقى فيها مبادئ دينه وقد أوجدت المدرسة الاسلامية لنفسها مكانا وسط مدارس الهند العتيقة وجامعاتها الضاربة في أعماق التاريخ منذ أول يوم وطئت فيه أقدام المسلمين الهند ، ونافست تلك المدارس وفاقتها ، ومن تلك المدارس الاسلامية العديدة ، نذكر على سبيل المثال مدرستي "بامبان" (589 هـ ، 1193 م) المدرسة "الفيروزية" بالسند (قبل 630هـ ، 1232م) ، مدرسة "ملقان" (قبل 633 هـ 1235م) المدرسة "الناصرية أو النصيرية" ببدهلي (643هـ ، 1245م) المدرسة "المعزية" ببدهلي (قبل 690 هـ 1291م) مدرسة "سيوستان" التي كانت قائمة في الفترة التي زار فيها ابن بطوطة السند ، مدرسة دلهي التي أسسها محمد تغلق (747 هـ ، 1346م) أما فيروز تغلق فقد أسس ثلاثين مدرسة أشهرها مدرسة فيروز شاهي" .(1).

أما أباطرة المغول فقد تشتهر جلّهم بذوق فني رفيع وزاد من العلوم والمعارف وأظهروا حبا للثقافة والحضارة الاسلامية .

والجدير بالذكر أن المدارس الاسلامية لم تكن قاصرة على العلوم الشرعية فحسب بل ضمت اليها مختلف العلوم الضرورية ، ورد في القانون الاكبري بيان مفصل للعلوم التي يجب أن يتلقاها الطالب فيها ، منه : "وكل طالب يجب أن يقرأ كتبا حول الاخلاق والحساب والعديدة ... والزراعة وفن المساحة ... والجبر والفلكيات وعلم الفراسة وشؤون تدبير المنزل وقوانين الحكومة والطب والمنطق والعلوم الطبيعية وعلم الحساب الاعلى ... ويحيط بها احاطة تامة"(2) .

فالى جانب العلماء الذين تخرجوا فيها ظهرت فيها مخترعات عديدة مثل ابتكار الميرفتح الله الشيرازي حجرا للطاحونة واختراعه لأنواع من البنادق(3) .

---

1 - د / ناجي معروف ، علماء النظاميات ومدارس الشرق الاسلامي ، طبعة الارشاد ، بغداد 1393هـ - 1973 م ط ثص 135 - 138 .

2 - مجلة ثقافة الهند ، مجلد 12 ، عدد 2 ، ص 72 - 73 (نظام التعليم في الهند خلال العصور الوسطى ، د / يوسف حسين خان)

3 - المرجع نفسه ، ص 74 .

وبانكشاف نوايا الانجليز وتبيين أهدافهم المتمثلة في العمل على تقويض نفوذ المسلمين ازداد تمسك هؤلاء بثقافتهم والحفاظ عليها، وقابلوا المدارس والجامعات الانجليزية بالمقاطعة التامة، حتى قال فيهم المؤرخ الانجليزي طوماس في كتاب له بعد ثورة (1857م): "ان مؤسس الثورة الهندية هم مسلمون لا هنادك، هذا الشعب الاسلامي متكبر لا يريد أن يخضع أمام أحد .... يحاول هذا الشعب أن يقيم حكومة اسلامية، ومادامت الاحكام القرآنية موجودة فيهم فلا يمكن أن يكونوا رعية حكومة غير اسلامية (1).

وهم لما قاطعوا المدارس الانجليزية أنشأوا مقابلها مدارس ومراكز اشعاع لتحصين أبنائهم ضد كل تيار أجنبي، تجلى ذلك بوضوح في أسماء جمعياتهم العديدة مثل جمعية حماية الاسلام، جمعية الدفاع عن الاسلام.

ولم يكن هدف هذه المدارس تخريج فطاحل العلماء أو تكوين اداريين وظفين بقدر ماكان بناء جيل مسلم راسخ العقيدة حام لحماها، يقول أحمد الدارسين: "كانت كلمة الدفاع هي الصيحة التي ينفر لها مسلمو الهند جميعا، الدفاع عن الجماعة أو الدفاع عن الاسلام الذي يواجه ويحدق به خصمان خطيران: النفوذ الهندوسي والنفوذ البريطاني الحاكم. فقد انبعث المنصرون يدعون الى أديانهم علنا ويهاجمون العقيدة الاسلامية ويعلنون أن دولة الاسلام قد زالت وأن الهند قد أدخلت في الحكم الغربي المسيحي ... ولم يكن أمام المسلمين الا ... انشاء مدارس اسلامية خاصة يستطيعون من خلالها تدريس الاسلام" (2).

انما ذكر الكاتب الدفاع لأن هجمة الحكومة وقسوتها على المسلمين والحملات التبشيرية وضعت المسلمين في مركز الدفاع والعمل على صون ما تبقى لهم والصيانة تحتاج الى معاقل ومراكز تخرج دعاة مرشدين.

كان الشيخ محمد قاسم النانوتوي (1248 ـ 1297 هـ) على رأس الحركة الاصلاحية التعليمية، شارك في ثورة 1873 م واختفى بعدها ليعود و يتبنى هو والشيخ عابد حسين الديوبندي تأسيس مدرسة كبيرة بديوبند

---

1 ـ محمد حسن الاعظمي ـ محمد علي جناح باعث باكستان، منشورات دار مكتبة الحياة، ص 111.

2 ـ أنور الجندي، الاسلام والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، ص 109.

دار العلوم" (1283 هـ) وينقسم للتدريس، وفيها جمع بين تخريج الدعاة والفقهاء وبين اعداد الابطال الذين يفتحون جبهة الجهاد من جديد ويتداركون الهزيمة التي لحقت بالمسلمين، كما كانت له مناظرات مع الهنادك والنصارى تجلت فيها علامات نبوغه وذكائه (1)، وقد اتفق القائمون على هذه المدرسة وغيرها من المدارس الاسلامية على الاعتماد الكلي في ميزانيتها على عامة الشعب ورفض أية مساعدة من الحكومة حتى لا تكون لها سيطرة مباشرة عليها.

وعلى غرار دار العلوم بديوبند أسس مولانا سعادت علي مدرسة "مظاهر العلوم" في سهارنبور، وأسس محمد علي المونگيري حركة "ندوة العلماء" بلكنو (1310 هـ - 1893م)[2] وأنشأ "دار العلوم" التابعة لها، عام 1316 هـ.

ولكن هذه المدارس تخرج رجالا لا أمل لهم في أقل وظائف الحكومة فكان حظ المسلمين في المناصب الادارية ضئيل، ورد في أحد مناشير الحكومة الانجليزية بيان عن الوظائف في الهند جاء فيه: "اذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها انجليزي (أي لا يليق أن تكون بيد أحد من الجنس الشريف) وجب أن يعين فيها أحد الفارسيين الباقين على دين زردشت فان لم يكن منهم مقتدر على القيام بها، أقيم فيها وثني، فان لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها كلف بها مسلم (3).

ولما كان حظ المسلمين الابعاد من كل المجالات، رأى العلماء أن تلك المدارس وحدها غير كافية لبناء شعب مسلم وقع بين تيارين يريد كل منهما احتواءه. ومن هؤلاء السيد أحمد خان الذي رأى أن اتباع سياسة مقاطعة الانجليز والتقوقع على الذات يعود على المسلمين وحدهم بالمضرة لأن الانجليز لم يخسروا شيئا، كما أن الهنادك وجدوا المكان خاليا منهم فراحوا يستحوذون على ما يقع تحت أيديهم في وقت قبع فيه المسلمون في زواياهم ومساجدهم يعذون على الدين بالنواجذ، دعا السيد أحمد خان المسلمين للأخذ بنصيبهم من العلوم الحديثة ومن اللغة الانجليزية، فاستجاب له بعضهم

---

1 ـ الشريف الحسني، نزهة الخواطر، ج 7، طبعة دائرة المعارف العثمانية، الدكن (1378 هـ 1959م)، ص 383 ـ 384.

2 ـ الندوي ـ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية، دار القلم، الكويت ط 5، 1405 هـ ص 61.

3 ـ جمال الدين الافغاني ومحمد عبده، العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 1403 هـ، 1983م، ص 336.

وانتقده وكفره منهم كثير ،ولكنه اعتبر بحق منقذ المسلمين،اذ لو تركهم في غفلتهم وعزلتهم لاستيقظوا في يوم من الايام ليجدوا أنفسهم محكومين من الهناد ك وليس لهم الحق في الوقوف أمامهم مادامو قد تنازلوا لهم عن البلاد زمنا .وفي سبيل ذلك أنشأ جامعة عليگره التي قدر لها فيما بعد أن تكون مركزا لتخرج عدد من الزعماء والمفكرين والسياسيين المسلمين .

هذا ولم يكن سعيد أحمد خان وحده في الميدان ،فقد أنشئت جامعات أخرى ومراكز اشعاع للثقافة والوعي الاسلامي مثل دار العلوم التابعة لندوة العلماء بديوبند التي أنشأها محمد علي المونگيري وجعلها همزة وصل بين التيارين المتطرفين المبالغين ،الاتجاه الديني البحت والاتجاه المطلق نحو العلوم الغربية ،فكانت جسرا بين علماء الدين والمثقفين العصريين بمحاولتها الجادة في الربط بين القديم الصالح والجديد النافع والاهم في هذه المدرسة أنها نظرت الى المناهج التعليمية على أنها ليست قواعد ثابتة . الا أن دعوى مؤسسيها الى اصلاح المناهج وتوسيعها رآها الناس غريبة في وقت كان التمسك بالمناهج القديمة سائدا في الاوساط الاسلامية ظنا منهم أنهم بذلك يحفظون دينهم . قال محمد علي المونگيري في تبيان ضرورة التجديد ومسايرة العصر : "قد تغيرت الظروف والاحوال في هذا العصر ،ان الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديما قد فقدت أهميتها وقيمتها وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها ،وتشعبت بها ، أصبح العكوف على دراستها وتفهمها اضاعة للوقت وجهادا في غير عدوه وقد تنشأ عالم جديد وتجدد تحاجاته ،قد آثار أعداء الاسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن تخطر على بال ، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ،ولا يمكن اتباع الرد عليها والاقتناع العلمي بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط ،وان زعم زاعم ،والسبب في ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يحمل الشبهة ويفحم الخصم الا اذا عرف ما يؤول اليه

---

1 ـ الندوى ـ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ،ص78 .

الاعتـــراض وعرف الـــدوافـــع"(1)

وتبعـه فـي هـذه الالتفاتـة الطيبـة في عصـر احتدم فيـه الصراع بيـن القديم والجديد وتفـرق النـاس بيـن الافراط والتفـريط ، العلامة شبلي النعمانـي قـائد حركـة نـدوة العلمـاء واحد ثمار اليقـظة الاسلامية الفكرية فـي شبه القارة وخريـج كـليـة عليگـــره .

جـاء شبلـي فـأكد ماذهب اليـه المونتگـمري ،وأشـار الـى عـــدم حاجة المسلمين في عصرهم الحاضر الى ماكانوا في حاجة اليـه في عصورهم الاولى من علوم يونانية وأبـان أن ظروف العصر في غنى عنها ،وأن لاخطر على الاسـلام منها ، بـل من الضروري اطلاع علماء المسلمين على الابحاث الجديدة والعلوم العصرية ليقدموا حلولا للمعضلات الحديثة وليردّوا على ماينار من شبهات ردّا علميـا .

ولـم تقف جهود شبلـي النعمانـي على التوجيـه وطرح النظريـات فقد خرج الى الميـدان العلمي ليبرهـن أن ندوة العلماء ليست لاصلاح الجامع فحسب وانما لقيادة حركة فكرية اسلامية في الهند ،هدفها الاول النهـوض بالامـة بعيدا عن الصراع والفرقة والشقاق بين أبنائها ،ذلك الذي كان سببا في تأخير الاستقلال وانتشار التيارات اللادينية في البلاد الاسلامية فالى جانب الدروس التي كان يلقيها على طلبة كليگـره ،ساهم في نشر الثقافة الاسلامية وعرض السيرة النبوية وسير الصحابة وتعاليم الاسلام في أسلوب عصري جذاب وقوي وأسلوب بيـن ، مثل كتابه "سيرة النبي أو أحسن السير" ولم ينجز منه الا الجزء الاول (2) ، "الفاروق" ، و"الجزية في الاسلام" الى جانب اهتمامه الشديد بالتاريخ الاسلامي وتقعيده للغربيين والمحرفين لحقائقه ورد شبهات المستشرقين والمبشرين ،ولعل من أبرز ابحاثه في هذا المجال انقاذ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ، وهو ان دلّ على شيء فانما يدل على الصلة الوثيقة التي بيـن شعوب الأمة الاسلامية وتخليها على الحدود الجغرافية وقد كانت لشبلي صلات بمدرسة المنار والسيد رشيد رضا ، وكان له وجود

1ـ الندوي ـ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص 79 .

2ـ انظر : محمد حسن الاعظمي والمولوي شعلان ، اقبال والفلسفة الاسلامية في شبه القارة الهندية ، دار الفكر دمشق ، سوريا ، ص 173 (الحسن السير)

في الصحافة العربية وقد استطاع أن ينقل مواهبه ويبث فكره الثاقب في كثير من تلاميذه الذين شكلوا طبقة مثقفة تجمع بين ثقافة الاسلام وتعاليمه والثقافة الحديثة ،وهم الذين حملوا لواء الحركة الاصلاحية والسياسية والوطنية وساهموا في دراسة معضلات الفكر الاسلامي المعاصر وقضايا الحضارة وظروف العصر . وان حركة شبلي النعماني الفكرية عدت مقدمة لظهور العلمين أبو الكلام آزاد في مجال التربية ومحمد اقبال في مجال الشعر والفلسفة ،وطالما أعرب اقبال عن اعجابه بالعلامة النعماني ووصفه بأنه أستاذ نفسه وتلميذ همته . (1)

ومن الذين شاركوا النعماني في تمثيل المدرسة الوسطية وحمل لواءها حافظ نظير و محمد حسين آزاد و أمير علي ، والشاعر ألطاف حسين حالي وغير هؤلاء كثير في بلد ممتد كالهند وكثيرون هم الذين جمعوا بين ثقافة اسلامية وافية وقدر لابأس به من ثقافة العصر الحديث وأظهروا تمكنا من اللغات الاجنبية وعلى رأسها اللغة الانجليزية ،نذكر منهم العلامة خدا بخش الذي رأى أن على الاسلام أن يدافع عن نفسه أمام الغرب وينفس اسلحته مما يوجب على المسلمين الاستفادة من أساليب التعليم والثقافة وطرق الغرب في البحث ،وآمن بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان وقادر على مسايرة العصور دون أن يفقد شيئا من قيمه ومبادئه ،وكان الى جانبه أمير علي سيف الاسلام المسلول في قلب الغرب ،وكان على حد رشيد رضا أول مسلم استطاع أن يخرج للغرب صورة صادقة عن مبادئ الاسلام الشرعية والروحية والاجتماعية ، وقد أفاض عليها من ايمانه ونفسه المشربة بروح الاسلام ، أعانه على ذلك عقليته القانونية وتفقهه في علم الكلام والشريعة ،ثم احاطته بالادب العربي والانجليزي ، حيث درس في الشرق (بجامعة هوجلي وكلكتا وجامعة عليگرة) ودرس في الغرب وعين محاميا في كلكتا وأستاذا للشريعة الاسلامية ثم قاضيا ،ومن ثمار عمله التي تحدث فيها الى الغرب باسم الاسلام "حياة النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه" (1872 م) ، "مختصر تاريخ المسلمين" (1989م) .

---

1 ـ أنور الجندي ـ تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي ، مكتبة الانجلو المصرية ط1 1970 ،ص 144 .

وفيه شرح منهجه ووجهة نظره بقوله : "... يعني بأكثر من سرد مجرد الحروب والغزوات، خصوصا بالنسبة لشعب لم يهجر التعريف به منذ الطفولة كما هو الشأن بالنسبة للرومان واليونان ورب كتاب يعني بدرس ما انتقته الحضارة الحديثة من حضارة العرب و المسلمين يفيد في ازالة كثير من ضروب التحامل وشيئ من المرارة التي خلقتها خصومات القرون(1) وفي عام 1993م أخرج كتابه "روح الاسلام" في جزأين وأطلق على الجزء الثالث منه "آداب الاسلام"، أما في مجال تخصصه القانوني فسجل كتاب "الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية"، و"مختصر الشريعة"، وبهما أزال كثيرا من الغموض الذي كان يقترن بتدريس الشريعة الاسلامية وتطبيقها على أيدي قضاة انجليز قلما يرتقون الى ادراك روح التشريع الاسلامي . ولم تمنعه هذه الغاية التي سخر لها نفسه وهي أن يكون جنديا سبلا لحماية الاسلام من حيف الغرب، من معايشة الظروف السياسية الملتهبة وتنصيب نفسه ذائدا عن حياض الاسلام والعروبة في بريطانيا ، فأعلن معارضته لها في كثير من مواقفها مع المسلمين والعرب وانتقد السياسة الفرنسية في المغرب وكان شديد الوطأة على السياسة البريطانية وسياسة الحلفاء في الشرق ، حتى أن كبار الصحفيين الانجليز كانوا يحتجون على كتاباته وينكرون عليه تأييد المسلمين والعرب(2) وبذلك كان أمير علي القذيفة الدامغة التي صنعتها المدرسة الاسلامية في الهند لتفجر شبهات الغرب وتدحض باطله بلغته فتزهقه .

وتبعه في حمل هذه الرسالة محمد اقبال الذي سخر نفسه لخدمة مسلمي العالم أجمع ومعالجة قضاياهم في مشارق الارض ومغاربها فالقى هو الآخر محاضرات عديدة في العالم الغربي ، حاول فيها التعريف بحقيقة الاسلام ، كما انتقد تلك الحضارة ورأى أنها تحمل تحت بريقها الزائف عوامل ضعفها ، قال محذرا : "اياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق ، ان هذه الفاتنة تجلب فتنا وتعيد اللات والعزى الى الحرم ... انها لص تعلم اللصوصية فيغير نهارا وجهارا ، وانها تدع الانسان لاروح فيه ولاقيمة له". (3)

---

1 ـ أنور الجندي ، تراجم الاعلام المعاصرين ص 57.

2 ـ الندوي الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص 99.

3 ـ اقبال ـ في السماء (جاويد نامه) ترجمة حسين مجيب المصري ، مكتبة الانجلو المصرية ص100 .

وقال في معراجه على لسان جمال الدين الافغاني منتقدا الغرب في عباداتهم للمادة وإضاعتهم القيم الروحية ومنتقدا الشيوعية في دعوتها للمساواة في البطون :

ان اهل الغرب أفلاكنا أضاعوا طلبوا الروح بسبطن حين جاعوا
ما استعد الروح حسنا من جسد وعلى الجسم الشيوعي اعتمد
قوله في كفره هذا الجعين ليس الا في مساواة البطون(1)

وما محمد علي جناح وكفاحه في سبيل استقلال الهند ثم كفاحه في سبيل ميلاد باكستان بخاف، ولا لفتات أبي الكلام آزاد ببعيدة ، بغض النظر عن معارضته لتقسيم الهند وتأييده لغاندي ونهرو ، فقد مكنه تعلمه العربية والقرآن الكريم في كتاتيب مكة (أين ولد عام 1888م) وتعلمه الفارسية والاردية التي أتقنها الى حد بعيد من وضع كتابه ترجمة القرآن كما ساعده على ذلك دراسته للفلسفة والتاريخ والفقه الاسلامي وعكوفه على القرآن وما كتب حوله سبعا وعشرين عاما . هذا الى جانب النصيب الاوفر الذي حصله من العلوم الحديثة واللغة الانجليزية . كان آزاد من تلاميذ المصلح جمال الدين الافغاني متأثرا بحماسه ومقاومته للاستعمار وورث كراهية الانجليز ، لذلك راينا من دعاة الفاطمة وعدت مجلته الهلال سلاحا حادا مزق قناع السياسة البريطانية ، قال فيها صحفي بريطاني أنها "خلقت جيلا من الشباب يستطيع أن يرى حقيقة السياسة البريطانية ويفهم ... ان البريطانيين ليسوا حماة الاسلام في الهند وان التفرقة بين المسلمين والهندوس وفصل المسلمين عن الهندوس ليس حبا في الاسلام ، وانما تحقيقا للمصالح الاستعمارية ، وأن بريطانيا في مهد الاسلام وفي الشرق الاوسط تحارب الاسلام وتوقع الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين ، مفضلة غير المسلمين ..."(2) .

ومن خريجي مدارس الاسلام الهندية الامير صديق حسن خان (1248 هـ 1832م) الذي أثرت عنه مؤلفات وترجمات في اللغات الثلاث العربية والفارسية والاردية (3) . أشهرها تفسيره المشهور للقرآن ، "فتح البيان في مقاصد القرآن" (طبع بالقاهرة عام 1965 م) وكتاب "الدين الخالص"

---

1 ـ اقبال ـ في السما" (جاويد نامه) ، ترجمة د/ حسين مجيب المصري ، مكتبة الانجلو المصرية ص 100 .

2 ـ أنور الجندي ، تراجم الاعلام المعاصرين ، ص 25 .

3 ـ مجلة الأمة عدد 47 ، ص 78 . (الامير صديق حسن خان، محمد اجتباء الندوي).

(طبع أيضا بالقاهرة)(1) .

هذا ولا ننسى الكتاتيب والمساجد التي قامت هي الاخرى بدورها في تلقين أبناء المسلمين مبادئ دينهم ، شأنها شأن مختلف بلاد العالم الاسلامي التي كانت هدفا للاستعمار ، وان عرضنا للمدرسة الاسلامية لايعني أن كل ابنائها خرجوا دعاة أو صلحين ، انما الذي سلفت الاشارة اليهم هم خيرة من أنجبت المدرسة الاسلامية وصفوتها ، اذ ليس من واجبها تحويل كافة الشعب الى قادة وعباقرة ، فكل ميسر لما خلق له ، ثم ان من سنن الحياة أن يكون الدعاة والقادة قلة اذ يكفي لقيادة الامة ثلة من العقول النيرة .

---

1 ـ مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ عدد 47 ـ 48 ، سنة 12 (1400هـ) ص 259 ـ 260 . (من اعلام الدعوة في الهند ، صديق حسن خان ممي الدين الالوائي) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 ـ المسلمون والحركات التحررية :

ما أن هبّ المسلمون بالنهوض من كبوتهم ونفض غبار الجهل والتخلف حتى وجدوا أنفسهم في حالين من الضعف ،وذلك بأنهم لم يكونوا راسخين في العقيدة والثقافة الاسلامية ،وأنهم محاطون بوسط جاهلي الفكر ،وأن التخلف قد بلغ منهم مبلغا قويا فبقي مسلمو الهند في افلاس وجهالة وتخلف فكري ولكن عزيمتهم مع كل ذلك لم تخر وهمتهم لم تفتر ،فبعد أن لم يكن هم المسلم البسيط سوى القبض على دينه والانزواء به بعيدا استثارت المدارس الاسلامية وعلماؤها اقناعهم بالخروج من عزلتهم والالتفات لما يدور حولهم من استغلال بشع ومؤامرات ، وكان اقبالهم على الآداب الانجليزية وسائر الآداب العالمية وعلى التاريخ العالمي سببا في ظهور بوادر الوعي والشعور بضرورة الاتحاد الوطني ،الا أنه اقتصر على فئة قليلة من أبناء البلاد وهي التي احتكت بتيار الثقافات الاخرى ،وبخاصة الغربية .

حاول بعض المصلحين المسلمين تقريب الهوة بين المسلمين والانجليز ـ طالما الهنادك قد كسبوا ودهم ـ وغرس الثقة في نفوس الفريقين ودفع المسلمين التي تلقي العلوم الحديثة في مؤسسات علمية بعيدة عن ادارة الحكومة (مثل كلية عليكرة) وبعد سخط العديد من المسلمين على السيد أحمد خان رضيت عنه أسر مسلمة واقتنعت بافكاره في وقت أكتسب فيه عداوة الانجليز لاعتراضه الشديد على دخول المسلمين الى "المؤتمر الهندي" ، وذلك الخيط الاول الرابط بين المسلمين والهنادك تحت هدف وطن موحد .

فقد أيقن لما رأى من خلاف بين الطائفتين نفخ الاستعمار في سعيره بأن الفريقين لن يجمع بينهما وئام أو ألفة ،ورأى بأن الاقلية المسلمة سوف يبتلعها البحر الهندوسي الزاخر ،فالحضارة الاسلامية والهندوسية وان عاشتا في أمن وسلام متنافرتان ، وقال في بيان ذلك : "في بلد كالهند تتقسمه الطبقات وتنوشه النزاعات الدينية المتفرقة الحادة وليس فيه من أسباب التربية والادراك الصحيح مايشيع في الناس الف الايمان بالمساواة والعدالة في الحقوق والواجبات ، أرى بل أومن أن الانتخاب والتمثيل النيابي ضار أكثر منه نافع(1) ،وهو انما انتهى الى

---

1 ـ د/ حسين فوزي النجار ، مع الاحداث في الشرق الاوسط ط ـ ع دار الكتاب العربي بمصر ،ط1 ، 1957 ،ص 281 ـ 282.

تفسير هذه الحقيقة بعد متابعته الدقيقة لاعمال حزب المؤتمر الهندي من بداية تأسيسه سراً ، كما انتهى الى الحكم عليه بضيق الافق ، فلم يؤمن به ولم يسر في ركابه ، ودعا المسلمين الى ايجاد بديل أفضل منه والى عقد مؤتمر سنوي يضم ممثلي المسلمين من كافة الاقاليم الهندية ، وأنشأ ازاء التحدي الانجليزي الهندوكي "جمعية الهنود الوطنية" (للمسلمين فقط) و"جماعة الثقافة المحمدية" و"جمعية الدفاع الاسلامية لعموم الهند" ، وكان من ثمراتها جميعا أن امتنع كثير من المسلمين عن التعاون مع المؤتمر الهندي ، وأن أسست جمعيات أشهرها "الرابطة الاسلامية" قائدة الحركة الاسلامية لتحرير الهند في بداية الأمر ثم لاستقلال باكستان ، (أسست بعد وفاة أحمد خان بثمانية أعوام) .

ان الحركات التحررية في شبه القارة الهندية من أعقد فصول التاريخ ، فقد اختلط فيها صراع الاديان ، وتضاربت المصالح ، هندوس ومسلمون ، مسلمون وانجليز ، مسلمون وهندوس ضد الانجليز ، انجليز وهندوس ضد المسلمين ، وشعوب وطوائف أخرى هندية حائرة بين هذا وذاك ، ولم تكن مفاهيم التحرر واضحة لدى بعض الطوائف ، فاعتقدت أن بقاءها تحت حكم الاستعمار وقاية لها من هؤلاء السياسة هندوس ومسلمون على السواء .

وفي وسط ذلك الزحام الشديد والمفارقات الكبيرة بدأت أنباء المؤتمرات والحركات واللقاءات والاجتماعات السياسية تصل الى آذان الشعوب وعلى رأسها الشباب المثقف الهادف الى تحسين أحوال البلاد ـ فارتأى الانجليز ايجاد لعبة مفيدة يلهى بها الشعب الهندي تحت اشرافهم ، فأسسوا جمعية وطنية من أبناء الهند يحمل أعضاؤها المظالم الى المحاكم وهي التي كانت بعد ذلك نواة "المؤتمر الهندي" صاحب القصص الطويلة مع المسلمين فقد أسس برعاية الانجليز والذي أسسه هو الانجليزي المخلوع ألان هيوم (ALLAN HUME) اذ قضى أمر المؤتمر سراً حينا من الدهر ثم تجمع لأول مرة عام 1885م بندائه من هيوم (في بومباي) ضم في أول اجتماع له سبعين عضوا ، أما في جلسته الثانية عام 1986م فحوالي 436 منهم ثمانين مسلما وارتفع عدد أعضائه في جلسته الثالثة عام 1987م الى 600 وفي الرابعة الى 1200 عضو (1) أما مبتكر فكرة المؤتمر فهو اللورد دوفرين

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 182 وكفاح المسلمين في تحرير الهند ، ص 54

الذي صرح لالان هيوم بأنه سيجد "صعوبة كبيرة في معرفة الرغبة الحقيقية للشعب وأنه من المصالح العام وجود بعض المنظمات المسؤولة يكون الحاكم بواسطتها على علم بالرأي الافضل للشعب" (1) وهذه شهادة شاهد من أهلها يهدف الانجليز وآمالهم المعلقة على المؤتمر، لانهم اذ ابتكروه فانما قصدوا أن يجعلوا منه صمام أمن ومحاولة للتطليع الى آراء الشعب الهندي من خلال جلساته، لهذا يمكن اعتباره مسرحية من اخراج وتأليف الانجليز الذين حرصوا على وجود عناصر مسلمة ليعطي الصبغة العامة للبلاد، واذا قبل بعض أعضائه وزعمائه بمدح الانجليز وتطريبهم أمثال مستر جوبال كرشنا جوكهل الذي صرح بأنه من الخير للهند أن تبقى مرتبطة بالحكم الانجليزي (2) فان الانجليز أوجسوا في أنفسهم خيفة وأبدوا امتعاضهم منه بعد ما تجاوز أهدافه المسطرة وشرع في معالجة بعض أمور البلاد، واتخذ لنفسه رصيدا شعبيا في أوساط المسلمين والهنادك.

ولكن متى يكون للهند أن تتحد فئات شعبها والاستعمار مقيم فيها، يشعل نار الفرقة ويخنق كل صوت، ومثلما حدث في بلاد العالم الاسلامي استطاع الانجليز تطبيق سياسة التفرقة في شبه القارة، البلد الذي تتنازعه الديانات والاجناس وفيه يعتبر الهنادكة المسلمين دخلاء، اما أن يخرجوا من البلاد واما أن يتركوا ذلك الدين الذي قنّن ضجع الهنادك والانجليز على السواء، وانما عمد المستعمر الى تلك السياسة ليقينه ان طاقة الشعوب الهندية هائلة ولو اتحدت لدمرت كيانه وأرغمته على الانسحاب مذموما محسورا.

ولم يتورع رواده عن التصريح بذلك وانسياقه في مقرراتهم، قال سير جون ميلكم: "ان بقاء حكمنا لهذه البلاد الكبيرة متوقف على أن نفرق بين جماعاتها الكبيرة القوية، ثم نقسم كل جماعة الى فرق متعددة" (3) واعترف جون مينورد عضو المجلس البريطاني الحاكم في بنجاب أن الخلاف والتفاق

---

1 ـ JAQUES DUPUS. HISTOIRE DE L'INDE, P 299.

2 ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها

3 ـ عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند، ص55.

بدأ في عهد بريطانيا (1) وفي عام 1893م أسس ستر بيك الانجليزي جماعة اسلامية هي "الجماعة المحمدية الانجليزية" هدفها حماية المسلمين من خطر الهنادك وحفظ حقوقهم السياسية وهي السنة التي أسس فيها الهندوكي "المهراشتراقانتادارتلك" "جمعية مخالفة ذابحي البقر" (2) وهي تحمل أغراضها في اسمها .

وما أن حل عام 1900م حتى أعلن نائب الملك كوروزون عن رغبته المفاجئة في زوال المؤتمر بقوله : "ان المؤتمر قريب من الزوال في اعتقادي الخاص ، وأكبر طموح لي مادمت في الهند ، هو مساعدته على الاستقالة بهدوء" (3). وللايخال في التفرقة بين الطائفتين أرسل نائب الملك الى نواب حاج محمد اسماعيل ينصحه بمطالبة المسلمين بالانتخاب على الطريقة الطائفية حتى يكون لهم حق انتخاب ممثليهم . فأرسل كبار ممثلي المسلمين عرائض موقعة الى نائب الملك ، حملها آغا خان على رأس وفد من ستة وثلاثين عضوا وكانت فرحة بريطانيا عظيمة بهذا الطلب الجماعي المنظم في الوقت الذي تمرد فيه رجال حزب المؤتمر الوليد الذي ربوه في مهادهم وعلى أيديهم (4) وذلك بعد اعلان اللورد كوروزون عن تقسيم مقاطعة البنغال الى وحدتين مقاطعة البنغال الشرقية للمسلمين والبنغال الغربية للهنادك .

وعلى الرغم من محاولات أعضاء المسلمين في حزب المؤتمر وعدد من أعضائه الهنادك المدركين للموقف اقناع متعصبي حزب المؤتمر بضرورة اكمال عطفه بالشعور السياسي الاسلامي لتكوين جبهة متحدة ضد الحكومة البريطانية فان العقول ظلت محافظة ظانة أنها بذلك تضمن وحدة الوطن ، فحطت بتحجرها الدين الهند فناءها كأمة واحدة وميلاد دولتين مختلفتين .

حزب الرابطة الاسلامية : ازدادت الاحوال سوءا بعد رفض حزب المؤتمر في عناد اختيار ممثلين له في البنغال أو البنجاب وبعد رفضهم السماح بتشكيل أي كيان مسلم ، اضطر نواب سليم الله خان دهاكا (أكبر زعيم مسلم في مقاطعة البنغال) الى اصدار بيان يرمي فيه الى تأسيس منظمة قادرة على تمثيل المسلمين وصيانة حقوقهم ، خاصة بعد الاعتراف بحقهم في الانتخاب

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 55 .
2 ـ محمد حسن الاعظمي ، محمد علي جناح باعث باكستان HISTOIREDEL'INDE, P. 304
3 ـ Jaques dupus , Histoire de l' I nde , P 302 .
4 ـ عبد المنعم النمر ، كفاح المسلمين في تحرير الهند ، ص 66 .

المستقل وبعد قرار تقسيم البنغال ، فوجه نداء الى كبار الزعماء المسلمين الهنود ،واجتمع زعماء المسلمين في 30 د يسمبر 1906م برئاسة نواب وقار الملك ، وأسسوا "مسلم ليگ" أي الجماعة أو الرابطة الاسلامية ،ومن أجل حماية حقوق المسلمين والتقدم بمطالبهم الى الحكومة .(1).

وقد جاءت الرابطة الاسلامية في وقتها المناسب ،ففي بداية القرن العشرين قامت دعوة لاحياء أمجاد الهند الغابرة والمتمثلة في حركة "الآريا سماج" لمؤسسها سوامي دياناند (1824 ـ 1883م) تدعو للاصلاح على أساس ديني هندوسي مستمد من الويدا (الفيدا) ألف دياناند كتاب "ستيارتهابركاش" ردّ فيه على جميع الاديان في أربعة عشر بابا ،خصّ الاسلام بالباب الاخير اعترض فيه على القرآن حوالي مائة وتسعة وخمسين اعتراضا ، ردّ عليها امام الدين رام تكسري بكتابه "دلائل القرآن في جواب افتراء دياناند" وردّ عليهما علماء آخرون (2).

اعقب تشكيل الرابطة اصلاحات مورلي مونتو (Morly-Minto) (1909م) حيث تنفس المسلمون الصعداء بعد تضييق ،مع بساطة ماحققوه ،ولكن تشكيل الرابطة لم يحدث صدى بعيدا في الاوساط الهندية رغم أهمية ظهورها وضرورته ،لان تأييد الشعب كان متجها لحزب المؤتمر الذي سبقها في الظهور بعشرين عاما وأعلن أنه يرعى حقوق جميع المواطنين على اختلاف أجناسهم وأديانهم ،في حين كان هدف الرابطة حماية حقوق المسلمين ، ثم ان من المسلمين من اعتبر ظهورها بداية للسير نحو الشقاق والانقسام غير ناظرين لما يكيده الهنادك ، لذا فان الرابطة لم تلق التأييد الشعبي الواسع في الاوساط الاسلامية الا بعد ظهور حزب هندوسي جديد شبيه بالآريا سماج هو حزب "هندو مهاسبها" أسسه جماعة من متعصبي الهندوس كردّ فعل على الرابطة لدعوة الهندوس الى بعث الهندوسية والعمل على تطهير البلاد من المسلمين ، فأثار هذا الحزب الحماس لدى الهندوس ،وانبرى كتابهم وخطباؤهم على المسلمين ومقدساتهم بالشتائم فهاجت نفوس المسلمين ، والتفوا حول حزبهم وأدركوا أنه الملاذ الوحيد لحقوقهم ومقدساتهم ، وهكذا كان الهنادكة (من حيث لايشعرون) سببا في اتحاد المسلمين ومن حيث لايشعرون قادوهم الى التوحد والاستقلال بدل الخراب

---

1 ـ المرجع السابق ص 75 ،والاعظمي ، محمد علي جناح باعث باكستان ،ص54 .

2 ـ مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ عدد 2 سنة 2 شوال 1389 هـ ،هامش ص117 .

(اقبال في مدينة الرسول، أبو الحسن الندوي).

السني أراده لهم (1).

وبتأليف المسلمين حزب الرابطة وانتخاب ممثلين لهم، اجتمعت كل المذاهب الأخرى من هندوس وسيخ ومسيحيين وصاروا كتلة واحدة في الانتخاب.

والى جانب الرابطة كانت هناك جبهة اسلامية ترفض التعامل مع الانجليز وتنادي بقطع الصلة بهم ومحاربتهم (2) واستمرت تلك الجمعية تعمل في الخفاء عشرين عاما واليها يعود الفضل في يقظة المسلمين، وأعضاؤها هم الذين أسسوا "الجامعة الملية الاسلامية".

غير أن المسلمين لم ينعموا بالامن كثيرا ولم يتمتعوا بالاصلاحات الطفيفة والحقوق القليلة، فقد تولى اللورد هاردينغ الثاني (Hardings) (1910 ـ 1916م) أمور البلاد، وتراجع عن قرار تقسيم البنغال بضغط من الهنادكة، فأصيب المسلمون بخيبة أمل فقدوا على اثرها الثقة في كل ما يصدر عن الانجليز والهنادك عن السواء، قال نواب دهاكا سليم الله خان: "وان صرف النظر عن التقسيم، سيكلفنا غاليا من الامتعاض وعدم الولاء، وفوق ذلك، فقد أنقص هذا العمل من قدر الحكم البريطاني، وهذا شيء يؤسف له" (3).

وقرر المسلمون في اجتماع حزب الرابطة (1912م) ثم (1913م) نزع الثقة من الانجليز والعمل على انشاء حكومة تتفق والمصالح الهندية (4)، وكتب زعماء حزب الرابطة احتجاجات يندد فيها بتراجع الحكومة ويصفونها بالجبن، وذراً للرماد في العيون أنشأت الحكومة للمسلمين جامعة في داكا احتج على تأسيسها زعماء حزب المؤتمر، وكان ذلك الاحتجاج منهم ايذانا للسيد محمد علي جناح أن ينتمي الى الرابطة مع بقائه على انتمائه للمؤتمر (1913م) ومنذ ذلك الحين وهو يعمل على التقريب بين المسلمين والهنادك والحزبين الممثلين لهما حتى سمي رسول السلام بين الطائفتين بعد ان الهنادك أقاموا له نصبا تذكاريا (قبل وفاته) اعترافا منهم بجهوده التي ذهبت هباء أمام تعصب الهنادك ورفضهم الاعتراف بالمسلمين كشعب هندي له الحق في تقرير مصيره ((5).

---

1 ـ عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند، ص 76.

2 ـ انظر المرجع نفسه، ص 78.

3 ـ المرجع نفسه، ص 64

4 ـ د/ احسان حقي، باكستان ماضيها وحاضرها، ص 169.

5 ـ الاعظمي، حقائق عن باكستان، ص 74، ومحمد علي جناح باعث باكستان ص 54.

ومن الجمعيات التي أنشأها المسلمون الى جانب حزب الرابطة "جمعية العلماء"، "مجلس الاحرار"، "جمعية الخدام الالهيين"، "جمعية الرجوع الى القرآن"، التي وصف المسلمون بالتعصب بسببها، "جمعية حماية الاسلام"، جمعية الاصلاح والترقي"(1) وغير هذه كثير.

حزب المؤتمر والرابطة الاسلامية في الميدان:

مع كثرة الجمعيات الاسلامية والهندوسية فانه لم يثبت منها غير حزبين استطاعا الاستمرار الى أن استقلت الهند، حزب المؤتمر وظل محافظا على مصالح الهندوس، وحزب الرابطة الاسلامية وظل مكافحا من أجل الاسلام والمسلمين، تناوب كلاهما على الاحداث، وكانت بينهما قصص عجيبة، ما أن يتفقا حتى ينقض الاتفاق.

وحتى بداية الحرب العالمية الاولى بقيت الهند مخلصة للتاج، وقدمت الافواج الهندية خدمات جليلة لبريطانيا، وفي عام 1915 م أعلنت الحكومة أنها ستقوم باصلاحات في الهند.

وكان كل من المؤتمر والرابطة قد عقدا اجتماعهما، فوجد محمد علي جناح الفرصة سانحة للتقريب بينهما أو توحيدهما على طالب مشتركة يتقدمون بها الى الحكومة، وبدعوة منه حضر بعض زعماء الهند اك اجتماع الرابطة واتفق الجميع وأخذت كل فئة في الاعتماد على الاخرى وأقيمت في سبيل ذلك اجتماعات مختلفة قدم خلالها محمد علي جناح مشروعا بكيفية الانتخابات في المجالس التشريعية وتسب المسلمين والهنادك (بحسب عددهم)، وافق عليه جل الزعماء، وصار جناح بذلك زعيما للمؤتمر والرابطة وفي تلك الاثناء بدأت الهند تسير نحو الاستقلال، وأعلنت ارادتها وقدرتها على التسيير الذاتي متوجة خطواتها من التغييرات السياسية الكبيرة التي غمرت آسيا والعالم في بداية القرن العشرين، منها انتصار اليابان على روسيا (1905م) وتحول اليابان السريع الى قوة صناعية عسكرية وبحرية، ثم انتصارها على روسيا (1904م ـ 1905م)، هذه الاحداث وغيرها أحدثت أثرا عميقا في آسيا عموما والهند على الخصوص، لانه انتصار آسيوي على شعب اوروبي (2).

---

1 ـ الاعظمي، في الهند وقصة الباكستان، دار الفكر العربي القاهرة، ج 1، ص 146، 172 وأنور الجندي ـ العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، ص 114.

2 ـ JAQUES DUPUS, HISTOIRE DE L'INDE, P. 302

من المسلمون والهندك متفقين على تكوين جيش لمهاجمة قصر المستعمر ان لم يستجب لمطالبهم ،وتكونت لهذا الغرض جمعيتان (عام 1917 م) كان رئيس الجمعية الاولى رتلك ورئيس الجمعية الثانية مزايني بنت ونظرا لتعصب الاول فقد نالت الجمعية الثانية نجاحا كبيرا حيث كانت ايني رئيسة لجمعيات أخرى وكانت لها صحيفتان واحدة يومية والاخرى أسبوعية نشرت بهما الدعاية لجمعيتها ،فلما شعر الحاكم العام بخطرها وانتشار دعوتها فيي انحاء البلاد أمر بتقييد حريتها في التنقل وفي الخطابة وقد انضم محمد علي جناح الى هذه الحركة وأصبح الخطيب الاول فيها بعد ما قيدت حرية اينيي ،وفي جويلية 1917 م عقد سكان بمبياي برئاسته اجتماعا ،هاجم فيه الحكومة وانتقدها ،فأذكى نيران التمرد والثورة في المسلمين والهندك ،وقامت ثورة شعبية زلزلت قصر الحكومة فبادرت الى اخمادها بالقمع وشكلت لجنة عام 1918 م لوضع قانون عقوبات يطبق على كل من تسول له نفسه الثورة ضد الحكومة أو مخالفة أوامرها فزادت الطين بلة وهاج الشعب وماج ،وعقدت الاجتماعات والقيت الخطب الملهبة للحماس، أشهرها خطبة محمد علي جناح التي يقول فيها: "... كأن هذه اللجنة كونت لمعاقبة قبائل مجرمة نشأت في البلاد وتريد أن تمحوها ، ولكن وضع القوانين ليس بعلاج لهذا المرض،أنا أخاطب الانجليز ،انه يجب أن تغيروا سياستكم في الهند ...ولا يمكن أن نتصور وضع هذه القوانين في هذا الوقت "(1).

ولكن الحكومة لم تبال برفض الشعب الهندي واحتجاجه فكانت سببا لبدء تاريخ جديد في الهند ، وفي 18 مارس 1919 م أرسل محمد علي جناح الى الحاكم العام خطابا جاء فيه : "انك بتصديقك على هذا القانون أبعدت الشعب عن الاقتراب من البريطانيين . وأيقن الهنود أن الانجليز قائمون على الظلم ،وأنكم هدمتم قصر الانصاف والعدل وأحرقتم دستور الحق،ولذلك فاني احتج على هذه المعاملة وأستقيل من عضوية مجلس الشورى ،ومثلي لايمكن أن يتعاون مع الحكومة في مثل هذا الوقت لأنها رفضت صوت الاعضاء في مجلس الشورى "(2)

---

1 ـ الاعظمي ،محمد علي جناح باعث باكستان ،ص59.

2 ـ المرجع نفسه ، ص59.

وفي ٣٠ مارس ١٩١٩م عقد الهنود أعظم اجتماع ضد الحكومة في دلهي، ولما قدم الجيش لتفريق المظاهرات هجم عليه المجتمعون وهم عزّل فعمت الفوضى البلاد، وقد ظنت الحكومة أنها بالعنف تنفذ الامبراطورية ولكنها أغرقتها في بحر من الدماء والمتاكل.

حركة الخلافة:

وفي هذه الاثناء قامت اضطرابات شعبية أخرى نتيجة لسقوط الخلافة العثمانية، فبعد وعود بريطانيا للمسلمين بعدم المساس بممتلكات العثمانيين خوفا من ثورتهم وعدم مشاركتهم في الحرب العالمية، ووضعت شروطا قاسية على الدولة العثمانية، صرّح الحاكم العام أنه على المسلمين تحطيمها، فطار صواب المسلمين وخرج الشباب واعلنوا الثورة على بريطانيا واختاروا غاندي قائدا لهم في وقت كانت جمعية الخلافة في بدء تأسيسها. وعلى الرغم من موافقة انجلترا على انشاء حكومة هندية واتباعها بنظام الديارشي الذي يقسم السلطة بين الهنود والبريطانيين حيث تظمت الحكومة المركزية وحكومات المقاطعات والمجالس النيابية، فان هذا لم يمنع الشعب الهندي (مسلمين وهنادك) من الثورة اذ خرجوا جميعا معلنين أنهم يريدونها حربا مقدسة(1) في جبهة يقودها غاندي وشوكت علي ومحمد علي وأبو الكلام آزاد (عام ١٩١٩م).

انطلقت حركة الخلافة بمسيرة سلمية مؤثرة كان يجب أن تعقب بفتح مؤتمر الخلافة في سائر الهند، خاصة وقد أدرك غاندي ان ذلك الهيجان الاسلامي يمكن تصعيده، ليكون أدرك لوحدة الهند (2) وانتهى الزعماء باقتراح عام ١٩٢٠م ليكون عام مقاطعة للحكومة واضراب عن التعاون معها ومقاطعة للبضائع الاجنبية وفي فبفري من السنة نفسها تأسست جمعية الخلافة، وقعد غاندي فيها مقعد الشاصح(3)، وأعلنت عن سياسة اللا تعاون التي وافق عليها المؤتمر الاسلامي المنعقد في اللّه آباد بالاجماع، وقد أحصي في تلك السنة وحدها مائتي اضراب (4). وهي السنة التي أسس فيها العالم الشهير محمود الحسن "الجامعة الطية" ليدخلها

---

1 ـ المرجع السابق، ص 61.
2 ـ روما ن رولان، غاندي وكفاحه السالم، ترجمة التونجي، دار الفكره ١٩٦٩م، ص 59.
3 ـ أنور الجندي، العالم الاسلامي والاستعمار، طبعة القاهرة، الرسالة ١٩٥٨م، ص 121 ـ 122.
4 ـ المرجع نفسه، ص 206، وروما ن رولان، غاندي وكفاحه السالم ص 62.

المسلمة المستجيبون للمقاطعة بعد انفصالهم عن جامعات الحكومة يقول محمود الحسن : " يجب أن يكون تعليم المسلمين في يدهم ، حرّا بعيدا عن أي نفوذ من أي جهة ، وينبغي أن تكون معاهدنا وكلياتنا نماذج للجامعات التي ازدهرت في بغداد وقرطبة وللمدارس العظيمة التي جعلت أوربا تلميذا لها قبل أن تجعل أوربا أستاذا لنا " (1).

انضم الحركة الملا تعاون الهنود من مختلف الطبقات ، (اغنياء ، فقراء قضاة ، رؤساء ، موظفون ...) خرجوا جميعا من مناصبهم واندمجوا في الاوساط الشعبية ، جامعات أغلقت ومدارس ، نياشين وألقاب حكومية رفضت ، وعمت البلاد أزمة عارمة وشطتها أعنف حركة شعبية وأوسعها ، الا أن محمد علي جناح لم يشارك فيها وعدّها تضليلا للشعب وذهابا به الى هوّة سحيقة وانتقد مقاطعة الشباب المسلم للمدارس وسياسة المغزل لما فيها من ضرر بالشعب الفقير أكثر مما تضر الانجليز .

وكانت النتيجة بعد انطلاق الحركة أن ثار الشعب الهندي كالبركان ولم يستطع الالتزام التام بالنظام ، فحدثت اضطرابات في عدد من المدن الهندية ، ولكنها واصلت مسيرتها ، وقررت مقاطعة ولي عهد انجلترا عام 1921م أثناء زيارته للهند ، كما أصدر مؤتمر جمعية الخلافة المنعقد في كراتشي 1921م قرارا بانسحاب المسلمين من الجيش ، فقبض الانجليز على شيخ الاسلام حسين أحمد مدني و شوكت علي ومحمد علي ، ولما دخل ولي العهد الى الهند قوبل بالمقاطعة وأخليت له الشوارع والطرق ، وفي تلك الاثناء قرر الشعب احراق البضائع الاجنبية في احتفال كبير ، الا أنه لم يقو على التحكم في عواطفه كما أراد الزعماء ، فانطلق يحطم ويدمر فحزن غاندي وأعلن الصوم ثم قامت مشادات بين الاهالي والبوليس لم يستطع الشعب فيها الصبر فهاجم وأحرق مركز البوليس ، وهكذا فشلت الحركة الصوفية المثالية واضطر غاندي الى ايقافها في فبراير 1922م في وقت كان الشعب مستعدا للاستمرار بكل حماس ، عندها أيقن أبناء الهند أن الاستقلال مايزال بعيدا خاصة وقد قرر غاندي بدايته بسلاد ما وكأن نجاح فكرته أظهر من حرية الهند (2).

---

1 ـ مجلة ثقافة الهند ـ مجلد 18 ، عدد 2 ، أفريل 1967 ، ص 2.
(دار المصنفين بأعظم گره ، محمد نعيم الندوي).

2 ـ عبد المنعم النمر ، كفاح المسلمين في تحرير الهند ، ص 113.

واذا لاحظنا اتساق الطائفتين العظيم فان الهنادك لم يكفوا أيديهم عن الاذى فقامت جمعيات هندوسية ارهابية بقتيل المسلمين ونهبهم فسكت آره بخاطعة بهار لم ينج منها السنوم والنساء والرضع ولكن المسلمين عفوا كل مرة عما سلف حتى لايكونوا سببا في تأخر استقلال الهند (1) .وقد كان بامكانهم الرد بحركة مماثلة أين يكثر المسلمون ،ومافتئت الرابطة الاسلامية تدعوهم لنسيان تلك الحوادث وتتقدم باقتراحات للاتحاد ،ولم يزدعفو المسلمين الهنادك الا مروقا ،ففي عام 1922م قام الهندوسي سوامي شردها بحركة لرد المسلمين الى الهندوسية ،وكان يقول :" لوكان في الهند دين واحد لما حدث شيء من هذا" (2)

وكان أذى الهنادك أكبر عامل في اشتداد الخلاف بين الفريقين حيث بدا المسلمون يفكرون في مخالفة فكرة الاتحاد ومحاربتها في حين ظلت الرابطة الاسلامية تحاول اخماد نار الفرقة والخلاف ،من ذلك أن محمد علي جناح منع خواجة حسن نظامي من القيام بحركة مضادة لحركة الهنادك .

وقد اضطرت الرابطة في اجتماعها عام 1925 م الى مناقشة كيد الهنادك ،وذلك بعد صدور دستور يعطي البلاد طابعا هندوسيا ، وبعد عجز جناح في اقناع زعماء المؤتمر بالرجوع عن ذلك الدستور وضع أربعة عشر شرطا أمامهم (3) (1988م) اما أن تقبل فيساهم أعضاء الرابطة في الحركة الوطنية الموحدة ضد الاستعمار والا فسيطالب المسلمون بالانفصال عن الهنادك ، فقد رأى أن حركة غاندي عادت

---

1 ـ الاعظمي ، محمد علي جناح باعث باكستان ، ص 85.

2 ـ محمد حسن الاعظمي ، حقائق عن باكستان ، ص 84، 85، والمرجع السابق الاعظمي ، ص 79 ، 80.

3 ـ وهذه الشروط هي : .....

على المسلمين وحدهم بالبوسال ، أغلقت مدارس المسلمين وكلياتهم لتبقى جامعة بنارس الهندو سبدة لم تغلق يوما واحدا وتهرك المسلمون مناصبهم ليتقدم عليها الهنادك ويحتلوها (2) .

وقد وافق بعض الهنادك المسلمين على مطالبهم ، وأصر المسلمون عليها ، قال محمد علي جناح في خطاب له : ان لم تجيبوا هذا المطالب فستجيبونها غدا ، وأنتم مسؤولون بين اليوم والغد ، ولن تستطيع الهند أن تتقدم سياسيا الا بعد الاتحاد .(3)

---

1 ـ سن دستور أساسي للهند يخول لكل مقاطعة الصلاحية التامة في الحكم المباشر

2 ـ مساواة جميع المقاطعات في الحقوق والامتيازات .

3 ـ مراعاة حقوق الاقليات في سائر المقاطعات وتخويلهم حق التمثيل النيابي في سائر المجالس النيابية والتشريعية وحماية حقوقهم ضد ضغط الاكثرية .

4 ـ أن يكون ربع المقاعد الممثلي المسلمين في المجلس النيابي الذي سيؤسس بمقتضى الدستور .

5 ـ أن ينتخب الاعضاء الممثلون للفرق والطوائف انتخابا مستقلا مع تمتعهم بالصلاحية التي ينص عليها الدستور .

6 ـ أن لايكون في تغيير النظم التي ستجرى في سائر المقاطعات مايمس الحقوق والمزايا التي تتمتع بها الاكثرية المسلمة الموجودة في مقاطعات البنجاب والبنغال والحدود الشمالية .

7 ـ أن يضمن الدستور الهندي الجديد الحرية التامة المطلقة لجميع الملل والمذاهب في اقامة الشعائر والتعليم وغير ذلك .

8 ـ لاينفذ أي قانون أو لائحة في مجلس من المجالس التشريعية أو النيابية في أية مقاطعة ويكون ذ القانون أو تلك اللائحة تمس قوم من الاقوام أو طائفة من الطوائف مالم يوافق على ذلك ثلثة أرباع الاعضاء من ممثلي تلك الطائفة .

9 ـ فصل مقاطعة السند عن بمباي فصلا تاما بغير قيد أو شرط .

10 ـ ان تنظم مقاطعة الحدود وبلوخستان تنظيما يتفق والحالة التي عليها سائر المقاطعات .

11 ـ مراعاة حقوق المسلمين في سائر الامارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والكاملة في سائر الحقوق والوظائف .

12 ـ أن يضمن الدستور الهندي بالجديد الحرية التامة للمسلمين في اقامة شعائرهم الدينية وصيانة مقدساتهم وماسكن معتقداتهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية في التعليم والتبليغ واللغة في سائر المقاطعات والولايات المستقلة وأن تخصص لكل ايالة منحة مالية تصرف سنويا على شؤون الاسلام .

13 ـ ان لا تؤلف وزارة من الوزارات أو حكومة من الحكومات في المقاطعات الهندية مالم يمثل فيها المسلمون بنسبة التسليث .

14 ـ أن لايقبل أي تعديل أو تغيير في الدستور الهندي الاساسي بعد تشريعه الا بعد أخذ رأي موافقة سائر المقاطعات .

2 ـ الاعظمي ، حقائق عن باكستان ص70 ،

3 ـ الصراع من تقسيمه ، الرابطة تقسيمها .

ثم عرض جناح المشروع على المؤتمر الهندي فقبل بالاجماع وأعلن غاندي أن ذلك المشروع هو دستور الهند المتحدة ، غير أن نهرو الذي ترأس حزب المؤتمر عام 1929م لم يحبب مطالب المسلمين في الدستور ولا مطالب الاقليات والاحزاب السياسية الاخرى .

فعقدت الرابطة الاسلامية اجتماعا انتهت منه بالاتفاق على رفض مشروع نهرو ولم يقبل شروطهم (14) ، وعلى رفض أي دستور سالم تقبل تلك الشروط ، وكان أن واجهت الحكومة مشروع نهرو بالرفض فأعلن حزب المؤتمر العصيان المدني الذي انطلق في مارس 1930 م دون مشاركة المسلمين فمني بفشل ذريع وانتهى بسجن جواهر لال نهرو وموتي لال نهرو وغاندي (أفبرسيل - ماي - جويلية على التوالي) .

فكرة تقسيم الهند وظهور الباكستان :

أمام تلك الاضطرابات أرغمت بريطانيا على أنهاء المشكلة الهندية في مؤتمرات عديدة أعلن عقبها نائب الملك عن انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة ببلندن ، فوجهت الدعوات الى الاحزاب وحدد له نوفمبر 1930م ولما كان زعماء المؤتمر الهندي في السجن فانهم لم يحضروه ، وبينما مسلمو الهند تائهون وسط القومية الهندوسية الطاغية وينتظرون قائدا جديدا يحمل اليهم حلولا جديدة بعد ما سئموا من اخبار الوحدة ، بينما هم كذلك صعد شاعر الهند محمد اقبال الى منصة الرابطة الاسلامية في اجتماعها السنوي بالله آباد باعتباره رئيسا لدورتها (ديسمبر 1930) ، والقى خطابا على الحاضرين استلهمه من ايمانه القوي واتصاله العميق بروح الاسلام وتعاليمه ، فأحيا به نفوس مسلمي الهند بعد يأس وحزن ، منه قوله : " ... أنتم الذين تخيرتم رجلا يؤمن بأن للدين الاهمية العظمى والاثر الفعال في توجيه الحياة الفرد والجماعة على السواء ... اني لم أكن يوما في احدى الجماعات أو الهيئات قائدا ولا جنديا ، فقد استنفدت أعوام حياتي الماضية دراسة واطلاعا لحقيقة الاسلام وتفهما لفنون السياسة والآداب ... ليست الهند كأية مملكة في الغرب تجمعها وحدة الجنس واللغة والدين ، ولكنها باطن

لامم متباينة السلالات واللغات والديانات تختلف بعضها عن بعض أتم الاختلاف، ولا يمكن أن يتحد الشعور، وتتحقق وجهات النظر ... ولا يمكن العمل على انشاء ميرات الامم المختلفة بل يجب أن تعطى كل طة حق تنظيم وجودها وتسرير مصيرها بما يتفق وأسلوبها في الحياة، واني أرجو تأييدكم وموافقتكم على أن تتكون من مقاطعات البنجاب والحدود الشمالية والسند وبلوچستان دولة واحدة ... واني لأطالب بهذه الدولة الاسلامية الآ ويخامرني اعتقاد راسخ بأن هذا في مصلحة الاسلام والهند كذلك ... ان كل مايحاوله الهنادك هو اجراء انتخابات عامة يضمنون فيها أغلبية تمكنهم من أفناء الاقليات .... لذلك هم يسرّجون شائعاتهم في أن الانتخابات المحلية تنافي القومية، وتفسير القومية عندهم هو أن يفنى سكان الهند بعضهم في بعض ... واني أهيب بالمسلمين ألّا يقبلوا أي نظام يقرره الهنادك أو يفرضه الانجليز، وعليهم أن يسلكوا سبيلهم الذي ما يحفظ عليهم وجودهم في حكم مستقل، يتمتعون فيه بالحرية في تحرير مايشاءون لأنفسهم وللاسلام . (١) واذا وجد هذا الخطاب القبول والترحيب في نفوس المسلمين وبعث فيها الامل فان الرابطة الاسلامية نفسها لم توافق على فكرة التقسيم ولم تتخذها مبدأ الا بعد يأسها من التفاهم مع الهنادك .

وبعد انتهاء اشغال المؤتمر وعد رئيس الوزارة البريطانية في كلمة ختامية باستقلال الهند. وقد فشل محمد علي جناح البقاء في لندن وحضر اجتماع العائدة المستديرة لعام 1932م ممثلا للمسلمين، أما الهنادك فمثلهم غاندي الذي حاول الغاء التباحث في أمر الاقليات الذي مابعد الاستقلال، ولكنه اضطر تحت ضغط من المسلمين على قبول شروط جناح الاربعة عشر، على ألّا يؤيد المسلمون مطالب أحزاب الاقليات الاخرى ولكن شرطه رفض فعاد الى الهند ليبحث مسألة الاقليات .

عاشت الرابطة في هذه الاثناء ظروفا عصيبة حيث توفي محمد علي، ومحمد الشافعي وهما عضوان بارزان، واعتورها الضعف في غياب محمد علي جناح وتأزمت العلاقات بينها وبين المؤتمر، فاجمع أعضاؤها على اختيار جناح رئيسا

---

١ ــ عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند ــ ص 182، 186.

لهما مدن الحياة ، فاستجاب لدعوات ورسائل المسلمين وعاد الى الهند وبعودته بدأت الرابطة عهدا جديدا ، وشكلت قوة هائلة يخشاها الهندك والانجليز معا ، كما اتخذ تطابعا شعبيا ، فبعد ما كان الاشتراك فيها وقفا على الشخصيات البارزة أبيح (الاشتراك) مقابل مبلغ زهيد ، فكانت لها بذلك فروع في كل قرية ومدينة والتزم كل مشترك بقوانينها وتعاليمها فبدا اتحاد المسلمين قويا .

وفي عام 1935 م صدر دستور الهند ونص على جعل البلاد على شكل فيدرالية تضم حكومات ذاتية للهند البريطانية وأخرى للامارات ، لم يفرح به أي من الطرفين فلم يطبق ثم طلبت الحكومة من الحزبين الممثلين (حزب المؤتمر والرابطة) تشكيل الوزارة فرفضت الرابطة ووافق المؤتمر على تشكيلها ، وظنا منه أن الجو قد صفا له عرض على أعضاء الرابطة في المجلس التشريعي ومنهم جناح الاستقالة من الوزارة وتطاول أكثر فحصل توقيعهم على ميثاق المؤتمر شرطا أساسيا للاشتراك في الوزارة ولكن المسلمين رفضوا العرض المخجل فشكل الوزارة حزب المؤتمر دون اشتراك مسلمي الرابطة.

وقد هوت هذه النتيجة زعيم الهندك فقال : " لم يعد في الهند غير حزب المؤتمر وبريطانيا (1) فرد عليه جناح : "بل يوجد حزب ثالث هو المسلمون ... اننا لا نأتمر بأمر أحد ، بل اننا نعمل مع أية جماعة تعمل على تقدمنا ..." (2).

وما أن تكل الهنادك الوزارة حتى شرعوا في اضطهاد المسلمين ، وكان أول مظهر منه اعلان غاندي أن اللغة الاردية هي لغة المسلمين الدينية لانها تكتب بحروف القرآن وقام بمساعدة الوزارة بنشر اللغة البنغالية ، ثم سعى ورفاقه وغيروا مناهج التعليم بما ينافض عقائد المسلمين ووضعوا نشيدا وطنيا أجبروا المسلمين على انشاده (نشيد بسندى ماترو) الوثني الذي وضعوه خصيصا لاستفزاز المسلمين وتنفيرهم ، وقد ثارت الرابطة ضد هذه الاتجاهات التي نهجتها الحكومة وثار المسلمون في غضب شديد وقاموا بمظاهرات فرقها رجال الشرطة .

وبذلك كان الهنادك بمكرهم السبب الوحيد في طلب المسلمين التقسيم

---

1 ـ الاعظمي ، حقائق عن باكستان ، ص50 .

2 ـ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

والاستقلال عن الهنادك . والسن هذه الاثناء ظل جناح والرابطة ضد التقسيم واكتفوا بعقد اجتماع بلكنهو عام 1937م انتقد فيه جناح الهنادك بقوله : "عاملنا الهنادك معاملة سيئة جدا حتى سلّمهم كل مسلم وبعد أن أقاموا الوزارات في المقاطعات التي فيها أكثرية هندوسية أخذوا يضطهدون المسلمين ويؤذونهم ولم يبالوا بحقوقهم وجاءوا باللغة الهندية القديمة وألغوا نشيدا وطنيا وأجبروا كل شخص على انشاده"(1) ثم نوّه بمخالفة بريطانيا للوعود ، فقال : "وهي أن لم تستمر بوعدها حسب اعلانها ، فنحن مسلمو الهند نعلن ومعنا جميع المسلمين في العالم ان بريطانيا بعطها هذا تحفر قبرها بيدها"(2). كما انتهى الاجتماع بمقررات أدان فيها أعمال الهنادك .

والسن هذه الاثنا لم تخطر فكرة التقسيم ببال جناح ، الا أن اقبالا وجد الوقت مناسبا لاقناعه ، وأمطره بعدد من الرسائل ليقنعه بفكرة التقسيم . أما ادرة الرابطة الاسلامية فأجابت على سؤال طرح عليها حول فكرة التقسيم بأنه مشروع خيالي غير عملي ، وهو لا يعدو أن يكون حلم تلميذ (3) ولم يكف اقبال عن جناح فكتب اليه في عام 1938م "... لقد أنكر رئيس المؤتمر الهندي وجود المسلمين السياسي انكارا باتا ، ونظرا الى هذه الحالات لا يوجد طريق لقيام الامن والسلام في هذه البلاد الا بتقسيم الهند حسب الاصول الدينية والثقافية"(4). وكتب اليه مرة أخرى يقول : "... لا يمكن أن نحافظ على حقوق المسلمين ونرفع عنهم سيطرة الهنادك الا بتقسيم الهند ."(5).

و ظلت الرابطة وأعضاؤها أمام الحاح اقبال وكثير من المتحمسين لفكرته من المسلمين يعلنون أن هدفها هو استقلال الهند التام ، ويعطون على تقوية الرابطة في القطاع الشعبي حتى فازت في الانتخابات الفرعية لعام 1939م .

وبينما زعماء الهند وساستها في خلاف قامت الحرب العالمية الثانية وأعلن نائب الملك دخول الهند الحرب دون استشارة أحد من زعمائها ، الذين اعتبروا القرار مساسا بكرامتهم ، فاستقال وزراء المؤتمر من الحكومات التي اشتركوا فيها ، ورفض غاندي الاشتراك في الحرب في حين لم يمانع آزاد مقابل ضمانات باستقلال الهند .

---

1 ـ الاعظمي ، محمد علي جناح ، باعث باكستان ، ص82 .
2 ـ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
3 ـ عبد المنعم النمر ، كفاح المسلمين في تحرير الهند ، ص 92 .
4 ـ الاعظمي ، حقائق عن باكستان ، ص 50 .

أما الرابطة الاسلامية فكان شغلها الشاغل في اجتماعها العام بلاهور 1940م هو معالجة أهدافها ومطالبها ،وتحديدها بدقة في القرار الاخير والخطير في آن ألا وهو انشاء دولة اسلامية في الهند واقامة الباكستان بعد ما فشلت كل محاولاتها مع حزب المؤتمر وأعضائه المتعصبين ،وذكرت الرابطة أنها لن تقبل أي تعديل في الدستور ،ولن تقبل أي حلّ سوى ايجاد حكومة اسلامية ،ولن تحيد عن قرارها في محادثاتها مع المؤتمر الهندي أوالمستعمر .

ولم تلبث فكرة التقسيم أن عمت أرجاء الهند واجتازتها الى العالم فحطمت آمال الهنادك في حكم البلاد والانتقام من المسلمين ،ثار الهنادك وهاجوا واحتجوا على التقسيم وأعلنوا عن رفضهم لانه في زعمهم يقضي على وحدة الهند ،وحينها فقط بدأ زعماؤهم يدعون الانصات للمسلمين بعد صمّ آذان طويل ،وراحوا يطالبون المسلمين بتوضيح الفكرة فأجابهم جناح :" سنجيب على كلّ شيء ولكن بعد الاعتراف بهذا المشروع وقبوله ... أقبلوا أصول التقسيم وتعالوا نجلس سويا نتفق على التفصيلات"(1) . وفي الوقت نفسه أجاب على أعتراض الانجليز بقوله :" فصلت ايرلندا عن انجلترا وعقد التقسيم يشمل على عشرة سطور فقط وكان تقسيم انجلترا من المسائل العويصة جدا سببت لبريطانيا وساستها قلقا مستمر طوال قرون متواليه.."(2) .

وقد أيقن الهنادك - وهم يعرفون المسلمين جيدا - أن المسلمين لن يتراجعوا عن القرار، قال غاندي :" ان المسلمين جميعا لو اتفقوا على أخذ الباكستان فلن توجد قوة تمنعهم من أخذها "(3) . ثم كتب مقالا جاء فيه :" لو اتفق مسلمو الهند على ان ينفذوا هذا المشروع فلن توجد قوة على الارض تحول بينهم وبينه (4) .

وبعد فوات الاوان راحوا يقدمون للمسلمين اقتراحات جديدة للحفاظ على حقوق المسلمين التي رفضوا الاستجابة لها من قبل. وفي ديسمبر 1942م أعلن نائب الملك عن وجوب الوحدة الجغرافية في الهند ،وأنه لايمكن تغيير جغرافية الهند فاحتج المسلمون واضطر نائب الملك الى الاعلان - فيما بعد - عن امكانية اقامة حكومتين في الهند وذلك عام 1945م ثم أعلن غاندي عن

---

1 - المرجع السابق ،ص 51 .

2 - المرجع نفسه ،الصفحة نفسها .

3 - الاعظمي ،محمد علي جناح ، باعث باكستان ، ص104 .

امكانية تشكيل ولايات اسلامية داخل اتحاد عام ،على أن يؤجل الامر الى مابعد الاستقلال ،ويترك للمجلس التشريعي أمر البت فيه ،فأصر جناح على فكرته وأنه لن يقبل أية مساومة بعد ما أفهم العالم كله أن قيام الباكستان هو الطريق الوحيد لاستقلال الهند ،وتصدى للرد على المعترضين من ذلك ردّ ه على رئيس الوزارة البريطانية ،الذي قال بأن الحكومة لن تسمح للأقلية بأن تكون حجر عثرة في سبيل تقدم الاكثرية الذي جاء فيه ،: "... لوكان ضروريا أن نطالب بحقوقنا ونخضع الحكومة لقبول هذه المطالب بقوة ،وباندار وباراقة الدم فان المسلمين سيبيدون للبريطانيين غدا من يستطيع أن يسيل الدم أكثر" (1) وبين أنه إن لم يقبل المشروع فسيثور المسلمون ثورة دموية ،ولما سأله أحد مندوبي الصحافة ماذا تقصد بالثورة أجاب: "أقصد بالثورة الثورة." (2) وفي انتخابات 1944م فاز المسلمون فوزا ساحقا ،وبذلك الانتصار أيقن الناس أن الرابطة الاسلامية حزب يمثل المسلمين والمؤتمر حزب يمثل الهندوك ،ولكن الهندوك رغم يقينهم بنصر المسلمين قاموا باضطرابات عنيفة كثرت فيها الذابح وأريقت دماء الابرياء وسالت في الشوارع ،ومثل بجثث القتلى مما دفع بالمسؤولين في الهند ولندن الى التعجيل بحل للخروج من شبح الحرب الاهلية المشتعلة بين الهندوس والمسلمين والمتجددة بين الحين والاخر .

اذ لم يعد بدّ من التسليم بالامر الواقع وقبول التقسيم الذي غدا عقيدة المسلمين ،وقبل حزب المؤتمر مرغما الفكرة وأعلنت الموافقة العامة عليها في الثالث من حويلية 1947م وأذاع الزعماء الثلاث ،محمد علي جناح ،باندیت جواهر لال نهرو ، السردار بالديف سنغ(ممثل السيخ) المشروع على الشعب وأوصى كلّ اتباعه بقبوله .

وهكذا صار حلم التلميذ حقيقة ،وظهرت باكستان الى الوجود في عام 1367هالموافق لسنة 1947م. وتحقق حلم اقبال بعد وفاته ، ذلك أن الحكومات تولد في قلوب الشعراء وتنشأ وتهدم بأيدي الساسة .

---

1 ـ المرجع السابق ،ص 109.
2 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .
3 ـ أنظر المرجع نفسه ،ص 125.

الفصل الثاني

محمد إقبل، حياته وآثاره .

اولا: حياة اقبال

- أسرته
- ميلاده
- التعليم و الأسفار
- اقبال في أروبا
- عودته إلى الوطن
- إقبال و السياسة
- العوامل المؤثرة في تكوين اقبال

ثانيا : آثار إقبال .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : حياة اقبال

ان الحديث عن شخص اقبال الرجل الذي فرضت اعماله وافكاره نفسها على العقول والاذواق فراح الناس يلهجون بذكره في مشارق البلاد ومغاربها ، مسلمين وغير مسلمين واعتبرت الاقلام للاشادة به حتى كادت الدراسات المتعلقة حوله ان تبلغ الالفي دراسة (1) في لغات عديدة ليحتاج الى تبحر عميق ومعاشرة طويلة لتلك الروح المحلقة لتجناح في فضاء التصوف العلمي الايجابي ، والمحركة للاوضاع المتردية التي بلغتها الشعوب الاسلامية بجناحها الآخر .

فهو الرجل الذي اعتز به المسلمون واعترف بفضله المناوئ وهم الذين خالفوه في الرأي والمعتقد وكادوا له مثلما كادوا للمسلمين ، واعترف له مفكروا الغرب وانصفوه ، وتخصص بعض علمائه في دراسته وتعمقوا في شعره لأنه لم يكن شاعرا بالمعنى الذي تتعارف عليه الناس ، وانما هو قوة مبينة كان الشعر بعض أدواتها ، فهو الشاعر والفيلسوف والمصلح والداعية المسلم والباحث في الاقتصاد والمحامي والرجل في آن واحد ، جمع بين كل هذه المواهب واتخذ الشعر المتنفس الاول لها ، وكأننا به يخاطب في ذلك كل شاعر أو كاتب ويقول له ، انما الشعر مواقف ، وانما الشعر قلب وتغيير وخلق جديد وانما الشعر صانع الشعوب ومنجب الاوطان ومادولة باكستان الا حلم من أحلام اقبال استطاع أن يوجد له مكانا في قلوب المسلمين وعزيمة في نفوسهم أنجبت بعد موته بأعوام قليلة دولة مسلمة كان هو الأب الروحي لها ، وفي ذلك قال : أما الدول فتولد في صدور الشعراء وتنشأ وتموت في أيدي أهل السياسة . (2).

الاسرة والمولد :

أسرته :

ينحدر اقبال من أسرة برهمية كشميرية أعلنت اسلامها قبل ميلاده بحوالي مائتين وخمسين عاما (3). ذلك أن الاسلام منذ

---

1 - أبو الحسن الندوي ، روائع اقبال ، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة الجزائر ، ص7 .

2 - ب ، فايشر ، الشرق في مرآة الغرب ، دار سراس للنشر تونس - ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص77 .

3 - جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ، ترجمة شهيند خت كامران مقدم ، اقبال اكاد مي ، باكستان ، چاپ 1987 ، جلد أول ، ص41 .

دخوله شبه القارة الهندية وهو يكسب اتباعا جددا ويلامس شغاف قلوب جديدة الى يومنا هذا .

تعود أسرة اقبال الى قوم "سپرو" وهو لقب مذهبي في الديانة البرهمية يدل على كرامة الاصل وعراقة المنبت .(1)

أسلم جده الاعلى بابا لول حج في عهد الملك عالمگير أورنگزيب على يد رجل صالح من العبّاد والزهّاد هو الشيخ "همداني" أحد أئمة المسلمين في ذلك العصر ،كما كان الشيخ "نصر الدين ولي" ، مرشدا له (2) ، فقد آمن وحسنت عقيدته وعدّ من مشاهير مشايخ كشمير ،ومن أبنائه "شيخ أكبر" الصوفي الزاهد الذي كان على قول اقبال أب الاسرة (3). ومنه كان الشيخ محمد رفيق الذي ولد له "محمد نور" (والد اقبال) .

اختار الشيخ محمد رفيق ، جدّ اقبال واخواه "محمد رمضان" و"عبد الرحمن" الهجرة من كشمير (قرية لوهر) الى سيالكوت بحوالي مائة وخمسين عاما قبل ميلاد اقبال ، هجروا كشمير لأنها كانت آنذاك تحت سلطان الافغان (1752م - 1819م) ولأنها كانت تعيش فترة اضطراب وهرج ونهب من سلطان الافغان ، مما اضطر أبناءها الى الهجرة نحو الهند والبنجاب (4) وهذا ماحدا بالدكتور عبد الوهاب عزام الى القول أن كثيرا من أهل الهند يرجعون الى أصول كشميرية (5) .

أقام الجدّ محمد رفيق مع أخويه في سيالكوت وكان الشيخ محمد رمضان صوفيا ألف كتابا بالفارسية ،بل ان النزعة الصوفية ظلت غالبة على الاسرة فيما بعد حتى على اقبال نفسه ، وكان في مساعدة محمد رفيق على طلب الرزق ابنه محمد نور الذي تشبعت نفسه بروح الاسلام ورقت مشاعره ، ومنه انتقلت تلك النفحات الى قلب اقبال ، فلم يخفها . اذ كثيرا ما أشار الى أصله البرهمي ودينه الاسلامي ، كما كان كثير الفخر بذلك الاختيار ، من ذلك رسالة وجهها الى

---

1 - المرجع السابق ،ص 33.

2 - المرجع نفسه ،ص 41 ، ومع اقبال لعبد اللطيف الجوهري ، مكتبة النوره مصر ، ط 1 ، 1405 ، 1986، ص 15.

3 - د/ جاويد اقبال ،جاويدان اقبال ، مجلد 1 ،ص 47.

4 - المرجع نفسه ،ص 48 ، 56.

5 - عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 15.

الى صديق مسلم هاشمي ذهبت به ريح الفلسفة الحديثة بعيدا ،وزلزلت عقيدته ،جاء فيها :" أنا رجل كما تعرف انتهى في أصلي الى سومنات، وكان أبي من عباد اللاة ومناة ،وان أسرتي عريقة في البرهمية ولكن يجري في عروقك دم الهاشميين وتنتهي الى سيد الاولين والاخرين وبعد ذلك أقول أن الحكمة والفلسفة ليست الا حجابا للحقيقة ،وأنها لاتزيد صاحبها الا بعدا عن صميم الحياة ... لقد انطفأت شعلة القلب في حياتك أيها السيد ، وفقدت شخصيتك فأصبحت أسيرا لبرغسون (1) ان الدين هو الذي ينظم الحياة ،انه لا يكتسب الا من دين ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم"(2).

فمع اشتغال الشيخ نور محمد بالتجارة حيث كان أول من استعمل ماكينة خياطة في سيالكوت كان على صلة بالعلماء والمتصوفة ،ومع أنه لم يدرس في كتيبة فقد استطاع أن يقرأ الفارسية والاردية ،وأن يستفيد من مجالس العلماء والمتصوفة ويحصل الكثير من الحكم حتى سماه بعض علماء عصره بـ"الفيلسوف الامي" ومما أثر عنه أنه كان كثير التلاوة للقرآن الكريم.(3) ربى الشيخ ابناءه على مأدبة الرحمن فقد أمضى ثلاث سنوات يسأل ابنه الذي علمه تلاوة القرآن بعد صلاة الصبح عما يغسله ،وكان الطفل يجيب بأنه يقرأ القرآن وظلا على تلك الحال ،الوالد يطرح السؤال نفسه وكأنه يهدف الى ما وراء السؤال ،والابن يجيب ويعيد الاجابة نفسها ،ومرة وكأن نفس الطفل المحدودة الافق ضاقت بالامر فأجابت :"مابالك يا أبي تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابا واحدا ،ثم لايمنعك ذلك من اعادة السؤال من غد ؟".

فيقول الوالد :"انما أردت أن أقول لك ياولدي اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك". وعلى تلك الاجابة عقب اقبال بقوله :"ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ماقتبست ومن درره ماظفرت"(4).

---

1 ـ هنري برغسون (1859 ـ 1941) ،فيلسوف مثالي فرنسي ،هو ممثل الحدسية والمفهوم الرئيسي لمثاليته هو الديمومة الخالصة أي اللامادية ببرآرائه عن المجتمع قهر طبقة لأخرى باعتباره حالة طبيعية وباعتبار الحرب قانونا للطبيعة محتط (الموسوعة الفلسفية ،ص42).

2 ـ أبو الحسن الندوي ،روائع اقبال ،ص 76 ـ 77.

3 ـ جاويد اقبال ،جاويدنامه ،جلد 1 ، ص 63.

4 ـ عبد اللطيف الجوهري ،مع اقبال ، ص 18.

ومما سجله اعترافا بفضل تربية والده عليه تلك القصة التي ضمنها ديوانه "الاسرار والرموز" يروي فيها أن سائلا طرق بابهم فطار اليه اقبال يدفعه طيش الشباب وضربه على رأسه بعصا فتبعثر ما جمعه بالسؤال ،وكان أن اغتم الوالد وتألم وبدت عليه علامات الاسى وانهمرت عيناه بالدموع عندها اضطرب اقبال وطار لبه لاسيما وقد توجه اليه باللوم والتأنيب وأخبره بأنه سيتحمل خطأ ابنه ويسأل عنه يوم القيامة.(1)

وكان الوالد الى جانب هذا الورع والنزعة الصوفية الجلية رجل أعمال يكسب رزقه من كدّه (2) ، وكانت أم اقبال "امام بي" تحسن كتابة الاردية ،وعلى علم بتعاليم الدين ،وكانت تقية ورعة ،الى حد أحجمت فيه عن الاكل من مال زوجها - مع ما تعرف من اخلاقه وورعه - لمجرد ان له صديقا "نائب وزير علي" عرف بأكل الرشوة وقد صرّح محمد نور أن الذي بينهما ليس تجارة وانما هو ذلك النقاش الذي كان يدور بينهما حول التصوف.(3)

وكما أشاد بمآثر أبيه فقد سجل أبياتا في علو همة أمه وسموّ نفسها ،قال في ديوانه "بانگ درا": "سامیت النجم بتربيتك ،وكان فخر الاباء والاجداد بيتك ،كانت حياتك صفحة مذهبة في كتاب الكون كانت قدوة في الدين والدنيا." (4)

توفيت والدته عام 1914 (1333هـ) عن عمر يناهز الثلاثين واسبعين عاما وعمّر والده الذي مايقارب المائة ،وتوفي عام 1930 ،(1349 هـ).

ميلاده :

من المثير للعجب أن يختلف الدارسون في تاريخ مولد ، اختلافا شديدا مع قرب عصره وانتشار الكتابة فيه ،ومع أن عددا منهم أثبت ذلك في حياة اقبال فانه لم يسمع منه اعتراض أو تصحيح ولا من أحد أقاربه ،ولو كان الاختلاف في اليوم أو الشهر لكان ذلك مقبولا ،ولكنه تجاوز ذلك الى سنة ميلاده ، وكان فارق الاختلاف بين الدارسين سبعة أعوام (1870 - 1877م).

---

1 - محمد اقبال ،ديوان الاسرار والرموز ، ترجمة د/ عبد الوهاب عزام ،ص 118 - 119.

2 - محاضرة القيت بالازهر - 1967 ،كلمة سجّاد حيدر ،ص10 ونشرت في كتيب بعنوان محمد اقبال فيلسوف الاسلام وشاعر باكستان ،كلمة السيد أحمد حسن الباقوري والسيد سجّاد حيدر.

3 - د/ جاويد اقبال ،جاويدان اقبال ،مجلد 1 ص115 - 116.

4 - د/ عبد الوهاب عزام ،محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ،ص18.

من الذين قالوا بميلاده عام 1870م "لا لـه سـرى رام" في كتابه "خمخانة جاويد" (طبع سنة 1908م) والسيد "سر راس مسعود" في "انتخاب زربن" (طبع عام 1921م) والنواب "ذو الفقار على خان". ويمكن القول أن هذين الاخيرين وغيرهما أخذوا عن كتاب خمخانة جاويد، باعتباره سابقا، وأما لا عتبار اقبال من مواليد 1872م فتاريخ انفرديه الدكتور "خليفة عبد الحكيم"، و"عبد القادر سروري" (1). أما الذين قالوا بمولده عام 1873م فحوالي خمسة عشر دارسا منهم "جراغ حسن حسرت" في كتابه "حيات اقبال" (طبع عام 1938م) "محمد حسين خان" في "اقبال" (طبع عام 1939م)، "أنور بيگ" في "شاعر مشرق" (1939م) و"آنا ماري شيمل" في ترجمة "بال جبريل"، (طبع عام 1963م) (2). ومن الذين اعتبروه من مواليد 1975 السيد ذو الفقار على خان الذي تراجع عام 1922 عما كتبه من قبل (3).

في حين يقول اقبال عن نفسه: "كان ميلادي في الثالث من ذي القعدة من سنة 1294 هجري بسيالكوت (بنجاب — الهند) وقال: "تاريخ ميلادي قريب (حوالي) من 1876م)" (4) وهي السنة التي اتفق عليها عدد من الكتاب والسير في جواز السفر (5).

ولعل الارجح والاقرب الى الصواب أنه من مواليد 1877م، من الذين قالوا به المستشرقان الالمانيان "كاتيمللد سيمون" في كتابه "أسلام" (طبع عام 1937م) وفلسوك في كتاب له عن اقبال (طبع عام 1964م)، والمستشرق الروسي "كوبيكو"، وهو التاريخ الذي تذهب اليه دولة الباكستان وتراه صحيحا، فقد أصاب اقبال عندما ذكر أنه ولد في الثالث من ذي القعدة 1294 هـ حوالي 1876م والمقابل لهذا التاريخ هو التاسع من نوفمبر 1877 ومما يؤكد هذا أن أخاه الاكبر ولد سنة 1859م (6) وأن الكتب لم تختلف في ذلك كما لم تختلف

---

1 — جاويد اقبال، جاويدان اقبال، مجلد 1، ص 81.

2 — المرجع نفسه، ص 87، 88.

3 — المرجع نفسه، ص 82.

4 — يقول: "تاريخ تولد من نزديك 1876 ميلادي أست" المرجع السابق ص83. ويقول: "من در سوم ذي القعدة 1294 هجري در سيالكوت بنجاب (هندوستان) تولد يافتم"، المرجع نفسه ص 102.

5 — جاويد اقبال — جاويدان اقبال، مجلد أول، ص84.

6 — المرجع نفسه، ص 114.

في فارق السن الذي بينه وبين اقبال (18 سنة).

وهكذا ننتهي الى أن اقبال من مواليد الثالث من ذي القعدة 1294هـ الموافق للتاسع من نوفمبر 1877م .

التعليم والاسفار :

كان والده محمد نور اول معلم تلقى على يديه المبادئ الاولى وقد كان — وهو صاحب الميول الصوفية — دائم الامل أن يتعلم ابنه الدين فقط ، فلما بلغ الرابعة وأربعة أشهر ذهب به الى دروس الشيخ غلام حسن ، وهكذا شرع في حفظ القرآن ، الا أن الشيخ بقيافته رأى أن الطفل يصلح علاوة على العلوم الشرعية لتعلم العلوم الحديثة في المدارس(1) .

ولا يدري كم حفظ هناك من القرآن الكريم ، ولكن من غير شك أنه حفظ جزءا غير يسير ، طفلا وفي مراحل عمره الاخرى ، فقد علم القرآن في كبره ، كما تشهد أشعاره ومقالاته على تشبعه بنفحات القرآن التي كانت تجري على لسانه مجرى الانفاس ، وبعد تفكير اقتنع الشيخ محمد نور فأدخل ابنه المدرسة الاسكوتية بسيالكوت (2) ، ليكون تحت رعاية صديقه الاستاذ مير حسن الذي شرع في تعليمه الادبين الفارسي والعربي وفي تلك المدرسة عرف اقبال بجده وفاق أقرانه في الفهم والتحصيل فنال جوائز كثيرة (3)، وتأثر في حياته التعليمية الاولى باستاذه مير حسن العالم المستنير الفكر الذي كان يحرص في تعليمه وتربيته على الجمع بين المصالح الدينية والدنيوية ، حيث كان مسلما بالعلوم الاسلامية والحديثة معا ، وكان الى جانب ذلك شاعرا ينظم في العربية والفارسية والاردية والبنجابية فهو فوق تعليم اقبال وتربيته رعى موهبته الشعرية وحبب اليه النظم بالاردية بدلا من البنجابية (4) باعتبار الاردية اللغة الاكثر رواجا من غيرها في شبه القارة الهندية آنذاك .

---

1 — المرجع السابق ، ص 114 .

2 — عبد الوهاب عزام — محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 19 ، (أما الباحث صلاح الدين بن شمس الدين فورد ت عنده مدرسة سكاتش التبشيرية) .

3 — عطية سلمان عودة ، مشكلة الوجود والمعرفة في الفكر الاسلامي الحديث عند كل من الامام محمد عبده ومحمد اقبال — دراسة مقارنة — دار الحداثة ، ط1، 1985 ، ص 49

4 — د / عبد الوهاب عزام — محمد اقبال ، فلسفته وشعره ، ص 20 .

ظل اقبال وفيا لذلك الاستاذ ، فقد أشاد بذكره في شعره ، من ذلك في قصيدته التي سجلها عند ضريح "خواجه نظام الدين أوليا" عام 1905م وهو في طريقه الى انجلترا لمواصلة الدراسة ، كما أشاد به في قصيدته المعروفة بـ"أمنية الغريب" وفوق هذا الاعتراف لاستاذه بالفضل فانه عندما عرض عليه حاكم لاهور لقب "سير" عام 1923 تكريما له اشترط لقبول ذلك اللقب أن تكرم الحكومة أستاذه مير حسن ، فأجيبت رغبته وحمل من حينها وسام شمس العلماء (1) .

وقد أغاظ قبول اقبال ذلك اللقب أحد محبيه وهو "عبد المجيد سالك" فقال : "سجد اقبال على عتبة الحكومة" ، وقد ندم على قولته تلك أما اقبال فكتب مجيبا أحدا من أصدقائه ، مبينا أن لا أحد يستطيع أن يثنيه عن قول الحق ، يقول : "أحلف بالله العظيم الذي بيده حياتي وموتي ، وأحلف بذلك العظيم الذي كان سببا لايماني بالله واسلامي ... لا تستطيع أية قوة في العالم أن تمنعني عن قول الحق" (2)

بدأ نظم الشعر في صباه ، فقد كان يقول جملا موزونة ويكتب بعض الغزليات وكان أول من صحح له أستاذه مير حسن ، كما أرسل مجموعة من شعره الى الشاعر الهندي "نواب مرزا داغ" لينقحها ، فكتب اليه يخبره أن شعره في غير حاجة الى تنقيح ، وتمر الايام ويستمر داغ الى أن يقرأ روائع اقبال ويفاخر بأنه نقح له الشعر في صباه. (3)

وكان من أول شعره الذي استرعى انتباه الناس بيتا أنشده في ندوة شعرية وقد كان حينها تلميذا ، قال فيه : "لقد التقطت القوة (العناية) الالهية قطرات الندم من جبيني على أنها لآلئ" . (4)

في عام 1895 اجتاز امتحان القسم العاشر بأعلى معدل ومنحة ممتازة وفي السنة نفسها انتقل الى لاهور عاصمة البنجاب التي كانت حينها دار علم وأدب تضم مجامع أدبية تحرص على نشر اللغة الاردية

---

1 - جاويد اقبال ، جاويدنامه اقبال ، جلد 1 ، ص133 ، و صلاح الدين بن شمس الدين الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال - رسالة دكتوراه - مخطوطة مقدمة الى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، شعبة الادب والنقد ، ص38، 1407هـ - 1987م .

2 - مجلة ثقافة الهند - مجلد 39 - عدد 1 - 2 - 1988م ، (أبوالكلام آزاد ومعاصره شاعر الشرق ، محمد اقبال - نظرة على علاقتهما ، البروفسور عبد القوي دسنوي ص160)

3 - جاويد اقبال ، المرجع السابق ، ص143 ، 146 و عبدالوهاب عزام ، محمد اقبال فلسفته وشعره ، ص21 .

4 - كلمة السيد سجاد حيدر ص10

وتنظيم المناظرات والمناظرات وهي سنة شائعة في شبه القارة الهندية وهناك التحق بالكلية الحكومية (Government College) المعروفة حاليا في لاهور بكلية اقبال (1) وبها أظهر من الذكاء والمواهب ما فاق به أقرانه وحصل على أوسمة ختمها بتحصيله على شهادة الليسانس (B.A) بامتياز عام 1897م (2) ،عين بعدها أستاذ اللفلسفة في الكلية نفسها ،كما عين عام 1899م في كلية اللغة الشرقية مدرسا للغة العربية الى عام 1903م وهي الكلية التي كان السير "توماس آرنولد" رئيسا مؤقتا لها ،فاتصل به اقبال وقامت بينهما صلات وطيدة تحولت الى صداقة ظلت متينة الروابط الى أن توفي العالم الانجليزي توماس عام 1930م (3).

وظل اقبال يذكر أستاذه ويشيد بفضله في شعره (4).

وبعد تدريسه التاريخ والعربية مدة سنتين (1899 ـ 1903م) عين لتدريس الفلسفة واللغة الانجليزية في الكلية الحكومية (1903 ـ 1905م) ،وأثناء اقامته بلاهور فاز اقبال باعجاب طلابه وزملائه ،فذاع صيته وغدا من أساتذة لاهور النابهين .

ولما كان مقيما بلاهور فقد أقام صلات بشخصيات بارزة في عالم الفكر والثقافة أمثال العلامة "شبلي النعماني" والشاعر "ألطاف حسين حالي" و"محمد حسين آزاد" ،كما انضم الى "جمعية حماية الاسلام" عام 1899م وصار عضوا بارزا فيها (5).

كما شارك بشعره في "جمعية سلمي كشمير" التي كان من بين أهدافها تصحيح بعض التصورات الخاطئة حول الاسلام وكذلك تصحيح العادات، ثم صار مديرا لهذه الجمعية عام 1901م ومديرا عاما لها بعد عودته من أوربا (6).

هذا وقد ظهرت فعاليته اثناء اقامته بلاهور في التدريس والتحقيق وكان له تنوع في الاهتمامات فقد درّس العربية والانجليزية والتاريخ والفلسفة

---

1 ـ صلاح الدين بن شمس الدين ،الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال ،ص39.

2 ـ جاويد اقبال ،جاويدان اقبال ،ج 1 ،ص54.

3 ـ اسماعيل العربي ،نماذج من روائع الادب العالمي ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986، ج3،ص191.

4 ـ عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال ، ص25.

5 ـ جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ،ج 1 ، ص455 ،177.

6 ـ المرجع نفسه ، ص 168.

وألف كتبا وترجم أخرى ، كما واكب ظروف شعبه بأشعاره ، واتصل بجمعيات شعرية وحضر بعض مشاعراتها ، ولم يشارك بشعره حتى نوفمبر 1895م كما نشر نشر بعض قصائده في مجلات وجرائد البلاد ، نحو : "أخبار عالم وطن" ، "بيناه أخبار" ، والجريدة الادبية "مخزن" أين نشر أحسن قصائده "همالة"(1) وقد نجا في تلك الرحلة من سنة الغزل التقليدي الذي سار عليه المبتدئون ولجأ الى الغزل المجازي .

وهذا يعني أن الدراسة وتحضير اقبال للماجستير لم يشغلاه يوما عن النظم اذ الشعر عنده احدى وسائله لمعالجة عظام الامور ، بل هو لقاح اتسعات الدول .

هذا وقد لفتت قصيدته همالة ، أو جبل همالة ، الفارسية التركيب الانجليزية الافكار ، اليه الانظار ، فطلب اليه أصحاب الصحف والمجلات نشرها وبعد اعتراض نشرها عام 1901م في مجلة الاستاذ "عبد القادر المحامي" ثم نشرت قصائده في صحف أخرى (2) .

والملاحظ أن اقبال منذ بداية كتابته الشعر لم يسبح في بحر خياله ولم يكن بشعره برجا عاجيا بعيدا عن ظروف وطنه وقضايا عصره . فقد اهتم بما سي الشعوب وهمومها وولج بحر السياسة وتحدث عما تحيكه يد الاستعمار ونظم في ذلك قصائد تعرض فيها للسياسة كما ترجم قصائد لشعراء مختلفين من الانجليزية .

وقد ضرب المثل الاعلى للطالب الجاد الذي فاق أقرانه ألمعية ونباهة وزاد الى ذلك ما أوتيه من خلق رفيع ووفاء يشهد عليه ماكان له مع استاذيه السيد مير حسن والاستاذ توماس أرنولد ، ولعل ذلك كان سببا في تقدير أساتذته واعترافهم بمواهبه ، ومصاحبته ومصادقته بعد ذلك .

كما ضرب مثلا للشاعر المبدع الذي ينظم الشعر بلغات غير لغته الفارسية والاردية والانجليزية اذ يندر من يكتب وينظم بلغتين غير لغته (3) .

---

1 ـ جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ، ج 1 ، ص158 (في جبال الهملايا)
2 ـ عبد الوهاب عزام ـ محمد اقبال ـ ص 42 .
3 ـ مجلة المجلة ، مجلد 7 ، عدد 41 (محمد اقبال فيلسوف الباكستان وشاعرها ، يحيى الخشاب)

اقبال في أوربا :

كان اقبال الى جانب تدريسه بالكلية الحكومية والى جانب تلك الدراسات والترجمات والاشعار يعد لرسالته للماجستير (شعبة الفلسفة) وشارك في مسابقة (E.A.C) للحصول على درجة القاضي ولكن اللجنة الطبية رفضته بحجة عدم صلاحيته للمنصب صحيا (1) وما أن حصل على الماجستير حتى ناداه حنينه الى العلم ففكر في الاستزادة منه ببلاد الغرب بعد ما خابت آماله في المسابقة وبتشجيع من أستاذه "أرنولد" وبموافقة من وزارة المعارف التي فاز بثقتها عزم على الرحيل الى أوربا. في الثاني من شهر سبتمبر 1905م خرج في صحبة بعض الرفاق متجها الى محطة دهلي وقبل مغادرته الطار عرج على ضريح الشيخ نظام الدين أوليا الذي يعتبر من أعظم مزارات الهند وأكثرها قاصدين، كما مر في طريقه على مزار السلطان "همايون" ثاني ملوك الدولة المغولية في الهند (2). ومر على قبر الشاعر الهندي المسلم "ميرزا أسد الله خان غالب" ومن لاهور اتجه الى بمباي فالى انجلترا، أين حط الرحال بكمبريدج في الخامس والعشرين من سبتمبر، وسجل بجامعتها بمساعدة أستاذه أرنولد (3) وهناك شرع في دراسة الفلسفة والحقوق وتتلمذ للاستاذ "ميغ تيغرت" ثم ربطته به صداقة وطيدة، وقامت بينهما محاورات في مسائل التصوف والعرفان وكانت لاقبال معه مراسلات ومع الاستاذ "نيكلسون"، كما أقام صداقة بالاستاذ "براون" (4).

وفي الوقت الذي شرع في اعداد أطروحته للدكتوراه "تطور الميتافيزيقا في بلاد فارس" (THE DEVELOPEMENT OF METAPHISICS IN PERSIA) كان على صلة بالحقوق وطلبها أيضا.

نال بأطروحته تلك شهادة الدكتوراه عام 1907م ، وتولت الجامعة نشرها عام 1908م(5) وفي ربيع 1907م قصد ألمانيا وسجل الدكتوراه في جامعة ميونخ

---

1 ـ صلاح الدين بن شمس الدين، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال، ص40.

2 ـ عبد الوهاب عزام، محمد اقبال، ص27.

3 ـ جاويد اقبال، جاويدان اقبال، ج 1 ص214.

4 ـ المرجع نفسه، ص217، وصلاح الدين بن شمس الدين، ص41.

ـ كلاهما مختص في الاداب الشرقية، فقد صنف نيكلسون أسرار اثبات الذات بالانجليزية كما ترجمها تيسرت.

5 ـ اسماعيل العربي، نماذج من روائع الادب العالمي، ج 3، ص192.

حيث استثنى من قانون الاقامة والدروس الاجبارية ،اذ قبل فيها بامتحان أجراه في اللغة الالمانية بعدما تعلمها بالمدينة الرومنطيقية الشهيرة هيدلبرج "وفي خريف السنة نفسها قدم أطروحته للجامعة تحت اشراف الدكتور هومّل (HOMMEL) المستشرق المتخصص في اللغات السامية ونال بها الدكتوراه (1) ، وهي الاطروحة التي سبق أن نال بها الدكتوراه في الجامعة البريطانية .

وفي نوفمبر من السنة نفسها عاد الى لندن ليستعد لامتحان الحقوق النهائي الذي كان فيه سنة 1908 م وقد اجتازه اقبال ونال شهادة تؤهله لممارسة المحاماة ، وانتسب الى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن وتخصص في المادتين (2).

ومما لا شك فيه أن مسلما طموح عزمه الحر كل وقت لارادته لن يكون همّه أخذ العلم دون عطاء لاسيما وهو في بلد تداعت فيه الصيحات ضد الاسلام والمسلمين وارتفعت الدعوات التي تقيد كل صوت مسلم حر . فمما لاشك فيه أن اهتمامات اقبال ومشاغله الاخرى كانت تعيش الى جانب أطروحته العلمية .

ففي لندن عين استاذا مؤقتا للغة العربية باختيار أستاذه ارنولد وطيلة غيابه (3) وهناك في بلاد الغرب وسع طالعاته وبخاصة في الفلسفة والادب وأظهر ميلا الى الشعر الالماني ، فبعد طالعته لديوان "حافظ الشيرازي" شرع في قراءة الديوان الشرقي للشاعر الغربي غوته ، وأظهر تعلقا بجامعة ميونخ وكتب لأجل ذلك عددا من المقالات ، كما قرأ لأدباء انجليز وتأثر بهم أمثال "شكسبير" ، "ملتن" ، "وردزورث" ، "شلّي" ، "بايرون" و"سانيو آرنولد" و"أمرسون" (4).

ولم يجد اقبال فرصة تربط بالعلم وأهله الا اغتنمها ، فلم يكن يلقى طالعا الا وتحدث اليه وتداول معه الرأي ، وهناك في بلاد الغرب القى محاضرات عن حقيقة الاسلام الطاهرة ردّ فيها مطاعن المستشرقين ، وأكسبته شهرة في بلاد الغرب فعد باحثا دينيا في عصره (5).

---

1 ــ ب ، فاشر ، الشرق في مرآة الغرب ، ص 76 .

2 ــ نجيب الكيلاني ، اقبال الشاعر الثائر ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ، ط 1 1959 ، ص 28 .

3 ــ الندوي ، روائع اقبال ، ص 31 .

4 ــ جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ، جلد 1 ، ص 229 ــ 239 ــ 240 .

5 ــ صلاح الدين بن شمس الدين ، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال ، ص 42 .

وهو في كل ذلك لم يجذبه بريق الحضارة الغربية ، فظل الطالب المسلم الهندي الذي ينشد قبل عودته الى الهند شعرا في زيف الدنيا:

ياساكني ديار الغرب ليس حارس الله حانوتا . ان الذي توهمتموه ذهبا خالصا ستروونه زائفا ، وان حضارتكم ستذبح نفسها بخنجرها ، ان العش الذي ينبني على غصن دقيق لا يثبت". (1)

وعن تلك الفترة التي قضاها اقبال في بلاد الغرب يقول : "لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بأتمد مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ".(2).

وأمام تلك الآفاق التي انفتح عليها اقبال كاد الشعر أن يغرب من عالمه ، فقد تنازعه تياران ، طريق العمل وطريق التفكير العميق ، وساورته رغبة في هجر الشعر والخوض فيما يحيط به ، وظن أن الحوار الفكري أحسن طريق لنقل الافكار وأحسن سبيل للاصلاح وظن أن ما يكتبه من أفكار حديثة تكاد تضيق عنها أوزان الشعر وقيوده ، الا أن من حوله ومنهم صديقه السير عبد القادر وأستاذه آرنولد حسنوا اليه قرض الشعر ، وأخيرا اهتدى الى أن المصلح والداعية الراغب في التغيير والتحويل لا يخاطب العقول وحدها وانما يخاطب العقل والروح ، ولعل لغة الشعر أقوى على حمل تلك الرسالة . واستطاع بما أوتي من ثقافة وسعة أفق وامتلاك لناصية القول أن يجعل الشعر طيعا طيبا لبنات فكره ، فمزج الشعر بالعلم وخلط قواعد الفلسفة وقوانينها بخفة الخيال ورقته .

وفي بلاد الغرب تعمق في قراءاته عن "نيتشه" و"هيجل" و"شوبنهاور" ، وغيرهم وعقد مقارنات بينهم وبين فلاسفة من الشرق أمثال ابن سينا وابن رشد وابن عربي وجلال الدين الرومي ، فبدا بعد تلك الطالعات ملما بالفلسفة وعلم الاخلاق متعمقا في القانون . أعانه على ذلك اطلاعه على تاريخ الثورات كالثورة الفرنسية ، ووقوفه عن كثب على الدنيا الغربية ويقينه أنها حضارة مادية ونهضة عقلية لا قلب لها ولا روح فيها . فراح يؤكد للغرب ولأهل الشرق المنجذبين والمأخوذين ببريقها أن سعادة البشر

---

1 - عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص29 .

2 - محمد اقبال ، رسالة الخلود ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين (دكتوراه) ، مؤسسة سجل العرب ، 1974 ، ص2 .

لن تكون من أناس يتخبطون في قوارق اللون وعصبيات الجنس وعبادة المال واستعباد البشر (الاستعمار) انها لن تتحقق الا في ظل العبادئ الاسلامية الخالدة .

وكذلك كان اقبال متحرر الفكر ناظرا الى الاشياء بنور الله معلنا للناس خفايا الامور ،ذاع صيت عصبة الامم المتحدة وتطلعت اليها الشعوب المستضعفة وعلقت عليها الآمال وحلمت بالعدل وبأن عصبة الامم ستقدم لها حقوقها هدية مادام العدل شعارها ، ولكن اقبال أدرك أن تلك الشعارات ماهي الا حبر على ورق ولم يكن هدفها الا خلق الفرقة والخلاف والكيد للشعوب المستضعفة ، يقول :

حكمة الغرب فرقة الناس والاسلام فيه توحد العمران

خبريني اليقين : هل عصبة الاقوا م خير أم عصبة الانسان(1)

وفي بلاد الغرب لم يشعر اقبال انتماءه الى الاسلام فقد انضم الى جمعية مسلمي العالم (2) تعبيرا عن انتمائه الوحيد الذي طالما اعتز به وهاجر .

عودته الى الوطن :

بعد أن قضى وطره من بلاد الغرب غادرها في الخامس والعشرين من شهر جويلية 1908م (3) . وفي طريقه الى أهله عرج على مزار الشيخ نظام الدين أوليا بزيارة ماكانت تقدسه للحجارة وانما كانت تذكيرا للمسلمين بمآثر أجدادهم .

وكان في استقباله حوالي مائة وخمسون شخصا من أصدقائه ومعارفه (4) وأقيمت الحفلات احتفاء به ، وفيها فاضت قرائح الشعراء تهليلا بعودته .

---

1 - نجيب الكيلاني - اقبال الشاعر الثائر - ص31 .

2 - جاويد اقبال - جاويدان اقبال ،ص 234 ،ج 1 .

3 - من بين الدراسات الكثيرة حول اقبال انفرد فايشر باعتبار عام 1910م هي تاريخ عودة اقبال الى وطنه ،وقد يكون هذا الامر طبيعيا لمن نال الدكتوراه في الفكر الفلسفي الصوفي وتعلم الالمانية وترجم اليها رسالته للدكتوراه ،ويدرس الحقوق وينال شهادة تؤهله للمحاماة ،ولعلّ غيره أراد أن يضفي عليه عبقرية الى جانب عبقريته ،ص77 ،فاشير .

4 - جاويد اقبال ،جاويدان اقبال ،ج 1 ،ص257 ،و علي حسّون ، فلسفة اقبال ،دار السؤال دمشق ،ط 2 ،ص13، 1406 هـ ، 1986م .

من ذلك قول أحد المعجبين :

"طال حنيننا الى شعرك يا من طبق الآفاق صيته في الشعر" (1).

عاد اقبال ليجد وطنه وشعبه في أمسّ الحاجة اليه ، فبدأ أستاذا في الكلية الحكومية يعطي دروسا في الفلسفة والادبين العربي والانجليزي ، واشتغل بالمحاماة أيضا ولم تمض عليه سنة ونصف حتى قدم استقالته من الكلية ويقي رئيسا لقسم الفلسفة ، وعميدا للدراسات الشرقية ، وقد يتعجب البعض من استقالته وهو يعلم قلة ما تحظه الهند من أمثاله وهو الخدوم لمجتمعه وأمته الذي رأى أنه لو استمر على نظم الشعر بالاسلوب والخيال الشعري الذي اختاره في أوروبا يقول : " لحصلت على جائزة نوبل بدون شك ولكني عندما رأيت كيفية الحضارة الغربية وأوضاع الملة الاسلامية قررت أنه في مثل هذا الوقت . . . يجب على كل من منحه الله بعض الاستعدادات أن يستعمل قوته ومقدوراته الكاملة في خدمة الاسلام والمسلمين فيكون هذا الهدف أحسن من جائزة نوبل ألف مرة" (2).

والحقيقة أن القرار كان من وحي تلك النفس الشفافة وتلك البصيرة النفاذة . فقد أكدت الاستقالة حبه لشعبه وأمله في خلاصه من قيود الظلم والطغيان. عندما سئل عن السبب أجاب : " ان خدمة الانجليز عسيرة واعسر ما فيها أنني لا أستطيع أن أحدث الناس بما في نفسي ما دمت في خدمتهم ، وأنا اليوم حرّ ما شئت قلت وما شئت فعلت" (3).

فهو لم يكن ليستقيل الا بعد أن جرّب الانجليز وعرف نواياهم وعاني في البحث عن سبيل للتوفيق بين طموحات الشعب وتطلعاته وبين الاستعمار البريطاني ومخططاته المعادية لكل ما يمت للانسانية بصلة.

أما المحاماة فبقيت رفيقة دربه الى أن أقعده المرض والكبر ، وقد ساعده على النجاح فيها ذكاؤه وبيانه ومعرفته الواسعة بشؤون أبناء وطنه ، ثم انه لم يفكر في أن يجعل مهنة المحاماة وسيلة لجمع الاموال وانما رسالة لنصرة الخير ، لذلك كان لا يقبل من القضايا الا ما يعلم أن وكيله محق والا ما يظن نفسه قادرا على أن يأخذ له حقه" (4) .

---

1 — عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال ، ص 31.
2 — صلاح الدين بن شمس الدين ، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال ، ص 44.
3 — عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال ص 31.
4 — المرجع السابق ، ص 31.

وربما كان سبب كلفه بتلك المهنة واختياره لها ماكان يشاهده من حيف على أبنائه وطنه عموما والمسلمين على وجه الخصوص .

ولم تكن المحاماة لتنال كل وقته ، فهي وسيلة من وسائل احقاق الحق الى جانب وسائل أخرى عديدة ، فلم تكن لتكفه عن الترنم بالشعر ولا عن المحاضرات ولا عن الاشعار داخل الهند وخارجها في مهام أدبية وعلمية ودينية وسياسية فمع استقالته عن التعليم بالكلية الحكومية بلاهور بقي على اتصال دائم بها وبجامعة دهلي وبقي ناصحا متى دعت الحاجة الى ذلك .

شارك أبناء أمته اهتماماتهم بعد عودته من رحلة العلم واشتدت مساهماته الى مجالات عديدة كانت الدروس والمحاضرات والمجامع السياسية أوسعها جميعا . ففي جانفي 1927م (1300) انتخب عضوا في الجمعية العلمية العالمية ، وشارك في جلسات جمعية حماية الاسلام باشعاره ، وقد أنشد فيها قبل سفره الى أوربا ، التي كان من أروعها قصيدتاه شكوى وجواب الشكوى ، ففي الاولى توجه بلسان المسلمين الى الله شاكيا ماحل بهم مذكرا بما كان لهم من ماض تليد (1)

شكواى أم نجوالي في هذا الدجى ... ونجوم ليلي حسدى أم عودي
أمسيت في الماضي أعيش كأنما ... قطع الزمان طريق أمسي عن غدي
والطير صادحة على أفنانها ... تبكي الربى بأنينها المتجدد
قد طال تشهيدي وطال نشيدها ... ومدامعي كالطل في الغصن الندي
فالى متى صمتي كأني زهرة ... خرساء لم تبرزق ببراعة منشد
أنا ما تعديت القناعة والرضا ... لكنما هي قصة الاشجان
أشكو وفي في التراب وانما ... أشكو عتاب الدين للديان
يشكو لك اللهم قلب لم يعش ... الا لحمد علاك في الاكوان
قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضا وأزهارا بغير سمام
لما أطل محمد زكت الثرى ... واخضر في البستان كل هشيم
نحن الذين بنور وحيك أوضحوا ... نهج الهدى ومعالم الايمان

---

1 — ترجمها محمد حسن الاعظمي ، ونظمها الصابي شعلان (أنظر الاعلام الخمسة ، الشعر الاسلامي ، ص 112 ، 116).

كنا جبالا في الجبال وربما ... سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الافرنج كنا آذانا ... قبل الكتائب يفتح الاحرارا
لم نخشى طاغوتا يحارينا ولو ... نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهارا لا اله سوى الذي ... صنع الوجود وقد رالاقدارا
وحديدك الاعلى جعلنا نقبه ... نورا يضيء بصحبة الازمان
فغدت صدور المؤمنين صاحفا ... في الكون مسطورا بها القرآن
رحماك ربّ هل بغير جباهنا ... عرف السجود ببيتك المعمور
كانت شغاف قلوبنا لك صحفا ... يحوى جلال كتابك المسطور

ولكن الاصنام استيقظت ،والامراء تاهو ،والحداة ضلوا ونسوا أن ثمن الجنة نعيم الجنة غال ، يقول :

قد هبت الاصنام من بعد البلى ... واستيقظت من قبل نفخ الصور
والكعبة العليا تنوادى أهلها ... فكأنهم موتى بغير شعور
وقوافل الصحراء ضلّ حداتها ... وغدت منازلها ظلال قبور
فاذا وهى الاسلام في أبنائه ... حتى انطووا في محنة وعذاب
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا ... عن ذنبه في الدهر يوم عقاب
عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم ... للموت بين الذل والاملاق (1).

ويستجيب المولى لروحه الخفاقة ويردّ على تساؤلاته عن ضياع مجد المسلمين ،ذلك أن الكلام اذا صدر عن الروح سرى الى الارواح ،وتأتي الاجابة في قصيدة طويلة نستطيع تلخيصها في آية من الذكر الحكيم :"ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونه باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون"(2)، ثم قوله تعالى: "ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شيء قدير"(3) .

والقصيدة هي جواب الشكوى ، فنقتطف منها قوله:(4)

كلام الروح للأرواح يسري ... وتدركه القلوب بلا عناء

---

1 — على حسون ، فلسفة اقبال ،ص207 — ، ص213.
2 — سورة آل عمران — من الاية 152 .
3 — سورة آل عمران — من الاية 165 .
4 — ترجمها محمد الاعظمي ونظمها (نظم الترجمة) الصافي شعلان ، (أنظر الاعلام الخمسة الشعر الاسلامي ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت 1402- 1982، ص 124 و 130)

هتفت به فطار بلا جناح ... وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنه ترابي ولكن ... جرت في لفظه لغة السماء
لقد أصدت دموع العشق مني ... حديدا كان على النداء
... ولكن الحدوا في خير دين ... بنى في الشمس ملك الاولينا
تراث محمد قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مهملينا
أبا كم كان ابراهيم لكن ... أرى أشمال آزر (1) في البنينا
لقد ذهب الوفاء فلا وفاء ... وكيف ينال عهدي الظالمينا
اذا الايمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا (2).

كما شارك في جمعية حماية الاسلام بمحاضراته التي كانت منها واحدة في روح الحضارة الاسلامية عام 1927 في جلستها السنوية، وفي جلستها السنوية لعام 1928م القى محاضرة بعنوان دعوة علماء المسلمين الى الطالعة أكثر وألقى قبل هذا عام 1924 محاضرة صحح فيها نظرة المسلمين الى الاجتهاد وفي الجمعية نفسها القى محاضرة عن فلسفة الاسلام وأخرى عن قراءة القرآن (3) كما القى كلمات في جمعية ترقية الاردية، و جمعية نشر وشيوع اللغة الهندية، وجمعية الهلال الاحمر، والقى مجموعة من المحاضرات في جامعة عليگره وأخرى في كلية العلوم والفنون الجميلة (4) وفي انحاء كثيرة من البلاد وهي التي جمعت في كتاب تجديد الفكر الديني في الاسلام (5). والملاحظ أن الشعر كان هم اقبال الاول الذي يعبر عن انشغالاته الاخرى جميعا، فيه يعبر عن مواقفه وبه يترجم فلسفته وبه يقدم اقتراحاته به يحتج وبه يرضى، وذلك لأنه اقتنع بضرورة جهاد الكلمة، وجاءت أعماله الادبية التي سجلها في هذه الفترة أكثر نضجا، وكانت أهم ما يصدر عن شاعر، فيلسوف مصلح، داعية، وناقد.

ومن القصائد التي ساهم بها في معالجة قضايا المسلمين نذكر على سبيل المثال "البلاد الاسلامية"، "رد على الوطنية"، "دعوة الى الجامعة الاسلامية"، "المسلم"، "هلال العيد"، "بلال"، "الحضارة الحديثة"، "الدين"، "شكوى" "الى الرسول"

---

1 - هو آزر في قصته مع ابراهيم عليه السلام.

2 - علي حسون، فلسفة اقبال، ص215، (وسرعان ما سارت الركبان بالقصيد تبين وترنم بهما كل لسان.

3 - جاويد اقبال، جاويدان اقبال، ج 3، ص 64، 83، 119، 136.

4 - المرجع نفسه، ص 135، 149، 153.

5 - نقله من الانجليزية الى العربية عباس محمود.

وفي هذه الاخيرة نعت زعماء المسلمين على بترهم الصلة الروحية بالنبي صلى الله عليه وسلم وحجبهم الى أوربا ، يقول :

"أنا بريء من أولئك الذين يحجون الى أوربا ويشدون اليها الرحال مرة بعد مرة ، ولا يتصلون بسك أبدا في حياتهم ولا يعرفونك"(1) .

وزاد تأحداث الحرب العالمية الاولى ايمانا بالجهاد ، فخرج داعيا حكيما يتكهن بالاخبار ، وبعد أن كان يلقي أشعاره في المحافل وينشر بعضها في الجرائد والمجلات فان هذه الفترة العصيبة امملت عليه ضرورة جمع شعره في دواوين لتكون فائدته أعم وليصل صوته الى أكبر عدد ممكن من القراء ، وكان أول ديوان شعري له ينشر عام 1915م وهو ديوان الاسرار والرموز .

اقبال والسياسة :

هذا عرض موجز لمساهمة اقبال بشعره ، أما مساهمته في عالم السياسة فمن العجيب أن يزعم الزاعمون أنه كان من الزعماء والساسة البارزين ، كان لاقبال عناصر عبقرية ولكننا لا نتحول بالعبقري الى أن يضفي على كل مناحي حياته ثوب العبقرية ، انه لم يدخل بحر السياسة الا عام 1924م أي في الاعوام الاخيرة من حياته ، يقول ابنه الدكتور جاويد اقبال : "لاقبال فكر عميق في المسائل السياسية ، الا أنه لم يشارك في الامور السياسية قبل عام 1924م"(2) وفي هذه الفترة القصيرة ساهم اقبال مساهمة واسعة فلم تخل حياته من عضوية جمعية أو ترشيح لرئاستها أو انتخاب وفوز ساحق ورئاسة اجتماعات سنوية وحضور موائد مستديرة في الشرق والمغرب والقاء كلمات ذات صدى في كل هذه المحافل السياسية .

ففي عام 1924م صمم اقبال وبعد تشجيع من رفاقه على الدخول في العمل السياسي بعد أن كان يعالج قضايا السياسة من بعيد بأشعاره وأفكاره ، دفعه الى ذلك خوفه من ظلم الاكثرية الهندوسية.(3)

---

1 - الندوي ، روائع اقبال ، ص 33 .

2 - جاويد اقبال ، جاويدان اقبال جلد 3 ص29 ، يرى جاويد اقبال أن ارتباطه بالجمعية الاسلامية بلند ن كان سطحيا وظاهريا فما أن عاد الى الهند حتى صرف عنها فكره ، ص29 .

3 - المرجع السابق ، ص30 .

وفي عام 1926م (أفريل) رشح نفسه في انتخابات مجلس كشمير وحصل على نسبة ساحقة من الاصوات، وفي مدة عضويته قدم مقترحات واعية منها اصدروا قرار يحظر نشر المواد التي تمس رجال الدين، وآخر بمنع شرب الخمر، وآخر باقلال الضرائب على الارض، وأصدر قرار باباحة حمل السيف في الهند حتى لايكون من الاسلحة المحظورة، فوافق المجلس عليها جميعا واتخذ اجراءات تطبيقها (1).

وظل من 1927 الى 1930م عضوا في مجلس قانون شورى البنجاب وترأس بعض جلساته (2).

كما كان عضوا في لجنة الخلافة في ولاية البنجاب وسجل أشعارا تجدها وتبكي عزها، منها قوله:

ان العرب قد أحرقوا أنفسهم بنور المصطفى، وأشعلوا سراج الشرق المنطفىء.

ولكن تلك الخلافة قد ضل الطريق، فقد المؤمنون في الاول الملكية.

أما الخلافة فهي حفظ للناموس الالهي (3).

وعندما أعلنت بريطانيا عام 1929م عن تأسيس حكومة اسرائيل في فلسطين شكلت جمعية واسعة في الهند في السابع من سبتمبر وفي أوساط الحضور القى اقبال خطبة جاء فيها: "... قطعا لا اشتباه في حب المسلمين للوطن... فهم يحبون الوطن ويحبون الاسلام والمسلمين. وفي نظر الاسلام فان المسجد الاقصى وقف، وادعاء الصهاينة حق التصرف فيه لاأساس له في نظر القانون ولا التاريخ" (4)

وفي عام 1930م (17 أوت) ترأس جلسة الرابطة الاسلامية السنوية باقتراح من الزعيم محمد علي جناح، وألقى خطابا قدر له أن يغير مسير البلاد هو اقتراح التقسيم الذي لم يسبق أن فكر فيه زعيم أو مفكر أو حتى الشعب نفسه أو المسلمون رغم مايعانونه من ظلم الهندكة. فكان أول من يطالب بضرورة قيام دولة اسلامية، وبعد كفاح طويل من أجل التوفيق بين الطائفتين اضطر الزعماء المسلمون وأعضاء الرابطة الاسلامية الى

---

1 ـ المرجع السابق، ص38، و صلاح الدين بن شمس الدين، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال، ص71.

2 ـ جاويد اقبال، المرجع السابق، ص57.

3 ـ صلاح الدين بن شمس الدين، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال، ص72.

4 ـ جاويد اقبال، جاويدان اقبال، جلد 3، ص98.

المطالبة بقيام دولة الباكستان عام 1940م. (1).

وفي عام 1931م دعي اقبال لحضور المؤتمر الثاني للمائدة المستديرة (ديسمبر) في لندن وقد دعي له عدد من ممثلي الاحزاب والجماعات المختلفة في الهند ، الا أن نتائجه لم تكن في خدمة المسلمين (2) وفي السنة نفسها دعي الى المائدة المستديرة بالقدس، وفي طريقه مر بروما، حيث استدعاه زعيمها موسوليني، وهناك القى محاضرة شرح فيها حركة الاسلام نحو الغرب وحركة روسيا نحو الشرق، مبينا المصير الذي تواجهه الحضارة الحديثة متطرقا للقوى الثلاث التي تحرك العالم (الاسلام، الحضارة الغربية الشيوعية)، كما تناول بداية البعث الاسلامي في العصر الحديث عندما تحرك السلطان تيبو (1799) للجهاد ضد الانجليز في الهند.

وقبل بيت المقدس عرج اقبال أيضا على القاهرة وأقام بها أياما احتفل به خلالها بجمعية الشبان المسلمين (3)، ومنها توجه الى بيت المقدس، وحضر المؤتمر والقى فيه كلمة كما القى فيه شعرا (قصيدة شوق وذوق) (4) ومنها عاد الى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة، وبينما كان مقيما بلندن جاءته دعوة من حكومة فرنسا وأخرى من أسبانيا، فلم يتوان عن الذهاب، وما أن انتهى اشغاله بلندن حتى زار القطرين، واذا كانت فرنسا لاتذكره بشيء غير الاستعمار القيت لديار الاسلام فان اسبانيا جددت أشجانه وأحزانه. وفيها القى محاضرة عن العالم الفكري للاسلام واسبانيا، وزار مسجد قرطبة وصلى فيه ربما لاول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين وسجل فيه قصيدة ضمنها الى القصيدة الخالدة في صورته وهو يصلي في المسجد والجامع يئن والمئذنة تبكي، وقف اقبال وجالت بذهنه أحداث وطاف بخياله كلام لايسمعه أحد غير الشاعر، باحت به مئذنة المسجد التي لم يرتفع صوتها قرونا، وتساءل عن سر بقائها وخلودها رغم حتمية الفناء التي تولد في كل كائن وان جللته وأحاط به النبوغ. ان كل شيء يحمل في طياته علامات فنائه.

---

1 ـ المرجع السابق، ص 76.

2 ـ حسين مجيب المصري، اقبال والعالم الغربي، مكتبة الانجلو المصرية ص 35 ـ 36.

3 ـ أنظر الندوي ـ روائع اقبال، ص 152 ـ 158.

4 ـ محمد اقبال ـ جناح جبريل، ترجمة الى العربية عبد المعين ملوحي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987، ص 161 ـ 162.

ولكن اقبال أدرك أن ما خالط صنعه الحب الخالد لايمتد اليه خيط الموت يقول :

"الموت عيد لك والموت عيد لي ... عجائب النبوغ وقوته عابرة ... العدم كان في البداية والنهاية ، العدم كان في الباطن والظاهر ، سواء أكان العمل قديما أم حديثا ، فالعدم مصيره الاخير ، العمل الذي ينجزه رجل الله له ألوان الثبات والخلود ، عمل رجل الله يزدهر بالحب ، الحب نبع الحياة والموت لايناله ، مهما كان جريان الزمن عنيفا وسريعا ، فالحب نفسه سيل يجرف ذلك السيل ... نفحة جبريل هي الحب ، قلب المصطفى هو الحب ، الحب رسول الله ، الحب رسالة الله" (1) "أنت كعبة بناها سادة الفن ، فيك تتجلى روعة الدين ! بفضلك أصبحت أرض الاندلس مقدسة مثل الحرم . اذا كان تحت السماء نشد يضاهي جمالك : فهذا النشد في قلب المؤمن لا في أي مكان ... الارض التي أنت فيها تبدو كأنها السماء في عيون النجوم .

وا أسفاه ! منذ قرون لم يرتفع في سمائك الأذان ، ليت شعري ! قافلة الحب العنيف ، قافلة الحياة الصعبة القاسية ، أين هي الآن ؟ وفي أية مرحلة ؟" (2) وقد أعقب هذه القصيدة في ديوانه "جناح جبريل" بأربعة قصائد تحلق جميعا في فضاء الاندلس هي : "صرخة المعتمد" (3) في "السجن" "النخلة الاولى" (4) أي النخلة التي غرسها عبد الرحمن الداخل بالاندلس وكتب فيها شعرا فكانت قصيدة اقبال أقرب الى الترجمة الحرة لها (5).

وكانت القصيدة الثالثة في أسبانيا ، وداعا حار للاندلس يقول فيها :

"يا أسبانيا أودعناك دم المسلم . أنت مقدسة في عيني كالحرم الشريف مازالت ارضك تحتفظ ببصمات الساجدين ، مازالت أنسام صباحك ترقد فيها دعوات المؤذنين ...

... كيف تم سحق المسلم تحت هذه الافنان ؟ عيناي تحدقان في (غرناطة) ولكن المسافر لا يرضيه السفر ولا ترضيه الراحة" (6)

---

1 — محمد اقبال — جناح جبريل — ترجمة الى العربية عبد المعين طلوحي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر — دمشق — ط 1 ، 1987 ، ص 161 1621 .

2 — المرجع نفسه ، ص 166 — 167 .

3 — هو المعتمد بن عباد

4 — المرجع السابق ، ص 169 — 170 .

5 — انظر نفح الطيب ، المقري ، ج 3 ، ص 54 .

6 — اقبال — جناح جبريل ، مرجع سابق ، ص 72 .

أما القصيدة الرابعة فعنوانها "دعاء طارق" .

وقد لقي في هذه الزيارة الكثير من الحفاوة والاكرام ،وظل على نشوته بالآثار الاسلامية وبذلك الحلم الجميل الذي تحقق برؤياه للأندلس حتى بعد عودته الى الوطن، فلم يشأ الا أن ينقل مشاعره الى أبناء الهند بمحاضرة ألقاها بالجامعة الاسلامية في دهلي، "السفر من لندن الى قرطبة" أشاد فيها بأمجاد العرب وآثارهم الخالدة ،كما تحدث فيها عن سفره الى باريس ولقائه بالفيلسوف برغسون (1)

واذا كان اقبال قد لبى دعوة الحكومة الفرنسية بزيارتها ،فانه رفض في أنفة المسلم وغيرته دعوتها الى زيارة مستعمراتها في شمال افريقيا ،بل وأثناء زيارة فرنسا نفسها أبى أن يزور مسجد باريس ،وقال :

"أن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق واحراقها" (2) . وهي الآهة التي بثها في قطعته الشعرية مسجد باريس ، يقول :

يا ناظري لايخدعنك فنه	للمزور هذا الحرم المغرب
وليس هذا حرما لكنه	عند الفرنج للغرام ملعب
انا الذي شيد هذا موئسا	دمشق من عدوانه تخرب (3).

وعلى الرغم من تدهور صحة الفيلسوف برغسون وعدم استقباله للناس فانه استثنى اقبال وخصه بجلسة دار الحديث فيها في أمور من الاسلام كان منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الزمن ، "لاتسبوا الدهر ، فان الله هو الدهر" (4) وهو الذي هب برغسون لسماعه (من كرسيه) وقد تملكته الدهشة وارتسمت على ملامحه (5).

ولما عاد الى الهند بعد فشل مؤتمر المائدة المستديرة بسبب اهمال رئيس الوزراء البريطاني لمطالب المسلمين ،القى اقبال خطابا في جلسة مؤتمر الرابطة الاسلامية عام 1932 (21 مارس) بيّن فيه أن الصراع لم يعد بين الهند وانجلترا وانما هو صراع الاكثرية والاقليات.(6)

ومرة أخرى يعود الى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام 1932م الذي صرّح قبيل مغادرة لاهور لحضوره لممثلي الصحافة بأن الوفد المسلم

---

1 ـ أحمد معوض، محمد اقبال حياته وآثاره ،ص 72 .

2 ـ محمد التونجي ، محاضرة القيت في ليبيا (1973) ثم في جامعة حلب وفي مكتبة الاسد ، (1987) (قضايا عربية في شعر اقبال ،ص 6).

3 ـ اقبال ـ ضرب الكليم ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، طبعة مصر ، شركة مساهم ، مصرية ، جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، 1952 ،ص 75 .

4 صحيح مسلم ، ج 4 ، كتاب الالفاظ من الادب وغيرها ص 1763 .

5 ـ أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ،ص 66 .

6 ـ صلاح الدين بن سير الدين ، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال ،ص 6

سوف يبذل كل مايستطيع في خدمة الاسلام والهند (1) وهناك شرح أهم مطالب المسلمين وأكد ضرورة حماية الاقلية المسلمة في الهند ،ثقافتهما وتقاليدها التاريخية .

وربما كانت آخر رحلة لاقبال خارج الهند تلك التي زار فيها أفغانستان عام 1933م طبية لدعوة ملكها نادر شاه له ولـ"سر راس مسعود" و"سيد سليمان الندوي" للبحث في قضايا التعليم بأفغانستان ،فكانت الدعوة الى ثلاثة شخصيات هندية (فيلسوف ومفكر ، مربي ومعلم وفقيه) وفي 13 أكتوبر 1933م وصل الثلاثة الى كابل وكان من بين اقتراحات اقبال بناء جامعة بكابل (2) ولم يفت اقبال في هذه الرحلة حبّه الوقوف على أطلال العظماء للاعتبار والتذكر ،فزار (ومن معه) ضريح "الحكيم نسائي" و"السلطان محمود الغزنوي" ووالده "سبكتكين" (3) وفي ديوانه "مسافر" عام 1934م أشار الى هذه الرحلة والى الاماكن التي وقف عندها للاعتبار مثل غزنة وتربة بابر ...

وفي أواخر هذه السنة بدأ المرض رحلته مع اقبال ينقض في البصر ،أعقبته بحة في الصوت عام 1935 وهي السنة التي انتخب فيها رئيسا لفرع الرابطة الاسلامية في البنجاب الا أن جهود الاطباء وقفت عاجزة أمامها ،ثم اضطرته أمراض كثيرة أخرى الى التقاعد عن مصدر رزقه الوحيد المحاماة فدخلت "جمعية بهوبال" الاسلامية وقررت منحه راتبا شهريا من "أجل أولاده (استمر الراتب الى ما بعد وفاته)وفي السنة نفسها (23 ماي) توفيت زوجته الا أن صديقه راس مسعود لم يتوان عن خدمته وتوفير الراحة له في بهوبال التي ظل يعالج بها بالكهرباء الى عام 1936م (4) أين توالت الامراض على جسده أضعفه الكبر من التهاب الحنجرة الى السرو الى القلب والكلية الى الزرقاء الذي كاد يفقده البصر ،الا أن هذه الادواء لم تكن لتحدّ من قدراته العقلية أو تحجب أفكاره وعطاءه ،فقد أمضى

---

1 ـ المرجع السابق ،ص 76 .

2 ـ جاويد اقبال ،جاويدان اقبال ،جلد 4 ،ص 46.

3 ـ المرجع نفسه ،ص 57 ـ 58 .

4 ـ أحمد عوض ـ محمد اقبال حياته وآثاره ،ص 77 .

ما تبقى من عمره في البحث والتفكير في حال الأمة الاسلامية وإملاء المقالات ومقابلة الزوار، وفي هذه الاثناء نشر مقالا طويلا في الردّ على القوميين وعلى المتعصبين من الهنادك والسيخ (1)، كما هاجم الداعين الى الوطنية التي تحد من عالمية الاسلام وتقيد المسلمين بالحدود الجغرافية، يقول: "أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوربا، وليس انكاري اياها خوفا من أن تضر بمصالح المسلمين في الهند، ولكن أفكرها لانني أرى فيها بذور المادية الملحدة وهي عندي أعظم خطرا على الانسانية في عصرنا، لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الانسان الاخلاقية ولكن العبرة في الحقيقة بايمان الانسان وثقافته وسننه التاريخية. هذه هي في رأيي الاشياء التي تستحق أن يعيش لها الانسان ويموت من أجلها لا بقعة الارض التي اتصلت بها روح الانسان اتفاقا" (2).

ولعل مرثية اقبال لصديقه سر راس مسعود كانت من أروع ما سجّل اقبال في أيامه الاخيرة منها قوله: "فتاه اذ لم يبق الزمان على تذكار من آثار أحمد (3) لاتختم فاننا أسرى لقيد الدنيا... اذا كانت الذات حية فالموت ليس الا مرحلة من مراحل الحياة (4).

ومثلما واصل نظمه للشعر استمر في نشاطه السياسي لصالح الاسلام والمسلمين في الهند واستمر في نصائحه للقائد المسلم محمد علي جناح

ولما رأى صحته تسير من سيئ الى أسوأ كتب وصية وعيّن لتنفيذها ورعاية أولاده، لجنة رباعية، كما جعل لها - اللجنة - الوكالة الادبية عنه - وقد حرص من بقي منهم على قيد الحياة على تنفيذها في أمانة وصدق (5)

وفي أفريل اشتد به المرض وتأثر قلبه، وكان آخر زائر له صديقه الالماني البارون "فلتهايم" الذي أخبره أن المسلم لايلقى الردى الا باسما (6).

وفي فجر 21 أفريل 1938 م لفظ اقبال أنفاسه الاخيرة ولقي أجله راضيا مصداقا لقوله:

"أنا أخبرك عن صفة من صفات الرجل المؤمن، وهي أنه يكون باسم الثغر حين يأتيه الموت" (7).

---

1 - جاويد اقبال - جاويدان اقبال، جلد 4، ص66.

2 - حميد مجيد هدو، اقبال الشاعر والفيلسوف والانسان، طبعة القرى الحديثة، النجف العراق، ط1، 1963م - 1383هـ ص57-58.

3 - السيد أحمد خان، جدّ سر راس مسعود - (أحمد معوض، ص77)

4 - أحمد معوض، محمد اقبال حياته وآثاره، ص77 - 79.

5 - المرجع نفسه، ص92.

6 - عبد الوهاب عزام، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره، 43.

7 - صلاح الدين بن شمس الدين، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال، ص50 (بتصرف)

ولنا أن نتحدث الآن عن اقبال الانسان أو لنقل الزوج ثم الأب .

تزوج اقبال في حياته ثلاث مرات، أثمر الزواج الاول الابن افتاب اقبال المحامي (مازال حيا ـ حسب صلاح الدين بن شمس الدين) وبنتا توفيت في الثانية عشر من عمرها .

ومن الزوجة الثانية بنتا توفيت وهي لم تزل طفلة في حين ماتت الزوجة وهي تضع طفلتها ، ومن الزوجة الثالثة أنجب ابنا وهو الدكتور جاويد اقبال قاضي المحكمة العليا بلاهور ، وبنتا هي السيدة منيرة بانو (1) .

العوامل المؤثرة في تكوين اقبال :

كل مولود يولد على الفطرة ، ويأتي الى الوجود صفحة بيضاء يطبع عليها الاباء والاهل ثم المجتمع كل مايرونه ضروريا لتخطيط تلك الصفحة ، وان هذه الصفحة لتستقبل بنفسها من الاشياء أو من الخطوط ماقد يكون ضارا لها وللمجتمع ، فبناء الاشخاص انما تتضافر فيه سلسلة من العوامل تقود نحو الخير والصلاح أو نحو الشر . وكذلك كانت شخصية اقبال التي تتالت عليها عوامل جعلت من اقبال في الاخير قائدا وداعية ومصلحا ، وقبل هذا سلما يهفو اليه المسلمون ويطلعون الى درر فكره وروائع شعره حيا وميتا .

أول ما كان وراء عظمة اقبال ليس شخصا وانما عقيدة ، فقد كان الاسلام أول رفيق له وملازم يراه في سلوك كل من حوله ، وقديما خرجت مدرسة الاسلام رجالا رجالا ، وحديثا خرجت وهي في أحرج لحظاتها وأضعف أحوالها رجالا ، كان اقبال واحدا منهم ، وكثيرا ماصرح أنه وان كان هندي الاصل مسلم تشربت روحه بهدى الاسلام فجعلت منه هادي القوم وحاديهم ، يقول :

ردت العجم فتيانا بلحني ... وراج متاعهم من بعد خسر

وكانوا هائمين بكل واد ... وقافلة نظمتهم بشعري (2) .

---

1 ـ المرجع السابق ، ص49 ، و أحمد معوض، اقبال حياته واثاره ، ص 96 .

2 ـ عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 175 .

ثم كانت مدرسة الوالدين اللذين كانا على جانب من الورع والتقوى كادت معه حياتهما وحياة أسرتهما أن تتحول الى التصوف، فهذه والدته تتورع أن تأكل من مال زوجها لشكها في شريك له، والذي أثر عنها اثر عن والده، الذي كان على الرغم من اشتغاله بالتجارة يتصل برجال العلم ويندمج في جماعة الصوفية ويحيط بدقائق الطريقة وعلوم العقيدة والسنة ويعيش وسط نخبة ممتازة من أهل العلم والدين منها صديقه مير حسن الذي أشاد بأخلاقه صديقه التاجر ومعارفه بقوله: "فيلسوف لم يتخرج من مدرسة"(1). وهو الذي اختير فيما بعد ليكون معلما لاقبال وموجها له الى طلب العلوم الحديثة، لانه يعلم أن البيت الذي يعيش فيه اقبال مسجد صغير، يقرأ فيه القرآن ويتهجد به والناس نيام وتقام فيه الصلوات، وقد بقي اقبال وفيا لتلك الايام فخورا بها يذكرها ويمر في الحكايات عنها، مرة سأله سليمان الندوي عن سر بلاغته وعن تكشف أسرار الدين لقلبه وتجلي غوامضه له، فأجاب بأن والده كان سببا في ذلك، فقد عوده أن يقرأ القرآن كأنما أنزل عليه، وكان ذلك بداية تفهمه للقرآن والتوغل في اعماقه والتطلع الى أسراره والاقتباس من أنواره.

ويكفي أن يذكر في رثائه والدته أنه يفقد انها افتقد هاديا ومذكرا اياه بالدعاء في تهجده الطويل يقول:

"وعندما آتي الى تراب مرقدك سوف أصيح: من ذا الذي يذكرني في الدعاء في منتصف الليل؟

لقد كانت حياتك صفحة ذهبية في كتاب الحياة، وكانت درسا متكاملا في الدين والدنيا، وبفضل حبك أصبحت كالسرو عاليا وأصبحت حكيما (2) وانطلاقا من تلاوته للقرآن فجرا والتهجد به، أقبل على الكون يقرأ فيه من الايات الناطقة المعبرة على قدرة الخالق ويديع صنعه ويستقي منه الدروس وينصح الناس بتأمله ـ كما سنرى ذلك في الديوان موضوع دراستنا ـ.

---

1 ـ أحمد معوض، محمد اقبال حياته واثاره، ص21.

2 ـ المرجع نفسه، ص 28 ـ 29.

ولم يجد وقتا للاتصال بهذا الكون وقراءة صفحته أحسن من السحر ، ولذلك اعتبر وقفاته وأناشاته وتأملاته في السحر رأسمال له ورأسمال كل مسلم لأن المرء يبقى في حاجة اليها مهما بلغ به العلم والذكاء والحكمة والزهد يقول : "كنت عند الشيخ فريد الدين العطار (1) في معرفته وجلال الدين الرومي في حكمته وأبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكنت من شئت في العلم والحكمة ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر" (2) ، وأمام نفحات اقبال التي ربيت على أنات السحر وقف بريق الغرب عاجزا عن سلبه عادته التي دام حريصا عليها .

فمرة رجا الله أن يسلبه كل شيء غيرها ، يقول : "خذ مني ما شئت يارب ، ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ، ولا تحرمني نعيمها" (3) وتعند أن ترى عدواها عنه الى قلوب شباب الأمة الراكن الى الدفء والنعيم ، يقول : "اللهم أجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم بنجوم سطواتك التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجدا وقياما ... ارزق الشباب الاسلامي لوعة القلب ، وارزقهم حبي وفراستي اللهم أرزق الشباب أنتي في السحر" (4) .

أن تلك الحياة الاقرب الى حياة الزهاد والمتصوفة أعطت الغنى نورا من الله يبصر به ويبصر اخوانه ، وعمرت قلبه وفكره بحب الدين واجلال الرسول صلى الله عليه وسلم والتفاني في حبه والتوق الى زيارة مدينته وقبره صلى الله عليه وسلم ، ولما حالت ظروفه المادية دون السفر الى الحجاز استنجد بالهامه الشعري في أيامه الاخيرة وخال نفسه في رحلة العمر يقول في ديوانه هدية الحجاز :

على نغم الحجاز شربت كأسي ... وما أن قد سموا من قبل جاما

لقد ألفيت في الصحراء رحلي ... وفيها أختلي حتى أغني (5) .

---

1 - فريد الدين العطار هو : سلطان المحققين برهان العارفين فريد الدين محمد بن محمود النيسابوري المعروف بالعطار ، عاش في الربع الثاني من القرن 6 هـ وأوائل القرن السابع هـ (511 - 552هـ / 1117 - 1157م) اشتهر بين كبار المتصوفة (سلوكا وكتابة) . أنظر عطارنامه منطق الطير) أحمد ناجي القيسي ، ساعدت جامعة بغداد على نشره مطبعة الارشاد ، بغداد ، ط1 ، 1388 هـ ، 1978 م .

2 - الندوي ، روائع اقبال ، ص61 .

3 - المرجع نفسه ، ص 62 .

4 - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

5 - اقبال ، هدية الحجاز - ترجمة حسين مجيب المصري ، ص44 - 45 .

وخـــان العـــرب الـذيـن اشـتـاق اليهـم يتسـاءلـــون عنـه ويعجبـون مـن اشـــراقـــة قلبـــه وشجـو الحـانـه وان لـم يفهـمـوا معـانيهـا .

ثـم يتـوجـه فـي حلمـه الـى الـرســـول صلى اللـه عليـه وسلـم راجيا منـه نظـــرة سـائـلا الـرفـيـق بـــه شـاكـيـا اليـــه ضعفـه وفـقـره ، ويتجـه الـى المـولـــــى أن حـبـــه أمـلا وأمنيـــة الحبيـــب المصطفـى ، يقـــول :

أمير الركـــب مـن ذا الاعجمـي	بغير لسـانـنـا لحـن شجـي
يغنـي والغنـاء لـــه ســـراب	وفـي الصحـراء منه القلبحـي
ويبـــدي المسلم المحبـوب فقره	يصـــعّـد مثـل حـرّ النـارزفرة.
شكـى منه الفـؤاد وليس يـــدري	فهبنـا يارسول اللـه نظـــره
لعبـد الهنـد ليـل ضـاع فجـره	وايـن الشمس بل قل أين بـــدره
أنـا المسكيـن فلترفـق بحـالي	أمثالـي مسلـم قـد عيل صبـــره
بأرضـك حرقـة الالحـان حـــبي	وبـدء وانتهاء منـك ، حســبي
لربـي قلـت منتشيـا يـوجـــدي	رسـول اللـه يارحمـانه حسبي
بصحـراء لـك اخترت المقـام	ويشبـه ليلها الصبح ابتسامـا (1).

وقـــد كـان هـذا الحـب وهـذا الحنيـن لـدار الحبيـب التي بعـد تعنـه وشـط مـزارها وكـان ذلـك الحب للديـن حجـابـا حافظـا لاقبـال وواقيـا لـه مـن أي انحـــراف ، فلـم يبـــهر لـبـه بريـف أوربـا ولـم يغـض بصـره زيفهـا لأنـه كمـا قـال ـ اكتحـــل بانمـد المـديـنـة ـ (2) .

فـقـد مكـث فـي بـلاد الغـرب والـشـقـى طـومهـا الا أنـه استطاع النجـاة مـن حيـا لهـا وانتهـى الـى الخـرون منهـا بسـلام ظلمـا كـانـت نـار النمـرود بـــردا وسـلامـا علـــى ابـراهيـم عليـه السـلام .

لعلـم اليـوم أبطلـت الطّلـسـمـا	حطمـت حبائـلا بالحب حطمـا
وابـراهيـم مـن أشبهـت حقـــا	فما كانـت لـحدي النـار هـمّـــا (3)

وان المـــســلم الخـاوي مـن الحـب الخـالـص للـه ورسولـه فـي نظـر اقبـــال كـافـــر ، يقـــول :

انمـا المسلـم بالحـب قـهـر	مسـلـم لا حـب فيـه قـد كفـر (4).

---

1 ـ اقبـال ، هديـة الحجاز (أرمغان حجاز) ترجمة حسين مجيب المصري ، مكتبـة الانجلـو المصرية ، 1975 ، مقتطفات من ص 44 الـى 81 .
2 ـ أنظر روائع اقبـال للندوي ، ص44 .
3 ـ اقبال ، هديـة الحـ ز ، ص 71 .
4 ـ المرجـع نفســـه ، ص62 .

ولذلك نادى كل مسلم بأن يخلي من قلبه أعمق مكان للمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : "أن قلب المسلم عامر بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو أصل شرفنا ومصدر فخرنا في هذا العالم ... جاءته بنت حاتم أسيرة مقيدة سافرة الوجه خجلة مطرقة رأسها ، فاستحي صلى الله عليه وسلم والقى عليها رداءه ، نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ... لماذا لا أحبه ولا أحسن اليه ، وأنا انسان وقد بكى لفراقه الجذع وحنت اليه سارية المسجد ، ان تربة المدينة أحب الي من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب"(1)

فاذا أرجع الناس الكثير من روائع العالم الخالدة في التاريخ والكثير من البطولات والعبقريات الى حب ترابي ، وحب دنيوي صيره الفناء ، فحري بنا أن ننسب ماكان لاقبال الى آثار هذا الحب وهو السامي ، فقد أجج - الى جانب عوامل أخرى - وهبته وفتح قريحته وأثار بصيرته وألهمه من الافكار نيرها وخالفها على العامة من الناس .

وكان الى جانب الاسرة العريقة في الايمان المجتمع الهندي ملهما وبانيا لمن عرف فيما بعد بالمفكر والمصلح والشاعر ، ولنشغل المجتمع المسلم بالدرجة الاولى لما أظهره من تمسك عجيب بدينه في وقت تحالفت كل القوى لتغريبه وفي وقت أصبح القابض على دينه فيه كالقابض على الجمر . وربما كان حال مسلمي الهند أشد سوءا من غيرهم لانهم واقعون بين قوتين من قوى الشر تتآمر عليهم ، وان سترت بالغلبة على أهله فقد ظلت تعلن عن تخوفها وعدائها ، قال أحد القادة الانجليز : "ليس في وسعي أن أغفل ما أوقن به من أن هذا العنصر الاسلامي عدو أصيل العداوة لنا . وينبغي أن تتجه سياستنا الى تقريب الهندو"(2) والى تلك الثقافة ذات الاساس القرآني أضاف اقبال تحصيلا معتبرا للعلوم الدينية من فقه وعقيدة وأخلاق وعبادات تجلت معالمها في شعره ومحاضراته وملما درس فقه الشريعة حاول الوصول أيضا عن طريق الحقيقة ، فكان صوفيا يعرف الفقه أو فقيها صوفيا (3) ، ثم غذى تلك المعارف باطلاع جيد على تاريخ

---

1 - الندوي ، روائع اقبال ، ص46 .

2 - أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ، ص11 .

3 - خالد عباس أسدي ، محمد اقبال (قصائد مختارة ودراسات) مكتبة مذبولي بالقاهرة ص66 .

الأمـــة الاسلامية ، مما حدا بالدكتور حسين مجيب المصري الى القـــول بامكانية اعتباره مؤرخا للعالم العربي قديما وحديثا (1)

كما كان جيد الاطلاع على تاريخ العالم ، وكثيرا ما حث على التعرف على التاريخ والتمسك به ومعرفة دقائقه .

وهو يرى أن الاقوام تستمد "بما ستود ه السلف ، وانما تكون معرفة الذات بتذكر الماضي . فان ينسى الخلف عن ذاكرته ، فانه يتوه مرة أخرى في العدم . وما تراابط الايام الا رداؤنا ، وابرتها هي حفظ الروايات العتيقة فاضبط التاريخ واجعله صرحا قائما وعش من الانفاس المرتعدة وارتبط الامس باليوم واستمسك بالحياة كخالد في اليد . فمن الماضي يولد حاضرك ومن حالك ينبثق مستقبلك . ولا تقطع خيط الماضي عن الحاضر والمستقبل ان اردت الحياة الابدية" (2)

ولكن اقبال لم يزعم لنفسه صلة المامه بالتاريخ - الاستاذية أو النبوغ ، وانما حث على طلبه والحفاظ عليه لما يحفه من دروس وعبر .

وقد خص تاريخ الهند الاسلامي باعتمام فائق والقى أضواءه على بعض الشخصيات الاسلامية التي حكمتها بغض النظر عن كونهم عربا أو تركا أو فرسا أو أفغانا ، فللحاكم المسلم - ان عدل واستقام - الطاعة ، ثم كانت له مقارنات بين ذلك التاريخ الذي تنعمت فيه الهند بالأمن بحاضرها المثخن بالظالم من ذلك أسفه على مدينة محمود الغزنوي (3) وما آلت اليه ، يقول: "تنبعث من القلب أنات بغير اختيار مني ، على تلك المدينة التي كانت هنا قديما . فان تلك الديار والقصور والقلاع خراب . وماذا لك البهاء والجلال ... الا أسطورة" (4) ومن ذلك وقفته عند قبر السلطان بابر ، وقد خلده بمنظومة في ديوانه مسافر (مثنوي) .

ونظرا لطبيعة الاسرة التي عاش فيها والمجتمع وهي الميل الى التصوف ، فقد أقبل على تراث كبار المتصوفة الاوائل بعد ما نال حظه من اللغة الفارسية ، مادام مسلما هنديا لان أهل الهند عرفوا بنزوع صوفي

---

1 - حسين مجيب المصري ، اقبال والعالم العربي ، طبعة الانجلو المصرية ص 37 .

2 - أحمد معوض ، محمد اقبال ، ص 95 .

3 - السلطان محمود الغزنوي ، هو محمود بن سبكتكين أو محمود الغزنوي أنشأ مملكة على انقاض الدولة السامانية اتخذ من غزنة عاصمة لها ، أعلن ولاءه للخليفة العباسي بعد الفتح الغزنوي للهند بداية الغزو الحقيقي لها لانه سرعان ما انتهى بالفاتحين الى الاستقرار بالهند واتخاذها مقاما دائما (387 هـ - 421 هـ / 997 - 1030م) (تاريخ الاسلام في الهند ، عبد المنعم النمر ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، ط 1 ، 1401 - 1981 ، ص 113 - 121)

4 - أحمد معوض ، محمد اقبال

حتى حكامهم الذين نذكر منهم السلطان "أورنكزيب" (1) وماكان عليه من زهد وورع ،وهو سليل السلطان "شاهجهان" (2) أحد مريدي الشيخ "أحمد السرهندي" الذي جاء للحد من فتنة "أكبر" ومحاربة معالمها التي اندثر كثيرها من تلقاء نفسها لأنه كان يحمل بذور فنائه وفشله فيه (3) .

أما بداية التصوف الاسلامي في الهند فيمكن ارجاعها الى العهود الاولى للاسلام في الهند ،وان كثيرا من المتصوفة من شدوا الرحال الى الهند مع بداية الفتن في عهد الخلافة العباسية والتي أكرهها هجومات التتر ،وربما كان السبب الآخر في طلب اقبال للتصوف والعرفان ثقافته الحديثة التي دفعته الى التمسك بكل أصيل لما عرفه فيها من زيف وفراغ روحي وسيطرة للمادة فليس غريبا ان نجده ميالا لهذا الاتجاه مستوشدا بحداته الاوائل ،وتأتي رسالته للدكتوراه في كل من بريطانيا وألمانيا دليلا قويا على اهتمامه بالجانب الروحي الصوفي في عصر سيطرت المادة والعقل على كل شيء فلم يتوان اقبال عن تذكير أولئك الحيارى في مقدارهم بأنهم أعطوا شطرا مهما كان سبب فقدانهم توازنهم .

وقد افتتح كثيرا من دواوينه بأشعار لمرشده الروحي جلال الدين الرومي وضمن أخر ن الكثير من درر شعره ،واذا نظر الباحثون الى الرومي وعدّوه من الذين يؤمنون بوحدة الوجود (أنسال شبلي النعماني ،والمستشرق نيكسون) فان اقبال تفرد بفهمه للرومي لانه لازمه بقلبه وعقله وروحه وتوغل في أعماق وخفايا شعره ،وانتقد المتحدثين عنه لما وقعوا فيه من خطأ فقال : "وصفوه ولم يسره أحد" (4) .

وقد انتهى نيكلسون الى التنازل عن اعتقاده الاول عندما اتسعت مداركه ومعارفه في التصوف.

---

1 — هو اورنكزيب عالمكير (1028 هـ ،1118) يعتبره المسلمون المثل الحسن للحاكم المسلم الزاهد المتمسك بالشريعة العامل على احيائها (تاريخ الاسلام في الهند ،عبد المنعم النمر ص 342).

2 — شاهجهان ، محمد شهاب الدين شاهجهان ،أحد أباطرة المغول المسلمين في الهند بدأ حكمه بعض الاصلاحات الدينية ،فالغى السجود للسلطان وأمر باتباع السنة الهجرية (بعد ما أرخ السلطان أكبر بتاريخ اعتلائه العرش) تمتع بذوق رفيع تشهد عليه الآثار التي ظلت قائمة الى يومنا مثل المسجد الجامع مسجد اللؤلؤة والقلعة الحمراء ، وأروع هذه جميعا تاج محل (احد عجائب الدنيا السبع) 1037 هـ — 1069هـ/ 1627 م 1669م) (تاريخ أباطرة المغول في الهند ، ص 137 — 149).

3 — السلطان جلال الدين أكبر هو ثاني أباطرة الاسرة المغولية ،بدأ قويا شجاعا استرد أمجاد أبيه همايون وانتهى مخترعا لدين جديد هو مزيج من الاديان التي عرفتها الهند ، وسماه الدين الالهي ،من الذين تصدوا للرد على موقفه الشيخ أحمد السرهندي .(عبد المنعم النمر — تاريخ الاسلام في الهند ص 263 — 297).

4 — اقبال — اوبد نامه ،ترجمة محمد السعيد جمال الدين ،مؤسسة سجل العرب 1974، ص 29.

وكان أكبر لقاء فني روحي جمع بين اقبال والمرشد الرومي رائعته جاويد نامه أي رسالة الخلود ومعراجه الفكري فيها ، ربما لما وجد في نفسه من شبه بالرومي حتى في ظرفه ، فقد عرف زمن الرومي عقما في الثقافة الاسلامية واتجاهها نحو الفلسفة اليونانية ، كما عرف حصارا صليبيا ، وقد عاود العالم الاسلامي زمن اقبال محنة شبيهة بسابقتها ، تحول فيها المسلمون الى الفكر الغربي وصار الغرب سيد البلاد ، وظلما صحح الرومي افكارا واعتقادات فعل اقبال وحاول العودة بالمسلمين الى رشدهم وسبيل نجاتهم ، قال مشبها نفسه بجلال الدين الرومي : "لقد اذنت في الحرم ، كما أذن بالامس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب ، لقد كان ثائرا على فتن عصره ، وكنت ثائرا على فتن عصري" (1)

فقد خضعت الاوساط العلمية والحركات الفكرية في القرن السابع للاستدلال والقياس العقلي وأصبح لزاما على المتكلم والباحث والداعية اللجوء الى البراهين العقلية والاعتماد على المقدمات الفلسفية (2) وبعث علم الكلام حينها عاصفة عقلية جامحة انطفأت اثرها وضاءات القلوب ، وفي ذلك الجو الخامد هتف جلال الدين الرومي وأذن في الناس بالعشق وأشاد بفضله وأثره يقول : "ان الحب يحول المر حلوا ، والتراب تبرا ، والكدر صفاء والالم شفاء ، والسجين روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ... ان هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الانسان الطيني الثقيل في الاجواء ويصل من السمك الى السماك ومن الثرى الى الثريا . اذا سرى هذا الحب في الجبال الراسيات ترنحت ورقصت طربا ". (3)

ولم يكن الرومي الصوفي الوحيد الذي شغل فكر اقبال وحبه واعجابه — ولكنه كان أكبرهم — والى جانبه نجد عبد الرحمن الجامي ونجد سنائي الغزنوي وخسرو الدهلوي (4) ، وغيرهم ، يقول :

---

1 — أبو الحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة الاسلامية ، دار القلم الكويت ، ط 3 (1389 — 1969) ص 322 — 323 .

2 — المرجع نفسه ، ص 359 .

3 — عبد الرحمن الجامي : ولد عام 817 هـ بخرجان — هو نور الدين عبد الرحمن المتخلص جامي نسبة الى ولاية جام ونسبه أيضا الى الشيخ أحمد جام ، اتبع الطريقة النقشبندية . من آثاره ، سلسلة الذهب ، سلامان وابسال ، تحفة الاحرار ، سبحة الابرار ، يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون وخرد نامه اسكندري ، (فرهنگ داستانها وهنر ، ص 39 — 40) .

— سنائي : الحكيم أبو المجد مجدود بن آدم سنائي الغزنوي — شاعر متصوف عالي المقام ولد في أواسط القرن الخامس الهجري ، بدأ بمدح الحكام والامراء ثم تصوف وامتنع عن المدح . من آثاره حديقة الحقيقة ، سير العباد الى المعاد ، ت 525 هـ (فرهنگ داستانها وهنر ، ص 49 — 50) .

— خسرو الدهلوي : أمير خسرو الدهلوي (ت 725 هـ) ، من شعراء الفارسية في الهند ، بالغ في الصنعة والمجاز والتلاعب بالالفاظ واقحام المصطلحات عد من أشهر من نظم قصة ليلى والمجنون بعد نظامي كما نظم قصة منوو وشيرين ، وله منظومة بعنوان مرآة الصفا (المعجم الفارسي العربي الجامع

صفات هب ، لخسرو أو لرومي وجدّ لي من سائلي بالمروم
سيفتي كل باب أو صدوه ببيت قاله الرومي وجامي (1)

وهذا وقد أتيح لإقبال علاقة طيبة مع الحلاج الصوفي البغدادي ، وعدّه في بدايته الفكرية الفلسفية الصوفية العاشق الشهيد وبعد نضج عدّه داعية كبيرا الى عقد علاقة ذاتية مركبة بين الانسان والمولى تبارك وتعالى ، وصوفيا يسعى الى تغيير المسلمين وايقاظهم من سباتهم الروحي ، ودعا معاصريه الى التأسي به في قصة استشهاده ، مع أن الحلاج لم يسلم من انتقاد اقبال المرير أحيانا (2).

ولا يعني هذا أنه جنح الى التصوف ليجد فيه الملاذ من هموم الدنيا والهرب من مشاكلها وظلم بعض من أهلها وجهل البعض الآخر وغفلته ، انما نصب نفسه حكما بين هذين ومرشدا لهما فماذا دعا الغرب الى نبذ غروره بالقوة المادية وتنبأ له بمآله الى الفناء فانه صب جل اهتمامه على المسلمين وعمل كل ما في وسعه لتخليص الدين مما علق به من آثار فارسية ويونانية وهندية قديمة ، وانبرى للرد على ما وجّه اليه من طعنات بل وصحح موقفه هو الاخر من التصوف ، حيث انتمى كمبتدئ الى الطريقة القادرية (3) ولما أدرك التأثير الفارسي عليها وعلى غيرها من الطرق ، أصابه أسى انتهى الى الاعلان أن القرآن هو سبيل المعرفة الحقيقية ولا شيء غيره كتب الى الشيخ نظامي رسالة جاء فيها : انني بفطرتي وتربيتي أنزع الى التصوف وقد زادتني فلسفة أوربا نزوعا اليه ، فان هذه الفلسفة في جملتها تنزع الى وحدة الوجود ، ولكن تدبّر القرآن المجيد ، وطالعتي تاريخ الاسلام بامعان عرّفاني غلطي ، وبالقرآن عدلت عن أفكاري الاولى وجاهدت ميلي الفطري ، وحدثت عن طريقة أباثي ان الرهبانية ظهرت في كل أمة وعطلت لا بطلان الشريعة والقانون ، والاسلام في حقيقته دعوة الى مخالفة الرهبانية ظهرت والتصوف الذي شاع بين المسلمين — أعني التصوف العجمي — أخذ من رهبانية كل أمة وجد ان يجذب اليه كل نحلة (4)

= = الرومي : جلال الدين الرومي المعروف بمولوي أشهر شعراء التصوف عند الفرس ، نزح عن ايران في صباه ، وطاب مقامه بمدينة قونية ، التف حوله المريدون ليأخذوا عنه طريقته الصوفية من أشهر آثاره المثنوي المعنوي وتخريجنامه وديوان في الشعر غزليات شمس تبيزي ، ت 683 هـ. المعجم الفارسي الجامع ، حسين مجيب المصري .

1 — اقبال ، هدية الحجاز ، ترجمة حسين مجيب المصري ، ص 35 و 157 .

2 — على حسون ، فلسفة اقبال ، ص 39 .

3 — سميت بالقادرية نسبة الى مؤسسها الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني (471 هـ / 1078 م — 561 هـ / 1166 م) في جيلات بايران كان ملجأ للباحثين والدارسين والفقراء ، عاش فقيرا على الرغم من الاموال التي كانت تتدفق عليه من المريدين ، له مؤلفات في الشعر والتصوف ، انتهت اليه الامامة في العراق وانتشرت طريقته في انحاء العالم الاسلامي لقب بسلطان الاولياء ، والغوث ، وقطب الاقطاب وركن الاسلام (حاضر العالم الاسلامي

ان حالة السكر في اصطلاح الصوفية تنافي الاسلام وقوانين الحياة وحالة الصحو هي الاسلام ،وهي الحالة التي حذر منها في ديوانه الاسرار والرموز :

احذر حافظا أسير الصهباء ، فان كأسه سم الفناء ،ليس في سوقه الا المذاقا ،ذلكم فقيه مسلمة الدميم ،وامام أمة المساكين ،شاة علمت الغناء والدلال والفتنة العمياء ... ونغمة عوده حجاب الاذهان ،فسر من كأسه فان فيها لاهل الفسطاط خدرا كخمر أصحاب الحسن . (1)

ورأى أن ذلت المتواكل والركون الى الاستسلام انما ظهر في زمان ضعف المسلمين (2) السياسي . الا أن هذه الانتقادات لم تمنع اقبال من اعلان اعجابه ببعض المتصوفة وبطرقهم منها الطريقة الجشتية ،والطريقة النقشبندية (3) وطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني ،واعجابه بالشيخ أحمد السرهندي وكفاحه الطويل ضد دعوة السلطان أكبر ،كما لم تمنعه من اقتفاء أثر الشعراء وعلى رأسهم جلال الدين الرومي ،وقد غذى اقبال دواوينه بمعان صوفية هي أقرب الى نفسه وظروف عصره ليقينه أنها لا تتعارض مع جوهر الاسلام الحقيقي ولا مع مقتضيات العصر وهذا مايدفعنا للنظر الى ثقافة اقبال الصوفية على أنها مستمدة من دستور الاسلام الذي هو القرآن أولا ،ثم هي مصطفاة ومنقحة من أفكار صوفية بعد أن علمه لم يمنعه أن يعلن عن بعض أخطائه وتراجعه عن بعض الافكار الصوفية .

والى جانب العلم الاسلامي وتبعه الصافي الذي نهل منه وظل ينهل الهى آخر نبض في العروق ، فقد أخذ اقبال من مدرسة ثانية هي المدرسة الغربية ،وخاض عبابها دون أن يخشى الغرق لأنه تسلح بالقرآن وبالعشق ،بدأ اتصاله بالعلوم العصرية مبكرا أي منذ بدايته التعليمية حيث كانت الانديزية هي اللغة الرسمية وحيث كانت مناهج التعليم الغربية هي المطبقة على المدارس التي أنشأها الاستعمار البريطاني بعد وفي المدارس التي أنشأها ويشرف عليها المسلمون ،مثل جامعة عليكرة ،فأضاف الى ثقافته الفارسية والاردية

---

1 ـ مجلة المعلم ، مجلد 7 ،عدد 41 ، ص18 (يحي الخشاب ،محمد اقبال فيلسوف الباكستان)

الحسن هنا ، هو الحسن بن الصباح زعيم فرقة الحشاشين .

2 ـ اقبال ،جاويد نامه ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ،ص 28 .

3 ـ الطريقة الجشتية : من أشهر الطرق الصوفية في الهند وأكثرها نفوذا ، سميت بالجشتية نسبة الى قرية "جشت" قرب مدينة هراة شمال غربي أفغانستان ،عاش فيها خواجة أبو اسحاق دمشقي مؤسس الطريقة ، نشرها في الهند خواجة معين الدين حسين جشتي (1141هـ 1236م) الملقب بخواجة غريب نواز (المنجد في اللغة والادب ،دار المشرق بيروت ط 26 ـ 82 ، ص214

ـ أما الطريقة النقشبندية فنسبة الى بهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي (ت 791 هـ/ 1389م) وهو مؤسس الطريقة النقشبندية المنتشرة في الصين والهند وتركيا ،له الاوراد البهائية . وسلك الانوار ،و هدية السالكين في التصوف (المنجد في اللغة والادب ط 26 ، ص713)

والعربيـــة ثقافة غربيـة كـان أروع ممثل فيهـا الاستاذ توماس آرنولد الذي اهتم بتلميذه ورعى مواهبـــه ونمّى قدراتـه ، فقد كـان الى معارفه الواسعة في الفلسفة الحديثة ضليعا في الآداب العربية والعلـوم الاسـلامية وأحد أقطاب أساتذتها في جامعـــة لندن ، وما كتابه الدعوة الى الاسلام (1) الا دليلا وشاهدا على انصافـــه للدعوة الاسلامية وابعاد ما نسب اليها من تهم المستشرقين والمتحاملين على الاسلام ، قال في تلميذه النجيب اقبال : "ان طالبا مثل اقبال يحيل أستاذه الـــى محقق ، والمحقق الى باحث" (2) . وبادله اقبال الاحترام كما بادل كثيـــرا من اهل العلم والادب ، ومع فخره بأنه لم يمدح أحدا كبيرا أو صغيرا أو أميـــرا أو ملكا فقد امتدح أرنولد والعلامة شبلي النعماني والطاف حسين حالي والشاعر داود هلوى (3) وكلهم رجال الفكر والعلم والادب .

وكأننا باقبال لم يسترح مما قدم لـه من فلسفة واجتماع وسياسة واقتصاد ففكر فـي خوض لجة البحر والاحيل لطلب العلم الحديث من مواطنه الاصليـــة وكان من بين دوافع رحلته أيضا الرسوب الاول الذي أصابه على هامش دراسته عندما اراد الاستزادة من المعارف بكلية الحقوق ، ومع اهتمامه بمعارف مختلفة من حقـــوق وآداب واقتصاد واجتماع فان أقوى رصيد ثقافي حمله اقبال من اوربا هو الفلسفـــة ولكنه لم يكن في طلبها ذلك العقل الطيع الذي يقبل كل مايلقى ، نظر اليها بتمعن فقبل منها ما يتلاءم ومبادئه وانتقد بشدة مارآى فيه مجانبة للصواب . ولم ينج من نقده حتى رائد الفلسفة القديمة وأستاذها أفلاطون في دعوته لعالم المثال وهجر عالم المحسوس ، فقد علّمه الاسلام واجبة الحياة بكل مافيها وليس الهروب منها ، قال في ديوانه الاسرار والرموز :

راهب الماضين أفلاط الحكيم ... مذهب الشاه تولى في القديم
طرفه في ظلمه المعقول ضل ... في حزون الكون قد أعيا وكلّ
فكره في غير محسوس فتيـــن ... صدّ عن كفّ وعيـن وأذن (4) .

هذا عن أب الفلسفة أما فلاسفة العصر الحديث فقد قرأ لكثير منهم وفهم فلسفتهم وانتقد الكثير منهم ، وفي نقده لهم من الادلة القاطعة على التوغل في أعماق فلسفتهم .

---

1 ـ توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخر ، مكتبة النهضة المصرية ط 3 ، 1970 .
2 ـ أحمد معبوش ، محمد اقبال ، ص 38 .
3 ـ المرجع نفسه ، ص 36
4 ـ عبدالوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 80 .

وكان علم النفس العلم الذي وفق فيه اقبال الى الربط بينه وبين الدين وعند الرسول صلى الله عليه وسلم عالم النفس الواقعي الاول (1) واذا استطاع أن يرتقي بالفلسفة ويطعمها بالفكر الاسلامي فتأتي ناطقة عن صاحبها ومعبرة عن انتمائه فقد وضع أسسا لعلم نفس اسلامي تجلى بوضوح في كتابه تجديد الفكر الديني في الاسلام (المعرفة والرياضة الدينية — الالوهية ومعنى الصلاة هل الدين أمر ممكن ...)(2) وانتقد بعض رواد علم النفس مثل "وليم جيمس" الامريكي الذي لم تعجبه طريقته في استخدام المناهج البيولوجية لدراسة الخبرات الدينية ،ورأى ان كلا من "يونج" و"فرويد" رغم خوضهما غمار علم النفس ليس لديهما اصطلاحات للتعبير عن الخبرات الصوفية بشكل مناسب. فقال رغم اعترافه لفرويد بالخدمة العفوية الجليلة للدين عند ما فصل بين مفهوم الاله والشيطان : "ومن هنا يتضح أن التحليل النفسي قد وضع لعلاج تشوشات وعقد نفسية نشأت بسبب أ خلاقية مزورة دخيلة على المسيحية وهي لا تصلح للبلدان الاسلامية لان المثل الاعلى للاسلام هو التوازن بين العقل والقلب والجسم"(3) .

والحقيقة ان تحصيل الثقافة وحده لا يكفي ،وقد يكون غير مجد اذا اعتكف عليه صاحبه بعيدا عن الناس ومواجهة الواقع ،وما العلم الا ما تأكد نجاحه وتفاعله مع الحياة والواقع .

ما ان عاد اقبال من بلاد الغرب برصيد علومه وثقافته حتى انضم الى المجتمع الانساني بمفهومه الواسع لا تحده حدود ولا تفصله حواجز ،وعايش أحداثه وقضاياه ، واضطراباته واكتسب من تلك الحقبة التاريخية الحرجة القدرة على المواجهة وكان أول ميدان لاحتكاكه بالاحداث وطنه الهند ،وفيه بدأ من دعاة القومية الوطنية في شبه القارة وما قصيدته "النشيد القومي" (ترانه هندي) و"المعبد الجديد"(4) وقصائد أخرى الا دليل على معايشته لاحداث شعبه وواكبة شعره للنهضة الجديدة والحركة التحررية ،وحينها عد واحدا من رواد اليقظة الوطنية

كان ذلك منه قبل أن يسافر الى انجلترا ويعلم عن حال وطنه أكثر مما كان يراه ويعلمه ،عندما كان بين ظهرانيهم ،وخصوصا بعد انشاء الفرع الرسمي

---

1 — علي حسون ، فلسفة اقبال ، ص 70 .

2 — انظر محمد اقبال ، تجديد الفكر الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط 2 ، 1968 .

3 — علي حسون ، فلسفة اقبال ، ص 72 .

4 — أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ، ص 44 .

بلندن للرابطة الاسلامية برئاسة أمير علي (1) وكان ذلك قبل ان يسري كيد الهنادك ومكر الانجليز سافرا ،ولو لا ما تكشف له من حقائق لكان من دعاة استقلال الهند الاوائل الذين ينقاد الشعب لارادتهم لا في دعاة تقسيمها ومع تطور الاحداث وتعددها أخذ يهتم بازدياد بمشاكل العالم الاسلامي وما آل اليه أمر المسلمين في شبه القارة في العالم ، أنشد مرة شعوب المشرق : "وجدتا أن أرضك تفتقر الى الروح فنفخت من روحي فيك" (2) وقد ألفت به ظروف البلاد الاسلامية المتردية في خضم السياسة ،فما أن حط الرحال من بلاد الغرب حتى رأى انضمام الجامعات الاقليمية الى الرابطة الاسلامية فانضم بدوره الى الجامعة الاسلامية الاقليمية للبنجاب ، وظلت مداركه تتسع والحقائق تتكشف له حتى أعلن موقفه السياسي الصريح من الحكومة عندما تخلت عن منصبه بالجامعة ،واكتفى بالمحاماة وسخرها لخدمة المظلومين من أبناء وطنه ، وعلى الرغم من نشاطه السياسي ومواقفه الايجابية فانه كان يفضل بعثه الوعي في الأوساط الاسلامية عن طريق العمل الثقافي والاجتماعي الى الحد الذي صرح فيه لصديقه "كريشنا برساد" بقوله :

"انني أفضل ألا أحضر اي اجتماع سياسي" (3).

وكانت الحرب المعلنة من الهنادك على المسلمين ومن حركاتهم الهادفة الى تحويل المسلمين عن دينهم أو ابادتهم مثل حركة شدهي وحركة "شنكهنا" بسبب دعوة اقبال الى مالم يكن في حسبانهم طلقا في خطابه التاريخي ، الدعوة الى تقسيم الهند والذي كان له صداه في أوساط مسلمي الهند بعدما يئسوا من كل انصاف الحلول .

ففي ذلك الخطاب السقى اقبال بمزيد من تجاربه السياسية وبموقفه النهائي وبرايه الاخير في مستقبل مسلمي الهند والحل الاخير الذي بقي لهم بعد فشل كل المحاولات .

واذا كان لظروف شبه القارة الهندية الدور الاول في شحذ معارف اقبال وصقلها ، فان محن العالم الاسلامي ساهمت بحظ وافر في صقل تجارب اقبال ولم تكن أحداث العالم ببعيدة عنه ،وهو النهم لمعرفة الجديد من كل شيء ، المجيد لعدد من اللغات تمكنه من الاطلاع على ما تعج به الهند من مجلات .

---

1 ـ المرجع السابق ،ص 124 .

2 ـ مجلة العلم والايمان ،عدد 42 ،السنة الرابعة (1979) (شريف المجاهد ، العلامة محمد اقبال ، ص 65).

3 ـ أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ،ص 134 .

وتأتي الرحلات سواء رحلته الاولى الى أوربا أو الثانية التي ذهب فيها لحضور مؤتمر المائدة المستديرة وزار فيها بلداننا عديدة وزار قبلها بعض بلاد المشرق الاسلامي في عداد العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته وطبعها بما عرفته به ، فقد خولت له هذه الرحلات الاحتكاك بالناس ومعرفة طباعهم وأفكارهم والتطلع الى أحوال الشعوب الاسلامية والحضارة الاسلامية عن قرب .

وبما أنه عاش في بلد المتناقضات ، شبه القارة الهندية فمما لا شك فيه أن يكون قد أفاد أيضا من ثقافاته المختلفة ، ومن المؤكد أن يكون قد اتصل بالفلسفة الهندية واطلع على فكر جيرانه وأبناء وطنه الهنادك وشاهد عن قرب عجائبهم حيث الروحانيات المتزايدة والنحل المتضاربة ، ولعله أبصر عن قرب أبناء الهند وهم يشون فوق المسامير أو الاشواك أو ينامون فوقها ، حفاة ، عراة ، أو يداعبون الثعابين القاتلة أو يراقصونها على انغام الناي ، ولعله أيضا أبصر بعضهم الآخر يعلن صوما غريبا .

ولا يستبعد اطلاع اقبال على الكتب والاساطير الهندية القديمة لاسيما وقد ترجمت الى لغات عديدة وحلول الادباء الافادة منها منذ القدم ، وتقل أحداثها في ثنايا أعمالهم الادبية ، فاجادته لاكثر من لغة تيسر له عملية الاطلاع على التراث الهندوسي وربما كانت خرافية ذلك التراث سببا آخر في تمسكه الشديد بالاسلام الذي لم يجد له في سموه ومثاليته ومبادئه مثيلا لا في عقائد الهند الكثيرة ولا في ضياع الغرب وتأليهه للمادة .

وكان أول مجال استغلت انتباهه ما أسماه بالتصوف الاعجمي الذي وجد له روافد كثيرة وخطيرة في شبه القارة ، لأنه تصوف سلبي مستمد من روافد بعيدة كل البعد عن الاسلام ، هي روافد الديانة البرهمية والبوذية ، والطابع الروحي لشعراء الفرس الفاتحين الذين استوعب تراثهم زهد المانوية (1) .

---

1 - علي الشابي - مباحث في علم الكلام والفلسفة ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ط 2 ، ص 176 .
- والمانوية : نسبة الى ماني ، من أنبياء الفرس قبل الاسلام ، ظهر بعد زردشت ، كان على علم واسع باحكام المجوسية والمسيحية فجعل من ديانته مزيجا منهما وجاء بكتاب يسمى شاپورقان وكان يقول بتناسخ الارواح ، ودعا الى الزهد والتقشف ، وكان يرى أن الحياة شر ينبغي التخلص منه ، فحرم الزواج لينقطع النسل ويفنى العالمون (المعجم الفارسي العربي الجامع ، حسين مجيب المصري ، مادة الميم) .

وقد انجذب في بداية الامر لهذا التيار الجارف، لكنه سرعان ما تحوّل الى الثورة على هذا المفهوم التقليدي للتصوّف القائم على الذهول والفناء وتعذيب الذات والعزوف عن الحياة .

والحقيقة ان هذه العوامل لو اجتمعت جميعا على نفس ليس لها من المؤهلات ما كان لاقبال ، ولو تضاعفت مهما بان لها أثر ، لان الموجهات أو المؤثرات تبقى دائما عوامل مساعدة على الكشف والصقل لا على الخلق من العدم .

فقد كان لاقبال استعداد فطري ، بواطن للتجاوب معها من روح نقية وعقل نيّر وذكاء وقّاد استجاب لتلك المؤثرات، ومؤثرات أخرى وكان في تفاعله معها واستجابته لها أشبه بالذهب الذي يبقى معدنا أصيلا وان عتّد في التراب الى ان يأتيه ما يكشف عنه ويبرز قيمته .

ثانيا : آثار اقبال :

ليس المراد هنا الحديث عن آثار اقبال وأعماله واحدا واحدا ووصف محتواها أو الحكم عليها أو تلخيصها لأن في ذلك من الاطالة الكثير ، ثم ان الدارسين على مختلف تخصصاتهم تصدوا لذلك ، بين متخصص في الادب سعى الى ترجمة واحد من دواوينه ودراسته ومتخصص في الفلسفة يرمي الى استخلاص آرائه ومواقفه الفلسفية ، وباحث في الفكر الاسلامي يقتفي آثاره في ذلك . لذلك وجدتني ألجأ الى انتقاء مقتطفات من آرائه ومواقفه سواء من أعماله أو من بعض الدراسات حوله تدل على ساهمته بفكره وشعره في قضايا عصره . ولكن هذا لا يمنعني من الاشارة الى ما جمع من أعماله ونشر ، وقد تجاوز العشرين أثرا في اللغات الثلاث : الفارسية ، الاردية ، الانجليزية .

أما آثاره الفارسية فكلها منظومات شعرية ، وأما الاردية فأما مقررات تعليمية أو منظومات شعرية ، وأما الانجليزية فمتنوعة ، منها بحثه للدكتوراه ، ومجموعة محاضراته ، ومنها مقالاته وخطب متفرقة وأحاديث صحفية ورسائل .

وهذه قائمة أعماله المنشورة :

1 - تلخيص كتاب الاقتصاد السياسي ، للمؤلف "ووكر" (W.ALKER.). (1)

2 - كتاب علم الاقتصاد ، وهي المادة التي اهتم بها وحاضر فيها حوالي ثلاث سنوات ، قبل سفره الى أوربا ، طبع لأول مرة في لاهور عام 1903م (2) وكان أول كتاب ينشر له ، كما كان المرجع الاول في علم الاقتصاد في اللغة الاردية (3) .

3 - التربية الوطنية ، ترجمه عن الانجليزية الى الاردية في نطاق عمله بالكلية الشرقية وهو لمؤلفه ووكر (4)

4 - ترجم الى الانجليزية كتاب عبد الكريم الجيلي ، "نظرية توحيد مطلق" وحقق كتابه الانسان الكامل ، في مقال آخر بالانجليزية (5)

5 - صحح كتاب أخبار الدولة السلجوقية لصدر الدين بن على الحسيني ، ورجع في سبيل ذلك الى مراجع أخرى مثل زبدة النصرة وتاريخ ابن خلدون (7) .

---

1 - جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ، ص 171 .
2 - أحمد معوض ، محمد اقبال ، حياته وآثاره ، ص 226 .
3 - جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ، ص 171 - 172 وصلاح الدين بن شمس الدين ص 40 .
4 - المرجع نفسه ، ص 227 .
5 - جاويد اقبال ، جاويدان اقبال ، ص 172 .
6 - انظر مقدمة اقبال ، للكتاب ، ص: من أ - ط .
7 - صدر الدين بن علي الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد اقبال ، منشورات دار الآفاق الجديدة ط 1 ، 1404هـ ، 1984م ، مقدمة اقبال .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6 — تاريخ هند : وضعه بمساعدة لاله رام بمرشاد للتلاميذ .

7 — أردو كورس (منهج دراسة الاردو) : وضعه والحكيم أحمد شجاع لتعليم الاردو ونشره في شبه القارة الهندية ، طبع الكتاب أكثر من مرة وهو في جزئين .(1) .

8 — آئينه عجم (مرآة العجم) منتخبات في النثر والشعر الفارسي جمعها اقبال لطلبة شهادة اتمام الدراسة الثانوية ، طبع الكتاب ثلاث مرات (2)

9 — تطور الغيبيات (طوراه الطبيعة) في فارس ، وهو الرسالة التي حصل بها اقبال على درجة الدكتوراه في الفلسفة في كل من جامعة كمبريدج بلندن وجامعة ميونخ ، الالمانية ، كتبه باللغة الانجليزية ونشر لأول مرة بلندن عام 1908 ، ثم بلاهور عام 1954 وأعقبته طبعات أخرى وترجمات منها ترجمة الى الاردية وأخرى الى الفارسية كما ترجمه الى العربية د / حسين مجيب المصري (4) ، وترجمته الى الفرنسية ايفا مايوروفيتش (5) .

10 — ديوان اسرار خودي ، أي أسرار الذات أو اسرار اثبات الذات . أول أشعاره بالفارسية نشر لأول مرة عام 1915 بلاهور وترجم الى لغات عديدة أولها الانجليزية (ترجمة رينولد نيكلسون ، أعقبتها ترجمتان الى الانجليزية الاولى لآرثر آربري والثانية لعبد الرحمن طارق وترجمها الى الاردية مولوى محمد عبد الرشيد فاضل والى السندية محمد بخش واصف والى البشتو سيندر خان سيندر ، والى التركية على نهاد طرلان ، والى الاندونيسية د / بهرام رنك كوي ، والى الكشميرية غلام أحمد نازكل كاميي والى الكشميرية أيضا قريشي حسين قلعداري ، وترجمها د / عبد الوهاب عزام الى العربية وضم اليها المنظومة الصادرة بعدها " رموز بيخودي أي رموز نفي الذات " وقال في حاشية القسم الاول أسرار الذات الى هذا القسم الثاني : " ان روحي لن تعرف الدعة حتى يتم قسمه الثاني فانني لاشعر الآن ان ذلك هو واجبي الوحيد ، ولعل ذلك وحده هو الهدف الحقيقي لحياتي " (7) .

---

1 — أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ، ص 228 — 229 .

2 — المرجع نفسه ، ص 229 .

3 — المرجع نفسه ص 230 .

4 — طوراه الطبيعة في ايران ، للشاعر الباكستاني الاكبر محمد اقبال ، ترجمة عن الفرنسية د / حسين مجيب المصري ، مكتبة الانجلو المصرية .

5 — Mohammed Iqbal La methaphisique en perse. Tr de l'anglais par Eva de vitray - Meyerovitch. Islam/Sindbad Paris .

6 — أحمد معوض ، محمد اقبال ، حياته وآثاره ، ص 231 — 234 .

7 — المرجع نفسه ، ص 238 .

11 - ديوان رموز بيخودي (رموز نفي الذات) ، منظومة شعرية من نوع المثنوي ، كسابقتها ، صدرت مستقلة عام 1918م بالفارسية ، ترجمها الى الانجليزية آرثر آربري ، وترجمها الى الانجليزية أيضا عبدالرحمن طارق ، والى البشتو سمند رخان سمندر ، والى السندية ، محمد بختر واصف كما ترجمها د / عبد الوهاب عزام الى العربية (1) كما ذكرنا .

12 - ديوان پيام مشرق (رسالة المشرق) ثالث أعماله الأدبية ، ديوان من الشعر بالفارسية نشر عام 1923 م وكانت أول ترجمة له هي ترجمة د / عبدالوهاب عزام الى العربية نظما غير كاملة اعقبتها ترجمة عبدالرحمن طارق الى الاردية ، ود / علي نهاد طرلان الى التركية والسيدة ايفا مايورو فيتش بالاشتراك مع محمد أشنا الى الفرنسية ، ثم الترجمة التشيكية لريمان ماريك بالاشتراك مع كامل بدناره ثم الالمانية للدكتورة انه ماريه شيمل ، وترجمة الى البشتو لشير محمد نوش ، وأخرى الى الگجراتية لعظيم الدين منادي ، كما ترجمها الى الانجليزية هادي حسين (2)

13 - ديوان بانگ درا (الصلصلة الجرس) يضم مجموعة مختارة من شعر اقبال بالاردية ، نشرها عام 1924 ، طبعت بعدها خمسا وثلاثين مرة (الى 1976) أما الترجمة فان الديوان لم يحظ بكاملة بها وانما ترجمت بعض أجزائه فقط ولم يترجم كاملا الا الى لغة البشتو .

ترجم الشاعر الطاف حسين حالي قصيدتاه الشكوى وجواب الشكوى الى الانجليزية وترجمهما محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان الى العربية ، وترجمتا فيما بعد الى لغات أخرى منها البنجابية ، وترجمت أجزاء أخرى من الديوان مثل منظومة خضر راه ، وطلوع اسلام ، وشمع وشاعر ، الى الانجليزية (3) .

14 - ديوان زبور عجم (زبور العجم) مجموعة من الاشعار المتفرقة القصيرة بالفارسية نشرت عام 1927 طبع مع گلشن راز جديد وبندگي نامه (كتاب النصيحة) في كتاب واحد (4) .

15 - گلشن راز جديد (روضة الاسرار الجديدة) وهو اسئلة في الفلسفة والتصوف نشره الى جانب زبور العجم عام 1927 .

16 - بندگي نامه (رسالة العبودية) مثنوي حمل فيه على العبودية والاذلال وقد ترجم هذا المثنوي د / أحمد معوض الى العربية (5) .

---

1 - ديوان الاسرار والرموز (اسرار اثبات الذات ورموز نفي الذات) منظومتان بالفارسية ، الشاعر الفيلسوف محمد اقبال ، ترجمة د / عبدالوهاب عزام ، دار المعارف بمصر .

2 - أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ، ص 241 - 244 .

3 - المرجع نفسه ، ص 247 - 251 .

4 - المرجع نفسه ، ص 251 - 252 .

5 - انظر المرجع نفسه ، ص 401 - 424 ، (نشرها مع النص الفارسي بالقاهرة عام 1980م)

وقد ترجم آرنر آربري زبور العجم الى الانجليزية وترجمه سيد محمد تقويم الحق الى البشتو وعظيم الدين منادى الى الگجراتية ،ود/ نهاد طرلان الى التركية ،أما المثنويين گلشن راز جديد وبندگي نامه فترجمهما بشير أحمد دار الى الانجليزية ،وقد ترجم د/ حسين مجيب المصري ديوان زبور العجم الى العربية (1) ، كما ترجمته نسرا الباحثة شيرين عثمان ،وكان موضوع رسالتها للماجستير (2) . .

17 - اعادة بناء التفكير الديني في الاسلام The ReconstructionOf thougt in Islam وهو مجموعة المحاضرات التي ألقاها في انحاء الهند بين مدراس وحيدرآباد وسيور وعليگره (1928 - 1929 م) نشرت في كتاب عام 1930م كتبها من أجل فهم الاسلام فهما صحيحا بوصفه رسالة للانسانية كافة ، ترجمت الكتاب الى الفرنسية د/ ايفا مايوروفيتش والى البنغالية ابراهيم خان وسعيد الرحمن والى الاردية السيد نذير نياني ،والى التركية صوفي حوري والى الفارسية أحمد آرام . وترجمه الى العربية عباس محمود بعنوان ، تجديد التفكير الديني في الاسلام . وترجمه الى البشتو بروفيسور سيد الابرار والى البنجابية شريف كنجاهي (3)

18 - جاويد نامه (رسالة الخلود) ديوان شعر بالفارسية نشر عام 1932 ، ترجمه الى الايطالية اليساندرو بياوزاني ، وترجمته أنه ماري شيمل الى الالمانية والتركية ، وبالاشتراك مع د/ محمد مقيم ترجمته د/ ايفا مايوروفيتش الى الفرنسية والشيخ محمود أحمد الى الانجليزية وكذلك آرنر آربري ،وترجمه الى السندية لطف الله بدوي والى الاردية انعام الله خان ناصر وأصغر حسين خان نظير ، والى البشتو أمير حمزة شنواري والى البنجابية د/ مهر عبد الحق ،وترجمه الى العربية د/ محمد السعيد جمال الدين ضمن رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه ،كما ترجمه الى العربية د/ حسين مجيب المصري بعنوان في السماء (4) .

وفي هذا الديوان احياء لقصة المعراج التي كثيرا ما أثارت خيال أدباء المسلمين وتصوراتهم فسجلوا ذلك في اعمال خالدة منها معراج البسطامي ومعراج ابن سينا ومعراج سنائي الغزنوي وفريد الدين العطار (5) .

---

1 - المرجع السابق ، ص 256 - 257 .

2 - شيرين عثمان ،زبور العجم ،رسالة ماجستير ،قسم اللغة الفارسية الازهر كلية البنات ، 1407 هـ-1986م مخطوطة .

3 - أحمد معوض، محمد اقبال حياته وآثاره ، ص261 .

4 - المرجع نفسه ،ص 262 - 263 .

5 - انظر : بديع جمعة دراسات في الادب المقارن ،دار النهضة العربية ،بيروت ط2 1980 ،ص 99 - 108 .

19 ـ بال جبريل (جناح جبريل) ديوان شعر بالاردية نشر عام 1935 م ترجمه الى البشتو عبدالله خان أسير ،والى البنغالية قاضي عبد الحليم أنسر ، والى الالمانية انه ماري شيمل (1) وترجمه الى الفرنسية ميرزا سعيد الظفر جغطاي وسوزان بوساك وعن هذه الترجمة نقله الاستاذ عبد المعين ملوحي الى العربية (2)

20 ـ ضرب كليم (ضرب الكليم) طبع هذا الديوان من الشعر بالاردية عام 1936 وكان الدكتور عبد الوهاب عزام أول من ترجمه ،حيث نقله شعرا الى العربية ثم نقله الى الفارسية د/ خواجه عبد الحميد عرفاني والى البشتو سيد محمد تقويم الحق كاكاخيل ،والى التركية د/على نهاد طرلان ، ويتضمن الديوان فلسفة اقبال وآرائه الصائبة التي تشبه خلاصة كل ماكتب فيه وزبدته (3)

21 ـ پس چه بايد كرد اي أقوام شرق (ما الذي ينبغي عمله يا أمم الشرق) ديوان شعر بالفارسية نشر عام 1936 ترجمه نثرا محمود أحمد غازي الى العربية والصاوي شعلان شعرا (4) وترجمه الى الاردية ظفر أحمد صديقي .

22 ـ مسافر مثنوى بالفارسية ، نشر عام 1936 ، ترجمه الى الاردية ظفر أحمد صديقي وضمه الى الديوان السابق في مجلد واحد (5) ، وكذلك ترجمهما الى الاردية الهي بخش أعوان ،والى البشتو سيد محمد تقويم الحق (5).

23 ـ ارمغان حجاز (هدية الحجاز) آخر أعماله ، وهو ديوان من الشعر كتب شطره بالفارسية وشطره الاخر بالاردية ،ولم ينشر الا بعد وفاته عام 1938 م ، ترجم عبد الرحمن طارق الجانب الفارسي الى الاردية ،وترجمه الى السندية لطف الله بسدوى والى البنجابية عبد الغفور ، وترجم الديوان كاملا أمين حمزة شنواري الى لغة البشتو ،والى التركية د/ على نهاد طرلان والى العربية د/ سمير عبد الحميد ابراهيم ضمن رسالته للحصول على الدكتوراه (6)،وترجم د/ حسين مجيب المصري القسم الفارسي الى العربية (7)

---

1 ـ أحمد معوض ، محمد اقبال حياته وآثاره ،ص 266.

2 ـ أنظر جناح جبريل ، محمد اقبال ، ترجمة عبد المعين ملوحي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط 1 ، 1987، وترجمة زهير ظاظا شعرا ، دار اقبال للطباعة والنشر 1410 هـ ، 1989م .

3 ـ أحمد معوض، محمد اقبال ،ص 268 ـ 269 ، وانظر ديوان اقبال ،ضرب الكليم ترجمة عبد الوهاب عزام ، مطبعة مصر ، شركة مساهمة مصرية ، جماعة الازهر ، للنشر والتأليف 1952م .

4 ـ انظر : والآن ماذا تصنع يا أمم الشرق ، ترجمة محمود غازي والصاوي شعلان ، دار الفكر دمشق ، سورية ، ط 1 ، 1408 ، 1988 .

5 ـ أحمد معوض ، محمد اقبال حياته واثاره ،ص 270.

6 ـ المرجع نفسه ،ص 273 ـ 274.

7 ـ المرجع نفسه ،ص 279.

وترجمت أجزاء منه الى الانجليزية مثل مجلس شورى ابليس .

ـ هذا الى جانب كتابات متفرقة مثل "مسح اجتماعي للامة الاسلامية" القاها بالانجليزية وترجمها الى الاردية مولانا ظفر علي خان ، وحديث صحفي بالانجليزية ، الخلافة الاسلامية ، نشر بمجلة "سوسيولوجي" وترجم الى الاردية . وقد جمعت أشعاره الفارسية والاردية ولازال تنشر آثار اقبال واستكمالها مجال عمل العديد من الباحثين الجادين ، وثمة ملامح النور من أعماله مثل رسالة الاجتهاد وتاريخ العالم (1)، الى جانب رسائله الكثيرة التي تحمل علامات شخصيته وفكره .

وأما عن جهود اقبال ومساهماته في الحياة العلمية ، فقد كان الدين أول ميدان حط عنده الرحال وقدم له عصارة عطائه الفكري وأفصح في شبابه عن احدى أمنياته بقوله : "ان أمنيتي أن أكون خادما لخلق الله ما امتدت بي الحياة" (2) فمن القضايا الاسلامية التي حظيت باهتمام اقبال فكرة التوحيد التي فهمها بعقل المفكر وقلب الشاعر المسلم الحي الذي يسعى الى بعث الحركة في كل شيء لانه لا يرى شيئا ساكنا على الاطلاق ، فقد بعث الحياة في الحجر الاسود رمز الوحدة بين المسلمين وعلل سبب سموه في نفوس المسلمين : "ان الحجر الاسود كان ترابا بالتكوين غير خليق ، فصار حلية في صدر البيت العتيق ، فاق الطور رفعة حتى صار مقبل الاحمر والاسود" (3) واذا كان لابد للامة الاسلامية من مركز يوحدها وتلتقي عنده ، فهو بيت الله الحرام الذي به يكون انتظام الاقوام وهو بمثابة الروح من الجسد والمركز من الدائرة :

هكذا سنه ميلاد الامم ... مركز فيه حياة تنتظم
انما المركز روح الدائرة ... نقطة فيها محيط قاهرة
ومن المركز للقوم نظام ... ومن المركز للقوم دوام
نقطة المركز منا الحرم ... لحننا والوجد فينا الحرم (4)

ويقف الشاعر عند احدى حلقات ذلك الدستور الخالد ألا وهي سورة الاخلاص القليلة الالفاظ الثقيلة المعنى ، فيتوغل في آياتها ، ليظهر ما فيها من

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 279 .
2 ـ المرجع نفسه ، ص 47 .
3 ـ مجلة المنار ، عدد 3 ، سنة 12 ، 1407 هـ ، 1986 ، ص 112 (أحمد ماهر البقري ، عقيدة التوحيد في أدب اقبال) .
4 ـ علي حسون ، فلسفة اقبال ، ص 152 .

معاني التوحيد ،ويجود فيها بما وعته ذاكرته من تاريخ الاسلام في مجده الاول ونصائح حملته الاوائل وعبرهم (1) . وقد ألح أكثر من مرة على تربية الذات بالطاعة وضبط النفس لتزكو وتتأكد صلتها بالأرض والسماء : "... فمتى أدرك المرء قيمة نفسه وروضها على السعي الدؤوب والعمل الذي لايعرف الكلال استطاع أن يبدع في هذا الكون ،قال اقبال :

ان القطرة التي تدرك نفسها تنقلب في عروق الكرم خمرا وعلى أوراق الورد ندى وفي قاع البحر درا"(2).

واذا وقع الخلاف بين الدين المسيحي والعلم لما كان يلقاه المبدعون من العلماء من عنت رجال الكنيسة ،فان اقبال وقف أمام هذه الفكرة ورأى ألا تناقض بين العلم والدين وانهما متكاملان ،فما الخلاف المتمثل بينهما الا نتاج لرأي فاسد ،سعى فيه العلم الحديث الى القيام مقام الدين ،فنفاه كلية واكتفى بالنظر في العالم المادي (3) ،يقول : "فالدين ليس علم الطبيعة أو علم الكيمياء الذي يبحث عن تفسير للطبيعة في قوانين السببية ، ولكن غايته الحقيقية هي ميدان من ميادين التجارب الانسانية) هو ميدان الرياضة الدينية الذي يختلف عن ميادين العلوم السابقة كل الاختلاف ،والذي لايمكن رد أسسه إلى أسس علم آخر"(4) وينتهي الى انصاف الدين ووضعه فوق العلم الذي أدعى لنفسه الريادة في التجربة : "انه (أي الدين) أصر على وجوب التجربة والواقعية في الحياة الدينية قبل أن يدرك العلم ضرورة ذلك بوقت طويل"(5).

وهو يريد بالدين هنا ،الدين الذي ارتضاه الله ،ويراه غير قابل للتأثر بالمصائر والاحداث من حوله مادام هو يحدد ذاته هيدا . ولأجل هذه الحقيقة يكشف اقبال سلبية المسلمين وعزوفهم وتناقضهم مع طبيعة الدين . فهذا دين ايجابي وذاك مسلم سلبي ، دين هو لهذه الحياة والحياة الاخرى ،وانسان لايصلح لهذه الحياة (6) ،وحز في نفسه ما نشأ بين المسلمين من

---

1 ـ انظر ديوان الاسرار والرموز ، ترجمة عبدالوهاب عزام ص140 ـ 149 ، (خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الاخلاص).

2 ـ مجلة الثقافة ،سنة 14 ،عدد 79 ، 1404 هـ (1984) (أبو عمران الشيخ ، فلسفة اقبال الدينية والسياسية ،ص 110)

3 ـ علي الشابي ، مباحث في علم الكلام ،ص 180 .

4 ـ محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ،ط 2 ، 1968 ،ص 34.

5 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .

6 ـ محمد البهي ، الفكر الاسلامي الحديث ،ص 479 .

خلاف مذهبي هو فناء المسلمين، فحاول في خطوة عملية اقناع المسلمين بضرورة نبذ الفرقة والسعي وراء سبيل الوحدة، خال أبا بكر زاره في المنام فسأله عن دواء لعلة المسلمين وتشتيتهم فكانت اجابته :

قلت أفغان وترك وعجم ... لم تزل عما تعود بالقدم
طهّرون الحق في هذي السمات ... أقصد البحر وخلّ القنوات(1)

فجنسية المسلم هي عقيدته وأما رابطة الارض والوطن حينا واللون واللغة حينا والطبقة والمهنة آخر فتصورات دخيلة على الاسلام، غريبة عن مبادئه .

ما من الانساب يقوى وصلنا ... ليس من روم وعرب أصلنا
انما حبّ الحجازي الحبيب ... قد حبانا ذاكم الوصل القريب
عشقه سرّ اجتماع الأمة ... نبضت منه عروق الملة
صلة العشق لنا أقوى سبب ... هو في الروح وفي الجسم النسيب
أيها العاشق خل السبب ... خلّ ايران وخلّ العرب(2)

ولابطال رابطة الوطن أو التراب عاد اقبال الى تاريخ الاسلام في أيامه الاولى واقتبس من قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتضحيته في سبيل رابطة الدين برابطة الوطن ورابطة الدم في غزوة بدر حيث قتل الابن أباه والأخ أخاه، فبطلان رابطة الجنس واللون واللسان بمكانة بلال الحبشي وسلمان الفارسي (3)، ولعلّه بهذه الالتفاتة الى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة استطاع أن يقنع مسلمي وطنه حتى أشدهم رفضا لاقامة وطن مستقل في شبه القارة وأشد الناس تمسكا بوحدة الهند .

ولم يفت اقبال رغم تشعب مشاغله وكثرتها مشاطرة أمته الاسلامية همومها وأحزانها وسهره على تضميد جراحها التي كان أعظمها جرح فلسطين الذي تنبّه له وشارك في عدد من المؤتمرات التي عقدت لبحث قضيتها وكشف مكرهم، كما ردّ على زعم اليهود وادعائهم ملكية فلسطين بحجة أنهم سكنوها قديما، بعنوان قريب، اذا كان لهم الحق فيها وقد تفرقوا وهاموا على وجه

---

1 ـ مجلة المجلة، مجلد 7، عدد 41، السنة 4، 1960 (ملي) 1379 هـ، ص 22. (المقال السابق).
2 ـ علي حسون، فلسفة اقبال، ص156.
3 ـ مجلة العالم الاسلامي عدد 155، 1987، 1407، (كانون الثاني، يناير، جمادى الاولى) ص 38.

الارض ، فأولى بالحرب المسلمين أن ينالبوا با سبانيا التي عمروها وملأوا ربوعها علما ونورا (1) ، وقد عبر اقبال عن اعتقاده الجازم بعدم جدوى المباحثات والمؤتمرات لا في لندن ولا في جينيف لحل مشكلة فلسطين مادام اليهود مسيطرين على الغرب متعهدين لاعماله وأحواله (2) .

ولا يفتأ اقبال يوجه اهتمامه الى المشرق العربي ، المثقل بالهموم والاحزان وقد خفتت فيه جذوة الروح وانطفأت اشراقة القلوب فصار كل شيء فيه يوحي بالترابية والعتمة وكل ما فيه يوحي بالتأوه ، يقول :

ان كل الشرق يبدو كتراب في الطريق
أو أنين كامن في الصدر من هم وضيق
خفتت حسرته في القلب من حزن عميق
وغدت ذرات ذاك التراب طرفا لا يفيق
هب من ايران أو بغداد والهند الشقيق
هب يا من رحت في نوم عميق
هب يا من رحت في نوم عميق (3) .

ولم يقف اقبال عند نداء الشرق الاسلامي الى النهوض وهو العارف بأسباب البلاء وبالايد التي كانت وراء ضعفه وتشتته وفقره وجهله ، لذلك رأيناه يلتفت الى الطرف الثاني ويتوجه الى الاستعمار باسلوب سياسي بعدما اقتصر جهاده معه حينا من الزمن على المحاضرات والندوات والاشعار ، وما هجرانه للوظائف الحكومية وراتبها المغري الا اعلان حرب عليها ، وقد رأينا انضمامه الى جمعيات سياسية وكفاحه فيها ، ولعل أكبر جمعية فازت بنضاله هي الرابطة الاسلامية .

فقد اطلع على ثورات الغرب وتجديده ، واشتاق لرؤية تجديد يعم البلاد الاسلامية ويتماشى مع طبيعتها ، مثل ثورة المانيا وفرنسا وايطاليا ، وتمنى أن يثور أبناء أمته على الظلم ويسعوا دابره وان تمتد تأجيجاته ، يقول :

لقد شهد طلطانيا ثورة الاصلاح الديني التي عفت الاثار القديمة والتقاليد العتيقة

---

1 ـ عبد اللطيف الجوهري ، ص 84 .
2 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .
3 ـ أميرة نورالدين داود ، درر من شعر اقبال ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1371هـ 1951م ، ص 54 .

في اروبا ، فجحدت أروبا المسيحية عصمة القيصرين والبابوات، وتحرر الفكر الاروبي وتحركت سفينته في يسر وسهولة. وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها اروبا اضطرابا ، وأصبح الشعب (الايطالي) الطلياني شابا فتيا بلذة التحرير ، هكذا الروح الاسلامية ضطربة قلقة تطلب انتفاضة جديدة ولكن متى ذلك؟ انه سر من أسرار الله ... والعالم يتخمر بحوادث جسام فلا يستطيع أحد أن يتكهن بالمستقبل "(1).

ومن المنظمات العالمية التي تفاءلت الشعوب الضعيفة بها وعلقت عليها الآمال "عصبة الامم" لما تحمله من شعارات براقة كالامن العالمي والسلام وحق الشعب في تقرير مصيره ، والحرية ... وغيرها ، ولكن اقبال استطاع ببعد نظره أن يدرك أن مثالية تلك الشعارات ليس لها من مجال غير الورق ، أما الواقع فيثبت أن القائمين عليها عبثوا بقداسة شعاراتها وقوانينها وسخروها لخدمة أهوائهم ، فما كان من اقبال الا أن يتنبأ بفشلها وانحلالها (2).

كما كان اقبال في طليعة الكتاب والمفكرين الذين تصدّوا للهجمات الصليبية على شعوب افريقيا وآسيا ، فعندما غزت ايطاليا وعلى رأسها "موسوليني" الحبشة عام 1936 عبّر عن سخطه الشديد في ديوانه "ما الذي ينبغي عمله يا أمم الشرق" وفضح تواطؤ الدول الاروبية وزيفها وأسيادها للمستضعفين وللناس جميعا عدم جدوى عصبة الامم ، اذ هي التي سايرت ايطاليا في دكتاتوريتها وساندتها وأعطتها الضوء الاخضر للاعتداء على الشعب الاثيوبي ، يقول "علينا أن نتعلم من ورطة اثيوبيا ، فان قانون رياطة الجأش الذي يحكم أوربا بلا منازع سمح للذئاب أن تلتهم الحملان ، ولا أمل في حل دون الالتفات الى أولئك الذين ينهبون أكفان الموتى ... ان استغلال الانسان لأخيه الانسان ، هو قانون المدنية الحديث"(3) وقال في ديوانه ضرب الكليم الذي ضمّن أنه (الديوان) اعلان حرب على العصر الحاضر (5) :

---

1 ـ عبد اللطيف الجوهري، مع اقبال ص106 و Mohammed Iqbal , 1877commemoration u centenairedesa naissance, p.10

2 ـ أنظر : نجيب الكيلاني ، الشاعر الثائر ، ص 112.

3 ـ صبحي محمصاني ، المجاهدون في الحق ، دار العلم للملايين ط1 ـ 1979، ص266.

4 ـ علي حسون ، فلسفة اقبال ، ص 174.

5 ـ اقبال ، ضرب الكليم ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، صفحة (ص) من المقدمة .

عقـــبان أروبـا بخيـــر علـــم فـي جيفـــة الاحيـاش أي ســـتم
قـــد آن للعيتـــة أن تجيـــفـــــا
حضـارة تكمـــل بـالمخـــزاة وعيـــش أقـــوام على الغـــارات
وكـل ذئـــب طـــارد خـــروفـــــا
وجـه الكيـــســـة اكتسى شنـارا روما أراقـــت مـــاء نهـــا را
يـابـــاب قـد أضحى الـــورى أسيـــفـا(1) (أي البابـا).

وما الطـريـق الـذي ســار فيـــه الـــدكتـور لايطـالي الا مـن صنـع السياسة الغربيـــة التي تبـرر كـل ما تهـــجـــيـــه ريـــح الغـــرب وتـوجـه أصابع الاتهـام الـــى الاســـلام : ، يقـــول أيضـــا :

"اذا كـانـــت حـرب الشـرق غيـــر مقـدسـة ، فهـل حـرب السلاح الغـربـي هـــي المقـدسـة واذا كـانـــت الحقيقـة هـــي هـذه فكم ، فهـل هـذا هـو الطريـق السليم ، أن تبـاركـــوا أخطاء أروبـــا ، وتضعـوا الاســـلام تحـــت مجهـر "(2).

هـذا ولـم تفلـت النظـم الاقتصاديـة المستحدثـة في العالـم من تعليقـاتـه ونظـراتـه ، ولـــم يخـف تذمـره واستيـاءه مـن أصحاب العقـول والمنظـرين للمـذاهـب الاقتصاديـة ، لأنهـــم دأسـوا حرمـة العقـل والعلـم ، وسخـروا مـواهبهـم وعلمهـم لخـدمـة مصالـح الطبقـة الحاكمة يقـول : "أيهـا الاقتصاديـون الحكماء ، مـاذا يـوجـد في كتبكـم المقدسـة ، طهـاة ذات منحنيـات محكمـة ، من نـوع دعـوة البرامكـة ... في مـزارات الغـرب الوثنيـة ، وعلـى منـابـرهـا ، وفـي مـراكـز التعليـــم ، الشراهة وجـرائمهـا الفظيعـة ، خلف طهـاة اختكم الخبيثة"(3)

ان هـذه المقتطفـات القليلـة لاتمثـل كـل جهـود أقبـال ، فبعضهـا قـد سبقـت الاشارة اليـــه في معـرض الحـديث عـن حيـاتـه والبعض الاخـر في ثنـايـا ذكـر العـوامـل المسـاهمـة في تكـويـن شخصيتـه ، هـذا ولا ننســى خـدمتـه للغتيـن الاسلاميتيـن الفـارسيـة والاردية اللتيـــن اختارهمـا لنظـم شعـره فمـهـد فخـر اللغـة الاردية (4) في بـلاده ، وفـي العالـم واليـد التي أسـدت لهـذه اللغـة الفتيـة مـن الخـدمـات مـا يأذن لهـا بالبقـاء والاستمرار ، لاسيمـا عنـد مـا حـاول ادخـال الاسـاليب الرومنطيقيـة اليهـا (5)

ولـم تكـن خـدمتـه لهـا في المجال الادبي والسمـو بهـا الـى منافســة الفارسيـة فـــي رقـــة الاســلوب وحسـن السبـك فحسـب ، بـل أثبـت أنهـا لغـة صالحـة للمؤلفـات العلمية

---

1 ـ المرجع السابـق ، ص 104 .
2 ـ علي حســون ، فلسفـة اقبال ، ص 176 .
3 ـ المرجـع نفســه ، ص 169 .
4 ـ جبـور عبـد النـور ـ المعجم الادبي ـ دار العلم للملايين ، ط2 ، 1984 . ص585
5 ـ مجلـة العلم والايمان ، عدد 42 ، سنة 4 ، 1979 ، ص62 .

وحسبه أن يكون كتابه علم الاقتصاد أول كتاب بالاردية في علم الاقتصاد الى جانب دروسه في اللغة اردية .

كما عدّ اقبال خاتمة شعراء الفارسية الكبار في العصر الحديث في شبه القارة لما قدمه فيها من ابداع ،وما رجحان كفتها على كفة الاردية وفوزها بستة دواوين من شعره الا دليل على العطاء الكبير الذي قدّمه لها اقبال ،وكأنه خاف عليها من غلبة الانجليزية واستيلاء الاردية على الالسن وتحولها الى لغة تلقن في المدارس، فأراد أن ينقلها الى عامة الشعب مترنحا بها واذا علمنا أن وسيلة اقبال الصالح والداعية والانسان الاولى لتبليغ أفكاره للناس هي الشعر ، استطعنا التأكد من أن خدمته للفن والشعر لا تقل عن خدمة السابقة ،ولعل أهم ما قدمه اقبال لهذا المجال أنه شارك المخلصين من أبناء أمته في وضع اللبنات الاولى لما يمكن تسميته فنا اسلاميا ، لا يصدر الا عن تصور اسلامي .

واذا كان للشعراء منذ القدم شياطين يتغنون بها ويسألونها الالهام ،فان الصدر الاول الذي كان يستوحي منه الشاعر المسلم هو نور الحق الذي قامت به السموات والارض،والمفهوم الوحيد له هو الله والمعين الذي يصدر عنه اقبال هو القرآن الكريم ،ومن هذا الصدر الراسخ انطلق في تعريفه للفن وفهمه والنظر اليه من وجهة نظر اسلامية تربطه بالواقع وتجعله لسان حال الأمة وأداة حلّ مشاكلها ووسيلة تهذيب الشعوب وتربيتها .

يقول في مقدمته لديوان الشاعر غالب: "اذا نظرنا في تاريخ الثقافة الاسلامية فرأينا ان الفن الاسلامي فيما عدا العمارة لمّا يولد ،أعني الفن الذي يقصد أن يتخلّق الانسان بأخلاق الله"(1) ،وهي الغاية التي سعى مستأجلا تحقيقها في شعره وفلسفته وكل أعماله ،فكان في زمرة الرواد الاوائل الذين حاولوا بعث الفن الاسلامي في العصر الحديث ،بل وعدّ الوحيد في ذلك في نظر بعض الدارسين المسلمين ، مثل أنور الجندي ،الذي انتقد ظاهرة التغريب التي غطت على العالم فكر اقبال : "فهو الشاعر المسلم الوحيد في عصرنا هذا الذي وهب حياته للفكرة الاسلامية

---

1 ـ عبد الوهاب عزام ـ محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ص447

وأقسام شعره وقلمه وبيانه في سبيل تجلية عظمة الاسلام وفضله وما من شاعر ممن كتبوا عن الاسلام الا شاركوا فيه فنونا أخرى ماعدا اقبال" (1) . انه الشاعر المتأمل المتفكر الذي خرج عن زمرة الشعراء الذين يقولون فيكذب فمن الا زمرة الشعراء القدامى كسنائي والرومي الذين اتخذوا الشعر أسلوبا للتعبير عما يطرقه الحكماء من معاني لا الشعراء ، فكان من "قادة الفكر" (2) بواسطة الشعر ، والشاعر الذي لاتكون له ريادة الركب في سبيل الفلاح ولايعين بشعره على الحياة ، لن يكون في نظر اقبال الا شاعرا على مسمى ، وسيكون اقتصاره على التخييل والشدو الجميل اضعافا لقوى الجماعة واخمادا لهمتها (3).

فهو يرى أن الشعر يجب أن يتصل بالتأمل والنفوذ الى أعماق المعاني ، كما أنه يحتاج الى مطالعة وثقافة عريضة وفهم دقيق لمختلف العلوم والفنون ، : "... ليس من المستطاع أن يكون كل انسان شاعرا ... فاني أرى شعراء هذا العصر يندفعون الى الشعر اندفاعا وارتجالا دون أن يتجشموا محنة التأمل ، وتكاليف النفوذ الى أعماق المعاني ويظنون أن قول الشعر هو نظم الالفاظ وتقفيتها دون حاجة الى مطالعة أو ثقافة عريضة وفهم دقيق لمختلف العلوم والفنون ويريدون أن يشتروا شهرة رخيصة بنظم يسير" (4).

انما ذهب اقبال هذا المذهب لأنه يريد من الاديب عموما والاديب المسلم على وجه الخصوص أن يحمل على كاهله مسؤولية اجتماعية لانه أقدر من غيره على الاتصال بنفوس الجماهير الشعبية ، وأقدر على تحريك مشاعرهم (5).

ولكن اقبال مع هذا لا يفرط في جمالية النص الادبي ودواوينه الشعرية خير شاهد على ذلك . قال موضحا موقفه من الفن : "أرى الفن خادما للحياة والشخصية ، أبنت هذا الرأي عام 1914م في ديواني اسرار خودي ، وأوضحته مرة أخرى بعد انقضاء عشرة سنة في القصيدة الاخيرة من ديوان زبور العجم حيث حاولت تصوير روح الفنان المثل الذي يتجلى العشق فيه توحيدا بين القوة والجمال" (6).

---

1 - عبد اللطيف الجوهري ، مع اقبال ، ص 149.
2 - حميد مجيب المصري ، اقبال والقرآن الكريم ، مكتبة الانجلو المصرية ص 147 و 150.
3 - المرجع نفسه ، ص 150.
4 - الأعظمي والصاوي شعلان ، اقبال والفلسفة الاسلامية في شبه القارة الهندية ، دار الفكر دمشق - سوريا ، ص 20.
5 - حميد مجيد هدو ، اقبال الشاعر والفيلسوف والانسان ، ص 123.
6 - عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال فلسفته وشعره ، ص 149.

فالفن الذي لا يترك أثرا في الحياة ولا يحرك دفتها ولا ينير دروبها ، والفن الذي ليس فيه سحر عصا موسى المعجزة ليس فنا في نظره ، مثل النسيم الذي يكون له اعتبار اذا كان سببا في تلف الازهار ، اذ ما من شيء في هذه الحياة الا وله وظيفته التي يجب أن تكون صالحة خيرة ، يقول :

مقصد الفن في الحياة لهيب ... أبدي فما وميض الشرار
ما نسيم الصباح في الشعر واللحن ... اذا ما أذوى سنا الازهار
ليس الا الاعجاز يحي فيفنى ... ليث ضرب الكليم فيه عواري (1).

وقال : « أنا لا أعارض تذوق الجمال والشعور به فذلك أمر طبيعي ، ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر »(2)

والفن الذي ليس فيه قوة وايمان بتلك القوة ليس فنا ، وقد عهدنا اقبال داعية الى القوة نابذا الضعف كارها التواكل والخمول ولكنه لا يريد لهذه القوة أن تستخدم في غير صالح الانسان مثلما فعل الغرب بقوته فتنبأ له بالدمار ، وانما يريد بالقوة ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم عندما فضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف كي لا يهان في دينه وماله وعرضه ومقدساته ، ولأجل هذه الغاية السامية لم يفتأ اقبال يكرر نصيحته للناس بأن يعيشوا أقوياء ، ولأن يعيش المرء ساعة أسدا خير له من حياة مائة عام نعجة ، يقول : « اذا كان لك صدر جدير بالسهم ، فعش في الدنيا صقرا ومت صقرا (3) وكذلك الفن لابد له من قوة ولابد له من جمال مشوب بالجلال ، يقول :

وأرى الجمال جميعه في أن ترى ... في سجدة للقوة الافلاك
ولنغمة من دون نار نفخة ... ما الحسن الا بالجلال يحاك (4).

بل ان اقبال نظر الى الفن نظرة مثالية وأراد به السمو الى عالم المثل فشابه في ذلك أفلاطون (5) في نظريته للمحاكاة التي عد أروع درجة

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 150 ، (عواري من العور جمع أعور وعوراء والمراد به المعاني الخاصة الدقيقة ، لسان العرب) .
2 ـ عبد اللطيف الزهري ، مع اقبال ، ص 100 .
3 ـ اقبال ، رسالة الخلود ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ، ص 300 .
4 ـ اقبال ، ضرب الكليم ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، ص 89 .
5 ـ عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 152 .

فيها تلك التي يوقف فيها الفنان الى تجاوز الواقع وتصوير ماينبغي أن يكون عليه لا ماهو عليه ،لأن الفنان خلاق لا مقلد ، ولاينبغي أن يحاكي الطبيعة ،بل الانسان بدوره مبدعا في هذه الحياة ،فكيف لايكون الفنان مبدعا، يقول :

خلقت الظلام فصغت السراج ... وطينا خلقت فصغت الكؤوسا
خلقت جبالا وبيدا وروضا ... خلقت حدائقها والغروسا
... أنا من حجار صنعت مرايا ... أنا من سموم صنعت دوايا (1)

ويقول مشيدا بالفنان الذي يزوّد الطبيعة بخياله ويضيف الى روائعها من روائع ابداعه ،وواضعا الجاحد لابداعه بالكافر بالحقيقة ، "ذلك الفنان الذي يزيد على الطبيعة ويقسي لاعيتها أسراره ،حوره من حور الجنة أجمل ومن ينكر أصغامه فهو كافر" (2) وهو لذلك يقترح علينا أن نسرّح الطرف في عمل العاصيين وابداعات كل فنان حرّر طيرا لنقف على معنى الحرية في الفن وثمرتها ،لنرى الزمان منتظما في أعمالهم ،لأنهم أثبتوا وجودهم بما أبدعوه ،يقول : "أصحب الطيس حينا ،وتأمل في صنعة الاحرار طيرا ،وانظر عمل أيبك وسوري (3) جلّى الاحرار مصائرهم وعرضوا للاعين أنفسهم فنظموا حجرا الى حجر ،فجمعوا الزمان في آن" (4).

رجل هذا مذهبه في الفن والأدب لن يسكت عن حال ادباء عصره ومجالس أدبهم التي فقدت التأثير ،وافتقرت الى شعلة النور واشراقة الحب ، "أما أندية الشعر والأدب فقد خرجت منها كئيبا حزينا ،فليس في نغماتها وأفكارها مايبعث الروح ويثير الطموح انه شعر بارد يخرج من قلب بارد ،وأدب ميت" (5) .

ولم يأس لحال الفن الاسلامي الذي لوعساد الى الدين لاستقام عوده واستوى - فحسب - وانما نعى على العجم أيضا بعد فهم عن الحياة وميله الى الخنوع وحديثه الى الاحياء عن الموت وجريه وراء الملذات والشهوات، انه أدب يقتل الروح ويوقظ الجسد ،ويقيم بين المرء وطموحه الى المجد ستراه

---

1 - عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال ،سيرته وفلسفته وشعره ،ص 152 .
2 - المرجع نفسه والصفحة نفسها
3 - هما قطب الدين ايبك باني مسجد قوة الاسلام في دهلي ،وشيرشاه سوري أحد ملوك الهند
4 - عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ،ص 156 .
5 - عبد اللطيف الجوهري ، مع اقبال ،ص 114 .

لأنه ينظر الى الحياة من منظار ضيق سخر من خلاله كل فنه (من رسم وشعر ونثر) وكأن كل ماعداها سراب قال في قطعته "أصحاب الفن في الهند":

تخيلهم جنازة كل عشق ... وظلمة فكرهم للحي قبر
وموتهم به نقش المنايا ... وليس لفنهم بالعيش خبر
ينيم الروح في إيقاظ جسم ... ودون المجد يسدل منه ستر
يسخر للانوثة كل شيء ... لهم قصص وتصوير وشعر (1).

فالكافر هالك بعقلته وجهله، وفنه تبع له اذ يستمد من خرافاته يبكي هلاكه وينهبه لانه لايحمل في ثناياه بذور الحياة:

تعس الكافر من أصنامه ... من حطام لمناة واللات
هسالك صلى عليه فنه ... في ظلام اللحد يرنو للحياة (2)

وقد زاد فن الهند والعجم سوءا الى بعده عن الحياة وتواكله وموته واماتته ان نهل من الغرب وقلده ،ففتل الخيال في البلاد وأمات مآثر فنها التليدة لذلك دعاهم اقبال الى أن يظهروا للناس وسط ذلك الركام الذي صوروه الذات البشرية وهي تسمو بنفسها ،يقول :

قلد الغرب فن عجم وهند ... عم هذى البلاد موت الخيال
شغفني الغم أن بهزاد (3) مصري ... يسلب الشرق بهجة الأزل
ياخبيرا بفنه فيه تمت ... ... صنعة العصر والعصور الخوالي
كم ترى من خليقة وتريها ... ... أرنا الذات فوق كل مجال (4)

وفي منظومته الثنوية "رسالة العبودية" (بندكي نامه) شرح وتفصيل لمذهبه في بعض الفنون مثل الوسيقى والرسم (5) ففيهما انتهى الى ضرورة الحسن في الفن وضرورة القوة في الحسن ،وبهذين يكون الفن نبوة والهاما وبدونهما يكون سحرا لأن العشق مزج بين القوة والحسن

---

1 ـ اقبال ،ضرب الكليم ، ترجمة عبد الوهاب عزام ،ص 93 .
2 ـ عبد الوهاب عزام ،محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ،ص 151 .
3 ـ كمال الدين استاد بهزاد ،مصور فارسي ،ولد حوالي عام 1450م أقام حينا في هراة ثم غادرها الى عاصمة الصوفيين ،أجمع الناس على تقدير بهزاد وفنه حتى صار اسمه ضربا للمثل. وراى بعضهم انه يجب ان يتزل متزلة مانى والعائد اليوم ان بهزاد هو قبل كل شيء المصور الذي أوصل الفن التيموري الى الكمال (دائرة المعارف الاسلامية مجلد 12).
4 ـ عبد الوهاب عزام ،محمد اقبال ،سيرته وفلسفته وشعره ،ص 153 .
5 ـ أنظر : أحمد معوض ،محمد اقبال حياته وآثاره ،ص 407 ، 424 .

فسأقسام عاشما من الجلال في عالم من الجمال (1).

والحقيقة أن اقبال امتاز بين شعراء عصره بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية وعبقريته الفنية لرسالة الاسلام لأنه كان صاحب رسالة متدفقة بالحياة والطموح والحماسة، استخدم الشعر كوسيلة لرسالته لتكون أسرع وصولا الى الأذهان وليوقظ غافلا وينبه ذاهلا ويعلم جاهلا ويكرم عاقلا ويشجع فاشلا ويهيج خاملا ويحرك جامدا ويحيي قلوبا ميتة ويملأ الأفئدة حماسة دينية (2).

كل ماتقدم يدل على أن اقبال كان واحدا من القلة النادرة من أدباء العصر الحديث استطاع أن يعبر بفكره وفنه عن معنى كون الانسان مسلما (3).

فهو على الرغم من الظروف الخطيرة التي مرت بها شبه القارة الهندية والعالم الاسلامي والعالم كله، لم ينحرف عن مبادئ دينه، وانما اتخذ منه المفتاح الذي به يحل المشاكل العصر والدواء الذي يقدمه بين أيدي البشرية وهو في كل أعماله يعبر عن تصور اسلامي وان شابته بعض أخلاط من تصورات صوفية هندية أو فارسية حاول قدر امكانه ردها.

وقد رأينا أن أشد ماحرص عليه دعوته الى الحيوية والنشاط، الى البناء والى بعث الحياة لا في الأحياء فحسب بل اذا أمكن ففي الجماد. وهي الفكرة التي تفاعلت معها نفسه وآمنت ألا وجود لشيء ساكن على الاطلاق، كل شيء حي وكل شيء متحرك، وكل شيء يقتحم السكون لكي يوجد وان اراد شيء لنفسه السكون فقد اراد الموت وقد خرج بذلك عن الناموس (4).

فلم يكن غريبا أن ينشغل بدراسته ذلك الكم الهائل من علماء الشرق والغرب ولم يكن غريبا وهو الشاعر المسلم المنصف لأمانة الشعر والطبق لها كما يريد الله أن ينطبق عليه وصفه للشاعر المسلم هادي الأمة وحاديها. فيتخذه مسلمو الهند هاديا وحاديا، تنقاد قوافلهم وراء فكره وتسير ارواحهم وتبذل مهجهم في سبيل تحقيق الدولة

1- عبد الوهاب عزام، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره، ص157.

2- مجلة ثقافة الهند، مجلد 28، عدد 3، 4، 1977، (محمد اقبال بين الشعر والتجديد د. فينان النبه الفاروقي، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، ص 172).

3- مريم جميلة، الاسلام في النظرية والتطبيق، مكتبة الفلاح ط 1، 1978 ص 182.

4- محمد قطب، منهج الفن الاسلامي، دار الشروق، ط 7، 1408 هـ 1987م القاهرة، ص 184.

الاسلامية التي كانت في فكر اقبال وحده ، فصارت في قلوب وفكر الملايين ، فهذا محمد علي جناح زعيم المسلمين ، وباعث الباكستان ومظهرها على أرض الواقع يتخذ -وهو القائد- من اقبال اماما يقول : "كان لي صديقا واماما وفيلسوفا ، وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الاسلامية راسخا كالصخرة لم يتزلزل لحظة واحدة ." (1)

ويكفي أن نجد بعد اطلالة على ذلك الاحياء السريع لاعمال اقبال ، ذلك العدد الهائل من رسل افكاره الى انحاء العالم (الاسلامي والغربي على السواء) أو حملة أفكاره بترجماتهم التي خولت لهم لطول اتصالهم باقبال أن يصبحوا من المتخصصين في الاقباليات .

فنجد في العربية الرائد الاول د / عبدالوهاب عزام بترجماته ودراساته ، ونجد الدكتور حسين مجيب المصري (2) والاستاذين محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان بترجماتهم ودراساتهم .

وفي التركية د / نهاد طرلان الذي ترجم له خمسة أعمال أدبية ونجد في الانجليزية آرثر آربري وفي الالمانية د / آنة ماري شيمل ، وفي الفرنسية د / ايفا ميورويتش ، ونجد عبدالرحمن طارق لسانه الى الاردية والانجليزية على السواء ، كما نجد له رسلا الى لغة البشتو أشهرهم سمندر خان سمندر ومحمد تقويم الحق ، والى السندية أمثال محمد يخش واصف ، والى الكشميرية نجد غلام أحمد نازكل كامي ، والى التشيكية يان ماريك ، وغير هؤلاء كثير من حملة الفكر والروح الاقباليين الى الناس.

ويكفي ان ينبري عدد من هؤلاء الى دراسة أفكاره وشرحها للناس بعد ترجمتها ، وأن نجد الى جانبهم مهتمين آخرين بفكره وشعره وفلسفته ، فنجد من الالمانيا الاستاذ "ايشو روسو" و د / "فيشر" (الاستاذ بجامعة ليبزيج وصاحب مجلة اسلاميكا) والشاعر "هانس ثراهم" والشاعر "هرمان هسه" الذي يعترف به وسيطا بين الثقافتين الشرقية والغربية (3) ، ومن ايطاليا نجد المهتم به "اسكاريا" ، ومن أمريكا "مكبنري" و"نكلسون" من انجلترا ، وقد بلغ شدو روسيا ، اذ تكلف أحد أعلامها مشاق السفر الى موطن اقبال لينقل عنه أصول فلسفته (4) وباسمه تقام جمعيات في شتى أنحاء العالم واحتفالات بذكراه . (ذكرى الميلاد والوفاة) .

---

1 - علي الشابي ، مباحث في علم الكلام والفلسفة ص 181 .
2 - نال الدكتور وسام تكريم من الرئيس الراحل ضياء الحق تقديرا لاهتمامه بالدراسات الاقبالية ، وقد رأيت الوسام في زيارتي له ببيته 1939.01.29م .
3 - عبدالوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 31 ، ونجيب الكيلاني محاقبال الشاعر الفائر ، ص 32 .
4 - ب فايشر ، الشرق في مرآة الغرب ، ص 75 . ونجيب الكيلاني ، الشاعر الثائر ، ص 33 .

ويكفي اقبال أن يستهل أطفال الباكستان يومهم المدرسي بدعاء من نظمه ، نقتطف منه قوله : "أدعو الله بشوق وأمل ... اللهم أجعل حياتي كالشموع الضيئة ، تزيل من أمامي ظلمات الدنيا ، وتنوّر لي كل بقعة من بقاع العالم ، وهبني القدرة على مساعدة الفقراء والمساكين والعطف على المحتاجين والضعفاء" (1)

ولن نكون أحسن تقديرا لجهود اقبال وأكثر فهما لها من اقبال نفسه ، ولذلك لا يسعنا الا أن نختتم بحديثه عن نفسه ، اذ من سماته أنه يوضح نفسه بنفسه ، (2) ويشرح أفكاره السابقة والغامض منها في كتاباته اللاحقة . يقول عن سعة افكاره وعمقها وقوتها حتى بدا كالبحر المضطرب ، وعن بحثه عن مفكر يستطيع الغوص في أعماق بحره ليتقصى في النفس درر شعره وفكره ويقف على حقيقة أقواله دون الاكتفاء بما في شعره من حرارة وحماس : "أنا بحر ، وعدم الاضطراب مني خطأ ، أنى لي بمن يستطيع أن يغوص في أعماقي ... فمن لي بغوّاص يغوص في أعماقي ويستخرج الدرر مني فيتقف على حقيقة أقوالي ولا يقتصر على الاعجاب بالتدفق والحماس الذي تنطوي عليه أشعاري" (3).

وسمة أخرى يبحث عن روح مشرقة تنظر الى الاشياء بنور الله ، سابحة غير مقيدة بالعصر الحاضر فلا يجد غير نفسه ، : "العقل قيد للعصر الحاضر ، أين لي من روح مثل التي أحلها بين جوانحي ، فالعصر الحديث مقيد بالعقل ، ألا يعرفون ان رقي الانسان روحيا وخلقيا انما يتوقف على اتباع العشق ... ؟ انني أبحث عن انسان له مثل روحي الحائرة التي لا يقرّ لها قرار ... أين أجد هذا الانسان" (4) .

وربما كان من حسن حظ اقبال أنه لم يجد من يفهمه في عصره الا القلة القليلة المرافقة له من اصدقاء وعلماء ، ولو فهمه الاستعمار الانجليزي وأعداء الاسلام لكادوا له كيدا عظيما ولصادروا أفكاره وأخفوها عن المسلمين ولعانت منفيا وحيدا باحدى جزر شبه القارة الهندية الموحشة .

---

1 ـ خالد عباس أسدي ، محمد اقبال ، ص7 (أطفال الباكستان)
2 ـ اقبال ، جاويد نامه ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ، ص10 .
3 ـ المرجع نفسه ، ص49 .
4 ـ المرجع نفسه ، ص60 .

الفصل الثالث

ديوان رسالة المشرق ، تعريف وعرض

تمهيد : الأدب الفارسي في شبه القارة .

أولا : تعريف بالديوان و أسباب وضعه وترجماته

ثانيا : عرض لمحتويات الديوان وآراء اقبال فيها .

ا- المقدمه .

ب- الهدية .

ج- شقائق الطور .

د- أفكار .

ه- الخمر الباقية .

و- صورة الفرنج .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الادب الفارسي في شبه القارة :

تتحدر فارس والهند من أصل واحد هو الأصل الآري ، كما تعود اللغة الفارسية واللغة الهندية الى فصيلة واحدة وهي فصيلة اللغات الهندوأوروبية وانطلاقا من الاصل واللغة ، فان كثيرا من العقائد الدينية والفلسفات والمراسيم والعادات والقصص كانت بينهما أوجه شبه كبيرة الى الحد الذي يجب فيه الاطلاع على فلسفة احداهما ودينها وفكرها من أجل الفهم الجيد والادراك الصحيح لفكر وعقائد وفلسفات الاخرى .

ولما جاء الاسلام اتسعت الروابط الادبية والفكرية بين الهند وايران لاسيما في أواخر القرن الرابع الهجري مع فتوح السلطان محمود الغزنوي ، التي لم تقتصر على الجانب العسكري ، فقد رافقته الجيوش قوافل العلماء والادباء الى الهند . ومن الذين زاروا الهند في صحبة السلطان محمود المؤرخ "أبو ريحان البيروني" والشاعر "الفرخي" و"العنصري" (1) ، فكانت لهم مشاهدات فيها ومؤلفات ، وقد دامت تلك الاسفار الى الهند بعد محمود الغزنوي ، فنجد في الهند الشاعر "مسعود سعد سلمان" ، و"أبو الفرج رونى" ومن الكتاب يحمد مؤلف لباب الالباب "العوفي" الرحال بالهند ، ويستقر بها منهاج سراج ، مؤلف طبقات ناصري (2) .

وبينما أعرضت الهند عن الفارسية عندما كان لها سلطانها المستقل ، وجدناها تقبلها بعد ما تحول السلطان الى أيدي الاتراك المسلمين . فكان من نتائج ذلك الارتباط السياسي الممتد والادبي المتمثل في هجرة الكثير واتخاذهم من الهند موطنا ، ان انتشرت اللغة الفارسية في ربوع البلاد لغة الفاتحين ولغة الحكام المسلمين .

وقد هاجر الى جانب العلماء والشعراء الفرس طائفة من المشايخ والمتصوفة

---

1 ـ البيروني : (362 هـ ـ 440 / 973 م ـ 1048 .) هو درس الفلك والهندسة وبرز فيهما وفي علوم اخرى ، له مؤلفات كثيرة أجلها بالعربية "الصيدلة" بالفارسية و"العنصري" : من شعراء القرن الرابع الهجري عاشا في بلاط محمود الغزنوي ، ولا شعرا في مدحه ووصف معاركه عد توزيك تاريخية (فرهنگ دانشوران ج 1 ـ 60 والمعجم العربي الحديث .)

2 ـ صادق رضازاده شفق ، تاريخ أدبيات ايران ـ درچاپخانه دانشگاه پهلوي أفست 1352 هـ ص 263 .

الى الهند بحثا عن الامن والاستقرار، بعد ما تردت أحوال فارس. وبذلك تكون قد ارتحلت الى الهند اللغة الفارسية وآدابها ومعارفها وأوجدت لنفسها مكانا وسط لغات الهند وثقافتها. وقد حاز الشعراء الفرس اعجاب الكثير في وقت صارت فيه اللغة الفارسية سيدة اللغات الهندية، وتجاوز الشعراء الفرس الوافدين على كثير وحدها المئات وأورد بعض الدارسين ذكرا لسبع مائة وتسعة عشر شاعرا فارسي اللسان من الذين أقاموا في الهند. (1) فمن غير الغريب أمام هذا النفوذ للفارسية أن يكون من بين الذين أموا الهند الشاعر عراقي (فخر الدين ابراهيم المتخلص بعراقي، ت 688 هـ).

سافر عراقي الى الهند في شبابه وجلس في مدينة مولتان مجلس المريد من الشيخ الصوفي "بهاء الدين زكريا"، ثم خلفه بعد وفاته، في شعره اضطراب العشاق وشوقهم واحتراقهم، كما فيه الكثير من حقائق العرفان والتصوف، له مجموعة غزليات ومثنوي بعنوان "عشاقنامه"، وكتاب في التصوف "لمعات" عد من الآثار الرفيعة الطراز (2).

واذا كان مسعود سعد سلمان من مشاهير الشعراء في العصر الغزنوي والسلجوقي ويعود في أصله الى همذان، فانه هندي، من مواليد لاهور (حوالي عام 440 هـ) فان هنجرا بخدمة أبيه في بلاط الغزنويين ستين عاما.

ـ جوهر روحي ظاهر وباطن مثل الروح، وأصلي (جوهري) ممتلئ بجواهر الاعيان.

ـ لقد خدم أبي السيد سعد بن سلمان ستون عاما كاملة.

ـ فهو حينما يكون بين يديه العمال، وحينما يكون بمعيته (ببابه) الاعيان (3)

كما هاجر السيد "أمير خسرو الدهلوي" (ت 725 هـ) أثناء حملة المغول على المشرق، وقام في شبابه على خدمة الشيخ نظام الدين "أولياء" في دلهي ولما آن الحكم السيد "جلال الدين خلجي" (689 هـ، 695 هـ / 1290 م ـ 1296 م).

---

1 ـ المرجع السابق، ص 264.

2 ـ محمد منور ميرزا ـ علامه اقبال غزل فارسي، ترجمه شهيند خت هندم صفير ت اقبال أكادمي، باب أول، پاكستان 1987، ص 151.

3 ـ صادق رضا زاده شفق، تاريخ أدبيات ايران، ص 269.

استطاع خسرو الدهلوي أن يصبح من ندمائه وأن يفوز بلقب أمير ، لم يكن شاعرا فقط وانما كان مؤلفا ومؤرخا صاحب مهارة في النثر والموسيقى ولكنه أظهر بعد ذلك ميلا الى النظم فسجّل أشعارا في الفارسية والهندية والعربية ، ترك خمسة دواوين يرتبط كل واحد منها بمرحلة من مراحل حياته ، ومع أنه عاش جلّ عمره في الهند ففي شعره الكثير من رموز سعدي الشيرازي (1) ، وهذا مايؤكد عمق صلة الهند بالثقافة الفارسية واطلاع أبناء الهند على روائعها .

وفي القرن العاشر الهجري أين أظهر السلطان "أكبر" عنايته بالشعراء والادباء ويلغ الشعر أوجه ، يسافر الى الهند "عرفي الشيرازي" (963 هـ بشيراز ، وتوفي سنة 999 هـ بلاهور). ويتصل بالسلطان جلال الدين أكبر ويمدحه (2) ، وقد نالت غزلياته اعجاب كثير من شعراء الهند والترك فجعلوها مثالا يحتذى كان ماهرا في القصيد والغزل والتركيب والتراجيع كما نظم في المثنوي وحذا فيه حذو "نظامي الكنجوي" ، هذا وقد خلف رسالة في التصوف ، "رسالة نفيسة" ، وشطرا لميل عرفي الى الاغراب في الشعر والاكثار من المصطلحات التي لايعرفها الا الخواص فقد عدّه الدارسون من أشهر شعراء السبك الهندي (الاسلوب الهندي) الذي أدخله شعراء الفارسية في الهند على أشعارهم (3) .

وفي القرن الحادي عشر غادر الشاعر "محمد حسين نظيري نيشابور" (4) ايران الى الهند ووجد السبيل الى البلاط الاكبر فمدح السلطان "جهانگير" وغيره من أمراء العصر ونال الكثير من صلاتهم ، اعتزل نظيري في أواخر حياته واختار طريق الزهد والعرفان (ت 1023 هـ) (5) .

أما "ميرزا عبد القادر بن عبد الخالق بيدل" (1056 ـ 1133 هـ) فقد ولد بالهند في محل عظيم آباد وتوفي بها ، له ديوان شعر يشتمل على الغزليات والقطع والقصائد والترجيعات والتركيبات (6) في أسلوب شيق بديع ، الى جانب كتاب

---

1 ـ فرهنگ دانش وهنر شامل (اطلاعات عمومي) چاپ أفست أحمدي ايران مهر ص 56.
2 ـ حسين مجيب المصري ، المعجم الجامع ، مطبعة الانجلو المصرية ، ص 263 وعلامة اقبال غزل فارسي ، ص 152 .
3 ـ ورد اسمه في فرهنگ دانش وهنر "محمود بن حسين نظيري"
4 ـ فرهنگ دانش وهنر شامل ، ص 75
5 ـ سيأتي التعريف بهذه القوالب الشعرية في الفصل السادس .
6 ـ محمد منور ميرزا علامه اقبال غزل فارسي ، ص 140 .

نشري "نكات".

عمّ بشعره أطراف شبه القارة الهندية الى افغانستان ، ويبدل فوق هذا استاذ فن وصاحب ثقافة واسعة في الطب والالهيات والرياضيات والطبيعيات والنجوم والموسيقى ... انه الانسان الجامع للعلم والعظمة والجلال والجمال (1) له مثنويات صوفية رائعة أساسها فكرة محبة الذات الالهية ، فقد كان على يقين بأن العلاقة هي أداة الارتقاء بالذات الانسانية ، وكان لدولة العشق هذه أن منحته السعادة الحقيقية وعلى الرغم من تأثير بيدل بسعدى وحافظ وجلال الدين الرومي ، فان الاسلوب الهندي ظهر بجلاء في انتاجه الادبي (2)

هذا عن المتحدثين بالفارسية في العهود الزاهرة للحكم الاسلامي بالهند يوم كان للمسلمين اليد الطولى في شؤون البلاد ، وقد يظن أنه بأفول سلطان المسلمين وضعف شوكتهم يتحول الناس الى الثقافة الهندية غير أن الثقافة الفارسية كانت ضاربة الجذور في أعماق المجتمع الهندي ، فان تخلى عنها البعض وجلهم من الهنادك فقد تمسك بها كثير من المسلمين . فهذا "ميرزا أسد الله خان غالب" (1212 هـ ـ 1285 هـ) يبزغ نجمه في عهد الحكم البريطاني ويعد واحدا من عظماء الشعر الفارسي في القرن الثالث الهجري في الهند ، شبهه اقبال في احدى منظوماته الشعرية وفي شعره العذب القليل النظير بالشاعر الالماني العالمي "غوته". أجاد ميرزا غالب الفارسية اجادة كاملة وظهر في ابداعه الشعري اثر شعراء الفارسية الذين عرفتهم الهند أمثال عرفي ونظيري وبيدل وغيرهم (3).

أما في العصر الحديث فنجد الشاعر محمد اقبال يضرب المثل الاعلى على رسوخ قدم اللغة الفارسية في الهند بدواوينه الستة الفارسية مقابل دواوينه الثلاثة في الاردية لغة البلاد الجامعة والموحدة لكثير من أبنائها .

---

1 ـ محمد منور ميرزا ـ علامه اقبال غزل فارس ، ص 140 .
2 ـ المرجع نفسه ، ص 139 ـ 140 .
3 ـ ثقافة الهند ، الكتاب السنوي (1968 ـ 1969) ، ص 125 ـ 135 ، والمرجع السابق ص 125 .

ثم اننا نجد بين الاسالـيب الفارسية الثلاثة المعروفة أسلوبا يعرف بالسبك الهندي" والسبك عبارة عن طريقة خاصة لبيان الافكار وصياغتها في تراكيب معينة ،وهو أسلوب فهم الحقائق وكيفية التعبير عنها . يهتم بالموضوع وأثر البيئة فيه كما يضع في اعتباره الفكرة وطريقة التعبير معا (1)

ولعل السبك يعادل الاسلوب في اللغة العربية وانما سمي سبكا هنديا لان الذين اشتهروا به عاشوا في شبه القارة الهندية أمثال عرفي ونظيري . أما ظهور هذا النوع من الاسلوب فيعود الى الدولة الصفوية فبعدما انحسر المدّ الحضاري العربي عن ايران وقضي بأس المغول والتيموريين مما مهد السبيل الى تقوية اللغة الفارسية وحفظ تماسكها ، جاء العصر الصفوي ليبلغ بالفارسية قمة التفنن والتأنق والصناعة اللفظية البلاغية والافراط في استعمالها (2)

وهو انما اكتسب هذه الخصائص لان اللغة الفارسية بعد دخولها الهند واحتكاكها بلغاتها الكثيرة تفاعلت مع ذلك الحشد الهائل من اللغات الهندية ، كما تفاعلت مع الثقافة الهندية عموما . وكانت النتيجة أن فقدت بعض خصائصها فصارت للهند لغتها الفارسية التي تختلف عن مصدرها الاصلي في ايران . مما حدا ببعض الدارسين الى تسميتها هندوستاني فارسي (3) أي الفارسية الهندية التي بمثابة رقم ميلاد لغة جديدة منافسة لها ، لغة ثقافة وعلم وأدب (الاردية) .

ويكفي الفارسية فخرا أن الشاعر محمد اقبال اتخذ منها أداة لتبليغ أفكاره ، وأداة للاصلاح ، ثم أداة للفن الاسلامي الرفيع ، وما هذا الديوان موضوع دراستنا الا احدى ثمار اقبال الفارسية .

---

1 ـ محمد السعيد عبد المؤمن ، الاساليب الفارسية المعاصرة ، كلية الاداب ط 2 ، 1984 ، ص 25 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 23 .

3 ـ مجلة الازهر ، سنة 52 ، مجلد 1 ، جزء 3 ، ص 258 .

أولا : تعريف بالديوان وأسباب وضعه وترجماته .

"پيام مشرق" معناها: "رسالة المشرق"، والرسالة تحمل معان سامية، اذ هي كلمات تنطق بفكر مرسلها وشعوره . مرسلها هو اقبال الشاعر المفكر المؤمن بالله وحيوية وحبا، ولكن هذه الرسالة ليست موجهة من الشاعر وحده وانما من المسلمين جميعا . تعب الشاعر من صمتهم وذهولهم عن ردّ التحية، ذلك الصمت الذي دام ما يقارب القرن من الزمن . فتحمل اقبال مسؤولية الحديث عنهم يجول بخواطرهم والشاعر لسان حال قومه وترجمان أفكارهم دوما .

اذن فالديوان رسالة، والرسالة شرقية، والشرق عند اقبال هو الشرق الاسلامي . انها اذن رسالة الاسلام والمسلمين .

كان للشرق مكانة عظيمة في فكر اقبال ونفسه وشعره لانه الوطن الكبير الذي يضم بين احضانه أمة عزيزة على النفس هي أمة الاسلام، وليست لفظة الشرق الكلمة الوحيدة التي يمكن أن يعبر بها عن الاسلام والمسلمين، ولكنها مع هذا وردت في كليات اقبال الفارسية (الجامعة لستة دواوين من الشعر) اثنتين وثلاثين مرة، استحوذ فيها ديوان رسالة المشرق على أكثر من ثلثها (1) أما أسماء البلاد الاسلامية وعلى رأسها الحجاز فانها تتخلل أشعار اقبال كما تتخلل فكره واهتماماته، فنحن نجد (الحجاز ومكة، والكعبة، وكنعان والدائن ومصر والنيل وكابل وكاشغر والبنغال ولاهور وكشمير وسيناء والشام والعراق وبغداد والكوفة والفرات وتبريز وبخارا وبدخشان وفارس وايران والترك وجيحون وخيبر والحتن والري واليمن وسمرقند وينرب ونجد وهمذان ...) وهذه الاسماء، وهذه العدد دليل واضح على تعلق اقبال الشديد بوطنه الكبير الذي لاتحدّه حدود جغرافية، ولا يعبأ ببحر أو محيط أو جبال شامخات .

فالمسلم أينما حلّ ببلاد الاسلام فذلك وطنه، وبطاقة تعريفه وانتمائه هي تحية الاسلام .

أول المواضيع التي ذكر فيها اقبال المشرق من الديوان التحية أو الهدية التي استهلّه بها، ففيها أبان أنه سجّل رسالة المشرق للردّ على صوته ولكنه سجّلها الاضواء من خلال تلك الرسالة على ماكان يطلق المشرق

---

1 ـ انظر كليات اقبال : فارسي ص 1041 .

من ظلام عتمه ينير ليالي الحالكة ، يقول :

ـ وقد قلت(سجلت) رسالة الشرق ردّا عليه ،وسكبت من خلالها على صحراء الشرق ضوء القمر (1) .

وهذا يبين لنا مرّة أخرى أن الديوان موجّه من الشرق الى الغرب والشرق على السواء والى الناس جميعا بدروسه وعبره .

وقال فيما آل اليه العثمانيون من عذاب وضعف نخر قوتهم التي انتظمت جبهات عقد الأمّة الاسلامية حينا من الدهر ،ثم سقطت منها بلاد العالم الاسلامي واحدة واحدة :

ـ وآل عثمان في عذاب الدهر ،فالشرق والمغرب روض للشقائق من دمائهم(2)

وقد رأى الشاعر أنه بديوانه وبسائر أعماله قد أنار الشرق وعرف طبه فأراد أن يكون طبيبه الذي يستأصل كل أمراضه ويهبه عنصر الحياة ،ويزرع فيه قلبا نابضا بعد ما ضعف قلبه ،وتباطأ خطواته واضطربت، يقول:

ـ لقد أنرت للروح القلقة الخطيرة المشاعر وألقيت في صدر الشرق قلبا (3)

ثم ان اقبال وهو الذي أدرك سبعين الحياة قد أخذ يسري في عروق الشرق ورآه يستيقظ من نومه الطويل ورآى صباحه يتنفس بعد ليل ثقيل وطويل ويمزق حجب الظلام الحالكة فيقول :

وتنفس الصبح من المشرق ، ممزقا ثوب الغلس(4)

أما آخر مرة يذكر فيها اقبال الشرق فكانت تحمل حزنه وأساه على وجه الشرق الى معين الغرب الزائف ينهل منه ويرتشف الخمر من كأسه ، يقول :

الشرق يسرتشف الخمر من كأس الغرب (5) .

ذلك الشرق الاسلامي الذي بدأ يفتح عينيه بعد نوم القرون الطوال كما قال اقبال ـ يجب أن يدرك أن حياته لن تتغيّر وأنه لن يسواكب مسايراه حوله من قفزات حضارية حتى يتغير هو من الداخل ،لان ايجاد

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 186 .

2 ـ رسالة الشرق ،ص 188 .

3 ـ رسالة الشرق ،ص 242 .

4ـ رسالة الشرق ،ص 281 .

5 ـ رسالة الشرق ، ص 384 .

عالم جديد لايكون الا بعد تمهيد له في الضمائر والنفوس، وهذا قانون الفطرة وسنة الله التي لن تجد لها تبديلا : «ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»(1).

ولابد أن تكون الرسالة موجهة من الشرق والى الشرق أيضا الى جانب الغرب، فقد كان ذلك هدفا من بين أهداف اقبال، وان هدفه الاكبر هو توبيخ الشرق الاسلامي على قانون الفطرة الثابت وتعليمه البدء بالتغيير الداخلي، تغيير النفوس واعادة بنائها، قال في ذلك : «وقد اجتهدت في كتبي الفارسية أن أبين للناس صدقه . وأنه لجدير بالاكبار كل مسعى في العالم ولاسيما في بلاد الشرق يقصد أن يرفع انظار الافراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ... ويجدد فيها سيرة انسانية صحيحة»(2)

ورسالة الشرق ديوان من الشعر كتبه اقبال باللغة الفارسية التي فاز باسمى أفكاره وصمت أكبر انظاره، ستة دواوين من الشعر بالفارسية .

واذا ذكرنا أن الشاعر يعرف الاردية معرفة جيدة الى جانب العربية والانجليزية والالمانية، أدركنا أن الفارسية هي لسان حاله الذي أبان به عن أنفس أفكاره ونظم بها أسمى أشعاره، وسجل بها أعظم آثاره العرفانية(3)

وليس هذا الرأي بدعا، فقد سجل في مقدمة ديوانه «رسالة الشرق» انه اجتهد لاباننة احدى سنن الله باللغة الفارسية، وهو يقصد بذلك كل مايتعلق بالدين والاصلاح والتغيير والغنى الروحي، كما أكد أكثر من مرة ميله الى هذه اللغة من ذلك قوله : «ان الفارسية أقرب الى مزاجي وسجيتي»(4)

وفي رسالة له الى صديقته عطية بيجم قال : «ان قلبي لايطلب نظم الشعر بالاردية .

في كل يوم تزداد رغبتي في نظم الشعر الفارسي، ودليل ذلك أن قلبي لايستطيع البيان بلسان الاردو»(5)

فمع حب اقبال للغة الاردية، لغة الوطن الفتية فقد نصح غير قليل من طلابه واصدقائه أن يكتب بالفارسية ليضمن لشعره أكبر عدد من القراء المسلمين ولتصل درر شعره وفلذات كبده وشرر قلبه الى أكبر عدد من المسلمين الحيارى

---

1 ـ سورة الرعد، آية 11 .

2 ـ رسالة المشرق، ترجمة عبد الوهاب عزام، مقدمة الشاعر، ص10 .

3 ـ شعاره اقباليات، 1941، ص16، (بزرگداشت اقبال بزرك دكتر خليل هاشميان)

4 ـ مجلة التراث العربي، فارسيات اقبال، صادق آئينه وند، ص23 .

5 ـ بروفسور محمد منور ميرزا، علامة اقبال غزل فارسي، ص68 .

والنظميـــن .

بـــل ان الشـاعـر في ديـوانـه رســالـة الخـلـود أنـطـق سكـان العـوالـم العلويـــــة بالفـارسيـــة في معـراجـه الـروحـي والفكـري .

ولكـن لمـاذا كـانـت الرسـالـة ديـوانـا مـن الشـعـر ولـم تكـن كتـابـا أومقـــالا ؟ ولمـاذا وضـع اقبـال هـذا الديـــوان؟

اقبـال شـاعـر والـشـعـر عـلـم لايمكـن أن تسـأل عـن مجيئـه والا سـألنـا عـن ظـهـور كـل مخلـوق مـن الكائنـات وانمـا هـي افكـار اقبـال ومشـاعـره ولطـائـف ابـداعـه عـاشـــت باعمـاقـه زمنـا وجـاء المخـاض ليخـرجـهـا ،وليـس لنـا الحـق في السـؤال لمـاذا وكيف ؟ لعـل هـذا الوليد الجـديد طـرق فكـره في وقـت حضـره فيـه الشـاعـر الالمـاني غـوتـه وقـد كـان معجبـا بـه ، حيـث سجـل ملاحـظات عـديـدة حـول انتـاجـه الادبي وروائعـه العالميـة مثـل فـاوسـت الذي اعتبـره اقبـال أحـسـن تعبيـر وأكملـه عـن الشخصيـة الالمـانيـة وكثيـرا مـا أوحـى الـى بعـض طـلابـه وتصحيهم بترجمتـه الـــى الاردية حتى تصـل أفكـاره الـى أبنـاء شـبـه القـارة الهنـديـة . ولفـاوسـت وصـاحبـه ذكـر في رسـالـة المشـرق (1) رأى اقبـال أن يقـوم بـواجبـه نحـو ذلـك الشـاعـر العظيـم الـذى التقـى فيـه الشـرق والغـرب .

فـــردّ علـى تحيتـه بعـد أن بعثـت بـلا صـدى يجيبهـا مـن الشـرق قـرنـا مـــن الـزمـان . وربّمـا اعتبـرنـا هـذا الديـوان ردّا ومعارضـة أدبيـة أيضـــا .(2)

واذا كـانـت المشـاعـر والمعارضـة كثيـرا مـا تتعلـق بقصيـدة واحـدة فيكـفـى اقبـــال أنـه أفـاد منهـا وتحـد موهبتـه مـن تجاربـه فيهـــا .

فرسـالـة المشـرق اذن ديـوان مـن الشـعـر أجـاب بـه اقبـال علـى ديـوان شـاعـر الالمـان غـوتـه الديـوان الـصوفي للشـاعـر الغـربي الـذي كـان بـدوره تحيـة مـن شـاعـر الغـرب ونـاســـم أبنـاء العـرب الـذيـن ضـاقـوا ذرعـا بـروحـانيـة الغـرب الضعيفـة البـاردة

---

1 ـ أنظـر الديـوان ، ص 376 ، فـي هـامش قصيدتـه جلال وغـوتـه كتب اقبـال : "حكيـم الالمـان غـوتـه ، صـاحب المسرحيـة المعروفـة ، فاوسـت وفيهـا بيـن التعهـد الضروب بيـن الانسـان فاوسـت والشيطـان في اطـار الروايـات القديمـة ، وفيهـا بيـن كـل قـدرات الانسـان وتـأثـير درجـات امكانـاتـه" (اعتمادا على ترجمة د / عبدالوهاب عزام ، ود / ايفـا مايـوروفيتـش) .

2 ـ لفـن المعارضـة مجـال واسـع في الاداب الاسلاميـة ، منهـا مـاكـان لـه في الادب العربـي حيـث كـان وسيلـة تلاقـح فكـري وتبـادل آراء وان لـم يكـن هـدفـه معارضـة الافكـار بقـدر مـاكـان اظهـارا للقـدرات الفنيـة فالموضـوع الواحـد يطـرق باسـاليب مختلفـة ومـن زوايـا متعـددة بحسـب ثقافـات متناوليـه ولعـل العصـر الاموي كـان مـن أخصـب مراحـل هـذا الفـن (النقائض) وكـذلـك العصـر العبـاسي . أمـا المجتمـع الهنـدي فقـد كـانـت مشاعراتـه ميـدانـا خصيبـا لـه .

فتطلعوا الى الاقتباس من الشرق ،وكان استاذهم وراشدهم هذه المرة غوته الذي قال مستقدا السمتوجهين الى الفكر اليوناني المادي ،وداعيا الى عالم جديد بأن ينهل منه الفكر البشري ، :"دع الاغريقي المثال يجبل الطينة ويصنع التمثال وليفتتن بعدها ماشاء الافتتان بالدمية التي أبدعتها يداه الصناعتان .

أما نحن فان متعتنا لجة د جلنة والفراشة نسبح فيها مستسلمين من عنصر الماء ،حتى اذا ارتوت غلة المشاعر تفجرت أفاويق الشعر فياضة مترنمة . فلسيغترف الشاعر من هذا الفيض بكفه الطهور فانه ليتكور في يديه متلألئا كالبلور"(1).

تحمس غوته في سبيل تلك التحية وفي سبيل ايصالها الى عالم الشرق عناء عظيما تجشم محن السفر الفكري والروحي والفني من أجلها، تاركا لجسده أن يغرق في أوحال الصراع السياسي الذي كانت المانيا تعيشه آنذاك. وما أصعب مثل هذه الرحلة الاشبه بثورة روحية تجتاح كيان الشاعر فيسكبها على الاوراق ديوانا من الشعر. قام الشاعر بهذه الرحلة وهو يرجو قومه أن يتركوه وشأنه ولايعكروا عليه صفوه ، يقول

- دعوني وحدي هيما على سرج جوادي ،وأقيموا ماشئتم في دياركم وضارب خيامكم ،أما أنا فأجوب من الانحاء قاصيها على صهوة فرسي ،فرحا مسرورا لايعلو على فلنسوتي غير نجوم السماء . (2).

انها رحلة الى الشرق بطهره وعفته وصفائه ،الى الشرق أرض الانبياء والمرسلين ، الى بلد الوحي والرسالات السماوية ،أرض الهداة ،قال وهو تمل من نشوة الهجرة: الشمال والغرب والجنوب يتحملم ويتناثر ،والعروش تشتعل والممالك تنتزع وتضطرب فلتهاجر ادن الى الشرق الطاهر الصافي ،كي تستروح جو الهداة والمرسلين هنالك حيث الحق والشرب والغناء ،سيعيدك ينبوع الخضر شابا من جديد ، الى هناك حيث الطهر والعشق والصفاء ،أود أن أقود الاجناس البشرية ،حتى أنفذ بها الى أعماق الماضي السحيق (3)

---

1 - عبد الرحمن صدقي ،الشرق والاسلام في أدب غوته ،دار الهلال ، ص50 .
2 - غوته - الديوان الشرقي للشاعر الغربي - ترجمة عبدالرحمن بدوي ،ط2 ، 1980م المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ص 11
3 - المرجع نفسه ،ص 12 .

ويتدفق سيل الامماني على فكر غوته وروحه فيتمنى ان يحيا حياة الشرق بكل تفاصيلها شاعرا يتعلم قداسة الكلمة في الشرق ،ويختلط بسلسلة الرعاة ويسافر مع قوافل التجارة (حيث الشيلان والبنّ والمسك) ويتمنى أن يقطع أرض الشرق جميعا من البادية الى الحضر ،يقول :

"أجل هناك أودّ التطلع بحدود الشباب ،فيكون ايماني واسعا عريضا وفكري ضيقا محدودا وأود أن أتعلم كيف تقدر الكلمات لا لشيء الا لانها كلمات فاهت بها الشفاه ،في يمكنني أن أدخل في زمرة الرعاة ،وأن أجدد نشاطي في ظلال الواحات ،حيث أرتحل في رفقة القافلة ،متجرا في الشيلان والبنّ والمسك وفي عزمي أن أسلك كل سبيل من البادية الى الحضر ومن الحضر الى البادية"(1)

ومارحيل غوته هذا بالهيمن الذي يجب أن يقابله المشرق الاسلامي ، بالصمت انها رحلة مثيرة ،كما يقول فيها عبدالرحمن بدوي ،هي ،"استجابة لوحي سماوي ،ورسالة قدسية عليا" ،انها أشبه ماتكون برحيل الانبياء الذي يضع الحد الفاصل في تاريخ البشرية"(2) . وبحديث الهجرة استهل غوته ديوانه شارحا أسبابها ،ثم أعقبها بعد قليل باعلان استسلامه للارادة الالهية ،وايمانه بأن الملك لله جميعا وهي حقيقة غابت عن اذهان كثير من أبناء الغرب أو جحدوها .

انها كلمات لايبوح بها الا مسلم سلم أمره لله ،مؤمن به ،يقول:

"لله المشرق ولله المغرب ،والشمال والجنوب ،يستظلان بالسلام بين يديه ، الله :الله هو العدل ،يقسم بين الناس بالعدل ،فلتستحوا اذن بهذا الاسم المكين ،من بين أسمائه المائة آمين"(3) .

رجل غربي يعلن هذه الحقائق ويبوح بايمانه ، ويعلن مشاركته لمخلوقات الله جميعا في تسبيحها له ويذكر الناس بذلك ،لايليق بالمسلمين وقد حيّاهم وبتهم شاعره أن يصمّوا آذانهم عن ردّ تحيته . وان لم يكن فيهم من خالج روحه الامر الالهي طيلة مائة عام ، فان الله بعث اقبال بعد تلك السنون الطوال وألهمه الاجابة ،قال تعالى : "واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها"(4) . وقال اقبال : "نظمت بيام مشرق

---

1 ـ المرجع السابق ، ص58 .
2 ـ المرجع نفسه ، المقدمة ، ص 12 .
3 ـ المرجع نفسه ،ص 67 .
4 ـ سورة النساء الاية 86 .

لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الالماني غوته".(1)
وما ديوان غوته الا تحية للشرق ،وليس ديوان اقبال الا جوابا لها ، ولكنها تحية أدبية فنية وكذلك كان ردّها أدبيا اسلاميا شرقيا .
استجاب اقبال وقطع صمت بني الاسلام فردّ السلام ،كانت تحية غوته ديوانا من الشعر فردّ عليه اقبال بديوان من الشعر ، احتوى ديوان غوته الكثير من روائع الشرق المعروجة بفكر الرجل الغربي غوته اذ ليس من السهل أن يتخلص من ذاته ، وفي ذلك قال اقبال : "هو لا يفرط في غربيته وانما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم فطرته الغربية ولم يمد الى التصوف العجمي قط ،وكان يعلم أن أشعار حافظ تفسر في الشرق أيضا تفسيرا صوفيا ،ولكنه لم يكلّف الا بالغزل محضا ولم يهتم بالتفسير الصوفي في كلام حافظ ... والخلاصة أن غوته في الديوان الغربي اجتهد في اظهار الروح العجمية في الادب الالماني"(2).
وكذلك احتوى ديوان اقبال روائع الشرق ولكنها كانت شرقية خالصة ، طاهرة منقحة صافية لأنه ابن الشرق وسليل أمة الوحي والغنى الروحي ،وبه استجاب للنداء الالهي وحيّا بأحسن تحية ،وباحسن مما حيّي به وأخلصه ذلك من التحيتين الغربية والشرقية كثيرة ، منها أن غوته طلب بعد عنائه ورحلته وأسفاره الجنة وقنع بالبقاء هنا والاستمتاع بخمرها وحورها ونعيمها ،أما اقبال فتجاوز كل ذلك الى طلب الاسمى والارفع منه ،ثم أن غوته استمد وحيه من ترجمات التراث الفارسي والتراث الشرقي الاسلامي ، والترجمة وان أوصلت الفكرة ليست كالصدر الاصلي اذ قد يسقط المترجم ما لا يوافق أفكاره وقد يتحول بالنص ليصوغه وفق تصوراته الخاصة .. أما اقبال فقد استمد وحيه والهامه من المصادر الاولى للشريعة الاسلامية "القرآن" ومن التراث الفارسي في مصادره الاصلية ومن سائر مصادر التراث الاسلامي وهذا ما يضمن لتحيته الجودة .

---

1 - اقبال - رسالة الشرق - ترجمة عبد الوهاب عزام ،المقدمة ، ص1 .
2 - المرجع نفسه ، المقدمة ، ص5 .

نظم الديوان ونشره وترجماته :

نشر اقبال ديوانه رسالة الشرق عام 1923 م فكان ثالث ديوان شعري له بعد أسرار اثبات الذات ورموز نفي الذات . أما نظمه فقد بدأه اقبال من زمن طويل ، مايقارب تسع سنوات قبل نشره ، ذكر البروفسور محمد منور ميرزا (وهو المتخصص في الاقباليات ورئيس أكاديمية اقبال بباكستان) ان غزليات رسالة الشرق نظمت في ديسمبر من عام 1914م وان اقبال استمر في نظمها الى عام 1922م وكان في الوقت نفسه ينظم غزليات ديوانه الرابع زبور العجم (1) .

وسواء أخذنا برأي البروفسور محمد منور ميرزا وهو الحجة واعتبرنا أن نظم الديوان امتد من عام 1914م الى عام 1923م ، أو نظرنا الى تاريخ نشر آخر اعماله قبل رسالة الشرق وهو ديوان الرموز الذي طبع عام 1918م ، فان ديوان رسالة الشرق سيكون قد فاز في الحالين بمرحلة من مراحل حياة اقبال وفكره وشاعره ، وهي مرحلة النضج الفكري والرزانة والاتزان ، فقد نظم الديوان في سن تجاوز فيها الاربعين من العمر ، ومنذ عام 1923م شهد الديوان طبعات عديدة ، كما جمع بعد وفاة اقبال مع سائر دواوينه الفارسية في مجموعة اعماله الكاملة ، كليات اقبال فارسي ، وكانت أول طبعة لهذه الكليات عام 1973م ثم عام 1975 ثم 1978 فعام 1981م وأخيرا عام 1985 م ، وربما أعقبت بطبعات أخرى بعد ذلك ، أما ايران وهي موطن اللغة الفارسية وأفغانستان بالهند فلا يعلم أي لاعمال اقبال التي طبعت بها ، ولكن من المؤكد أن صداه وصل تلك البلاد كما امتد الى بلاد الغرب ، والبلاد العربية وقامت حوله دراسات لا تحصى .

لعل أول ترجمات الديوان تلك الترجمة المختصرة التي قام بها "شير علي سرخوش" الى الاردية عام 1923م (2) . وهي السنة نفسها التي ترجم فيها "أوتو فون كلاسي نابي" والد عالم الهنديات الشهير "هلموت فون كلاسي ناب"

---

1 ـ محمد منور ميرزا علامه اقبال غزل فارسي ، ص 174 .

2 ـ أحمد معوض ـ محمد اقبال ، ص 242 .

الابيات الاولى من الديوان الى الالمانية وهي المقاطع المهداة الى غوته من مختاراته منتخبات من الادب الهندي فكان اول من انجذب المستشرقون الالمان الى رسالة الشرق ، وكان منهم أستاذ العربية الكلاسيكية بجامعة كولونيا جوزف هل (1875 - 1950 J. Hell) الذي ترجم الديوان في الثلاثينات الى الالمانية ، الا أن ترجمته لم تحظ بالنشر كما أنها كانت ترجمة ركيكة (1) .

تلا عقب تلك الفترة ، وامتد الى عام 1951م أين ظهرت ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام (سفير مصر بالباكستان) الى العربية شعرا ، طبعت في كراجي (بباكستان) وهي أول ترجمة عربية له ، الا أنها لم تكن كاملة للديوان وانما اختار فيها المترجم نماذج معينة وأسقط بعضها وهو كثير ، فيها أسقط التحية أو الهدية وهي المحتوية لسبع مثنويات من واحد ومائتين بيتا ، ومن رباعيات شقائق الطيور المائة والثلاثة والستين (أي ثلاثمائة وستة وعشرون بيتا) أسقط عبد الوهاب عزام في ترجمته ثمانية وسبعين رباعية (أي مائة وستة وخمسين بيتا) وهو عدد لا يستهان به اذ يقارب نصف المنظومة كاملا . ومن المنظومة الثانية من الديوان أسقط قصائد عديدة منها : (هلال العيد ، تسخير الفطرة ، الكبرياء والفخر ، قطرة الماء ، قصيدة الساقي ، الصقر والسمكة ، دنيا العمل والحركة ، الحياة ، حكمة الغرب ، رسالة عالمگير ، كشمير ، العبودية (مكررة) ، التهذيب) ومن الغزليات التي مجموعها خمس وأربعون غزلية ترجم عبد الوهاب عزام أربعا وعشرين غزلية ، فأسقط من الجزء الاول منها أكثر من نصفه (من ستة وعشرين غزلية ترجم احدى عشر غزلية) ومن الجزء الثاني المكون من تسع عشرة غزلة ترجم ثلاث عشرة غزلية .

اما القسم الرابع من الديوان ، صورة الفرنج فمما أسقط منه : (الفلسفة والسياسة حوار الذاهبين ، تولستوي ، ماركس ، هيجل ، تولستوي ، مزدك ، فرهاد ، نبتشه ، الحكيم آينشتاين ، نبتشه ، محاورة بيت الفيلسوف الفرنسي كونت وأجيبر ، هيجل ، لينين والقيصر ولهلم ، خطاب الى انجلترا ، كتاب القسمة بين الرأسمالي والاجير ، أغنية الاجير) ، ومن الدقائق أو الحكم التي ختم بها اقبال الديوان وهي سبعة عشر أسقط عبد الوهاب عزام خمسا .

---

1 - مجلة فكر وفن ، عدد 32 ، (1979) السنة 16 ، ص 66 (الطانيا واقبال ، هرمان هسه).

أعقبت ترجمة عزام ترجمة أخرى الى العربية قام بها السيد مسعود عالم ندوي وصدرت في كراچي بدون تاريخ (1).

وتوالت بعد تلك الترجمات ، فترجمها الى الاردية نظما "عبد الرحمن طارق" بعنوان "روح مشرق" ونشرت الترجمة بلاهور عام 1952 م (2)

وترجمها الى التركية الدكتور "خليق نهاد طرلان" ونشرت الترجمة عام 1956م ثم طبعت في اسطنبول عام 1963م ، وفي السنة نفسها صدرت الترجمة الفرنسية للديوان بعنوان (Message de l'Orient) قامت بها السيدة "ايفا ماير وفيتش" بالاشتراك مع "محمد ايشا" ولعلها أكمل من الترجمة العربية للدكتور عزام بالنظر الى ما أغفلت ترجمته مثل (جادبية السيف ، الجمهورية ، الفلسفة والسياسة ، حرية البحر).

وفي عام 1960 م صدرت في ليراج الترجمة التشيكية من طرف "يان مارك" بالتعاون مع "كامل بدنار". ثم كانت الترجمة الالمانية الثانية والناجحة للدكتورة "آن ماري شيمل" الصادرة نظما عام 1963 ، وهي التي أعادت طبعها أكاديمية اقبال بباكستان ، بدون تاريخ ، ثم طبعت للمرة الثالثة في بازل بسويسرا عام 1977 (3) ، وفي عام 1964م ترجم "لوس كلود ماتيه" مقطوعات من الديوان الى الفرنسية الى جانب أشعار أخرى لاقبال (4).

كما ترجم الديوان الى البشتو ، "شير محمد مست نوس" وطبعت ترجمته مرتين بدون تاريخ ، نشرت احداهما أكاديمية البشتو في جامعة پشاور (بأفغانستان) ونشرت الثانية أكاديمية اقبال بكراچي (5)، وترجمه الى الگجراتية "عظيم الدين منادى" وطبعت ترجمته عام 1964م ، ثم نقل هذه الترجمة "هادي حسين" الى الانجليزية ونشرت عام 1971 بعنوان (Amessage from the East) وكانت الترجمة الانجليزية الاولى وان كان آرثر بري قد ترجم قسما من الديوان الى الانجليزية وهو الرباعيات التي صدرت عام 1974م (6) (شقائق الطور).

وأخيرا الترجمة العربية التي أنجزتها نثرا للديوان وأنهيتها في شهر أفريل من عام 1988م وهي التي اعتمدت عليها في دراستي مع استعانة ببعض شروح أو حواشي بعض الترجمات الاخرى.

---

1 ـ أحمد معوض ، محمد اقبال ، ص 242.
2 ـ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .
3 ـ المرجع نفسه ، ص 243.
4 ـ أحمد معوض ، محمد اقبال ، ص 243 ، ومجلة فكر وفن ، العدد السابق ص 68.
5 ـ Luce Claude, Maitre, Med Iqbal Paris, 1984.
6 ـ د. أحمد معوض ، محمد اقبال ، ص 243.
7 ـ المرجع نفسه ، ص 244.

ان المتتبع لهذه الترجمات — وان لم تكن كلها — والمحصي لها في اللغة الواحدة وفي جميع اللغات ليعرف المكانة العظيمة التي لشعر اقبال وانتاجه الفكري ، وهي وحدها التي بسطت له ذلك النفوذ الواسع وخولت له اهتمام الدارسين بابداعه ، كما يدرك المتتبع لها أن الشاعر محمد اقبال يدخل في عداد الكتاب العالميين بعد ما وصل صداه الى لغات تسع — وربما أكثر — من اللغات التي منها العالمية ومنها المحلية .

فاذا اذا كانت للديوان لغته الاصلية (الفارسية) أن يقرأ في أوساط أبناء شبه القارة الهندو باكستانية ، — اذ كانت للفارسية مكانتها آنذاك — وفي الاوساط الايرانية وفي بعض المناطق الفارسية اللسان ، فان الترجمات العربية فتحت لشعره طريقا الى أقطار العالم العربي الاسلامي ، فطرق قلوب ومسامع المسلمين علّها تدرك سرّ انتمائها الى الاسلام .

ومما يبعث التفاؤل في نفوس المسلمين ويرسل نسائم الطمأنينة الى اقبال في مثواه ان هذا الديوان — ككل أعمال اقبال — لاستانغامه الشجية الباكية الناقدة والداعية بالناس نحو الاحسن والافضل أحوال المسلمين ، ونفذت الى أعماقهم والفضل في ذلك يعود الى تلك الثلة التي فهمت معانيه وحرصت على نقلها الى الناس .

وانه لمما دواعي البشر أن يقرأ المسلمون في شتى أنحاء المعمورة الديوان — موضوع الدراسة — ، فقد كتب بالفارسية وهي لغة الكثير من أبناء المسلمين وترجم الى العربية وما أكثر أبناء لغة الضاد المسلمين ، وترجم الى الاردية وهي لغة الشعب الباكستاني المسلم والى الگجراتية وهي احدى لغات أبناء شبه القارة الهندو پاكستانية ، والى اللغات الغربية ومن المسلمين الناطقين بها أو المتقنين لها الكثير .

ثـانيـا : عـرض لمحتويـات الديوان وآراء اقبـال فيهـا .

الشعر أصناف وأغراض، منه شعر القصور وشعر الملاحم وشعر الغـزل والشعر القصصي والشعر التعليمي ، ولعلّ السؤال الذي يتبادر الى الاذهان هو موقع ديوان رسالة المشرق بين هذه الاغراض من هذه الفنون والانواع، لم يختر اقبال لديوانه فنّ الغزل ليصوغه فيه كاملا ، ولا فن الرباعي ليجعله وسيلة لابلاغ أفكاره ، ولا فنّ القصيد أو القطعة أو التركيب بند والترجيع بند أو المستزاد ، لقد رأى اقبال وتلك نظرة شمولية متكاملة أن كل تلك الفنون مجتمعة لاتحتوي ما بأعماقه من أفكار فأخرج منها ما طاوعه في قوالب الشعر الفارسي المعروفة واحتفظ بما يمكن أن تخنقه حدود الشعر ليتسامى به فوق كل قصيد أو حد ، فجاء في الديوان فن القصيد والقطعة وفن الرباعي والمثنوي والمسمط والتركيب بند والترجيع بند والمستزاد ولم يكن للديوان موضوع واحد يعالجه في وقت اختلطت فيه ظروف الحياة وتشابكت قضاياها وهمومها ، جاء الديوان مزيجا عجيبا معجبا، يجمع في طياته بين اسرار الروح ونفحات الايمان وشطحات التصوف، وبين حقائق العلم والفلسفة المعاصرة وهموم الحاضر وآلامه وآماله ، وماذلك الامر بدعا على اقبال لأن الشاعر المسلم انما يصدر في ابداعه عن تصور اسلامي شمولي النظرة، يعرض حياة البشرية من جميع جوانبها في شمول واتساع واكتمال (1)

وهذا الجمع الهائل بين أطراف القضايا المختلفة المتصلة بشتى جوانب الحياة يدلّ على الوظيفة الرسالية التي تحمّلها الشاعر محمد اقبال ، ليس فقط في ديوانه رسالة المشرق، وانما في سائر أعماله الادبية والفكرية والعلمية وفي حياته أيضا، فقد بذل كل ما في وسعه أن يكون مسلما في كل ما يصدر عنه ، فجاء تأعماله بما فيها رسالة المشرق ، خريطة جغرافية للأرض التي آمنت، والتي أنبتت أعلام الاسلام على مرّ العصور (2) وليس المقصود بالخريطة الجغرافية الارض والمكان وانما ما فيها من أحداث مشتركة في الضمير الاسلامي .

---

1 - عادل الهاشمي ، الانسان في الادب الاسلامي المعاصر ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ص 14 .

2 - مجلة العربي ، مجلد 1 ، عدد 230 سنة 1978 ص 29 (د / عبدالعزيز كامل حمد اقبال المستقبل بمناسبة مرور مائة سنة على ميلاد ه)

أ ـ المقدمة :

ان أول مايلفت الانتباه الى ديوان اقبال رسالة الشرق ، هو تميزه عن سائر دواوين اقبال الفارسية بالمقدمة التي اختار لها اللغة الاردية مع أن الديوان منظوم بالفارسية ، ربما ليوصل صداه الى جلّ أبناء شبه القارة الهندية ، وان تفرد الديوان بهذه المقدمة دليل على أهميته عند اقبال نفسه ، ودليل على تعريف القارئ به وتشويقه اليه ، وربما كان أيضا آية على المواضيع التي طرقها فيه ومايحيط به من جدّة وطرافة يخلها الحوار بين الشرق والغرب ، الذي كان غوته سبّاقا اليه وسبّاقا الى ارساء دعائم عالمية الادب وانسانيته ، وجعله قاسما مشتركا بين الامم . ومن خلال هذه المقدمة النثرية تلمح دعوة اقبال الى ابناء الهند و الى المسلمين منهم على وجه الخصوص للتوجه الى الادب الالماني ، لاسيما وقد أعطوا آداب الغرب الكثير من العناية ، فلفت اقبال انتباههم الى الادب الالماني علّهم يقفوا على الاثر الاسلامي فيه وعناصره .

وقد كان شاعر الالمان غوته وديوانه الشرقي خير مثال وأحسن ميدان لمثل تلك الدراسة ولكن المقدمة كانت وصفية ، ذكر في ثنايا ها افتقاره الى مراجع كان قد قرأها في المانيا وتعذر الحصول عليها في الهند ، وقد يكون اقبال تعمّد الا يتعمق في طلبها ومايسبيل الحصول عليها ليعزيز عليه ، وهو الذي درس بالمانيا وصادق عددا من رواد العلم والادب فيها ، بل وأرسل لبعض منهم أعماله ودواوينه وأهدى لبعضهم أعماله ، وقد كانت ترجمات أنا ماري شيمل ودراستها حول اقبال احدى ثمرات تلك الهدايا (1) .

أما سبب تعمّد اغفال ماقام حول الموضوع من دراسات فلعلّه رغبة منه في دفع قرنه الى الاطلاع على بواكير العلاقات الادبية والفكرية والفنية بين الغرب والشرق ليكونوا بناء الدراسات المقارنة في شبه القارة الهندية والبلاد الاسلامية بعد ما سار بها الغرب أشواطا .

---

1 ـ انظر مجلة فكر وفن ، العدد 32 ، السنة 16 ، (العدد كله خاص باقبال)

ب ـ الهدية :

عبارة عن هدايا تكتب الشاعر في أعلاها الى حضرة صاحب الجلالة الامير أمان الله خان حاكم دولة أفغانستان المستقلة (1919م ـ 1928م) ، وأعقبها بالدعاء له بدوام الملك والعزة .

أختار الشاعر أفغانستان وملكها لأنها كادت تكون في زمن اقبال البلد الوحيد الذي لم تطأه قدم الاستعمار ، وقد شهد له أمير البيان ولأهله بالصلابة والبطولة (1) . فالديوان كله هدية لهذا الامير ، وانما قدم اقبال الهدية أو التحية تمهيدا له ، واعتذارا على صغر الهدية أمام ما تلقاه الامير من هدايا .

ـ ما أكثر ما فزت به من هذايا ملك الطوك ، وما أكثر ما لديك من الياقوت النمين .

فيا أمير بن أمير بن أمير ، تقبل أيضا هدية من مسكين فقير (2) .

سبقت الاشارة في الفصول السابقة الى اعتزاز اقبال بأنه لم يمدح أحدا ولعل المدح الذي استهل به ديوانه كان منه تقليدا لما جرى عليه كثير من شعراء الفرس بإهداء الاعمال الادبية الى أمير الزمان الخضر في نظرهم ، ولكل شاعر ملك أو أمير أو وزير يلازمه ويفوز باعجابه ، وان أهدى غوته ديوانه لأمير مدينة وايمار (وايمر) مشبها في ذلك نفسه بالشاعر حافظ الشيرازي الذي أهدى ديوانه لشاه شجاع ، (3) فان اقبال أهدى ديوانه للامير أمان الله خان .

استهل اقبال هديته بمدح الامير الافغاني باسهاب ، فهو الامير الموفق ، وهو الملك الشاب الذي يتمتع برزانة الشيوخ وهو الاشبه في بعد نظره بكأس جمشيد التي يطلع منها على أحوال بلاد ، (4) بل ان الحجب تقف دون عينيه . وهو نابت مثل الجبال الراسخات ، وقد كان كذلك في بداية عهده ، أمام

---

1 ـ أنظر حاضر العالم الاسلامي ، المجلد 1 ، الجزء 2 ، ص 210 ـ 213 .

2 ـ رسالة الشرق ، ص 185 .

3 ـ شاه شجاع : جلال الدين بن محمد بن المظفر ، من الدولة المظفرية ، خلف أباه مبارز الدين محمد أمير فارس وكرمان وكرستان على العرش عام 859 هـ ، بسط سلطانه على بلاد اسلامية كثيرة ، وبايع الخليفة العباسي هام 770 هـ توفي عام 786 هـ كان الشاعر حافظ الشيرازي يقيم في بلاطه ، وبه يعرفه (دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد 13 ، ص 137 ـ 138) .

4 ـ جمشيد ملك فارسي ، ويقال له أيضا جمشدون ، اشتغل في ملكه باعداد آلات الحرب وصناعة الملابس ، عرفت فارس في عهده ازدهارا ملحوظا ، تمتعت فيه الرعية الى ان انقض الضحاك الحميري على مملكته ، أما قصته فتروى الاساطير أنه كان يرى على صفحتها وجه الدنيا فتأتي مخططاته واستعداداته وفق ما يراه . (فرهنك آموزگار ـ وتاريخ غرر السير ، الثعالبي من ص 11 ـ 17 وشاهنامه الفردوسي ج 1 ، ص 21 ـ 24) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فنـوتـه يخـاطـب الشعـب الالمـاني الغـارق في الحـروب والنـزاعـات،واقبـال ينـادي بـوحـيـه فـي ربـى الشـرق وفـي أوسـاط المسلمين وقـد انهـك الاستعمـار قـواهـم ،يقـول :

ـ كـلانـا عـالـم بمـا في ضمـيـر الكائنـات، وكلانـا يحمل رسالـة الحياة في وسط مواج(1) ويعترف اقبـال أن غـوتـه قـد بلـغ مرحلة نضجـه وكمالـه فهـو شبيه بالسيف المسلـول من الغمد أو بالجـوهـر(اللؤلـؤة) عنـدمـا تكتمـل فتغـادر الصدفـة، بينمـا لـم يكتمل هـو نضجـه فظـل سيفـا في الغمد غير مشحوذ ولؤلـؤة جبيسـة أصداف تصارعهـا وتتلـوى بداخلـهـا، يقـول :

ـ كـلانـا كفلـق الصبح البـاسم في صفـاء المرآة ،هـو مجرد من الغمد وأنـا مازلت في الغمد .

ـ كـلانـا جوهـر كريـم متألـق، وكلانـا وليـد بحـر لاتبهـدو لـه شطآن .

هـو من جرأتـه قفز حتى قـاع البحـر ،حتى مـزق جيب الاصـداف .

ومـا زلـت انـا أطـوّى في أحضـانهـا جبيسـا ، ومـا زلـت ضـائعـا في صعير البحـر لـم أكتشـف بعـد (2) .

وهـو لـذلـك يحـتـرم غـوتـه ويمنحـه جـلال الملـوك ويلقي تحـت أقـدامـه بعـرش كسرى ويبـوح لـه بأحاديث عشقـه وروائـع شعـره ، يقـول :

ـ انـي أعطـي لـه جلالا ملكيـا ، وألقي بالعـرش الكسـروي تحـت أقـدامـه .

فهـو يستحـي منـي حـديث عشـق ،كمـا يستحـي منّي رواء وبهـاء شعـر (3) .

ولـم يغـفـل في هـذه المقدمـة معاييـر أقـدار النـاس،فهـو وان جـاد بشـعـره ، مـاريمه مـن مـدمـه وان اعتنـى بفنّـه فـان أبنـاء الهنـد لـم يفهمـوا قـدره ، يقـول :

قـد جعلـت غنيـا بفضـل العـين ،وجعلـت محقـرا في ديـار الهنـد (4)

ولايتمـالـك أن يشكـو غربتـه في ديـاره ويعلـن عن حسـرتـه الشديدة من صعود الادنيـاء السـفلـة ، ويأسـه لكل صاحب فضـل

وليـست الحال في ديـار الاسـلام وقـفـت عند هـذا الحد ، ولـم تتـوار شمـس الهـدي الالـهي ونـور وحي الـرسـالـة السماويـة عن المسلميـن، أيـن ضـاع أبنـاء الحجـاز في الغـفـلة وفتـرت فيهـم ثمـرة التوحيـد ،وايـن ابتلـع النيـل أبنـاء مصـر ،وتمـزقـت ... واعد الاتحـاد ، وايـن اختفـى أبنـاء ايـران وتبخـر من قلـوبهم

---

1 ـ رسـالـة الشـرق ،ص 156 .

2 ـ رسـالـة الشـرق ،ص 156 ، 157 .

3 ـ رسـالـة الشـرق ،ص 157 .

4 ـ رسـالـة الشـرق ،ص 157 .

العشق السلماني وتحول أبناء الهند الى عبدة بطون وشهوات ، هذه حال المسلمين ، مسلمون هم ولكن بلا سلمان ولا خالد ولا عمر الفاروق ولا أبي ايوب ... كل هذه المآسي جاء بها اقبال لذلك الامير عسى ، يتخذ منها درسا ، يقول :

لقد رأيت أيها الملك العالي الجانب كالفلك ، أن شمسنا قد توارت بالحجاب فقد مال الحجازي (الايطحي) في الطريق في فلاته ، وذهبت من أنفاسه حرارة للآلة .

وغرق العربي في ماء النيل الدوّار ، وصار الاتراك ضعاف السواعد بلا حمية .

وآل عثمان في عذاب الدهر ، فالمشرق والمغرب روض للشقائق من دمائهم .

لم يعد هناك الحاكم السلماني للعشق ، فأرض ايران باقية ولا وجود للايرانيين .

وصار المسلم الهندي عبد لشهواته (لمعدته) ، فهو يبيع نفسه ، وقد انتزع قلبه من الدين .

ولم يبق (في) مسلمهم محبوب ، ولم يبق خالد ولا عمر الفاروق ولا الايوبي .(1).

وجد اقبال في ذلك الامير مواصفات الرجل الذي يمكنه استعادة ذلك المجد الضائع واحياءه ، فقال له نادبا :

- يا من أعطتك الفطرة ضميرا طاهرا ، وتمزق صدرك من الحزن على الدين مائة ممزقة .

جدد منهج الصديق وعمر ، وامش كسيم الصبا على شقائق الصحراء لتزدهي .

وتلك الامة الممزقة الشريدة في الجبال والاطلال ، ادفع في عروقها بدماء الاسود .

لتكون نشطة قوية البدن وصاة الجبين (كالنحاس) ، وتكون عينها حادة النظر كعقلة الصقور (2) .

هو لايبخل على هذا الامير الذي اتخذه مثالا وقدوة ورآه واحدا من صديقي هذه الأمة الذين ظلوا على فطرتهم السليمة بنصائح قد تفيده في تسيير مملكته ، استقاها جميعا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحكمه ومن تاريخ الاسلام وخليفة الحاكم فيه والملك ، من ذلك نصحه له بالجمع بين العلم والقوة ، يقول :

---

1 - رسالة المشرق ، ص 187 - 188 ، (يقصد به أبي أيوب الانصاري) .

2 - رسالة المشرق ، ص 188 .

ـ العلم والقوة هما أساس نظام أمر الامة ، والعلم والقوة هما أساس الاعتبار للأمة فخذ هذا الاول من صدر الاحرار ، وتلك انتزعها من صدر الجبال (1) .
ولكن يتجنب الامير هلاك ملكه وأمته عليه أن يدرك حقيقة الرسالة . فما الحاكم الا خادما راعيا للشعوب ، قائما على راحتها مقيما لعدل عمر الفاروق ومنتهجا فقر علي ، موفقا بين حق الرعية وحق الله بالخلوة اليه . والملك (الحاكم) العلم وان لبس عباءة الملك فهو زاهد القلب ذاكر . انه كأردشير قوة ولكن بروح أبي ذر الغفاري ايمانا وطهرا وغنى له جسد غارق في الدروع وقلب زاهد غارق في التصوف ، يقول :

ـ هو زاهدا تحت عباءة ملك ، وعش متيقظا في خشية الله والذكر .

فقائد العلة والطبيب المرتجى ، هو من يكون البرق والرعد نتائب سيفه ونتائجه .
هو فقير ولكنه ملك للملك الاعلى ، وهو كأردشير بروح أبي ذر الغفاري .
ان يكن جسده ، غارقا في الدروع ، فان له في الصدر قلبا متشحا بخرقة الصوف (2)
هو حاكم وليس له متاع ، وليس بيده ، غير السيف والقرآن (2) .

وكانت آخر نصائحه للامير أن يطلب حب المصطفى صلى الله عليه وسلم وأن يحيي في بلاد الجبل عشق الاوائل وحبهم لله وللرسول وأن يدير كأس ذلك العشق من جديد ، يقول :

ـ فحياة الملة انما هي بحبه ، وورونق الكائنات انما هو بعشقه .

فانهض واجعل كأس العشق تدور من جديد ، وجدد رسالة العشق في بلاد الجبل (3)
ولكن أمان الله خان حقق لاقبال بعض ما هدفت اليه نفسه ـ في أيام حكمه الاولى ـ وأدار كأس العشق من جديد في بلاد الجبل ، ولكنها لم تكن الكأس الوحيدة ، فقد أدار الى جانبها كؤوسا أخرى عديدة ، مستلهما المثل من الجهود العظيمة لاتاتورك في تركيا (4) فمن تلك الكؤوس التي أدارها الامير حركة تحديث منظم شملت كل نواحي الحياة ، وشملت أيضا حياته وحياة زوجته بتنكرهما للزي الاسلامي واقتدائهما بالغرب وبكمال أتاتورك في كل شيء ، وقد دفعا الثمن غاليا وهو التاج ، فما أن عادا بعد رحلة طويلة من البلاد الاوروبية عام 1928م) حتى انتفض الشعب وبنفس الحماس الذي اختاره به خلعا ، فسفر الى قندهار ثم الهند ، ومنها الى أوربا (5) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 189 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 190 .
3 ـ رسالة المشرق ص 191 .
4 ـ Iqbal Sing, the Ardent pulgrim, An Introdiction tothe life and work of Iqbal orient longmans, L T D , bonbay, Calcuta, Madras p111
5 ـ لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي ، المجلد 1 ، الجزء 2 ، ص 214 ـ 216 .

ولعله اقبال تراجع عن موقفه من هذا الامير الذي خيّب آماله في دواوينه الاخرى الفارسية أو الاردية أو في محاضراته من محاضراته ، لأنه حدث لايمكن أن يمرّ على فكر اقبال مرورا عاديا ، خاصة وقد تراجع عن موقفه من كمال أتاتورك — أستاذ أمان الله خان — في آخر أعماله الادبية (رسالة الخلود) .

ج — شقائق الطور :

عبارة عن مائة وثمانية وستين رباعية خصها اقبال للعشق الصوفي حتى يخاله القارئ المنظّر لهذا الفن وواضع أسسه الذي تبتدعه ائمه بأساليب مختلفة ، وقد تخلل ذلك العشق الالهي الصوفي ملاحظات ونصائح وانتقادات ، ولم يعبر في رباعياته عن عشق الانسان فحسب وانما صور لنا كل الكائنات وذوبانها من هوى العشق ، فقد استهل المنظومة بصورة لهيام جماعي سقطت الكائنات صريعة عذابه وشهيدة لهيبه ، لامس شغاف كل الكائنات ، فتترك أثر بصماته عليها جميعا ، حمل السحر علامة السجود له ، وظهر على القلوب نورا ، وأخذت أوراق الورد حمرتها منه ، وتسرّع بباطن الارض في نهر من دماء العشق المسفوحة فوقه ، يقول :

— كل ما في الوجود من مظاهر الفرح والبهجة شهداء عشقه ودلاله ، فهو الحاجة القائمة في جوهر من كان ومن هو كائن (يريد به الشاعر الله) .

ألم تر أنه من حبّ الدم العبرة للفستق ، يوجد أثر للسجود على محيّا السحر .

العشق هو الذي يمنح اللون الداني لورد الشقائق ، والحسن هو الذي يمنح البساتين لروحنا فلو تشق قلب هذه الارض ، فستجد في باطنها دماء العشق مسفوحة (1)

ولكن ليس كل الناس قد وقفوا على حقيقة هذا العشق وأدركوا معانيه ، فاذا حطت الشقيقة لون الدم و حبّت بأعماقها كيما يفري الكبد ليعبر عن عذابها ، فان الياقوت البدخشاني رغم حمرته لايحمل أثرا لدم ولا يحمل رمزا وعلامة لمعاناته ، يقول :

— ليس كل أحمر يصاحب محبة ، لأن المحبة لاتناسب كل شخص .

فالشقيقة تنبت بكبد يفري الكبد ، بينما يخلو الياقوت البدخشاني من الشرر (2) .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 195 — 196 .

2 — رسالة المشرق ، ص 197 .

وليحرم كل من لا يؤمن بهذا العشق ، ولا يعرف طبائع أصحابه فيسمى عشقهم جنونا ، ليحرم من أسرار الحياة ورموزها ، يقول :

- فليكن غريبا عن سر الحياة ورموزها ، من يسمّي العشق جنونا (1).

ومن طبائع هؤلاء العشاق أنهم كلما فازوا بنور من أنوار الحق وكلما تكشف لهم ستر من أسراره طلبوا سترا آخر أكبر وأفقا أكبر وأوسع ، لا تمل نفوسهم من البحث والطلب ، فحتى لو تكشفت الحقيقة عارية أمام اقبال وأمثاله فانه يختلق لنفسه أعذارا أخرى ليستمر في الطلب والبحث الدائم عن الشكوك التي تدفعه الى حقيقة أسمى من الحقيقة نفسها ، والى اليقين يقول :

- أنا لا أفتش عن النهاية ولا البداية ، فكلي سر ، ولكني مع هذا أطلب دنيا الاسرار .

فحتى لو توغل الحجب عن وجه الحقيقة ، فاني أفتش عن هذه الشكوك وتلك الالغاز وعشق كهذا في حاجة الى مرشد ومربي ، فللشيخ المرشد دوره في الارتقاء بهم والتسامي بأرواحهم درجات نحو الحق ، يخلق الله من ماء وطين أجسادا سوية ، ويسخر المرشد بعد تكشف له من أسرار وأنوار ذلك المخلوق ويهديه الى حقيقة وجوده وموجده ، فيتحول بحفنة تراب الانسان الى حياة أخرى يقول :

- قد صنع الله من الماء والطين جسدا سويا ، وخلق دنيا أجمل من دنيا ارم الا أن الشيخ يظل النار التي لديه ، جعل من ترابي دنيا أخرى (2).

ان هذه السيماء الروحية الاقبالية تتخللها لقطات تؤكد أنه رجل عملي قبل كل شيء ، وليكن بعد ذلك صوفيا أو فيلسوفا أو باحثا أو شاعرا ، حتى وهو في أعلى درجات تسامية الروحي ووجده ، لا ينسى أنه المسلم المنتمي الى أمة فقدت حرارة الايمان ، وذهلت عن نفسها ودينها فضيعت عليها نسائم العصر ، ولم يكن اقبال وحده في الحزن على ما آلت اليه الأمة ، فقد شاركته النجوم الصاحية اليقظة حزنه وأساه ، لأنها وقفت على غفلة المسلمين ونومهم ، يقول :

- لقد هبت مع الخطى بانجم الصباح ، وربما هبت قبل ذلك من نومها .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 195 .

2 - رسالة المشرق ، ص 199 .

3 - رسالة المشرق ، ص 200 .

ـ أنا من غفلتي أنعست طريقي ، أما أنت فجئت يقظا وهيت يقظا (1).

وكانت غفلة المسلمين هذه ونومهم سببا في خلو حانات العشق من مراسيم المحبة وفن الندامى ، وكانت سببا في غياب العشق زمنا ، ولكنه رأى أن الفرصة حانت لبعثه من جديد ، يقول :

لم يكن هناك من عشق وهذا وقته (2).

أما الاسرار التي أوتيها اقبال فأنه لايبوح بها لكل من حوله ، يبخل بها على المشركين أبناء النار ، لأنها أمانة خاصة ورسالة حياة منه الى المسلمين وسر من الخليل ابراهيم عليه السلام ، يقول :

ـ أيها المسلمون لي كلمة في القلب ، هي أوضح وأكثر تجليا من روح جبريل . أخفيها عن أبناء النار المشركين ، فهي سر من أسرار الخليل عليه السلام (3)

والعشق في نظر اقبال ـ كما نظر رجال التصوف ـ تحتمل للأذى في سبيل المعشوق بلا حدود ، فالفراشة وهي تفنى من نار معشوقها وتتحول الى رماد لاتطلب سوى حياة أخرى حتى تهبها من جديد في سبيل ذلك المعشوق ، وحتى تجدد احتراقها ، ان دنيا العشق روض ، ولكنه روض محفوف بالمكاره مسيج بالمخاطر ، يقول :

ـ سمعت فراشة كانت تقول في الغدم ، امنحني لحظة من حياة اللهفة والحرقة وانثر رمادي وقت السحر ، ولكن امنحني من قبل ذلك حرقة وأنس ليلة (4)

ان سرت في بستاني فلك الضر والاذى ، ان لم تكن روحك شهيدة العشق والطرب ، فانا أبدي تلك الاشواك الكائنة في أغصان الزهر ، فربيعي ليس ذلك الزيج العجيب من اللون والاريج (5) .

وفي هذه الرباعيات أعلن اقبال عن تفرده وتميزه عن غيره ، فبعد أن لمس حقيقة ترابيات عديدة كسرير كيقباد (6) وتاج جمشيد ، وأدرك أن الكينونة التي يؤمها البعض من تراب ، والمسجد من تراب ، يتساءل عن وضعه أمام هذه الاجسام الترابية ، ما كنه جوهره ، ما حقيقته ، ان كان حقا من تراب مثلها

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 200 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 201 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 202 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 202 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 204 .
6 ـ كيقباد من أسرة الكيانيين وهي طائفة من ملوك فارس تبتدئ اسماؤهم بكلمة (كي) وربما كانت لقبا معناه ملكا ، ويرى البعض أن معناه العزيز ، عد الدارسون كيقباد أول أسرة من الملوك عرفت باسم الكيانيين (الشاهنامة الجزء 1 ، ص 99 ـ 100) .

فانه يتميز عنها بنظرة تعلو به فوق الافلاك ، يقول :

- سرير كيقباد وتاج جمشيد من تراب ، والكنيسة والمعبد والحرم من تراب لكنني لا أدري ما كنه جوهري ، فنظرتي تعلو الى ما فوق الفلك وجسدي من تراب (1) .

ولا ينسى اقبال أن يجود على القارئ بحكمة بين الحين والآخر ، من ذلك تسجيله لاحدى سنن الحياة التي لو شاء به فيها يوما فسدا ، لكان ذلك دليلا على الفناء ، يقول :

- تتجدد الاماني والمطامح في كل لحظة ، اذ الحياة غير مستقرة على صورة واحدة .

فلو كان ليومك نفس وضع أمسك ، فان شعلة الحياة تكون قد انطفأت في كيانك (2) .

أما القلب والعقل فلاقبال تحليلهما الخاص لهما ، العقل مولع بالظاهر مقيد بحجب العين والاذن وسائر الحواس ، وهو بتعلقه بالحواس وبالظاهر يحاول احباط كل طموح للوصول الى المعشوق الازلي ويسعى لاطفاء حرقة شوق القلوب اليه وهي اللقطة الخفاقة الصلبة ، ولكن بامكان العقل الفوز بصفات القلب وخصائصه ان قطع عهده بالظاهر والحواس ، يقول :

- كيف تسأل ماذا يكون القلب الذي وسط الصدر ؟ ، فالعقل حين أحرق الظاهر صار قلبا .

والقلب كان قلبا من الاحجار بالخفقان ، لكنه حين توقف عن الخفقان لحظة صار طينا (3) .

العقل مقيد ليل نهار بقيد (أبدي) ، هو مقيد بحجب العين والاذن (4) وأمام ما تطلبه نفس الشاعر ونفوس كثيرة عاشت فيها أحلام الكليم موسى عليه السلام يتحلى اقبال بتفاؤل جديد يسمو عليها جميعا لانها لا تتم الا به ، انه الانسان الآدمي على أمل وجه ، فلا جدوى من الذهاب الى طور سيناء وطلب التجلي بنصف انسان تغربت عنه روحه بل ان الله أيضا يريد آدميا ، يقول :

- ذهبت الى قمة الطور تستجدي السجلوة وتسألها ، ذاك لان روحك غريبة عنك وليست محرما لسك .

بل لمس في لب الآدمية وقشرها ، فان الله أيضا يطلب الآدمية ويؤكدها (5)

---

1 - رسالة الشرق ، ص 206 .
2 - رسالة الشرق ، ص 207 .
3 - رسالة الشرق ، ص 207 .
4 - رسالة الشرق ، ص 209 .
5 - رسالة الشرق ، ص 211 .

وبعد ايحاد الآدمي ، يحق الاستسلام لأسر الشك الدافع الى اليقين المطلق ويحق البحث عن (الله) الحق ، ولكن الباحث عن واحد يجب ألا يرى غيره (غير واحد) ، يقول :

- طالما تقنع في شراكك عنقاء العلم ، كن قليل اليقين أسير الشك .

أتطلب الحركة والعمل ، فاجعل يقينك أنضج ، وابحث عن واحد ، وابصر واحدا وكن واحدا (1) .

ولكنه مع هذا يرفض السؤال عن الوجود والعدم ، وعن الروح والجسد وما يربط بينهما ، فالروح من امر الله وليس لآدمي أن يضيع عمره في السؤال عنها ويذهل عن نفسه ويغفل عن رسالته ، يقول :

كم تسأل عن الرابط والصلة بين روحي وجسدي ، وأنا لست ممن يقنع في شراك كم و كيف (2) .

ويلتفت اقبال الى احدى خبايا النفوس البشرية وهي الخوف من الموت فيقدم لدائها دواء ينبع من ثبات الذات ونضجها وليس من الاخرين ، وبذلك الثبات يضمن الانسان لنفسه الخلود ، يقول :

- قلبك يرتعش (يرتعد) لفكرة الموت ، فقد بقيت صفرا كالزعفرانة من خوفك. فاضمم نفسك بنفسك ثانية وكن أكثر نضجا وثباتا ، ولو تفعل لذلك فانك لن تموت أبدا بعد الموت (3)

والانسان مسؤول عن عمره الذي هو أعوام مجموعات وأشهر وأيام وساعات ، ان مضى منها يوم فقد انقضى بعض عمره ، ولذلك كان عليه أن ينظر ليومه كيف يقضيه اذ هو دعامة الغد ورسالته ، وعليه ألا يضيع العمر بالافتتان بالمظاهر العابرة الزائلة ، وانما يقصد الصورة المثلى للجمال الأزلي ، يقول :

- قال لي شيخ حكيم ، اعلم أن كل يوم لك هو رسالة لغدك .

فاحفظ قلبك من الحسان ذوات الدلال والتمنع ، فمعبده حرام على كل الانام سواه (4) .

ويشير اقبال مايراه من تبدل الموازين وتقلبها ، وظهور مقاييس جديدة للتقييم والتمييز بين الطيب والقبيح ، معايير لا يتحكم فيها القلب ولا العقل ولا الروح

---

1 - رسالة العشق ، 211 .
2 - رسالة العشق ، 212 .
3 - رسالة العشق ، 211 .
4 - رسالة العشق ، 212 .

معاييس أساسها الربح والخسارة ، ماعاد بالربح فهو طيب وان كان أم القبح والشؤم ، وماعاد بالخسارة فقبيح ، وقد عمت هذه الموازين أوساط الناس فوجد اقبال نفسه غريبا بينهم متفردا ، لأنه ينظر الى الدنيا بعين غير التي ينظرون بها ، يقول :

أنا لا ألف ما تراه طيّبا أو قبيحا من أمر الدنيا ، فقد جعلت مقياس ذلك عندك النفع والخسارة .

فليس في هذا الحشد من هو أكثر عزلة وتفردا مني ، لأنني أرى الدنيا بعين أخرى (1) وسرى في عروق الناس حب الذهب حتى تحولوا الى عبادته ولكنه في حقيقة أمره ليس ذهبا الا في أعين محبيه ، أليس الذهب في أصله ترابا وأليس الجوهر في صلابته حجرا ، يقول :

لو أنك تتأمل حجرا ، فإنه من فيض آمالك يصير جوهرا .

لا تتخذ للذهب وزنا يا عابد الذهب ، انه ليس ذهبا الا في نظرك (2)

ليس في هذه الرباعيات صوت واحد ينغل فكر اقبال ، ولكنها مواضيع يقف يتنقل بينها كالراشفة المحلقة من نعمة الى أخرى ، ويبقى العشق النعمة الكبرى التي يجد عندها الشاعر أكثر ويطوف حولها أشعر ، فهذه مرة يأسف على حرمان خط ريشة الشاعر المبدع من الخلود ، فيقول :

بكى قلبي واحترق لمحنة الفنان المبدع ، لأن خط ريشته غير خالد (3) .

ولكن حرمانه من الخلود في الحياة لا يمنعه من سكب الحانه وفي الحديث على لسان البراعم الخرساء وعلى لسان كل الكائنات التي لا تقوى على التعبير عن نفسها : فلساني هو لسان البراعم الخرساء (4) .

ومرة يتساءل عن حقيقة الرياض والحدائق والسرب في نظر البلابل لأنها في نظر الانسان عبارة عن موج من الألوان ، ويسأل عن السر الخفية وراء اشراق الورد والقلب ، يقول :

- أي شيء تظهره هبة الورد لك ، وأي شيء أشعل تلك اللؤلؤة التي داخل الروح ليست الحدائق في نظرنا غير موج من الألوان ، فهل تعلم كيف تكون في عين البلابل ؟ (5) .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 213 .
2 - رسالة المشرق ، ص 216 .
3 - رسالة المشرق ص 217 .
4 - رسالة المشرق ، ص 218 .
5 - رسالة المشرق ، ص 218 .

ثم يترك الشروع ليعود الى الأصل العشق فيتصور حاله ومعشوقه الأوحد ويتخيل نفسه كوكبا سيّارا ومعشوقه شمسا تنبعث منها الانوار ،ويرى نفسه جزءا من القرآن لايعرف الكمال بعيدا عن كلّه ومعشوقه الذي هو القرآن، يقول :

ـ أنا كوكب سيار وأنت شمسي ،والانوار التي تغطيني من رأسي حتى قدمي آتية من نظراتك .

أنا لا أعرف الكمال بعيدا عنك ، فأنت قرآني وأنا لك أجزاء .

صورته أحلى وأطيب في نظري ،وما أطيب أن تزداد اللهفة عليه وأن تذوب الروح وتذوي في هذا السبيل (1).

ولم يقف اقبال وحيدا في هذا الميدان ،فقد شاركته الكائنات في عشقه ، تمنّت كلها أن تكون عبدا لمعشوقها الكلّ" فأشجار الصنوبر الباسقة المتطاولة المتحررة عن الأرض بتسامقها تتمنى أن تكون عبدا له . والورود تلت من خمرة حبّه والشمس والقمر صارا محرما له ، وقلب الانسان أصبح مكمنا له ، ويكفي هذا المعشوق الفريد أن وسعته قلوب الكائنات جميعا ،يقول :

ـ تتمنى شجرة السرو أن تكون عبدا له ،واشراق وجه الورد انما مأتاه من خمره فالشمس والقمر والكواكب حرم له ، وقلب آدم مكمن مصون له (2)

تتبعث الانغام لحريتها تعود من أعماقي ، فكيف أنت داخل هذه الروح وكيف أنت خارجها .

فأنا أحترق من حبها حبك وأموت من غيابك ، يا وحيدي ويا من لا شبيه له كيف أنت من غيري؟ (3).

ثم يقفز اقبال من أعماق العشق من جديد ليقدم درّة من نصائحه للمسلمين المتفرقين والدين واحد ،العالقين بأسباب الفرقة والشتات بعد ما كانوا أمّة ، الفاخرين بالانساب والألوان والاعراق والاوطان ،لمّا تخر هذا المرض فكر المسلمين الكبار توجه اقبال الى أطفال المسلمين ـ وهم على الفطرة السليمة ـ ليصحهم بالاعتماد على أنفسهم في التربية ،حتى لايزرع فيهم الكبار بذور التفرقة ،يقول :

ـ أنت أيها الطفل هذّب نفسك بنفسك ، مسلم أنت ؟ فدع النسب اذن .

اذ انتماء العرب بالجلد والعرق والدم ولونه الأحمر فدع كونك عربيا (فاترك العرب

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 218ـ219 .

2 ـ رسالة المشرق ،ص 219 .

3 ـ رسالة المشرق ،ص 221 .

نحن لا أفغان ولا ترك ولا تتار ، نحن أبناء حديقة واحدة ومن شجرة واحدة .
التمييز باللون والرائحة عندنا حرام ، فنحن ثمرة لربيع واحد (1).
الناس أصناف ومعادن ، وكذلك هم في العشق ، أشرفهم صاحب الروح المحترقة المتألمة الصابرة ، أما الذي لا تظهر عليه علامات الألم الدفين والحرقة والاضطراب فلا رأي له ، ومنه فهو جاهل لأسرار العشق ، وهذا المحروم من نغمة العشق لا يمكن تلقينه أسرار العشق ومبادئه ، لأن العطاء الروحي هبة الهية لا تعلّم وإنما تعاش ، وتنمو من الكفاح المستمر والصبر على المعاناة والطلب الدائم ، يقول :

ـ الشخص الذي ليس له ألم خفي ، يطلب جسدا ولا يطلب روحا (2)

امنح الآخرين متاع العقل والدين ، لكن احفظ بدقة نار العشق الذي تحتضنه (3)

وللذين يطلبون الكمال في الدنيا يقول اقبال كلمته ، ان الكمال فيها ليس بطلب الرزق المتواصل ولكنه بالحط من شأن هذه الدنيا ، والنظر اليها على أنها قطرة ماء أو أصغر ، من تخلّص منها ومن سحرها ذي الألوان العديدة ، تخلّص من جاذبية الطين الهابط الذي يدعوه الى الفساد في الأرض وارتقى بالفطرة التي هي من الاعجاز الالهي ، يقول :

ـ أتطلب كمال الدنيا ؟ فتعلم ، فتح العين اذن ولا تغلقها الا على نفسك .
خذ الدنيا ، تناولها كقطرة ماء ، واكسر سحر الأرض والسماء .
أنت تقول ان آدم ابن الأرض ، وأسير العالم والكون والفساد
ولكن الفطرة التي يطلبها هي من الاعجاز الالهي ، فمن نبعه يولد البحر (4).

الثواب بمفتاح الجنة ، واقبال المسلم المجرّب يوضح لنا طريق الثواب متمثلة في العمل الجاد الجيّد ، الذي يحمل في ثناياه ملامح الابداع والاختراع ويتسم بالندرة اذ قليلون هم الذين يبلغون درجة الابداع ، فخلق العمل النادر جدير بالمثوبة ، حتى وان كان قبيحا ، لأن الغاية من ابداعه كانت خيرا . والرجل من ينحت طريقة حياته بنفسه دون تقليد الآخرين والسير وفق ما اختطوه لانفسهم من أنماط للحياة ، والآدمي الحق من نظر الى الدنيا بعينه ، لا يسأل الآخرين عما يرونه فيها ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 222
2 ـ رسالة المشرق ، ص 224 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 225 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 226 .

- انحت طريقك بفأسك ، ففي السير في طريق الآخرين عذاب .
لو أنك تنجز عملا نادرا بيديك ، فستشاب عليه وان كان قبيحا (1)
لقد اخترت الوحدة بين الماء والطين ، وانفصلت عن أفلاطون والفارابي
أنا لا أسأل الآخرين عنا ، لأنني لا أنظر الدنيا الا بعيني (2) .
كما جاءت بعض الرباعيات دعوة للانسان أن يتعلم من الطبيعة ويأخذ عنها أسرار الوجود . ففيها (الطبيعة) تتجلى الحقيقة بلا حجاب ، اذا تنازع الانسان تياران ، يشده الاول الى السفلين ، ويرتفع به الثاني الى السماء ، جاز له أن يتعلم من براعم الازهار التي شقت طريقها الى الحياة من باطن الأرض ، وتغذت منها ، وان ارتفعت عن الأرض مئات ، ولكنها مع ذلك تتجه بنظرها عند ما تتفتح نحو السماء وتشير الى أشعة الشمس يقول :
- أيها القلب خذ سر الحياة من براعم الزهور ، فقد تجلت الحقيقة بلا حجاب
فهي على الرغم من تفجرها من تراب ناعم ، الا أن بصرها متجه الى شعاع الشمس (3) .
الطبيعة تفتح عينها ولا تنام ، فلماذا تنام عين الانسان وقد وهبه الرحمن حدة في النظر وبصيرة نفاذة ، ليتعلم من النرجس المفتوح العين دائما ، الذي يصر دون أن ينسى تأمل السماء ، يقول :
- كن مثل النرجس لا يصر دون أن يتأمل الخيلة ، ولا تصر منطويا على نفسك مثل رائحة وردة غير ناضجة .
ان الله أعطاك عينا حادة النظر ، فلا تصر بعقل يقظ وقلب نائم (4) .
علمنا أن الانسان فاز بقدر من الاسرار ، ولذلك فهو لا يخاف الأجل بل يراه طريقا للبقاء الدائم ، والخلود ، ولذلك لا يرى الاجل غاليا ، فحتى اذا اختفى هذا العالم عن نظره ، فان قلب العارف بالاسرار سوف يضم حينها مائة عالم ، ويملأ الدنيا بأنغام الأمل التي يتجلى أمامها الذي كان والذي سيكون (الماضي والحاضر) يقول :
- أفعمت الدنيا بأنغام الأمل ، انه من حنينه تأتي كل النقط .
كل ما كان ويكون هو أمام عيني ، انها ليست سوى لحظة من دنيا الأمل .
قلبي لا يعرف قرارا من الأمل ، وفي صدري غوغاء وجلبة (5)

---

1 - رسالة المشرق ، ص 229 .
2 - رسالة المشرق ، ص 230 .
3 - رسالة المشرق ، ص 231 .
4 - رسالة المشرق ، ص 238 .
5 - رسالة المشرق ، ص 233 .

ولا ينسى أن يذكر الانسان بالتكريم الذي حباه به الله دون غيره من المخلوقات ولذلك التكريم صور عديدة ، أعظمها وأجلها أن أمر الملائكة بالسجود له بعد خلقه ، وهي نعمة حاول اقبال أن يستحضر التذكير بها ويوقفهم على قيمة الانسان عند خالقه ، لأنه هو الذي أخرجه الى الوجود وفضله على كثير من خلقه ، يقول :

- فالله عندما صور (خلق) صورة الجسد ، أمر الملائكة أن يسجدوا له (1)

قيمتي في نظرك غالية ونفيسة ، لانك أنت الذي أخرجتني الى سوق الوجود (2).

هذا الانسان الذي أكرمه الله أقام اقبال نفسه مرشدا له ، وحمل على عاتقه أمانة تبصيرته وهدايته وبيان حقيقة خلقه ، كما حمل على عاتقه مسؤولية دفعه الى الامام ، أيوجد غير الانسان ، ؟ لا أحد ظاهر سواه ، فليمض بلا خوف في درب الحياة اذ لا يوجد في هذه الدنيا الواسعة سواه

ما الأرض وما جبالها الرهيبة الا حجر عثرة في بساط حانة الانسان ، وما السماء الا احدى دورات كأسه في حانته الاوسع من الدنيا والأرحب من الأرض والسماء يقول :

كن فيكون (خلقت الله) فما أحد سواك ، ولا شخص ظاهر سواك .

انهض وسر في درب الحياة بلا خوف ، فلا يوجد في هذه الدنيا الواسعة سواك .

ما الأرض الا حجر على بساط حانتنا ، وما السماء سوى احدى دورات كأسنا .

ان الحديث عن توقنا واحتراقنا طويل ، فما الدنيا سوى مقدمة لخرافتنا (3)

واذا كان أول هدف وأسماء في حياة المسلم هو جذب الذات الالهية فان اقبال لخص كل قصة حياته وهواه في لهيبين ، وفي رباعية واحدة ، وهو أنه عشق ، وذاق في سبيل عشقه الكثير من العذاب ، يقول :

- لقد حالت الطبيعة منذ آلاف السنين ، وانفصلت عن نفسي للاتصال بها .

ولكن كل قصتي في لهيبين اللهيبين ، وهو أني تمزقت وتقطعت وعشقت(4)

أما الروح فقد شغل أمرها فكر اقبال طويلا ، كيف ترتبط الروح وهي فلاة لظباء الخيال ، داخل الجسد وهو حفنة من تراب؟ هذا سؤال طرحه اقبال من قبس عن القلب(5) ، وها قد أعقبه بسؤال صعب مثله ، تصعب

---

1 - رسالة المشرق ، ص 234.

2 - رسالة المشرق ، ص 235.

3 - رسالة المشرق ، ص 239.

4 - رسالة المشرق ، ص 235.

5 - انظر رسالة المشرق ، ص 214 (يقول : كيف يحتبس الجسد القلب في حفنة من ترابه ، عندما القلب هو الفلاة التي ترتع فيها ظباء الخيال

فيستجيب آدم لاغرائه ويخرج من الجنة ،ولكنه يخرج منها غير آسف أو حزين ويخرج منها مبهورا بالدنيا لأنه شهيد البحث الدائم عن الحقائق وهو سبب خروجه من الجنة ، فلينظر الى هذه الدنيا وليتأملها لعله يصل الى اليقين ، يقول :

ـ وما أجمل ألا نرى شيئا سوى واحد طيب ،وهو هجوم حفل من الورود على الانظار ، وأن نرى السلوك المؤلم من حيث لآخر يتميز عن الورد .

أنا كل نار غير مكتملة وكل بقية من أمل ، أدع الظن من أجل اليقين أنني شهيد البحث والتفتيش الدائم عن الحقائق (1).

وأخيرا صبح القيامة آدم في حضرة البارئ صوّر فيها اقبال مثول الانسان بين يدي الله يوم القيامة ،وهناك وفي حضرة المولى عزّ وجلّ يتيه فخرا بأعماله فهذا فنّه سكب البحر في كأس ،وذلك فأسه فجرّ من الصخر الاصم المياه ، كان في الدنيا يوما ثم تدنى منها وهبط ،ولكنه تسامى بإرادته وبحثه من جديد حتى سما على الافلاك ،لقد أدى ما عليه وما بقي له سوى أن يطلب عفو الاله ومغفرته وتقبّل عذره عن ذنوبه ومعاصيه ان هو أخطأ السبيل بعد كل ذلك العناء ،وان هو خالف الصواب ،يقول :

ـ لقد سكب مني البحر في كأس واحد ، وفجرّ فأسي من قلب الصخرة الصماء نبعا . فكوكب الزهرة متيّم بي والقمر يصغي اليه من الولها ، والعقل الكبير أنقص من عطي لفتح العالم .

تدنيت الى أسفل الارض ،ثم علوت حتى الافلاك ، فالذرّة والشمس الخبيثة سجينة سحري ، فان أبعدني السحر عن طريق الصواب ، فتجاوز عن خطيئتي وتقبّل العذر عن ذنوبي ومعاصي (2) .

رائحة الورد :

قطعة من خمسة أبيات جعل فيها الشاعر روائح الورد وهي الذكرى الوحيدة المتبقية بعد أفول الورد تجيب على تساؤلات الحور ، وهي في حقيقتها تساؤلات كل الكائنات وتساؤلات الانسان ، فحتى الحور النورانية أضفى عليها اقبال احدى طبائع الانسان وأهمها وهي حبّ معرفة الخفي من الأمور ،حبّ اليقين حبّ التنقيب عن حقائق الاشياء والتطلع الى الخفي الغائب من الأمور. صوّرها

---

1 ـ رسالة الشرق ،ص257.

2 ـ رسالة الشرق ،ص 258.

الاجابة عليه كسابقه ، كيف تكون الروح سيّارة جوّالة ، دائمة الاسفار والجسد (وعاؤها) هادئ ثابت؟ كيف تعيش حبيسة فيه وتقوى على التحليق رغم ثباته؟ يقول :

— أي أفكار تجلت بداخلي ؟ ، وما هذه الاسرار التي بجسمي تفعّل (أأسر) أيها الحكيم واشرح لي هذه الحكمة (المشكلة) ، كيف يكون الجسد هادئا والروح سيّارة؟ (1)

وأحيانا يعود اقبال الى شعره لبيان ابداع خياله وكشف روائع الهامه الشعري فليس شعره مجرد كلمات وأوزان ، انه الحان تكاد حسرى تنزع نبض الحياة في نفوس الصحاب ، وشعره يجمع بين العقل ونوره والقلب واشراقته ، يتيسر هذا من ذاك ويعطي ذاك مقياس هذا ، فينسجمي على الخلاف المزمن بين القلب والهاماته والعقل ورؤاه .

وشعره هو الذي حوّل العجم الى شباب ينبض حيوية ونشاطا ، ووحّد قبائل العرب المشتتة في الصحراء ، فكان بمثابة الحادي الموحد للقوافل ، ثم انّ شعره بالحانه القوية وحداته وأجراسه الشديدة جعله مثل عرفي (2) الذي طلب شدّة الالحان لأن المسافرين نيام والحمل ثقيل ، وشعره هو الذي أثار للروح القلقة الضطربة الشموع ، ومهد لذلك النور سبيلا الى صدر الشرق اليائسة فسرع في حناياه قلبا وتوغل في أعماقه مثل البرق .

واقد استمى العقل من قمقام غليظ صفائح ذهبية ، وخلق من الحجر المعتم مرآة صقيلة فان الحان اقبال بسحرها وعذوبتها تستطيع أن تحوّل الهموم والأسى الى أفراح ، لأن المشاعر أكمل من شجرة الامل وسار بالأمل على سنّة الحياة ، يقول :

لقد عزفت في محفل الاصحاب من أنغامي ألحانا تكاد ، فنبض الحياة في طينتهم هو من أنغامي .

وأضاءت القلب من نور العقل ، وأعطيت العقل مقياس القلب الذي هو من أنغامي

---

1 — رسالة الشرق ص 236 .

2 — رسالة الشرق ص 242 . (يقول : من ألحاني احترقت روح العجم ، فألحاني واحدة من أجراس القافلة) .

أنا مثل عرفي أطلب الالحان الشديدة الحادة ، لأن الحمل ثقيل والمسافرين نيام) .

أ ا الشاعر فهو عرفي الشيرازي ، من شعراء القرن العاشر الهجري الذين اضطهدتهم السلطة في الهند ، ارتحل اليها ووجد السبيل الى بلاط السلطان أكبر الذي مدحه ، له رسالة في التصوف تسمى رسالة نفيسة يميل في شعره الى الاغراب ، يعرف أسلوبه بالاسلوب الهندي (المعجم الفارسي العربي الجامع) .

العجم صاروا من أنغامي شبابا ،وغناهم زاد من تجارتي .

ان فريقا ضل في طريق الصحراء ، ولكنه صار ركبا من أنغام جرسي (1)

من ألحاني احترفت روح العجم ، فألحاني واحدة من أجراس القافلة .

أنا مثل عرفي أنشد الالحان الشديدة الحادة ، لان الحمل ثقيل والمسافرين نيام .

لقد أثرت للروح القلقة الخطيرة المشاعل ، وألقيت في صدر الشرق قلبا .

فاحترقت طينه من أنيني (اضطراب) ، لقد توغلت في أعماقه مثل البرق (2)

يصنع العقل من الفساتر الغليظ صحيفة ذهبية ،ويصنع من الحجر مرآة صقيلة .

وأن الشاعر بالحانه العذبة الساحرة ، يستطيع أن يحول مآسي الحياة الى ملاهي .

قد أكلت من شجرة الآس ، وانني أسير على أثر سحر الحياة (3)

تقهقر الشرق وطال سباته وغفلته عن جوهر الرسالة السماوية ،وعندما استفاق

من نومه وجد الغرب الذي كان تلميذا له يقفز أشواطا بعيدة ويخلق بينه

وبين أستاذه هوة سحيقة ، فراح يقلده في غثه وسمينه ،وكان هم

الدعاة والمصلحين كفه من عبودية الغرب وصرفه عن تقليده الأعمى ، ولكن

بعض المصلحين ومنهم اقبال تبين لهم أن الشرق لا يخاف عليه من عبادة الغرب

الخارجية بقدر ما يخشى عليه من تلك المعبودات المحلية الداخلية ، انه

يخاف عليه من عبادة العادات والتقاليد البالية ومن البدع التي أدخلها على

الدين الطاهر ،ومنها عبادة الاشخاص ،وعبادة الاضرحة والشيوخ والتي تقود

بدورها الى عبادة الغرب والاستسلام لكل بدعه ، يقول :

— أنت خائف من عبودية الغرب ، ولكنك تسجد أيضا أمام القبة والضريح ،

مثلما تعود تعلى عبادة الاسياد ، فقد تحنطت لتغسلك تمولى من شر طريقك

ويعود اقبال الى سياحاته الصوفية ،فيبين ان حبه للتجلي ولهفة روحه في

طلب أساليب عديدة للوجود ،وحد هما الكفيلان برسم صورته وأسلوب حياته

وهو الأمل في الفوز بالتجلي ، وكذلك حفنة تراب الانسان تحيا بالأمل

وعليه ، فعلى الرغم من يقينه بالمصير المحتوم وهو تبعثر حفنة ترابه ، فان

الأمل يظل رفيقا له ، يقول :

— انها روحي التي اختارت صورة الجسدي ،انه حب التجلي (هو) الذي أعطى

لهذه الوردة وجها آخر ،

فالروح مثلها في الطريقة في الوجود ، لأنها اذا طلبت أسلوبا واحدا تحولت

الى جسد (5) .

---

1 — رسالة الشرق ، ص 241 .

2 — رسالة الشرق ، ص 242 .

3 — رسالة الشرق ، ص 243 .

ستبعثر هذه الحفنة من التراب ولا تعيش سوى قليلا ، ولكن لا تفقد الأمل مع هذا ، فعندما تتحد الطبيعة جسدا ، لابد لاتمامه من سنين (1) .

الآن اقبال لاينسى مشاركة المسلمين محنتهم ، بل ان الدموع المتناثرة من أعينهم هي في الحقيقة دموعه ذرفها نيابة عنهم جميعا ، ولكنهم لايدركون مدى صبره ، ولايعرفون سر محشر روحه ، ولايطلعون رؤيته الى العالم ، يقول :

— دماء المسلمين في خفقان واضطراب من صبري ، ودموعي المتلألئة هي التي تتطاير من أعينهم .

فهم لايعرفون شيئا عن سر محشر روحي الى الآن ، ولايرون العالم مثل رؤيتي له (2) .

ان المسلمين مازالوا يتخبطون في عصبياتهم ، انهم لم يتحرروا بعد من القومية والعصبية للجنس والعرق والوطن ، متجاهلين أو ناسين أنهم لآدم ، وآدم من تراب ، يقول :

— أنت لم تتحرر الى الآن من قيد الماء والطين ، فانت تقول انك رومي وانني أفغاني .

فأنا أولا وقبل كل شيء آدمي بلا لون ولا رائحة ، ولست سوى بعد هذا هنديا أو تورانيا (3) .

وهذا مايحزن اقبال ويؤلمه ، لذلك ارتأى أن يختم به جانب الصحو والوعي من هذه المنظومة ليصل بعد ذلك السكر من العشق منتهاه ، ويصل به العشق الذروة فيعجز لسانه بعد ما خاض طويلا في دروب المحبة الوعرة الشائكة .

ويصل الكلام الى مرحلة يصبح فيها الحديث ضربا من الغموض واسدال الحجب عن حقيقة العشق ، انه مقام يكفي أن يعبر عنه الحال لا المقال ، انه جنون اقبال الحكيم الفيلسوف الذي أنهى به المنظومة ، يقول :

— لقد أدمت عذوبة كلام العشق كبدي ، وحولت غبار الطريق الى حفنة شرر

— الا أنني عندما أريد من شفتي الحديث عن العشق ، فان الكلام يجعل هذه السر أشد اجتجابا وخفاء .

— ذهب اقبال بعيدا عن العقل الحاذق ذي المواهب ، وصار قلبه الطيب من العشق ، فماذا تطلب من اقبال الذي يطوي الافلاك (السموات) ، فقد جن حكيمنا الفيلسوف (

---

1 — رسالة المشرق ص 246 .
2 — رسالة المشرق ، ص 247 .
3 — رسالة المشرق ، ص 248 .
4 — رسالة المشرق ، ص 249 .

د - أفكـــــار :

هـذه المنظومة ليست رباعيات وليست قصائد ، وليست مثنويات ، وليست تركيبات أو ترجيعات(1) ، ولكنها في الحقيقة هذه الفنون جميعا. شطت فنونا عديدة ، فكانت أشبه بروضة من الشعر متعددة الأزهار ، أوبستان يضم شتى الثمار وألوان النباتات ، وركبت من احدى وعشرين منظومة .

الـــوردة الاولـــى :

استهلها بالحديث عن وحدته وتميزه وتفرده ، وجد نفسه وحيدا بلا صديق لأنه كان أول القادمين الى عالم الحياة (أول ورود الربيع) في وقت مايزال فيه غيره نيام .

فكان اقبال باكورة أزهار الربيع ، ولكنه مع ذلك لم يحقق هدفه " الشهادة " ولم يتصل بعد بالثريا ، يقول :

- الى الآن وأنا لم أجد صديقا في هذه الروضة ، الربيع يقترب وأنا أول ورود قلبي مرتبط بالامس ، ونظري مرتبط باليوم ، وأنا أبحث عن الشهادة في التجلي غدا . تنفست من تراب معتم ، وليست ثوب الورد ، ولكنني غير متصل بالثريا (2) .

دعـــــاء :

قطعة توجه فيها اقبال الى الله سائلا اياه أن يجعل من العشق رأسمال له ، وان ينير من ترابه بعد موته ومن آلامه دروب الصحراء ، يقول :

- اجعل العشق رأسمال لي ، ومن أنفاسي الحادة حول تراب سيناء الى شعلة مستعر وعندما اموت أصنع من ترابي مصباحا متلألئا ، يحيا بآلامي المتجددة وينير دروب الصحراء (3) .

هـــــلال العيـــد :

كثير من الناس ينظرون الى الهلال طلبا لشهر جديد ، وكثيرون هم الذين لايعرفون ما الهلال حتى اذا دنا العيد راحوا يترقبونه بلهفة ترقبا للعيد ، غير مأخوذين لشكله ، غير متتبعين ميلاده ، واكتماله وفناءه ، القريبين لكماله وتمامه ، وفي هذه القطعة الصغيرة أشار اقبال الى تعلق النظراء

---

1 - سيأتي ذكر هذه الفنون وشرحها في الفصل السادس من البحث.

2 - رسالة المشرق ، ص 253 .

3 - رسالة المشرق ، ص 254 .

المشتاقة بالهلال ،والتي أنه يحمل في تمامه بذور نهايته ، يقول :

ـ يا هلال العيد أنت لاتستطيع فرارا من نظرات الشوق .

.. فانظر الى نفسك فان فقرك لن يقصرك .

فصدري صدرك يوجد البدر كاملا (1) .

تسخير الفطرة :

كثيرا ماشغلت قصة الانسان العقول وألهمت الاخيلة هي وقضايا أخرى عديدة شغلت الفلاسفة والمفكرين والادباء فهاموا في تصوير خلق الانسان من عدم ونفخ الروح وخروجه من الجنة وما الى ذلك ، وسعى كل واحد منهم بأساليب مختلفة في تصوير وتبرير وتعليل مراحل حياته ، اعتمد بعضهم على تصوره الخاص ، واعتمد البعض على سعة خياله ، كما اعتمد بعضهم على تصوره العقائدي لحقيقة الانسان ،أما اقبال فانه استمد أفكاره أولا وقبل كل شيء من القرآن الكريم ، واستقى تفاصيله من قصص القرآن ، فأحيا به بعضا من آي القرآن التي غفل عنها المسلمون .

قسم هذه المنظومة الى خمسة أقسام أو مراحل لكل واحدة عنوانها وقصتها وهي :

أ ـ ميلاد آدم ، تحدث فيها عما أحدثته خلق آدم في الكون وفي الطبيعة في السماء ،ورصد الجدل العظيم الذي وقع فيه ابليس وعناده وتطاوله على ارادة المولى الذي امره اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وكان من احتجاجات الشيطان قوله على لسان اقبال ، يقول :

ـ أنا لست ابنا غبيا للنار حتى أسجد لآدم ، فأصله من تراب وأصلي من نار .

لست أنا الذي يطلب منه السجود أمام أحياء ضعاف ، فأنا القاهر بلاجهنم

وأنا الالله بلا محشر .

من تراب معتم حقير خلق الانسان قليل العقل ،ولد بين أحضانك ولكنه صار ناضجا بين أحضاني (2) .

ولذلك جنّد الشيطان نفسه لاغواء آدم ، فأغراه بمملكة جديدة وعالم جديد ، يقول اقبال :

انهض وسأريك مملكة جديدة ، افتح عينيك جيّدا للتفرج بكل فخر وتيه .

ألا تعلم الى الآن أن الشوق يموت بالوصال (3) .

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 254

2 ـ رسالة الشرق ، ص 256 .

3 ـ [illegible]

فيستجيب آدم لاغرائه ويخرج من الجنة ،ولكنه يخرج منها غير آسف أو حزين ويخرج منها مبهورا بالدنيا لأنه شهيد البحث الدائم عن الحقائق وهو سبب خروجه من الجنة ، فلينتظر الى هذه الدنيا وليتأملها لعله يصل الى اليقين ، يقول :

ـ وما أجمل ألا نرى شيئا سوى واحد طيب ،وهو هجوم حقل من الورود على الانظار ، وأن نرى الضحوك المؤلم من حيث لا آخر يتميز عن الورد .

أنا كل نار غير مكتملة وكل بقية من أمل ، أدع الظن من أجل اليقين أنني شهيد البحث والتفتيش الدائم عن الحقائق (1).

وأخيرا صبح القيامة أو آدم في حضرة البارى صوّر فيها اقبال مثول الانسان بين يدي الله يوم القيامة ،وهناك وفي حضرة المولى عزّ وجلّ يتيه فخرا بأعماله فهذا فنّه سكب البحر في كأس ،وذلك فأسه فجرّ من الصخر الاصم المياه ، كان في الدنيا يوما ثم تدنى منها وهبط ،ولكنه تسامى بإرادته وبحثه من جديد حتى سما على الافلاك ،لقد أدى ما عليه وما بقي له سوى أن يطلب عفو الاله ومغفرته وتقبّل عذره عن ذنوبه ومعاصيه ان هو أخطأ السبيل بعد كل ذلك العناء ،وان هو خالف الصواب ،يقول :

ـ لقد سكب مني البحر في كأس واحد ، وفجرّ فأسي من قلب الصخرة الصماء نبعا . فكوكب الزهرة متيّم بي والقمر يغمني اليه من الولع ، والعقل الكبير أنقص من عطي لفتح العالم .

تدنيت الى أسفل الارض ،ثم علوت حتى الافلاك ، فالذرّة والشمس الضئيلة سجينة سحري ، فان أبعدني السحر عن طريق الصواب ، فتجاوز عن خطيئتي وتقبّل العذر عن ذنوبي ومعاصي (2) .

رائحة الورد :

قطعة من خمسة أبيات جعل فيها الشاعر روائح الورد وهي الذكرى الوحيدة المتبقية بعد أفول الورد تجيب على تساؤلات الحور ، وهي في حقيقتها تساؤلات كل الكائنات وتساؤلات الانسان ، فحتى الحور النورانية أضفى عليها اقبال احدى طبائع الانسان وأهمها وهي حبّ معرفة الخفي من الأمور ،حبّ اليقين حبّ التنقيب عن حقائق الاشياء والتطلع الى الخفي الغائب من الأمور. صوّرها

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص257.

2 ـ رسالة المشرق ،ص 258.

تسأل عن الوجه الآخر للحياة ،عن نصفها الثاني حيث السّحر والمساء والليل والنهار ،والموت والحياة وهي كلّها بالنسبة للحور رموز لابدّ من حلّها مادامت تجهلها ،وكانت الاجابة هدية أقبلت من عالم الموت والحياة ، من موجة من الروائح ومن برعمة استيقظت فتفتحت وصارت وردة ثم ذوت ،كما قال عمر الخيام :

وردة قصّت حديثا للصبا وانتفضت ، نشّت الثوب صباحا ثم مالت فقضت .
يا لغدر الدهر ،في عشرة أيام قصار ، برعما صارت، فصارت وردة ثم ضت . (1).

فلم تبق غير الرائحة ذكرى وجوابا بأنه كانت هناك حياة ثم انقضت، يقول اقبال :

ضاقت حورية بركن في الجنة فقالت ،لا أحد عرفنا بالوجه الآخر للحياة .
فأنا لا أعرف لا السحر ولا المساء ولا الليل ولا النهار ، وعقلي حائر في قولهم ما تولد .

أقبلت موجة من الروائح تجلت من أغصان الازهار ، فحطت الرحال هكذا بعالم آت ومان .

وفتحت ببرعمة عينا وابتسمت ، وتفتحت وردة ثم سقطت ورقة ورقة على الأرض .
لقد ذهب كل أثر لهذا العذب الدلال (الضحى) ، وبقيت منه آهة للذكرى هي مايسمى بالأريج (2).

نشيد الوقت :

اختار للمنظومة فن المسمط ،وتحدث فيها عن الوقت من تصوّر اسلامي اذ للوقت في الاسلام قيمته الخاصة ،وللمسلمين نظرتهم الخاصة له ،لأن الوقت في نظرهم هو الانسان ،وقد تفنّن علماء المسلمين وفلاسفتهم وفقهاؤهم وأدباؤهم في بيان قيمته .

وشاركهم اقبال في ذلك ،فانطلق الزمن وجعله يتجه بخطابه الى الانسان كاشفا له عن بعض اسراره وناصحا له بأن ينظر الى نفسه وقلبه وطاقاته .
فالوقت هو روح الانسان ،وهو عند عارفي قدره في مدن عامرة ،ليس بالبنايات أو ناطحات السحاب وانما بالصالح من العمل مهما كان نوعه ،وهو عند الجاهلين لقدره في صحراء خالية يحسبها في القصر كما يحسبها في الكوخ، هو دواء العارفين وداء

---

1 — عمر الخيام — الرباعيات — ترجمة خليل حنا تادرس — طبعة النصر ، ص 20 .
2 — رسالة المشرق ،ص 259 .

الجاهليين ، هو السيف الذي يقطع الحياة ولكنه أيضا عين الحياة (التي تهب الخلود) ، والانسان من رسمه وتخطيطه ، يقول :

ملأت الشمس حجري وأحاط صدري بالنجوم ، فلو تنظر الي فأنا لست شيئا قط ، ولو تنظر الي نفسك فأنا روحك .

أنا في الصدر وفي الصدور والقصور ، أنا الداء والدواء وأنا العيش الرغيد .

أنا السيف الذي يقطع الحياة وأنا عين الحياة .

ما الانسان ودنياه الا من رسمي وتخطيطي ، ومن دماء قلوب البشر يأخذ ربيعي ألوانه (1) .

والوقت هو القيم السيار وهو الذي بالتأمل في اليوم وما أنجز فيه يعرف سر الغد ، هو كوة الانسان وستر الله . فاذا جن المرء بمعشوقه وليكن ليلى فان الوقت هو الصحراء التي تحتوي ذلك الجنون .

هو خفي مثل الروح وحي مثلها ، فلا يستطيع الانسان أن يسأل عنه ، بكم وكيف مثلما يعجز عن السؤال عن الروح . هو مسافر جوال هدفه الانسان ، وهو العشق والانسان حامله وثماره . وأخيرا يتوجه الله الانسان الشريد التائه بالنصح وبأن ينظر الله قلبه البحر الذي لا ساحل له ، القيم في كأس ، وأن يوقن أنه من أمواج ذلك البحر يولد طوفان الزمن ، يقول :

— أنظر الله هذا الجانب الغريب ، فأنا قيم سيار ، أرى سر غدي في كأس يومي .

أنا ستر الانسان وأنا ستر الرحمن .

سحري التقدير والتدبير من سحرك ، أنت مجنون بليلى وأنا صحراء جنونك .

أنا مثل الروح الظاهرة بعيد عن سؤالك عن الكم والكيف ، فأنت ستر بأعماقي وأنا ستر بأعماقك .

أيها الشريد التائه من طيني وماء أنظر الى قلبك ، وتأمل ذلك البحر بلا ساحل وهو يستقر في كأس .

انه من أمواجك العالية يولد طوفاني (2) .

فصل الربيع :

هو بدور ، مبسط ، فيه دعوة صريحة الى الانسان ليتأمل الطبيعة وبخاصة في فصل الربيع حيث ينطلق كل شيء فيه ويكشف عن ستر الحياة ، وليكن ذلك التأمل بعين البصيرة لا البصر ، يقول :

---

1 — رسالة المشرق ، ص 260 .

2 — رسالة المشرق ، ص 260 .

ـ انهض فقد بسط الربيع استاره على السهل والحزن والجبال .

ألف نعل يتبرنّم

فقد غرّد البلبل والدراج والحمام

على حافة الساقية

فتعال للتفنن على

حقل الورود وروضة الازهار

انهض فقد بسط الربيع أستاره على السهل والحزن والجبال

ذر القعود في الديار واطلب الفيافي والصحاري

اجلس على شاطئ نهر

تأمل تدفق مائة وانسيابه

وانظر الى النرجس ذو الدلال والجمال

فلذات كبد نيسان في اختيال

ذر القعود في الديار واطلب الفيافي والصحاري

ـ انت يا من تجهل كل ظاهر للعيان افتح عين البصيرة

فالشقائق قد تجلّت حلقات في حلق

والنار قد علقت بأجزائها

وبللت أكبادها دمعة هطلت في انسجام

من ندى أدمع المحبر الجارية .

فانظر الندى وقد تجمع أنجما فوق الشقائق

انت يا من تجهل كل ظاهر للعيان افتح عين البصيرة (1)

لحياة الخلود :

في هذه القطعة (من 4 أبيات) وضّح اقبال سبل الخلود بلا خلود بلا عذاب ودماء ، ولا خلود بلا وخزات الشوك ، ولا خلود بلا قوة أو ثبات كالجبال ، يقول :

ـ اذا كنت تعرف سرّ الحياة فلا تبحث اذن ولا تأخذ (ولا ترض) ، قلبا طاهرا من وخز شوك الأماني .

عش متماسكا ومحكما مثل الجبال ، ولا تعش مثل الاعشاب الضعيفة لأن الشعلة قوية ملتهبة غير هيّابة (2) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 261 ـ 263 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 264 .

أفكار النجوم :

أربعة رباعيات (8 أبيات) صوّر فيها اقبال فضل الانسان الذي هو مجرد حفنة من تراب على جمال الكون ، فمع أن النجوم جوّالة ، مسافرة بالعظمة ، فانها تشارك سائر المخلوقات في تكريم الانسان والاعتراف بفضله ، لأنه الجوّال الذي لا يعرف قرارا ولأنه جعل الظروف والحياة على مقاسه كالنجوم ، يقول :

ـ وهذا الفضاء الرحب هو في نظرنا عديم الجمال ، فذلك الغبار الساقط عندنا أفضل منه .

ما أسعد ذلك الانسان الذي لا تملك روحه قرارا ، انه جوّال طريق الزمن الذي لا يهدأ .

فثوب الحياة صنع على مقاسه ، لأنه وليد الابداع الجديد الذي تفتح أمامه كل العهود (1) .

الحياة :

قطعة من ثلاثة أبيات عبّر فيها اقبال بأسلوب رمزي عن حقيقة الحياة وتبرك الكلام للطبيعة ، ألقى الخيط في يد الغمام والبرق الخاطف ، فالغمام لما كان طبعه البكاء الأزلي تصوّر الحياة بكاء أزليا فمرّد عليه البرق الذي يلمع لحظة ويختفي وسط بكاء الغمام بأن الحياة لحظة من الابتسام ، يقول :

ـ بكى (سحاب) غمام الربيع وانتحب في جنح الليل وقال ، ان هذه الحياة بكاء ازلي .

فلمع البرق الخاطف أن ، قد أخطأت ، انها لحظة من (الضحك) الابتسام .

ليست شعري من تقل الى الروض هذا الخبر ، فهو حديث مستمر بين الوردة والندى (2) .

محاورة العلم والعشق :

قطعتان من الشعر استهلهما اقبال بتطاول العلم باختراعاته التي قيدت الزمن وجعلته ـ كما يرى علماؤه ـ في غنى عن الجانب الآخر من الدنيا مادام الجانب المادي قد تكشف له ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 265 ـ 266 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 266 .

ـ نظرتي تحتوي أسرار العوالم ، وفي قيد ي صار المزمن سجننا ،
وعيني مفتوحة على هذا الجانب من الاشياء ، فماذا أصنع بالجانب الآخر اذن (1)
فيرد العشق عليه ويكشف له سقطاته وأضراره وضعته بعد رفعة وسمو واستلامه
بعد طهر لحبائل الشيطان ، ويتحداه ان كان يقدر على تحويل اليباب الى
رياض وعلى تحويل المشيب الى شباب ، ويتحداه أن يجعل هذه الدنيا جنة
خالدة ، ثم يعيّره بتمرده ، وقد كان رفيقا له ، يقول :
ـ من سكر سحرك توهجت البحار وسجرت ، وتسنم الجو واحترق الهواء
عندما كنت صديقي كنت هيئا ، فلما انفصلت عني صار نورك نارا .
ولدت في حرم العالم الآخر ، ولكنك سقطت في حبائل الشيطان (2) .
تعال واجعل من هذا اليباب رياضا ، وحوّل مشيب دنيانا الى شباب جدد .
تعال و خذ من قلبي ذرة ألم ، لتجعل من هذه الدنيا جنة خالدة .
لقد وجدنا منذ يوم الخلق (البدء) فنحن والدهر رفيقان ، وكلانا اللحن
الخالد واللحن الخطير من نغمة واحدة (3)

أغنية النجوم :

الكون في التصور الاسلامي كيان متآلف ، متناسق ، متناغم الأجزاء
والعناصر ، فالليل ليس ثوبا من ظلام وانما هو كائن يدور ويخلق النهار ،
والجبل ليس صخورا صمّاء جامدة والنجوم ليست مصابيح تهدي السبيل فحسب
انها جميعا كائنات حية ، ويكفي لاثبات حياتها أنها تسبّح الرحمن وتعلن
طاعتها له ، والاديب المسلم هو الذي يفهم بقلبه الحي الحديث الكون ولغته
الخاصة التي لايفهمها الا هم . وهذه المنظومة حديث للنجوم المسافرة
الناظرة بعينها الى العالم والمنتقدة لبعض ظواهره ، حديث نقله الينا
اقيسال حتى لنخالها هي المتحدثة .
انها تتأمل الوجود ، ولكن ذلك التأمل لايمنعها من مواصلة مسيرتها وأداء أمانتها
في الكون لذلك فهي ترمق الاشياء والاحداث وتمضي لحالها صامتة واجمة ، تنظر
الى صراع الحياة وتمضي لحالها ، وعينها ترى خطايا المجرمين التي طالما
دبرت تحت جنح الظلام حيث لاترقبها عين بشر ، ولكن عين النجوم أبصرتها
ونظرت الى الخطايا ، ونظرت الى العروش والتيجان والى المشانق ، وهي تسخر
كما يسخر الانسان لافول زمن الاسياد وخدمة العبيد وسيطرة الملوك ،

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 267 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 267 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 268 .

يقـــول :

حـرارة المعـارك ، خطـايـا غـفـلـة المجرميـن المجـربيـن ، التيجـان والعروش والمشـانـق ، وذلـة السـلاطيـن .

ولعبة الدهـور ، تنظـر ثم تمضي لحالنـا ، زمن تفـوق الاسياد انتهـى ، وزمـن خـدمـة العـبيـد انقضـى ، هيمنـة القياصـرة ولّـت ، وعـهـد الاسكندر مضـى ، ومراسيم اتخـاذ الاصنـام زالـت ، تنـظـر ثم تمضي لحالنـا . (1) .

كما تنظـر النجوم الى سنة اللـه في كونـه في جمعـه بيـن المتناقضـات : الأرض خرسـاء جامـدة ولكنهـا أيضـا متحـركـة وحيـة ومصدر لحيـوانة كثيـرة ، تنظـر الى سنة اللـه في خلقـه ، وتـداخـل التناقضـات في حياتهـم ، فـمـرة تقـام الافـراح ومـرة تحمل الجنـائـز على الاكتـاف ، وهكـذا ، يقـول :

الارض الخـرسـاء الجامـدة وحركتهـا ، طبيعـة الضعـف التـي تنحـو الـى القـوة تـارة تعقـد محـافـل الافـراح ، وتـارة تحمل الجنائـز على الاكتـاف ، أميـر الدنيـا وعبـد هـا تنظـر ثـم تمضـي لحالنـا (2) .

وبمـا أن الانجـم دائمـة النظـر ، فانهـا تعرف بعـض طبـائـع الانسـان ، لـذلك تخيلهـا الشاعر تتجـه اليـه بالانتقـاد ـ الـذي هـو انتقـاده ـ لأن عقلـه وقـع في شبـاك السـؤال الغامض كيـف و كـم ، كما تتعجـب مـن ضعفـه وغـرقـه وتـعـود لتفهـم الانسـان شيئـا قـد يخفـى عليـه وهـو ان عـالمهـا يختلـف عـن عـالمـه ، فمـا يـراه كثيـرا ، عنـد هـا قليـل ، ومـا يـراه سنـة تـراه ثانيـة ، يقـول :

لمـاذا الحجـب؟ ومـا الظهـور؟ ومـا أصـل الظـلام والنـور ؟ مـا العيـش ، مـا القلـب؟ مـا الشعـور؟ مـا طبيعـة الـلا صيـر والضجـر؟ مـا هـذا التقـارب والتبـاعـد؟ ، تنظـر ثـم تمضـي لحالنـا ، كيـمـرك قليـل عنـد نـا ، وحـولـك ثـوان عنـد نـا (3) .

نســيـم الصـبـاح :

قطعـة من ستـة أبيـات واصـل فيهـا حـديثـه عـن رسالـتـه الكـون ، فللنسيم أيضـا لغتـه وحيـاتـه وأسـئلتـه ورسالتـه في الحيـاة يـؤديهـا بكـل أمـانـة واتقـان . انـه رسـول الكائنـات الـذي ينثـر على أعشـاش الطيـور أزهـار الياسميـن الفضيـة ، ويبعـث في الشقـائـق الألـوان والـروائـح ، أمـا اذا طـاف بـالـبـرية ومـا فيهـا فـانـه ينحنـي ويترفـق وهـو النسيـم (الخفيـف) ويحتـال حتـى لايثقـل كـاهـل الشـقائـق وأكمـام الـورود

---

1 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 269 .

2 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 269 .

3 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 270 .

وليس من هذا كل عمله ، فانه أيضا رفيق كل شاعر محزون ، يقول :

اتقلّب في المرج والتف على أغصان الشقائق ، فيهيج فيها اتصالي الألوان والروائح .
وحتى لا تنحني الاغصان من حركتي ، فاني أمر رفيقا في هدوء واحتيال على أوراق الشقائق وأكمام الورود .
واذا رأيت شاعرا هاجه غم العشق ، خلطت بنغماتي نفسا بعد نفس(1)

نصيحة صقر لفرخة :

مثنوي من اثنين وعشرين بيتا ينصح فيه الصقر فرخة بالطريقة المثلى في الحياة ويبين له شروط بلوغها من قوة وصلابة وصبر على المحن واعتماد على النفس ، واعتدال وعقل وحكمة ، وجرأة وترفع عن مبارزة من ليس ندّا (كالحجل والزرازير) واحترام قوانين الصيد ، يقول :

— أنت تعلم أن الصقور من جوهر واحد ، تملك قلوبا شجاعة قوية ، مع أنها حفنة من ريش .
فكن معتدلا وعاقلا حكيما ، وصبورا وغيورا ، مقداما (جريئا) .
لا تبارز الحجل والتدرج والزرزور ، فاذا لم تكن لك رغبة في الصيد فدعها .
ان ذلك الصقر سوف يصير فريسة لصيد نفسه ، اذا هو لم يحترم قوانين الصيد .
دع للدراريج نعومة الاجساد ورقتها ، ولتكن مخالبك حادة مثل قرن الغزال .
فمتاع الحياة وسعادتها تملك ، انما يأتيان من صلابتك وقوتك ومن صبرك على المحن ومثابرتك (2) .

ويفضل هذا النضام المميز في الحياة ، من بحث الصقر عن الوحدة وعزوفه عن اتخاذ عش أو مأوى ، واتخاذه من الجبال والصحارى جنة ، ورفضه لطعام الآخرين بفضل هذه جميعا تكون قطرة من دمه أفضل من الياقوت الخالص ، ويكون اينما للصقور الرفيعة الأصل ، القريبة من العنقاء ، ويكون جديرا باتسان عين النمسر ، يقول :

— لقد قيل أن العقاب وحده ، له غداؤه ، وان قطرة من دمه أفضل من الياقوت الخالص فلا تبحث عن التجمّع مثل النعام والغزلان ، ولكن أبحث عن الوحدة والتفرّد مثل أجدادك .
ولا تقنع أبدا في الحدائق والحقول ، فان لنا جنة في الجبال والصحاري .
أنت من فصيلة صقور الصحراء ، ذات الأصل العالي الرفيع مثل أصل العنقاء .
فالفتى الاصيل في المحن المجرّب المحنك ، جدير باتسان عين النمر .

---

1 — رسالة الشرق ، ص 271 .
2 — رسالة الشرق ، ص 272 .

لا تأخذ طعامك من أيدي الآخرين ، كن شهما نبيلا وتقبّل نصيحة النبلاء (1)

سموس الكتاب :

قطعة من خمسة أبيات حطها اقبال فلسفة الحياة ، فالناس تسمي الفلاسفة حكماء ، ولكن سموس الكتاب الذي هو أكبر ملازمة للكتاب ، بحثت بين طيات مؤلفات كبار الفلاسفة أمثال ابن سينا والفارابي عن حكمة الحياة وتعجب اذ لم يجدها .

فجاء ، الجواب من فراشة مجرّبة مجاهدة احترق نصفها ، انه لن يجد ضالته الا في السعي والجهاد ، يقول :

— جلست على أوراق كتب ابن سينا ، ونقبت كثيرا في مخطوطات الفارابي ولكنني لم أفهم حكمة الحياة ، هكذا أقضي أيامي بلا نور وفي نفس الظلام حتى قالت الفراشة المحترق نصفها ، انك لن تجد هذه الحكمة في كتاب (2)

الكبريتا وانفجر :

قطعة من ستة أبيات تصور فيها هزيمة كل متكبّر ، رامزا له بالجليد الذي تساول على مجرى الماء ، مسوطين اقامته ، فما كان من المجرى الا أن أخذ نفسه وغادر قطعة الجليد ، ناصحا لها أن تحفظ نفسها من الشمس المنيرة يقول :

— أنت تمشي في وقاحة وبلا أدب ، وتسير في تهور ولا مبالاة ، وفي كل سنة تبدو أكبر جبرا وجسارة وأشد ضلالة وشرودا .

— أجاب المجرى : لا تقل مثل هذا الكلام المحرق للقلب ، دع التيه والخيلاء ودع الغرور والتعالي اني أجري لانني لست من هذه الفصيلة ، أما أنت فاحفظ نفسك من الشمس الساطعة (3) .

الشقيقة :

قطعة من ثمانية أبيات تحكي فيها الشقيقة قصتها وعذابها في العشق الذي جعلها تتنفس قبل مجيء البلابل والفراشات ، وجعلها أغلى من الشمس ، فالملك انما أخذ شرارة من احتراقها ، كانت سجينة أكمام ، تعاني

---

1 — رسالة المشرق ، ص 272 — 273 .
2 — رسالة المشرق ، ص 273 — 274 .
3 — رسالة المشرق ، ص 274 .

من أجل الوصول الى مرحلة الألوان والروائح ، ولكن ذلك التوبة ثوب وجودها الذي كفنها ثمنا غاليا ، سقط عنها فظلت تسأل عن أوبته ، يقول :

ـ وأنا أغلى من الشمس اذ في جسدك ذرة لي ثمورة ، والفلك الدوار انما أخذ شراره من ناري .

لقد تجرعت في السجن الكثير من الألم والعناء ، حتى وصلت نفسي في الاخير الى تجلي الألوان والروائح .

سمع البلبل بأنهم أخذوا شعلتي ، فبكى وقال : لقد كلفت ثوب الوجود الشقيقة غاليا (1) .

الحكمة والشعر :

قطعة من ثلاثة أبيات ، فرق فيها بين الحكمة والشعر ، فشرط الشعر حرقة في القلب ، ان عدمها تحول الى حكمة وفلسفة ، يقول :

ـ اذا تجرد الحق من حرقة فهو حكمة ، وانما يصير شعرا حين يقبس من نار القلوب (2) .

اليراعة :

مستمط مخمس من تسع وحدات ، واليراعة رمز العشق ، فهي تملك شعلة من نار تجعلها في احتراق دائم واضطراب ، كما أنها رمز الاعتماد على النفس لأنها تستمد حرقتها من نارها ، وتنير طريقها بنورها ، وهذا مايجعلها تتميز عن الفراشة العاشقة المقتصرة في احتراقها الى نار الآخرين ، يقول :

ـ أيتها اليراعة أنت كل نور ، في ظلام الليل أنت مشعل ليل الطيور ، أي شعلة ، هذه التي تجعلك دائما في احتراق وهيام واضطراب ، وفي طلب دائم للحرارة (3) .

الحقيقة :

قطعة من ثلاثة أبيات ، هي ليست أي حقيقة ، انما حقيقة الانسان وحقيقة الفؤاد الذي بين جنبيه ، الفؤاد الدائم الاضطراب والخفقان .

ـ الحداء ـ غناء حادي الحجاز :

مستزاد من ثمان وحدات ، فيه تخال اقبال رجلا حجازيا يسوق ناقته وينشدها ليستحثها على المسير ، وقد كان نشيد ، حداء عربيا ، حداء أهل الحجاز .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 275 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 276 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 277 .

وكذلك كانت ناقته «وكانت كل مايملك وكانت سعادته والجبل الذي مابعده جمل ، فالحور تحسدها ، يقول :

ياناقتي السيارة ، ياغزالي الحري ، يادرهمي وديناري ، يا فاتنة سالبة للقلوب ، يامحسودة الحور ، ويا غيرة ليلى ، يا سليلة الصحراء ، حبي الخطى سريعا منزلنا قريب (1) .

واقبال اذ يستحث ناقته على السير بذلك الحداء لاينسى أن يطلب منها مزيدا من السرعة فقد طال به الشوق الى هدفه ، انه في طريقه الى الحرم ولابد ان يترنم بكل أشكال الحداء علّه يقترب من هدفه ، وكم قطعت هذه الناقة من الصحاري وغاصت في سرابها ، وكم جهلت طعم النوم ، انها كالسحابة العابرة في سرعتها ، وكالسفينة بلا شراع ، يؤلمها التوقف ، تنيم القمر وتبقى صاحية لاتنام ، لأنها ستصل أخيرا أو ستسجد في الحرم أخيرا ، يقول :

في وهج الشمس ، كم غصت في السراب ، وفي الليالي المقمرة ، سرت سريعا كالشهاب ، وعينك تجهل طعم الرقاد ، حتى الخطى سريعا ، فمنزلنا قريب

يا ناقة قوية أنت سحاب عابر ، ياسفينة بلا شراع ، ويا من عندك كل صعب يسير ، ياقلبي كبيد الحادي ، حتى الخطى سريعا ، فمنزلنا قريب ... يا من ستسجد يدين في الحرم ، حتى الخطى سريعا فمنزلنا قريب (2) .

قطرة الماء :

مشنوي من أحد عشر بيتا ، حمّلها اقبال نظرته الى التناغم الذي بين عناصر الوجود ، ان كلّ مافيه أشبه بقطرة ماء وان تناهى في العظم ، ان عرف قدره وأدى وظيفته التي خلق لها بلغ درجات الكمال ، وان حطّ من قدر نفسه واستصغر شأنها ورأى أنها مجرد قطرة ماء لاتغني ولاتسمن أمام من هو أكبر منها فانه لمذاته بالتدني والهبوط الى الدركات ، وكذلك قطرة الماء التي صوّرها اقبال وقد خجلت من البحر ورأت أنها أمامه عدم ، ولو تأملت قليلا لعرفت فضلها على البحر ، فبينما هو قائم في مكانه لايبرحه تسافر هي وتسير بأطوار عديدة قبل أن تصل اليه ، تستأنس الليل وتتفرس الصباح تسر الرياض والصحارى والسهول لأنها تهبط عليها فتحييها ، ولو فكرت قليلا بعد هذا التمييز والامتياز ، لعرفت أنها ابنة البحر ، فكيف تخجل من العودة الى مصدرها ولعاد تالف أحضانه لتتحول وقد عرفت قدرها الى جوهرة ثمينة يقول :

---

1 ـ رسالة المشارق ، ص 279 ـ 280 .

ـ سقطت قطرة مطر من غمامة ، فخجلت عندما رأت فجاج البحر .
أهذا هو البحر الذي أرغب أن أكونه ، اذ كان هذا هو البحر حقا فمائي عدم
اذن (فما وجود لي) (1) .
فأجابها البحر : ما أنت الا وليدة أمواجي المتلاطمة السريعة ، خرجت مني وهما
قد عدت الي ، فاستريحي قليلا في أحضاني ، مثل الجوهرة الخالصة
تغيبين في سرائري .
بمثل صيرني جوهرة تحيا في اعماق بحر القلزم ، وعيشي حياة أسمى من
حياة القمر والنجوم (2) .

محاورة بين الملك والانسان :

قطعة من ستة أبيات ، وفيها يعاتب الله المخلوق الذي كرّمه وأمر
له بالسجود ، يعاتبه اذ حقت فيه كلمة الملائكة "يفسد فيها ويسفك الدماء" (3)
ـ خلقت العالم من ماء وطين ، وأنت خلقت تتارا وفرسا وزنجا
خلقت الحديد الخالص من تراب ، وأنت خلقت سيوفا وسهاما ومدافع
وخلقت فأسا لنحر الرياش ، وصنعت قفصا لطائر مغنّي (4) .
ولكن الانسان لا يعترف بافساده في الأرض ويتيه فخرا بعقله الذي أبدع به
في الكون ويعدّد صنائعه فيه ، يقول :
ـ الليل أنت خلقته وأنا الذي صنع السراج ، والطين الحقير أنت خلقته وأنا
الذي صنع الكؤوس .
خلقت الخضرة والبيد والجبال ، وأنا صنعت الشوارع والحدائق والجنان .
أنا ذلك الذي صنع من الصخر المرايا ، وأنا ذلك الذي صنع من السمّ الدواء
المستساغا (5) .

كتاب الساقي :

قصيدة الساقي وقد جلس في سعادة ونشوة بحديقة كشمير (6) ، في هذه
القصيدة جلس الساقي يتأمل جمال طبيعة كشمير يسرق عن روائعه ، ويدعو
الى تأمل الطبيعة التي خلقت لتسعد الانسان ، يقول :
ـ ما أجمل الحياة ، ما أجمل الربيع الجديد ، فكوكبة النجوم انبثقت من روضه .

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 232 .
2 ـ رسالة الشرق ، ص 233 .
3 ـ سورة البقرة ، الآية 30 .
4 ـ رسالة الشرق ، 284 .
5 ـ رسالة الشرق ، ص 284 .
6 ـ هذا عنوان ثاني كتبه الشاعر تحت العنوان الاول للمزيد من التوضيح .

وأرض هذا الربيع مزركشة مثل جناح السندرج ، ونافورة المياه تلقي بنسلال من الالماس .

أرأيت البراعم وهي تتلوين على حافة النهر ، أي جمال رأيت؟ وأي شيء تأخذ العرآة منه .

أي ألحان عذبة وأي صوت آسر للقلب ، هاته التي أتت من خلوة الاغصان المتشابكات .

حتى ليقال ان الله قد بعث جنة ، على سفوح الجبال وفي الهضاب والتلال ، لتحرير رحمته أبناء آدم من الضجر (1)

ولكنه ينتقد سلمى كشمير على عبوديتهم وخواء قلوبهم ورضاهم بالذل والهوان ويدعو لهم بخمرة صافية من خمر جنة كشمير لعلها تحييهم ، يقول :

— لقد قيد الكشميريون بالعبودية وأوخدمة ، أصنام نحتوها من حجارة الاضرحة فضمائرهم خالية من الخيال السامي الرفيع ، وهم يجهلون أنفسهم ويخجلون من أنفسهم .

نصباء أجسادهم من اللبائر أسمال بالية ممزقة ، وسيدهم من بحنتهم يلبس أثواب الحرير .

فلا تنعكس في أعينهم نظرات متألقة ، ولا يخفق في صدورهم قلب لا يعرف القرار فانتشر من تلك الخمرة قطرة على أبناء كشمير ، فلعلها ينبعث من ترابهم الحقير شرار (2) .

السمكة والسمكة :

قصيدة من ثمانية أبيات ، ترك فيها اقبال المجال للصقر ، لكي يبين عن حقيقة الحياة الاسمى والارفع ، مثل حياة الصقور ، فكانت منه كلمات احترقت منها السمكة الخائفة الضعيفة ، يقول :

— من حرارة الكلمات احترقت السمكة الصغيرة ، فابتسم الصقر وطار بعيدا عن الساحل ، وصاح قائلا : انا صقر فماذا أعمل فوق الأرض ، فمهما تكن الصحراء والبحر ، فهما تحت جناحي .

ارتفعي عما سطح الماء فالافق الرحب مسخر لك ، انهما حكمة دقيقة لا ترى الا بعين حادة النظر (3) .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 285 .

2 — رسالة المشرق ، ص 286 .

3 — رسالة المشرق ص 287 .

اليـــراعـــة :

قطـــعـــة مـــن ثـــلاثـــة أبـيـات ،أكـد فيهـا مـرة أخـرى أن اليـراعـة رمـز الاعتمـــاد علـــى النفـس فـلا هـي فـراشـة تهفـو الـى نـار الآخـريـن ولا هـي نحلـة تـؤذي الآخـريـن ، يقـــول :

سمعـت يـراعـة تقـــول ، أنـا لســت نحلـة تـؤذي الانـام .
أستطيـع أن أحتـرق بـلا منّـة مـن الآخـريـن ، فلا تتخيّلنـي فـراشـة تهفـو الى الاحتراق (بنـار الاخـريـن) (1)

الـــوحـــدة :

مـــســـمـط مخمـس ، هـي وحـدة اقبـال الـذي قصـد البحـر بـأمـواجـه المتلاطمـة ، والجبل الشامـخ ،والقمـر (فرس السمـاء) فضـت جميعـا فـي صمـت ولـم تقـل شيئـا ، فبقـي اقبـــال فـي وحـدتـه الـى أن تجاوزهـا جميعـا ووصـل الـى الحضـرة الالهيـة ،وبـاح للبـاري بتفرّد ، ووحـدتـه فـي هـذا الكـون فتركـه فـي وحـدتـه ولـم يحـر جـوابـا غيـر ابتسـامـة الرضـا (عـن الانسـان) ،يقـول :

ـ ذهبـت الـى البحـر وقلـت لأمـواجـه المتلاطمـة ، أراك دائـم الطلـب فـأي مشكلـة لـديك ؟
ان فـي صـدرك آلاف اللآلـئ الـلامعـة ، فهـل تملـك مثلـي درّة فـي الصـدر ؟
اضـــطربـت أمـواجـه وجـزرت عـن السـاحـل وعـلى ولـم يقـل شيئـا .
تجاوزت الشمـس والقمـر الـى الحضـرة قـائـلا ، ليـس فـي دنيـاك ذرة واحـدة لـي صـديقـة .
هـي دنيـا خـاليـة مـن القلـب ، مـع أن حفنـة تـرابـي هـي القلـب ،وجـثتـك طيبـة ولكنهـا لـم تتغـذ مـن ألحـانـي .
فتبسـم ولـم يـقـل شيـئـا .(2).

قـنـطـرة النـسـد ى :

مـتـزاد مـن تسـع وحـدات ، يضـم مجمـوعـة مـن الاسئـلـة المحيـرة ، الـتـي تخـامـر ذهـــن كـل قليـل يقـسـيـن ،واجـابـات عنهـا أبـدعهـا خيـال اقبـال وفكـره معـا . هـي أسئـلـة طـرحتهـا كـائنـات وأجـابـت عنهـا أخـرى ، يقـــول :

ـ قـالـت لـي الـوردة : علام تـدلّ جلبـة الطيـور في السحـر ؟ ، ولمـاذا هـم مجتمعـون بانتظـام علـى الشجـر ؟
مـا السّـفـل مـا العلـو ؟ مـا الخفـي ؟ مـا الجـلـي ؟ ، لمـاذا شـوك الـورد ؟ مـن أنـت مـن أكـون ؟ ولمـاذا أصبحتنـا ؟

---

1 ـ رسـالـة المشرق ، ص 288 .
2 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 289 .

لماذا يجلس فوق غصني هذا السطائر الصغير المطرب ؟ ، ماهدف الغنا ؟؟
ماهدف ريح الصبا ؟ ماهذا العالم القديم ؟ .
وكان جواب قطرة الندى : ان الرياض هي حقل صراع الحياة ، هي حفل ينتهي بلذة الفراق ، النفس؟ انه لحن دافئ ، الروح ؟ انها كاشفة الحجب ، انها سرّ الهي ، (وتسألين) ما السفل ما العلو ؟ ، انها خدعة أبصارنا (1).

العشق :

قصيدة من ثلاثة عشر بيتا ، عادة مايطلب العشق عند المتصوفة بارشاد شيخ ولكن اقبال العاشق كان مرشدا نفسه عندما خاض طريقه بلا خضر وبلا متاع ، لا شيء معه سوى خياله ، ولكنه وصل في الاخير وغرف من فيض العشق فسما بترابه نحو العرش ولم يعد يعرف شيئا سوى حكايا ت العشق ، ولم يعد يعرف شيئا اسمه القبح ، فقد تحوّل قبحه الى جمال ، يقول :

ـ جدّ فكري في السير والطلب ، حط الرحال في الدير والحرم
كم عدوت في صحراء الطلب ، وأرخيت الذيل كالريح في انتظام
بساحت أنا بلا ارشاد الخضر عن الهدف ، أحمل على الظهر خيالي متاعا للسفر .
... ولكن فاض فجأة عشقك من قلبي ، وحلّ فجأة كل مشاكلي .
... عرفتني معنى الوجود والعدم (جعلني مطلعا على ...) ، وجعل من معبد قلبي حرما .
فقد سموت بترابي الى علو العرش ، وأودعت من ذ لك السرّ بقلبي
أوصلت سفينتي الى الساحل ، فاض قبحي وصار بحرا من جمال
فأنا لا أملك حكاية سوى العشق ، كما لا أملك الصبر على العلامة في آلامه وبلواه (2)

اذا كنت تطلب الحياة فعش في خطر :

تركيب بند من بندين ، لخصّ فيه مذهبه ومذهب كل صوفي في الحياة وهو العناء والمعاناة والتعب ، طريق آمن وان كان الى الحرم على العاشق حرام وبحر آمن السير حرام ، وحياة بلا احتراق واشتياق واضطراب حرام ، وقد سجل هذه الافكار في حوار بين غزاليين يطلب أحدهما الأمان في الحرم حيث لا يكمن صيّاد ، فيجيبه الآخر بأن حياة الخطر هي السبيل الى معرفة حقيقة الانسان ، يقول :

ـ فقال له رفيقه : أيها الصديق العاقل ، اذا كنت تطلب الحياة فعش في خطر .
واشحذ نفسك في كل حين ، وعش أمضى من السيف الوضاء الأصيل .
ففي الخطر امتحان للقدرة على الصبر ، وذلك هو العيار الذي تعرف به الارواح والاجساد (3)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 291.
2 ـ رسالة المشرق ، ص 292.
3 ـ رسالة المشرق ، ص 293.

دنيا العمل والحركة :

قطعة من ستة أبيات : هي دنيا عمل وحركة ، أساسها طلاق العلم وافساح المجال لعمل الروح دنيا هي حانة لا تبوح فيها الا لشفاه بالاسرار وانما قطرات الخمر فيها هي التي تتحول الى كلمات ، يقول :

ـ هذه حانة قد وجهت اليها الدعوة العامة ، وقسمة الخمر هنا تكون بمقياس الكؤوس (هنا)

وكلمة السر تلك التي لم يفه بها صوت الى الآن قطرت من حافة الكأس وصارت كلمة هنا .

أنت يا من تحرص على أخطائك وتحفظها (تخلص لها) ، ان كل ما بدا لك ساكنا فهو في حركة هنا .

فعلينا أن نغادر المنزل حتى نظل في البحث والطلب الدائم ، فقد أخرجنا العلم من الروح وعلمنا .(1)

الحيـــاة :

قطعة من خمسة أبيات ، عرض فيها الشاعر لرؤية الشيخ الصوفي الى الحياة فالذي يراه الانسان العادي البعيد عن الاسرار شرا يراه هو خيرا .

فاذا رأى أن الدودة قطرت عطى الشر يجيبه الشيخ بأنها ابنة النار مثل العنقاء وبأن الدودة ترى في ذلك الشر الذي يلحظه فيها الانسان خيرا .

واذا مل من السفر اذ لم يحطه الى هدف فان الصوفي يكفي عنده أنه مسافر بأشواقه وأحلامه وان لم يصل الى الهدف فذلك أحسن لأنه يظل في سفر دائم ، يقول :

... فقلت له ، ان دودة أطلت من تحت الثرى ، فأجاب هي ابنة النار مثل العنقاء .

قلت قد قطرت طبيعتها على الشر ، فقال : أنت لا تعلم أن هذا الشر هو عندها خير .

فقلت : ان شوق السير لم يحطنا الى هدف ، فأجاب : ان ذاك الهدف مضمر في الشوق نفسه (2)

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 295 .

2 ـ رسالة الشرق ، ص 295 .

حكمة الغرب :

مئتي من عشرة أبيات، دعا فيه اقبال الى لفظ كل ماجاء من الغرب ومواراته تحت الثرى لانه وان ادعى العلم يبقى كبقية الناس يجهل الاسرار التي اختص بها الخالق والفن الذي من أمره ، مثل فن بعث الروح وقبضها الذي يبقى علم الغرب قاصرا عن فهمها وعاجزا عن ردّها ، بل ان علمه أحدث خرابا في العالم وهو مايوجب تركه ، وان الموت حواهم وحوى ذلك العلم ، يقول :

ـ لا أحد يملك كمالا في هذا الفن (قبض الروح) ، ولا أحد يعلم فن بعث الروح .
قد أبدع الغربيون نوادر المعارف وأعجبها ، وغاصوا الى أعماق البحار .
ورسموا دائرة الحياة بفرجار الفكر ، ولكن الموت حوى كل حكمتهم .
فلا تنظر الى عين الدنيا ولكن أنظر الى الشمس ، فقد أخفت الايام من غازاته الدوارة (عيست)
وهذا الذي بعث في بلاد الغرب قديم جاهل ، فاسحبه الى القبر فوراً (1)

الحور والشاعر :

قطعتان من عشرة أبيات سجلهما اقبال ردّا على قصيدة غوته "الحور والشاعر" عبّر فيها عن طبيعة الانسان الطلب فكلما تحقق له أمر طلب الاسمى منه والارفع فحتى الجنة التي هي أسمى الامنيات يرغب عنها ويطلب الاسمى منها ومن حورها انه الفوز بالتجلّي ، في القطعة الاولى تدعو احدى حور الجنة الشاعر وتعلن اعجابها بشعره والحانه وانغامه كما تعبر عن تعجبها من اعراضه عن الجنة وما فيها ، يقول :

ـ أنت لاتملك رغبة في الخمر ولا في النظر الى جمالي ، عجيب أنك لاتعرف مراسيم المحبة .
أنت بأغانيك والحانك تخلق عالما عجيبا آسر القلوب ، عالم تبدو أمام عينه طلسما وسحرا (2) .

فيجيبها الشاعر بأن الجنة لا تلبّي حاجته لأنه لايبغي القعود في المنازل ، وبأن قلبه يبحث دائما عن صورة أحلى فاذا بلغ الشور طلب نجوما ، واذا أدرك النجوم

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 296 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 297 .

طلب الشمس، انه عاشق وقلوب العاشقين لا تحتمل البقاء في الجنّة حيث لا عذاب ولا غم ولا حزن ، يقول :

ـ تخذ عيني قلب سالك مريد بكلام لاذع ، ... ماذا أعمل وطبيعتي لا ترتضي للقعود في المنازل .

انّي كلما استقر نظري ، وسلبت عيني صورة مليحة ، خفق قلبي (ذلك الشبيه بقلبي) باحثا عن صورة أحسن .

طلبت في الشرر نجمة ، وبحثت في النجم عن الشمس ، انني ليقلقني القرار ، فليس لي هدف أو منزل (وموتي في استقرار) .

تموت قلوب العاشقين في جنة الخلد ، هناك حيث لا وجود للحب حزن ولا غم ولا مواساة (1) .

الحياة والعمل :

قطعة من بيتية أجاب بها شاعر الالمان "هاتنا" وأبان له عن معنى الحياة وكأن هم اقبال في هذه المنظومة هو الاعراب عن فلسفة الحياة عنده ، منها ان الحياة هي السير الدائم والسفر المستمر ، وان التوقف عدم ، يقول

فقال الموج في صخب شديد وسير ، وجودي في ان أسير ، ووقوفي هو عدمي (2) .

الملك للملك :

قطعة من ثمانية أبيات ، ولكنها مع قصرها قد مثلت قصة من قصص التاريخ الاسلامي وأحيتها بعد موتها في قلوب المسلمين الغافلين ، ولنترك القطعة تعبّر عن نفسها ، يقول :

ـ عندما أحرق طارق السفينة على ساحل الاندلس ، قيل له ان عملك هذا في ميزان العقل خطأ .

فنحن بعيدون عن أوطاننا ومن سيوصلنا اليها ثانية ، ان ترك الاسباب في الشرع شر لعبة .

ابتسم ورفع السيف بيده ، وقال : ، كل ما هو ملك لخالقنا فهو ملك لنا (3) .

مجرى الماء :

اختار لها اقبال فن الترجيع بند ، وهي عبارة عن ترجمة حرّة لاحدى قصائد غوته المسجّلة قبل ديوانه الشرقي و هي (NAHME MOHAMMED) أي "النشيد

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 297 ـ 298 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 298 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 299 .

المحمدي" ، تحدث فيها عن مجرى الماء الذي هو أشبه بالانسان الاشبه يعابير سبيل ،وكذلك الاسلام الذي أعطى الجميع ووهبهم عطاياه النيرة وحظهم دون تمييز ، ولكنه انتهى وحيدا غريبا ، يقول :

— فالمتأمله وردة في دلال يجب أن تبقى عندنا قليلا ، ابتسم البرعم وجذب طرف ذيله ليبقى .

لكنه لم يصاحب هؤلاء اللطّاف المتجلّين في الثياب الخضر ، فقد قطع الصحراء وصدر الجبل والسهول .

يسير صوب البحر الملا محدود تملا ، هو وحده ، في نفسه غريب عن الآخرين تجاوز البحر الهادر والحواجز والسدود ، واجتاز ضفائق الاودية والجبال والتلال . فاض مثل السيل بلا تفاوت على السهل والمرتفعة ، ومضى على القصر الملكي والحصن والحقل والخيلة .

يسير صوب البحر الملا محدود تملا ، هو وحده ، في نفسه وغريب عن الآخرين(1

رسالة عالمكير : (لواحد من أبنائه الذي يدعو بموت أبيه) مئوي من خمسة أبيات ، بين فيه أن السلطان لم يكن أول مكلوم في التاريخ ، فهناك مئات الحزانى الذين غرقوا في دمائهم مثل الحسين ومثل نبي الله أيوب ومثل شيخ كنعان(2) أمام محن كل أولئك تمالك عالمكير نفسه وصبر مسلّما أمره لله الذي يسمع أنين الجميع ، يقول :

ألا تعلم أن الله موجود منذ الازل ، يرى كل شيء ويزن الامور ، بيده العقد والحل ومنه صدر هذه الأرض الممزقة المعتمة ، سمع مئات آنات الحزانى المتأوهين . أناس كثيرون غرقوا في دمائهم مثل الحسين ، ولكن لا آهة انبعثت من صدورهم"(3)

الجنة :

قطعة من ستة أبيات تكرر فيها اقبال مذهبه في الحياة ، وأعاد فيها تأكيده لطبيعة الانسان وحقيقة الحياة الخالدة ، تلك الحياة التي أساسها وشرطها العذاب والعناء هل تقنع بعد ذلك بالجنة فقط ؟ ان نفس اقبال وأمثاله من المسافرين لا تقبل القرار في جنة بلا نار ، بلا سجين ، بلا أنين ، بلا عواصف هوجاء تخيف مرتاد البحر ، بلا هجير بلا شيطان ، يقول :

---

1 — رسالة المشرق ، ص 300 .
2 — شيخ كنعان هو يعقوب عليه السلام .
3 — رسالة المشرق ، ص 303 .

— يوسفها لايعرف عذاب السجن ، وزليخاها لايعرف قلبها الانين .
خليلها لايرتمي في النار ، وكليمها لايملك بالروح شرارا .
يقينها غير مقيد بسهل وعسى ، وليس لوصالها تفكير في الهجر .
فلا تعش في عالم باهت ، فيه الاله وليس فيه الشيطان (1).

كشمير :

قطعة من ستة أبيات ، تحدث فيها عن كشمير جنة شبه القارة الفاتنة ، خيال الطبيعة الحية الناطقة بآياتها في صمت الهادية العربية ، من تأملها عرف ذاته ومن عرف ذاته عرف الكثير من الاسرار ، يقول :

— خذ الطريق الى كشمير ، وتأمل الجبال والتلال والاودية ، وتأمل خضرة الدنيا الدنيا وشقائق الخمائل الخمائل .
تأمل رياح الربيع أمواجا أمواجا ، وطيور الربيع أفواجا أفواجا ، واليمام والسنونو تعزف الألحان أزواجا أزواجا .
انبثقت من الأرض الشقائق وخفقت الامواج في النهر ، فانظر الى شرر الأرض وضوئها وانظر الى تموج الأمواج والتوائها .
تأمل ذلك ثم انظر بعد ذلك الى نفسك (2).

العشق :

قطعة من أربعة أبيات تصور فيها تعلم العقل عن العشق ولكنه لايستطيع أن يبلغ مابلغه القلب في فهمه لكثير من المعضلات ، يعجز العقل عن حلها لأن مفتاحها في القلب ، يقول :
يحرق العقل العالم بجلوة منه جريئة ، انه يأخذ عن العشق نواميس حرق العالم فالعشق هو الذي يهيج الكيفيات ويحركها ، من احتراق وحمى الروسي الى حيرة الفارابي ماكس معنى معقد يكمن في الحروف ، ولكن لو تدخل قلبك لحظة يجوز أن تفهم (3) .

العبودية :

قطعتان الاولى من أربعة أبيات وفيها يشرح راهب طريق العبودية ، المتمثل في نظره في الحفاظ على طبيعة السفر والبوح بالعشق الالهي والاعتدال وعدم استبدال أي جبروت بنغمة هذه العبودية ، أما القطعة الثانية فمن بيتين ،

---

1 — رسالة المشرق ، ص 301
2 — رسالة المشرق ، ص 303.
3 — رسالة المشرق ، ص 303.

تناول فيهما عبودية من نوع آخر ، هي عبودية جديدة ، عبودية البشر التي طغت الهم الكبير المتكئد لصفو اقبال والمغيظ له ، يقول :

— أنا لا أنصحك بكتم حكايا تالعشق والشوق ، ولكن خذ الادب المعتدل واشرب الخمر بقدر .

نحن تراب الطريق ، حبّ الطلب طبيعة فينا ، ولكن لا تبع عبوديتك بملأ جبروت رغبي الانسان الجاهل لاعمى عبودية البشر ، هو يملك جوهرة ولكنه يقدم النذر لقبباد وجمشيد .

قد جعلته معنى العبودية عنده أحقر من الكلب ، فأنا ما رأيت كلبا يطأ طيء المرأ مرأمام كلب (1) .

جاذبية السيف :

قطعة من ثلاثة أبيات ، للسيف قيمته عند اقبال لأنه أداة القسوة ورمزها ، فهو القوم الجاد المجتهد المستغني عن خضره الذي لايقبل منة من أحد ، يقول :

— كم قوم ذلك الجماد المجتهد ، الذي يخرج من الصخر ، من غير أن يحتاج الى خضر كالاسكندر (2)

فهو لايقبل منة من الاشطر (3) .

الجمهورية :

قطعة من بيتين سخرها لكشف حقائق للناس جميعا ، ولانتقاد كثير من الظاهر الخادعة ببريق المسميات والشعارات ، مثل النظام الجمهوري الذي رآه الشاعر مجرد حيلة للمزيد من النهب ، فوصف مخترعيه حينما بأنهم يظهرون كمثل سليمان أو أنهم يعقلون مائتي حمار ، يقول :

— أتطلب المعاني العالية من ساقطي الهمم ، ان الطبع السليماني لايأتي للنمل الشديد الحيوية .

اتبع حكيما ناضجا مجربا ودع طراز الجمهوريين ، فان مسخ مائتي حمار لايأتي

---

1 — رسالة الشرق ، ص 304 .

2 — ملك فارسي قديم ، كان جوالا في البلاد يضرب في أقاليمها ويعود بالأموال والكنوز الى بلاده أم يهدم بيوتها النار واحراق كتب زرد شت ، سار الاسكندر صوب مغرب الشمس وطلب ماء عين الخلد ثم سار حتى مشرق الشمس ، قيل هو ذو القرنين لأنه سار حتى بلغ مغرب الشمس ثم سار حتى مشرقها ، وقيل لأنه ملك قرن الروم وفارس ، تروي الروايات والاساطير أنه اختار الخضر مرشدا له في رحلته ، كان الفرس لبأسه الشديد يسمّونه الاسكندر اللعين الذي دمّر المملكة وأحرق كتب زرد شت ، ثم صار عندهم الاسكندر ذا القرنين الموحد العابد الفارسي ، (تاريخ غرر السير ، ص 411 — 443 ، والشاهنامة جـ2 ، ص 21 — 23)

3 — رسالة الشرق ، ص 305 .

الـى مبلـغ الاسـلام بسبـلاد الافـرنـج :

وجهـها الشاعـر الـى دعـاة المسلميـن الـذيـن اتجهـوا نحـو بـلاد الغـرب وحطوا أصنامهـم بـالعلـم والمنطـق والدليـل القـاطـع ، مذكـرا ايـاهـم بحـال المسلميـن الـذيـن عـادت اليهـم نـار نمـرود مـن جـديد وخفتـت جـذوة العشـق فـي قلـوبهـم ، يقـول :

ـ لقـد أضحـاء الـزمـن نـار نمـرود مـن جـديد ، وصـار جـوهـر المسلميـن جليـسا .

لقـد ألقيـت أسلـف حكمـة بيـن يـدي الفـرنـج ، وأدبـتهـم صنـامهـم بـالعلـم المنطقي والبرهـان .

فاخبـر أهـل الحجـاز عـن سليمـى ، وبـثّ شـرر العشـق فـي قلـوب الاتـراك .

ضـع نفسـك فـي معيـار نغـم العـراق وخـراسـان ومقـام العـارف ، وانشـد أغـانـي الغـزل مـن جـديد فـي محفـل الاعـاجـم (2)

غنـي الكشميـري :

مثـنـوي من سبعـة أبيـات ، ان تحـدث فيـه عـن شـاعـر الهـند وصـوفيهـا وزاهـدهـا فـانمّـا يتحـدث عـن كـل شـاعـر حـرّ النفـس غنيهـا ، غنـي بنفسـه وشعـره اذ لا كنـز عنـد ، سـواهمـا .

لـذلـك فقـد كـان شـديد الحـرص عليهمـا ، اذا دخـل بيتـه أغلقـه علـى نفسـه وعليهمـا حـرصـا ، فـان غـادره تركـه مفتوحـا اذ لا شيء فيـه ، وقـد حيّـر النـاس هـذا التصـرف منـه ، يقـول :

ـ عنـدمـا يكـون داخـل بيتـه فـانـه يغلـق بـابـه ، فـاذا غـادر البيـت تـرك بـابـه مفتوحـا .

قـال لـه أحـدهـم ، : أيهـا الشـاعـر سـالـب القلـوب ، ان كـل الخلـق يتعجبـون مـن فعالـك فـأي جـواب طيـب قـال لـه ذلـك الرجـل الفقيـر ، فقيـر ولكـن بياقليـم المعـاني أميـر .

انـه لايستسـاغ أن يـأخـذ الاصـدقـاء سـوى عنـي ، وهـل فـي البيـت مـن متـاع غيـري

اذا جلـس غنـيّ فـي كـوخـه ، فسيكـون فـي بيتـه الصغيـر كنـز عظيـم ثميـن .

وعنـدمـا لايكـون ذلـك المغنـي الضـيء للحفـل فسـي المنـزل ، فـلا دار أشـدّ خـواء مـن بيتـه (3)

فـي خـطـاب كـمـال بـاشـا :

قطعـة مـن سبعـة أبيـات ، سجلهـا اقبـال فـي زمـن لـم تكـن حقيقـة مصطفـى كمـال قـد انكشـفـت فيـه الا للقليـل ، وفـي وقـت خـدع فيـه كثيـر مـن المتحمسيـن بـزيفـه وبريقـه امثـال اقبـال الـذي صـدّر قطعتـه بـدعـاء لـه بالنصـر والتأييـد ، أيـده الله متـوسمـا فيـه كـل خيـر لأمـة الاسـلام التـي أفـل نجمهـا وخبـت نـارهـا ، فكـان لهـا مـن

1 ـ رسـالـة الشـرق ، ص 305 .
2 ـ رسـالـة الشـرق ، ص 306 .
3 ـ رسـالـة الشـرق ، ص 307 .

الضعة والهوان بقدر تقصير أبنائها ، يقول :

- أخشى شيخ الحمراء قلبه من جحكمة العشق ، فصرنا وضعاء في هذه الدنيا بقدر تقصيرنا .

قد أذبلت ريح الصبا براعمنا وأزهارنا ، ورياح الصحراء وحدها الكفيلة بانعاش فطرتنا .

كم من صيد أوقعنا به بلا شباك أوسلاح ، ولكننا صرنا ونحن نحمل السيف والرمح قتلى صيدنا (1) .

الطائرة :

مثنوي من اثني عشر بيتا ، حوار بين العلم والطبيعة ، الطبيعة المنتصرة على العلم يكشفها لفضائحه على الأرض وأضراره ، عن العلم تحدث الانسان وهو اقبال وعن الطبيعة حدّث عصفور رفاقه عن حرمان الآدمي من الاجنحة ، مما يحتم عليه الاتصال بالأرض والارتباط بها ، يقول :

- انسنا لم نحط ابن آدم الاجنحة ، فقد شدّ هذا القصير الى الأرض (2) .

فيجيبه اقبال بأن الانسان اتخذ من الطائرة له جناحا وطارت صوب السماء بتلك الطائرة التي تطوي المسافات كأنها رسول السماء جبريل ، يقول :

فقلت له : أيها الطائر الشبيه بالريح ، لا تحزن ان قلت لك كلمة حق صنعنا من الطائرة لنا جناحا وطرنا ، وصوب السماء شقنا طريقا .

بتحليق الصقر وأجنحة العقاب ، تهيمن على كل مكان من لاهور الى فارياب .

لقد صنع العقل من ماء وطين جبيرويلا ، وصنع من التراب في السماء دليلا (3)

فيرد عليه العصفور بأن مقولة الانسان لم تبهره لأنه يعرف حقيقته ، ثم يفحمه بسؤال لمن يجد له جوابا ، فأي شيء أصلحه في الأرض ، وأي عمل حسن صنعه في الأرض حتى يتجه الى السماء ليصلح فيها ، يقول :

- فربما وقعت يا من تبحث عن كيف وكم ، أسير سحر العلو والانخفاض أصنعت عملا حسنا في الأرض ، حتى جئت لتصلح أحوال السماء (4) .

العشق :

قطعة من بيتين ، يبقى فيها العشق الخيط الاول والاخير الذي يشغل فكر اقبال ، به يبدأ وبه يختم ، وعنه يتحدث ، لايكاد يغفل عنه أبدا ،

---

1 - رسالة العشرق ، ص 308 .
2 - رسالة العشرق ، ص 309 .
3 - رسالة العشرق ، ص 309 .
4 - رسالة العشرق ، ص 309 .

لأنه المسلم العارف لأسراره التي تفقهها الطبيعة وتتبادلها عناصر الطبيعة ، يقول :

— قد سرقه (سحر العشق) الندى خلسة في السماء وأخبر به الورد ، فسمعه البلبل عن الورد وعن البلبل سمعه نسيم الصبا (1) .

التهذيب :

قطعة من أربعة أبيات فيها نقد لاذع لأولئك الذين يدّعون السلم والسلام فيخفون السيوف ولكنهم بمكرهم دمّروا العالم بحروبهم ، وكانت الحرب والدماء الوحيدة التي عشقت نفاقهم فحقت عليهم كلمة الله — كما يقول اقبال — سفك الدماء ، خصيم مبين ، (2) يقول :

— قد ألبس يديه قفازا من حرير ، وسحب الأنسام بقلمه وأسقط السيف من الحزام قد عقد هذا الداهية الماكر في المعبد صالحا عاما ، وطاف راقصا حول أنغام العود والمزهر .

انّي رأيته عندما مزقت الحرب حجاب أسراره ، انه لم يكن غير سفاك للدماء خصيم مبين (3) .

وبهذا الانتقاد اللاذع من أعماق اقبال الممزقة على ضياع الانسان وهدمه لقانون استخلافه في الارض يختتم الشاعر منظومة أفكار ، ليكون عنوانا ودليلا الى فكر الشاعر ورغبته الصادقة في اصلاح ما يحيط به من أمراض فردية وجماعية .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 310.

2 — سورة البقرة ، الاية 30 : "قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" وسورة النحل الاية 4 : "خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين" وسورة يس الاية 77 : "أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين".

3 — رسالة المشرق ، ص 310

هـ ـ الخمـــر البـــاقـــيـــة :

مجموعة من القصائد الصوفية الرمزية ، اختار لها اقبال قالب الغزل ، وتضم منظومة الخمر الباقية خمسا وأربعين غزلية يتفاوت عدد أبياتها تفاوتا كبيرا (بين ثلاثة أبيات وعشر) قسمها الى قسمين ، وضع لغزليات القسم الاول عنوان : "الخمر الباقية" (الخالدة) وفيه ستة وعشرون غزلية ، وأعطى القسم الثاني عنوان ، : "كتب الى أحد المتصوفة" وفيه تسع عشرة غزلية .
واذا كانت المنظومة كلها في التصوف ورموزه ـ وهو ما سنتناوله بالدراسة في الفصول التالية ـ فاننا نكتفي في هذا العرض بتلخيص بعض لفتات اقبال واقتباس بعض أنواره لأنها لا تخلو بدورها من نصح أو انتقاد ، ولأنها تحمل في ثنايا هذا الكثير من التصوف العملي ، فهي ليست دعوة الى العزلة والسكر وانما دعوة الى الصحو والاصلاح .

1 ـ الخمر الباقية :

حاول اقبال في بعض غزلياته أن ينصح أولئك الذين اغتروا بغزارة معارفهم ، مبينا لهم أن شرب خمرة المعاني وخمرة المحبة والصفاء الروحي شيء آخر يختلف تماما عن تلك المعارف الظاهرة ، واذا كان الفقهاء قد انتقدوا المتصوفة رد حا من الزمن ورموهم بالخروج عن حدود الدين وكفروهم وقاد وا كثيرا منهم الى المشانق ، فان اقبال هنا يحاول رد الاعتبار لأولئك الذين ظلموا اذ لم تفهم مقاصدهم ، فيطعن في فقيه الدينة ، وينصح الناس ألا يكونوا من مريديه لأنه مريب وليكونوا من اتباع الشيخ المرشد الحي القلب ، الفاهم للحياة ، يقول :
ـ لا تغتر بعلمك لأن شرب الخمر شيء آخر ، ولا تكن مريد فقيه الدينة فهو مريب قال شيخ طيب ذو قلب حي بحانة ذات مساء ، في كل زمان يوجد ابراهيم ونار نمرود (1) .
ولا ينسى اقبال المريد السالك أبناء الهند من المسلمين الذين خفت صوت الحياة في صدورهم ، ربما كان سبب ذلك خطؤهم في الطلب ، لأن العشق لا يطلب من مدرسة ، وان خمرته وان شاكلة الزجاج في الصفاء لا تطلب من صانع الزجاج كما أن المعلومات والمعارف قد تزيد من المدارس ومن دروس حكماء الغرب ، الا أن فن القلب لا يؤخذ الا عن شيوخ العشق ، يقول :
... ليمر في أرض الهند أثر لصوت الحياة ، ولن يصير الميت حياً ولو بزامير داود عليه السلام (2)
أنت يا مسلم تطلب الأدب والعلم والعشق في المدرسة ، انه من الجهل أن تطلب الخمرة من عند الزجاج

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 313 ـ 314 .
2 ـ رسالة المشرق ، 314 .

فقد ازدادت معارفي من دروس حكماء الغرب ، ولكن صدري احترق من صحبة شيوخ المشرق .(1)

ويأسف الشاعر على ضياعه في بلد ميت(الهند) ،ان له قيمته ولكن وجوده وسط عديمي نظر ،أموات أفقدوه تلك القيمة ،وتلك الدرجة من الهيام ،يقول :

ـ لا أحد يعلم أن لي أنا أيضا قيمة ،فأنا ذلك المتاع الذي يفقد قيمته في يد عديم النظر (2).

ولكي يبقى اقبال عاشقا محترقا مضطربا خافق القلب ، يدعو على نفسه بأن يحرم من دخول الحرم حتى يظل مسافرا ،طالبا ،باحثا ،يقول :

فياشيخ الحرم لاتدع اقبال يدخل الكعبة (3).

الانسان مخلوق من طين وماء ،وراسخ في الطين ،ولكنه اذا تسامى بالعشق صار جديرا بالتجلي وحق له إن تتفرج الملائكة عليه ،وهي المخلوقة من نور ، وتنظر الى أنواره وشرره وتحذر منه ،يقول :

ـ أبلغ عني (أنا الراسخ في الطين) رسالة الى النورانيين أن : ، احذروا من حفنة تراب تنظر لنفسها !

فطينتنا امتلأت شرارا من الحان السحر (4).

ولاحياء القلوب كما قال ورجال المتصوفة والمخلصين قانونهم الخاص في الحياة وهو حرمان النفس مما تشتهيه ،فشرط العشق الحرمان ، فاذا طلبت النفس الركون الى الأمن حرمها الشاعر من ذلك ،انه يعزف عن السفر الى الحرم وهو علمه الدائم لأن الطريق اليه آمن بلا نخاطر .

في قانون أحياء القلوب تكون الحياة بمجافاة الطالب والشهوات ، لذا فانني لم أسافر الى الكعبة لأن الطريق آمن سأقول لك حكمة لو أنك تتأملها ، ان العشق أتاني بلا أنس ، بلا استجابة) (5)

وقد لاحظ الشاعر أن أبناء الهند أموات وأبناء العرب غافلون فبينما يترك شعر اقبال صداه في العجم يفقد العرب عن أنغام عشقه وشوقه فيسعى لاحيائهم ويقصد الحرم ليقيم فيه حفلا عله يوقظ فيهم قلوبهم :

أوقدت أتاتي نار العجم لقديمة ، ولكن العرب الى الآن في غفلة عن أنغام عشقي وأشواقي .

لهذا السبب أبحث في الحرم عن حنظل (6)

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 315.
2 ـ رسالة المشرق ، ص 315.
3 ـ رسالة المشرق ،ص 316.
4 ـ رسالة المشرق ،ص 316.
5 ـ رسالة المشرق ،ص 317.
6 ـ رسالة المشرق ، 317.

ولاقبال يقين ، هو يقين كل صوفي عاشق بقرب المعشوق وان تناهى بالبعد عنه يقول :

ـ مهما تناهى في البعد عنّي فهو دائما بجنبي .(1)

واذا جهل العقل قدر العشق أواعطاه قيمة قليلة فان صاحبه لن يفرّط فيه وهل يستبدل عرش جمشيد كلّه آهة من آهاته الحرّى ، ويكفي العشق فخرا أنه لم ينل من سلطانه حتى من أدرجوا في عداد العظماء ، فذلك محمود الغزنوي فاتح الهند ومحطم الاصنام وقع أسيرا لناره ، يقول

ـ حتى ولو أعطي العالم قيمة قليلة لكنز العشق ، فاني لا أستبدل بتلك الآهة التي تذيب الكبد عرش جمشيد .

قال البرهمي للغزنوي : انظر الى خوار قوي ، فأنت يامن حطمت الصنم قد صرت عبدا لايماز .(2)

ومادام هذا السلطان قد وقع أسير العشق فعليه ألا يفاخر بالثراء والغنى لأن في المدينة فقراء وحزانى ومتألمين ، عليه أن ينظر لحزن الآخرين ، والفضل كلّ الفضل للعشق الذي حلّ بقلبه فجعله عبدا مسكينا محروما حزينا وقد كان سلطانا ، ثم ان فتح العالم لايكون بالسيف والقوة فقط وانما قد يفتح العالم بأغنية تذيب القلوب ، يقول :

ـ أريد أن أكشف لملازم السلطان بسر ... كيف تفخر بثرائك وغناك وفي المدينة متألمين حزانى ؟ .

أصاب السهم قلب الغزنوي فتبسم تبسم السحر ...(3)

قانون العشق حرمان النفس مما تشتهي ، وقانونه أنه لايسأل عن الانساب والاحساب فلا يهتمّ على مركز أو هبوطه ، وهو لايبالي بفقر أو غنى ، انه يشترط فقط قلبا متألقا آملا محترقا محتاجا ونظرة صافية ، يقول :

ـ لماذا تسأل عن مقامي ؟ انني أسير سحر قلبي ، فهبوطي لم يتزلني اذ لم ينقص من قدري ولم يرفعه صعودي .

فتحول الى طريق العقلاء الذي به تستطيع بلوغ غايتك ، بقلب محتاج آمل وبنظرة صافية نقية (4) .

واذا شهر العلماء سلاحهم في وجه الصوفي ، فانه يبقى في غنى عن حربهم يكفيه أن يهتم باحتراقه واضطرابه فلا يضيّع وقته في جدالهم ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 318 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 319 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 320 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 320 .

— أي حاجة لك وأي مفخرة تطلب من حرب العلماء ، قلبي يحترق محتجا ، ونظمي يضطرب محتجا . (1)

وما لغة العشق؟ من اقبال أكثر من مرة أن معاني العشق الواسعة ليس لها أثواب من الكلمات تسع مقاسها الرحب الفجاج ، لذلك فان كل كلام يجمّد في الحناجر لا تفهمه في سجنه الا نظرات العشق الحادة ، يقول :

— معاني شاقت عنها أثواب الكلام (فلم تستطع الخروج) ، سيأخذ ها نظرك الباحث المنقب بنظرة عشق (2) .

ويرى اقبال شأنه شأن كثير من المتصوفة أن الكائنات كلها تحنّ الى أصلها وموطنها الاصلي وتظل في صراع حتى تصل اليه (3) ، فقطرة الماء تفارق البحر وتبعد عنه حتى لا تظنّ نفسها آيبة اليه ، تقطر على الورد ، تمطر ، تجري في الانهار ... ولا تعود اليه الا بعد سفر طويل شاق لتتحول بين أحضانه الى جوهرة ، يقول :

— ياقطرة انفصلت عن نفسها انك تطلبين مستحيلا ، ان لم تخرجي من البحر جوهرة ثمينة ، فعار عليك أن تعيشي بين أحضانه (4)

ولا يفرق بعض المتصوفة بين مسلم ومسيحي وبرهمي ، فمنهم من يرى نفسه وقد بلغ به العشق أشدّه ، في حاجة لممارسة كل أشكال العبادة حتى يبلغ معشوقه أو يرضيه ، تضرّع في الدير ، وصلاة في الحرم (الكعبة) زنّار على الكتف والمسبحة في اليد ، ولذلك يظهر الصوفية ومنهم اقبال مجنوني فعال ، عاقلني أقوال ، لأن خمر الاشواق أسكرتهم عن كل شيء ما عدا المعشوق وأيقظتهم عليه وحده ، يقول :

— فأنا في الدير أبدي التضرع والاحتياج وفي الكعبة أقيم الصلاة ، الزنار على كتفي والمسبحة في يدي .

انني عاقل الاقوال ، مجنون الفعال ، وخمر شوقك أيقظتني وأسكرتني (5) .

أما تحية العشاق وقانون تعارفهم فكلمة واحدة ، يكفي ليعرف عاشق عاشقا أن يقول أحدهم انّي حزين ، يقول :

— انّني لم أكسر بعد كأسي ، فلا شيء منّي اليك سوى قولي انّي محزون(6) .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 320 .
2 — رسالة المشرق ، ص 321 .
3 — تمثلا جلال الدين الرومي وصف الناي وهو يبكي عندما اقتطع من أصله ، وراء كل عزف الناي بكاء وأنينا وحنينا الى موطنه الاصلي . وهو غاب القصب .
4 — رسالة المشرق ، ص 321 .
5 — رسالة المشرق ، ص 322 .
6 — رسالة المشرق ص 323 .

واقبال في غضب عن مناقشة الفقهاء أو اعلان الحرب عليهم ، ورغم ما أصدروه من فتاوى في المشروبات فان الذي يحزنه ليس تلك الفتاوى وانما عدم مكافأة الشيوخ المرشدين لهم ولو بكأس من خمر المعرفة لأنهم بفتاواهم قد موا للمتصوفة خدمة جليلة وهي التعمية عنهم حتى لاينتبه الناس لقدرهم وهم ملوك في خرق ، يقول :

قد رثى قلبي وخفق لفقيه الحرم المسكين المحروم ، لأن شيخ الحان لم يبذل له بفتواه ولا كأسا واحدا من الخمر (1)

واقبال اذ يغرق في بحر الحب الالهي ويشمل من خمر العشق ويملأ الدنيا حدثنا عن شيوخ المشرق لايخفى شيخ الغرب الراقد في مدينة "ويمر" انه غوته الذي جعله اقبال في صف شيوخ المشرق ، وأدى نحوه واجب التحية ونحو المدينة التي يرقد تحت ثراها ، يقول :

— يانسيم الصبا أحطي عني رسالة الى روضة ويمر ، فنظرة من أولئك الحكماء تنير تراب هذه الديار (2).

واقبال السالك المريد ، تلميذ شيوخ المشرق ، استنار قلبه وسما فكره وتأججت مشاعره بفضل ماتلقاه وسما شعره فتعذر على الصحاب فهم الحانه ، بل تعذر عليهم سماعه ، ونفذ صبرهم من الحجب التي أحاطت به ، فلا يكشفها الا ثاقب نظر مثله ، ولعلّ هذه الدرجة التي وصلها شعره هي التي تقود ، الى مايتطلع اليه ، انه يريد أن يعرف قيمة شعره وكلامه فمن المشتري تعرف قيمة الثمين الطلوب ، ولما كان شعره غاليا رفيع القيمة فان أحدا لم يشتره أحد اذ الناس لم يصلوا بعد الى مستوى فهمه وأدراك معانيه .

أما اقبال فيمكن أن تتعرف عليه من شعره فالقارئ لشعره يفهم بسهولة ان الشاعر يعيش دروسا في الحكمة والفلسفة ولكنه عاشق يمارس العشق ، يقول :

— أصحابي لايستطيعون فهم الحاني ، اذ تجاوز تصبرهم ، فأنا أنشد غزلي هنا حيث لايسمع أحد قط .

ولقد اخترت هذا الجزء من الكلام حتى أتطلع الى معرفة المشتري ، واني لسعيد بهذا : وهو أنه لا شخص قد اشترى متاعي .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 325.

2 — رسالة المشرق ، ص 325. (ويمر هي مدينة الشاعر الالماني غوته).

نحن نستطيع أن نفهم من شعر اقبال ، بأنه يعطي دروسا في الفلسفة ويمارس العشق (1) .

عرفنا من اقبال قوله : اذا أردت أن تطلب الحياة فاطلبها في خطر . لذلك فان اقبال العاشق يتمنى السهم والسنان والخنجر والسيف ، يحرق كل شيء يملكه حتى يتحرر من قعود الديار ، وقد حاول الرفاق أن يثنوه عن البوح بأسرار العشق ويكتفوه عن كشف خفاياه ، ولكنه بلغ درجة من الوجد والهيام لم يقو بعدها على الكتمان فرفع صوته مكبرا ، داعيا لنفسه بالهلاك ، ولكن هلاكه في سهام لحظ المعشوق ، يقول :

ـ تمنيت السهم والسنان والخنجر والسيف ، وأملي ألا تصحبني لأنني سلكت طريق الحسن .

تأملني وأنا أجمع القش لعشي ، ثم انظر كيف أطلب النار التي تحرقه .

قالوا (لي) : احفظ لسانك ولا تبح بأسرارنا ، فقلت : حسنا اني أريد أن أرفع صوتي مكبرا لتحمر طويلا . أما أنا فانني أتمنى ذلك السهم (النظرة) الذي يسودني بحسياتي (2).

جمع اقبال بين الكعبة والمعبد والسبحة والزنار ، وها هو يدعونا لنتعلم ذلك ، المهم عنده ، أن يكون المعشوق واحدا ، وأن يكون وحده ، القاسم المشترك بين الجميع لان العاشق وقد بلغ به العشق أشده ، لا يعرف فرقا بين المعبد والكعبة ، يقول :

ـ تعلم سحب حبا بالصبحة على خيط الزنار ، وان كانت عينك ترى اثنين فتعلم ألا ترى (3) .

لا يرى العاشق الولهان فرقا بين الكعبة والمعبد (4).

والعشق اختيار واقتناع ويقين بالنتائج القريبة (العذاب ، الاسفار ، البلاء ، المحن) والنتائج البعيدة وأكبرها وأجلها التجلي ، فعلى من يختار هذا المدرب الشائك أن يتحمل كل النتائج في سبيل معشوقه بعيدا عن ساعدة الآخرين ، ومن غير تستر بأجنحة الآخرين ، يقول :

ـ ان كنت قد خلقت بلا قدرة مثل قطرة الندى ، فانهض وتعلم كيف تقطر على قلب الشقائق الظامئ المحترق .

وان ألقاك حارس البستان في الصحراء بعيدا ، فتعلم التنفس والظهور من جديد مثل الاشجار .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 326 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 326 ـ 327 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 327 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 335 .

وحتى تتجلّى أشد احتراقا وألما ،اختر عزلة معبد وتعلّم بلوغ النضج .
فالمي متد وأنت تحلق تحت أجنحة الآخرين ، تعلم الطيران وحيدا في بهو الحديقة .
ابحث في تراب نفسك عن نار لم تكتشف بعد ، لأن التجلّي الذي يأتي من الآخرين غير جدير بالتسلسب(1) .

قد لا يسع العشق كلام ، فقد أرحب من الحروف والكلمات ، ولغة القلوب والعيون هي لغتنا ، ولكن ان وجد خبير بالبيان ، عارف بالاسرار وأراد الحديث عنه فانه يلجأ الى لغة الرموز والاشارات لأنها لغتنا أيضا ، يقول :

— لا تعتمد ولا تقل كل كلام فانه (الصمت) كمال الحديث ، فما في الخلوات من حديث غير الرمز والاشارة(2) .

وبينما يحاول العقل بعث اليأس في النفوس فيقنعها باستحالة أمور لا تتوفر لديه قرائن للبرهنة عليها ، نجد العشق يتحدى بتيسير وامكان مستحيلات كثيرة مثل فصل الموج عن صدر البحر ، وصل البحر بمجراه ، اغراق القلوب في بحر دماء ينغمس واحد ، بعث روضة ورد بنفس واحد ، تحويل جبريل الملك الى طائر عادي ، كسر مرآة الحياة بحجر واحد ، ولكن هناك شيء واحد مستحيل وان بدا ممكنا وهو أن المعارف لذاته العقل بها والمحيط بأسرارها تصعب على السيل العارم زعزعته بل تستحيل كما يستحيل الشفاء الذي يطلب من الآخرين ، يقول :

— ان فصل الموج عن صدر البحر أمر مستطاع ، وان ربط البحر الراسخ بمجراه أمر مستطاع .

اغراق القلوب في الدماء بنفس واحد أمر مستطاع ، وبعث روضة ورد كما بنفس واحد أمر مستطاع .

وتحويل الملك جبريل الى طائر عادي أمر مستطاع ،

ان تتصل بنفسك بأحكام فلن يستطيع السيل العارم زعزعتك ، ان تحيا مثل الجواهر في صدر البحار أمر مستطاع .

. . . الانكسار أمر مستطاع ، وطلب العلاج من الآخرين أمر غير مستطاع(3) .

وكما للحب الأرضي البشري درجات فللحب الصوفي درجات أعلاها الجنون ، ولكي يتسنى اقبال الفرق بين درجة العشق والهوى والجنون عاد بنا الى ما قبل التاريخ حيث الشاب القوي النحات فرهاد والملك يرويز (4)، فالثاني كان عاشقا بينما

---

1 — رسالة المشرق ، ص 328 .
2 — رسالة المشرق ، ص 330 .
3 — رسالة المشرق ، ص 330 .
4 — شيرين جارية فارسية عشقها پرويز ، ولها قصة أخرى مع عاشق اسمه فرهاد ولما سمع پرويز بذلك كلفه أن يشق طريقا في جبل بيستون من جبال كرد ستان ، ووعده بشيرين حين يتم عمله ، فلما شق فرهاد الطريق أرسل اليه پرويز من يخبره كذبا أن شيرين ماتت وقد ذهب =

كان الاول مجنونا من الهوى ، فكان من الثاني أن غدر وخان الوعد وكان من الاول أن وفى وضحّى ، يقول :

ـ أتعرف الفرق بين العشق وبين الهوى والجنون؟ ، هذا غدر پرويز وذاك قيس فرهاد (المخلص) (1).

لم يكن الرومي مرشد اقبال في رحلته الى السماء فحسب وانما كان مرشده الدائم ومولاه ، وان سماع بيت من غزلياته يمكن أن يسبح بروح اقبال في نهار تبريز . الا أنه مع تلك السبحات الروحية لاينسى الحرص على بقاء أمته ولا يكتم خوفه عليها من أن تظهر فيها من جديد فتنة هولاكو أو جنگيز خان فيقول :

ـ يا أيها المغني الذي سلب لبي وذكائي ويا أيها الساقي الذي أسكرني ، قد سلب قلبي ارتفاع صوت طائر في السحر .

فخفت أن يولد من تراب سمرقند من جديد ، فتنة هولاكو ، ويعود زمن جنگيز خان .

أنشدني أيها المغني بيتا من الغزل عن مرشد الروم ، حتى تسبح روحي في نار تبريز (2).

اليست هذه القوانين التي أعلن عنها اقبال ، وهذه الشروط التي حددها وهذه المراسيم (مراسيم العشق) طريقه ، عذابه ، اليست هذه الأمور صعبة (مستعصية) على الانسان في هذا العصر؟ عصر اقبال ـ لو لم تكن كذلك لما عميت الآذان عن سماع شعر اقبال وسدّت الأفهام عن ادراك مراميه ، ولهذا فان هذا الانسان غير جدير بذلك العاشق المجنون المتشد للغزل ، ولذلك نادى اقبال بإنسان جديد ، انسان أنضج ، يقول :

ـ أضف الى عينيك الناعستين بالكحل سحرا جديدا ، وضاعف جنون عشق متشد الغزل .

وابتكر شكلا جديدا ، واخلق انسانا أنضج ...(3)

المركب مسافر ، والعاشق مسلم ، والمسلم له نفحات في الفجر ، وعليه عبادات لابدّ من الوفاء بها .

أولها ما يبدأ مع تنفس الصبح ، فعلى المركب الراحل أن يقف للصلاة أولا ولتحزم

= فرهاد ـ خلا في العشق كمجنون ليلى (راجع نظامة الفردوسي ، ج 2 ، ص 236 .)

(1) رسالة العشق ، ص 331 .

(2) رسالة العشق ، ص 331 .

(3) رسالة العشق ، ص 331 .

الامتعة بعد ذلك ، يقول :

— فقد تنفس الصبح وصلّى الركب وشدّوا الرحال (1) .

درر اقبال في بلاد الغرب ووقف على خدعهم ومكائدهم جميعا ، وهو في هذا الديوان لا يتوانى عن فضحهم وفضح مكائدهم ، وها هو في غزلياته يعبّر حقيقة أولئك الذين تسمّوا بالعلماء والقادة لركب البشرية والامراء . انهم ليسوا سوى لصوص ، قطّاع طرق ، لأجل ذلك يجب الحذر من سحر الغرب هذا ومن أساليبه الزائفة ومكره ، يقول :

— انظر السحر ذلك الذي أخذ بجدال العقل ، يبدو كأمير للقافلة ولكنه يطبع قاطع الطريق (2) .

أي حديث سيقوله الغرب للنجوم؟ احذر من أساليب سلطته الفاسدة .(3)

قد يتبادر الى الاذهان أسئلة عن معشوق اقبال ومن يكون وأين موطنه رغم التوضيحات ، والتصريحات العديدة التي رافقتنا من أول الديوان . وقد نتساءل عن موطن ذلك المعشوق الأوحد ، وعن ذلك السؤال يجيب اقبال قائلا :

— ليلي أمل وبنفسجي حنينه الدائم أن يتجلّى بدر التمام ذاك ، فيبدي على صدري وعيني ترقص السماء . (4) .

ولشعر اقبال وفنائه أبعاده ، ومعانيه السامية ، الراقية الفاتنة ، التي توجب علينا تأملها وتأمل شعره ، لأنه ليس شعرا عاديا ، انه رسول الغيب ، قدم الينا محملا برسالة من المعشوق رسالة كاشفة للحجب ولما خفي من الاسرار والكلمات ، يقول :

— لا تمرّ على أغاني الآسرة الفاتنة بلا مبالاة ، فأنا طائر غيبي أحمل رسالة من حبيب .

أرفع الحجب وأخاطب الكلام الخفي (5) .

وللشعر مكانتهم في قلب اقبال ، فهم أبناء الوحي والرسالة وسليلو خاتم الانبياء والرسل ، وهم حملة الاسلام ومبلغيه الذين لولاهم لما كان اقبال مسلما . لذلك فقد حرم اقبال على نفسه أداءهم ونهى عنه بل حتى عن عتابهم وان جاروا وان ظلموا ، مادام شعرا عربيا ومادام النبي عربيا ، يقول :

— استولى أهل الحجاز على متاع قافلتنا ، ولكن لا تفسه بعتاب فحبيبنا عربي(6)

---

1 — رسالة المشرق ، ص 332 .
2 — رسالة المشرق ، ص 332 .
3 — رسالة المشرق ، ص 333 .
4 — رسالة المشرق ، ص 333 .
5 — رسالة المشرق ، ص 334 .
6 — رسالة المشرق ، ص 335 .

وللخمر عند المتصوفة معانيها ورموزها ،وكذلك عند اقبال ،فهي ليست بنت العنب ، انها خمرة الاسرار ،وراح المعاني ، وهي لا تسكر شاربها فقط ،وانما تسكره عمّا يكره وتصحيه على ما يحب،ومن يحبّ فلا يرى دونه شيئا ،وهي صهباء كلام العارفين الأصفياء ،ولكن اقبال لا يحب التفرد بهذه الخمرة الخاصة ولا يستأثر بها لأنه يعرف مدى الاثر الذي تحدثه بعد ما تدبّ في العروق والروح ولذلك يدعو الناس لمشاركته احتساءها وليكونوا ندماء عليها ، يقول :

- انما أطلب خمر الاسرار وأكوازا (كؤوسا) لشربها ... هلمّ فاني أرشف من كأس شيخ الروم خمرا ، هي صهباء كلام هي أصفى من خمر العنب (1).

والعشق عند غير اقبال يحوّل جبريل رسول السماء وحامل الوحي الى طائر عادي أما عشق اقبال وجنونه فيحوله الى صيد عاجز بصحراء جنونه الفسيحة ، وهي درجة لم يستطع اقبال أن يكتم أمره فيها أكثر مما كتمه ، ليشبع بسّره حتى وان كان السّر غير ناضج وغير مكتمل ، يقول :

- ليس جبريل بصحراء جنوني غير صيد عاجز ، فالله قيد بالعباد ة همة الرجال .

يصاح اقبال بسّر من على المنبر لا يجب أن يقال ، لعله خرج غير ناضج من وحدة المعبد (2)

رأينا كيف يسّر العشق أمورا كانت مستحيلة ،أما المعشوق الأزلي الواحد الفرد فان سير الأمور كلها من غيره مستحيل . فالانبعاث من العدم بدون الله مستحيل والوجود من غيره والفناء من غيره مستحيل . هناك مستحيلات أخرى تقابل تلك الممكنات السابقة ،منها استحالة حلّ مشكلة العشق، استحالة اخراج الحان العشق ،استحالة زوال كيّ كبد الشقائق، استحالة السجود لغير الله ، يقول :

- الانبعاث من نوم العدم بدونك مستحيل ، والوجود من غيرك مستحيل ،والعدم من غيرك مستحيل ... لا شيء يمكن أن يقال ،فحلّ هذه المعضلة مستحيل . احترقت قلوب الاصدقاء من الحاني الخطيرة الخائرة ،أما أنا فتمزقت من تلك الالحان التي غناؤها مستحيل .

... صن قلبك بالحق (الرحمن) ولا تسجد أمام السلاطين ، لأن السجود على عتبة هذا المعبد المتهدّم مستحيل (3) .

---

1 - رسالة المشرق ،ص 334-335.
2 - رسالة المشرق ،ص 336.
3 - رسالة المشرق ،ص 337.

وقلب العاشق صحراء مشرامية ، تسرح فيها ظباء الخيال بل انه يسع كل الدنيا ، ولكي يعرف القلب اسرار الأزل فان تلك المعرفة تبدأ من معرفة النفس ، يقول :

- هذه القبة اللازوردية (الفلك) وهذه الأرض والسماء (أو هذه الهاوية والارتفاع) ، هي مع امتدادها وعرضها قد حواها قلب العاشق .

أتطلب أسرار الأزل ؟ افتح العين على نفسك اذن ، وانظر الوحدة والتفرد والتجمع ، وانظر السر الخفي والظاهر (1) .

ويختم الشاعر غزلياته الخمر الباقية بالطاعة العمياء للعشق وكل ما يأمر به ، لأنه هو الذي يرفعه وهو المخلوق من تراب الحد السماوات العلا ، وبالمخربة من العقل الذي كثيرا ما تدنّى به الى الحضيض .

يقول :

- مائة مرة تتسامى حتى الفلك ، ومائة مرة تتهاوى حتى الأرض ، هل جاء السلاطين وعظمة فغفور وملك جمشيد .

... ماذا تقول أيها العقل ؟ وبماذا تأمر أيها العشق ؟ (2)

2 - كتب الى أحد الصوفية :

استهلها اقبال بنفي وجود عاشق بلغ به العشق درجة هوى ليلى لأن القلوب مازالت مريضة مأخوذة بغيد العجم . فاقبال عاشق ولكنه عاشق مبتدئ لم يكتمل نضجه وسيحين ذلك ، وهو اذ ينفي وجود من بلغ تلك الدرجة لأنه يعلم أن القلوب مازالت مريضة ترهن في سبيل غيد العجم دينها ، لا تملك خمرا أو شوقا الى ديار سلمى ، ولا تملك خفق قلب زليخا ، فحتى وان كان بالنور تجلّ فما أحد يقو على تأمله ، يقول :

- لا أنت تملك هوى منزل ليلى ولا أنا ، ولا أنت تملك احتراق (حرارة) القلب في الصحراء ولا أنا .

أنا سنائي ناشئ (شاب) وأنت شيخ الحان القديم ، جمعنا ظامئ ولكن لا أنت تملك الصهباء ولا أنا .

قدر هنا القلب والدين في حبّ غيد العجم وحسناتهم ، فلا أنت تملك نار الشوق الحد سليمى ولا أنا .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 337 .

2 - رسالة المشرق ، ص 338 .

لا يمكن أن يقال حديث جديد في بلوى يوسف الضائع، اذ لاتتطلب غيبان د م زليخا وخفقة قلبها ولا أنا .

كما نا نور الصباح ، قد غطيناه بأستار ، فلا أنت تملك الجرأة على تأمّل تجلّي النور (الله) في سيناء ولا أنا (1) .

وها قد حان موعد نضج اقبال واكتماله بعد كفاح وبعد صبر وتتلمذ على أيدي الشيوخ . صار اقبال مرشدا لشيخه وأصبح الشيخ مريدا يعلق بأذياله ، ولم يكن المرشد وحيدا في الأخذ من نار اقبال ونوره ، فهو يدعونا لمشاركته ولأخذ قبس من أنواره وكلماته ، اذ يكفي أنه ابن الهند الذي استمد نور عينيه من المشرق ، يقول :

- مرشدي (دليلي) الى منازل العشق يعلق بأذيالي ، فاقبس من ناري الخالصة شعلة وأمزجنها بترابك .

خرجت الشقيقة من قصرها في دلال وتيه كالعروس ، هلمّ الي لكي ألهب روحك بكلمات تبعث العشق .

ان أكن ابن الهند (ان كنت) ففي عيني نور ، هو من تراب بخارا وكابل وتبريز (2)

ويبقى همّ اقبال طلب الحياة في خطره ، فيأسف ويرثي لذلك الركب الذي يطلب الراحة ويدعو الى خور العزائم وفتور الهمم ويرثي له اذ يجتاز طريقا آمنا بلا خطر ، ويبقى أيضا همّه الدعوة الى اتباع العشق وأوامره وخوض بحاره والعزوف عن العقل ، يقول :

- وا أسفاه على القافلة (الركب) التي تطلب فتور الهمة وضعفها ، هي تجتاز طريقا ليس فيه من خطر .

فتجاوز العقل ودعه وتعلّق بموج بحار العشق ، اذ لا يوجد في النهر الفقير جواهر فقط (3) .

ولكن المشكلة التي تبقى محيرة لاقبال ولبعض المتصوفة هي معرفة الهدف الذي تصبو اليه خيالاتهم اذ من الصعب معرفة المعشوق رغم قربه ، هم يطلبونه ويتحرّقون شوقا وظمأ الى وصاله وهو يتفرج عليهم ، ولعل أمامهم حلا واحدا ، هو الانحناء على النفس وتأمّلها ومعرفتها والعكوف على أعماقها والتوغل في ادغالها وذلك فقط يكشف لهم عن الجمال الخفي ، يقول :

---

1 - رسالة المشرق ، ص 338 - 339 .
2 - رسالة المشرق ، ص 339 .
3 - رسالة المشرق ، ص 340 .

ـ ذلك الهدف الذي يقصده خيالي وخيالك ، هو على بساط أعيننا ولكنه مثل العيد لا يمكن أن يسرق .

نحن نتمنّاه وهو يتفرّج علينا ، عقد ما انحنيت على نفسي أتأملها انكشف الجمال المغلّف (1).

ثم أن المرشد الرومي كشف عن الهدف من وراء الاسفار ، وأبان بأنه أهل لأن تبذل في سبيل الوصول اليه كل تلك الاسفار والعذابات ، وتحرق في سبيله كل دار أو متاع حتى لا يشدّ الانسان الى الطين والى القعود ، يقول :

ـ حياة أولئك السائرين على الطريق في السير فقط ، فأنّى للقافلة المتّوجة من منزل أو وقوف .

أشعلت النار في هشيمي ، وتوهّجت فقال المرشد الرومي : إن غاية سيرنا هو الاعلى نفسه (2) ولأن اقبال اطلع على سرّ العشق وعرف أثره ، فانه لا يفتأ يعيد علينا قصة السلطان محمود الغزنوي الفاتح والمحطم للأصنام والذي لم يقو سلطانه وقوته على صدّ سلطان العشق ، يقول :

ومحمود الغزنوي محطم المعابد والاصنام ، ظلّ من العاشقين لاصنام قلبه (3).

الّا أن اقبال لا يغرق في بحار عشقه ولا يطلب لنفسه برجا عاجيا بعيدا عن أبناء وطنه وأمته ، فهو يظلّ من حين لآخر على المسلمين بآلامه وأحزانه وهمومه ويكشف لهم عن أسباب ضياعهم وغفلتهم عن تلك الدّرة التي في صدورهم والتي غدت من غفلتهم غريبة عنهم معطلة عما خلقت له ، يقول :

ـ لم أر امرءا أشدّ غفلة عن نفسه من المسلمين ، في صدورهم أفئدة ، ولكنها أفئدة غريبة تائهة (4).

كثيرة هي المعاني التي عمد اقبال الى تكرارها لتوكيدها واثباتها واتخاذ هذا قواعد ثابتة وقوانين للعشق ، منها أن العاشق لا يسأل عن الجزاء والعظمة اذ ليس في قانونه شيء عن النسب ولا عن فلان ابن فلان ، فقد تسوء قشة عديمة الشأن بدموخ جبريل ، ويفوز متسول برأس جمشيد وقد يعطى التاج لسجين الجبّ يوسف عليه السلام ، ودنيا العشق لا تعرف سيّدا أو أميرا ، يكفي فقط

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 340 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 341 .
3 ـ رسالة المشرق ص 341 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 342 .

لكي يرتفع المرء في درجات العشق ويبلغ أسمى مراتبه أن يكون عارفا بأساليب المحبّة وطقوسها على قوانينها وشروطها ،وأن يكون عارفا لقوانين خدمة المعشوق يقول :

ـ أخذ من الجبل علوّه وتسامه وأعطي للسنة التبن ، وأعطي رأس جمشيد لمتسول الطريق ليس في طريق العشق شيء من فلان ابن فلان ،ويد موسى البيضاء أعطيت لرجل ضعيف، ولكن الصولجان لا يعطى لوريث الملك ، قد يعطى لسجين الجبّ يوسف .(1)

ان دنيا العشق لا تعرف سيدا أو أميرا ،يكفي المرء العاشق فقط أن يتعلم أسا لبب وقوانين الخدمة (2) خدمة المعشوق .

قد يصل السالك بعد عناء الى الحرم ،ولكن ما فائدة القعود في الحرم وما جدوى دخول المعبد ، ان لم تكن بهما حرقة عاشق فان مجالس العشاق هي التي تجعل المريد يقعد هنا بشوق ،وفيها فقط يحضر العشق كلامه وأسراره حيث الراح والندامى ،ولذلك يدعو اقبال ـ الذي تغرّب عن نفسه في ديار الغرب ـ نفسه لتشرب أسا من خمر الصحاب، يقول :

ـ أنت لا تستطيع أن تستقر في الحرم ولا أن تدخل المعبد ،ولكنك تقبل بشوق وحنين الشاقين. فتعال يا اقبال واشرب أسا من حان صحابك ، لا تلتفت من حان الغرب غريبا عن نفسك (3)

للعشق كلام لا يحضره الا في صحبة ندامى الحان ، فالدير والحرم ليسا محرما لأسراره (4)

ومسرة أخرى يعود اقبال الى العقل فيربطه بالخرافة وينصح بالفرار من معبد الفلاسفة وبالتركون الى حمى الشاعر وحمّاه وانهصاره ،يقول :

ـ أي حيلة لدينا أمام العقل (ماذا نصنع) الذي لا يتوقف عن التفتيش ،انظر التي تأملني فان نظرة واحدة منك تحطم سحر بياني (مجازي واستعاراتي) .

ان قدرة العقل الخرافية لا تستطيع أن تبلغ اضطراب القلب الخفاق ، قدع معبد الفلاسفة وادخل في احتراقي وحمّاي وانصهاري (5).

اذا نصح اقبال بالاعتماد على النفس وأوقفنا على ذلك مرارا فان له غزلية يمكن أن نسميها غزلية الاعتماد على النفس ،لأنه وقفها على هذه الفكرة ، وفيها نصح بالاعتماد على النظر الخاص والخيال الخاص لكل واحد بعيدا عن نظرات وخيالات

---

1 ـ رسالة المشرق ص 342.
2 ـ رسالة المشرق ،ص345
3 ـ رسالة المشرق ،ص 343
4 ـ رسالة المشرق ،ص 347.
5 ـ رسالة المشرق ، 344.

الآخرين وتفكيرهم ، من أقسام عشقا على أغصان الاخرين فليحرقه ، ومن اراد التحليق في الفضاء فعليه أن يعتمد على أجنحته ، بل أن الخمر الزلال التي يشربها المرء في كأس غير كأسه تقتله ، ومهما حثّ الشاعر الى الوصول ، فانه يرضى بالهجر بعذابه عن وصال يكون بحسون الاخرين ، يقول :

— لا تكن كالمرآة تعتني في جمال الآخرين ، نزّه عينك وقلبك عن خيال الاخرين وتفكيرهم .

خذ من أنين طيور الحرم نارا ، واحرق عشك الذي أقمته على أغصان الاخرين .

وتعلّم التحليق في الفضاء بأجنحتك أنت ، ذلك أنه لا يمكن الطيران بأجنحة الآخرين .

أنا حرّ وغيور الى حدّ كبير ، يمكن أن تقتلني الخمر الزلال الصافية ان شربتها في كؤوس الاخرين (1)

أنت يا من هو أقرب الى الروح ولا أبصره ، هجرك عندي أحلى من وصال الاخرين (2)

للفلاسفة مداركهم وفهمهم للخلود ، وقد خامر أحلام الكثيرين رغبة في البقاء الدائم والخلود على وجه الأرض ، وكان الملك الفارسي الاسكندر واحدا من أولئك ، فقد روت الاساطير قصة سعيه وكفاحه من أجل الوصول الى عين الحياة والاغتراف منها ، ولكن الذي عرف نهاية الاسكندر هو في نظر العقلاء أعظم من الاسكندر ، لأن الخلود الحقيقي هو الذي يكون بعد ذلك المآل ، يقول :

— ذلك السائل الذي عرف مآل الاسكندر ، هو في نظر الحكماء العقلاء أعظم من الاسكندر نفسه (3) .

ان جعلت خمرة الغرب اقبال يعود الى مشرقه غريبا عن نفسه فان للمشرق ، والمشرق الاسلامي على وجه الخصوص خمرته الخاصة التي يطلبها اقبال ويدعونا اليها ، وللغرب أيضا خمرته التي سكبها من الاكواز والاقداح ، فكان بفعله ذلك مشغوفا في نظر اقبال ، يقول :

— سكب الغرب الزجاجا تو الاكواز والاقداح والقوارير اللازوردية ، وانى (لا تسأل في حيرة) : اذا لم تكن هذه الشعوذة الخالصة (4) .

هذا عن انتقاده للغرب ، أما انتقاده للمسلمين فكان أشدّ وقعا لأنه منهم ، ولأنه أدرى بخفاياهم ، هو نقد وحسرة وأسى في آن اذ لم يعد يربطهم شيء بالاسلام غير الاسم بعد ما عادوا الى عبادة الاصنام ، يقول :

— فماذا أقول لك عن المسلمين السلا مسلمين ، ما هم الا أبناء الخليل (ذريته) عادوا الى الآزرية (5)

---

1 — رسالة الشرق ، ص 344 .
2 — رسالة الشرق ، ص 345 .
3 — رسالة الشرق ، ص 345 .
4 — رسالة الشرق ص 345 .
5 — رسالة الشرق ، ص 346 .

بينما كان للشاعر في القسم الأول جولة مع فقيه المدينة كانت له في الثاني وقفة مع الواعظ الذي مهما أبان في حديثه عن طور سيناء ، فان كلماته خالية من حرارة التجلّي ، لأنه قد يسرد علينا القصة ، الا أنه يعجز عن وصف التجلّي الذي لا يعرف عنه أمرا ، يقول :

ـ ان يتحدث الواعظ عن طور سيناء ويبين ، فان كلامه خال من حرارة التجلي والظهور (1).

وللشعر عند اقبال هدفه ، الا أن في الناس من طلب منه شعر الدعة والسلامة والنجاة ، وشعر السكون الى الراحة والحان الهروب من الاحزان والآلام والمواقع . ولكن ليس في قاموس اقبال ونوتاته الموسيقية وآلاته أوتارا لعزف مثل تلك الالحان يقول :

ـ أتطلب من عودي أن يعزف ألحان السلامة والنجاة ، وكيف يأتي بأنغام لا توجد في أوتاره (2) .

وفي هذا القسم أيضا تحدث عن تسامية بطينه نحو العلا وازاحته الحجب عن الاسرار التي كان يطلبها ويتطلع اليها ويتعلمها . ولأن موازين الحياة اختلطت في عصره ، وخارت فيه الهمم وهدأت العزائم وانطفأت شعلة القلوب فان اقبال يرى ذلك العصر غير جدير بتقدير أو وقار أو احترام ، ومنه فهو غير جدير بأن يبوح فيه الشاعر بجوامع الاسرار التي أوصله اليها كفاحه ، يقول :

ـ من وراء حجب الدنيا لقنت سرّا ، ولكني لن أبوح به لأن هذا الزمن غير جدير بالوقار (3).

من آداب المتصوفة الودّ وحسن المعاشرة لأن من لا أدب له يبقى محروما من لطف السّرب ...

ومن لا أدب له لا يقتصر أذاه على نفسه ، وانما هو يشعل النار في جميع الآفاق (4).

وهذا اقبال ينصحنا باللطف في المعاملة وحسن الادب والمعاشرة ، ويذكر أن الصداقة والرفقة والصحبة والاخوة هبة إلهية ، لا يجب أن تخدش ، يقول :

ـ لا تقل كلاما غليظا واجتهد في طريق الوداد وحسن المعاشرة ، لأن صحبتنا (لقاءنا) هبة الهية (5)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 347 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 347 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 347 .
4 ـ جلال الدين الرومي ، المثنوي ، ترجمة عبد السلام كفافي ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ج 1 ، ص 80 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 348 .

ومرّة اخرى يذكّر اقبال الملائكة وكل النورانيين بطبيعة الانسان ، ذلك المخلوق من طين ، المتجاوز بطموحه وآماله وساعيه الطين وعتمته ، والمتسامي الى الثريا والنجوم ، والذي صار يسعيه ذاك جديرا بأن ترفع أمامه الحجب وتتجلّى له الاسرار ، يقول :

ـ نحن من طين جبلنا ، ولكننا في سرعة السير مثل النجوم ، نطلب الساحل في خضم بحر أزرق .

قبل الأولئك النورانيين (الملائكة) نحن من طين ، ولكن قد تاهينا فأمسكنا الثريا والنجوم(1) قد خلقنا في الروض أعينا ناظرات مثل النرجس ، فارفع الحجب عنا اذ كنّا أعين ناظرات(2) .

ولاينسك اقبال في خضم هذه الافكار عشقه وهيامه ، فيدعو على نفسه بالخفقان والاضطراب ، وان كان لابد لاقبال من قعود فان قلبه لايرضى قعودا ، وانه ليحذر من العقل الذي قد يكفّه عن مثل ذلك السفر الروحي لأنه لا يرسم الّا خطط اليأس ، والى جانب دعوته على نفسه بالسفر يدعو لكل الارواح بالحرمان من الاستقرار ولو للحظة واحدة حتى تعرف قدر الخفقان ، يقول :

ـ الحياة خفقان واضطراب خفقاني أزلي ، فلتكن كل ذرّاتي تترابي قلبا خافقا بلا قرار .

ليكن قلبي مسافرا وليرعه الله ، ليس له في طريق وقوف وليس له في منزل اقامة .

احذر العقل الذي لايرسم الّا كلّ غير مأمول (صور اليأس) ، مزقت الحانه قلوبنا فلتحرق أوتاره (3) .

ولتحرم روحك من الهدوء والاستقرار ولو للحظة واحدة ، وليتجلى لك احتراق الحياة واضطرابها (4) .

ويتوجه الشاعر لكلّ حرّ النفس غيور أبي فينصحه بأن لايسأل الملوك والسلاطين شيئا انما ينصحه بالسماع لشعره علّه يجد فيه دواءه ، ففيه سرّ الدراويش ورأسمال الملوك ، يقول :

ـ أيها النرجس الغيور لاتقف بحاجتك بين أيدي الملوك والسلاطين ، فان عمل القادر لايأتي من الجبل بقشة .

ولاتتجاوز ألحان شوقي ، لأنك تستطيع أن تجد فيها ، سرّ الله راويش ورأسمال الملوك .

اذا أدركت سعادة آهات السحر وأنفاسه ودعوته ، فان أنفاسي تصنع معك صنيع النسيم مع الورود (5) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 348 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 349 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 349 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 350 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 350 .

أما المشاكس التي شرحتها اقبال فكثيرة وشديد هو الحزن الذي أحرق قلبه من جرائها ، موت المسلمين ، برودة قلوبهم ، نوم شبابهم ، ضياع فجرهم وأنفاسه الطاهرة ، جنون تقليد الغرب ، محنة المعبودات الجديدة ... والحل في أيدي المسلمين ، انه في توجههم نحو بلاد العرب حيث الاثواب الايمانية اللطيفة ، المفصلة على مقاس شيوخ المسلمين ، ومرشديهم ، والحل الذي يخلصهم من محنتهم هو التعلّم من حلة الرسالات السماوية ، نحو تعلّم معجزة سليمان من جديد ، يقول :

ـ لا تهتم أيها الشيخ فلا وجود (هنا) لثوب على مقاسك ، ولكن يوجد في بلاد العرب ثوب بقدك لطيف جميل .

أيها المسلمون تعلموا من جديد معجزة سليمان ، فان نظرة الى الخاتم تجعل الشيطان عدما ، انه عدم (1) .

ولأن أمة المسلمين غطت في سبات عميق ، فشبابها نوم وشيوخها بلا حرارة قلوب لا قلب فيها يرقب تنفس الصباح ، ولا شيخ فيها يرشد الناس ، فقد بحث اقبال لمشكلا تها عن حلّ ، وجعل من نفسه مرشدها الروحي (الفتي) الذي يدعو الناس الى التعلق بأذياله ، لأنه لا يبيع خرقا ممزقة وانما يهدي قلوبا حيّة نابضة ، منورة ، يقول :

ـ شبابنا نوم ، وشيوخنا بارد و قلوب (وتاهما) ، لا وجود للقلوب التي ترقب تنفس الصباح .

لا تبحث عن عذر للتوقف بصحراء الطلب هذه ، اذ لا يوجد في زماننا مرشد عارف للطريق .

تعال وتمسك بأذيال اقبال ، فهو ليس من بائعي خرق الصوفية (2)

والقلب الذي يهبه اقبال والحكمة التي يعلمها للناس هي اسرار كلمة "لا اله الا الله" وما تحدثه من أثر في النفوس ، يقول :

ـ ضع سيفك لا (لا اله) في يد الكافر وانظر من بعيد ، وأشد النظر الى هذه الدنيا لترى جلبة ونورة إلاّي وانظر فعالي (3) .

المسلم حيّ ، وهو أشد حياء بين يدي الرحمن ، يخاطبه من وراء الحجب ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 351 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 351 352 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 353 . (ويريد بها لا اله الا الله) .

- أقول للرحمن من خلف الحجب ، وأقول لك بلا حجاب ، يارسول الله ؛ اذ كان هو خلف ، فانك أنت ظهوري (1) . وكان هذا ما ختم به غزليته ما قبل الاخيرة ليأتي الى آخر غزلية ، فيفعمها بأساه ، وأسفه على انسان عصره الغافل عن نفسه ، الناحت في كل يوم أصناما ومعبودات جديدة ، الجاهل لقدر نفسه ، الغافل عن الدرر الكامنة بأعماقه ، الضال (الباخل) على نفسه ولو بنظرة ، وبذلك يثبت خط سيره مرة أخرى و يحدد مجراه في وضوح ، يقول :

- أسفي عليك تحت أصناما جديدة ، أسفي عليك اذ لم تغص وتبحث في نفسك .

هكذا انصهرت من حرارة الغرام ، أسفي عليك فقد سقطت في نظر نفسك (2) .

في عالم يعطي لهذا التراب قدرا عاليا (الانسان) ، أسفي عليك اذ لا تريد أن تلقي عليك ولو نظرة .

قد قرأ تبلا شك كتاب العقل ، فأسفي عليك اذ لم تفهم حديث الوجد والعشق .

طفت بالكعبة ، وطفت بالدير ، فأسفي عليك اذ لم تطف بأعماقك ولم تلتف حولها (3) .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 353 .

2 - رسالة المشرق ص 353 .

3 - رسالة المشرق ، ص 354 .

و ـ صـــورة الـفـرنـســج :

صـــورة الفرنج أو لـوحـة الفـرنـج عبارة عـــن أربـع وعشـريـن قطعـة وقصيـد ة ، ومع أنـه لـم يخـل مـن اشـارات اقبـال وانتقاد اتـه ، فـانـه مـوجـه بـالـدرجـة الاولى الـى الغـرب .

وكـأنـه يقـف في مقابل الاجـزاء الاخـرى الموجـهـة علـى الخـصوص الـى الـشرق والشرق الاسـلامي بـالدرجـة الاولـى ، وفيـه يتحـد ث عـن عظمـاء الفـلاسفـة والشعـراء والسـاسـة في أوربـا . وقـد كـان اقبـال محـقـا حيـن أسمـاه لـوحـة الفـرنـج لأنـه كـان بمثـابـة الصـورة التـي تـرى فيهـا الغـرب ونعـرف أفكـاره عـن نفسـه ، كمـا نعـرف الصـالح منهـــا والطـالـح ، ولكـن اقبـال لـم يغفـل مـا عـوّدنـا عليـه من لفتـات ونصـائـح وانتقادا ت ومنـاقـشـة لمـذاهبـهـم ، غيـر مغفـل لبعـض رواد الشـرق وعلـى رأسـهـم جـلال الديـن الـرومـي ، ولا سيمـا في المقـارنـات بيـن الأعـلام .

استهـل اقبـــال هـذا الجـزء الاخيـر مـن الديـوان بـرســـالـــة مـن لـسـون التركيـب بنـد أرسلهـا للغـرب ، وفيهـا كشـف النقـاب عـن الاضـرار التـي ألحقتهـا العبـوديـة العـلـم والعقـل الغربـي بالكـيـون ، والدمـار الـذي خلفتـه ، وفضـح تـزييـف الغـرب للحقـائـق ومكـره وخداعه وفيهـا خلـع النقـاب عـن العقـل ومـا الحقـه بـالروح والقلـب مـن خـواء ، فكـان لايفتـأ ينـصـح الـــــغـرب بالعـودة الـى القلـب والعشـــق اذ فيهمـا الخـلاص ممـا حـاق بهـم مـــن بـــلاء العقـــل ، ذلـك الخـمّـار الجبـان الـذي ترتجـف فرائصـه أمـام ضـوء البـرق فيختفي ، يقـــول :

ـ يتحـد ث العشـق برقـا ، خـاف منـه العقل فاختفى وهـدأ ، سحـر العقـل ، ولكـن العشـق كان أدرى بالقلـــوب والاكبـاد (1) .

وفـي الـوقـت الـذي تـاه فيـه الغـرب فخـرا بمبتكـرات العلـم وألـــهـ العقـل والانسـان وادعّى أنـه جـاء بمعجـزات الأنبيـاء ، ألقـى اقبـال الضـوء علـى التصـف المظلـم الاخـر وهـو العرضـى الـذيـن خلفهـم ، وتحـداه ان كـانـت تلـك حقـا معجـزة المسيـح ـ كمـا يـزعمـون ـ فلمـاذا لـم تشـف مرضـاهـم ، يقـول :

ـ ليـس عجيبـا أن تملـك اعجـاز المسيـح ، ولكـن العجيـب من هـذا هـو أن مرضـاك غـدوا أشـد اعتـلالا وعنـاء .

---

1 ـ رسـالـة الشـرق ، ص 357 .

تجمع العلم وتدخره ومن الكنف تلقي الفؤاد ، فسأء على ذلك الكنز الثمين الذي ضيعته ، قد قطعت طريق رجال يقظى القلوب فطنين (1).

لذلك يقترح عليهم اقبال حلا ودواء للأضرار الجسيمة التي ألحقتها فلسفتهم بالقلوب ، والدواء الذي أحدثته فيها والخفقان والاضطراب للذين ذهبت بهما ولم تبق أثرا للسعادة ، والحل هو العودة الى العشق والسجود بين يديه طلبا للعلاج ، يقول :

ـ لم يعل القلب من برد نارها (الفلسفة) الى الخفقان والاضطراب ، وليس في جاذ بيتها حقيقة السعادة .

ـ فتعالوا نرجو من العشق دواء ، ونسجد بين يديه ونظهر حاجتنا (2).

ولا ينفك اقبال يسلط فكره وأضواءه على أضرار العقل رغم ما يتحلى به من مظاهر تعبير لتكون اذ ما فائدة التعبير وتحويل رمال الصحراء الى ذهب ، وقد ضاعت من سحره أواصر المحبة ، وقد كشف الزمن ألاعيبه وافتضح الغرب بعلمه الذي حولته تقنياته العقل الى تراب ، واقبال الذي كشف كل ذلك يسأله ان كان سيظل في تلك المدة لا يزرعون غير الشرر ولا يحصدون الا النار ، يقول :

ـ حولت كيمياؤه رمال الصحراء الى ذهب خالص ، الا أنه لم ينر في قلوبنا اكسير الحب قد وقعت سذاجتنا وبراءتنا ضحية سحره ، فكقاطع طريق هو ، ينصب في طريق الانسان كمينا . فجر فنه وتقنياته الغرب وأحاله ترابا ، ثم ذر ذلك التراب في عيون ابن مريم .

فالى متى ونحن نزرع الشرر ونحصد النار ، والى متى تعقد للقلب هموما ثم نحلها (3)

لماذا العشق حلا لداء العقل ؟ لأن العقل أناني والعشق انساني ، الاول ينظر الى الظاهر والثاني يتوغل في البواطن ، العقل يرى الظن والشك والعشق يخترق الحجب فيرى اليقين ، انه يأخذ النور من الملائكة فيهبه للقلوب التي دمرها العقل وينير شمعتها التي أطفأها العقل ، يقول :

ـ الاول يمر بالعيون مثل النسيم ، والآخر يتوغل بأعماق الوجود والنسرين ليصيبه سرا (4).

الاول ينظر من ذلك الجانب الخفي المستور فيرى ظنا وشكا واحتمالا ، والاخر يرسل نظراته من هناك مجتازا كل الحجب .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 358 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 358 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 359 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 359 .

ولكن ما أسعد ذلك العقل الذي أحاط بالعالمين (الدنيا والآخرة) ، ذلك الذي يأخذ النور من الملائكة ليشعله (ليقذفه) في قلوب البشر (1) .

للعقل صاحبه وللعلم قائده ، وهو الانسان حامل راياته ، ذلك الذي سكتته آفة الافساد في الأرض فغدا يؤثر الحرب على السلم ، وبهذا لو استخدم تلك الاسلحة المدمرة في دمار الشر وفي خدمة الانسان ، انه راح يفتك بهما ويفترس الابرياء ويعذبهما فوق هذا في صدور الأحبة والأصدقاء ، فهو قاطع طريق اخترع بحيل عقله مصطلحات جديدة تصف القطع أمنا ، ولكن آن أوان اصلاح هذه القوانين الزائفة بل تحطيمها وخلق قانون جديد ، وآن أوان تطهير القلوب وبدء حياة جديدة ، اذ ليس للقوة من بقاء ، والا فأين قوة الاسكندر ودارا ، يقول :

ـ آثر الحرب على السلم ، وعبأ الجيوش ونظمها ، فلم يصب سيفه الا صدور الاصدقاء قطع الطريق وسمح القاطع أمن الدنيا وحفظها ، قد قصم ظلمه المتغطرس وسط عبيده .

قد آن أوان وضع قانون جديد ، وأوان غسل الروح القلب الطاهر وبدء حياة جديدة .

قوة الملك زالت ، قد أغير عليها ، ومضى لحين الاسكندر ومضت نغمة دارا (2)

واذا تصدى العبيد فرهاد للأسياد وأعلن الحرب ، فان قوة هذا العصر أيضا سوف يقهرها العبيد أمثال فرهاد وهم كثيرون بكثرة أمثال پرويز ، وهم الذين سيغيرون وجه الدنيا ويخلقون حياة جديدة تبصرها الارواح الطاهرة وتتعرف عليها قبل أن تولد هي حياة يجب أن تذهب منها أشياء كثيرة وتخلق أخرى بعد ما قضى عليها ، يقول :

ـ حمل فرهاد نحات الجبال الفأس بيده ، قاصدا ملك پرويز ، فقد ولت عهد الأسياد وانتهت محنة العبيد (3) .

ـ ان كنت صاحب نظر فافتح العين عليا ، لترى الحياة وهي تسعى لتعيد نيا جديدة انني أبصر في هذا العالم الترابي جوهرة الروح ، وكل ذرة فيه تراها عيني كنجوم ناظرات ، وتلك البذرة التي لا تزال بصدر الأرض الى الآن اراها ، ذات أغصان وجذع وثمار يانعات .

ذلك الذي كان ولم يكن يجب بقاؤه سوف يذهب ، وذلك الذي كان يجب أن يوجد ولم يكن فسيكون (4) .

ويختتم اقبال رسالته الى الغرب باحدى نفحات العشق وبقبسات من الأمل في الخلاص حاء تـه في ظلام الغرب الحالك وقد حاربه بالشموع فأثارت شمسا ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 360 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .
4 ـ رسالة المشرق ص 362 .

فسي ظلام الليل جاء تني من الصبح بشارة ، أطفىء الشمع ولاحتالي من الشمس إشارة (1) .

ـ جمعية الأمم :

بيتان من الشعر ولكن فيهما تسقد لاذع لحقيقة عصبة الامم .

وصفها اقبال بأنها جماعة من نباشي القبور جاءوا بعد ما دمّروا وخربوا وقتلوا وحولوا الجنان الى مقابر ليدّعوا اخماد نار الحرب ، والحقيقة أنهم جاءوا لاقتسام القبور ، يقول :

ـ والذي أعلم قبل هذا أن نباشي القبور ، كونوا جماعة لتقسيم القبور (2) .

ـ شوبنهاور ونيتشه : (3)

قطعة فيها ملخص لأهم أفكار الرجلين ، وهي ارادة القوة التي كانت عند نيتشه منبع كل خير وفلاح ، وكانت عند شوبنهاور منبع كل شر وخسران .

صاغ اقبال فكرتهما على لسان طائر شاك متألم بساك متشائم (هو شوبنهاور) وهدهد قوي يدعوه لأن يكون أقوى (هو نيتشه) يقول :

ـ ناح حتى تناثرت من حنجرته نغمات تعذاب ، نغمات من دماء ، وهطلت من عينيه دموع غزار .

فاستدر شعار حزنه عطف الهدهد ، الذي راح بمنقاره ينزع الشوكة عن جسده .

وقال له : استخن من كل خسارة لك ربحا ، فالورد لا يأتي منها الذهب الخالص الا عندما يمزق صدرها .

اذا أصبت بجرح فاصنع من ألمك وجرحك الدواء ، والف الشوك لتغدو كلك روضا (4) .

ـ الفلسفة والسياسة :

قطعة من بيتين ، عالج فيها ذلك النقاش الذي كثيرا ما يقوم حول أفضلية أحد هاتين على الأخرى ، ولكن اقبال هزأهما معا وردّهما مدحورتين ، فليست

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 363 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 363 .

3 ـ شوبنهاور آرثور : (1788 ـ 1860) فيلسوف مثالي ألماني ، رفض فكرة التقدم التاريخ نادته العامة للعالم مشبعة بكراهية الثورة والناس ، وهي نظرة متشائمة للغاية ، قمة فلسفته المثال التصوفي للنيرفانا أي وإد ارادة الحياة التي اقتبسها من البوذية .
وقد شكلت آراؤه الاساس الايديولوجي لفلسفة نيتشه (الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، ص 266) .

ونيتشه فريدريك (1844 ـ 1900) فيلسوف ألماني مثالي ، هو رائد الايديولوجية الفاشية ، سيطرت على نظريته العامة للعالم الكراهية لروح الثورة وللجماهير ، أعاد تقديس مبادئ الايديولوجية البورجوازية الليبيرالية وعلم الاخلاق التقليدي والدين المسيحي ، واعتبر أن هذه المسائل تضعف من ارادة الصراع وانها غير قادرة على سحق الحركة الثورية الصاعد واقترح ان تحل محلها المبادئ اللاانسانية وغير الديمقراطية ، فلسفته هي فلسفة الارادة القو
(ص 353 ـ 354 ، الموسوعة نفسه)

4 ـ رسالة المشرق ، ص 365

كل سياسة سياسة وليست كل فلسفة فلسفة ، وردّ فلسفة وسياسة التزوير والتمويه والخداع ، وأمثلة هذه الانواع بماعا فلسفة عصره وسياسته ، يقول :

ـ هذه تنحت من قول الباطل الأدلة الحكمات ، وتلك تنحت من قول الحق حجبا واهيات (1) .

حوار المذاهبين :

قفي وأبيات صاغها اقبال على السنة مجموعة من فلاسفة الغرب وشعرائه مستصفيا اليهم مزدك وفرهاد من فارس ماقبل الاسلام وجلال الدين الرومي بعد الاسلام . صاغ بعضها في الحديث عن مآثر واحد من هؤلاء ، والملاحظ ان تلك القطاط القصيرة والابيات تجسّد أهم أفكارهم ، ان لم نقل هي أهم أفكارهم ، نقلها اقبال : لكل من (تولستوي ـ ماركس ـ هيجل ـ لينين ـ مزدك ـ فرهاد ـ نيتشه ـ اينشتاين ـ بيرون ، جلال الدين ـ بتوفي ـ أوجست كونت ـ غوته ـ برغسون ـ) الا أن أهم ماشغل اقبال في هذا الحوار هو ازاحة الستار عن الظلم الرأسمالي ومحاربة نظام الاستعباد .

فتولستوي (2) يتعجب من سريان قانون العبودية بين البشر مع أن الأرواح هبة الهية ، لايهبها سيد لعبد أبدا (3) ويتمثل على الفكر الذي أبدع فلسفة الظلم هذه ، العبود يقيصفها بالجور (4) ويرى ماركس (5) أن تزايد أملاك الرأسمالية سيكون سببا في قتل الأخ لأخيه وقتل الناس جميعا (6) أما هيجل (7) فيتألم من سريان تلك الفروق الواهية في قوانين المجتمع ولكنه يعلمن رفضها لأن وقت القضاء عليها قد حان ، والحرب بين السيد والاجير قد نشبت وهو مايذهب اليه مزدك الذي يدعو اقبال على لسانه كل العبيد (أشباه فرهاد قتيل پرويز) الى الاقتصاص لكرامتهم المهانة واستعادة المجد الضائع ، واقبال يذكر فرهاد ، انما يرمزبه لكل العبيد وكل الأجراء وكل المظلومين الذين لهم فأس تدور وتهدم الجبال

1 ـ رسالة المشرق ، ص 365 .

2 ـ تولستوي ليف نيقولا يفيتش (1828 ـ 1910) كاتب روسي تعكس كتاباته معظم جوانب الحقبة الممتدة بين 1861 ـ 1904 . الفن عنده يجب أن يوحد بين الناس ويساعدهم على تحقيق مثلهم . هو صاحب نزعة انسانية طالب باحتجاج الجماهير ضد عدم المساواة الاجتماعية والقهر (الموسوعة الفلسفية ، ص 148 ـ 149) .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 366 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 367 .

5 ـ ماركس كارل (1818 ـ 1883) مؤسس الشيوعية العلمية وفلسفة المادية الجدلية والمادية التاريخية ، والاقتصاد السياسي العلمي ، وزعيم البروليتاريا العالمية (الموسوعة الفلسفية ، ص 438) .

6 ـ رسالة المشرق ، ص 366 .

7 ـ هيجل ، (1770 ـ 1831) فيلسوف المثالي الكلاسيكي المثالي ، موضوعي ، عدّ مؤسسا لفلسفة الرسمية لبروسيا الملكية ، أعلن أن الملكية البروسية هي قمة التطور الاجتماعي كما كان لفلسفته أثرها على تطور الفلسفة الماركسية (الموسوعة الفلسفية ص 568 .)

فهو حينما يدور الخط الى جانب بروميثيوس وأمثاله ، يقول :

ـ ان كان فاسي يستطيع أن يهدم الجبال ، فان الخط الذي الآن يدور الى جانب بروميثيوس (1) .

اما بيتهوفن فكنا رأينا في القطعة السابقة يدعو الى القوة والى ميلاد الرجل الاعلى "سوبرمان" ويحمل لواء القوة ويرفع لواء الحرب ، انه ـ كما يرى الشاعر ـ مشعل مائة ثورة وفتنة في بلاد الغرب .

ولكنه على الرغم مما أحدثته فلسفته من دمار (الحرب العالمية الاولى ، ولو عاش اقبال لرأى الثانية) وعلى الرغم من أنه كان يطرب للقوة والعازف على أوتار الحرب ، فقد كان مؤمن القلب ، اذ يدعو الى خلق انسان جديد قوي ، وان كفر فكره ونادى مرارا بالقتل ـ حتى الحرب في المفهوم المسيحي) يقول :

ـ خفق فكر الحكيم من ضعف الانسان ، فابدع جسدا أشد احكاما .

والقى في بلاد الغرب مائة ثورة وفتنة ، وكالمجنون وصل الى دكان من زجاج (2)

غمز في قلب الخمر خنجرا ، واحمرت يداه من دم المسيحيين .

قد أقام على أرض الحرم معبدا ، فقلبه مؤمن وفكره كافر (3) .

وكان لآينشتاين (4) مكانة في نفس اقبال لما ابدعه ، فقد حل معضلات كبيرة وكانت أنوار معرفته وعلومه أقوى من نار سيناء ، الا أنه جمع في ذلك الابداع بين عبادة النار وطلب النور والتجلي ، يقول :

ـ غير صبور مثل موسى فقد ظل يطلب التجلي ، حتى حل عقله المستنير أسرار الانوار .

فاذا بتجليه وظهوره أشد التهابا من ادغال طور سينا . (5) .

ماذا أقول في تقدير مقام هذا الحكيم العظيم ، هو زردشتي تجلت من نسل هارون وموسى (واذ يعجب اقبال بفكر هيجل ، فان بينه (هيجل) وبين جلال الدين الرومي فروق شاسعة ، انه يتطلع الى فيلسوف الالمان أثناء صحوه وقبل أن يثمل من خمر المعاني وخمر الاسرار

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 368 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 368
3 ـ رسالة المشرق ، ص 371 .
4 ـ اينشتاين ، البرت آينشتاين ، فيزيائي الماني (1879 ـ 1955) أخذ الجنسية الامريكية عام 1940 ، وضع نظرية الحركة الراوتية ، توصل الى تصور الفوتونات ، وهو صاحب النظرية النسبية التي ميزت العلوم الحديثة ، كان مغرما بالعدالة ، تدخل كثيرا من أجل السلام المدائم ، تحصل على جائزة نوبل عام 1921 . (1955) Petit l arrousse ,
5 ـ رسالة المشرق ، ص 369 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 370 .

والمعرفة ،أما جلال الدين فلا يستطيع رؤيته الا بعد سكره ،أو لنقل بعد محوه الحقيقي عندما يغمض عينيه عن كل شيء يتجلّى له الشيخ الرومي لينير له العالم المظلم بنوره ،ويفيء له دربه بنصحه ،يقول :

ـ هو في تجلّيه شمس ،تنير آفاق الروم والشام .

قد ألقى شعلته على العالم المظلم ، مثل مصابيح الرهبان في الصحراء .

قال لي أنهض لماذا تنام؟ ،انك تجري في سفينة من سراب .

أتبحث بالعقل عن طريق العشق ،أو تبحث بالمصباح عن الشمس(1)

اذا كان للتاريخ طريقته في تخليد الابطال وتدوين الحقائق ،فللشعر طريقته التي يستطيع أن ينافس بها التاريخ ويتفوق عليه ،وما وصف اقبال لبطولة الشاعر بتوفني (2) الذي افتدى الوطن بنفسه ولم يعرف له أثر ،الا دليل على مساهمة الشعر في كتابة التاريخ بطريقته الخاصة ،يقول :

ذبت في الحانك ،فكلماتك هي لحمك ، لم تعد الى التراب ثانية لأنك ،لم تكن من تراب (3) .

تحتاج الفلسفة من اباطيل الأدلة المحكمة ، وقد أعطانا اقبال صورة لذلك التحليل والتعريف متمثلة في الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت (4) في حواره مع أجير سلك كونت في حواره كمثل دروب الاحتمال ليقنع الاجير ،وليبقيه أجيرا أبدا ويبقى صاحب العمال ملكا أبدا ،وليوهمه أن وجود سيّد آمر وعبد مأمور أمر طبيعي ،وان لكلّ عمله الذي خلق له ،للاجير عمله الابدي وللسيد أوامره الابدية وأوالمه الابدية ،يقول :

ـ واحد سيد آمر ،والاخر عامل ، محمود لا يستطيع القيام بعمل أياز .

ألا ترى أنه من قسمة الاعمال تكون طريقة الحياة ، وأن صحراء أشواك الحياة تصير روضة كاملة (5).

ولكن الاجير أفاق من غفلته الطويلة وردّ كل مزاعم الفيلسوف وكشف كل حيل الرأسماليين فقال :

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 372 .

2 ـ بتوفني : (1823 ـ 1849) شاعر مجري مات شابا في ساحات الوغى ، مات في السادسة والعشرين من عمره ،وهو يحمل وطنه في حرب التحرير المتقدة بين (1848 ـ 1849) ولم يعثر على جثمانه (petit larousse 1985)

3 ـ رسالة المشرق ،ص 373 .

4 ـ أوغست كونت: فيلسوف فرنسي ،(1798 ـ 1857) هو واضع مبدأ الايجابية وكانت محاضراته فيها سببا في ظهور تيار فكري ميز القرن التاسع عشر ،كما يعتبر من مؤسسي علم الاجتماع (petit larousse 1985).

5 ـ رسالة المشرق ،ص 374 .

أعطيك الخاتم الحاتمي بالذهب ، وتدنو مني مأمورا مسلطا .

أنحني بها حسب الحكم التيراث حق فرهاد ، ليرويز المنافق الذي لم يكن يحل شيئ لا تطهير الخطأ بسحرك كالسواب ، فالخطر لم يخدع بشباك السراب .

انه الرأسمالي عبء على ظهر الأرض ، ذلك الذي لايعرف إلا الضيّ والاكل والشرب انما تسعد الدنيا وتفرح بفضل يد ذلك العامل الاجير ، ألا تعلم أن هذا الثري ليس إلا لصّا محتالا .

أ فتأتي باعذار ومبررات على اثم جرمه ، أولم ينتهك هذا العقل والعلم عن الغدر والتزوير والخداع (1)

أما غوته شاعر الغرب ، وأما أخلاقه وأنوار قلبه وصفاء روحه ، فقبسات من الشرق بأسره وصفائه .

في حوار بين الشاعر الرومي (شاعر المسلمين) وشاعر الالمان غوته عصور اقبال المرشد الرومي في حالة اعجاب بخوته المريد الناشئ مريد المشرق ، وقبول الرومي صحبة غوته ورضاه عنه بعد سماعه لبّ أفكاره وثناؤه عليه دليل على أنه وصل منزلة لايصلها كل شخص ، يقول :

ـ حكيم الالمان في جنة إرم ، قد فاز بصحبة شيخ العجم .

تحرّ على العارف أسرارا قديمة ، قصّة لعشاق يسبابليس والحكيم .

فقال الرومي ، أنت يا من رسمت للكلام روحا ، أنت صيّاد ولكن صيدك في السماء .

فكرك اختار الخلوة في سويداء الفؤاد ، ليعيد خلق هذا العالم القديم .

ليس كل شخص قد تجلت له أسرار العشق ، وليس كل شخص يأهل لهذه المنزلة (2)

ونحن نتتبع حوار المراحلين يقفز بنا اقبال الى حان الغرب ، (حانة الفرنج) أو دنى التي أشار فيها اقبال زمنا وراء خلو آثار خمرها من المجلس ومن الاحتراق لأن العقل فيها سنّ خمرها على كنوز العشق ، يقول :

ـ اذكر أيامنا كنا نحتفي بها بحانة الغرب . . . كان تجلّيها من غير موسى وكانت نارها بلا خليل ، قد أغار العقل الحذر على متاع العشق ، ليمرح في هوائه لتطلي آمنة حرّى (3) .

هذا ولايفتأ اقبال يعلن حربه الكبرى على الرأسمالية ، مرة يقحم الاجير فيلسوفا وأخرى يهاجم فيلسوف القيصر وأمثاله من المترعين على العروش ، المتوفين ، أنه لينين (4)

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 375 .
2 ـ رسالة الشرق ، ص 376 ـ 377 .
3 ـ رسالة الشرق ، ص 378 .
4 ـ لينين ، فلاديمير ايليتش (1870 ـ 1924) هو الذي أكمل طريق ماركس وانجلز ، وهو زعيم البروليتاريا الروسية ، والدولية ، ومؤسس الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي (الوسوعة

فمن حوار لهما من القيصر ولهلم (1) ، فقد استبعد القياصرة الانسان وأوقعوه في حبائل حيلهم حينا من الدهر ، ولكن شدّة الجوع حركته ودفعته الى الثورة على الاسياد والملوك والقياصرة فراح يمزّق أثوابهم الملونة بدماء كدح العبيد وأثواب رهبان الكنائس ، اذ كانوا اليد المساعدة للقيصر في الخفاء ، الظاهية لما تبقى عنه ، يقول :

ساخرية حيلا وخدع استبداد الامبراطور ، كان أسير شباك حلقة الكنيسة .

ولكنه رأى أخيرا غلاما جائعا ، قد مزّق ثوب السيّد الملون بدمائنا .

وأحرق شرر نار الشعب العتاق القديم ، وأحرق ثوب راهب الكنيسة ولباس الملك (2) .

ـ الحكماء والشعراء :

اذا أنهى اقبال حوار الذاهبين فان مابعده ، أيضا كما تالراجليمن قسمها الى شطرين نصفها للحكماء (لوك ـ كانت ـ برغسون) والنصف الآخر للشعراء قسمه بين شاعرين من الغرب (برونتنج ـ بيرون) وآخرين من الشرق (غالب وجلال الدين الرومي) .

وهذه عبارة عن كلمات موجزة ، أو توقيعات خفيفة ، أورد ها اقبال على لسان هؤلاء الحكماء والشعراء ، أنطق فيها كل واحد منهم ببيت من الشعر وفق ما كان يدعو اليه ويعتقده من أفكار ، ومن ذلك فقد جاء الابيات ـ وان كانت لشخصيات مختلفة ـ يكمل بعضها بعضا حتى لكأننا نقرأ حوارهم وقد جلسوا جميعا يتبادلون أطراف الحديث ويدلون بآرائهم ، يقول :

لوك (3) : جاء في الشقيقة الف الروض فارغة الكأس ، تملأ القدح من شعاع الشمس .

كانت : قد أعدتها الطبيعة خمرة صافية اللون مشرقة ، فهي تملأ نجم كأسها من محرم الأزل .

برغسون : هي لم تأخذ من الأزل لا الكأس ولا الخمر ، فقد أخذت الشقيقة نارها من حرقة وكي قلبها .

برونتنج : ان خمرة الحياة الصافية الخالصة بلا فائدة ، لذا فاني أملأ قدحي من ماء الخضر .

بايرون : اننا لا نستطيع أن نسم الصدر وظهيه من سنّة الخضر ، فمن ماء القلب أملأ كأسي .

---

1 ـ ولهلم : قيصر روسي .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 379 .

3 ـ لوك : فيلسوف انجليزي (1632 ـ 1704) ، ألف التجربة ، فقد رفض الافكار المسبقة ليجعل التجربة منبع المعارف ، له رسائل في الانفتاح على الآخر وفي الحكومة المدنية ، جعلت منه مؤسس الليبيرالية ، أثر في التكوين الامريكي وظهور حقوق الانسان (petit larousse 1985) .

ـ كانت : فيلسوف ألماني (1724 ـ 1804) وضع في فلسفته اجابات على مايمكن أن يعلمه الانسان وماينبغي أن يعمله ، ومايسمح له بالحكم فيه (petit la rousse , 1985) .

ـ برغسون : هنري برغسون (1859 ـ 1941) فيلسوف مثالي فرنسي مثل الحدسية ، برز برغ في آرائه عن الزمن تعبر طبقة لاخرى باعتباره حالة طبيعية وباعتبار الحرب قانونا للطبيعة مختلفا ، (الموسوعة الفلسفية ، ص 42) .

ـ برونتني : روبير برونتنج ، شاعر بريطاني (1812 ـ 1889) بلندن ، وهو شاعر الالهام الرومنسي (petit la rousse 1985) .

ـ بايرون : جورج بايرون شاعر انجليزي (1788 ـ 1824) أشعاره ثائرة على ألم الحياة ومعاناته وسط المقاطعين اليونان من أجل حريتهم جعل منه نموذج البطل والكاتب الرومنسي (1985

غالب: حتى تصير الخمرة أمرّ والصدر أشدّ احتراقا ، فاسقني أذيب الزجاج وأملأ كأسي .

جلال الدين: أين ذلك المزيج من جوهرهما الخالص أين ؟ ، من عروق الكرم آخذ خمرا وأملأ كأسي (1) .

حانات الفرنسج:

مرة أخرى يعود بنا الشاعر الى حانة الفرنجة ليكشف أشياء أخرى فهي حانات أساسها السحر وطبعها التمويه ، تظهر المذموم محمودا ، لها مقياسها الخاص للقبح والجمال هو مقياس الربح والخسارة الذي سبق وأن أعلن تذمره منه في الحياة في هذا الحان ريبا ، غاص فيها الوفاء واختنق الصدق والصفاة . ان ظهر أحدهم في صورة صديق وفي فانما يلبس الصدق والوفاء قناعا ليخفي غايته من وراء ذلك وهي الوصول الى كرسي الرئاسة ، يقول :

ـ هذه حانة الغرب من تأثير خمرها (مفعول خمرها) ، يتجلى ذلك المذموم محمودا .
هنا يوزن الحسن والقبح بميزان آخر ، غير الميزان الذي لليهود والنصارى .
فالحسن ان حطم معشوقك وكسره هو قبيح ، والقبح ان زاد من جاهك وقدرتك فهو حسن .
لو تتأمل وتنظر فان الحياة ليست سوى ريبا ، كل من كان فيها معافيا صادقا وفيا فهو عدم .
ما دعوى الصدق والصفاة الا ستار (وهدف) خفي الى ناموس الرئاسة ، فهذا شيخنا يقول لنا : يجب أن يطلس النحاس بالفضة (2) .

ـ خطاب الى انجلسترا :

خطاب رمزي عبارة عن قطعة من أربعة أبيات ، وجهه الى انجلترا وكل مستعمر محللا فيه أسباب توجه الغرب الى الشرق ، وهي الطمع في ثرواته يقول :

ـ أيها الساقي لا تبرح تسلوب المكارى الثائرة المتهيجة ، انصف نفسك وقل الحقيقة ، من قيّد هذه القافلة ؟ .
ان رائحة الياسمين نفسها هي التي أرشدتها الى الروض ، والا فان البلبل نفسه يجهل أن هناك خميلة (3) .

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 381 ـ 382 .
2 ـ رسالة الشرق ، ص 383 ـ 384 .
3 ـ رسالة الشرق ص 384 .

- كتاب القسمة بين الرأسمالي والأجير:

قطعة من خمسة أبيات ، تعاطف اقبال كثيرا مع الاجير في محنته ، لأنه يكره الظلم ويأباه ، وقد سجّل هذه القطعة على لسان أجيرٍ هو ممثل لكل عمال العالم ، بين فيها تعيسهم الذي ارتضاه لهم فلاسفة الغرب ومفكروه .

فبينما تصم آذان العمال من ضجيج مصانع الحديد ، وتدمى أيديهم من قطف الثمار ويغوصون في بطن الأرض بحثا عن المخاطر والعناء ، يتمتع الاسياد بأناشيد وترانيم الكنائس ويتنعمون في الحدائق ويملكون كل شيء ، يقول :

- لي أنا ضجيج مصانع الحديد وأدواتها الدنيئة ، ولك أنت نشيد وترانيم الكنيسة المرتفعة .

لي أنا المرارة المؤلمة لرأسي بالمنغصة لحياتي ، ولك أنت كل المذي من التراب حتى العرش الأعلى (1).

- أغنية الأجير : (أنين الأجير) :

يصغي اقبال في تصويره للأجير وهو يكشف الحقائق ويشرح البؤس عذابه وأسفه نعم المالك ، فيفضل عنائه يلبس السيد العاطل أثواب الحرير .

ومن عرق جبينه يرصع الوالي خاتمه باللآلي ، ومن دموع أطفاله يزين الأمير سرجه أما انتاج الكنيسة وبهرجتها واتساع أملاكها فمن دماء العمال ، يقول :

- قبة خاتم الوالي من عرقي المتناثر ، وجوهر سرج الامير من دموع طفلي .

سمنت الكنيسة من دمائي مثل العلق (مص الدماء) ، وقوة ساعدي سلبتها مني قوة السلطة .

لذ بنا نظاما وكيانا جديدا للنصارى ولدير النصارى ، ولنحطم البنايات القديمة والحانات المتيقظة (2) .

... لنقم نظاما جديدا في حقل البراعم والورود .

نحتمد متى ونحن نعيش مثل الفراشة الطوافة حول الشموع ، وحتى متى ونحن نحيا غرباء عن أنفسنا (3) .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 385 .

2 - رسالة المشرق ، ص 386 .

3 - رسالة المشرق ، ص 387 .

خمريـــة البحتـــري :

قالـــت مـــن بيتيـــن أكـــد فيهـــا مذهبـــه فـــي الحيـــاة «طلـــب الحيـــاة يســـاوي طلـــب الخطـــر ، لأن السير بلا خطر غير لائق بأبطال الاسفـــار ، يقـــول :

- فقـــال تمـــاح : أتطلـــب طريقـــا في كـــل مكـــان ، ولكـــن لايجـــوز أن تذهـــب بلا خبر عنا (1)

حكـــم (دقـــائق) :

ذهـــب كـــل مـــن الدكتور عبد الوهـــاب عزام والدكتور أحمـــد محمـــود الى أنهـــا قســـم خـــامس في الديـــوان ، الا أننـــي اعتبرهـــا جـــزء مـــن القســـم الرابـــع منـــه" نقض الفرنج" لمـــا يلـــي :

أولا لتشـــابههـــا مـــع الجـــزء الاخيـــر مـــن الديـــوان ، فنحـــن لانجـــد قصيـــدة فيـــه ولكننـــا نجـــد مقطعـــا قصيـــرة وأبيـــاتا ، وكـــذلـــك هـــي الدقـــائق حيث لاتتجـــاوز أطـــول مقطعهـــا الأربعـــة أبيـــات .

ثـــانيـــا : (لأنهـــا) لاترقـــي لأن تعـــد قســـما خـــامســـا فـــي الديـــوان اذ لاتتجـــاوز الخمســـة صفحـــات في حيـــن تجـــاوز معـــدل الاقســـام الاربعـــة في الديـــوان العشريـــن صفحـــة .

ثـــالثـــا : لأن اتبـــاع عـــوّدنـــا علـــى بـــدء كـــل قســـم بصـــفحـــة مستقلـــة تحمـــل عنـــوان المنظومة تعقبهـــا صفحـــة البســـملـــة وعنـــوان المنظومـــة مـــن جديـــد ، ثـــم يـــأتـــي الشـــعـــر . ولـــو عـــدّهـــا جـــزء خـــامســـا لمـــا أعجـــز أن يتبـــع فـــي ذلـــك مـــا ألـــزم بـــه نفســـه باتبـــاعـــه فـــي الاقســـام الأربعـــة .

ضمّـــن البحـــتـــري هـــذه القطـــع القصيـــرة والابيـــات فلســـفتـــه فـــي الحيـــاة ، وأكـــد مـــا ذهـــب اليـــه من أفكـــار مـــن قبـــل ، مثـــل موقفـــه مـــن العـــشـــق ، ومـــن التصـــوف ومـــن الشعـــر ، ومـــن المـــوت والحيـــاة ، كمـــا ضمّنهـــا بعـــض الحكـــم .

كـــان للاســـكندر مشكلـــة هي الخوف من المـــوت ، وقـــد تحمـــل في سبيـــل الفـــوز بمـــاء الحيـــاة أســـفـــارا .

ولكـــن البحـــتـــري يـــرى أن الحيـــاة هـــي المشكلـــة الأكبـــر ، فقـــد أخبـــر قبـــل هـــذا أن المـــوت إحيـــاء للـــروح وأن الحيـــاة قتـــل لهـــا أو إضعـــاف لهـــا (2) ، ومـــا المـــوت الا نـــوم ثقيـــل ، يقـــول :

- ســـأبيّـــن لـــك يـــا أخـــي دليـــلا عنـــك الحيـــاة ، اعلـــم أن النـــوم مـــوت خفيـــف والمـــوت نـــوم ثقيـــل (3) .

---

1 - رســـالـــة الشـــرق ، ص 387 .

2 - انظر رسالة الشرق ، ص 333 (ما الحياة الا اضعاف مستتر للروح وما الموت الا صعود بها

3 - رســـالـــة الشـــرق ، ص 390 .

ونحن نطلب الحياة وكل جميل فيها ، ونحن نطلب المعشوق الأزلي ، علينا أن نتحلى في سبيله كل عناء لأن المثل نالبه يكلف ثمنا غاليا ، هو مثل جنسي الورد لأبد للمعشوز بوردة من تحمّل وخزات الشوك ، يقول :

ـ يا قاطف الورد لا تتألم من وخزات الشوك ، لأن الشوك نفسه (أيضا) من ثمار المسيح (1) .

ومن حكم اقبال :

ـ يعثر التسلم الضارع اللّب ، وليس للمتسلم الذي مردود ، كحمل صرير (2) .

أما القيمة التي أعطاها اقبال للشعر ، فانها تأنف به أن يعرض في الاسواق ، اذ لكل اختصاصه ، وللشعر متذوقوه ، فلا يجب أن يعرض على غير أهله ، كما يرفض أن يتخذ الشعر وسيلة لكسب العيش ، اذ كيف يشترى خبز بفضة الياسمين . (3)

وفي هذه الحكم ينحني اقبال بالعفو ، ولما كان العفو درجة سامية لا يبلغها الا القليل فقد أعطى الناس خيارا بين أمرين ، اما عفو وصفح وسمّو بعده ، واما أن تملئ الحرب الصريحة حتى لا يبقى الصدر والقلب موطنا للضغائن والاحقاد ، وحتى لا يشغل الانسان عن رسالته التي خلق لأجلها ، يقول :

ـ اما لم تكن لك قدرة على العفو ، فانهض واعلن عداءك وحقد ك الدفين للأعداء .

ولا تجعل الدر مصنع حقد وضغينة ، ولا تسكب الخلّ في كأس شهدك (4) .

أما ختام الديوان فكان مسكا ، انه دعوة الى التحرر من قيود التقليد الأعمى والتبعية العمياء ، لأنه لو كان منها جانب حسنا لاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولأعلن اتباعه لطريق الاجداد ، وفي هذه عبرة لذوي الالباب ، فقد استهدف الاسلام تحرير العقل البشري من أوهام الخرافة والتقليد ، (5) ، يقول :

ـ ما أجمل أن يكون الانسان حرّ السير ، ويصير حرّا من كل القيود .

لو كان التقليد نهجا حسنا ، لاتبّع الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه طريق الاجداد (6) .

وهكذا ينتهي الديوان الجامع لأفكار شتى قد يعجز عقل الفرد الواحد عن جمعها .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 391

2 ـ رسالة المشرق ، ص 388

3 ـ رسالة المشرق ، ص 391

4 ـ رسالة المشرق ، ص 390

5 ـ محمد الكتاني ، محمد اقبال مفكرا اسلاميا ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1978 ، ص182 .

6 ـ رسالة المشرق ، ص 392 .

ان ديوان رسالة المشرق اذن هو رسالة شرقية بأتم معنى الكلمة المشرق في قاموس اقبال ، انه لايريد منها غير المشرق الاسلامي وعلى لسان ذلك المشرق كتبها في الرد على الغرب باللغة الفارسية التي شرفت بالاسلام وبحرفه العربي فأصبحت لغة اسلامية لكثير من الشعوب الاسلامية .

وكانت الفتوح الاسلامية لبلاد القارة الهندية سببا في ارساء الفارسية هناك وتحولها فيما بعد الى لغة رسمية .

بل ان الاردية نفسها والقصيرة العمر - اذا ماقيست بغيرها من اللغات - صارت لغة اسلامية أيضا بحرفها ومفرداتها وحلتها في كثير من الاحيان ، وقد برهن اقبال على وفائه لهما بأن كتب بهما معا أروع آثاره وهي أعماله الشعرية التي حلت خلاصة تجاربه وأفكاره وفلسفته في الحياة ولكننا نستطيع القول - انطلاقا من أعمال الشاعر نفسها - أن اللغة الفارسية كانت لسان حاله الذي ألبسه روائع أفكاره ونظم به أعذب أشعاره ، وذلك حبا منه لتلك اللغة التي لاستشفافه منذ الصبا ورغبة منه في ان يبلغ صدى كتاباته الى أكبر عدد من المسلمين اذ الفارسية أكثر رواجا من الاردية .

والديوان عبارة عن رسالة مشرقية ولكنها رسالة تذكرنا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري التي لم تكن جوابا على سؤال وانما جاءت مناظرة لأفكار شتى ، فلم يكن هم الشاعر الرد على كل ما جاء في الديوان الشرقي لغوته ولا مناظرته وانما رد تحيته التي بقيت بلا رد قرنا من الزمان ، فجاء الديوان حاملا لمشاعر صاحبه وتصوراته وان صحح بعض تصوراته غوته أو عارضه أو ترجم بعضها .

وقد صرح بالغاية من الديوان تحت عنوانه القريب من عنوان ديوان غوته فكتب : في جواب ديوان الشاعر الالماني غوته ذلك الشاعر الغربي الذي فكر بفكره وخياله وروحه من الفراغ الروحي الغربي الى الغنى الروحي الشرقي ، فكانت رحلته أشبه بثورة روحية سكبها على أوراق ديوانه .

وربما كان سبب استجابة اقبال لندائه وترجيعه لصداه الذي سكن المشرق هو ذلك الصدى الذي ظهر به الديوان الشرقي للشاعر الغربي وذلك الوفاء للأثر الاسلامي والاستسلام له الى حد يخال فيه القارئ الديوان تكرارا لحافظ الشيرازي حتى بعناوينه قصائده وطروحاته الشعرية وربما كان ادراك اقبال

لقيمة تلك الرحلة واعتبارها فتحا للاسلام في الغرب وتعريفا للغرب بصفاء الشرق وطهره سببا في استجابته لنداء غوته واعترافا بفضله .

وان كشف غوته عن ذهوله واعجابه بما في الشرق من عفة وطهر وصفاء وقداسة فمعان اقبال كان منصفا اذ لم ينكر تفوق وعبقرية بعض اعلام الغرب وفلاسفته ومفكريه وعلى رأسهم غوته ونيتشه ، ولم ينكر على الغرب تفوقه المادي ولكنه لم يقف في تصويره واعترافه بذلك موقف المسلوب الارادة المأخوذ اللبّ بل وقف موقف الدارس الموضوعي الذي لايمنعه الاعتراف بتفوقهم عن كشف حقيقة الغرب الخافية عن الابصار من خداع ونهب واحتيال .

كما لم يكن مأخوذا بالشرق اذ خبث فيه اشراقته التي شدّت اليها غوته وانما كان كاشفا لعيوبه الكبيرة مداويا لعلله .

وقد لقي هذا الديوان اهتماما في انحاء العالم الاسلامي والغربي على السواء فترجم الى اللغات الاسلامية (العربية ، الاردية ، التركية ، البشتو ، الگجراتية) أما اللغات الاجنبية التي نقل اليها فمنها (الالمانية ، الانجليزية ، الفرنسية ، والتشيكية) وأحيانا يشهد أكثر من ترجمة في اللغة الواحدة ، وأحيانا أخرى ينقل من ترجمة (غير لغته طبعا) الى لغة أخرى ، وان ذلك الكم الهائل من الترجمات يقوم دليلا على أهمية الديوان وصداه في نفوس مترجميه ، ومن تلك الترجمات نعرف أيضا مساحة وقع ذلك الديوان والمسافة في الشعوب الناطقة بتلك اللغات ، وانه لمن دواعي البشر أن يقرأ الديوان في جلّ البلاد الاسلامية ان لم نقل كلّها .

ولعل الديوان أخذ عالميته وشهرته من سعة الواضيع التي طرقها وتنوعها ، اذ لم يستغرقه الشاعر في غرض واحد أو قضية واحدة وانما جال بفكره في كل مايمكن أن يخطر ببال بشر .

فيه من الفكر الفلسفي الحديث وفيه الفكر الصوفي ، وفيه حقائق العلم المعاصرة وفيه من قضايا العصر وآلامه وهمومه وتطلعاته ، فحتى مسميات الديوان وان ركز فيها الشاعر على ضرورة العودة الى الروح والى المعنويات التي جسّدت الحضارة المادية النيّرة من أنوارها ، فانه لايدعو الى الاغراق فيها وتكرار مآسي المسلمين وضعفهم وتواكلهم ، كما لايريد اغراق الغرب في تنكّره لها ، انه يدعو الى الجمع بين الروح والمادة والتكامل بينهما .

ولم يخل الديوان من قضايا العصر ان لم نقل - انه كان قضية العصر بروحه الناطقة عن كل مافيه بأساليبه وتقنياته فالذي يقرأه وان سار على

نهج الشعراء القدماء الأوائل يحدد من أول سطر فيه الى آخره أنه يعبر عن عصر الشاعر ويعالج قضاياه، وان لبس ثوب الرباعيات أو المثنويات أو القطع أو غيرها من الأثواب والقوالب التي عرفها الشعر الفارسي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع
رسالة المشرق والتراث الإسلامي.

تمهيد : اقبال و الأدب الإسلامي .

أولا : رسالة المشرق والقرآن الكريم .

ثانيا: رسالة المشرق والحديث الشريف و التاريخ الإسلامي .

ثالثا : رسالة المشرق و الأثر الصوفي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اقبال والأدب الاسلامي :

ان الهزة التي شهدها العالم الاسلامي والنكبات التي حلّت به (على يد الاستعمار الغربي) خلّفت انعكاسات سوداء على كل نواحي الحياة ، وكانت الآداب الشعوب الاسلامية احدى الصفحات التي شوهت وفقدت أصالتها وتصوّرها الاسلامي للكون والحياة والانسان . فذابت في تيارات الغرب وتخبطت بين مذاهبه ورموزه وأساطيره حينا من الدهر ، وقد لاحظ اقبال ذلك الضياع الذي انتابها ورأى أدباء الاسلام يلهثون وراء بريق الغرب والمذاهب الادبية الغريبة ، ويقلّدونها رغم غربتها عن طبيعة الحياة الاسلامية وتناقضها مع مبادئ الاسلام وأخلاقه وأصالته ، وقد أعان هؤلاء الأدباء ظهور نقاد وضعوا الأدب الاسلام معايير ومقاييس هي مقاييس الغرب ومعاييره التي تحكم على كل كلمة تمرد ت عليها وتشبثت بالأصل ، بالرجعية والتعصب وتغلق الابواب دون قائلها وتخنق صوت أصحابها حتى لا تصل الى الآذان وتلامس القلوب .

وهكذا ارتمى أديب وناقد البلاد الاسلامية لفكره وانتاجه أن يستظل ويهتدي في ضوء المصطلحات الغربية والمواضيع الغربية والاساليب الغربية ، ورضي بكل ما صدّره اليه الغرب من انحرافات وعلل وتنكر لقيم مجتمعه ومثله السامية (1) فبينما اتجه شعراء الغرب وأدباؤه الى تراثهم يحيون قصصه وأساطيره ويبعثون رموزه ، تهرب معظم أدباء البلاد الاسلامية من رموزهم وتعلموا من تاريخهم وراحوا يحيون رموز الغرب ويتغنون بأساطيره ويكتبون عن قصصه وتراثه .

كتبوا عن أسطورة أوديب فكتبنا ، إما تقليدا وإما ايمانا منا بعالمية الأدب وبأن تلك الأساطير تراث انساني مشترك ، وكتبوا عن آلهة اليونان الكثيرة ، عن الهه الحرب والحب والشمس وعن الهه الخير والشر والهه الفصاحة وربّة الشعر فكتبنا . وأدبي في التغني في خمسة ذكريات ذلك التراث الوثني سمّو التعبير الغربي ونفوس شعرائه الذين لا يمكن اعتبارهم بحال من الاحوال ممثلين للأدب الاسلامي ، وأصبح القارئ يشعر وكأنه يقرأ لأديب لا يحمل من الانتماء للوطن الاسلامي سوى الانتماء الجغرافي ، والغريب أن أولئك المتحررين حطموا شعار الحرية للتعبيرات وللقديم ، ولتاريخ والدين وأعلنوا ثورتهم على قيم الاسلام ومثله

---

1 ـ عادل الهاشمي ، الانسان في الأدب الاسلامي المعاصر ، ص 123 .

وأخلاقه وأعلنوا رفضهم لهما .

وفي المقابل أحيوا العيروث البطولي ، وأحيوا الموروث الوثني والقديم الغربي وتغنوا به فوقعوا بذلك في التناقض ، وكان أكثر الشعراء الذين تكلموا عن الحداثة هم أكثرهم تنافرا للشعرات (1).

أمام هذا التغريب والاستسلام المطلق للمفاهيم والثقافات الغربية ، أبعد أهم ما يتطلع اليه في الأدب ، أبعدته الرموز الاسلامية ورموز التاريخ الاسلامي ولا قت عنتا على أيدي أصحاب الحركات الشعرية الحديثة ، وبقدر ما قدس الغرب وقدس أساطير الاغريق الرموز والاساطير اليونانية ، بقدر ما حورب ترموز الاسلام والخلافة والامامة والسنة وشوه القصص الاسلامي وشوهت صور الكثير من أبطال الاسلام وغطتهما أدخنة داكنة .

وكان على الشعراء الملتزمين بالخط الاسلامي اعادة الاعتبار والاحترام والقدسية لتلك الرموز واحياء ما غطاه النسيان والاستعمار والتغريب ، ولعل هذا ما حدا بالباقلاني الى الاعتراف بغياب الأدب الاسلامي والفن الاسلامي والحكم بأنه لم يولد بعد ، فبعد أن حدد في أكثر من عمل طبيعة الأدب وأهدافه وكانت له آراؤه المبكرة الخاصة بالأدب الاسلامي في ذلك العصر الضائع بالانحراف عن الأصل والملاحظ بريق الغرب ، نادى بضرورة ايجاد فن اسلامي يعبر عن عقيدة هذه الأمة ويترجم مشاعر المسلمين ويصور آمالهم وآلامهم ويسبر أغوار رؤاهم ، لأنه اعترف على الأقل للوقت الذي عاش فيه - أن الفن الاسلامي لم يولد بعد ، قال :

" اذا نظرنا في تاريخ الثقافة الاسلامية فسنرى أن الفن الاسلامي فيما عدا العمارة لم يولد ، أعني الفن الذي يقصد الى أن يتخلق الانسان بأخلاق الله . والذي يمد الانسان بالهام لا ينقطع (أجر غير ممنون) ثم يحتمل له خلافة الله في الأرض "(2) ، وقال : " أرى الفن خادما للحياة "(3) فذلك الأدب الاسلامي الذي يكون من أهدافه السمو بالانسان الى أن يتخلق بأخلاق الباري - الى عهد اقبال لم يولد بعد - ذلك الذي يستمر عطاؤه بلا انقطاع ويهب الناس الالهام والنور ، ويكون من أسمى أهدافه خلافة الله في الأرض التي رآها الدارسون للأدب الاسلامي العبادة الكبرى ، عبادة الله في كل حال آن(4).

---

1 - المرجع السابق ، ص 106.
2 - عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 147.
3 - المرجع نفسه ، ص 149.
4 - عماد الدين الخالدي ، الاتجاه الديني في الأدب الاسلامي ص 363.

والخلافة في الأرض تتطلب الوانا من النشاط الحيوي من أجل عمارة الأرض والتطلع الى أسرار الكون وخفاياه وطاقاته ، وتتطلب أيضا القيام على شريعة الله في الأرض ، ومن آفاق استخلاف الانسان في الأرض أن يتعرف على نفسه وقيمته وغايته وجوده ، ويؤدي دوره في هداية البشر» (1) ، وهي غايات يعتبر الأدب والفن عموما وسيلة من وسائل تحقيقها .

مثل هذا الأدب كان نبيلا في البلاد الاسلامية أيام اقبال والشعر في نظر اقبال بيان وهادم في آن ، مثبت لدعائم الخير مقيم لصوامع الاخلاق والفضائل ، هادم لمنابع الشر في الأنفس ، قاطع لأيادي الظلم ان فيه هديا الى الكمال وثورة على النقصان ، يقول :

لم أدر سر الشعر الا نبتة ... سير الشعوب بيننا تفصيلا

الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبدية لا تقبل التبديلا

ان كان من حيز الجمال فيه نغمة ... أو كان فيه صور اسرافيلا (2)

والشعر الذي ينفخ في النفوس الحياة ويبعث فيها الأمل كان لقائله ميراث النبوة وورثة الأنبياء العلماء ، والأديب الفنان المنطلق من تصور واضح وغايات جلية هو في تصوره العالم ، يقول :

ان يكن في الشعر بعث الادمي ... كان في الشاعر ميراث النبي (3)

أما الشعر الذي لا يبعث الحياة في الكائنات ولا ينزع الاشراقة ولا يحطم عروش الظالمين والطواغيت أمثال بيرونيز ، فان الصمت خير منه ، انه أشبه بشعر العجم الفارغ من الرنين ، يقول :

كم بشعر العجم من سحر ولكن ... منه سيف المذات ذو حدّ كليل

هو مستحي سر الربيع أو لو من غناه ... ان سرى باللحن في الروض ذهول

ليس ضربا ماية من الدود ان لم ... تسر منه عرش بيرويز يزول (4) .

وإلى كلمات من شاعر مفكر ساقط سقط تغوي الناس شعرا على الأمة من جنكيز خان (5) قال منتقدا بعض الشعراء الذين يحاولون بأسلوب فنهم المختلفة سلب القلوب من الخيال الى الظاهرة الموضوعة فيها :

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 41 .

2 ـ عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، ص 159

3 ـ المرجع نفسه ، ص 161 .

4 ـ المرجع نفسه ، ص 161 .

5 ـ انظر ديوان الأسرار والرموز لاقبال ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، ص 32 .

: "ما أكثر الشعراء الذين يسرقون القلوب بسحر الفن ولهم راي ابليس" (1)
ان أمثال هؤلاء لايريدون من الشعر الا أن يتحول الى غناء ولايريدون وظيفة لهذا الشعر الا تحويل المسلمين أبناء الخليل النبي الآرية ، يقول :

علموا الشعر أن يصير غناءً علموا أتباع الخليل فمن آزر (2)

بيد أن من الدارسين من حمّل الأدب كلّه مسؤولية ميلاد حرب عالمية أولى وثانية وميلاد كثير من الحماقات « وربّما لم تكن على هذه الحماقات الدولية التي نحن عليها اليوم وماكنا تعرضنا للحرب العالمية الثانية ، وربّما كانت الاولى لم تحدث" (3).

فالأدب الاسلامي لم يولد بعد ولم يوجد بعد ، الى زمن الشاعر المسلم الذي يعي ذلك الفن الرفيع والمقدس ميراث الانبياء ، ذلك ما أحس به اقبال وأجاب عنه .

لقد رأى نفسه يرسل شعره ، وربما شاركه شعراء آخرون ، في وسط أموات لايفقهون أبعاده ومراميه لأن الجهل الطويل والنوم الثقيل الذي مني به أمة المسلمين جعل على قلوب أقفالها فهي لاتعقل . ولذلك عدّ نفسه شاعر المستقبل لاشاعر الحاضر المرذول ، فراح يطلق ألحانه لأجيال الغد ، ويتصاعد من حنجرته حداء موجّه لقافلة الغد اللاحقة ، يقول :

أنا لحن دون ضرب صعدا أنا صوت شاعري يأتي غدا .
من وجود غير هذا لي غناء ولمركب غير هذا لي حداء (4).

ويحق لنا الآن ان نهمس لاقبال في مرقده ، ان يتراك ياشاعر الشرق فقد ولد الفن الاسلامي وولد الأدب الاسلامي ، وكنت (أنت) من واضعي لبناته الاولى ، وأن قد انبرى لهذا الأدب شعراء وكتاب رساليون حمّلوا أنفسهم أمانته العظيمة وساروا به قدما . ولتهنأ ياشاعر الشرق في مرقدك فقد وجد الجيل الجديد بحدائك الذي تنبّأ به وهو جيل الصحوة الاسلامية .

لقد كان اقبال من حملة التيار المضاد للتغريب ، تيار الأصالة وبعث التراث الاسلامي وتمحيص القرآن ورموز الحضارة الاسلامية وقيمها ، وكان من رواد حركة الاحياء والتجديد ومن طلائع الذين فطنوا الى وظيفة الأدب وآمنوا أن للكلمة رسالتها ومسؤوليتها ، وأن الأدب الاسلامي تعبير عن التصور الاسلامي للوجود ، للكون

---

1 ـ محمد السعيد جمال الدين ، الشعر مهمته ووظيفته عند الشاعر الاسلامي محمد اقبال ، ص 8 ، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية 1404 ـ 1405 ، ص 8 .
2 ـ المرجع نفسه .
3 ـ الن تيت ، دراسات في النقد ، ترجمة عبد الرحمن ياغي ، مكتبة المعارف بيروت ، ط2 ، 1980 ص 139 .
4 ـ المرجع نفسه .

للحياة وللانسان ، هو تصور مستمد من الاسلام ومن القرآن والحديث ومن التراث الاسلامي كلّه ، "وتصور يبدأ من الحقيقة الالهية التي يصدر عنها الوجود كلّه ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته ويعني عناية خاصة بالانسان ـ خليفة الله في الأرض ـ فيعطيه مساحة واسعة من الصورة ثم يعود بالوجود كلّه مرة أخرى الى الحقيقة الالهية التي صدر عنها واليها يعود "(1)

واننا نجد في ديوان رسالة الشرق بعض الملاحظات عن الادب والشعر على وجه الخصوص منها تحديده لمصطلح الشعر ، فهو ليس أوزانا وقوافي وكلما تواتنا هو الى جانب ذلك قبسات من نار القلوب ، ان فقد جذوتها تحول الى فلسفة ، وان احتفظ بقوافيه وأوزانه وحسن بيانه ، يقول :

اذا تجرد من حرقة فهو حكمة وانما يصير شعرا حين يقبس من نار القلوب(2).

ويرى اقبال أن الشعر ـ وسائر الفنون ـ لا بدّ أن يمتزج بدم القلب وأن يستمد حرارته من أعماق الوجدان وحرقته ودمائه ، بل يرى من ذلك كلّه مدادا للشعر ، يقول :

عواصف الخريف في ليل السهاد علمت البلبل ترجيع النغم.

دم الأماني فيه للشعر مداد وفي خطوب الدهر أشعار الحكم (3).

ويأتي الغزل الصوفي في الدرجة الاولى من اهتمامه ، وهل يقدم شيء على حبّ الله ؟ . ان الصراع الواحد من شعر نظيري (4) الذي أخذ فيه من القافلة كل من لم يسقط فتيل عشق الحق هو عنده ، وعند المدركين لقدره أغلى من ملك جمشيد (5) ، يقول :

ـ أنا لا أعطي صراعا من شعر نظيري ثمنا لملك جمشيد "ليس في قافلتنا ذلك الشخص الذي يعير شهيدا "(6)

وان نغمة واحدة من ذلك الشعر تحرق الاسكندر نفسه ، يقول :

ـ لا تقم الطرب على أثر (سماعك) لحني الضعيف ، فبرقة نغم واحدة تستطيع أن تحرق الاسكندر (7).

---

1 ـ محمد قطب ، منهج الفن الاسلامي ، دار الشروق ، ط 7 (1408 ـ 1987) القاهرة ص 16

2 ـ رسالة الشرق ، ص 276.

3 ـ محمد السعيد جمال الدين ، الشعر مهمته ووظيفته عند الشاعر محمد اقبال ، ص4.

4 ـ نظيري : (هو محمد حسن نظيري النيسابوري من كبار شعراء القرن العاشر الهجري ، هاجر من ايران الى الهند فوجد سبيلا الى بلاط السلطان جلال الدين أكبر (1014هـ ـ 1605م) ومدح ابنه جهانگير ، قضى معظم عمره في احمد آباد بالكجرات ، مال في أواخر الاخيرة الى العزلة والتفكر ، توفي عام 1021هـ .)

5 ـ سبق التعريف به في الفصل الثالث ،

6 ـ رسالة الشرق ، ص 329.

7 ـ رسالة الشرق ، ص 325.

أما المعايير التي يجب أن يقاس بها شعره فليست معايير هندية أو فارسية أو أعجمية ولكنها معايير نفهم ضمنا أنها رسالية ، يقول :

ـ تترنم بانشاد الغزل تحت الحجب المدوّرة ، فما تزال طيور غنائه الى الآن تئن تحت الحجب .

ـ لا تقس معاني وأفكاري بمعايير الهند أو الفرس ، فما أصل هذه الجواهر واللآلئ الا دموع انتحابي في السحر (1) .

وقد كان ديوانه الذي هو موضوع دراستنا آية من آيات الأدب الاسلامي ، ففيه كان الحق غاية الغايات وغاية أهداف الانسان وأمانيه ، تتجسّد في سبيل الوصول اليه أشواق المشتاقين ، هو المعشوق الاوحد الذي تهفو اليه النفس البشرية وبخاصة نفس المسلم الرشيد ، وللانسان في الديوان حضوره الدائم وكرامته التي مكّن الخالق عليه بها ، وله نفسه وأعماقه التي تتكشف ليملأ على الخالق وتغتسل عن خطاياه وتتطهر .

والانسان في رسالة الشعر لا يتخلى عن حقيقته وهو أنه من طين وأن نازعة من نوازعه تشدّه الى ذلك الطين وأخرى تحاول أن ترتفع به الى السماء ، حيث النبع من نور الله (2) .

أما الحياة في الديوان فان اقبال لم ينظر الى السار المشرق منها فقط ، ولم يصوّرها على أنها جنّة وارفة الظلال ، لقد جمع فيها بين الخير والشر واعتبر ابتلاءها شرطا من شروط الحياة ، للانسان فيها خطاياه التي قد تكبر عند بعضهم فتحس النفس فعل الابالسة ، وقد تسمو النفس بصاحبها الى مدارج الاشراق ، فالحياة في هذه الحياة من شيء نبه تعرف قيمة الانسان ويدرك مدى فهمه وحمله للأمانة التي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الانسان ، وتعرف درجة سعيه نحو الهدف الاسمى .

ولم يكن التصوف القرآني في الديوان سردا للأحداث ، فهو يكتفي بالتحدث والاشارة والعبرة والدرس ، وكذلك كان موقفه من رجال التاريخ الاسلامي يلتقط المواقف من بطولاتهم ليدلل للمسلمين كونوا كما كان ، أو جدّوا منهجه .

ونجد في الديوان الى جانب ذلك التدفق القرآني الهائل ، اقتباسا حينا وتضمينا حينا آخر ، نجد الحضور القوي لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم بأفعاله وأقواله .

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 335 .

2 ـ مجلة العالم المعاصر ، سنة 10 ، عدد 37 ، 1404هـ (نقد الشعر الحديث ـ أحمد بسام ساعي ، 149) .

فهو القدوة التي يجب أن تحبّب وتتبع وتحاسننها كما في الديوان قبسات من التصوف هو أقرب الى التصوف العملي ، وقد كان العشق الالهي أكثر محاورها تردادا عبر سطور الديوان وأوفرها حظا من اهتمام اقبال .

وفي الديوان نلاحظ اقبال الوفي للتراث لايخفي صلته بأساتذته من شعراء الفرس ولا يجد سبيلا للاعتراف لهم بالفضل الا تلك الاشارات أو التضمينات لشعرهم . كما نلاحظ اضافته للمتصوفين من أعلام الغرب ، وعنايته من أول الديوان الى آخره بانسان عصره وظروفه وذلك مايؤكد اسلامية منهاجه وسلامة تصوره .

وان هذا التحول في التناول والتصوّر ليدفعنا الى اعتباره من زارعي البذرة الاولى للأدب الاسلامي .

أولا ـ رسالة المشرق والقرآن الكريم :

التزم اقبال نفسه بقرآن الفجر وأنفاسه ،وغذّى روحه وقلبه من مائدة القرآن ونفحات الفجر الزكية ،ولا تقتصر صلة المسلم بالقرآن على الفجر فهو يقوم بين يدي الرحمن للصلاة فيقرأ ما تيسر منه ،وهو في قيامه يقرأ القرآن وتسري أوراده ،وفي حياته اليومية يطبّقه ويذكر أحكامه ،فهي الحقو منه حكم وفي البيع والشراء منه منهاج وفي الحرب والسلم دروس وعبر ،وفي كل شؤون الحياة ،وكذلك كان اقبال ،فقد اتخذ من القرآن الكريم ربيعا لقلبه ومن أحكامه شرعة ومنهاجا لحياته ،واذا فتحدث عن أثر القرآن في ديوان رسالة المشرق انما نقصد حضوره فيه اقتباسا وتضمينا أو استيحاءا لفكرة أو اشارة اليها أو تلخيصا للقصة ،ولعلّ أشد ما يلفت الانتباه هو ذلك الحضور القوي للقرآن الكريم ،وهو ان دلّ على شيء فانما يدلّ على طبيعة الاديب المسلم الذي لا يغترف الا وفق شرع الله ولا يهتدي النار الا لما هدى اليه خالقهم .

والملاحظ أن اقتباس اقبال من القرآن كان محدودا ولكنه اتخذ المصدر الذي منه يستمد تصوره للكون والحياة والانسان ،للخير والشر ،ولكل ما طرقه في الديوان .

من اقتباساته من القرآن ما جاء في هديته لأمير أفغانستان مؤسس على ضياع المسلمين فبعد ما كانت أنوار هدايتهم تنير للعالم الدروب توارت شمسهم وخبت من تقصيرهم ،يقول :

قد رأيت أيها الامير العالي الجناب كالفلك ، ان شمسا قد توارت بالحجاب (1)

وهو اقتباس لطيف من قوله تعالى : "حتى توارت بالحجاب" (2) استعان به اقبال ليشبه شمس المسلمين التي أفلت ومجدهم الذي غاب بشمس سليمان التي توارت عنه بالحجاب ،وفي الهدية نفسها نجد اقتباسا آخر من القرآن ،يقول :

ـ فأنت من علّم الاشياء علّم الاسماء (3)

وهو مأخوذ من قوله تعالى : "وعلّم آدم الاسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة" (4)

ولتصوير فكر الانسان الغربي الذي يتظاهر بالسلم ويرفع شعارات الأمن والسلام على أنقاض حروبه ودماره يستعين اقبال بآيتين من الذكر الحكيم لأنه أيقن أن

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 187 .
2 ـ سورة ص ،الآية 32 .
3 ـ رسالة المشرق ،ص 189
4 ـ سورة البقرة ،الآية 31 .

مثل ذلك المنافق يصدق عليه قول الملائكة وقول الله عزّ وجلّ : "يسفك الدماء" (1) و "خصيم مبين" (2)، يقول :

ـ ذلك الذي يغير وجهه بزينة المعرفة ، فتجعل من ترابه المعتم الاسود مرآة . انّي رأيته عندما مزقت الحرب حجاب أسراره ، انه كان يسفك الدماء خصيم مبين (3)

وعلى لسان الحاطبي على الله عليه وسلم في الدعوة لطلب العلم والاكثار منه وهو الذي انكشف له ما انكشف من الاسرار وبلغ سدرة المنتهى ، يقول :

ـ بالرغم من أنه رأى عين الذات بلا حجاب ، جرى على لسانه قوله ربّ زدني (4) وهو اقتباس من قوله تعالى ، "وقل ربّ زدني علما" (5).

وفي هذه الاقتباسات لم يشر اقبال الى أنه أخذها من القرآن وانما اكتفى بأن كتبها باللغة العربية كما جاءت في القرآن وذلك يكفي دليلا على أنها مستمدة من القرآن وان لم توضع بين قوسين ، فقد كانت كتابتها متميزة عما حولها من شعر فارسي ، ومن اقتباسه من القرآن الكريم قوله :

ـ فقد قال الله : الحكمة خير كثير فحينما تجد هذا الخير فخذه (6)

ولعله أخذ هذا من قوله تعالى : "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" (7) وهو المعنى الذي صاغه في ديوانه رسالة الخلود ، فقال في منظومة "الحكمة خير كثير" :

قال ربي انها الخير الكثير ان تجده فاغتنمه يا بصير (8)

هذا عن الاقتباس الحرفي لآيات من الذكر الحكيم أما المعاني التي اهتدى بها اقبال في ديوانه وهدى بها فكثيرة هي ، لأن المسلم اذ ينطق فانما ينطق عن الله ، ويستمد تصوره لكل ما حوله من كتابه الخالد فاذا كان الكون كلّه آية من آيات الله ناطقة على قدرته وحكمته وعلمه ، فان تصوّر اقبال له كان تصورا قرآنيا ، الأرض بما عليها والسماء بما فيها والكون كلّه يدعو الانسان الى الايمان ، ويدعوه لأن يتأمله ويتعلّم منه ، وكذلك النفس البشرية آية من آيات الله وهي أيضا جديرة بالتأمل انها تغني المتفكر فيها

---

1 ـ سورة البقرة ، الآية 30.
2 ـ سورة النحل ، الآية 4.
3 ـ رسالة المشرق ، ص 310.
4 ـ رسالة المشرق ، ص 189.
5 ـ سورة طه ، الآية 14.
6 ـ رسالة المشرق ، ص 189.
7 ـ سورة البقرة ، الآية 269.
8 ـ اقبال ـ رسالة الخلود ـ ترجمة حسين مجيب المصري ـ طبعة الانجلو المصرية ص 118.

المتدبر لها عن كثير من التفاسير ، يقول :

ـ لماذا تسأل النار[1] عن معاني القرآن ، وضمائرنا هي الدليل الى آياته (2).

وفي هذا البيت تذكير بالعودة الى النفس وبأمر المولى تبارك وتعالى بالتدبر فيها : "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون" (3) وقوله : "أولم يتفكروا في أنفسهم" (4)، وأبصارنا نعمة من نعم الله ، يجب أن تعود بنا اليه لنتبصر من نوره الأزلي ، وطريقها اليه انما تبدأ من تأمل الكون ، يقول :

ـ لماذا تحتار الانوار والوحدة ، تعال وأعد النظر الى ذلك الجمال الكامن في الطبيعة فقد أعطاك الله عينا حادة النظر (صافية لا ترى الا حقا) لتأتي من نوره بنظرة (5)

وليست العيون فحسب فهناك القلوب والبصائر ، فقد تعمى العيون ولكن قلوب اليقظين الاحياء النور لا تعمى ، اذ العمى هو عمى القلوب التي في الصدور ، قال تعالى "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" (6) لأجل هذا ركز اقبال على يقظة القلوب وصحوها اذ ما فائدة صحو العقل وتفتح العينين اذا كان على قلوب اقفالها ، قال :

ـ كن مثل النرجس لا يمر دون أن يتأمل الخميلة ، ولا تمر مذهولا على نفسك هل رأيت وردة غير تاصح ان الله أعطاك عينا حادة النظر ، فلا تمر بعقل يقظ وقلب نائم (7)

أما جمال الكون ففيه آيات تدروس يتعلم منها الانسان ، وفيه متاع للانسان ورحمة له من محسن الحياة ، قال اقبال بعد حديث مسهب في وصف احدى رياض كشمير السوارفة الظلال مؤكدا أن الكون بما فيه انما هو رحمة من الله للانسان :

ـ حتى ليقال ان الله قد بعث جناً ، على سفوح الجبال وفي الهضاب والتلال ،

لتحرر رحمته أينما آدم من المحن (8)

وان في النظر الى ذلك الجمال والتأمل في قدرة الخالق المبدع ما يخفف عن محزون أو يهدي حائرا أو يريح مريضا أو ينفرج عن مكروب قلق ، وكل ذلك من رحمة الله بعباده ، ففي الكون متاع للانسان ورحمة ، وفيه ما يدفع

---

1 ـ ربما نستشف من تعريفه بالرازي أنه لا يرتضي طريقته في التفسير اذ يعنى كثيرا بذكر مناسبة نزول السور ويستطرد ويمعن في الاخذ من الفلسفة ويرد على الشبهات حتى انتقده بعضهم وقد في تفسيره : "انه يحوي كل شيء الا شيئا واحدا هو تفسير القرآن" (حسين ضياء الدين ماقد بين المصلحين الاسلاميين ـ مطبعة الانجلو المصرية ، ص 273).

2 ـ رسالة الشرق ، ص 212.

3 ـ سورة الذاريات ، ص 21.

4 ـ سورة الروم ، الاية 8

5 ـ رسالة الشرق ، ص 230.

6 ـ سورة الحج ، الاية 46.

7 ـ رسالة الشرق ، ص 238.

8 ـ رسالة الشرق ، ص 285

وأن في النظر الى ذلك الجمال والتأمل في قدرة الخالق المبدع ما يخفف عن محزون أو يهدي حائرا أو يريح مرتابا أو ينفس عن مكروب قلق ، وكل ذلك من رحمة الله بعباده ، ففي الكون متاع للانسان ورحمة ، وفيه ما يدفع الانسان ويحثه على مواصلة الدرب ، لأنه كلما نظر الى مخلوقاته وهي تسبح بنظرها الى السماء تذكر هدفه الاسمى فواصل المسيرة قال اقبال مخاطبا كل قلب ، تاه حاله بتأمل براعم الزهر والتعلم منها ، فهي على الرغم من أن لها التراب ولصوقها بالتراب الذي يكون عدمها في البعد عنه تنظر بعد ابتعاقها عنه الى السماء ، فليكن الانسان كذلك وليتجاوز طينه ونوازع نفسه وشهواتها :

ـ أيها القلب خذ سر الحياة من براعم الزهر ، فقد تجلت الحقيقة بلا حجاب.

فهو على الرغم من تجذره من تراب نادم ، الا أن بصره متجه الى شعاع الشمس(1) .

ونجده في هذا متأثرا بقوله تعالى : « أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (2)

وهذا الكون الذي أمر الانسان بتأمله والسير فيه والاعتبار من آياته والتفكر في خلقه هو عبد من عباد الله ، لله في أعماقه وجود ولكننا لا نفقه حبه وعشقه لمبدعه وموجده ، ولله في لسان ضميره ذكر ولكننا لا نفقه تسبيحه قال تعالى : « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم (3) .

فشجرة الصنوبر وهو يمد عنقه الى السماء ويطاوله كل أمانيه أن يكون عبدا لله ، والورد لا يتفتح الا بعد ان يشمل من خمر حبه ، وضمير الشمس والقمر والكواكب محرم له وكذلك قلب الانسان . الكل يشترك في طاعته وعبادته ، « وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها » (4) ، ولله يسجد كل من في السموات والأرض : « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها » (5) قال اقبال مثلا هذا المعنى :

ـ تتمنى شجرة الصنوبر الحمراء الباسقة أن تكون عبد الله ، واشراق وجه الوردة انما مأتاه من ضميره .

فالشمس والقمر والكواكب حرم لله ، وقلب آدم مكمن مصون له (6) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 231 .
2 ـ سورة الانعام ، الاية 9
3 ـ سورة الاسراء ، الاية 44
4 ـ سورة آل عمران ، الاية 83 .
5 ـ سورة الرعد ، الاية 15 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 219 .

واذا تأمر اقبال على العلم والقوة علم أنهما سبيل انتظام أمور الأمم وأساس احترامها وهيبتها فأنشد يعود بنا الى طالوت الذي اختاره الله ملكا وزاده بسطة في العلم والجسم : "وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم"(1)

ومما جاء في نصحه للأمير الافغاني بالجمع بين العلم والقوة والكشف عن مصدريهما قوله :

- لو تملك روحنا لذة الاحساس بالمعرفة ، لم يكن تراب الطريق سوى المانا (لكان تراب الطريق المانا).

فالعلم والقوة هما نظام أمر الأمة ، والعلم والقوة هما أساس الاعتبار للأمة .

فخذ هذا الاول من صدور الاحرار ، وتلك انتزعها من صدور الجبال (2).

وان سما اقبال بالانسان الى مدارج الافلاك وفيه الملائكة رغم أصله الترابي المعتم وجعله يسمو فوق أولئك النورانيين ، فانه لم يهمل الجانب الآخر من الانسان ، فهو ان حطم قيود النفس وهواها كان ملاكا واذا انقاد لنازعة التراب كان شيطانا من الأنس ، وفي الشياطين - وان كان همّها اغواء البشر - المهتدون الذين يأتون بأفعال الانبياء ، ومن صور وسوسة الشيطان للانسان ما صوّره الشاعر في قصة آدم حين راح يحزين له القبح وشوقه الى ملكة جديدة ، يقول :

- لقد سلبت الكوثر والتسنيم حيوية العمل ، فخذ من حقل الكروم خمرة طرية مشرقة اللون .

ما التقديس والبطال الا من ابداع خالقك ، فخذ لذة العمل ، وسر على الدرب (السعادة (المرغائب) .

انهض وسأريك مملكة جديدة ، افتح عينيك جيدا للتفرج بكل فخر وتيه (3).

وهو في كل هذا متأثر بالقرآن الكريم مقتبس من أنواره ، قال تعالى : "فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (4).

ولكنه قد يخالف هذه الطبيعة فيأتي بالصالح من الاعمال ، قال اقبال :

- ما أكثر البشر الذين يأتون فعل الابالسة ، وما أكثر الشياطين الذين يأتون بأعمال الادارسة (5).

---

1 - سورة البقرة ، الآية 247.
2 - رسالة الشرق ، ص 139.
3 - رسالة الشرق ، ص 256.
4 - سورة طه ، الآية 120.
5 - رسالة الشرق ، ص 139.

وهي إشارة منه لقوله تعالى : "وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوا شياطين الانس والجن"(1) وقوله : "أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا"(2).

وأما عن إتيان الشياطين بفعل الانبياء فيمكن استثنافه من تلك الطائفة من الجن التي آمنت بالله ، والمؤمن لن يصدر عنه إلا الصالح من الاعمال ، قال أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا"(3).

القلب سلطان الأعضاء والنظر في الكون والآفاق ، وهو محرك الانسان ودافعه وإن كان حيا يتخطى إلى الدرجات العلا ، وهو المتدني به إن ران عليه الظلم والمظالم والغفلة إلى الدركات السفلى ، إنه كنز السلم الذي لا صلاح له إلا به . قال تعالى : ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"(4)، لذلك كان للقلب عند اقبال مائته النابعة من النور الاسلامي لتلك القطعة الصغيرة من اللحم والدم . فعلامة القلب وطهره هبة الهية بها يعرف قدر الانسان وصلاحه ودرجة حرصه على أمته ودينه ، يقول :

ـ يا من أعطتك الفطرة ضميرا طاهرا ، وتمزق صدرك من الحزن على الدين مائة مرة(5) وذلك القلب القطعة الصغيرة أو المضغة أو النقطة هو بحر الانسان وهو قطرة الندى التي تسقط على الجسم فتنعشه ، لأن الجسم من غير جثة هامدة ، يقول :

ـ لا شيء في الصدر سوى نقطا (صغيرة) ، حينما تصل اللسان فليس (لحديثها) لها نهاية (6).

قلبك ، يا قلبي ، يا لبي ، بحري ، سفينتي ، ساحلي .

أأنت الندى الذي تسقط على ضريحي (قطرة قطرة) ، أأنت البرعم الذي نما من رمادي (7)

وهو حلاّل المعجمات تلك الرموز ، ويكفي لحلّ ما يعجز العقل عن حلّه من مشكلات أن يقوم المرء برحلة في ذلك البحر الفجاج القلب ليجد مفتاح حلّها وسبيل فهمها ، يقول :

---

1 ـ سورة الانعام ، الآية 112.
2 ـ سورة فصلت ، الآية 29.
3 ـ سورة الجن ، الآية ، 1 ـ 2.
4 ـ سورة الشعراء ، الآية : 87 ـ 89.
5 ـ رسالة الشرق ، ص 188.
6 ـ رسالة الشرق ، ص 216.
7 ـ رسالة الشرق ، ص 223.

ـ ما كنتُ معنيًا بمعرفة الروح ، ولكن الوحي تدخل فجأة لحظة يجوز أن نفهم (١)

وإذا تعذر على الإسلامي عالم الروح ، فإنه يرفض السؤال عنها ولا يجيب السائل عنها لأنه ليس من عوالم تلك الأسئلة ، ولأنه لا يحب أن يتوغل فيما لا طاقة لكل عقل وفهم ، أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بإرجاع الجواب فيه إلى علم الغيوب : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (٢).

يقول الغزالي :

ـ أنت تسأل عن الرابطة والعلاقة بين روحي وجسدي ، وأنا لست مطلعًا في هذه المسألة على شيء ، كيف ؟ (٣).

وهو يؤمن إيمانًا مطلقًا بوجود الله ، ويكفيه الدليل القاطع في الوجود ، ولكنه يرفض الحديث عن ماهيته ، ويعلله عن عجزه بعجز كل الناس عن تحديده ، يقول ـ لا تأخذ بعبارة أن الإنسان والطير التي هذه الحكمة المستجلاة من العلاقات ظنون ، ما علم كيفية ما في الجسد ، بحيث لا تستطيع القول أنها هذا ولا تستطيع القول أنها ذاك (٤).

والغزالي الذي يفسر حيرة أمام هذا اللغز يعلن عن رفضه للسؤال عنها بعجزه عن الإجابة ، إنما يعبر في ذلك عن أمر الله الذي وجهه الله عز وجل التي نبيه محمد أن لا يكف الناس ويلهيهم عن الحديث في أمر هو من خصوصياته وحده ﴿ يسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ﴾ (٥).

وبهما يسع العلم بالإنسان فإن عن نفخ الروح وعن قبضها يبقى دائمًا أمرًا خاصًا بالله وحده ، يقول :

ـ لا أحد يعلم كما لا في هذا الفن ، ولا أحد يعلم متى (نفخ) الروح (٦)

أما الأخلاق القرآنية والآداب الإسلامية فقد كانت لها حضورها البارز على الصعيد الخاص والعام ، من ذلك شيمة الاعتدال في كل الأمور ، يقول :

ـ لكن معتدلا وعاقلا وحكيما ، يجسر غيورا مقدامًا (جريئا) (٧) .

أنا أضحك بكم حالات الحمق والشوق ، ولكن خذ الأدب المعتدل ، فالشرب الخمر يقدر (يقدر الرجل) (٨) .

---

١ ـ رسالة الطير ، ص 203 .
٢ ـ سورة الإسراء ، الآية 85 .
٣ ـ رسالة الطير ، ص 212 .
٤ ـ رسالة الطير ، ص 243 .
٥ ـ سورة الإسراء الآية 85 .
٦ ـ رسالة الطير ، ص 243 .
٧ ـ رسالة الطير ، ص 272 .
٨ ـ رسالة الطير ، ص 304 .

ولعلّه في هذا أخذ من قوله تعالى : اعدلوا هو أقرب للتقوى (1) . كما أنه متأثر في نصحه بأخذ الادب المعتدل والاخذ من الحياة بقدر بقوله : ان الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا (2) . ومن الاخلاق التي دعا اليها اتباعا لخلق العفو الذي قال فيه المولى تبارك و تعالى : فمن عفا وأصلح فأجره على الله (3) وجزاء ذلك العفو البشري الأرضي عفو من الله ومغفرة ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم (4) . ويكفي العدم الذي لايطلب ما ينفق في سبيل الله أن ينفق من فضلة العفو لما فيها من سبب للقبول : ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو (5) ، ولعلنا أيقن ايمان أن في العفو قتل للاضغائن واخماد لنار الاحقاد وخنق للفتنة خير الناتج بين العفو وما يتبعه من صفو وبين الحرب المدمّرة ، وفي كليهما تأثير لمزاج الحقد :

— ان لم تكن لك القدرة عند العفو ، فانهض وأطفئ عداءك وحقدك الدفين للأعداء ولا تجعل الصدر مصنع حقد وضغينة ، ولا تكتسب الخلّ في كأس شهدك (6) . فالحرب بآثارها المدمّرة للحرث والنسل والعمران ، هي عنده خير من حرب الاحقاد والاضغان وخير من تعشيشها في أدغال النفس البشرية .

وللمحبة عند ابتان مناورها الاسلامي ، فالله هو الذي جمع بين العباد وألّف بينهم ، وهو الذي ألّف بينهم المودّة وأنعم عليهم بوساطتها تلك الصحبة والاخوة . وعلى المسلم العاقل أن يحفظ ذلك الرباط وتلك الهبة الالهية حتى لايكون من الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، قال تعالى في بيان فضله على العباد بنعمة الألفة والمودة التي يلقي بها في القلوب " وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم (7) .

ولذلك ينصح ابتان بالاجتهاد في الحفاظ على تلك الهبة الربانية ، فيقول : — لا تدّخر جهدا ما غيظا واجتهد في طريق الوداد وحسن المعاشرة ، لأن صحبتنا هبة السجية (8) .

---

1 — سورة المائدة ، الاية 8 .
2 — سورة الطلاق ، الاية 3
3 — سورة الشورى ، الاية 40 .
4 — سورة النور ، الاية 22 .
5 — سورة البقرة ، الاية 219 .
6 — رسالة الشرق ، ص 390 .
7 — سورة الانفال ، الاية 63 .
8 — رسالة الشرق ، ص 348 .

وفي مقابل هذه الآداب والأخلاق التي أثبتها اقبال في ديوانه وحفظها الله ويحفظها ابتدع الانسان أمراضا وابتعد عن العقل والقيم واتبع الأهواء والشهوات، وقد كان أسف الشاعر على ضياع المسلمين عظيما، من علاماته تلك الآهات الحرّى التي أرسلها في شعره وذلك القلب الممزق الذي ظهر به وذلك الحزن العميق على المسلمين وعلى تلك الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس فمرت بها سنون عجاف طوال ذهبت ببعض قيمها وشوهت بعضها وغشي النسيان بعضها الآخر وهو أسى لم يخص به المسلمين وحدهم وانما أظهره على الناس جميعا وعلى انسان عصره وما علق به من شوائب لن تمحي آثارها الا بالعودة الى الدين والعناية بالقلب والروح اذ هما مصدر الاشعاع، وقد كان مصدر اقبال في انتقاده تلك الآفات التي حلت بالانسان القرآن الكريم الذي صوّر خفايا النفوس وأمراضها وقصور البصائر والقلوب، وكأننا به وهو يكشف عن تلك الأمراض يستوحي في ذاكرته سور القرآن وآياته اذ تدعو الى عبادة الواحد الاحد فيقابلها الانسان بمعبودات لا حصر لها، تدعوه الى طاعته والتوفيق بعباده، فيقابلها بالكبرياء والتجبر في الأرض، تدعوه الى اليقين في الحياة بعد الموت فيقابلها بالرهبة من الموت، نظر اقبال الى انسان عصره وعرف ذلك المرض الذي ذهب بلبّه، مرض الانتقال من معبود الى آخر، ومرض خلق المعبودات الواحد تلو الآخر، يقول:

ـ في كل لحظة ينحت فكرنا الها جديدا، فهو لا يتحرر من قيد حتى يقع في قيد آخر (1)

ـ اعطنا شيئا جديدا فانا وقعنا في طلب الجديد. (2)

قال تعالى مصوّرا تلك النفوس المريضة بعبادة غيره: "اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا" (3). أما المعبودات التي يصنعها عقل الانسان وأما الاشكال التي يخلقها فمتنوعة منها عبادة الرغائب والشهوات، قال اقبال مصورا حال المسلمين وقد استسلموا لشهواتهم فعبدوها وباعوا أنفسهم في سبيلها:

ـ وصار المسلم الهندي عبدا لشهوته (معدته)، فهو يبيع نفسه وقد انتزع قلبه من الدين. (4).

ان الرغائب تقعدنا عن الطيران (والتحليق)، فانشر الجناح بأذواق التحليق وواجيده (5

---

1 ـ رسالة المشرق، ص 315.
2 ـ رسالة المشرق، ص 325.
3 ـ سورة مريم، الآية 81.
4 ـ رسالة المشرق، ص 188
5 ـ رسالة المشرق، ص 201

وفي هؤلاء الذين اتبعوا الشهوات تفضيلهم عن العبادة قال عز وجل : " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات "(1) ومن المعبودات التي صنعها عقل الانسان الاصنام التي وان حطمت كما حطم ابراهيم أصنام قومه فان صلة الناس بها لم تنقطع ، وحجتهم أنها كانت وكان الاباء يعبدونها ، " أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا "(2) فحسبهم ما وجدوا عليه أباءهم وان كانوا ضالين ، يقول أقبال :

- لو يكسر الحكماء مائة صنم ، فانها ستظل مرتبطة بمعبدها الذي كان والسذجة كانوا (3) .

ومن معبودات المسلمين الجديدة الغرب بكل زيفه وبريق مدنيته ولكن الأخطر عليهم - في نظر الشاعر - هو تلك البدعة التي ابتدعوها وما كتبها الله لهم ، بدعة عبادة القبور والاضرحة ، يقول :

- أنت خائف من عبودية الغرب ، ولكنك تسجد أيضا أمام القبة والضريح(4)

لقد قيد الكثيرون بالعبودية وخدماً ، أصنام نحتوها من حجارة الاضرحة ، فضمائرهم خالية من الخيال السامي الرفيع ، وهم يجهلون أنفسهم ويخجلون من أنفسهم (5) .

وهكذا لم يبق للمسلمين غير الاسم ، لأنهم وهم أبناء الخليل وذريته عادوا الى الآزرية ، وطلبوا لأنفسهم أصناما أخرى ، يقول :

- فماذا أقول لك عن المسلمين السلاسلية ، ما هم الا أبناء الخليل عادوا الى الآزرية (6).

ومن المعبودات التي نحتها عقل الانسان القاصر عبادة الانسان للانسان وعبادته للملوك والسادة ، يقول :

- رضي الانسان الجاهد الاعمى عبودية البشر ، وهو يملك جوهرة (القلب) ولكنه يقدم النذر لـ"قباد" و "جمشيد" .

قد جعلته معنى العبودية عنده أحقر من الكلب ، فأنا ما رأيت كلبا يطأطئ الرأس أمام كلب(7) .

---

1 - سورة مريم ، الاية 59 .
2 - سورة الاعراف ، الاية ، 70 .
3 - رسالة المشرق ، ص 234 .
4 - رسالة المشرق ، ص 244 .
5 - رسالة المشرق ، ص 286 .
6 - رسالة المشرق ، ص 346 .
7 - رسالة المشرق ، ص 304 .

لذلك جعل اقبال من نفسه سيلا عارما يأتي على كل ما وسوست به نفسه فيحطمه ويحطم كل الاشكال وكل الصور التي تقيده ، وتقف حائلا بينه وبين بحثه عن الحقيقة ، يقول :

— لم أعد أعبد الاشكال والصور ، فقد حطمت المعبد ، انني ذلك السيل السريع الحركة (العارم) أحطم كل الحواجز والقيود (1) .

أما البديل الذي يشفي نفوس أولئك الحيارى فلا يراه اقبال الا في العودة الى الحق وفي تجديد الصلة بالرحمن ومجافاة طالب النفس وشهواتها ، وفي ذلك يقول :

— صل قلبك بالحق (الرحمن) ولا تسجد أمام السلاطين ، لان السجود على عتبة هذا المعبد المتهدم مستحيل (2) .

— في قانون أحياء القلوب ، تكون الحياة بمجافاة الطالب والشهوات . (3) .

ومن آفات النفوس التي رصد اقبال في ديوانه ، صفة التكبر في الأرض وهي التي استعاذ منها موسى عليه السلام بقوله : "انى عذت بربي وربكم من كل متكبر" (4) لأنه يعلم أن الله لا يحب المتكبرين ، وأن لهم جهنم مثوى فبئس مثوى المتكبرين ، وأن الله طبع على قلب كل جبار متكبر ، قال تعالى : "كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار" (5) .

وهذا الشاعر وهو المتنسم بنسائم قرآن الفجر صاغ التنفير منها في قصة تتجاذب أطراف الحوار فيها النهر والجلمود فجاءت عبرة لكل ذي قلب سليم ، تاه الجلمود فخرا وعدا لا أمام النهر صاحب النعمة والفضل عليه ، فما كان من النهر الا أن سار بعصفه وترك الجلمود ، ناصحا اياه أن يحفظ نفسه من الشعر ولا يتلاشى ، وتلك هي نهاية كل متكبر فخور ، يقول :

— قال الجلمود في كبرياء وغرور للنهر في الجبل ، سواحك أفسد حياتنا (وعكر صفونا) ،

أنت تغني في وقاحة وبلا أدب ، وتسير في تهور ولا مبالاة ، وفي كل سنة تبدو

---

1 — رسالة المشرق ، ص 322 .
2 — رسالة المشرق ، ص 337 .
3 — رسالة المشرق ، ص 317 .
4 — سورة غافر آية 27 .
5 — سورة غافر آية 35 .

أكثر جرأة وجسارة وأشد ضلالا وشرودا .

فما غير الجائز أن تكون من فصيلة أبناء الجبل ، فلا تطمع في أن تكون رفيقا وأخا لسقم الجبال .

أنت تدور وتسقط وتنزلق الى التراب ، فاتخذ (قشق) طريقا جديدا واتجه نحو العقول .

أجاب المجنون : لاتقل مثل هذا الكلام العميق للقلب ، دع التيه والخيلاء ودع الغرور والتعالي .

انني أجري (سأذهب) لأنني لست من هذه الفصيلة ، أما أنت فاحفظ نفسك من الشمس الساطعة (1) .

ومن أدواء المسلمين الخطيرة اضاعتهم لنفحات الفجر ونسائمه وبركاته ، لم يتمالك اقبال نفسه من اظهار حزنه العظيم وأساه على ذلك الضياع الذي حل بالمسلمين والتصحيح للفجر الذي أقسم به المولى عز وجل تكريما له وتوكيدا لفضله ، : "والفجر وليال عشر"(2) . وقال في قرآن الفجر ، :"أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا"(3) .

قال اقبال مشيرا الى غضب الله من نوم عباده ، غضب الكون ، فبينما تأتي النجوم يقظة وتذهب يقظة ينام المسلمون ملء الجفون ، وهي لذلك تذهب غضبانة اسفة على حالهم تلك ، فالشباب نائمون والشيوخ فاترو العزائم ولا أحد يحيي لحظات تنفس الصبح ويتابع ويتأمل ساعة سفوره :

لقد غبت سريع الخطى يا نجم الصباح ، وربما هبت ضائقا من نومنا .

أنا من فصيلتي أضعت طريقي ، أما أنت فجئت يقظا وهبت يقظا (4)

شبابنا نوم وشيوخنا بارد و قلوب ، لا وجود للقلوب التي ترقب تنفس الصبح (5)

ان لآهات السحر ودموع الخشية فيه والانتشاء بحب الله أسرارا أراد اقبال أن يهمس بها في أذن من القى السمع حتى يكون في همسه ذاك حياة لمن يضاهي مثل حياة الورد بالنسائم ومنها يقول ، :

ـ اذا أدركت سر آهات السحر وانفاسها ودموعه ، فان أنفاسي تصنع معك جنسية النسيم مع الورود . (6)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 274 .
2 ـ سورة الفجر ، الاية 1
3 ـ سورة الاسراء ، الاية 78 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 200 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 351 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 350 .

غير أن أمله في أمة الاسلام باق ما دام فيها العارفون لقدر تلك الانفاس الطاهرة سواء قلّوا وهم الركب الراغب في الله ، المسافر اليه دوما ، يقول :

— فاضرب أنغامك على أوتار العود وأقم (هيج) حفلا في الحديقة والخميلة ،
أشرب الخمر وترنم بانشاد الغزل وتجنب الاحزان .

فقد تنفس الصبح وصلّى الركب وشدّوا الرحال ، أو لم تسمع صوت الاجراس(1) .

ومن الامراض التي لفتت انتباه اقبال في أبناء عصره داء الخوف من الموت والرعب منه وهو مرض حتّل بالنفوس الضعيفة فكأنما حياتها هي الحياة الدنيا وما بعدها عدم ، رأى اقبال أن العقبة الكؤود في طريق رقي المسلمين هي الحرص على الحياة ومخافة الموت أو هي حبّ الدنيا وكراهية الموت ، وأيقن أن الموت لا يرهبه الا جاهل لحقيقة نفسه ، وتصويرا لحال هؤلاء الضالين وموافقة لهم على ضلالهم يقول بدر شاكر السياب :

— كم يعض الفؤاد أن يحبس الانسان صيدا لرمية الصياد ؟
مثل أي الذباب ، أي العصافير ، ضعيفا
قابعا في ارتعاد الخوف يخشى ارتياعا لأن ظلا مخيفا
يرتمي ثم يرتمي في اتّقاد
يعلب الموت ، فارس الموت ، عزرائيل يدنو ويشحذ
النصل ، آه ،
منه آه ، يصك أسنانه الجوعى ويرنو مهددا يا الهي
ليت أن الحياة كانت فناء
قبل هذا الفناء هذي النهاية (2)

أما اقبال المسلم القانع الراضي بقدر الله فيقول مجسدا حقيقة أولئك الذين اختلت موازينهم وأصبح التراب المعيار الوحيد الذي يقيسون به الأشياء في غياب القيم والمبادئ :

— يلازم خوف الموت كل مضلّل يرى أن مقياس الحياة ترابها (3) .

ويقول المولى عزّ وجلّ في أولئك الحيارى الذين سكن قلوبهم خوف الموت وحبّ الحياة : " ومن الذين كفروا يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة "(4) .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 332 .
2 — من أنشودة المطر لبدر شاكر السياب انظر : ايليا حاوي بدر شاكر السياب دار الكتاب اللبناني بيروت ، ج 4 ص 151 .
3 — محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان — الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي ص 56 .
4 — سورة البقرة ، الاية 96 .

أما المسلم الحق فلا يثيره الموت ولا يهز أركانه ، فليس الموت في التصور الاسلامي "مثار فزع أو اضطراب ، انه قدر الله يجري في أجل محدود لا تقربه شجاعة ولا يقصيه جبن (1) .

فإذا وفى الانسان عمره في الحياة الدنيا ووفى أجله فيها انتقل الى حياة أخرى هي دار الاقامة ، فليس الموت هما للانسان المسلم وليس مشغلة لفكره ، لأنه على يقين مطلق أن ليس "لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا" (2) وقد حاول الشاعر أن يتنزع ذلك المرض النفسي من صدور أبناء الاسلام ، مبينا أن خوف الموت والايمان لا يجتمعان في قلب واحد ، فقال :

ـ يا مؤمنا بلقاء الله مالك في ... ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا .
قد عاد قلبك ميتا بين أضلعه ... كأنه في حنايا الصدر قد قبرا
من كان يحسب أن الموت هاوية ... وأنه عدم يستأصل البشرا
فنار آماله ينحط عن شرها ... الى التراب ويلقى الموت محتقرا (3) .

وأما سبيل الخلاص من هذا الخوف والشقاء من هذا المرض فلا يكون الا بسعي الانسان ومداواته لنفسه بنفسه وبذلك يتضمن لها البقاء والخلود بعد الموت ، يقول :

ـ قلبك يرتعد لفكرة الموت ، قد بقيت مصفرا كالزعفرانة من خوفها
فامسك نفسك بنفسك ثانية وكن أكثر نجحا ونباتا ، ولو تفعل ذلك فانك لن تموت أبدا بعد الموت (4) .

فالحياة ليست غاية ثمينة أو هدفا أسمى لأن الاساس عنده هو حياة الروح التي لا تحتاج الى أنفاس كما تحتاج اليها حياة الدنيا ، يقول :

ان قلبي يعرف سر الروح والجسد ، فلا تتصور أن الأجل بالنسبة لي غال وثمين (5) للحزن والغم ، ان حياة القلب ليست من الانفاس ، وان القلب ليس في دوامة الوجود والعدم .

أيها المحدود النظر لا تخف من فكرة الموت ، فان القلب يبقى عندما تتوقف الانفاس و لا يقف الحزن (6) .

أما الذي يعرف أن الموت نهاية كل حي ، ويعرف أنه مهما ظهر أمثال الاسكندر في الحرص على الحياة ومهما سعوا في طلبها فان الموت مدركهم وان فروا منه

---

1 ـ عادل الهاشمي ـ الانسان في الادب الاسلامي ، ص 463 .
2 ـ سورة آل عمران ، الاية 145 .
3 ـ محمد حسن الاعظمي والدامي شعلان ـ الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي ص 68 .
4 ـ رسالة المشرق ص 211 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 232 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 237 .

فسيكون فيه نظير أدحاب العقول النيرة أعظم من الاسكندر نفسه ، يقول اقبال :

ـ قوة الملك زائلة ، قد أغير عليها ، ومضى لحين الاسكندر ، ومضت نغمة دارا (1)

ذلك التفسير الذي عرف مآل كأس الاسكندر ، هو في نظر الحكماء العقلاء أعظم من الاسكندر نفسه (2).

وعلم الغرب الذي تاه به أصحابه فخرا لن ينجيهم من الموت الذي يحتويهم ويحتوي حكمتهم ، يقول :

ـ قد أبدع الغربيون نوادر المعارف وأعجبها ، وغاصوا الى أعماق البحار ، ورسموا دائرة الحياة بفرجار الفكر ، ولكن الموت محا كل حكمتهم (3)

وأخيرا ختم اقبال حديثه عن الموت بأنه نوم ثقيل يصحو بعده الانسان على حياة الخلود الذي ليس بعده موت ، فقال :

ـ سأبين لك يا أخي دليلا على الحياة ، اعلم أن النوم موت خفيف ، والموت نوم ثقيل (4) .

ولعلّه في تشبيهه النوم بالموت الخفيف متأثر بقوله تعالى : "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار" (5) .

ومن تصورات اقبال الاسلامية التي رافقتنا في هذا الديوان نظرته العالية لقيمة الزمن .

وذلك تصور استقاه من دراسات علماء المسلمين لذلك الكنز الثمين ، وهي ليست دراسات نظرية وانما هي أقوال لهم مستقاة من واقعهم من الوقت وتعاطيهم معه ، فقد كانوا أمة عرفت أن الوقت هو الانسان وعرفت أنه نعمة من نعم الله على العباد فقدّرته حق قدره ، به أقسم الله في طالع سور عديدة وقد عرف عند المفسرين وفي حسّ المسلمين أن الله "اذا أقسم بشيء من خلقه فذلك ليلفت الأنظار هم اليه وينبههم الى جليل منفعته وآثاره" (6) ، والوقت هو حياة الانسان من ساعة الميلاد الى ساعة الوفاة ، قال الحسن البصري : "يا ابن آدم أنت أيام مجموعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك" (7) وتوكيدا لهذا المعنى سجل اقبال قصيدته "نشيد الوقت" التي نقتطف منها قوله على لسان الوقت في خطاب الانسان ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 345 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 296 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 390 .
5 ـ سورة الانعام ، الاية 60 .
6 ـ يوسف القرضاوي ، قيمة الوقت عند المسلم ، دار الصحوة القاهرة ، ص 7 .
7 ـ المرجع نفسه ، ص 13 .

ـ ملأت الأعصار حسرتي وأحاط صدري بالنجوم ، فلو تنظر الي فأنا لست شيئا قط ولو تنظر الى نفسك فأنا روحك .

ما الانسان ودنياه الا من رحمتي وتخطيطي ، ومن سماء قلوب البشر يأخذ ربيعي ألوانه (1) .

واليوم في حياة المسلم هو الدعامة والاساس لغده ، وهو الهدية التي يقدمها المرء لنفسه بعد ذلك الغد أم قبل ، قال تعالى : "ولتنظر نفس ما قدمت لغد" (2) وقال اقبال في بيان ذلك :

ـ قال لي شيخ حكيم ، اعلم أن كل يوم لك هو رسالة لغدك (3) .

لأجل هذا يكون اليوم في عمر الانسان (والساعة واللحظة والنفس) جديرا بالرعاية والعناية لأنه اذا كانت له مع الماضي وقفة للاستفادة والمحاسبة والاعتبار ، وكانت له نظرة الى المستقبل للاعداد له ، فانه يوجه جل اهتمامه الى الحاضر ، الى اللحظة التي يحياها ، الى النفس الذي يتنفسه فساعات الانسان ثلاث : "ساعة لا تعجب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش اليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه ، فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وان أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الاولى" (4) وفي التنبيه الى الساعة الراهنة واليوم الحاضر وضرورة الافادة منه وفيه وبه لأن الغد في سجل الغيب ، يقول اقبال :

ـ خذ اليوم يقوة لأن الغد ، الى الآن في ضمير الزمن (5)

لماذا تجلس غافلا عن وقتك الضائع ، وقت ليس فيه حساب الاشهر والسنوات . (6)

ولما كانت مدارك البشر لقيمة الوقت مختلفة وتعاملهم مع ثوانيه ودقائقه وساعاته مختلفا ، أعقب ذلك الاختلاف في تقييم ذلك الكنز ، فتحول عند البعض وهم العارفون لقدره الى جوهرة ثمينة ودواء وزورق يقودهم نحو الخلود والجنة ، وكان لهم سرا عظيما هو في حقيقته سر من أسرار الرحمن . وتحول عند البعض الآخر وهم الجاهلون لفضله الى داء عضال وسيف يقطع أعمارهم ونار تحرقهما وهم في غفلة لا يدرون شيئا ، يقول على لسان الوقت :

ـ أنا في الصدف وفي الدرر والقصور ، أنا الداء والدواء وأنا العيش الرغيد

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 259 ـ 260 .
2 ـ سورة الحشر ، الاية 18 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 212 .
4 ـ يوسف القرضاوي ، قيمة الوقت عند المسلم ، ص 54 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 244 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 352 .

أنا السيف الذي يقطع الحياة ، وأنا عين الحياة (التي تهب الحياة)
فأنا عملة نيسان وأنا جنة رضوان (1).

وهذا هو الزمن الذي طلبه اقبال والذي أوجب على المسلم مصارعته حتى يفيء الى أمر الله ويتحول الى سر من أسرار ، يقول :

يقول من لا خلاق له : دع مع الدهر حيث دار واذا لم يسالمك الزمان فسالمه
أنت : اذا لم يسالمك الزمان فسايره وداره حتى يفيء الى أمر الله (2) .

أما قصص الانبياء فقد كان له حضوره القوي في رسالة المشرق على امتداد أجزاء الديوان كلها . وهذا لا يعني حضور قصص الانبياء كله وانما أحيا الشاعر رموز بعضهم والتقط بعض الجزئيات من حياتهم لا سيما تلك التي يمكن أن يتخذ منها درسا لأمته وللناس جميعا . فقد علمنا الاعجاز البياني القرآني أن القصص ليس "سردا مجردا لبعض الروايات يتسلى بها السامعون ... ثم ينفضون .. ان هذا القصص كان تاريخا لسير الدعوة الدينية في الحياة وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة . وما هي العقبات التي اعترضتها وهل وقفت عندها أو تغلبت عليها ، وما صنع الانبياء بازائها ... وبما انتهى الصراع بين الغي والرشاد" (3) . وأما الحكمة من وراء ذلك القصص فنجدها في قوله تعالى : "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب . ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" (4)

من ذلك التصور القرآني المتوسل الذي تقرأه النفس بلهفة وتركيز وتحب أن تقف عنده وقفات طويلة ، ومن حياة الانبياء والرسل قبس اقبال أنواره من حياة عشرة منهم ، كان آدم عليه السلام أولهم ، وكان حظه من الديوان أكثر من حظ غيره ، ولعل اقبال اذ أعطاه تلك الاهمية انما لأنه يراه أب البشرية ، فهو اذ يتعقب خيط آدم أو يسرد جزء من حياته أو يصور طبيعة من طبائعه ، انما يقول لنا :

كذلك كل آدمي على وجه الأرض . قال تعالى في خلق آدم : "الذي أحسن خلق كل شيء وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه" . (5) وفي الأصل الترابي للانسان قال اقبال شعرا تتعجب كل المخلوقات من قدر هذا الكائن المخلوق عند ربه

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 259 ـ 260 .
2 ـ أحمد ماهر البقري ، الفكر الاسلامي في أدب اقبال ، ص 64 .
3 ـ الشيخ محمد الغزالي ، نظرات في القرآن ، دار الشهاب ، باتنة ، ص 110 .
4 ـ سورة يوسف ، الآية 111 .
5 ـ سورة السجدة ، الآيات : 7 ، 8 ، 9 .

مع ترابيسته :

ـ صاح العشق قائلا : لقد ظهر مقروح الكبد ، وارتعد الحسن قائلا : ان صاحب نظير ظهر .

والخليفة في اضطراب باكية أن ، قد تجلّى من دنيا التراب المجبور مخلوق مختار (معجب بنفسه معظم نفسه) .

وذاع خبر من السماء الى قبة الأزل ، أن حذار أيها المحتجبون (الملائكة) فقد ظهر مستزق الحجب .

والأمل على غير وعي منه فتح العين بين أحضان الحياة ، وظهر تدنيا جديدة .

قالت الحياة كم من العمر بقيت في الاضطراب بين أحضان التراب

حتى تجلّى من ذلك الفلك العتيق بساب (1) .

ويكفي أن نعرف مكانة هذا المخلوق الجديد وقدره من ذلك التعجب الشديد الذي سرى في أوساط الملائكة وفي الكون ، ثم في أمر الله للملائكة بالسجود له تكريما للبشرية كلها ، يقول :

ـ فالله عندما أبدع صورة الجسد (خلق ـ صوّر) ، أمر الملائكة أن يسجدوا له (2) ولم يكن السجود الصورة الوحيدة لتكريم الانسان ، فالكون بجماله وعظمة خلقه هو من أجل ذلك الكائن الصغير الذي أصله ذرات من تراب وماء ، بل ان الانسان تلك الحفنة البسيطة من التراب أفضل من الكون وما فيه ، لأنه الوحيد الذي تحمّل رسالة أبت السموات والأرض أن يحملنها ، قال اقبال على لسان النجوم في تقدير الانسان ورسالته :

ـ لا أحد يستطيع تحمل هذا العبء الثقيل ، وان عدم منا الخالد أفضل من حياتنا (وجودنا) .

وهذا الفضاء الرحب هو في نظرنا عديم الجمال ، فذلك الغبار السافل (الانسان هو عندنا أفضل منه .

ما أبعد ذلك الانسان الذي لا تملك روحه قرارا ، انه جوّال طريق الزمن الذي لا يهدأ .

فسيرب الحياة صنع على مقاسه ، لأنه ولسيد الابداع الجديد الذي تفتح أمامه كل العهود (3) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 255 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 234 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 265 ـ 266 .

وقبل على لسان كل آدمي عن مكانته (الانسان) عند الخالق الذي كرّمه وفضّله على كثير من خلقه :

ـ أنني فتحت بجناحي الأزل الممتد ، وكشفت بريقا عن قيد الماء والطين .
قيمتي في نظرك غالية ثمينة ، لأنك أنت الذي أخرجتني الى سوق الوجود .(1)

وفي هذا التكريم الالهي يقول عزّ وجلّ : "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"(2)
واذا سجد الملائكة كلهم أجمعون واستجابوا لأمر الله بتكريم آدم ، فان ابليس أخذته العزة بالاثم فجاهر بتمرده وعصيانه ، وكانت حجته أنه وهو المخلوق من نار لا يسجد لمن هو أقل شأنا منه وهو المخلوق من طين ، فكان من الكافرين وحقت عليه لعنة الله وغضبه : " فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين ".(3)

وقد صوّر الشاعر ذلك الغرور الذي أظهره ابليس في حوار له جرى مع الباري صوّره متطاولا ، مفاخرا في قطعة شعرية بعنوان : "انكار ابليس" ، فقال على لسانه :

ـ أنا لست ابنا غبيا للنار حتى أسجد لآدم ، فأصله من تراب وأصلي من نار
انها شعلتي التي تخفق في دماء الكائنات وعروقها ، وسرعتي مثل سرعة الطوفان وصوتي مدو كأنه الرعد .
أنت خلقت النجوم ومنّى أنا حركتها ، فأنا شعلة الخلود وأنا روح الحياة .
أنت تلقي الأرواح في الأبدان وأنا القيت الفتنة في النفوس ، أنت توجه الناس الى الهدوء والسكون ، أما أنا فأقودهم نحو الاضطراب والقلق والخفقان .
لست أنا الذي يطلب منه السجود أمام أحياء ضعاف ، فأنا القاهر بلا جهنم وأنا الاله بلا محشر .
من تراب محتقر خلق الانسان قليل العقل ، ولد بين أحضانك ولكنه صار ناضجا بين أحضاني (4)

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 235 .
2 ـ سورة الاسراء ، الاية 70 .
3 ـ سورة الحجر ، الايات : 30 ـ 35 .
4 ـ رسالة الشرق ، ص 255 ـ 256 .

ويـأتي بنا الى المرحلة الثالثة من قصة آدم وهي اغواء الشيطان له ، اغواء كتبه الله عليه منذ الازل لينزل الى الأرض ويكون خليفته فيها . وهب الله آدم وزوجه جنة لا جوع فيها ولا طمأ ولا عري فيها ولا شقاء فوسوس اليهما الشيطان وأغراهما بملك جديد ، قال تعالى : "فقلنا يا آدم ان هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تضمؤ فيها ولا تحى ، فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى" (1) . أما اقبال فقد أخذ من هذه الآية وأمثالها ثم استعان بخياله الشعري وأضاف حججا أخرى على لسان ابليس لاقناع آدم وتزيين المعصية ، فقال في اغواء آدم :

ـ ان حياة الحرقة والاضطراب والحركة أفضل من السكون الدائم ، فالحمامة الوديعة تغير عقابها من الهياج داخل الشبكة .

لا شيء يدر عنك سوء العجز ، انهض مثل السرو السامق يا من تريد أن تسرع في عمل جميل .

لقد سلبك الكوثر والتسنيم حيوية العمل ، فخذ من حقل الكروم خمرة غيبية مشرقة اللون .

ما القبح والجمال الا من ابداع خالقك ، فخذ لذة العمل ، وسر على اثمد (السعادة) الرغائب .

انهض وسأريك عالما جديدة ، افتح عينيك جيدا للتفرج بكل فخر وتيه .

ان قطرة الماء الحقيرة تتحول الى جوهرة مضيئة متلألئة ، فتجاوز هذه الدنيا واتخذ مقامك في البحر .

ـ وأنت سيف حاد لا مع يقطع روح الحياة ، فاظهر جوهرك وأخرج من الغمد ، الا تحلم الى الآن أن الشوق يموت بالوصال ؟ وما هي حياة الخلود ؟ انها الحظة الخالدة الملأ منتهية . (2)

وكانت النتيجة أن استسلم آدم لاغراء انه الاستقلالية ووقع في الطلب والبحث عن الاسرار وعن الحقائق ، فأخرج من الجنة ، قال اقبال :

ـ وما أجمل أن نفتح في القفر بابا الى فضاء البستان ، وأن نطوي طريقا في السماء ونصير أصدقاء النجوم وأصحاب سرها .

---

1 ـ سورة طه ، الآية : 117 ـ 120 .

2 ـ رسالة الشرق ، ص 256 ـ 257 .

وما أجمل أن تلقي على الحروف الخافية والتوسلات الجلية ، التي تجعل التناغم والانسجام في الحرم أكثر تخفيا وتسترا .

وما أجمل أن نرى شيئا واحدا طيّبا ، وهو هجوم حقل من الورود على الانظار ، وأن نرى السلوك المؤلم من حين لآخر يتفوق على الورد (يتميز عنه) .

أنا كل نار غير منطفئة وكل بقية (يصيص) من أمس ، أدع الظن من أجل اليقين لأنني شهيد البحث والتفتيش الدائم عن الحقائق (1)

ويختم الشاعر القصة بوقوف آدم ـ رمز كل البشر ـ بين يدي الرحمن يوم القيامة.

هناك يتذكر آدم ويسترجع لحظة قصته ، فهو الذي هبط من الجنة الى الأرض ثم سمت به ارادته فارتفع حتى وصل الى الافلاك ، ويقف ليطلب المغفرة لذنوبه والتجاوز عن خطاياه ، ولكنه يعلن في يقين أنه لو لم يعش لحظة الخطأ الاول (ساعته) لما هبط الى الأرض ولما حمل تلك الأمانة ولما أبدع في الكون ، ولما سار في تلك الرحلة الطويلة الشاقة من أجل التسامي مرّة أخرى والعودة الى الحق ، يقول في قصته "آدم في حيرة البارئ"

ـ يا من استنار كوكب الروح من شمسه ، ويا من أوقدت من قلبي شمعة الدنيا المظلمة الفسيرة .

لقد سكب فني البحر في كأس واحد ، وفجر فأسي من قلب الصخرة الصماء نبعا (ماء) .

فكوكب المزهرة متيّم بي والقمر يضفي اليه من الوله ، والعقل الكبير انقض من عملي لفتن العالم .

تدنيت الى أسفى الأرض ، ثم علوت حتى الافلاك ، فالذرّة والشمس الخبيثة سجينة سحري فان أبعدني السحر عن طريق الصواب ، فتجاوز عن خطيئتي وتقبل العذر عن ذنوبي ومعاصي .

حتى يذوب هذا المعشوق الحجري من أنفاسي الحارة وتأوهاتي ، فانه يجب علي قبل أن أتطلع الى الريح أن أكون مخلصا له (2) .

أما نبي الله ادريس فقد وقع ذكره في الديوان مرة واحدة ـ سبقت الاشارة اليها ـ عندما شبه ايمان الجن وأفعاله الصادرة عن ذلك الايمان بفعل ادريس النبي الصديق ، قال :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 257 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 258 .

اتخذ الشاعر من قصة ابراهيم مع النمرود ونار، ومع جهل قومه وتمسكهم بعبادة الأصنام، واتخذ من قصته مع البحث الدائم الدؤوب عن الحقيقة حتى أدركها رمزا للانسان المكافح الصبور في سبيل هدفه، الشاعر نحو ذلك الهدف وان بعد. وهي رموز لا يبين بها الشاعر الا للمسلمين لأنها سر من أسرار أبيهم ابراهيم الذي كان يجب أن يتعلموا منه، يقول :

ـ أيها المسلمون لي كعبة في القلب، هي أوضح وأكثر تجليا من روح جبريل.
أخفيها عن أبناء النار (المشركين ممن هم على شاكلة آزر)، فهي سر من أسرار الخليل عليه السلام (1).

ـ اعمر كيانك بالذات، واعمر البيت الحرام كابراهيم (عليه السلام) (2).

وينصح اقبال الناس بالاقتداء به لأنه هو الأواه الحليم المنيب، ولأن قصته وهو المهتدي الى الحق بقلبه تعيد تقديسها في كل زمان، يقول :

ـ قال لي شيخ طيب ذو قلب حي بحانة ذات مساء، في كل زمان يوجد ابراهيم ونار نمرود (3).

وان يدعو النمرود بالنار لاحراق ابراهيم فذلك لأنه يجهل فعل العذاب في تطهير النفوس السوليمي بحب ربها، ويجهل فعل لهيب ألسنة تلك النار في قلب ابراهيم. قد بها الداء والأذى فكانت دواء لابراهيم طهرته من كل غشاوة وغسلت عنه أدران الاصنام وسائر المعبودات ودفعته الى البحث والطلب حتى وصل الى غايته "فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين... فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين" (4).

وكذلك ينتهي كل عذاب تحطه المرء في سبيل الوصول الى الحق والى الغاية المطلقة، يقول اقبال :

ـ يشعل العقل نارا تحرق القلب، وهذا هو تفسير قصة النمرود والخليل (5).
ـ احترق الخليل مدة في نار نمرود، حتى يطهر حرم قلبه من الاصنام القديمة (6).
فنار نمرود هذه تبعث في كل زمن وتتنفس في كل مكان هي رمز لكل عذاب وعناء

---

1 ـ رسالة المشرق، ص 202.
2 ـ رسالة المشرق، ص 205.
3 ـ رسالة المشرق، ص 314.
4 ـ سورة الانعام، الآية : 76 ـ 79.
5 ـ رسالة المشرق، ص 212.
6 ـ رسالة المشرق، ص 367.

من كل جاهل غوي لكل مؤمن موقن بالحق ، عارف أن عليه مقاومة تلك النار وتحديها لأنه يعلم أن قيمة الانسان لن تعرف إلا من صراعه مع الشر والنار والعذاب به ، يقول :

ـ احرق نفسك في نار النمرود ، فما رو م الخليل إلا من تلك النار (1) .

أما قصة يوسف عليه السلام فقد ركز فيها على عذاب يوسف والتهمة التي ألصقت به فأدخلته السجن ، إلا أن سمو أخلاقه أرغم تلك المرأة على البوح بالحقيقة واعترافها أمام الملأ ولذلك رفعته نفسه والصالح من عمله والحسن من تدبيره فصار سيدا بعدما كان عبدا سجينا ، وامحت أحزان أبيه الشيخ يقول سبحانه وتعالى : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم »(2) . كما استعان اقبال بقصة يوسف في ذلك التغيير الجذري الذي شمل حياته وذلك التحول ، فشبه ثورة العامل الأجير على الرأسمالية وتغييره لوجه التاريخ بما حدث ليوسف الذي بعدما كان الملك إرثا يسورث أبا عن جد فاز بتاجه ولم يكن له من صلة بالملك بل كان عبدا اشتراه السيارة بدراهم قليلة ، يقول :

ـ لا يمكن أن يقال حديث جديد في بلوى يوسف الضائع إذ لا أنت تملك غليان دم زليخا وخفقان قلبها ولا أنا (3) .

حمل فرهاد نحات الجبال الفأس ربيده ، قاصدا ملك پرويز ، فقد ولت خدمة الاسياد وانتهت محنة العبيد .

ويوسف أخرج من سجنه لكي يصير ملكا ، فقد توارت خراقات زليخا وسحرها ولى .

وكل الاسرار التي كانت خفية عرضت في السوق جهارا ، واختفى ذلك الكلام العذب ومضت محافل الندامى (4) .

ولعل أكبر ما شغل فكر اقبال قصة موسى عليه السلام ، وخاصة قصته مع جبل الطور وأمله النبوي وتمنيه رؤية الله عز وعلا ، وان المتتبع للديوان يكاد يلاحظ مدى عمق منزلة الطور في نفس اقبال وفي سطور الديوان . فهو موضع تجلي

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 371 .
2 ـ سورة يوسف ، الآية : 51 ـ 53 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 339 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .

الحق » : فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا .(1) ومن على جانبه الايمن نودي موسى عليه السلام، : «وناد يناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيبا»(2) ومنه تخرج شجرة مباركة طيبة » : «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين»(3) وبالطور الذي سرّ عنده موسى بأعظم لقطات حياته وأعذبها والتي صارت أمنية كل مؤمن أقسم الله في محكم تنزيله تكريما له ، فلا عجب اذا أعطاه الشاعر اهتمامه لأنه يعلم أن أمنية كل انسان يلتقط الفؤاد حي الروح هي الفوز بنصيب من حظ موسى في التجلي ، ومهما حاول العقل اقناع أولئك الضمأى فان الشوق يساق في القلوب والحنين يساق في الأرواح بلا يأس من خرافات العقل وساعيه الفاشلة باق يتجدد في كل حين وفي كل قلب ، يقول :

- قال الحسن : انه لا تنال العين (أي الله) ، ونظرة الشوق اليه بين الخوف والرجاء وقصة الطور لا تبلى أبدا ، ففي كل قلب (تتنفس) أمنية الكليم ماثلة (4).

ولم يقتصر اتيان أمنية موسى عليه السلام على طلب رؤية الحق وانما جعل تلك الامنية رمزا لكل طلب لليقين ، لكل بحث عن الحقيقة وكل سعي لرفيع الاستبصار وازاحة الحجب ، يقول :

- غير صبور مثل موسى فقد طفل يطلب التجلي ، حتى حلّ عقاله المستنير أسرار الانوار (5)

وهذا ما يفسر سبب انتقاد اقبال لذلك الذي وقف متبه أما نيه عند حدود أمنية موسى عليه السلام عندما قال : «رب أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني »(6) انه يريد بالانسان أن تسمو به أمانيه فوق أمنيات الانبياء وتسمو به مساعيه ، ويصف ذلك البحر الذي يقف عند أمنية موسى عليه السلام بالقصور في النظر والعجز في العقل يقول :

- نظرتك قاصرة وعقلك عاجز ، ودعاؤك لا يستطيع أن يصل سوى الى دعاء كليم الله موسى وصلواته (7) .

---

1 - سورة الاعراف ، الاية 143

2 - سورة مريم ، الاية 52 .

3 - سورة المؤمنون ، الاية 20.

4 - رسالة الطير ، ص 203.

5 - رسالة المشرق ، ص 369.

6 - سورة الاعراف ، الاية 143.

7 - رسالة المشرق ، ص 350.

الا أن أمنية انت لي هذه وماعداها وما فوقها من الامنيات لايبلغها كل انسان ، فكثيرون هم الذين تسمو بهم الاحلام والامنيات وتقعد بهم الافعال ، لهذا جعل اقبال لهذا التجلي وتلك المشاهدة وكل الاماني شرطا لاتتحقق الا به وهو الآدمية وهو الانسان الكامل ، فكما يحن الانسان الى تلك الغاية ، فان الله لايطلب منه غير أن يكون آدميا ، يقول :

- ذهبت الى قمة الطور تستجدي الجلوة وتسألها ، ذلك لأن روحك غريبة عنك وليست محرما لك .

أمضى في طلب الآدمية وفتش عنها ، فان الله أيضا يطلب الآدمية منا ويؤكدها (1) ومن قصة داود عليه السلام أشار اقبال الى صوته العذب الذي وهبه الله والى تسبيحه الذي حرك الطير والجماد ، فانطلقت الجبال والطير مؤوبة معه مسبحة : "ولقد آتينا داود فضلا ياجبال أوبي معه والطير"(2) ، "وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين"(3) .

ذلك التسبيح وذلك الصوت العذب الذي يبعث الحياة في الجبال وهي الصماء الجامدة ويحرك الطير ، يراه اقبال عاجزا عن بعث الحياة في أرض الهند الميتة ، مريدا بذلك أن يبين للقارئ درجة البلاء التي حلت بأرض الهند وأن يقول انها تحولت الى عظام نخرة لاتقوى على التفاعل مع انغام داود العذبة وتسبيحاته الشجية يقول :

- ليس في أرض الهند أثر لصوت الحياة ، فلن تصير الموت حياة ولا الحياة موتا ولو بأنغام (مزامير) داود عليه السلام (4) .

أما قصة سليمان عليه السلام ومعجزاته فقد نصح اقبال المسلمين بالعودة الى معجزته من جديد والتعلم منها بعد ما وصلوا الى مرحلة من الضعف والهوان والاستسلام لسلطان لا تمحى آثارها الا بمثل تلك المعجزة ، يقول :

- أيها المسلمون تعلموا من جديد معجزة سليمان ، فان نظرة الى الخاتم تجعل الشيطان عدما ، انه عدم (5) .

وهو اذ ينصح المسلمين بالتعلم من معجزة سليمان عليه السلام فانه يبخل بحكمه ومعجزاته على الخراب ، وان أظهر من الحيوية والنشاط فانه غير جدير بطبع سليمان كمن ينثر الدر أمام الخنازير ويكحل عين النمل بمكحل سليمان ، يقول :

---

1 - رسالة الخلود ، ص 210 .
2 - سورة سبأ ، الآية 10 .
3 - سورة الانبياء ، الآية 79 .
4 - رسالة الخلود ، ص 314 .
5 - رسالة الخلود ، ص 351 .

ـ أتطلب المعاني العالية من ساقطي الهمم ، ان الطبع السليماني لا يأتي للنغل السديد الحسيبة .

مضى زمن طويل ونحن في انتظار عزف لحن حزين ، فأي أنغام هذه التي تتحول السن دماء ؟ ، لا تكحل عين النمل بعلم سليمان (1).

أما أيوب عليه السلام فقد كان مثالا للصبر وحسن التوجه الى الله والدعاء ، وكذلك كان شيخ كنعان يعقوب عليه السلام ، "وأيوب اذ نادى ربه أنّي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين" (2) . وقال يعقوب سلما أمره لله مستعينا به وحده : " فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون " . (3)

وقد جدد اقبال صبر هذين العبدين العبقريين وجعل منهما رمزا لكل صبّار شكور ، فذكرهما في زمرة من عباد الله المبتلين ، يقول :

ـ لا بكاء شيخ كنعان حركه ، ولا أنات ألم أيوب استدرت رحمته (4) .

ومن قصة عيسى عليه السلام الذي يزعم الغرب أنهم على شرعته ، التفت اقبال الى تفاخرهم بمقدراتهم العلمية وتيههم بانجازاتهم المادية وفوق هذا فقد عدوا ذلك من المعجزات ، ولكن المعجزة الحق هي تلك التي تغيّر في الاعماق ، تبني النفوس و تطهرها ، وتشفي الأمراض التي بالقلوب.

فما جدوى الآلات الحديثة والاجهزة وما جدوى التغيير في أساليب الحياة اذا لم يبدأ من القلوب.

لذلك انتقد اقبال الغرب في فخره بهذه المعجزات التي لم تشف مرضاه وانما زادتهم داء على داء وضياعا على ضياع ، في حين شفت معجزات عيسى عليه السلام الأبرص والأكمه ، يقول :

ـ ليس عجيبا أن تملك اعجاز المسيح ، ولكن الأعجب من هذا أن مرضاك غدوا أشد اعتلالا وعنا" (5).

وليس نهل اقبال من القرآن الكريم بغريب وهو الذي تربّى على مائدة القرآن وشرع في قراءته منذ الطفولة وكأنما أنزل عليه .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 305 ـ 306.
2 ـ سورة الانبياء ، الاية 83.
3 ـ سورة يوسف ، الاية 18 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 301.
5 ـ رسالة المشرق ، ص 358 .

ثانيا: رسالة المستشرق والحديث الشريف والتاريخ الاسلامي

ان أول ما يلفت انتباه المحب حضور الرسول صلى الله عليه وسلم في ذهن اقبال وقلبه ومنه على صفحات الديوان هو تلك النفحات القوية التي انتشى بها من حب المصطفى صلى الله عليه وسلم فلم يستطع كتمانها عن الناس ولم يبخل عليهم ببيان فضلها والأثر الذي تتركه في حياة المسلم، فهو الرسول الكريم الذي أفرح بمقدمه الله العباد من الظلمات الى النور ومن الضعة الى الرفعة ومن الفرقة والنزاع والخصام الى الوحدة والمحبة والوئام فكانت أمة الاسلام بهديه خير أمة أخرجت للناس، فليس بعد الله أحد أحب الى المسلمين من هذا النبي، وان محبته صلى الله عليه وسلم شعبة من محبة الله وفرع لا ينفصل عنها: "قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره". (1).

وفي تأكيد وجوب حبه على المسلمين قال صلى الله عليه و سلم: "والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده". (2) وقال في حديث آخر قارنا محبته بالايمان وجاعلا منها شرطا لتمامه وكماله وصحته: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين". (3).

وقد تشرب روح اقبال بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم واغتنت بعشقه فأبى الا أن يتغنى الى الناس بفضائل ذلك الغنى بحب الرسول صلى الله عليه وسلم ويكشف للقلوب كيان المسلم ذرة من حب النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف اذا فتحت له الأبواب وأنعم القلب بحبه؟ فحياة الدين انما تستمر بحبه، وجمال الكون والوقوف على بهائه انما ينفذ اليه بحب المصطفى عليه الصلاة والسلام وطمأنينة الروح وسكينتها انما سبيلها السير في طريق عشقه، وحياة المسلم كلها موقوفة على هواه، ولكن ليس المراد بحبه كلمة تقال أو شعور يعتلج في النفس، فلا بد من عمل ينطق عن تلك المحبة ويترجم عنها بالاعماق، يقول:

- كل من كان متاعه عشق المصطفى ● تعلق البحر والبر جميعا بأطراف أذياله
فاسأل الحق شرقة الصديق وعلي ● واسأل الحق ذرة من حب النبي

---

1 — سورة التوبة، الآية 24.
2 — صحيح البخاري ج 1 مجلد 1 كتاب الايمان ص 9.
3 — المصدر نفسه والصفحة نفسها.

فحياة المسلم انما هي بحبه ، ورونق الكائنات انما هو بعشقه من يترك عباءته فانه يترك جلدوته ، فهو الجوهر الخفي الذي مكان في الوجود فليس للروح من طمأنينة سوى عشقه ، وان عشقه هو النهار الذي لا ليل له (1) واذا كان اقبال قد أخذ من القرآن الكريم آياتاً و بعض آياته بنصها وأفاد من معاني بعضها الاخر فانه لم يقتبس من الاحاديث الا معانيها ، ففي الديوان الذي بين أيدينا لا تكاد تجد الا حديثا واحدا أو رده بنصه وصياغته العربية كما أثر عن المصطفى صلى الله عليه وسلم وقد أشار في هامش الصفحة الى الحديث والشخص الذي قيل فيه ، والحقيقة أنه لم ينظر الى مدى صحته وانما أفاد منه ليلبسه على لسان من أشبه بحال من سجلت فيه كلمة المصطفى .

قال صلى الله عليه وسلم في أمية بن أبي الصلت : "آمن شعر أمية بن أبي الصلت وكفر قلبه" (2) ، آمن لسان أمية بن أبي الصلت وكان شعره دليلا على ذلك ، ولكن قلبه ظل كافرا وظل تائها ضالا ، وآمن لسان الفيلسوف الالماني نيتشه فنطق بالجزء الاول من الايمان "لا اله" ولم يصل بصره فكره الى الشطر الثاني ولم يستطع أن يصل الى الحقيقة الثانية وهي "الا الله" ، لقد أوصله قلبه وبصيرته الى انكار ذلك الاله الذي عرفه في الديانة المسيحية ولكن عقله لم يوصله الى الاله الحقيقي الذي لا اله سواه . فكان في نظر اقبال مؤمن القلب وان كفر فكره ونادى مرارا بقتل الاله الراسخ في المفهوم المسيحي ، يقول :

- قد أقام على أرض الحرم معبدا ، فقلبه مؤمن وفكره كافر (3)

والملاحظ أنه تصرف في لفظ الحديث ومعناه وان أثبته في الهامش بنصه .

وقال اقبال في تحية الامير الافغاني أمان الله خان :

- يا من أعطتك الفطرة ضميرا طاهرا (قلبا) ، وتمزق صدرك من الحزن على الدين مائة مزقة (4) .

ولعله في هذا يشير الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الصفاء الذي يولد عليه الطفل وان ما يطبع عليه من خير أو شر انما هو من أهله ومن المحيط الذي يعيش فيه : "ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه (أو ينصرانه أو يمجسانه

---

1 - رسالة المشرق ، ص 390 - 391 .

2 - رواه في صحيح مسلم في "كتاب الشعر" (1761) : فلقد كاد يسلم في شعره .

3 - رسالة المشرق ، ص 371 .

4 - رسالة المشرق ، ص 188 .

5 - صحيح مسلم مجلد 3 ، ج 16 ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ص 207 .

وكثيرا ما مدح اقبال بالزهد في ديوانه رسالة المشرق وكثيرا ما شغل اهتمامه حتى كاد يرتقي به أحيانا الى صاف المتصوفة ،واحيانا يحفظ للزهد اعتداله ،كما ظهر عند الانبياء وكما فهمه المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي قال عندما جاءه رجل يسأله عن عمل يحببه به الله والناس: "ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس" (1).

قد يظن ظان أن الزهد من شيم الفقراء المعدمين ولكنه اختيار مهذب لكل نفس تبتغي سبيلا الى الله ،طهر لها من كل الاغيار ،فلا يبقى أمامها غير الله ،فالحاكم المسلم زاهد وان آلت اليه رعاية الناس، فتطهير الباطن من فتطهير القلب الى الله وان تمرس في لباس الملوك ،وتلك نصيحة اقبال للأمير الافغاني المسلم ولكل من أوكل اليه أمر المسلمين بالجمع بين الزهد والذكر، يقول :

ـ عش زاهدا تحتجباة ملك ، وعش متيقظا في خشية الله والذكر (2).

شبه الرسول صلى الله عليه وسلم القلب بالضغة وبنى عليها مع صغرها الجسم كله وربط صلاحه بصلاحها وفساده بفسادها فقال :" ألا وأن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ،واذا فسدت فسد الجسد كله ،ألا وهي القلب (3) فشبه اقبال القلب بالنقطة الصغيرة داخل الصدر والتي منها وحيها وتعبيرا عن خلجاتها يأتي اللسان بحديث لا يحرف نهاية ،فقال :

ـ لا تيأس في الصدر سوى نقطة (صغيرة) ، حينما تصل اللسان فليس (لحديثها) لها نهاية (4) .

والنقطة التي هي المضغة (أي القلب) لايكون صلاح الجسم الا بها ،فهي جوهرة الجسم ودرته ،وهي كنزه ،بل كل متاعه ،ولكن قليلون هم الذين يعرفون قيمة تلك الدرة اليتيمة ،وما أكثر الذين طغت عليهم الظاهر والمادة فألقوا القلب وأضاعوا كنزه الثمين وأدعوا أنهم علماء جامعون للعلوم ،يقول :

ـ تجمل العلم وتدخره ،ومن الكف تلقي الفؤاد ، فما، على ذلك الكنز الثمين الذي ضيعته (5).

وقد شغف منشئ الاعتماد على النثر اقبال فردده في مواضع عديدة من رسالة المشرق وبأساليب مختلفة تؤكيدا منه على ضرورة العمل وتشريفا للعاملين ، فحتى

---

1 ـ الأربعون النووية، دار الذهبي للطباعة والنشر ،باتنة ، الجزائر ، ص 61.

2 ـ رسالة المشرق ،ص 210.

3 ـ سنن الدارمي ، الجزء الثاني ، كتاب البيوع ، ص 116.

4 ـ رسالة المشرق ،ص 216.

5 ـ رسالة المشرق ،ص 253.

القلب عنده يحتاج الى عمل يوصله الى الكمال والنضج ويحتاج الى سعي الانسان وتفكيره في سبيل الوصول الى الحق من غير اعتماد على الآخرين ، يقول :

- الى متى لا تتخذ أيها القلب هيئة الفراشة ، والى متى لا تتبع نهج الرجولة أحرق نفسك مرة بما يعنيك من نار (هومك) ، فحتى متى تطوف حول نار الغريب(1) لأن حبّ الله مصدره الاعماق ، ولكلّ طريقته في ذلك وسعيه ، فللعشق الالهي ألف أسلوب وأسلوب لأنه وليد القلوب . والصادق في حبّه لربّه هو الذي يجرّب السبل اليه فيختار أحسنها ويشقها بمعيته دون اعتماد على سبيل الآخرين وجهودهم وليكن ذلك الطريق شاذا - كما يرى اقبال - وليكن نادرا ، وليكن ابداع لم يسبق اليه ، وان كان في ذاته قبيحا فيكفي انه كان اجتهادا والاجتهاد قد يصيب وقد يخطئ ، يقول :

- انحت طريقك بفأسك ، فمشي السير في طريق الآخرين عذاب

لو أنك تنجز عملا نادرا بيديك ، فستثاب عليه وان كان قبيحا (2)

ان القارئ لهذين البيتين يذهب بفكره مباشرة الى حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام في الاجتهاد ، والذي يعود على صاحبه - وان أخطأ - بالأجر توكيدا لفكرة الاجتهاد والحرص عليها قال صلى الله عليه وسلم : "اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد "(3) وفي هذا تحريك لفكر الانسان وحث له على التفكير والتدبر ، فاذا اعتمد المرء على نفسه واجتهد صار في غنى عن الارشاد وفي غنى عن جهود أفلاطون والفارابي ونظرائهما في البحث عن الحياة الفاضلة لأن الطريق الى الحق لا يراها الباحث عنها والساعي اليها الا ببصيرته ، ولذلك فان اقبال وأمثاله لا ينظرون الى الدنيا بأعين الآخرين ولا يحكمون على الاشياء من خلال مواقف الآخرين ووجهات نظرهم لأنهم يعرفون قدر أنفسهم ويعرفون ما يكمن فيها من طاقات تجتاز البرّ الى البحر بأنوارها ، يقول :

- لقد اخترت الوحدة بين الماء والطين ، وانفصلت عن أفلاطون والفارابي

أنا لا أسأل الآخرين عينا ، لانيّ لا أنظر الدنيا الا بعيني (4) .

- لو أنك تعرف كل طاقاتك (كيفا وكما) ، فانك تملأ من نداك بحرا

حتى متى تطلب ضوء القمر أيها القلب ، أضئ ليلك من أنفاسك الخاصة (5)

---

1 - رسالة المشرق ، ص 199 .

2 - رسالة المشرق ، ص 229 .

3 - صحيح البخاري ، المجلد 4 ، ج 8 باب الفتن ، ص 157 .

4 - رسالة المشرق ، ص 230 .

5 - رسالة المشرق ، ص 236 .

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أطفأ فتنة التفاخر بالانساب والتفاضل بالاباء والأجداد وجعل من التقوى خير ما يفخر به المرء وخير ما يتفاضل به انسان ، فان عصر اقبال سرت فيه موجة من جهل أعادت المسلمين للتفاضل فيما بينهم والتفاخر والتناحر ليخلو المجال للاستعمار يصرف شؤونهم كيفما شاء . وقد آلم اقبال ذلك لانه أيقن ان المسلم يكفيه الاسلام نسبا عند تفاخر الناس بأنسابهم ، يقول :

ـ ايها الطفل هذب نفسك بنفسك ، مسلم أنت؟ فدع النسب اذ ن .

اذ انتماء العرب بالجلد والعرق والدم ولونه الاحمر ، فدع كونك عربيا (فاترك العرب)(1) وما القوميات الجديدة التي هبّ الناس للذود عنها من عرق وتراب الا خيط واه أمام الخيط الاول الذي يربط بين الخلق جميعا وهو رابط النفس الواحدة التي خلقوا منها جميعا . قال تعالى : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء "(2) وقال صلى الله عليه وسلم : " قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي والناس بنو آدم وآدم من تراب . ليدعن أقوام فخرهم برجال أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن "(3).

وقد اشتد أوار هذه الفتنة التي مزقت جسد الأمة الواحدة الى أشلاء ، فهذا ينادي بقوميته وذاك بأفغانيته وآخر بعربيته ورابع بهندينه أو تتريته ناسين خطر التمييز على أمتهم وناسين الشجرة الواحدة التي يعودون اليها جميعا وان أبوا . وسط تلك الهتافات العرقية والانتماءات الأوهى من بيت العنكبوت جاء اقبال بأعلى صوته بآدميته أولا وقبل كل شيء ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فقال :

ـ نحن لا أفغان ولا ترك ولا تتار ، نحن أبناء حديقة واحدة وشجرة واحدة

ـ التمييز باللون والرائحة عندنا حرام ، فنحن ثمرة لربيع واحد (4).

أنت لم تتحرر الى الآن من قيد الماء والطين ، فأنت تقول انك رومي وانني أفغاني . فانا أولا وقبل كل شيء آدمي بلا تمييز (بلا لون ورائحة) ، ولست هنديا أو تورانيا الا بعد هذا (5) .

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 222 .

2 ـ سورة النساء ، الاية 1 .

3 ـ مسند ابن حنبل ، المجلد الثاني ، ص 361 . دار الفكر للطباعة والنشر

4 ـ رسالة الشرق ، ص 222 .

5 ـ رسالة الشرق ، ص 248

ولعلّ هذا ما حدا باقبال الى القول "أن الاسلام ليس جهويا في خصائصه"(1) سبقت الاشارة الى الوقت في رسالة الشرق وقيمته عند اقبال وعند علماء المسلمين من ذلك حرصه وحرصهم على اليوم الذي يحياه الانسان والساعة والدقائق التي هو فيها لأن مابعدها في طي الغيب ولا أحد يعلم مجيئه ،ولأن الأجل اذا جاء لن يتقدم ساعة أو يؤخرها ،ولأن ماضى من عمر الانسان لايعود ولاسبيل الى ردّه ،فكان اقبال يقول ناصحا :

- خذ اليوم بقوة لأن الغد ،الى الآن ساكن في ضمير الزمن (2).

ولعلّه في ذلك أخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : "اغتنم خمسا قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك"(3).

أما البدع التي أنبهما جهل خيّم على بلاد العالم الاسلامي وفقر وعزلة وضعف وعجز وتهاون فكثيرة لاتحصى ،تألم اقبال لظهورها على تلك الصفحة البيضاء من الدين الذي ارتضاه الله لعباده ،وأتمّه لهم ،ولكنه لم يشر اليها جميعا في ديوانه (رسالة الشرق) وان كان قد عالج الكثير منها في صفحات دواوينه الاخرى ،ومن أهم مالفت انتباهه وعذب فؤاده ،ماكان له الانتشار الواسع في بلاد الهند أين تعيش عشرات الديانات ومئات الفرق والطوائف ،ولم تكن سائر البلاد الاسلامية بمنجاة من ذلك المرض وذلك التقديس للموتى والتوسط بهم والتشفع قال منتقدا المسلمين لما تحوّلوا الى عبادة الأضرحة واتخذوها وسائط تقربهم الى الله .

- أنت خائف من عبودية الغرب ، ولكنك تسجد أمام القبة والضريح

مثلما تعوّد تعلّم عبادة الاسياد ، فقد نحتّ لنفسك ولي من صخر طريقك (4)

لقد قيد الكشميريون بالعبودية وخدمة أصنام نحتوها من حجارة الأضرحة ، فضمائرهم خالية من الخيال السامي الرفيع ، وهم يجهلون أنفسهم ويخجلون من أنفسهم(5) وهذه البدعة وما شاكلها من البدع يقول فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم على الاطلاق وفي غير تحديد :

"... ألا واياكم ومحدثات الأمور ، فان شر الأمور محدثاتها ،وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة"(6) ويقول : "أيما داع دعا الى ضلالة فاتبع ،فان له مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئا"(7).

---

1 - h Cragg - Islamic Survys, 3, Edinburgh at theuniversitypress, ص 59.
2 - رسالة الشرق ،ص 244.
3 - السيوطي ،الجامع الصغير في أحاديث النذير البشير ج 1 ،دار الفكر بيروت ،ط1 ،1401هـ ص
4 - رسالة الشرق ،ص 244.
5 - رسالة الشرق ،ص 286.
6 - سنن ابن ماجة ،ج 1 ،باب 66 باب اجتناب البدع والجدل ، ص 18 .
7 - المصدر نفسه ،ص 75 .

وأما عن النهاية التي تنتظر كل حي فلأسباب اختار اقبال قصة الاسكندر وجعلها مثالا يردد ، كلما ذكر الفناء ، لأن الاسكندر كان من الطالبين للخلود ، الفارين من الموت الى عين الحياة ولأن ثقافة الشاعر فارسية فقد كان طلعا على تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، يقول :

ـ كم انتظمت جماعات ثم تفرقوا ، واستنار ذلك القصر الصغير من شعلة القمر (1)
ذلك الفقير الذي عرف مآل كأس الاسكندر ، هو في نظر الحكماء أعظم من الاسكندر نفسه (2) .

ذهب الاسكندر والسيف والعلم ، وذهب خراجه وكنوزه وبحره .
اعلم أن الشعوب أخلد من الملوك ، ألا ترى أن ايران باقية وأن جمشيد ذهب؟ (3)
هيمنة القياصرة ولّت ، وعهد الاسكندر مضى ، فيا أيها الاسكندر ان المملكة أهش من كأس جمشيد .

قوة الملك زالت ، قد أغير عليها ، ومضى لحن الاسكندر ومضت نغمة دارا (4)

وقد جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر لنهاية الملوك ، قال : "اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ،"(5) لأن الملوك كثيرا ما ينسيهم الملك نهاية كل حيّ ونهايتهم .

وقال انيسان في الفتن والخوف منها على الأمة :

ـ أيها المغني الذي سلب لبّي وذكائي ، ويا أيها الساقي الذي أسكرني ، قد سلب قلبي ارتفاع صوت طائر في السحر .

فخفت أن يولد من تراب سمرقند من جديد ، فتنة هولاكو ، ويعود زمن جنكيزخان (6) .

وكيف لا يخاف الشاعر والفتنة عند الله أشدّ من القتل ، قال تعالى : "والفتنة أشدّ من القتل" (7) ، وهي التي قال المصطفى صلى الله عليه وسلم مشورا فرار المسلم منها حتى لا تنهش دينه ، : "يوشك أن يكون خير مال مسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن" (8) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 317 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 345 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 240 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .
5 ـ سنن الترمذي ، ج 3 ، أبواب القدر ـ باب 35 ، ص 337 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 331 .
7 ـ سورة البقرة ، الاية 191 .
8 ـ سنن النسائي ، مجلد 4 ، جزء 8 ، ص 49 .

وقد ختم الشاعر ديوانه بواحد من مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الجدير بأن يقتدى به ، وذلك بدعوة ضمنية الى التحرر من كل قيود التقليد الأعمى ، اذ لو كان التقليد حسنا لاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولنصح أمته باتباعه ، بل انه لو رآه حسنا لاتبع الاجداد ولما حمل رسالة الدين الجديد ، يقول :

— ما أجمل أن يكون الانسان حرّا ، ويصير حرّا من كل القيود ..

لو كان التقليد نهجا حسنا ، لاتبعنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه طريق الاجداد (1).

التاريخ الاسلامي : يقوم التاريخ الاسلامي بعد معلمه الاول الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين لأن الاحداث لا تقوم بنفسها ولا يصنع التاريخ نفسه وانما يصنعه الرجال ، وفي مقدمة القواعد الاسلامية التي خطت صفحات التاريخ الاسلامي (بعد الرسول صلى الله عليه وسلم) صحابته الذين كانوا بدورهم معلمين وأصحاب منهج في الحياة جدير بأن يقتدى به ويتخذ مثلا .

طالعنا اقبال بحديث عنهم منذ صفحات الديوان الاولى "الهدية" التي أزجاها الى الأمير الافغاني أمان الله خان ، فهو يعلم أنه اذا خاطب الامير فانه يخاطب كل المسلمين وكل الناس ، ويعلم أنه اذا صلح ولي أمة صلحت رعيتها ، جعل كل ذلك بين يدي الديوان ليقول لكل من يقرأه أمامك المنهاج الصحيح ، منهاج القرآن ومنهاج المصطفى عليه الصلاة والسلام ومنهاج الصحابة والسلف الصالح ومنهاج أبطال الاسلام ، ان المستتبع لما سجله اقبال فيهم يلاحظ أنه ملما قبس من القرآن الكريم آيات وقيما وأحكاما وملما استعان به وبالحديث الشريف لتوكيد بعض القيم وانتقاد بعض الأمراض والبدع ، وملما أحيا بهما سننا من سنن الرحمن في الأرض فقد أحيا تاريخ المجتمع الاسلامي الاول بطهره وصفائه ونقاوته ، في زمن راج فيه بعض المسلمين يقلدون الغرب ويتبعونهم بما حياه تاريخ اليونان وتاريخ الغرب ، عكف اقبال على تقليب صفحات التاريخ الاسلامي الى أن وصل الى صفحاته المشرقة الناصعة ، ولم يكن هدفه من وراء ذلك سرد الاحداث التاريخية وانما كان يسعى الى تربية مسلمي عصره والعودة بهم الى جيل الصحابة حيث اقتطف من كل واحد منهم أشهر ما عرف به من أخلاق وفعال .

ومن الذين ورد لهم ذكر في الديوان من الصحابة رضوان الله عليهم أبوبكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، علي بن أبي طالب ، سلمان الفارسي ، أبو ذر الغفاري ، خالد بن الوليد ،

---

1 — رسالة الشرق ، ص 392 .

أما من السلف الصالح فذكر صلاح الدين الايوبي الفاتح والسلطان محمود الغزنوي والسلطان أورنكزيب عالمكير .

في أولى قصائد الديوان تلمح حزن اقبال وأسماه على ضياع صفات أولئك الابطال في الأمة بذهاب طابعها من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم من هم في خدمة الاسلام ، فهم جميعا — المذكورون في الديوان — من أهل الصفة ، صفوة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصدق أنصاره الذين كانوا يرابطون في صفة المسجد لامداد جيوش المسلمين . من اهل الصفة أبوبكر وأبوذر الغفاري ومنهم أبطال الاسلام كخالد بن الوليد ومنهم باب الحكمة علي بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين ومنهم سلمان الفارسي (1).

فسلمان الفارسي اتخذ منه رمزا لمحب الرسول صلى الله عليه وسلم والدين الجديد ، فقد كانت حياته كلها رمزا طيبا للباحث عن اليقين الذي لا شك بعده ، وقد أدركه على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وأما خالد بن الوليد فهو سيف الله المسلول ، وصلاح الدين الايوبي هو مسترد فلسطين من أيدي الصليبيين ، يقول :

— لم يبق في سلمهم محبوب ، ولم يبق خالد ولا عمر الفاروق ولا الايوبي (2).

وأما عمر بن الخطاب فقد اشتهر بعدله فكان مثالا لكل حاكم مسلم ، وكان علي مثالا للفقر والزهد والحكمة . كما اتخذ من أبي بكر وعلي رمزا لكل قلب حي محترق شوقا الى الحق ، ممزق الاحشاء من لفحات الايمان ونفحاته وحبي بالمسلمين اليوم وقد خمدت فيهم كل تلك الطاقات أن يسألوا الله حرقة فؤاد كحرقتها وأن يسألوه أن يقذف في قلوبهم من الحب للرسول صلى الله عليه وسلم كحبهما ، يقول :

— كل من كان متاعه عشق المصطفى ، تعلق البحر والبر بأطراف أذياله .
فاسأل الحق حرقة الصديق وعلي ، وا سأل الحق ذرة من حب النبي (3).

ومرة ثالثة يتخذ من الامام علي كرم الله وجهه ومن ابنه الحسين رمزا لكل مظلوم يقول :

— لكي تعيش عيشا فتناول خبز الشعير ، اذ يوجد هنا ألف خيبر ومائة لون من الشعابين (4)

---

1 — محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، ص 47 .
2 — رسالة الشرق ، ص 188 .
3 — رسالة الشرق ، ص 190 .
4 — رسالة الشرق ، ص 345 .

ـ أناس كثيرون غرقوا في دمائهم مثل الحسين ، ولكن لا آهة انبعثت من صدورهم (1) .

لأن أمثال تلك المكائد ما زالت تتجدد وتعيد نفسها على صفحات التاريخ ، كما اتخذ اقبال من أبي ذر الغفاري رمزا لطهر الروح وصفائها ، يقول :

ـ فقائد المسلّدة والمليك المرتجى ، هو من يكون البرق والرعد نائب سيفه ونتائجه .

هو فقير ولكنه ملك للفلك الأعلى ، وهو كأردشير بروح أبي ذر الغفاري (2) .

ومن فاتحي المسلمين الذين جدّد اقبال ذكرهم ، فاتح الاندلس ، طارق بن زياد وقد ركز اهتمامه في قصة طارق على تلك البطولة التي سجلها له التاريخ عند ما اجتاز البحر الى الاندلس وأحرق السفن حتى لا يطمع من جند ، طامع في الفرار والنجاة بالنفس ، ولقد استهام موقف طارق يوم وضع جنده أمام خيارين : الشهادة أو النصر . ولم يقف اقبال عند هذا الموقف البطولي وانما اجتازه الى ما بعده ، صوّر الجنود وهم في تعجب من تصرف قائدهم ، فما كان منه الا أن رفع السيف عاليا لأنه ومن معه خلفاء الله في أرضه ، وكل ما هو ملك لله فهو ملك لهم ، وكان عنوان القطعة القصيرة "الملك لله" ، يقول :

ـ عند ما أحرق طارق السفينة على ساحل الاندلس ، قيل له ان عملك هذا في ميزان العقل خطأ .

فنحن بعيدون عن الاوطان ومن سيوصلنا اليها ثانية ، ان ترك الاسباب في الشرع شر .

ابتسم ورفع السيف بيده ، وقال : ، كل ما هو ملك لخالقنا فهو ملكسلنا (3) .

وكان للسلطان محمود الغزنوي فاتح الهند ومحطم أصنامها مكانا في رسالة الشرق ولكن الذي أراد اقبال أن يوجهنا اليه ليس فتوحات محمود الغزنوي وليس سلطانه المادي وبطولاته ، انه سلطان العشق الذي تمكن من قلب قائد ، واستعبده ، وملك عليه كل أمره وان كان قلب السلطان محمود الغزنوي يقول :

ـ قال البرهمي للغزنوي انظر الى خوارقي ، فأنت يا من حطمت الصنم قد صرت عبدا لايماز (4) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 301 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 190 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 299 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 319 .

ـ ومحمود الغزنوي محطم المعابد والاصنام مظلل من (العابدين) العاشقين لأصنام قلبه (1).

كما كان لسلطان الهند المسلم أورنگزيب عالمگير ذكر في رسالة المشرق ، وقد اختاره الشاعر على سائر ملوك الهند المسلمين رغم بطولاتهم لايمانه وتقواه ، فقد قضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقي يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه ، (2) حرّم الخمر في مملكته وأبى أن يعيش الا من عمل يده ، والرسالة التي سجلها اقبال على لسانه جاءت مفعمة بالايمان لأنها نبعت من قلب مسلم زاهد موقن في رحمة الله راض بقضائه أجاب بها أحد أبنائه وقد دعا عليه بالموت، يقول :

ـ ألا تعلم أن الله موجود منذ الأزل ، يرى كل شيء ويزن الأمور ، بيده العقد والحل ، ومن صدر هذه الأرض الموقنة المعتمة ، سمع مئات أنات الحزانى والمتأوهين ، أناس كثيرون غرقوا في دمائهم مثل الحسين ، ولكن لا آهة انبعثت من صدورهم ، فلا تتصور أن هذا الصيد السمين ، سوف يقنع أسير شباك دعائك (3) .

أما مصطفى كمال أتاتورك ، فقد وضعه في مصاف رجال الاسلام والاصلاح والتجديد في قلب الأمة الاسلامية ، حيث خدع فيه اقبال في البداية ، وقد تراجع عن تلك الهالة من العظمة التي أضفاها عليه وذلك الدعاء له بالتأييد والنصر (4) ولم يكن اقبال وحده المخدوع في الرجل وانما شاركه كثير من أبناء المشرق الاسلامي ومن علماء المسلمين اكتفى اقبال بابن سينا والفارابي والرازي ، ولكنه يرى أن العلم الحقيقي لايطلب من مؤلفات هؤلاء وانما يكون أولا من النفوس الحيّة والقلوب البصرة ومن الكون بما فيه ، يقول :

ـ سمعت بمكتبتي ذات ليلة ، سوسة الكتب تقول للفراشة ،

جلست تعلل أوراق كتب ابن سينا ، وتقبت كثيرا في مخطوطات الفارابي .

ولكنني لم أفهم حكمة الحياة ، وهكذا أقضي أيامي بلا نور وفي نفس الظلام

حسنا قالت الفراشة المحترق نصفها ، انك لست تجدي هذه الحكمة في كتابه

انه السعي والجهاد الذي يجعل حياة الاحياء أكثر حيوية ، انه السعي الذي يمنحها الاجنحة (5)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 342 .

2 ـ الداداتي ، تاريخ المسلمين في الهند ، ج 2 ، ص 195 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 301 .

4 ـ جاء تراجعه عن الفكرة في أواخر أعماله الادبية ، رسالة الخلود ، وكذلك تجديد التفكير الديني في الاسلام .

5 ـ رسالة المشرق ، ص 273 ـ 274 .

أما أذا جئنا الى أثر الأدب العربي فاننا نلاحظ أنه قليل في رسالة المشرق مع أن اقبال درس اللغة العربية ودرّسها ، وتعتقد أن ما جاء في هذا الديوان من أثر عربي مأخوذ من الأدب الفارسي الذي كان قد أخذ بدوره الكثير من الأدب العربي ، ولعلّ أول ما يقابلنا من الاثر العربي في رسالة المشرق ما حوته قصيدة حادي الحجاز اذ الحداء صفة الصقت بالعرب من غيرهم من الأمم وقد تنفس الشعراء في ذلك فأبدعوا وأظهروا تعلقا شديدا بالنوق قال النويري : "الابل من منن الله الجسيمة على خلقه ، ومما منحهم به من ارفاقه ورزقه" (1) فالناقة هي كل ما يملك الرجل العربي ، هي ماله وهي رفيقة طريقه التي يخاطبها ويناجيها ويبوح لها بما تكنه أعماقه ، يقضي الليل والنهار مستطيبا صهوتها ، مغنيا لها فيهز وهج الصحراء وسرابها وامتداد هما الخيالي ، قال اقبال محاكيا كل حداة الحجاز :

— يا درهمي ودينار ، يا كل ما أملك (من قليل أو كثير) ، يا سعادتي اليقظة (2) .

وقد سمى العرب الابل مالا ، قال ابن سيده : "حسن القيام على المال وهو الابل" (3) واقبال اذ يستحث ناقته على السير يخرجها بقرب الديار ويمدحها بما لم يمدح به شاعر ، أصبحت وقد استولت على قلب الشاعر وضيع غيرة ليلى ، بل ان الحور يحسد نها على مكانتها من قلبه ، يقول :

— يا عذبة أخاذة آسرة ، يا فاتنة سالبة للقلوب ، يا محسودة الحور ، ويا غيرة ليلى ، يا سليلة الصحراء ، حثي الخطى سريعا فمنزلنا قريب . (4) .

وفي كون الناقة موضعا للحسد قال الشاعر العربي :

— بهجمة تملأ عين الحاسد ذات سروج جمة الزبائد (5) .

وشبهها اقبال في سرعتها بالسحاب العابر وبالسفينة ، فقال :

— يا ناقة قوية أنت سحاب عابر ، يا سفينة بلا شراع ، ويا من عندك كل صعب يسير ، يا فسيلة كسيد الحادي ، حثي الخطى سريعا ... (6) .

وقد شبهها الشاعر العربي قديما وهي تجوب الصحراء بالسابح ، قال يشامة ابن الغدير :

---

1 — النويري — نهاية الارب ، ج 10 ، ص 103 .
2 — رسالة المشرق ، ص 279 .
3 — ابن سيده ، المخصص ، مجلد 2 ، سفر 6 ، ص 81 .
4 — رسالة المشرق ، ص 279 .
5 — النويري — نهاية الارب في فنون الادب ، ج 10 ، ص 114 .
6 — رسالة المشرق ، ص ص 280 .

كأن يديها اذا أرقلت ... وقد حسن تم اهتدين السبيلا .
يدا سابح خرّ في غمرة ... وقد شارف الموت الا قليلا .
اذا اقبلت قلصت مذعورة ... من السرسد تتبع هيقا ذ مسولا .(1)

ولكن الذي خالف فيه اقبال الشعراء الحرب هو الغاية من السفر، فقد كانت لهم غايات شتى أولها د يار الأحبة أو اطلالها أو الممدوح ،وكانت لاقبال غاية واحدة وهدف أسمى من أهدافهم، هو الذي ألهمه ذلك الحداء العذب الالحان المنعش رواح ،انه الحجاز ،وانه الحرم ،يقول :

ـ يا ممن ستحجدين في الحرم ، حثي الخطى سريعا ، فمنزلنا قريب . (2)

ونحن سائرون في تتبع الخط الاسلامي لاقبال الشاعر المسلم رأينا أن نختم بوقف يضعه في قمة الانتماء الى الاسلام ،وهي الدرجة التي جعلت منه طبيبا لهذه الأمة التي كشرت عن نابها وانتابتها سنة من نوم مرضي كشفه اقبال كما كشف كثيرا من خطاياها وغفلاتها علّها تستفيق من سباتها وتعود الى النهج السليم الذي رسمه الله للعباد . صوّر اقبال كل ذلك وصبغه بأسى عميق منه على المسلمين الذين لم يثر أشدّ غفلة منهم ،مسلمون بالاسم غير مسلمين بمعاداة ،فهم وان انحدروا من نسل ابراهيم عليه السلام فانهم عادوا الى عبادة أصنام من صنع فكرهم وشهواتهم وأيديهم ، يقول :

ـ لم أر أشد غفلة عن نفسه من المسلمين ، في صدورهم أفئدة ،ولكنها أفئدة تائهة غريبة (3) .

فماذا أقول لك عن المسلمين الا مسلمين ، ما هم الا أبناء الخليل عادوا الى الآزرية (4) .

فبلاد هم من غفلتهم وسهوهم عن أنفسهم وعن تلك الافئدة التي في الصدور صارت ميّتة ، ثوارت شمسها بالحجاب وتنفس اقبال من ثراها الميت وحمل فيها رسالة حياة الى الأموات ،يقول :

ـ هو ولد في الخمائل وتربّى في أحضانها ، بينما نبت أنا في أرض ميّتة قد رأيت أيها الامير العالي الجناب كالفلك ، ان شمسنا قد ثوارت بالحجاب (5)

---

1 ـ النويري ، المرجع السابق، ص 116.
2 ـ رسالة المشرق ،ص 282.
3 ـ رسالة المشرق ،ص 342.
4 ـ رسالة المشرق ،ص 346.
5 ـ رسالة المشرق ، 186 ـ 187.

قد رهّنا القلب والدين في حبّ عبد العجم وحسانهم ، فلا أنت تملك نار الشوق التي سليمي ولا أنا (1)

ضاع الحجازي منهم في الصحراء ، وغاص الهندي في ماء نهر النيل وخدمت القوة في سواعد الاتراك وخفقت روح الفارس (2) .

كل هؤلاء في جانب ومسلمو الهند في جانب آخر ، فليس راء كمن سمعا ، رآهم اقبال وهم يتحولون الى عبّاد بطون وشهوات يبيعون النفس ويلفظون الدين وتعمى أعينهم حتى عن جوهر الفن وحقيقته فلا يفقهون من نداءات اقبال والحانه الحسرى الملتهبة شيئا ، فهو الغني بفنّه المكرم بالهامه الشعري يعيش محقرا في ديار الهند غريبا ، وليس الذنب ذنب اقبال وشعره ولكنه ذنب أذواق الناس التي تدنت ، وذنب ذوق الشعر عموما (المستمع اليه) ، يقول :

— وصار المسلم الهندي عبدا لشهوته (لمعدته) ، فهو يبيع نفسه ، وقد انتزع قلبه من الدين .

قد جعلت غنيا بفضل الفن ، وجعلت محقرا في ديار الهند .

فليس للشائق والسورود نصيب من ترانيمي وأغانّي ، وطائري غريب في روضه (3)

ومن مسلمي الهند خصّ اقبال أبناء كشمير المسلمة بالعناية ، ودعا لهم بالحياة من جديد بعد الموت الثقيل الذي خيم عليهم كسائر المسلمين ، يقول :

— لقد قيد الكشميريون بالعبودية وخدمة ، أصنام نحتوها من حجارة الاضرحة .

فضمائرهم خالية من الخيال السامي الرفيع ، وهم يجهلون أنفسهم ويخجلون من أنفسهم نصيب أجدادهم من اللباس أسمال بالية ممزقة ، وسيدهم من محنتهم يلبس أهواب الحرير فلا تنعكس في أعينهم نظرات مشرقة ، ولا يخفق في صدورهم قلب يجهل القرار (لا يعرفه) فانثر من تلك الخمرة قطرة على أبناء كشمير ، فلعلّه ينبعث من ترابهم الحقير شرار (4) .

وهكذا تكمل لدينا صورة عن تصور اقبال المسلم الشامل للكون وللانسان والدين والتاريخ الاسلامي بقصصه ورموزه ، فالله في رسالة الشرق هو الخالق العالم القادر المهيمن الذي اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ، وهو الهدف الاول والاخير الذي تهفو اليه كل نفس وتجعل منه غايتها العليا وهدفها الاسمى وتنظر اليه على أنه غاية الغايات وهدف الاهداف ، والكون في رسالة

---

1 — رسالة الشرق ، ص 338 .
2 — رسالة الشرق ، ص 187 — 188
3 — رسالة الشرق ، ص 187 .
4 — رسالة الشرق ، ص 286

المشرق مخلوق طليع لارادة الله بكل مافيه ،عابد مسبح للخالق ،حتى متحرك متجاوب مع الانسان ،رفيق له ،فيه تسبح الاعين والقلوب والبصائر ،ومن آياته يقضي الانسان الدروس والعبر ،ومن مظاهره - وهي الطبيعة للرحمن المسبحة بحمده الساجدة له يتعلم الانسان .

أما الانسان في الديوان فهو خليفة الله في الأرض كرّمه الله منذ خلقه وبث فيه طاقات تعلو أدركها ووقف عليها كيفما وكمّا فانه يملأ من ندائه بحرا . فالدنيا بحوالها الواسعة ضيّقة أمام نفس الانسان والأرض بفجاجها أمام ارادته وسفره الروحي الدائم حجر عثرة في رحلته من الشك الى اليقين .

فالانسان تلك الحفنة من التراب تسامى بنفحة الروح وبالفؤاد اليقظ وبالعنق فأمسك بالنجوم وبالثريا ، واذا كانت هذه هي طاقات الانسان فان الشاعر اقبال يأسف اذ يحط البشر - وبخاصة المسلمين - من المنزلة التي رفعهم الله اليها في زمن يعطي للانسان قدرا عاليا كما كان الانبياء في رسالة الشرق معلمين للانسانية كافة ،ورمز للانسان الكامل .

وبذلك يكون الخط الذي سار عليه اقبال في ديوانه خطا فريدا من نوعه - في ايامه - به أحيا الشاعر في كيان الأمة وبعث الميت وبه أحيا الكثير من تراث الاسلام وقصصه ورموزه وتاريخه ،وهو الخط الذي يجعلنا نضع اقبال - وهو الذي حكم في يوم على الأدب الاسلامي بالغياب وبأنه أدب لم يولد بعد - نضعه في طليعة الباعثين للأدب الاسلامي والحاملين للوائه .

ثالثا - رسالة المشرق والاثر الصوفي

سبقت الاشارة في ثنايا الحديث عن حياة اقبال بأنه انتقد المتصوفة وهو لا يعني بذلك الانتقاد التصوف في حدّ ذاته كفكرة وجوهر كما لم يقصد به كل رجاله وروّاده ، وانما قصد به أولئك الذين ظنوا التصوف عزلة دائمة والذين اتخذوا التصوف قناعا للوصول الى غاياتهم ، كما قصد بذلك الانتقاد صوفية القول دون الفعل ، أولئك الفارين من الواقع ومشاكله الباحثين عن راحة لأنفسهم دون أن ينظروا الى أدواء من معهم وهمومهم .

فاقبال يطلب العمل من الناس جميعا وذلك ما يطلبه من المتصوفة ، يريد منهم أن يكونوا عمليين تترجم أفعالهم عن اقوالهم ، وانا يعانه بضرورة العمل جعله يغير مقولة ديكارت : أنا أفكر اذن أنا موجود الى " أنا أعمل اذن أنا موجود ". (1 وقال على لسان موجة : " أنا وجود عندما أجري وعدم وعدة عندما أرقد فوجودي رهين بحركتي ". (2) وهذا هو معنى التصوف الذي كان له وجود ورسوخ في رسالة المشرق ، وقد اعتبر بعض الدارسين اهتمامه بالتصوف احد ثمار تفاعله بالدين ومصدريه الاوليين القرآن والحديث ، يقول الشيخ سلطان علي الافكاري " ان اهتمامه بالجانب العرفاني ناشئ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم من عرف نفسه فقد عرف ربّه ... ان مصدره قرآني بحت "(3)

والحق ان اقبال لا يرفض التصوف مطلق الرفض ، وانما يرفض منه الشطط والسرف وما يعاند صريح الكتاب المبين ، وما يدعو الى التواكل والتكاسل والاحجام عن خوض الحياة .(4)

ففي الديوان ذكر للمتصوفة ، وفيه عرض للحياة من منظور صوفي يفقرهما وزهدها بخلواتها بالمرشدين والمريدين ، بالاسفار والتجليات ، بالطلب والسعي الدائم ، بالعشق ورموزه وقصصه ، بالخمرة وحقيقتها الى حدّ رأى بعض الدارسين ان اقبال عاد في رسالة المشرق الى التصوف وأعلن أن حب الله هو الطريق الوحيد لكشف الحقيقة الكاملة .(5).

والصوفيون في الديوان هم متصوفو القلب لا الظاهر ، أصحاب اعماق متصوفة لا أصحاب خرق بالية ، ولذلك فاقبال نفسه منهم ، وهو مرشد يدعو الناس الى

---

1 - مجلة الثقافة الباكستانية ، عدد 18 (نيسان - آيار) 1989 ص8 (محمد اقبال فيلسوفا - محمد سعيد رمضان البوطي) .
2 - المرجع نفسه ، ص 9 .
3 - مجموعة مقالات لعدد من المؤلفين ، تحت عنوان اقبال ، ص128 (الترابط بين العرفان والفلسفة عند اقبال ، الشيخ سلطان علي الافكاري) .
4 - حسين مجيب المصري ، اقبال بين المصلحين الاسلاميين ، مطبعة الانجلو المصرية ص، 289 - 290 .
5 - شيرين عثمان وزير الحجم - رسالة ماجستير - مخطوطة ، ص 60 .

الى التمسك بأذياله ، ولكنه مرشد يهدي أفكارا وشعلا من الروح وليس بائعا للخرق الصوفية يقول :

- تعال وتمسك بأذيال اقبال ، فهو ليس من بائعي خرق الصوفية .(1)

وربما أرشدنا بيت من أبيات الديوان الى أنه اعتمد في تسميته المتصوفة على الحفاة والصفاء كما اعتمد على السعي والجهاد ، فليس صوفيا عنده الا صفي باحث عن الله ، متسلسع على ستر المعاني :

- خذ عني هذه الكلمة الى الصوفيين الاصفياء ، أولئك الباحين عن الله ، العارفين للمعاني

سأكون خادما لذلك الذي يحب ذاته ، فان الذي يصلك نور نفسه يرى الله(2)

وكأنما باقبال أخذ هذا المعنى من قول أبي الفتح البستي :

وليست تنحل هذا الاسم الا فتى صافي صوفي حتى لقب الصوفي (3).

ولعل سبب الميل الى هذا المعنى هو ربط الكثير للتصوف بالظاهر واعتقادهم أن الزاهد هو من لبس الخرق والرث من الثياب ، وهو الاعتقاد الذي انتقده ابن الجوزي بقوله : "كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب ، كان الزهد خرقة ، فصار اليوم خرقة ، ويحك ! صوف قلبك لا جسمك واصلح نيتك لا مرقعتك".(4) كما انتقد الجنيد بقوله : "اذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه خراب . (5).

فاقبال اذن غير رافض للفكرة وانما رافض لاحد مظاهرها المرضية ، مرض الاعتناء بالمظاهر لذلك نسب نفسه فيأحد أبياته الى القلندرية ودعا الناس الى مجلسه ولكنه نفى عن نفسه أن يعلمهم زهد المظاهر ، يقول :

- تعال الى مجلس اقبال وخذ كأسا أو كأسين ، فهو ان لم ينحت (يصنع) ثوب راهب فقد تعلم القلندرية (6) .

ومن معاني التصوفة التي أشار اليها في الديوان وصفاتهم ، صفة الفقر والزهد ، فقد سمي الصوفية فقراء لتخليهم عن الأملاك وحقيقة الفقر الا يستغني العبد الا بالله (7) أما الزهد فخلو القلب عما خلت منه اليد (8) وكذلك كان فهم اقبال

---

1 - رسالة المشرق ، ص 352 .
2 - رسالة المشرق ، ص 237 .
3 - زكي مبارك - التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، المكتبة العصرية بيروت ، ج 1 ، ص 54 .
4 - المرجع نفسه ، ص 46 .
5 - القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 127 .
6 - رسالة المشرق ، ص 346
7 - محمد عبد المنعم الحفني - معجم المصطلحات الصوفية ، دار المسيرة ، بيروت ، ط 2 ، 1407 ، 1987 ، ص 207 .
8 - المرجع نفسه ص 121 . وابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين دار التراث العربي ، القاهرة ط 1 ، 1402 هـ 1982 . الجزء 2 ، ص 9 .

للفقر ، فهو عنده ليس خلوا من الأملاك وخواء للجيوب ولكنه تخلّ عن الاملاك ، فالفقير هو الذي لايرى حاجة الى شيء ومع أن حاجته قائمة الا أنها " لاتهبط به ولا تحرمه من انسانيته ، ومن هنا كان الفقر حلية يتحلى بها المرء (1) وفخرة يتيه بها العبد على الملوك ، فهو فقر وتهلهل في الثوب وغنى وصفاء في القلب لأن الاسمال البالية تضم قلبا نابضا ، يقول :

— ساد ممتجلس بين جوانحي أيها القلب ، فان أسمالي أفضل من القراسيم الملكية (2) ليس اقبال شيخ المدينة ولا شاعرها ولا صوفيها ، هو الفقير الغريب الذي لا مأوى له وهو غنى القلب (3) وقد نسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : " الفقر فخري " (4) وتجسيدا لهذا المفهوم قال اقبال :

— أنا في حاجة لأن أعيش متسولا بغير حاجة ، أخفق ، أحترق ، أذوب وأفوز في الالحان ، أنا فقير ولكنني في غنى عن هذا وذاك . (5)

والصوفي بمجاهداته للطالب والشهوات وتغلّبه على أهواء النفس وأخذه بالحقائق وترفعه عما في أيدي الخلائق يصبح كنز بيته الذي لاكنز فيه سواه ، ويكون مثل الشاعر الهندي المسلم الزاهد غني الكشميري الذي اذا غادر كوخه فلا أشد فقرا منه ، وكذلك كل المتصوفة ، قال :

— عندما يكون داخل بيته فانه يغلق بابه ، فاذا غادر البيت ترك بابه مفتوحا ، قال أحدهم : أيها الشاعر سالب القلوب ، ان كل الخلق يتعجبون من فعالك ، فأي جواب طيب قاله ذلك الرجل الفقير ، فقير ولكن باقليم المعاني أمير ، انه لايستساغ أن يأخذ الاصدقاء سوى عنّي ، وهل في البيت من متاع غيري ، اذا جلس غني في كوخه ، فيكون بيته الصغير كنز عظيم ثمين ، وعندما لايكون ذلك المغني الضيف للحفل في المنزل ، فلا دار أشد خواء من بيته (6) فالصوفي لايقبل أن يطلب شيئا — وان أقبلت عليه الدنيا — لئلا يشغله عن الله وعن الطاعة والعبادة ، وهو تارك للدنيا غير مبال بمن أخذها ، ناظر للحق سائر اليه قال المروذباري :

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه ... قلت خلعة ساق حبّه جرعا .

فقر وصبر هما ثوباي تحتهما ... قلب يرى الفقه الاعياد والجمعا (7)

---

1 — عبد الحليم عبد الله بركة ، في التصوف والاخلاق ، دار القلم الكويت ط1، 1403 — 1983م ، ص 237 .
2 — رسالة المشرق ، ص 333 .
3 — رسالة المشرق ، ص 333 .
4 — جلسة اقبالية (فارسية — 1989) ص 259 .
5 — رسالة المشرق ، ص 236 و 330 .
6 — رسالة المشرق ، ص 307 .
7 — القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، ص 125 .

واذا كان العلم يؤخذ من أفواه العلماء ويقتبس من صفحات الكتب فان النفس عند المتصوفة تحتاج الى شيخ يهذبها ويقودها ،وقد أوجبوا على المريد أن يتأدب على يد شيخ فان لم يكن له استاذ لايفلح أبدا ،يقولون : « من لم يكن له أستاذ فامامه الشيطان »ويقولون : « الشجرة اذا نبتت بنفسها من غير غارس فانها تورق ولا تثمر ،وكذلك المريد اذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا فهو عابد هواه »(1)

وقال السهروردي : « سمعت كثيرا من المشايخ يقولون : من لم ير مفلحا لايفلح »(2) وانطلاقا من هذه الفكرة حرص اقبال على الاشادة بفضل الشيوخ المرشدين على البشرية اذ استجابوا الى نداء الرحمن وحملوا أمانة الدعوة اليه ، يقول :

ـ قد صنع الله من الماء والطين جسدا سويا ، وخلق دنيا أجل من ارم .

الا أن الشيخ بتلك النار التي لديه ، جعل من ترابي دنيا أخرى (3)

ولذلك كان الجلوس الى شيخ عارف وشرب كأس من راح المعاني من يديه عند اقبال أطيب من كل ما في الدنيا ،بل وأطيب من حور الجنة وجنانها ، يقول :

ـ جلوس الى عارف (شيخ) وكأسين من الخمر ، أطيب من أفراح الدنيا ،وأطيب من حور الجنة وانجنان .(4)

فالعالم الديني ـ في نظره ـ يحمل علما ولكنه لايحمل همّا : « ان العالم الديني لايحمل هما ،ان عينه بصيرة ولكنها لاتدمع ،لقد زهدت في صحبته لأنه علم ولا همّ وأرض مقدسة ولا زمزم (5) .

وان اعترف اقبال للغرب بما أخذه من علمائهم ،فان الفضل في اشراقة روحه وصفائها واليقين الذي تمكن منها والايمان النابض فيها انما تعود شعلته الى شيوخ الشرق وذلك تأكيد منه لطلب العلم الكامل الذي يجمع بين علم مادي تسامريه الدنيا وتعمّر وعلم روحي تعمّر به الروح والنفس ،يقول :

ـ فقد زادت معارفي من دروس حكماء الغرب ، ولكن صدري احترق من صحبة شيوخ المشرق (6) .

لكن هل يوجد في ايام اقبال المرشد الذي يرى المريد قبلة يتأدب به وتهذبه وأنه أقوم الناس بذلك ،ذاك زمان ولّى بمرشديه ومريديه يوم كانت قلوب المسلمين نابضة بالحياة ، مفعمة بالايمان ، وهذا زمان أقبل بقحط قلوب

---

1 ـ عبد المنعم الحفني ـ معجم المصطلحات الصوفية ،دار المسيرة ،ط 1872 ،ص 125

2 ـ السهروردي ،عوارف المعارف ، دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان ،ط 2 ،1983 ،ص 96

3 ـ رسالة المشرق ، ص 200 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 336 .

5 ـ أ.د ماهر البقري ،الفكر الاسلامي في ادب اقبال ، ص 14 .

6 ـ رسالة المشرق ،ص 315 .

المسلمين وجذب أرواحهم انـ ـه زمن استوى فيه المرشد والمريد ، كلاهما غريب عن حرقة ولوعة الفؤاد ، وكلاهما ظامئ الروح والفؤاد وسط ظمأى :

ـ لا أنت تملك هوى منزل ليلى ولا أنا ، ولا أنت تملك احتراق القلب في الصحراء ولا أنا أنا ساق ماشيه (شاة) وأنت شيخ الحان القديم ، جمعنا ظامئ ولكن لا أنت تملك الصهباء ولا أنا (1)

الا أن اقبال المريد لم يستسلم لليأس فيتخذ من نفسه مرشدا في زمن غياب فيه المرشد حتى يستطيع مواصلة طريقه نحو الحقيقة ، وينصح كل سالك وكل طالب للحقيقة الملحة أن يكون مرشد نفسه ودليل طريقه ، فسفي الطبيعة من يتيسر دربه بنفسه مثل البراعة ، يقول :

لا تبحث عن عذر (للوقوف) للتوقف بصحراء الطلب هذه ، اذ لا يوجد في زماننا مرشد عارف للطريق (2)

وهو الزمن الذي وصل فيه اقبال بسعيه الخاص وبلا ارشاد من الخضر الى غايته فقال :

ـ بحثت (سائر) أنا بلا ارشاد الخضر عن الهدف فأحمل على الظهر خيالي متاعا للسفر (3) .

و هو الزمن الذي صار فيه استاذا يعلق المرشد بأذياله ويهتدي بأنواره ، يقول :

ـ يعلق مرشدي (دليلي) الى منازل العشق بأذيالي ، فاقتبس من ناري الخالصة شعلة وأمزجها بترابك (4) .

وقد كان الخضر عليه السلام في رسالة المشرق رمزا لكل مرشد كما كان الاسكندر رمزا لكل مريد ، ولكن شتان بين مايريده الاسكندر وهو الخلود في الدنيا وبين مايطلبه المريد المسلم وهو سبيل آخر للخلود بالاعمال وبالقلب والروح لا بحفنة التراب ، وهي الحقيقة التي اذا تمكنت من نفس خلقتها من السؤال وأجابت عن كل مبهم ، قال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة في التوحيد سقط لم وكيف (5) وقد أشار اقبال الى تلك الاسئلة التي تراود الانسان أكثر من مرة في رسالة المشرق منزها نفسه عنها لأنه ارتقى بروحه وفكره في مدارج الحقيقة التي لا تقبل سؤالا ، فقال :

---

1 ـ رسالة المشرق ص 338 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 352 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 292 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 339 .
5 ـ عبد الفتاح ، في التصوف والاخلاق ، ص 77 .

- أنت تسأل عن (الرابط والصلة) بين روحي وجسدي ، وأنا لست ممن يقع في شراك ، كم و كيف (1) .

ان الحقيقة التي يطلبها اقبال هي سرّ الاسرار ، فحتى وان ظن الناس أنهم أدركوا خيطها فانه يظل في تفتيش وبحث عن شكوك والغاز أخرى تقوده نحو الحقيقة المطلقة ، ويظل يبحث وراءها مقتنيا آثارها لأنه أكل من شجرة الأمل فبعثت فيه آمالا ، يقول :

- قد أكلت من شجرة الأمل ، واني أسير على أثر سرّ الحياة (2)

أنا لا أفتش عن النهاية ولا البداية ، فكلي سرّ ، ولكنني مع هذا أطلب دنيا الاسرار . فحتى لو توغلت الحجب عن وجه الحقيقة ، فاني أفتش عن هذه الشكوك وتلك الالغاز (3) الا أن اقبال لا يبوح بذلك السرّ الذي فتح عليه في زمن غير جدير بالوقار حتى يبوح فيه بسر أكبر منه ، يقول :

- من وراء حجب الدنيا لقيت سرّا ، ولكنني لن أبوح به لأن هذا الزمن غير جدير بالوقار (4) .

والصوفي وكل من سعت به نفحة الروح يسعى وراء هذه الحقيقة ويخلص لها ، فهي غايته العليا وهدفه الاسمى الذي يمكن التعبير عنه بأنه : "التقرب الى الله بقدر ما يملك من الطاقة" (5) انه مريد لليقين وللحقيقة وساع نحو الحق ، والمريد هو ذلك : "الذي تصب بعين التعب ، والقى في مقاسات الشاق" (6) وهو الذي تدفعه أشواقه ويقينه وثقته في الله الى السعي غير مبال بما يلاقيه من مشاق وعقبات ، وهذا السير وذاك الطريق ليس على الأرض أو على مسافة مادية ، ولكنه في حقيقته ارتفاع الى الله تعالى عبر طريق قطع عقبات النفس الانسانية وازالة الحجب القائمة بينها وبين خالقها (7) ، وقد يحتاج المريد الى سفر حقيقي ، ولكن اقبال اتخذ من السفر المادي ومن الاخطار التي يلقاها الانسان فيه رمزا لسفر القلب والروح وجعل من رغبة المسافر في مواصلة السير رمز لذلك المريد الذي لا تتوقف خطواته ولا تنتهي مقاماته حتى يصل الى أعلى درجات الارتقاء الروحي ، فكما يتألم المسافر الذي رسم لنفسه هدفا من الوقوف لأنه يثنيه عن السفر ويقتل شوقه الى الهدف يتألم المريد السالك طريقه الى الحق عز وجل من فتور الهمة وضعفها ومن اعتراضات النفس التي تثنيه عن سيره

---

1 - رسالة المشرق ، ص 212 .
2 - رسالة المشرق ، ص 243
3 - رسالة المشرق ، ص 199
4 - رسالة المشرق ، ص 347 .
5 - عبد الفتاح ، في التصوف والاخلاق ، ص 120 .
6 - المرجع نفسه ، ص 124 .
7 - المرجع نفسه ، ص 131 .

أن الانسان مسافر بالفطرة مثل النجوم التي ليس لقافلتها وقوف، يقول

- نحن مسافرون بالفطرة ، ولكن ليس لقافلتنا وقوف . (1)

وكما يرتاح الجاهل والخامل الى الراحة ويحل من نشوتها يرتاح اقبال ويسكن كل المريدين الى السفر ويتلذون من خمرته .

- أنا أتمثل من ذوق السفر ونشوته ، فما المحطات عندي سوى حجر عثر في طريقي (2) والمحطات والمنازل عنده رمز لكل مايمكن أن يثني الانسان عن هدفه وكل مايمكن أن يعترض طريقه ، يقول :

- ودع الديار وخض الطريق ، واحفظ نظراتك صافية مثل الشمس والقمر (3)

ذر المقصود في الديار ، واطلب الغيافي والصحاري .

علينا أن نغادر المنزل ، حتى نظل في البحث والطلب الدائم (4).

وأحيانا أخرى لاينصح بترك المنزل بل بحرقه لأن المحبة "نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب" (5) وقد شبه اقبال المنزل بالعش الذي قوامه القش والاعشاب بالتخلص منه ، اقتداء بالشاهين الذي لايتخذ لنفسه عشا يقيد عن التحليق ، وقد كان اقبال من المحطمين لكل قيد قد يوقفه عن السفر لأن غاية السفر والسعي هو الاعلى نفسه ، يقول :

- تأملي وأنا أجمع القش لعشي ، ثم أنظر كيف أطلب النار التي تحرقه .

أشعلت النار في هشيمي وقشي ، فقد قال الرشيد الرومي " انه غاية سيرنا هو الأعلى نفسه" (6) ومادامت تلك هي الغاية التي تهفو اليها النفوس وتميل من أجل ادراكها كل الحجب وتجتاز في سبيلها كل الصعاب، فان الذي يدركها ويفهم قدرها يصبح لايرى لنفسه حياة الا في السير ، يقول :

- حياة أولئك السائرين على الطريق في السير فقط ، فاني للقافلة المتوجة من منزل أو وقوف (7) .

وأولئك هم الذين يأذن اقبال لنفسه بأن يكون مريدا لهم ويتخذ منهم هداة مرشدة الى الهدف الذي وقفوا على حقيقته ، يقول :

---

1 - رسالة المشرق ، ص 265.

2- رسالة المشرق ، ص 215

3- رسالة المشرق ، ص 225

4 - رسالة المشرق ، ص 262 و 294.

5 - ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين مدارالكتاب العربي ، بيروت 2 و 13 - 72 و ج 1 ص 11 .

6 - رسالة المشرق ، ص 327 و 341.

7 - رسالة المشرق ، ص 341

ـ أنا مريد ذلك المسافر صاحب الهمة الذي لا يقطع الا الطرقات، حيث تلتقي مخاطر السهل والصحراء والبحر والجبل . (1)

ولم يكن اقبال وحيدا في سفره ، فقد كان قلبه مسافرا في دروب الطلب ، لذلك رأيناه يدعو له بالله بالرعاية والحفظ ، لأنه ككل القلوب المسافرة التي لا تحتمل وقوفا في المنازل ولا تخضع لنوازع النفس ولنوازع الطين ، يقول :

ـ ان القلب السالك لا يحتمل البقاء في المنزل ، ولا يحتمل لا الماء ولا النار ولا الطين ليكن قلبي مسافرا ، وليسر عنه الله ، فليس في طريق وقوف ، وليس له في منزل اقامة (2) .

وللروح أيضا أسفارها في طريقها الى البارئ ، يقول اقبال :

ـ ما أسعد ذلك الانسان الذي لا تملك روحه قرارا ، انه جوّال طريق الزمن الذي لا يهدأ (3) .

أما العقبات الخارجية التي تصادف المسافر فيصارعها بإرادته ويجتازها غير عابئ بها أمام هدفه فقد جعل منها الشاعر رمز الاخلاق نفسية وصفات داخلية يقطع الانسان منها خلقا بعد خلق ويحقق صفة بعد صفة ، بل أن السالك عند اقبال لكثرة ما تعود على الصعاب أصبح يرى أن غايته تلك مرتبطة بالعذاب والعناء الى حدّ رفض فيه السهل واليسير من السبل ورفض كل طريق لا تحفه المخاطر ولا تملأه المنعرجات ، وقد حفت الجنة بالمخاطر ، يقول

ـ علّمني شيخ عارف هذه الحكمة ، ما أجمل أن يكون الطريق الى المنزل معقدا ملتويا (4)

وهو طريق ممتد اذا كان يسّرا ، وبلا ساحل اذا كان بحرا ، غير آمن بتضاريسه وقرشه وحيّاته ، يقول :

ـ فارس هو البحر المجهولة شواطئه ، فيه جواهر الالماس المزاهية الألوان ولكنني لم أجر سفينتي فيه ، اذ ليس في أمواجه سمك القرش (5)

أو حكاية عن قيد التضاريس وصيدها ، ولا تقل ان زورقنا لا يستطيع مواجهة مخاطر البحر .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 329

2 ـ رسالة المشرق ، ص 229 و 349 .

3 ـ رسالة المشرق ، 266 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 219 .

5 ـ رسالة المشرق ، ص 244

قال تعساء : أتطلب طريقا في كل مكان ، ولكن لايجوز أن تذهب بلا خبر عنا (1) ان وجودي من السيل العارم مثل الموج ، فلا تظنن أنني أفتش في هذا البحر عن ساحل (2) .

وكان من أروع أحاديثه عن مخاطر السفر تلك القطعة الموحية : "اذا كنت تطلب الحياة فعش في خطر" ، جاء فيها :

اشتكى غزال لغزال ألم الفؤاد ، أخيرا سأتخذ من الحرم مرتعا ومرعى هناك في الصحراء حيث يقبع الصيادون في مكامنهم ، فلا ترغب في لقاء غيرنا ولانستطيع تمييز الصباح من المساء .

سأطلب الامان من فتنة الصياد ، وأطلب قلبا متحررا من كل قيود الفكر .

فقال له رفيقه : أيها الصديق العاقل ، اذا كنت تطلب الحياة فعش في خطر (3) والركب الفاتر الهمة ، السالك لطريق آمن ، هو في نظر اقبال ركب مريض يستحق الاسف لحاله ، يقول :

- وأسفاه على القافلة التي تطلب فتور همة وضعفها ، هي تجتاز طريقا ليس فيه من خطر (4) .

بل ان اقبال توكيدا لارتباط الاهداف بالاخطار يرفض السير في الطريق الآخر وان كان الى الكعبة ، فيقول :

... لهذا فاني لم أسافر الى الكعبة لأن الطريق امن .(5).

وهكذا جمع اقبال بين السفر المادي الذي هو رمز وبين السفر بالروح والفؤاد وهو المرموز اليه ، جمع بين العناء والتعب الجسدي الرمز وبين تعب النفس واضطرابها وهو المرموز اليه . فعن الارادة التي يحتاج اليها المريد في رحلته والتي بها يتحمل كل مايلقاه من عناء قال أبو علي الدقاق : "الارادة لوعة في الفؤاد ، لذعة في القلب ، غرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، تيران تتأجج في القلوب"(6) ، وقال اقبال مستعذبا العذاب في عشقه :

- صورته أحلى وأطيب في نظري ، فما أطيب أن تزداد معاناة اللهفة عليه وأن تذوب الروح وتذوي في هذا السبيل .(7)

---

1 - رسالة الشرق ، ص 320 و 387 .
2 - رسالة الشرق ، ص 318 .
3 - رسالة الشرق ، ص 293 .
4 - رسالة الشرق ، ص 340 .
5 - رسالة الشرق ، ص 317 .
6 - عبد الفتاح ، في التصوف والاخلاق ، ص 121 .
7 - رسالة العشق ، ص 219 .

وان لحظة واحدة من الخفقان في نظره تنتهي بصاحبها الى الخلود ، يقول :

ـ لا تفتش عن الساحل ففي الصدر ساحل ، ولحظة واحدة من الخفقان تنتهي بموت خالد (1) .

لذلك فانه يدعو على كل من يقرأ كلماته بالحرمان من الاستقرار كما يدعو لنفسه بأن يظل قلبه نابضا ، فيقول :

ـ . . . فلتكن كل ذرات ترابي قلبا خافقا بلا قرار .

لتحرم روحك من الهدوء والاستقرار ولو للحظة واحدة وليتجلى لك احتراق الحياة واضطرابها (2) .

لأن الصوفي هو من يلقى العذاب بصدر رحب اذ فيه راحته وهو الذي " يرتاح الى الحيرة كما يرتاح الجاهلون الى اليقين " . (3) ، فهو يتملك الحيرة وذلك القلق والاضطراب يصل الى اليقين ، ان قصة اقبال تلخص بكل مافيها وبكل تفاصيلها في كلمتين وهو أنه تمزق وعشق ، يقول :

ـ لقد جالت الطبيعة منذ آلاف السنين ، وانفصلت عن نفسي للاتصال بها كل قصتي في هاتين الكلمتين ، وهو انّي تمزقت وتطلعت وعشقت (4)

ويبلغ في ديوانه أعلى درجات تطلب العذاب والصعاب ، فلا يقف به المرفق عند الطريق الآمن ، فيرفض مايذوب النفوس شوقا اليه ـ الجنة ـ اذ لا سجن فيها ولا حرقة قلب ولا نار ولا شرار ولا رياح صرصر عاتية ولا أسلحة ولا هجر ولا فراق ولا شيطان ، يقول :

ـ يوسفها لا يعرف عذاب السجن ، وزليخاها لا يعرف قلبها الا نيران .

خليلها لا يرتمي في النار ، وكليمها لا يطلب بالروح شرار

زورقها لا تثيره الرياح الصرصر العاتية ، فهو لا يخاف من خطر ضربات الموج والطوفان يقينها غير مقيد بـ"هل" و"عسى" ، وليس لوصالها تفكير في الهجر . (ووصالها بلا تفكير في الهجر .)

فلا تعثر في عالم بهاء ، فيه الا الله وليس فيه الشيطان (5)

ولو سئل اقبال عن سرّ كل ذلك الحرص على العذاب وعلى الخطر ، والحرص على النار والطوفان والاضطراب فان الجواب على ذلك يمكن على صفحات الديوان .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 234 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 349 ـ 350 .

3 ـ عبد المنعم خفاجي ، الادب في التراث الصوفي ، ص 183 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 235 .

5 ـ رسالة المشرق ، ص 302 ـ 303 .

فالنسر أضعاف ومضاعفات وإذا لم تمتحن النفوس بذلك الخطر فكيف تعرف قيمتها وكيف تعرف درجة صبرها وكفاحها ، ان الخطر امتحان لمعادن البشر ومعيار لمعرفة أقدارهم وتقديراتهم على التوفيق بين حفنة التراب ونفخة الروح ، يقول :

ـ اشحذ نفسك في كل حين ، وعش أضعى من السيف الوضاء الأصيل .

ففي الخطر امتحان للقدرة على الصبر ، وذلك هو المعيار الذي تعرف به الارواح والأجساد.(1)

وعلى نهج المتصوفة استخدم اقبال بالطبيعة لبيان أفكاره ، فلما استعانوا بها وتعلموا منها . فهم يتخذون من الشاهين والعقاب قدوة لهم ، وكذلك اقبال ، يقول :

ـ ان حياة الحركة والاضطراب والحركة أفضل من السكون الدائم ، فالحمامة تصير عقابا من الهياج داخل الشبكة .

لقد قيل ان العقاب وحده له غذاؤه ، وان قطرة دمه أفضل من الياقوت الخالص (2) .

وأما الصقر فقد خص صفاته بقصيدة كاملة ، "نصيحة صقر لفرخه" وهي التي ان حافظ عليها أوصلته الى الأصل الذي تحن اليه كل الطيور العنقاء (3) والا كان أحقر شأنا من الطيور الاسيرة ، يقول :

ـ ان التقاطك الحبّ من الأرض خطأ ، لأن الله أعطانا كل الكون الرحب الوسيع. فذلك العصفور النزيب الذي يضرب الأرض برجله ويخدشها ، هو أحقر من الطيور الاسيرة. لأن بساط ملوك الصقور الحجر ، فهي تسير فوق المخور بمخالب حادة مقوسة .

أنت من فصيلة صقور الصحراء ، ذات الأصل العالي الرفيع مثل أصل العنقاء (4)

وكان للشاهين مكانة عميقة من نفس اقبال وفكره ، انه الطائر الذي عد القلندرية الى التأسي به واتخذوه قدوة لهم (5) وهو ان كان من فصيلة الصقور الا أنه يحترم نفسه فلا يمس شيئا قتله غيره ، ولا يبتني لنفسه عشا قط . وبذلك كان مثلا للارتفاع بالنفس ، قال اقبال :

ـ الى متى وأنت تمزق ثوب الحياة ، والى متى وأنت تبني منزلك في التراب مثل النملة؟ تعلم طيران شاهين وانطلق سريعا ، فالى متى وأنت تفتش عن رزقك في القمامة (6)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 293

2 ـ رسالة المشرق ، ص 256 و 272 .

3 ـ العنقاء طائر خرافي اتخذه المتصوفة رمزا ، سمي بالعنقاء لأنه يسمع بذكره ويعقل ولا وجود له في عينه . (معجم المصطلحات الصوفية ، ص 190)

4 ـ رسالة المشرق ، ص 273 .

5 ـ شيرين عدنان ، زبور العجم ، رسالة ماجستير ، قسم اللغة الفارسية ، الازهر 1407 هـ / 1986م . ص 158 .

6 ـ رسالة المشرق ، ص 245 .

ومرّة أخرى جسّد الفكرة نفسها في حوار بين سمكة صغيرة خائفة محترقة وشاهين فتي معتد بنفسه ، فقال :

ـ قالت سمكة صغيرة لشاهين فتي ، ان كل هذه السلسلة التي ترى من الامواج هي البحر .

فلم يهتم بالتماسيح التي زمجرتها أحدّ من الرعد ، وصدره يخبئ كلمات معروفة ومجهولة

تأخذ سيوله الجارفة الصخور الثقيلة والاعشاب والتراب ، مع الجواهر البراقة واللآلئ المتلألئة .

فلا شيئ يستطيع أن يفلت من السيل الذي يأخذ كل شيئ ، انه في كل مكان فوقنا وتحتنا

من حرارة الكلمات أحترقت السمكة الصغيرة ، فابتسم الشاهين الصغير وطار بعيدا عن الساحل

وصاح (قائلا) أنا شاهين فماذا أعمل فوق الأرض ، مهما تكن الصحراء والبحر فهما تحت جناحي .

ارتفعي عن سطح الماء فالافق الرحب مسخّر لك ، انها حكمة دقيقة لا ترى الا بعين حادة الناظر . (1) .

وقال شبهنا القلب في جسارته وتاميه بالشاهين في قوته واصطياد ، في الفضاء وترفعه عن الجيفة من الحيوانات وشبهها العقل بالبلبل الضعيف الذي يلقط غذاءه من فوق الثرى :

ـ هذا عقل أناني (لا يرى غير نفسه) والاخر يحمل كل العالم ، فالاول ثقل جناح البلبل ضعفا والآخر منح جناح الشاهين قوة .

هذا يلقط الحب الساقط من فوق الثرى ، وذاك يأخذ طعامه من حب الثريا (2)

فالشاهين لا يأخذ الميت من الطيور (3)

لأنه يرى أن دلائل عجز العقل وانحصاره هي قلة الجرأة ، ويرى أن العقل وحده لا يحقق أثرا في الخلق والتكوين ولا يبلغ معنى من الابتكار الا بمؤازرة العشق والوجدان والعقل كثير التردد قليل التقدم ، وبينما العقل في تبلبل واضطراب يعوقنا

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 286 ـ 287 .

2 ـ رسالة الشرق ، ص 359 .

3 ـ رسالة الشرق ، ص 391 .

نرى العقـــل يعلـو بقافلـة الحيـاة الـى السحـاب والتاريـخ الانسـاني شـاهـد بأن أكبـــر الحـوادث ومعظـم الأمـور الجسيمـــة التي غيـرت حيـاة الشعـوب والاقـوام كـانـــت جميعهـا في الأكثـر الأعـم مدفوعـة بتيـار المشاعـر والعـواطـف(1)

كمـا اتخـذ اقبـال مـن السيـراعـة ، تلـك الحشـرة الصغيـرة التي تتـلألأ كالشمعـة ليـــلا رمـز للاعتمـاد علـى النفـس فهـي اذ تتـلألأ لتضيء الطريـق لنفســهـا دون أن تحتـاج لضوء الآخريـــن كما اتخـذ مـن قدرتهـا أداة للاصـلاح والتغييـــر والبنـاء فلـو اقتـدى كـل انســان بالسيـراعـة واعتمـد علـى نفســه واستغنـى عـن سنـن الآخريـن لكـان أهـلا للتجلي ، يقول :

ـ أيتهـا السيـراعـة أنـت كـلـك نـور ، وسيـرك سلسلة مـن الغيـاب والحضـور .

وقـانون الظهـور ، في ظلام الليـالي الحالكة أنت مشعل ليـل الطيور ، أي شعلـة هـذه التي تجعلك دائمـا .

في احتـراق وهيـام واضطـراب ، وفي طلـب دائـم للحـرارة ، أقـول نـاصـح مجـرب شفيـــق فاستمعـــي .

ولا تحـدثني عـن الهـدف الضائـع ، وامـض في طريقـك ، واحتفظي بهـذا التجلي(2)

وقـال مصورا افتخـارهـا بـذلـك النـور الـذي أغناهـا عـن الآخريـن فلا هـي نملـــة تؤذي غيرهـا ولا هـي فراشـة تطلـب نـار الآخريـن ، أنهـا اذا اشتـد ســواد الليـل أشعلـت مصباحهـا وأنـارت دربهـا بنورهـا :

ـ سمعـت يراعـة تقـول : ، أنـا لسـت نملـة تـؤذي الاشخـاص بشوكتهـا .

أستطيـع أن أحترق بلا منّـة مـن الآخريـن ، فلا تستخيلي فراشـة تهفـو الـى الاحتـراق(بنار الاخرين) عندمـا يكـون الليـل أشـدّ سوادا مـن عيـن الغـزال ، عندهـا أشعـل مصباح طريقـي (3)

أمـا قصـة الفراشـة الطويلـة مـع الشمـع فقـد اتخذهـا اقبـال رمزا للاحتـراق بنـار المعشـوق والسعـي وراءهـا والبحـث عنهـا والذوبـان بيـن أشعتهـا والفنـاء فيهـا والاختـلاط بهـا .

ان الفراشـة عنـد اقبـال وعنـد كثيـر مـن المتصوفـة رمـز لكـل شهـداء العشـق الالهـي ولكـل المحترقيـن بلظـاه ، فالشمعـة وان أفنـت عمرهـا لانـارة الآخريـن لاتشغـل فكـر اقبـال ، ولا تلفـت انتبـاهه بقـدر مـا تلفتـه تلـك الفراشـة المتلهفـة الـى النـار التي فيهـا وتهـا فينصـح القلـب العاشـق بالاقتـداء بهـا والاقبـال علـى النـار المتأججـة بأعماقـه ليحتـرق بهـا يقـــول :

ـ دع عنـك خرافـة تلـك الذبالـة وهـي تذوي ، فحـديث احتراقهـا طنيـن أذن .

---

1 ـ محمد حسين الأعرجي والصاوي شعلان . اقبال والفلسفة الاسلامية في شبه القارة ص 49

2 ـ رسالـة المشرق ، ص 277 .

3 ـ رسالـة المشرق ، ص 287 .

فأنا أعدّ فراشة بحق تلك الفراشة التي ، روحها في كفاح دائم وهي تستمتع بمستذوق الشعلة .(1)

الى متى تتخذ أيها القلب هيئة الفراشة ، والى متى لا تتبع نهج الرجولة أحرق نفسك مرة بما يحينك من نار (هومك) ، فالى متى تطوف حول نار الغريب(2) .

ان الفراشة وهي تفنى وتذوب من نار الشمعة ، وهي تحترق وتذوب انما تكمل بذلك وجودها ، وهي عندما تحترق تعطي للشمعة نورا وتصبح وكأنها الشعلة نفسها ، وهي عندما تحترق تعلن أنها مسافرة بذلك الاحتراق ، يقول :

ـ وفراشة مع فراشة تأخذان على الطواف بالشعلة ، تحترقان بأنغام الحياة وتشكلان من حسرق الحياة (3) .

أشعل أنين شكوى قلوبنا للكلام نارا ، وأعطت الفراشة الفانية لهذ ، الشمعة نورا)4) فراشة قلقة متلهفة تطير في كل ناحية ، احترقت بنار شمعة كأنها تلك الشعلة الماضية .

(وقالت) أنا وأنت ، كلانا مهاجر ، أو كوكب بصدره تختبئ الاضواء (5) وان حكمة الحياة التي تحب اقبال وسوس الكتاب في البحث عنها بين ثنايا كتب ابن سينا والفارابي ولم يحشرا عليها انما تخبر عنها الفراشة ، وليست أية فراشة ، انها تلك المحترق نصفها ، ففي احتراقها وجهادها الجواب يقول :

ـ حسنا قالت الفراشة المحترق نصفها ، انك لن تجدي هذ ، الحكمة في كتاب انه السعي والجهاد الذي يجعل حياة الاحياء أكثر حيوية ، انه السعي (الدؤوب) الذي يمنحها الاجنحة (6)

ومن أمثلة سعي الفراشة وكفاحها انها تظل متلهفة الى الاحتراق ، واذا كان لكل مخلوق مصير ، فان الفراشة العارفة للمصير الذي ستؤول اليه وهو ذرات من رماد ، تتمنى قبل النهاية الخالدة عندها أن تمنح لحظة من حرقة

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 204 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 1
3 ـ رسالة المشرق ، ص 322
4 ـ رسالة المشرق ، ص 341
5 ـ رسالة المشرق ، ص 277
6 ـ رسالة المشرق ، ص 274 .

الأنس بنار الشمعة ، يقول :

ـ سمعت فراشة كانت تقول في العدم : « امنحني لحظة من حياة اللهفة والحرقة واشعر رمادي وقيمة السحر » ولكن امنحني من قبل ذلك حرقة وأنس ليلة (1) .

ولم يكتف اقبال بقصة الفراشة مع الشمع للتعبير عن ذلك البحر الفجاج (بحر العشق) فاستعان بقصة الشقائق المحترقة الكبد ، الدامية الجسم رمزا للعاشق الذي يحمل سمات عشقه وهي علامات الكبي ، ان تلك النقطة السوداء التي في قلب الشقائق ، والتي يمر عليها كثير من الناس مرور الكرام ، ينظر اليها اقبال بقلب مدام جريح كقلبه وقلب كل عاشق للحق ، ويرى حالها كحاله .

فكبد « المفسر » من الهوى وقلبه الملتهب هو شل قلبها الذي انكوى ، وانه ليحمل علامة كيّه لمن لم يصدق حكايته . كما تحمل أوراق الشقيقة علامة الجرح وعمقه ، فهي مملوءة بلون الدم . كل ذلك التمزق والاحتراق والدم المسفوح تتحمله الشقيقة وهي سجينة الاغنية حتى اذا أطلق سراحها ونزعت العمامة عن عينها لتنظر الى المعشوق الأزلي خرجت وهي تحمل في سبيله كل آيات العذاب وعلاماته ، وخرجت تلبس ثوبا حكم البلبل لثمارة ، بأنه كلف الشقيقة غاليا مع أنه لا يدوم طويلا ، يقول :

ـ أنا شعلة الصباح الأزلي المنيرة في صدر العشق ، تنفست قبل ظهور البلبل والفراشة .

وأنا أغلى من الشمس اذ في جسد كل ذرة ثورة ، والفلك الدوار انما أخذ شراره من ناري .

لقد تجرعت في السجن الكثير من الألم والعناء ، حتى وصلت نفسي في الاخير الى تجلي الألوان والروائح .

حيث سكب الندى بطريقي جواهره المتلألئة ، وضحك لي الصبح وطافت من حولي ريح الصبا .

سمع البلبل عن الوردة بأنهم أخذوا شعلتي ، فبكى وقال : لقد كلفت ثوب الوجود الشقيقة غاليا .

ففتحت صدري الممتن للشمس وقلت متوسلة ، هل لناري التي كانت من

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 202 .

أويسة أو رويس .(1).

ان ذلك الشيء الذي يحظى قلب الشائق مستحيل الزوال لأنه ولون الدم الذي تحلله هو المعيار الذي تعرفه به وتميز به عن الياقوت البذخشاني كما يميز الناس وتوزن معادنهم فليس كل انسان جدير بالعشق الالهي ، يقول :

- ليس كل شخص يصاحب محبة ، فالمحبة لا تناسب كل شخص .

فالدقيقة تبحث بكل يسري الكبد ، بينما يخلو الياقوت البذخشاني من الشرر .(2) ان كنت قد خلقت بالقدرة مثل قطرة الندى ، فانهض وتعلم كيف تقطر على قلب الشائق الظامئ المحترق (3).

الا أن لغة الشائق هي الاخرى لم تقو على بيان كل ما يحظى اقبال من همّ العاشق ، لذلك رأينا ، يلجأ الى قصص عشاق عرفهم التاريخ رامزا بقصص عاقبهم و عذابهم قصي العشق المدنيوي الترابي للعشق الالهي ، متبعا في ذلك نهج المتصوفة وميلهم الى التلميح دون التصريح . وقد علّل الامام القشيري سبب اعتمادهم على الرمز بقوله : "هو تقريب الفهم على المخاطبين أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم أنفسهم أو الاختفاء والتستر على من بينهم في طريقتهم ، لتكون معاني ألفاظهم مشتبهة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها"(4)، وتوكيدا لاستعانة المتصوفة بالرمز لمنع المدخيل من ادراك معانيهم ، قال ابن عربي ناصحا كل من يقرأ شعره بتأويل مايقرأ من كلامه والبحث عما وراء ، من الاسرار :

ما كل ما أذكره من طلل	أو ربوع أو مغان كلّما
وكذا ان قلت ها أو قلت يما	والا ان جاء فيه أوأما
وكذا ان قلت هو أو قلت هي	أو هما أو هن جمعا أو هما
كل ما أذكره مما جرى	ذكره أو هلّه أن تفهما
منه أسرار وأنوار جلت	أوعلت جاء بها ربّ السما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها	واطلب الباطن حتى تعلما (5)

---

1 - رسالة المشرق ، ص 275 .
2 - رسالة المشرق ، ص 197
3 - رسالة المشرق ، ص 328
4 - محمد عبد المنعم خفاجي ، الادب في التراث الصوفي ، ص 185 .
5 - المرجع نفسه ، ص 137 .

وكما كان للمتنبي وقفة خمرهم فقد كان لاتباع خمرة ، وهي ليست صهباء الاعشى ولا مدامة أبي نواس ، انها خمرة الذات الالهية التي قال فيها الشاعر

يسولون لي ألفيرها فأنت بوصفها ... خبير ، أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا ... ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

تقدم كل الكائنات حدوثها ... قديما ولا شكل هناك ولا رسم (1).

فهي راح تعرف ولا تشربه راح معنوية يحرم تذوقها ويباح السكر منها كما يقول اقبال :

أنشد مطرب الحان بالأمس حكمة قلب ، تذوق الراح حرام ، والسكر منها مباح (2)

وقد اتخذت الخمرة عنده أنواعا ، فهي حينا خمر الحقيقة التي استعارها الشاعر فجعلت كأسه أشبه بكأس جمشيد ، وجعلت البحر أمامه كقطرة ماء ، وحينا هي خمر السفر يشتاق الشاعر من نشوتها ، وحينا آخر هي خمر المعاني ، يقول :

ـ لقد استعرت هذه الخمرة كما لكي العهد (القديم) الاول ، من عين الساقي الناعسة السكرى .

فخمره جعلت من كأسي الفخاري كأس جمشيد في صفائه ، وأخفت البحر داخل قطرة الماء التي هي أنا .

... أنا تمثل من ذوق السفر ونشوته ، فما المحطات عندي سوى حجر عثرة في طريقي (3) .

فاسقيا أيها الزمن في صمته انهض ، وحطم نواميس صحو الأنام ، واشرب من خمر المعاني .

اسقني عاقل الاقوال مجنون الفعال ، وخمر شوقك أيقظتني وأسكرتني .

انما أطلب خمر الاسرار وأكوازا لشربها ، وأن يدور الكأس عندي بحانات المجوس (4) .

وهي خمرة الايمان الساكنة بأرض المشرق وخمرة كلام العارفين أمثال الرومي ، يقول :

هلم الي فاني أرشف من كأس شيخ الروم خمرا ، هي صهباء كلام هي أصيل من خمر العنب (بنت العنب) (5)

---

1 ـ زكي مبارك ، التصوف الاسلامي ، ج 1 ، ص 262 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 341 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 209 و 215 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 262 و 322 و 334 .

5 ـ رسالة المشرق ، ص 335 .

وان طلب هذه الخمرة بجميع أنواعها عند اقبال وجلوسه الى عارف أطيب من الدنيا وما فيها ومن الجنان والحور ، يقول :

- جلوس الى عارف وكأسين من الخمر ، أطيب من أفراح الدنيا ، وأطيب من حور الجنة والجنان (1).

بل أن الدنيا تقسمها عند اقبال أشبه بالحان ، والخمرة فيها توزع بحسب النفوس التي تحتويها ، فالنفس الصافية والقلب الذي اتسع للحق يكون له من الصهباء بقدر سعته ، والنفس الغافلة والقلب البارد الخالي من حرارة العشق يكون له من راح الحياة بقدر سعته ، فهناك من الكؤوس ما تتقاطر على جوانبه خمر الاسرار وتتحول الى كلمات ، وهناك الكؤوس الفارغة أو التي بقطرة في القاع فلا أحد يأخذ من حان الحياة أكثر مما يسع كأسه ، يقول :

- هذه حانة قد وجهت اليها الدعوة العامة ، وقسمة الخمر هنا تكون بمقادير الكؤوس .

وكلمة السر تلك التي لم يفه بها صوت الى الآن ، قطرت من حافة الكأس وصارت كلمات هنا .

فلنأخذ الدلو الآن ، فهذا وقتها ولندع ما قيل ، لحكمة الفلسفة مشكلة وهي حيالة الكأس هنا .

أنت يا من تحرص على أخطائك وتحفظها (تخلص لها) ، ان كل ما بدا لك ساكنا فهو في حركة هنا (2).

ومن القصص التي أشار اليها اقبال قصة ليلى و المجنون وقصة زليخا ويوسف وقصة شيرين وفرهاد ، كما استعان بسلمى كرمز هائل للعشق ، ولم يكن متفردا في هذا فقد سبقه الكثير من روّاد الصوفية الى نظم بعض تلك القصص وأعطوا ذلك الحبّ البشري طابع الحبّ الصوفي وسموا به الى العشق الالهي .

فاذا وجدنا في رسالة المشرق اشارة الى المجنون وليلاه أو يوسف وزليخا أو فرهاد وشيرينه أو وجدنا ذكرا لسلمى أدركنا أن اقبال يريد حديثا عن الاعلى نفسه وعن عشقه وهواه ، فمن الذين نظموا قصة يوسف وزليخا في الأدب الفارسي الفردوسي ثم بلغ بها عبد الرحمن الجامي قمة التصوير الفني وعلى يديه اتضحت صبغتها الصوفية ، فيوسف عنده - يعتقد كما يعتقد الصوفية - أن التأمل في الجمال البشري الأرضي يقود الى الله والى الجمال المطلق ، ولذلك ينصح

---

1 - رسالة المشرق ، 336 .

2 - رسالة المشرق ، 294 .

الأميرة السورية الجولسة به قائلا : " الجمال في الخلق .

انعكاس عابر لايطول بقاؤه ، كفضارة الورد ، فاذا أردت الخلود فتوجهي الى أصل الاشياء كلها .(1) ومن قصة يوسف وزليخا ركز اقبال على ذلك القلب المعزن ، فقلب زليخا ، ورآه مثالا حيا لقلب كل عاشق للحق وقد رأيتنا كيف كان يعرف الجنة لأن زليخاها لايعرف قلبها الا نبي ، يقول :

- يوسفها لايعرف عذاب السجن ، وزليخاها لايعرف قلبها الانبي .

لايعلى أن يقال حديث جديد في بلوى يوسف الضائع ، اذ لا تطلب غليان دم زليخا وخفق قلبها ولا أنا (2).

أما قصة ليلى والمجنون فقد نظمها كثير من متصوفة الفرس من العراق أمثال سعدي الشيرازي وأمير خسرو والجامي وهاتفي ونظامي الگنجوي الذي كان له فضل الريادة في نقل أسطورة المجنون الى الأدب الفارسي كما كان له الفضل في توجيهها وجهة صوفية تأثر بها كل من جاء بعده (3) يقول اقبال - لا أنت تطلب هوى منزل ليلى ولا أنا ، ولا أنت تطلب احتراق القلب في الصحراء ولا أنا (4) وكذلك الأمر بالنسبة لسليمى أو سلمى ، فقد رأى أن قلوب المسلمين وعلى رأسهم أبناء الحجاز أفرغت من عشقها القديم وانطفأت جمرتها القديمة ، فوجه الداعية المسلم الذي أمّ بلاد الغرب للهداية والتبليغ الى الشرق ليذكر أهل الحجاز بسليمى التي أستبد لوا بها واهاها هوى غيد العجم وباعوا في سبيله الدين والقلب ، يقول :

- قدر هنّا القلب والدين في حبّ غيد العجم وحسانهم ، فلا أنت تطلب نار الشوق الى سليمى ولا أنا (5) .

فاخبر أهل الحجاز عن سليمى ، وبث شرر العشق في قلوب الاتراك (6) واذا كانت قصة زليخا مستقاة من القرآن الكريم وقصة ليلى والمجنون مستقاة من الأدب العربي مما يجعلنا في غنى عن التعريف بهما ، فان قصة شيرين و فرهاد أخذها اقبال من القصص الفارسي ، وقد اختلف الرواة في قصة شيرين كما اختلفوا في أصلها ، روى الفردوسي في شاهنامته أنها فارسية تحيا في قصر الملك الفارسي خسرو پرويز وتحظى بمكانة رفيعة من قلبه ، الا أن لشيرين قصة أخرى مع العاشق فرهاد وقد كان نحاتا يشق الطرقات ، فلما عرف خسرو پرويز بحادث قصته يشق الطريق في جبل بيستون من جبال كرد ستان ، ووعده أن يهبه شيرين ، فلما شق الطريق أرسل اليه من يخبره - كذبا - بموت شيرين (7).

---

1 - سليمى هادل ، الادب المقارن ، دار العودة ، بيروت (1983) ، ص 313 .
2 - رسالة الشرق ، ص 294 .
3 - أبراهيم عبدالرحمن محمد ، النظرية والتطبيق في الادب المقارن ، دار العودة بيروت ، (1982) ص : 162 .
4 - رسالة الشرق ، ص 338 .
5 - رسالة الشرق ، 338 .
6 - رسالة الشرق ، ص 306 .
7 - [illegible] ، ص 336-337 .

وقد ذهب فرهاد مثلا في العشق كما ذهب مجنون ليلى مثلا فيه ، من الذين نظموا قصته في الفارسية نظامي الگنجوي ، ولعلّه نحا بها منحى صوفيا كالذي سار عليه في نظم قصة ليلى والمجنون ، كما نظمها خسرو الدهلموي ، ووحشي البافقي ، هذا الى جانب من ضمنوا القصة دواوينهم أو أشاروا اليها .

قال كمال الدين الخجندي :

صار عقيق شيرين نصب خسرو وعبثا ينحت فرهاد الاحجار .

وقال فضولي :

لكل انسان على قدره متجلّى عشق فجبل بيستون يلوح لفرهاد كطور سينا (1) .

وكذلك اتخذ اقبال من فرهاد رمز للعاشق الولهان ، المجنون من الهوى ، الذي يرضى في سبيل معشوقه بالعذاب ويحمل الفأس الى الجبل ليشق بلظى هواه وقطعا تعرفه فيه طريقا ، يقول :

ـ اتعرف الفرق بين العشق وبين الهوى والجنون ، هذا غدير پرويز وذاك فأس فرهاد (2) .

قد لا ان شيرين يجد دائما مخلصا متولّها ، اذ لم يكن خسرو فانه فرهاد (3) في كل زمان يمرون بأسلوب جديد ، قصة غم فرهاد وأنس پرويز وضربه (4) . ومرة أخرى يذكر فرهاد لا باسمه وانما يذكر عمله تحت الجبل الذي صار علما لما يمر به ، وهي قطعة تحدث فيها على لسان فرهاد المشتكي من قسوة قلب من يمر الا به يشبه جنگيز خان رغم الطاقات التي لفأسه ، فيقول :

ـ بسيط بحثه وصاحبه معروفي ، لكنه قاسي القلب ظالم ، باعث للفتن . ظاهره عذب لا يمل ، وباطنه فظ غليظ ، كلامه من كلام المسيح عليه السلام وقلبه قلب جنگيز خان .

العقل مشرق ، والجنون يلقي غشاوة على البصائر ، تجلّ فان روحي مفعمة بالاشواق والولهة .

ان كان فأسي يستطيع أن يهدم الجبال ، فان الخط الذي الآن يدور الى جانب پرويز (5)

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 237 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 331 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 380 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 331 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 367 ـ 368 .

ومن ثالثة اتخذ من قصة فرهاد مع پرويز المخادع المستمر لجهوده ، بلا ثمن رمزا لكل أجير استغلته ارباب المصانع وأرباب الاموال وقلك التفاتة من اقبال الى التاريخ القديم للبحث عن مظلوم كأولئك العمال الاجراء الذين لا ينالون الا التعب والنصب ، لاسيما وقد سرت في عهد اقبال موجة الدعوة الى تحرر العمال من الاستغلال البشع الذي كانوا يعانونه من أشباه پرويز ، وفي رسالة الشرق يوجه اقبال الدعوة الى كل مظلوم كفرهاد أن ينهض للاقتصاص لكرامته المهانة وأن يهب لاسترجاع مجده الضائع لأن زمن پرويز وأمثاله من الرأسماليين قد مضى ، يقول :

قد مضى زمن پرويز ، فياقتيل پرويز انهض ، واسترجع المجد الضائع من خسرو(1)

ولكن هل تكفي هذه القصص التي لجأ اليها شيوخ المتصوفة وشعراؤهم واستعانوا بها للتعبير عن معشوقهم الأزلي ، وهل تقوى تلك القصص على التعبير عن هدف اقبال الذي صرح : "أنه الاعلى نفسه" ، قال :

... فقد قال المرشد الرومي ان غاية سيرنا هو الاعلى نفسه (2).

هدفي وهدفك أسمى من الافلاك ، فما الشعر في طريق قافلتنا سوى جرس يسير من الجرس (3).

ان تلك الرموز من فراش وشمع وشقائق وقصر عشاق ذهبت مثلا للعشق هي قطرة من بحر هوى اقبال ، بل اننا نستطيع القول أن العشق الالهي كان أكبر موضوع صوفي يشغل فكر اقبال ويفوز بالحظ الوافر من رسالة الشرق ويحيا في كل أقسامها ، فحتى القسم الموجه الى الغرب لم يخل من كلمات عن العشق ولظاه ومن منا لا يريد أن يكون محبا لله ، ومن لا يحب أن يكون من الذين قال فيهم المولى عز وجل : "يحبهم ويحبونه" (4) ، فحب الله فرض ومحبته ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الغاية القصوى من المقامات التي يصل فيها السالك الى الله عز وجل ، وكل المقامات التي ينالها هي ثمرة حبه لله عز وجل لأنه يصبح سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولعل شيئا من المعاني يشغل المتصوفة كما شغلتهم المحبة ، فأناشيد هم "تدور كلها حول الحب" وأن التصوف لا يصلح الا بفضل الحب ولا يفسد الا بسبب الحب ، فالحب هو الاول والآخر

---

1 - رسالة الشرق ، ص 367.
2 - رسالة الشرق ص 341.
3 - رسالة الشرق ، ص 321.
4 - سورة المائدة ، الاية 54.

في حياة أولئك النار ﷺ(1) يتحملون في سبيله كل صعب مهول وهو العنهساج الذي سار عليه اقبال والخط الذي اتبعه في حديثه عن معشوقه الازلي وعن أثر ذلك العشق وعن تجلياته وتجلياته كل محتسب في سبيله ، أدرك اقبال أن الزمن الذي يعيشه زمن أفرغت الافئدة فيه كمن حرارة العشق ومن حماس سلمان ، فدعا الى تجديد تلك الشعلة لأنه رأى أن وقت العشق قد حان بعد نوم طويل غشي المسلمين ، خوت فيه ديار الاسلام من ذلك الحماس القديم وتغربت أجسادهم عن نبض الحياة ، يقول :

لم يعد هناك الحماس السلطاني للعشق ، فأرض ايران باقية ولا وجود للايرانيين (1)
فانهضوا جعل كأس العشق تدور من جديد ، وجد درسالة العشق في بلاد الجبل (2)
كانت الحانة فرعة من كل جلبة وأنين وعويل ، وكانت أجسادنا غريبة عن نبض الحياة .
لم يكن هناك من عشق وهذا وقته ، فهل كان القلب حكيما كالعقل (3)

ولاقبال تعريفات عديدة للعشق وكلها تعني فعله وآثاره ، فالعشق عنده ، أنات بلا استجابة وهو الأداة التي بها يتم الادراك السريع ، وهو روح المعرفة والثقافة والاستاذ الذي يجب ان يتعلم منه ، وهو الكاشف للحكم المتخفية بأعماق النفوس ، يقول :

ـ سأقول لك حكمة لو تتأملها ، ان العشق أنات بلا أثر (بلا استجابة) (4)

معاني ذابت فيها أثواب الكلام (طرقه ، فلم يستطع الخروج) ، سيأخذها نظرك الباحث المثقب بنظرة عشق ، فالعشق فيها في نظر العقل الا ضرب من السحر والشعوذة .

فخذ لك من العشق درسا وافعل بعد ذلك ما تشاء ، اذ العشق هو لب الفهم والادراك السريع وهو روح المعرفة والثقافة .

صار لعقلي ظنون وهواجس من التفكير في وجودي وعدمي ، وقد أظهر العشق تلك الحكمة الكامنة بأعماقي (5) .

أما دنيا العشق فالناس فيها في غنى عن أمراض الانتماء الطبقي التي استشرت في المجتمع وأصبحت معيارا لتقدير الانسان ومعيارا لتعامل الناس معه ، فالانسان في دنيا العشق لا يسأل عن نسبه ولا عن كونه سيدا أو أميرا ، يكفي أن يعتبر المرء عاشقا أو أن يكون عارفا لاساليب العشق متعلما قوانين خدمة المعشوق ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ص 188
2 ـ رسالة المشرق ، ص 191
3 ـ رسالة المشرق ، ص 201 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 317 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 321 ـ 322 .

انه فيما العشق لاتعرف سيدا أو أميرا ، يكفي المرء العاشق أن يتعلم أساليب وقوانين الخدمة (1)

ولكن ليس في استطاعة كل انسان أن يكتسب في العشاق لأن العشق ملازم للهمم العالية فلا يقدر عليه وعلى عذابه كل الناس، ولا يبلغ مرتبته العلية وتجليات أسراره كل الناس، اذ هو الحياة "التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات" (2) يقول اقبال :

- ليس كل شخص قد تجلت له أسرار العشق ، وليس كل شخص بأهل لهذه المنزلة.
لا يفارق العشق الهمم العالية ، فالشاهين لا يأخذ الميت من الطيور (3)

واذا كان للمتصوفة مناجاة للفرد الصمد الذي اتخذوه دلالة قلوبهم اليتيمة ، فقد كان لاقبال في رسالة المشرق مناجاته لمعشوقه الأزلي ، ورجاء وبوح لسره بخفايا قلبه وخفايا قلوب أمثاله من العشاق المخلصين له وهو الذي وقع الكل صرعى عشقه ودلاله ، وان كانت لهم حاجة الى شيء

فان الحاجة التي تعمر أفئدتهم ولا تغيب عنها هي ظمأ هم وحنينهم اليه ، بل انها الحاجة الاولى والاخيرة لمن كان ولمن هو كائن ، وعلامة حاجة الناس اليه وطلبهم له بادية مثل ذلك السواد الذي يخلط لون السحر كأنه كي الشقائق ، يقول :

- كل ما في الوجود من مظاهر الفرح والبهجة شهداء عشقه ودلاله ، فهو الحاجة القائمة في جوهر من كان ومن هو كائن.

ألم تر أنه من حب الشمس المنيرة للفلك ، يوجد أثير للسجود على محيا السحر (4).

قال في احدى قصائده مناجيا معشوقه الأزلي ، راجيا منه أن يجعل العشق رأسمال له ، وأن يحول بعد ذلك بأنفاس هواه المحرقة تراب جبل سينا الى شعلة تنير الجبل كتلك التي آنسها موسى وذهب ليقبس منها نورا له ولأهله ، وأن ينفح الناس من رأسمانه ذاك ولو بعد موته ، ويجعل من ترابه هباءا يثير دروب الصحاري .

- اجعل من العشق رأسمال لي ، ومن أنفاسي الحادة حوّل ترابي سينا الى شعلة مستعرة .

وعندما أموت اصنع من ترابي هباءا متلألئا ، يحيا بالامي المتجددة ويثير دروب الصحراء .(5)

---

1 - رسالة المشرق ، ص 345
2 - ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج 3 ، ص 5.
3 - رسالة المشرق ، ص 377 ، 391.
4 - رسالة المشرق ، ص 195.
5 - رسالة المشرق ، ص 315.

وعن أمنية الكليم الكامنة في كل نفس حيّة يقظة القلب يقول راجيا من معشوقه كشف الحجب، سائلا المشاهدة وشاكيا من حجب عينه وحجب نفسه التي تمنعه من المشاهدة لأنه شد يمد الغيرة حتى من نظراته على ذلك المعشوق الأوحد الذي تسمح له برقعا جديدا حتى لاينافسه أحد ، يقول :

ـ تعال وارفع القناع عن الرأس بلا خوف ، اذ لايوجد في زاويتك صاحب رغبة وغرام آخر غلي .

أنا شديد الغيرة من نظرة عيني نفسها ، لهذا فقد نسجت لوجهك برقعا جديدا .

فخجلت بهذا الحب الذي لايطيق صبرا على الفراق ، وحتى تصير روحي مرتبطة بعشقك وألمك فقد صنعت روابط جديدة (1)

أما قسم محبته ووفائه فهو ليس التخمة من تطلّي جمال المعشوق وانما هو نظرة واحدة يظل بعدها متلهفا اليه ، ترفقها ابتاسمة مختلسة ودمعة تجرح الخد ، يقول :

ـ نظرة واحدة ، وابتسامة مختلسة ودمعة خفاقة ، فليس لكل ميثاق محبة قسم جديد سواها (2)

وقد عرف اقبال العشق بأنه أنات بلا استجابة اذ في الاستجابة ذهاب للشوق وقتل للحنين واطفاء للوعة الهجر ، يقول :

ألا تعلم الى الآن أن الشوق يموت بالوصال ؟ (3)

والحقيقة أن المعشوق الذي قصد اقبال ـ ككل المتصوفة ـ غير بعيد ، انه أقرب الينا من حبل الوريد ، وهو أقرب من عبد منيب لربه من الروح ، وهو على باب عينه ولكن الانسان هو الذي يزيغ ببصره فلايرى ، ان الذين يدركون الهدف قليلون ، فهم رغم قربه منهم ودنوّه ، فانه بالنسبة اليهم مثل العين ، يقول :

ـ ذلك الهدف الذي يقصده خيالي وخيالك ، هو على باب أعيننا ولكنه مثل العين لايمكن أن يرى (4) .

أنت يا من هو أقرب من روح ولا أبصره ، هجرك عندي أحلى من وصال الآخرين (5)

ولذلك يتوجه الى الرحمن سائلا اياه أن يرفع الحجب عن أعين محبيه اذ كل ما فيهم تناظر اليه ، يقول :

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 315 .
2 ـ رسالة الشرق ، ص 315 .
3 ـ رسالة الشرق ، ص 257 .
4 ـ رسالة الشرق ، ص 340 .
5 ـ رسالة الشرق ، ص 345 .

ـ قد خلقنا في الروض أعيننا ناظرات مثل النرجس ، فارفع الحجب عنا اذ كنا أعين ناظرات (1) .

ولأجل ذلك المعشوق الأزلي يدعو اقبال الى العشق لأن الحياة من دونه مستحيل ، فهو الوحيد الذي يملأ شبيه في الوجود ، وهو الجدير بأن يبذل الانسان في سبيله عهد الشباب ، لأنه خلق من أجله ، يقول :

ـ منذ أن علمت معشق الحياة ، تأججت في كياني نار .

فأرسلت آهة تحرق الصدر ، وقد مت للعشق عهد الشباب .

خلق الانسان لأجل لحن العشق ، فعسى العشق سر الانسان وهو فعلا سره (2)

وقال في المدعوة الى العشق والاستغناء بالحق عمن سواه :

ـ صل قلبك (بالرحمن) بالحق ولا تسجد أمام السلاطين ، لأن السجود على عتبة هذا المعبد المتهدم مستحيل .

فتجاوز العقل ودعه وتعلق بموج بحار العشق ، اذ لا يوجد في هذا النهر الفقير جواهر قط (3).

أما الفلسفة التي التف حولها الناس وطلبوا منها حلولا فان اقبال يئس من سحرها بعد ما غاص فيها ، فطلب العلاج من العشق ودعا الى السجود بين يديه لأن الفلسفة والعقل لا يتيسران الطريق ، قال :

ـ انما الحكمة والفلسفة أمر ليس له نهاية أو حدود ، وليس في مدارسها غير ضريبة العشق والمحبة .

فتعالوا نرجو من العشق دواءه ، نسجد بين يديه ونظهر حاجتنا .

حولت كيمياؤه (أي العقل) رمال الصحراء الى ذهب خالص ، الا أنه لم يثر في قلوبنا اكسير المحبة (4) .

ومن آثار هذا الحب الالهي والهيام بذاته أن يكون المحب "عبدا ذاهبا عن نفسه متصلا بذكر ربه ، قائما بأداء حقوقه ، ناظرا اليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هيبته ، وصفى شربه من كأس برودّ ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فان تكلم فبالله وان نطق فمن الله ، وان تحرك فبأمر الله ، وان سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله" (5).

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 340 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 186 و 198 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 337 ـ 340 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 358 ـ 359 .
5 ـ زكي مبارك ، التصوف الاسلامي ، ج 1 ، ص 244 .

ولم ينفك اقبال الحديث عن أثر العشق في حياة صاحبه والانوار التي يهل بها عليه ، فهو الذي يجود على الرياض بنسائم الربيع وورود ، وشقائقه ، وهو الذي يهبها البراعم لتشرقة كالثريا وهو الذي يمنح الشقائق لونها القاني وهو الذي يمنح الأرواح الاضطراب والقلق ، انه يتنفس ويحيا في كل مكان ، فلو شق بطن الأرض لوجد ملصخا بدماء العشاق ، يقول :

ـ العشق يمنح الجنان تسائم الربيع ، والعشق يمنح الرياض براعم كالثريا ان شعاعه يمنح بحر التسلزم ، والعشق يهدي للسكة العين الحادة النظر الصافية. العشق هو من يمنح اللون القاني لورق الشقائق ، والعشق هو من يمنح البلاء لروحنا . فلو شق قلب هذه الأرض ، فستر ى في باطنها دماء العشق مسفوحة (1)

وهو الكائن المتخفي في كثير من الاشياء التي يطلبها الانسان غير مدرك لتخفيه تحتها ، يقول :

ـ لا تسأل عن العشق وعن طلسم العشق ، انه ظاهر تحت بعض الاشكال التي تطلبها(والعشق هو الذي يعطي الاشياء والكائنات شكلها ويحدد قدر الانسان ، وهو المحرك لجميع الكائنات ، فاحتراق الرومي وحمّاه وحيرة الفارابي هي من نتاج العشق، يقول :

ـ فالعشق هو الذي يهيج الكيفيات ويحركها ، من احتراق وحمى الرومي الى حيرة الفارابي (2) .

والعشق هو المعلم الذي ينصح اقبال باللجوء اليه وأخذ الدروس عنه وهو المرشد والمخلّص للانسان من كل القيود ، يقول :

ـ ما الدنيا في نظر الانسان الا ضرب من السحر والشعوذة ، فخذ لك من العشق درسا وأفعل بعد ذلك ما تشاء (4) .

لا تسأل العقل صاحب الف حيلة عن علامة للطريق ، وتعال الى العشق الذي بلغ الكمال بفن واحد (5) .

ـ لعشقي الجرئ الشجاع شعلة في الصدر ، ولكن حكمتي لم ينبعث منها أي شرر(6) أصبح العشق مجنونا غويا ، يكسر كل القيود ، وغدا الانسان من فتنته سمكا في الشبكة (7)

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 196 .
2 ـ رسالة الشرق ، ص 216 .
3 ـ رسالة الشرق ، ص 303 .
4 ـ رسالة الشرق ، ص 321 .
5 ـ رسالة الشرق ، ص 333 .
6 ـ رسالة الشرق ، ص 352
7 ـ رسالة الشرق ، ص 360 .

والعشق هو الباقي والعقل وسحره الى زوال ،وهو الطلسم على أسرار القلوب والعقل في غفلة عنه ، وهو الجرئ الشجاع الذي لايهاب ، يقول :

يتحدث العشق برقا ،خاف منه العقل فاختفى وهدأ ، سحر العقل ، ولكن العشق كان أدرى بالقلوب (1).

وفوق هذا وذاك فان أستاذ اقبال ومرشده يجعل العشق شرطا من شروط الحياة بانعدامه يتعدم الوجود ،قال في ذلك : « لو لم يكن العشق لما كان الوجود ». (2).

أما قلب العاشق فانه يتحوّل الى عالم رحب حتى يسع ذلك المعشوق ،انه يسع الأرض والسماء ، والانسان الذي أصله قطرة من ماء مهين يتحول من العشق الى بحر بلا ساحل ،يقول :

— هذه القبة اللازوردية وهذه الأرض والسماء (الهاوية والارتفاع) ، هي مع امتداد هما وعرضهما قد حواها قلب عاشق .

فليس سوى العشق وحكاياته الألف ... (3).

ان تتوغل في روحي ، فانك لن تجد آمالا أخرى لتطلبها ،فلتقر قطرة تداك هذه بحر عريضا بلا حدود (4) .

فحتى التراب الذي تلأه قدما العاشق المخمور من نشوة هواه يكتسب من تلك اللمسات صفة المرايا وصفة الشرر ،وهذه ليست آخر عطايا العاشق الذي يلعب بالهبات كما يلعب المملوك بالدراهم ،يقول :

— قد بمرزنا من خلوة معبد العشق ، وأعطينا التراب الذي تلأه أقدامنا صفة المرايا .

فتأمل همتنا وانظر كيف نلعب بالعطايا ،قد أضعنا ذينك العالمين اللذين حزناهما سرا .

كما شعلة فانتشرنا وتطايرنا كالشرر ، قد تحولنا الى أصحاب عشق وشوق وحنين .

لقد أدمنت عذوبة كلام العشق كبدى ، وحولت غبار الطريق الى حفنة شرر (5) .

والعشق هو الذي يعلّم من جرّب لظاه كيف يعفي الناس من الملامة لأنه ان فعل

---

1 — رسالة العشق ،ص 357 .
2 — مجلة فكر وفن ، عدد 32 ،ص 16 .
3 — رسالة العشق ،ص 337 — 338
4 — رسالة العشق ،ص 340 .
5 — رسالة العشق ،ص 360 — 240

كـــان أولـى بـــاللـــوم ، يقـول :

ـ فـــأنـا لا أمـلـك حكـايـة سـوى (حكايـة) العشـق ، كمـا لا أحمـل الصبـر على الملامة(1)

الّا أن اقبـال لايـزعـم لنفـســه ولبنـي الانســان التبرّ مـن حفنـة التـراب بالعشـق ، فالانســان عنـد ، يبقـى آدمـيا بـروحـه النـورانيـة وبجسـده ، الترابـي ، ويبقـى غيـر مستسلـم لهـذا وحـده ، فيصيـر ملاكـا أو لهذاك وحـده ، فيصيـر شيطـان انس ، انـه يتقلـب بيـن صعـــودو انحـدار ، فهـو حينـا تسمـو بـه الـروح حتى الفلـك فينـافس النـورانيـيـن ، وحينـــا تهبـــط بـه النفس حتى الأرض ، وهـو بتسـاميـه وتدنيّـه يشبـه جـاء السـلاطيـن وعظمتهـم التـي ترتفـع حينـا ويـــأفـل نجمهـا حينـا آخـر ، ولكنـه مـع ذلـك يظـل طيعـا للعشـــق مناجيـا لمعشـوقـه الذي أكثـر مـا تتـوطـد بـه صلاتـه وصـلات المحبيـن في الصـلاة يقـــول :

ـ مـائة مسـرّة تتسامـى حتى الفلك ، ومائـة مـرّة تتهـاوى حتى الأرض ، هـل جـاء السـلاطيـن والابـاطـرة وعظمـة قـيصـور وجمشيـــد .

كـن معـي ومعـه (في الصلاة) أهو هجر أم وصـال (في الصلاة) ، ماذا تقـول أيهـا العقـل وبمـاذا تـأمـر أيهـا العشـــق (2) .

وأمـا أعظـم آثـار هـذه المحبـة فانهـا "سكـر لايصحـو صاحبـه الّا بمشاهـدة محبوبـه"(3) فهـي سكـر يـأخـذ المحبّ عـن كـل شيـئ ويـذهـب في عروقـه فيبعـد بصـره عـن كـل شيء الّا عـن معشـوقـه ، فيصـل المحـبّ الـى أسمـى درجـات العشـق وهـي جنـون الفعـال حتى لايقـف غيـر أهـل الصنعـة علـى الدرجـة التـي بلغهـا بكفاحـه . درجـة السكـر عـن كـل شيـئ والصحـو علـى المحبـوب وحـده ، ودرجـة كمـال المحبـة أيـن تختفـي كـل رقابـــة ، يقـــول :

ـ انـني عاقـل الاقـوال مجنـون الفعـال ، وخمـر شـوقـك أيقظتنـي وأسكرتنـي .

عنـد مـا تبلـغ المحبـّة كمـا لهـــــا ، تختفـــي الرقـابـة مـن الميـعـدان (4)

ويكفـي أن نعـرف أن مـن آثـار غيـاب حـبّ الازلـي الـذي لانهـايـة لـه مـوت قلـوب العاشقيـن وان كانـت في جنة الخلد وذلك بغـريـب ، فـان للّـه "عبـاد الوجـوه في الجنـة عـن رؤيتـه لاستغنـائـهـم مـن الجنـة كمـا يستغيـث أهـل النـار من النـار"(5) ، يقـول اقبـــال :

ـ انمـا أطلب نهايـة ذلك الـذي لا نهايـة لـــه ، بعيـن لا تبصـر وقلـب دائـم الأمـــل .

---

1 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 292 .

2ـ رسـالـة المشـرق ، ص 338 .

3 ـ زكي مبارك ، التصوف الاسلامي ، ج 1 ، ص 244 .

4 ـ رسـالـة المشرق ، ص 322 .

5 ـ القشيـري ، الرسـالـة القشيرية ، ص 148 .

تموت قلوب العاشقين في جنة الخلد ، هناك حيث لا وجود للحزن ولا غمّ ولا مواس (1) .

أخلى شيخ الحرم قلبه من حكمة العشق ، فحصرنا وضعناه في هذه الدنيا بقدر تقصيرنا (2) .

ويقدر المعشوق تكون الآلام التي يستعذب العاشق تحطها في سبيله ، فاذا كان هو الأعلى نفسه فان كل ما يلقاه في طريقه من عذاب وجرح وآلام بعد تتحوّل الى وسائل للوصول اليه ، قال مشبها شوك الورد الذي يعلق بأثواب عشاق الورد بالعاشق في تحول جسمه :

ـ في ثوب عاشق الورد ابر من الشوك ، أشواك هي ولكنها ، من تدامى الحبيب تحلت من العشق (3) .

ومن علامات المعاناة في سبيله أن يحرص العاشق على أحزانه وآلامه ويتخذها رأسمال له ، يقول :

ـ أنت لا تستطيع هجوما أو اغارة ، اذ رأسمالك الاحزان والألم (4) .

وعند المتصوفة ان الحزن حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة وبه يقطع من الطريق الى المولى عزّ وجلّ في شهر سالا يقطعه من فقد حزنه في سنين (5)

ومن علاماته ألا يطلب شيئا سوى الذي يطلبه العشاق ـ وقد مرتبنا نماذجهم من فراش وشمع الى فرهاد وشيرين ... ، ومن علاماته أن يرى وقد تمكن العشق منه كالريشة أو البرعمة في يد ريح الصبا ، يدعو على نفسه بالموت ليلقى المعشوق ويرى الدنيا بخير طالما العشق بخير ، يقول :

ـ نحن في العشق كبرعمة ترتعد من ريح الصبا ، أما في الحياة اليومية فمثل الصخور (6)

أيمن تلك النظرة الخاطفة التي اختطفت قلبي لأول مرة ، لتعمر طويلا أما أنا فانني أتمنى ذلك السهم (النظرة) الذي يودي بحياتي (7)

مهما يكن فنون العقل ومعارفه الثابتة خرافة وسحرا ، فلا تفتم ولا ينقبض قلبك لأن العشق بخير (8) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 298 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 308
3 ـ رسالة المشرق ، ص 291 .
4 ـ رسالة المشرق ص 322 .
5 ـ القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص 65 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 348 .
7 ـ رسالة المشرق ، ص 327 .
8 ـ رسالة المشرق ، ص 329 .

أما أسمى درجات العشق عند اقبال وعند المتصوفة فهي الجنون ، جنون عاقل لا جنون ذهاب العقل ، جنون فارّ بمعشقه لائذ به ، وجنون عاشق غاب عن عقله كل شيء وسكنه شيء واحد هو الحق وهو الأعلى بأنوار المعرفة وأسرار اليقين ، وقد لجأ بعض الصوفية الى التخفي عن العوام بالجنون حتى لا يفسدوا عليهم نشوتهم وسكرهم من خمر المعاني والاسرار ، هذا ذلك ما نجده عند جلال الدين الرومي عندما صوّر صاحب العقل اليقظ والحكم النيّرة وقد احتجب وراء الجنون وجعل من نفسه خربة تخفي كنز عقله :

ـ لقد دخل هذا المنزل لستر العوام ، وهو من عار العقلاء قد صار مجنونا انه من عار العقل الغبي الذي يقدس البدن ، ذهب متعمدا وأصبح مجنونا (1).

واذا سئل ملك المشرق العاقل عن سرّ هذا التخفّي فانه يجيب :

ـ عقلي كنز وأنا الخربة التي تخفيه ، فلو أنني أظهرت الكنز لكنت مجنونا .

وما الجنون الا من لم يغد مجنونا ، انه ذلك الذي رأى العشق ولم يذهب الى داره (2)

وذلك هو الجنون الذي قصده اقبال ، حيث السموّ الروحي وحيث الصفاء وحيث الحكمة يقول :

ـ ليس جبريل بصحراء جنوني غير صيد عاجز (3).

بل انه من الحكمة ومن المنح الالهية أن يكتمل ذلك الجنون ويبلغ ذروته ، قال اقبال :

ـ (حتى) لا تطفه حديث جنون ، فالحكمة في اكتمال هذا الجنون (4).

وكان الجنون آخر ما يختم به الشاعر منظومته شقائق الطور ، قال :

ـ ذهب اقبال بعيدا عن العقل الحاذق ذي المواهب ، وصار قلبه الطيب من العشق دمنا .

فماذا تطلب من اقبال الذي يطوي الافلاك؟ (السماوات) ، فقد جنّ حكيمنا الفيلسوف (5).

وأما أحاديث العشق فهي أسرار كبيرة كلما طلب الشاعر أو حاول حديثا عنها وكلّما همّ بفك رموزها وأسرارها زاد الكلام تلك الاسرار خفاءً ، يقول :

ـ لقد أدمت عذوبة كلام العشق كبدي ، وحوّلت غبار الطريق الى حفنة شرر .

الا أني عند ما أريد من شفتي الحديث عن العشق ، فان الكلام يجعل هذا السرّ أشدّ احتجابا وخفاء (6)

---

1 ـ جلال الدين الرومي ، المثنوي المعنوي ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ط1 ، 1967 ، ج 2 ، ص 151 .
2 ـ المرجع نفسه ، ج 2 ، ص 245.
3 ـ رسالة المشرق ، ص 336.
4 ـ رسالة المشرق ، ص 187.
5 ـ رسالة المشرق ، ص 249.
6 ـ رسالة المشرق ، ص 249.

ثم ان الفناء لاستطيع أن تبوح به ولاتقوى على تحمل ناره ، الا أن للعشاق لغة أخرى يفهمون بها حديث القلب الممزق وهو حديث العيون ، ان عين اليقظ القلب تعرف جيدا لمن تبث حديثها انها لاتهمس به الا للقلب الدامي الجريح ، الممزق ، كذلك القلب الذي تسترجم عنه ، يقول :

ـ ان تكن شفتاك صامتتين الا أن عينيك ، ليس لهما كلام مع قلوبنا ان هي لم تكن دامية جريحة ممزقة .(1)

واذا فاقت معاني الكلام وأنواعه عن معاني العشق ، فان أصحاب البصائر الحية وحدهم يقدرون على فهمها ، وانه من كمال الحديث ألا يقول العارف شيئا ، لأن رموز الخلوات ونظراتها وزفراتها يفهمها أصحاب الخلوات ، يقول :

ـ معاني ضاقت عنها أنواب الكلام ، يا سيأخذها نظرك الباحث المنقب بنظرة عشق .

لا تتحدث ولاتقل كل كلام ، فانه كمال الحديث (الصمت) ، فما في الخلوات من حديث غير الرمز والاشارة (2) .

وان كان للعشق حديث فانه لايحضر أصحابه الا بحضور الندامى ، يقول :

ـ للعشق كلام لايحضره الا في صحبة ندامى الحان ، فالدير والحرم ليسا محرمين لأسراره (3).

واذا كان للمتصوفة غاياتهم فان لاقبال غايته أيضا من وراء تلك التضحيات الجسام التي يقدمها وأماله من العشاق ، وقد اتخذت تلك الغاية أشكالا ، فمن أهدافه بلوغ أمنية موسى عليه السلام عندما ناجى ربه قائلا : " رب أرني أنظر اليك ". (4)

وهي التجلي الذي تعلقت به نفس اقبال وما يعقبه من مشاهدة .

ان لم يكن تجلي الانبياء فانه تجلّي المتصوفة الذي طلبوه وأشاروا اليه في كثير من أعمالهم .

يرى ابن قيم الجوزية أن المراد بالمشاهدة انما هو قوة اليقين ومزيد العلم وارتفاع الحجب المانعة من ذلك . لا معاينة الحقيقة نفسها ، لانه لايصح لأحد في الدنيا مقام المشاهدة أبدا (5) .

وقد أعلن اقبال عن عجزه وعجز مرشده عن تحمّل نور سيناء ، ولكنه يظل مع ذلك في طلب التجلّي لأنه هو الذي يمنح لجسمه صورته فلما يعطي الورود

---

1 ـ رسالة الصوفية ، ص 351 .
2 ـ رسالة الصوفية ، ص 341 ـ 350 .
3 ـ رسالة الصوفية ، ص 347 .
4 ـ سورة الأعراف ، الآية 143 .
5 ـ ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج 3 ، ص 481 و 167 .

والشقائق لونها القاني الحامل لعلامات عذابها وصبرها ، يقول :

ـ انها روحي التي اختارت صورة لجسدي ، انه حبّ التجلّي هو الذي أعطى لهذه الورد ة وجها آخر (1) .

كفانا نور الصباح قد غطيناه بأستار ، فلا أنت تملك الجرأة على تأمل تجلّي النور في سينا ، ولا أنا (2) .

ومن التجلّي يرتقي الى الشهادة ، استشهاد في التجلّي أو في العذاب في البحث عن اليقين ، فقد عوّدنا في الديوان على الارتقاء من الحسن الى الأحسن وكانت قصيدته " الحور والشاعر " خير مثال على ذلك التسامي ، يقول :

ـ تخدعين قلب سالك مريد بكلام لاذع ، فربمّا لا تبلغ لذته هذه وخزة الشوك .

ماذا اعمل وطبيعتي لا ترضى القعود في المنازل ، وقلبي قلق خفاق مثل الصبا حول شقائق الروض .

اني (عندما) كلّما استعر نظري وسلبت عيني صورة مليحة ، خفق قلبي باحثا عن صورة أحسن .

طلبت في الشرر نجمة (بحثت) وبحثت في النجم عن الشمس ، اني ليقتلني القعود عن الحركة (التوقف) فليس لي هدف أو منزل (3) .

ولا يبالي العاشق السالك اذا كانت الشهادة آخر مراحل طريقه بعد الفوز بالتجلي أو كانت في أول الطريق أو منتصفا ، وذلك ما طالعنا به اقبال في الديوان .

فمن صورها الشهادة في الطلب الدائم ، قال :

ـ ما أجمل أن نجعل الحياة في احتراق واضطراب ، وأن نذيب قلب الجبل والفلاة والصحراء بنفس واحد .

وما أجمل أن نفتح في القفص بابا الى فناء البستان وهوائه ، وأن نطوي طريقا في السما ونصير أصدقاء النجوم .

وما أجمل أن نلقي نظرة على الحروف الخافية والتوسلات الجلية ، بحيث نجعل التناغم والانسجام في الحرم أكثر تخفيا وتستترا .

وما أجمل ألا نرى سوى شيئا واحدا ، وهو هجوم حقل من الورد على الانظار ، وأن نرى الشوك المؤلم من حين الى حين يتميز عن الورد .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 245 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 339 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 297 .

ـ أنا كل نهار غير مكتفية وكل بقية من أمسي ، أدع الظمأ من أجل اليقين لأنني شهيد البحث والتفتيش الدائم عن الحقائق (1).

فالذي لا تكون روحه شهيدة البحث والطلب لا يعرف من الحياة غير الوجه الكالح ولا يعرف من البستان غير الضر والأذى لأنه لا يرى الشوك ولا تظمأ قد ماه غير الشوك، لأن الربيع عند واهب نفسه لمعشوقه الأزلي ليس فقط الألوان والروائح وإنما هو مزيج من الورود وشذاها وأشواكها لأن الشوك أيضا من ثمار الربيع ونتائجه ، ومن لا يحتمل أذى الشوك فما أبعد الورد عنه ، يقول :

ـ ان سرت في بستاني فلمست الضر والأذى ، ان لم تكن روحك شهيدة العشق والطلب .

فأنا أبدي تلك الأشواك الكائنة في أغصان الزهر ، فربيعي (وان ربيعي) ليس ذلك المزيج العجيب من الشوك والأريج (2) .

ومنها الشهادة في الاحتراق بنار المعشوق ودلاله ، حيث يقول :

أنا لا أعطي مصراعا من شعري نظيري منا لملك جمشيد ، فليس من قبيلتنا (قافلتنا) ذلك الشخص الذي لم يصر شهيدا .

توقف لحظة والق نظرة عند رأس قبور الشهداء ، فلصمتنا كلمة للقول (3).

كل ما في الوجود شهداء عشقه ودلاله ، فهو الحاجة القائمة في جوهر من كان ومن هو كائن (4)

ومنها الشهادة من الشوق واللهفة الى المعشوق والحنين اليه ، يقول :

ـ متناثر أنا في هذا الروض مثل الأريج ، لست أدري ملذا أطلب ولا عما أفتش . وهل تتحقق الرغائب أم لا ؟ ، فأنا شهيد الحرقة واللهفة على تلك الرغائب (5)

أما آخر درجات الشهادة عند شاعرنا فهي الشهادة في النظر الى المعشوق يقول :

ـ أنا هائم على وجهي شريد هل نسيم الصباح ، وقلبي ممزق الى مائة قطعة مثل الوردة .

نظراتي لا ترى حتى الظاهر ، فهي تصبو الى الشهادة من لذة النظر الى المعشوق (6)

أن يتفانى الكل في حب الله ويتخذوا منه هدفا أسمى وغاية تلك فأمر تهفو اليه النفوس الباقية على فطرتها السليمة ، ولكن ذلك الهدف الذي لا نهاية له ولا هدف بعده ، يحتاج الى اخلاص في الطلب وسمو في الوسائل يرقى الى تسامية ،

---

1 ـ رسالة العشق ، ص 257 .
2 ـ رسالة العشق ، ص 204 .
3 ـ رسالة العشق ، ص 328 و 333 .
4 ـ رسالة العشق ، ص 135 .
5 ـ رسالة العشق ، ص 197 .
6 ـ رسالة العشق ، ص 242 .

فالسالك اليه ليس من هواه الغاية تبرر الوسيلة ، انه يطلب الوسائل العالية مادام يطلب الأعلى نفسه ،ولكن اقبال جمع في رسائله بين وسائل الاسلام ووشائجه وروابطه وبين وسائل الديانات الأخرى وكأننا به وصل الى وحدة أولئك المذين لايفرقون بين الاديان ،أمثال ابن عربي الذي رأى ان قلب العارف هيكل لجميع المعتقدات والعبادات،اذ يقول :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ، فمرعى لغزلان ودير لرهبان .

وبيت لأوثان وكعبة طائف ، وألواح توراة ومصحف قرآن (1)

يرى اقبال أن حبه لله وحاجته اليه وشوقه وحنينه اليه بلغ درجة فاقت الخيال وتعدت العبادات المفروضة التي لم تعد كافية لاحتواء ذلك البحر من العشق ،لذلك نراه يجمع بين ركعات الصلاة في المسجد وسجدات على طريق المعبد الطويل ،يقول :

ـ اني أكتسب من سجدات جبيني وودا على طريق المعبد الطويل ،لأن عشقي واحتياجي وشوقي لايمكن أن يحتوى في ركعات صلاتي (2) .

كما يرى أن العاشق الذي بلغ درجة الكمال في وله العشق وحرقته لايفرق بين الكعبة والمعبد ، فيقول :

ـ لايرى العاشق الولهان فرقا بين الكعبة والمعبد ، فهذه جلوة الأرواح وتلك وحدتها وخلوتها (3) .

لذلك نراه يجمع بين حبات المسبحة يمد حرجها على خيط زنار البرهمان الذي يطوقه ،يقول :

ـ تعلم سحب حبات المسبحة على خيط الزنار ، وان كانت عينك ترى أثنين فتعلم ألا ترى (4).

هذه شذرات من فكر اقبال الصوفي العطي جناه بها بعد ما راعه ذلك السبات الذي سيطر على الأمة الاسلامية والفكر الاسلامي تحت أستار السلبية الصوفية .

فاقبال يدعو الى الصوفية الايجابية العملية التي بواسطتها بحث للمسلمين عن خلاص لهم من أدوائهم ومشاكلهم حتى يعودوا الى الله والى المنهاج .

---

1 ـ عبد القادر محمود ، الفلسفة الصوفية في الاسلام ،دار الفكر العربي ،ص 519 .
2 ـ رسالة الشرق ،ص 320 .
3 ـ رسالة المشرق ،ص 335 .
4 ـ رسالة المشرق ،ص 327 .

فهو وان استعان برموز المتصوفة فانه تابعها في أدق دقائقها واستخرج من حياتها عبرا ودروسا للمسلمين ، نظر الى الطيور الجارحة فاتخذ منها مثلا للجرأة والشجاعة وكرامة النفس وعزتها مثل الشاهين ، ونظر الى اليراعة التي قد لا يشغل أمرها بال عالم أو شاعر فاتخذ منها مثلا للاعتماد على النفس ، ونظر الى الفراشة ليس كما ينظر الناس الى جمالها وانما نظر الى اقبالها على النار التي فيها خلاصها ، وكم من الفراشات احترقت ولم تحرك في الناس ساكنا ، نظر الى النرجس الذي فتن الناس بجماله فأوجد لهم من قصته عبرة ومعنى ، انه يتجه بعيونه المفتحة الى الله ، وحري بالانسان أن يقتدي به في اتجاهه .

تأمل الشقائق وكيد ها المحترق فوجد قصتها أشبه بقصة الانسان الطائش الذي يصارع حجبا كثيرة ، حجب النفس وحجب الاهواء والشهوات وحجب الواقع المر الى أن يصل الى هدفه .

وبذلك كان اقبال في ديوانه يدعوه الى الزهد والفقر والى العشق والخمر ملحا ومداويا ، لا راهبا معتكفا في ركنه بعيدا عن هموم الناس واهتماماتهم لم تلهه الافكار التي دعا اليها ولم تثنه عن الالتفات لواقع المسلمين والتفكير في علاجه الذي ينطلق أولا من النفوس بعودتها الى صفائها القديم والى النهج الذي سار عليه السلف ، لأن التغيير انما يبدأ بالاعماق وانما يتم بالعودة الى الله .

وعموما فقد امتاز اقبال في ديوانه بالتصور الشامل المتكامل الواقعي وهي احدى السمات البارزة والضرورية للتصور الاسلامي .

ففي الديوان نجد الله ، نجد الكون ، نجد الانسان ، ونجد كل هؤلاء في تفاعلها الله في عظمته وأزليته ، وخلوده وعطفه ورحمته ورعايته الشاملة ، والانسان في علاقته بالكون واستفادته منه وتعلمه من دروسه الصامتة ، من عبادته ، والكون في تسبيحه للرحمن وطاعته لله .

ولمن يستسيغ مسلم أن يصدر في أدبه الا عن تصوره الخاص وثقافته وعقيدته ولما كان القرآن أول مصدر اسلامي خالط معانيه وأفكاره وصوره ، فكر اقبال ، فقد كان للقرآن وجوده في الديوان فلما كان له أثر في حياة الشاعر منذ طفولته . فقد تعلم من القرآن ومن قراءاته الكثيرة له كيف ينظر

الى ما حوله من حقائق ، وكيف يعالج ما حوله من مواقف ، وكيف يصحح ما في واقعه من أخطاء .

وانا نجد في الديوان الى جانب الآيات المقتبسة فيما خلقية استوحاها الشاعر من القرآن الكريم ، وهي قيم لم يأت بها تكلفا أو تقليدا جافا وانما عاشها في حياته كما يعيشها كل مسلم ، فجاءت في شعره مجسدة لسلامة شعوره وسلامة فنه ، في وقت أولع فيه أدباء المسلمين بالتملص من قيمهم وتراثهم وتاريخهم ، كما نجد فيه تأثرا بكثير من معاني القرآن وقصصه ، وما ذلك بغريب عمن تربى على مائدة القرآن وبدأ يقرأ ، في طفولته ويعيش تفاصيله ، يقرأه في تلك المرحلة من عمره كما أنزل عليه ، وربما أغفلت في تلك الالتفاتة كثيرا من المواقف التي أخذ فيها الشاعر من معين القرآن في الديوان .

وتأتي السنة بعد القرآن في تكثيفها من فكر الشاعر وتصوره وحياته اذ نلحظه يعلن حبه للمصطفى وحنينه الى ربوعه صلى الله عليه وسلم ، كما نلاحظ تأثره بالحديث وان كان الاقتباس منه بنصه نادرا ، وانما غلب عليه تأثره بمعاني الاحاديث وذلك أمر طبيعي ، اذ لا يستطيع المسلم أن يغفله وهو المصدر الثاني بعد القرآن الكريم .

أما التاريخ الاسلامي فان أول صفحة منه في الديوان هي حياة الصحابة ، ولكنه لم يرد هؤلاء بتواريخهم وأعوامهم وأحداثهم وانما اقتطف منهم بعض مواقفهم وقدمها عبرا ودروسا لعصره ، لأن غايته لم تكن التسلية أو اظهار قدراته في الحفظ أو ابراز سعة اطلاعه ولكنها كانت التعليم والتربية ويكفي اقبال أن اختار من كل واحد من رجال السلف أحسن صفة عرف بها في حياته فدعا اليها مثل حب الصديق وعدل الفاروق وفقر حيدر (علي) وحرقة وأشواق سلمان وجهاد وكفاح خالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين ، ومحمود الغزنوي وايمان أورنكزيب ...

وأما تأثير اقبال بالأدب العربي فقليل ، وربما لم يكن تأثيرا مباشرا ، انما كان عن صريق الآثار الفارسية نفسها التي كثيرا ما أخذت من التراث العربي[1] ولعل أروع ما يجسد تصور اقبال الاسلامي هو وقفته في الديوان موقف

---

1 ـ ونكتفي من هذا لايخفى اعجابه بالشعر العربي الاسلامي ، فقد دعا مرة الى ان يتخذ الشعر العربي الاسلامي نموذجا وقدوة (شمارة اقبالیات ، 87 ، ص 9 14 ، تأثير ومنام شعر وأدب ، ازد يدكا ، علامة اقبال ، دكتور محمد ريساس .)

الأصيب لأمة كنت عللها وظبها نوم مرضي ثقيل . وتلك أسس درجات الواقعية الاسلامية، وكما أحيا في أمته وعصره المواث بالقرآن والحديث وكما ضح بالتاريخ الاسلامي ، فقد أحيا وصحح ما حوله بالفكر الصوفي العملي السوي ، اذ لايعني التصوف عنده الا العمل والنهوض وشحذ الهمم والابداع، وان دلّت تلك النفحات التي استقاها اقبال من القرآن والحديث والتاريخ الاسلامي والفكر الصوفي على تأثر الشاعر وانسانية منطلقه وواقعيته ، فانها تدل أيضا على صلته العريقة بتراث أمته ليكون لـ "تميّزه بانتمائه اليهما ،اذ التراث من مقومات حياة الأمم والشعوب ولا وجود لأمة أو شعب بلا تراث .

وبذلك كان الشاعر بديوانه ـ وبأعمال أخرى له ـ واصلا لحلقات تاريخ أمته .

والأجمل من هذا انه عاش الى جانب ذلك واقعه وحاول أن يربطه بماضيه المشرق فحقق احدى وظائف الأدب المستمرة في "ربط الماضي السحيق بالمستقبل البعيد" (1).

وفوق ذلك الربط فقد عالج حاضره بتجارب ماضيه ،وصحح أخطاء حاضره وانحرافاته باستقامة ماضيه وفي ذلك دعوة الى مستقبل أنضج وأقوم .

وانطلاقا من هذه النتائج يمكن اعتبار اقبال أحد طلائع الأدب الاسلامي كما يمكن اعتبار ديوانه رسالة المشرق ـ وكل دواوينه ـ احدى بواكير الأدب الاسلامي الحديث الواضحة المعالم والتصوّر آنذاك.

---

1 ـ محمد زكي العشماوي ، الادب وقيم الحياة المعاصرة ، دار النهضة العربية، بيروت ، 1980 ، ص 95 .

الفصل الخامس
رسالة المشرق بين الثقافة الفارسية و الثقافة الغربية

أولا : رسالة المشرق و الثقافة الفارسية .

ا- رسالة المشرق و التاريخ والقصص الفارسيين .
ب- رسالة المشرق والشعر الفارسي .

ثانيا : رسالة المشرق و الثقافة الغربية .

ا- بين إقبال وغوته .
ب- إقبال و الغرب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : رسالة الشرق والثقافة الفارسية .

أ- رسالة الشرق والقصص والتاريخ الفارسيين :

ان عملا كتب باللغة الفارسية ، وان عملا كتبه شاعر تغذى منذ الطفولة باللغة الفارسية والثقافة الفارسية ،وأعد رسالته للدكتوراه في الفكر الفارسي ، لمن يخلو من أثر عصر الثقافة الفارسية ، وسيكون من الصعب تتبع مظاهرها جميعا . لذلك وجدتني أقتصر على حلقة اتيان بالتاريخ والقصص الفارسيين وتأثره بالشعر الفارسي . فقد غاص الشاعر في أعماق الثقافة الفارسية بتاريخها وأبطالها وأحداثها واتخذ من بعضها رموزا خالدة واستقى من بعضها الآخر دروسا وعبرا .

ان للثقافة الفارسية في بلاد القارة الهندو باكستانية قدما راسخة وعمرا طويلا هو بعمر اللغة الفارسية فيها وبعمر فتوحات محمود الغزنوي الذي كان والوفد المرافق له من العلماء والأدباء والشعراء والجند من أوائل حملة الثقافة الفارسية واللغة الفارسية الى شبه القارة ،وقد ارتبطت هذه الثقافة الى حد كبير بالدين الاسلامي الذي كانت فتوحاته عاملا من عوامل حملها الى تلك البلاد ، فصار من المحتوم على مسلمي تلك الديار الاخذ منها بحظ ، لاسيما في الفترات التي أصبحت فيها اللغة الفارسية لغة البلاد الرسمية ، بل أن الهنادكة الذين رغبوا في الاحتفاظ بالوظائف الحكومية أقبلوا على الفارسية يتعلمونها ويتفوقون فيها .

وقد ظلت للثقافة الفارسية مكانتها في نفوس أبناء الهند وبخاصة المسلمين حتى بعد تحول بلادها الى لغة ثانية بعد اللغة الأردية ، وحتى بعد الاحتلال الانجليزي وما كان له من هجوم على كل ما يمت الى الاسلام بصلة .

وكان اتيان من الذين أكدوا حياة الثقافة الفارسية واللغة الفارسية ، فكان شعره الفارسي أكثر من شعره الأردي وقد أعترف أكثر من مرة وصرح بأن اللغة الفارسية أطوع للتعبير عما يجول بفكره وخاطره ،وقد اتخذ من الميثاق فيزيقا في بلاد فارس موضوعا لرسالته للدكتوراه . "ماوراء الطبيعة في فارس". وفيه أبدى اطلاعه الواسع على فكر فارس قبل الاسلام وبعده ، وعلى التاريخ الفارسي قبل الاسلام وبعده .

وانـنا نجـد في رسـالـة المشـرق الثقـافـة الفـارسيـة حيـة نـابضـة ، ونجـد التاريـخ الفـارسي قـائمـا بعـهود ، الاسطـوريـة والتاريخـيـة ،وفيهـا نجـد الشـعر الفارسي ونجـد الشعـراء الفـرس بأسمائهـم حينـا وبمقتطفـات مـن أشعـارهـم أو اشـارات الـى حياتهـم حينـا آخـر ،وقـد عـوّدنا الشـاعـر محمـد اقبـال علـى أسلـوب التّمحـيـات ، فهـو لايأخـذ مـن القـصـص الديني أو التاريخي قصـة كـاملـة ،وانمـا يقتطـف منهـا فكـرة تعينـه علـى توكيـد مـاذهـب اليـه وانبـا عصحتـه ،فـفـي التـاريـخ عبـرة ودرس لمـن ألقـى السمع . فمـن العهـد الاسطـوري نجـد اشـارة الـى قصـة الملـك الفـارسي كيقبـاد جـاء بهـا اقبـال ليؤكـد قيمـة الانسـان في الحيـاة ، فـاذا كـان السـرير الـذي تربّـع عليـه الملـك مـن تـراب وقـد آل الـى تـراب ، واذا كـان تـاج جمـشـيـد مـن تـراب وقـد آل الى تراب فـان الانسـان بعمـو بنظـرتـه وآمـالـه وكفـاحـه الـى مـافـوق الافـلاك وانه كـان جسـده مـن تـراب وسـيـؤول الـى تـراب ، يقـول :

ـ سـريـر كيقبـاد وتـاج جمشيـد مـن تـراب ، والكيسـة والمعبـد والحـرم من تـراب لكنـني لا أدري مـاكـنـه جـوهــري ، فنـظرتـي تعلـو فـوق الفلـك وجسدي من تـراب (1) .

ومـن قـصـص الملـوك التـي تـرد ذكـرهـا في الديـوان كـثـيـرا قصـة الاسكندر ، جـاء بهـا اقبـال كمـا جـاء بقـصـص بعـض ملـوك فـارس رمـزا للفنـاء الـذي يـدرك كـل مـا علـى وجـه الأرض ولـن يبقـى الا وجـه اللـه ذي الجـلال والاكـرام ، فالاسكنـدر وهـو الملـك الـذي ملأ ذكـره ورحـلاتـه وطلبـه للخلـود صفحـات التـاريـخ ، وصـار بيـن الأمـم بطـل الوقـائع وبطـل الاسـاطيـر ، وزادت كـل أمـة لقـصتـه شيـئا مـن تراثهـا وأسـاطيـرهـا ، هـذا الاسكنـدر طـواه المـوت ،والاسكنـدر الـذي بعـدمـا استـوى لـه الملـك وبسـط لـه الجـاه أيـاديـه راح يطلـب جـرعـة مـن عيـن الحيـاة ، طـواه البـرد ، وصـار في خبـر الغـابريـن . وان في ذلـك لعبـرة لمـن يعتبـر ودرسـا لكل ذي قلـب حـيّ ، يقـول :

ـ قـوة الملـك زالـت ، قـد أغـير عليـهـا ، ومضـى لحن الاسكنـدر وضـمـت تغمـة دارا (2)

ذهـب الاسكنـدر والسـيـف والعلـم ، وذهـب خـراجـه وكنـزه وبحـره . (3)

زمـن تفـوق الاسيـاد انتهـى ، وزمن العبيـد انقضى ، هيمنة القياصرة ولتوعهـد الاسكنـدر مـضـى (4) .

---

1 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 206 .

2 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 361 .

3 ـ رسـالـة المشـرق ، ص 240 .

4 ـ رسـالـة المشـرق ، ص

وان الذي وقف على نهاية الاسكندر وفهم العبرة منها وعرف أن الموت نهاية كل حي هو في نظر العلماء والحكماء أعظم من الاسكندر نفسه رغم ما نسج لنفسه من أثواب العظمة، يقول :

- ذلك الفقير الذي عرف مآل كأس الاسكندر، هو في نظر الحكماء العقلاء أعظم من الاسكندر نفسه (1) .

وان سعادة اقبال في حبّ معشوقه الأزلي (الله) وسعادة أمثاله بذلك الحب لايقوى على أخذها حتى الاسكندر نفسه وان عظمته القصص والاساطير وسماء الفرس في يوم من الايام الاسكندر اللّعين الذي دمر المملكة وأحرق كتب زردشت ، وانتهى عند الفرس الى ذي القرنين ،(2) يقول اقبال :

- حتى الاسكندر لايستطيع أخذ سعادتي ، تلك النغمة الحديثة من سلسلك جمشيد أفضل (3) .

أما قصة الاسكندر مع الخضر (المرشد) الذي اختاره لنفسه مرشدا في دروب الظلمات البعيدة عن الحياة ، فقد كان لها وقع خاص في الديوان . وقد رأينا كيف استعان اقبال بهذه القصة في الحديث عن الاسفار (بالقلب والروح والجسم) في الطريق الى المعشوق الأزلي ،وكيف اتخذ منها مثلا أعلى للمريد والمرشد . فمما تروي الاساطير أن الاسكندر لما علم بدنوّ أجله وسمع عن خبر عين الحياة وأن من شرب منها فقد كتب لنفسه الخلود ، سار قاصدا مغرب الشمس وما أن رأى مغيبها حتى طفق يسبح الله ويقدسه ، ثم انصرف الى معسكره فاختار من أصحابه من عرف بالعقل والصبر ،واصطفى من يصلح لتقدم الركب وهو الخضر ، فعهد اليه الأمر وقال له :

- أيها الرجل المتيقظ نبّه قلبك لهذا الأمر ، فاننا ان عثرنا على ماء الحياة بقينا نعبد الله تعالى الى آخر الأبد .(4) ،وتروي الاساطير أن الاسكندر في رحلته تلك ضلّ ومن معه الطريق فلم يصل عين الحياة غير الخضر من هذه القصة بحكاياتها وروايتها المختلفة خرج اقبال بدروس كثيرة ففي الديوان نجده يصوّر الخضر يقف موقف المتعجب من طلب الاسكندر ومن فراره من الموت واعتباره مشكلا ،لأن الحياة بدورها أشد اشكالا من الموت وأشد عسرا على الناس ومداركهم من الموت .

---

1 - رسالة الشرق ،ص345 .
2 - الفردوسي ،الشاهنامة ،ج 2 ،ص3 .
3 - رسالة الشرق ،ص
4 - الفردوسي ،الشاهنامة ،ج 2 ص21 .
5 - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

وهو تعجب موجه لكل من أغفل تأمل فلسفة الحياة وراح يبحث عن سبيل للخلود فيها ، يقول :

ـ قال الخضر للاسكندر وهو يجتاز الظلمات ، الموت مشكل (عسير فهمه على الناس) ولكن الحياة أشدّ اشكالا (1).

ومسرة يصور الاسكندر وهو يدعو الخضر الى خوض غمار الحياة ويدعوه الى الجدّ والاجتهاد بسرّا وبحرا ، ويدعوه الى الدنوّ من معركة الحياة لأن الميت في ساحاتها والمصارع في ميادينها يضمن لنفسه الخلود يقول :

ـ قال الاسكندر للخضر كلمة طيبة ، كن شريكا لي في الجدّ والاجتهاد بسرّا وبحرا .

أنت تراقب هذه المعركة من بعيد ، قم داخل الميدان لتزداد خلودا (2)

ومرة أخرى يشبه السيف في محاربته للظلم وقطعه دابر الشر بالاسكندر في مضاء عزمه ، الا أنه اسكندر بلا خضر يرشده ، اذ مرشده حدّه الصقول وجدّه ، يقول :

ـ كم تقوم ذلك الجادّ المجتهد ، الذي يخرج من الصخر ، من غير أن يحتاج الى خضر كالاسكندر (3) .

فالسيف في نظره أفضل من الاسكندر لأنه يشق طريقه بحده لا باتباع مرشد .

قال اقبال منتقدا أولئك الرضى بعبادة البشر وتقديم النذر للملوك والسلاطين والعظماء ، مشيرا الى قصص ملوك الفرس الاسطورية :

ـ رضي الانسان الجاهل الأعمى عبودية البشر ، فهو يطمئ جوهرة ولكنه يقدم النذر لقباد وجمشيد (4) .

أما خسرو پرويز أحد ملوك الفرس التاريخيين فقد اتخذ من قصته مع النحات فرهاد ومع شيرين رمزا لكل ظالم متجبر ، كما اتخذ منه رمزا لأصحاب رؤوس الاموال المتجبرين كما اتخذ من فرهاد رمزا لكل عامل محروم من أدنى ثمار عمله وكفاحه .

ففرهاد يحطم بفأسه الجبال وپرويز يأخذ ثمار ذلك العمل ويستحوذ على كل شيء ، ويساند في ظلمه وطغيانه الفلاسفة فيعطونه حق فرهاد وهو الخامل عن كل عمل .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 388

2 ـ رسالة المشرق ، ص 206 .

3 ـ رسالة المشرق ص 305 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 304 .

يقول اقبال محتجا على نظريات الفلاسفة على لسان فرهاد :

ـ ان كان فأسي يستطيع أن يهدم الجبال ، فان الحظ يدور الى جانب پرويز (1)
أتعطي ياصاحب الحظ الثيرات حق فرهاد ، لپرويز المنافق الذي لم يكن يعمل
(في حقيقة الأمر) شيئا . (2)

ولكن آن الاوان لكي ينهض فرهاد وكل أهل فرهاد ليقتصوا من پرويز وأهل پرويز ، لقد حان وقت الثورة على كل استغلال بشع للانسان ، يقول :

ـ قد مضى زمن پرويز ، فيا فتيل پرويز انهض ، واسترجع المجد الضائع من خسرو (3)
هذا وقد خرج من قصة جمشيد وغيره الى نتيجة وهي أن الشعوب أخلد من الملوك.
فشعب ايران ظل قائما ، أما ملوكه وسلاطينه فقد ذهبوا بجاههم ، ورحلوا ببطشهم
أو عدلهم وتعميرهم ، يقول :

ـ فاعلم أن الشعوب أخلد من الملوك ، ألا ترى أن ايران باقية وأن جمشيد ذهب؟ (4).

ومما اشتهر به جمشيد في القصص والاساطير أنه كانت له كأس يرى على صفحتها وجه الدنيا ويستعين بها ليطلع على خفايا الامور ، أما الحاكم المؤمن العادل فان له كأسا يطلع بها على أسرار امارته ويسوس بها ملكه ، وهي كأس أشبه بكأس جمشيد صفاء ولكن معدنها غير معدن تلك الكأس الاسطورية ، انها قلب المؤمن اليقظ وبصيرته النفاذة يطلع بها على دقائق الأمور ، يقول مخاطبا الامير الافغاني :

ـ عينك مبرأة من كل الحجب (فنظرك بعيد) ، وقلبك الذي في صدرك مطلع على دقائق الامور كلها كأنه كأس جمشيد (5).

غير أن تلك الكأس الجمشيدية هشة مثل عمر الانسان ، بل ان الحياة في نظر اقبال والعمر أهش من كأس جمشيد ، وان كسر مرآتها بحجر أمر ممكن ، فلماذا يتشبث بها الملوك . ولعل أسد الملوك تمسكا بها (الحياة) الاسكندر ، يقول اقبال ناصحا له ولامثاله :

ـ فيا أيها الاسكندر ان السمملكة أهش من كأس جمشيد ، وان كسر مرآة الحياة بحجر واحد أمر مستطاع .(6)

وبما أن جاء السلاطين آيل الى التراب فعلى الانسان أن يسمو بنفسه وأن يطلب السعادة من أبواب أخرى غير عتبات السلاطين ، وربما كان العشق الالهي أوسع تلك الابواب وأعذبها ، ان آهة

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 368 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 375 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 367 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 340 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 145 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 330 .

من ذلك العشق الالهي أغلى من ملك جمشيد ، يقول :

ـ حتى ولو أعطي العقل قيمة قليلة لكنز العشق ، فاني لا أستبدل بتلك الآهة التي تذيب الكبد عرش جمشيد (1).

وان شاعرا من شعر نظيري أغلى من ملك جمشيد أيضا ، يقول :

ـ أنا لا أبدّل ملك جمشيد بصراع من كلام نظيري ، ليس من قافلتنا ذلك الشخص الذي لم يعتبر شهيدا . (2).

كما يتحدث اقبال الى سيرة بعض ملوك الدولة الساسانية في ايران الذين عرفوا بالشجاعة والحكمة في بعض مدحه لملك أفغانستان ، قائلا :

ـ هو فقير ولكنه ملك عادل ، وهو أردشير(3) (في الشجاعة) يدوح أبي ذر الغفاري .
ان يكن جسده عارفا في الدروع ، فان له في الصدر قلب متشح بخرقة الصوف(4)

هذا عن ملوك فارس قبل الاسلام وعن توظيف اقبال الجيد لقصصهم وخدمة أبنائه عصره بما استوحاه منهما من دروس وعبر . أما رجال الدين في بلاد فارس قبل الاسلام ، فلم يلمّح الا الى شخصيتين بارزتين هما "مانى" و"مزدك".

لم يأخذ الشاعر من قصة مانى ديانته التي كان لها ذكر في كتابه ماوراء الطبيعة في فارس(5) وانما أشار الى مهارته في الرسم وجعل من كتابه المعروف " أرژنگ " وما حواه من لوحات ، آية في الجمال حتى أنه شبه بهما لوحات الربيع الطبيعية، يقول :

ـ قد (أقامت) أبدعت نسائم الربيع في الروضة كتابا ملونا حيّا .(6)

ومن قصة مزدك أشار اقبال الى أحد أهم المبادئ التي نادى بها وهي مساواة البشر جميعا . وسمّاه في كتابه ما وراء الطبيعة لأجل تلك الفكرة اشتراكي ايران العظيم وقال فيه :

"...غير أن السمة الأكثر تميزا لتعاليم مزدك فشيوعيته ... وعند مزدك ان الناس جميعا بمنزلة سواء ، أما فكرة تملك الفرد فما كانت الا تعاليم من نزعات الشيطان". (7)

وكذلك جاء في ديوان رسالة المشرق كلمة لاقبال على لسان مزدك ، يدعو فيها الناس المظلومين والفقراء الى الثورة على الملوك والاقتصاص منهم ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 318 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 329 .
3 ـ أردشير : اسم ملك فارسي ينتمي الى ملوك الدولة الساسانية (دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 587، 588 والشاهنامة ج 2 ، ص 51).
وليس للمؤرخين المسلمين معرفة حقة الا بالملوك الساسانيين المتأخرين الذين عرفوا بهذا الاسم هم أردشير الاول (226م ـ 241م) وأردشير الثاني (379م ، 383) وأردشير الثالث (628م ، 629) .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 190 .
5 ـ اقبال ، ماوراء الطبيعة في فارس ، 63 ، 66 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 321 . جاء في الديوان قوله "ارژنگ" والمراد به كتاب مانى .
7 ـ اقبال ، ماوراء الطبيعة في فارس ، ص 66 .

- انما انبثقت بدرة ايران من مزارع القياصرة ، فالموت يخيم على قصر الملك والأمير ، قد مضى زمن پرويز فياقتيل پرويز انهض ، واسترجع المجد الضائع من خسرو (1)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 - رسالة المشرق ، ص367.

ب ـ رسالة المشرق والشعر الفارسي

تعلّم اقبال الفارسية بحماس شديد ،وكانت النتيجة أن صار شاعرا فارسيا . ولأنه تعلّمها بحماس شديد فقد سرى ذلك الحماس الى قراءاته لروائع شعرائها ثم الى افادته من تلك القراءات . وقد انعكس في دواوينه أسماء وأشعار عدد كبير من أعلام الشعر الفارسي وبخاصة روّاد فن الغزل الذي تقبله اقبال شكلا ومضمونا منذ زمن كانت بدايته مرحلة تكوين وتدريب ، ولكنه ارتقى به فيما بعد الى معان ومضامين جديدة تعبّر عن رسالته الجديدة في الحياة ،فكان "أول من يستعمل هذا الشكل القديم ليزوّد الناس بفلسفة جديدة"(1) فاذا كان الغزل موضوعا كلاسيكيا فان اقبال جاء في غزلياته بخصائص جديدة ونسيجة ،وجاء بابداع جديد جعل الشاعر الايراني المعاصر له طبك الشعراء بهار (2) يقول : "أن العصر الحاضر عصر خاص باقبال"(3) ولم تكن الغزليات القن الوحيد الذي اقتبسه اقبال من الشعراء الفرس . ان المتصفح للديوان ليجد في كل اقسامه اما اشارة أمام أبيات أخذها عن شاعر واما أبيات أو أشطر وضعها بين قوسين ،أحيانا يشير أمامها الى الشاعر الذي نقلها عنه ، وأحيانا يسجل ذلك في الهامش ،ويغفل الاشارة الى المصدر الذي اقتبس منه أحيانا أخرى . وبغض النظر عن هذه الاقواس وتلك الاشارات فان في رسالة المشرق من الابيات التي تأثر فيها اقبال بمن قبله وبخاصة في القوافي والاوزان والتركيب .

وليس في تضمينه شعر غيره ما يؤخذ عليه لأن التأثير والتأثر أمر طبيعي ، وهو أمر لا يجد اللاحق بدّا من الوقوع فيه . فمن تجارب السابقين وخلاصات أعمالهم يستطيع اللاحق أن يبدع أشياء جديدة . وكذلك كان اقبال في غزلياته عندما ارتقى بها من المفهوم الذي حدّده لها الاوائل والخطّ الذي رسموه لها وجعل منها أداة طيّعة للتعبير عن ظروف عصره وأحزانه ومآسيه بأسلوب جمع

---

1 ـ Eqbel review(1988) p.176(Mohammed Riaz, Allama Iqbal'SpoetieStyle and diction in persia)

2 ـ ملك الشعراء بهار : هو محمد تقي بهار ولد في 13 ربيع الاول 1306 هـ كان مرشدا في مجلس الشورى الوطني وأستاذا بجامعة طهران ، تولى وزارة الثقافة عام 1324 هـ . له ديوان من الشعر في مجلدين نشره عام 1334 هـ ، توفي عام (فرهنگ دانش وهنر شامل ـ اطلاعات عمومي ـ ص 80 .)

3 ـ محمد منوّر ميرزا ـ علامه اقبال غزل فارسي ،ص 170

فيه بين الفن والفلسفة والشعر حتى يتماشى وفكره وثقافته .
ومن الشعراء الذين تأثر بهم اقبال في رسالة المشرق وضمّن ديوانه بعضا من أشعارهم أستاذه الاول ومرشده الروحي والأدبي والديني جلال الدين الرومي .
كان لجلال الدين الرومي حضورا في الديوان ليس فقط فيما ضمنه اقبال من شعره في ديوانه رسالة المشرق فقد أشار الى بعضه وأغفل البعض الآخر .
وجد اقبال بينه وبين الرومي تجاوبا في الافكار وتناغما في الالحان . كما وجد بينه وبين الرومي تشابها في ظروف الحياة وفي الرسالة التي القيت على عاتق كل منهما في خضم تلك الظروف . فبحث أوجه الشبه بينه وبين مرشده وأستاذه فلما بحث غوته عن وجه الشبه بينه وبين الشاعر حافظ الشيرازي ، واتخذه أستاذا ومرشدا ليس في رسالة المشرق وحده وانما في معظم دواوينه ، ولعلّ أكبر حضور كان لجلال الدين الرومي احتفاله آخر أعماله الأدبية "رسالة الخلود" (1)
قال اقبال مشبها حاله بحال استاذه الاول : " لقد أذنت في الحرم ، كما أذّن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه اسرار الروح والحبّ ، لقد كان شاعر على فتن عصره وكنت شاعرا على فتن عصري" (2).
والى جانب الابيات السابقة التي جاء فيها ذكر لجلال الدين الرومي وبخاصة فيما يتعلق بالعشق الالهي ، هناك أبيات أخرى ، منها قوله طالبا من المنشد أن يغنيه (ينشده) بيتا من الغزليات في مرشد الروم لأن ذلك فقط يأذن لروحه بأن تسبح في مدينة جلال الدين الرومي (تبريز) وناره ، يقول :
ـ أنشدني أيها المغني بيتا من الغزل عن مرشد الروم ، حتى تسبح روحي في نار تبريز (3).
وقال في الدعوة الى مائدة شرابه ، والتي ليس فوقها غير كأس شيخ الروم ، وغير خمرة الكلام الفتية ، الاجود من خمر العنب :
ـ هلمّ فاني أرشف من كأس شيخ الروم خمرا ، هي صهباء كلام ، هي أصبى من بنت العنب (4).
وفي مقارنة له بين جلال الدين الرومي والفيلسوف هيجل ، وبعد أن أعطى للفيلسوف الالماني حقه من التقدير جاء الى وصف جلال الدين الذي غطّى كل ما سبق وان قيل في هيجل لأنه بعد أن سار في بحر أفكار هيجل ارتطمت سفينة أفكاره بأمواج الطوفان

---

1 ـ فقد كان مرافقا له حتى في رحلته الخيالية الصوفية ، واتخذ منه مرشدا في ذلك الحلم العملي الناقد ، الباحث عن حل لما يتخبط فيه أبناء العالم الاسلامي .
2 ـ مجلة حضارة الاسلام ـ المجلد 1 ، سنة 1380 هـ ـ 1960 ، عدد 1 و 2 ، ص 49 ، (اقبال في مدرسة الرسول ـ أبو الحسن الندوي) ، ومع اقبال ، عبد اللطيف الجوهري ، ص 114 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 331 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 335 .

وغلبه النعاس فأغلق عينيه ليصحو على تجلّي ذلك النور في وجه الشيخ الرباني كأنه شمس تنير أرض الروم والشام ،وعلى يقظته تلك رآه وقد ألقى من أنوار ، على ظلمة الحالم ما يحيه ،و فور صحوته تلك شاهد تطاير المعاني والافكار من كلماته كتنفس الشقائق ،ورأى مرشده ومعلّمه يدعوه الى النهوض والسعي تغيير مجرى الحياة لأنه كان يركب سفينة من سراب ،يقول :

ـ النوم يغريني ويسحر عينيّ ، (لذا) أغلقت عيني عن الباقي والفاني .

صارت نظرة العشق أحد ، فقد تجلّى نور وجه الشيخ الرّباني

هو في تجليه شمس ، تنير آفاق الروم والشام (1)

وقال على لسان جلال الدين الرومي في القطعة التي عنوانها "الشعراء" معترفا بأن الخمرة المقصودة بعيدة المنال وان مزيج جوهرها الخالص لا تطاله الايدي :

ـ أين ذلك المزيج من جوهرها الخالص أين ؟ ، من عروق الكرم أخذ خمرا وأملاكا أسمى (2) .

ومن أشعار الرومي المضمنة في رسالة المشرق والتي ذكر في سياق الحديث أنها لاستاذه الرومي قوله :

ـ فالمرشد الرومي (جلال الدين) ذاك الحكيم الطاهر المنيب، كشف لنا سرّ الموت والحياة .

فكل هلاك كان لأمة سابقة (قديمة) ، هو في ظنها الصندل عودا (3)

وقال ناصحا على لسان أستاذه ومرشده لمن يعطي الغايات السامية من الجهد ما لا يرتقي الى مستوى سموّها ورفعتها :

ـ أتبحث بالعقل عن طريق العشق ، أو تبحث بالصباح عن الشمس ؟! (4).

وهو البيت الذي جعله شعارا لديوانه "الاسرار والرموز".(5)

وقال أيضا في الدعوة الى السموّ بالنفس في عشقها والسعي بها نحو أغلى الغايات وأعلاها ، وهو الله عزّ وجل :

ـ أشعلت النار في هشيمي وقشّي ، فقد قال المرشد الرومي "ان غاية سيرنا هو الأعلى نفسه" (6).

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 372.
2 ـ رسالة المشرق ،ص 382.
3 ـ رسالة المشرق ،ص 190.
4 ـ رسالة المشرق ،ص 372.
5 ـ انظر ديوان الاسرار والرموز ،ص .
6 ـ رسالة المشرق ،ص 341.

ومن أشعار جلال الدين الرومي التي وظفها في ديوانه بيت من الشعر أنطقه به في الحكم على شاعر الالمان والاعجاب بقدره ، يقول :

ـ ليس كل شخص قد تجلت له أسرار العشق ، وليس كل شخص بأهل لهذه المنزلة .
ذلك السعيد الطيب الحظ الألمعي ، العارف بمكر ابليس وعشق الآدمي (1).

ومن خلال هذه الابيات التي أخذها اقبال عن استاذه ومرشده ، وضمنها شعره يتجلى لنا القدر العظيم والمنزلة الكبيرة التي أنزله اياها . فقد أبى الا أن يذكر اسم مرشده وينسب الحديث لصاحبه وذلك تكريما له ورفعا من قدره وقدر شعره .

أما ما تأثر فيه اقبال بمرشده من حيث الصياغة والبناء الفني ومن حيث الاوزان والقوافي في (أي من حيث الموسيقى) في رسالة المشرق فكثير ، منه قوله :

ـ تير وسنان وخنجر وشمشيرم آرزوست بامن ميماكه شبيرم آرزوست (2).

وفيه تأثر بقول جلال الدين الرومي في قافية البيت وبنائه العام :

ـ بتماي رخ كه باغ كلستانم آرزوست بگشاى لب كه قند فراوانم آرزوست (3)

ولعل هذا ما حدا بالبروفسور محمد منور ميرزا الى قوله أن كثيرا «من غزليات اقبال لاتشبه غزليات الشعراء الفرس الا في النغمة والاسلوب والالحان» ومن ذلك أيضا قوله (4)

ـ گريه ما بي اثر نالهٔ ما نارسا ست حاصل اين سوز وساز يك دل خونين نواست (5)

وهي القافية نفسها التي نظم فيها جلال الدين الرومي قوله :

ـ هو نفس آواز عشق ميرسد از چپ وراست ما بقلك مي رويم ، عزم تماشا گراست (6)

ومع هذا لايمكن أن نعتبر اقبال مقلدا ، فقد يكون اكتسب ذلك من قراءاته الكثيرة لاشعار الفرس ، ومن حفظه لكثير منها واكتسابه نتيجة ذلك أذنا موسيقية ، وقد يكون هذا التشابه من باب كونهما مسلمين استمدا ثقافتها من معين واحد ، هو معين الثقافة الاسلامية الذي لاينضب ، ومن كونهما من ذوي اللسان الفارسي وقد مكنهما ذلك من الاطلاع على مصادر متشابهة الوارد ان لم نقل واحدة .

وفنون هذا فنان جلال الدين الرومي قد راته الفنية والروحية التي وقعت من متنفس اقبال موقعا حسنا ، فأعقب ذلك الاعجاب تأثر يفيض شعره ومعانيه .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 377 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 326 ، (تمنيت السهم والسنان والخنجر والسيف ، وأملي ألا تصحبني لانني سلكت طريق الحسن) .
3 ـ محمد منور ميرزا ، علامة اقبال غزل فارسي ، ص 114 ، (الوجه الذي أطلعه حدائق الورود تأمله ، وافتح النغمة التي أطلعها السكر الكثير) .
4 ـ المرجع نفسه ، ص 153 .
5 ـ رسالة المشرق ص 340 . (بكاؤنا بلاجدوى ، وأنيننا بلاصدى (لم يبلغ أحدا) ، فماحاصل كل هذا الاحتراق والاضطراب سوى قلب دام جريح) .
6 ـ محمد منور ميرزا ، علامة اقبال غزل فارسي ، ص 115 (كل انفاس الحان العشق أحاطت بنا من اليمين والشمال ونحن ذاهبون الى الفلك والغرام يتقن علينا . (يتأملنا)

وان المستتبع لشعر جلال الدين الرومي ليلحظ نقاط الاشتراك والتلاقي بينهما وان اختلفت أساليب الكلام . نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر حديث اقبال عن قصة آدم بمراحلها ، من الخلق حتى البعث ، وفي المثنوي أيضا ذكر لقصة آدم عليه السلام ، فقد صوّر كل منهما صراع الانسان مع الشيطان واعترافه بين يدي خالقه بالذنب ، وقدم كل منهما صورة لتطاول الشيطان وغروره حتى كتب فسي الغاويين .

كما نجد بينهما لقاء في الحديث عن الروح وتعجبا من احتواء الجسد الترابي لها وهي المحلقة في الآفاق وهي الدائمة الاسفار وهي البحر اللا منتهي . قال جلال الدين الرومي في سؤال وجهه رسول الروم الى عمر رضي الله عنه عن سبب ابتلاء الارواح بالاجساد :

ـ قال : ياعمر أي حكمة كانت ، وأي سر وراء حبس تلك الروح الصافية في هذا المكان الكدر كان الماء الصافي قد أصبح في الطين محتجبا ، والروح الصافية أصبحت أسيرة الابدان (1).

وهذا التساؤل نفسه الذي طرحه اقبال في حديثه عن القلب ، وقدم ذلك على الروح ، يقول :

ـ كيف يحتبس الجسد القلب في حفنة من تراب ، بينما القلب هو الفلاة التي ترتع فيها ظباء الخيال (2)

ولكن سؤالهما ليس اعتراضا على الارادة الالهية وانما هو تساؤل اعتراف بقدرة المولى عزّ وجلّ في جمعه بين الروح والجسد والقلب والجسد ، رغم سموّ هذين وتحليقهما وتدنّي ذلك وهبوطه ، لأنهما عرفا قدر القلب والروح وفضلهما في تجاوز الانسان لعتمة ترابه ولم يكن جلال الدين الرومي الشاعر الوحيد الذي قبس اقبال من معين شعره ، وان كانت مساحته في ديوان رسالة الشرق ، بين ماقيل فيه وما أخذ عنه كبيرة ، فاننا نجد الى جانبه عددا من شعراء الفارسية من أبناء فارس ومن أبناء شبه القارة الهندية ، نذكر من هؤلاء حافظ الشيرازي الذي كان لاقبال فهم خاص لشعره . فحافظ هو الذي استطاع أن يمزج في شعره بين الغزل الصوفي والغزل الأرضي ، وهو مايمكن تفسيره على المعنيين ، وكان ذلك الجمع سببا في الخلاف

---

1 ـ جلال الدين الرومي ، المثنوي المعنوي ، ج 1 ، ص 216.

2 ـ رسالة الشرق ، ص 214.

بين الدارسين والمتهمات في الحكم على شعره وعليه .

هذا ولا ننسى أن اقبال انتقد حافظ الشيرازي في ديوانه الاول الاسرار والرموز هجاءً وخلقه في معنى السكر والمعاني الظاهرة ولكنه لم يتنج من تأثيره في رسالة المشرق وغيره من الدواوين ، لأن حافظ كان في عداد الاساتذة الذين تتلمذ اقبال على ابداعهم ، ولعلّ أكبر ما تأثر به اقبال من شعر حافظ الشيرازي غزلياته ، فجاء كثير من غزليات اقبال يحمل أثر غزليات حافظ بوضوح ، ولاسيما فيما يتعلق بالسبك والقوافي . بل ان الجزء الثالث من الديوان الخمسة الباقية ، وقع تحت تأثير غزليات حافظ الى حدّ كبير ، وكان أشبه بالهدية غير الصريحة من اقبال لحافظ ، حتى لايخالف ما ذهب اليه في أول اعماله الشعرية (الاسرار والرموز) . وبينما أشار اقبال الى الابيات التي أخذها عن شيخه وعن بعض الشعراء الآخرين ، أغفل ذكر حافظ على الاطلاق مع كثرة ما تأثر به ، حتى ذهب أحمد الدارسين الى أن عدد الغزليات التي تأثر فيها اقبال بحافظ (في ديوانه رسالة المشرق) يقارب الاربعة والعشرين غزلية (1) وربما أرجعنا سبب اغفاله الاشارة لحافظ الى تجنبه التضارب والتضاد مع ما سبق ونشره في ديوانه ، ومما تأثر فيه بحافظ في ديوانه رسالة المشرق قوله :

عيار معرفت مشترى است جنس ، خوشم ازانكه متاع مراكسي نخريد . (2)

وهو مأخوذ مع بعض التغيير من قول حافظ الشيرازي :

عيار معرفت است جنس سخن ، خوشم ازانكه متاع مراكسي نخريد (3) .

ولما كان تأثر اقبال بحافظ في موسيقاه وقوافيه وحسن تركيبه وأسلوبه وأحيانا في معناه ، كان لابدّ من عرض النماذج في لغتها الاصلية حتى يتبيّن مدى أثر حافظ في شعره .

قال اقبال :

ـ درچمن لاله وگل رخت گشود .. ازكجا آمد ند اينهمه خونين جگران (4)

وهو متأثر فيه بحافظ في قوله :

---

1 ـ محمد منور ميرزا : علامه اقبال غزل فارسي ، ص 88.

2 ـ رسالة المشرق ، ص 326 ، (ولقد اخترت هذا الجنس من الكلام حتى اتطلع الى معرفة المشتري ، واني لسعيد بهذا وهو أنه لاشخص قد اشترى متاعي)

3 ـ محمد منور ميرزا : علامه اقبال غوں فارسي ، ص 88 (المشتري هو عيار المعرفة ، (لأنه) ولمّا لم يشتر أحد متاعي ، من ذلك فهو كلام (شعر) طيب عذب) .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 314 . (خطت قافلة الشقائق والورود الرحال بالروضة ، من أين اقبل كل هؤلاء الذين دميت أكباد هم) .

- یاصبا د رچمن لا له سحر می گفتم که شهیدا تانند اینهمه خونین کفنان (1)

وقال اقبال :

- بایں بہانه درایں بزم محرمی جویم ، غزل سرایم پیغام آشنا گویم (2)

وهو أشبه في قافيته من قلب النهاية الصراعين بقول حافظ :

- سرخوشست وبه بانگ بلند گویم که من نسیم حیات از پیاله می جویم (3)

وقال اقبال :

- دلیل منزل شوق پیدا منم آویز شرر زا تا شد نابم بخاک خویش آمیز (4) .

وهو بيت على نسق قافية حافظ في قوله :

- دلم رمید ز لرلی وشست شور انگیز دروغ وعده ، وقتال وضع ورنگ آمیز (5) .

وقال اقبال :

- سرخوش از پیاده ، توخم شکنی نیست که نیست ست لعلیں توشیریں سخنی نیست که نیست (6) .

وفي القافية نفسها قال حافظ الشيرازي :

روشن از پرتو رویت نظری نیست که نیست منت خاك در تو بر بصری نیست که نیست (7) .

وفي هذا البيت لم يكتف اقبال بالقافية فحسب وانما بالجملة الاخيرة كاملة ، ومثالها قوله :

- زندگی جوی روان استورو ان خواهد بود ، این من کهنه جوان أستو جوان خواهد بود (8)

---

1 - محمد منور میرزا - علامه اقبال غزل فارسی ، ص 77 (قلت طريح الضيا في روض الشقائق بالسحر ، هم شهداء أصحاب كل هذه الاكفان الدموية) .

2 - رسالة الشعور ، ص 317 ، (لهذه العلة أبحث في الحفل عن محرم ، وانشد غزلا وأحمل رسالة للأحبة (المعارف) .

3 - محمد منور میرزا ، علامه اقبال غزل فارسي ، ص (سعيد ، وبصوت عال أتغنى (أقول) ، اني (أبحث) أطلب نسيم حياتي من القدح) .

4 - رسالة الشعور ، ص 333 (مرشدي الى منازل العشق يعلق بأدلتي ، فاقتبس من ناري الخالدة شعلة وامزجها بترابك) .

5 - محمد منير میرزا - علامه اقبال غزل فارسي ، ص 10 . (قلبي هارب ، مرح جسور غير هياب ، يصطاد في الماء المالح المضطرب ، يعمد كذبا ويقتل ويخلط الالوان) .

6 - رسالة الشعور ، ص 351 (لا وجود للكاسرى دنان خمرك الذين لم يسعدوا ويثملوا من شرابك ، ولا وجود للكلام العذب الرقيق الذي يتمثل من شفتيك .

7 - محمد منور میرزا - علامه اقبال غزل فارسي ، ص 11 (لا فضل لشرابك على بصرى انه عدم ، ولا وجود لشعاع من نور تأمل ، انه عدم)

8 - رسالة الشعور ، ص 362 (الحياة نهر جار وسيجري أبدا ، وهذه الصهباء فتية وستبقى (فتية) أبدا) .

وهي البيت الذي قال فيهما حافظ الشيرازي :

— تاز ميخانه ومي نام ونشان خواهد بود سر ما خاك ره پير مغان خواهد بود (1)

ولعلّنا نكتفي بهذه النماذج القليلة عن أوجه ومواطن تأثر اقبال بحافظ الذي لم يرد له ذكر في أبيات الديوان أو اشارة في هوامشه ، ربّما لأنه لم يضمّن من شعره أبياتا أو أشطرا أو بعض أشطر وانما غلب عليه التأثر به في التراكيب والموسيقى كما قد يكون ذلك نتيجة لولوع اقبال في مراحل تعليمه الاولى بالشعر الفارسي وحفظه لنماذج من روائعه . وهذا مايجعلنا نعتقد أن تأثره بحافظ كان عفويا ولم يكن مقصودا ، كما لم يكن تقليدا لأنه يحمل بصمات شاعرية اقبال .

أما علم الادب الفارسي سعدي الشيرازي فقد أخذ عنه في مواضع عدّة ، أشار لموضع منها في قصيدته "الطائرة" ووضعه بين قوسين وأثبت في آخر القصيدة اسم الشاعر سعدي فقد اختار من روائع سعدي مايكفي لافحام الانسان في تفاولته وتيهه بصناعاته ومادياته ، ناسيا خواء الروحي ، متجاهلا الخراب الذي أحدثه بماديّاته ، وجاء بشعر سعدي على لسان عصفور أزعجه فخر الانسان باقتحامه فجاج السماء بطائراته متخذا منها دليلا الى السماء ، اذ كيف يعقل منه اصلاح في السماء وقد أفسد في الأرض ، و سفك الدماء ، يقول وهو على ريشه فحلّقه بمنقاره وقال : « ان هذا الذي تقوله لم يثمر تعجبي فربما وتعبت يامن تبحث عن كيف وكم ، أسير سحر العلو والانخفاض (السهل والحزن) أصنعت عملا حسنا في الأرض؟ ، حتى جئت لتصلح أحوال السماء؟ (2) سعدي (لتصلح أيضا في السماء)

ومن تضمينات اقبال من شعر سعدي قوله :

— سقطت قطرة مطر من غمامة ، فخجلت عندما رأت فجاج البحر . —

أهذا هو البحر الذي أرغب أن أكونه ، اذا كان هذا هو البحر فانّي عدم اذن (3)

ومثلما ضمّنه من شعر سعدي : بنو آدم بعضهم أعضاء البعض الآخر ، (4) فهم مثل أغصان وأوراق وثمار نخلة واحدة .

وربما كان سبب اهماله الاشارة للمصدر الذي أخذ منه هذه الابيات هو ذيوع صيته في الاوساط المتحدثة بالفارسية والدارسة لها وما شبه القارة الهندية وأبناؤها

---

1 — محمد منوّر ميرزا ، علامه اقبال غزل فارسي ، ص 94 ، (سيكون معشوق الحان والزجاجة علامة العشق ، وسيكون تراب الطريق البارد ديرا قديما) .

2 — رسالة المشرق ، ص 309 .

3 — رسالة المشرق ، ص 282 .

4 — رسالة المشرق ص 374 .

بحميد بن عبد سعدي الذي غدا كبيره أمثالا تضرب وحكما تمزجى ، ويكفي دن واحد اقبال ما ضمنه من شعر سعدي بين قوسين ليعلم القارئ أنهما ليست من نظمه .

وأما وجود عرفي الشيرازي في الديوان فلمه وزنه ، لأن معرفة اقبال به أكيدة . فقد سافر عرفي الى الهند وهناك اتسعت له أبواب الشهرة ووجد سبيلا الى بلاط السلطان أكبر . كما وقعت غزلياته موقع الاعجاب من شعراء الهند والتمرت فجعلوها مثالا ، وهذا هو اقبال يتخذ من عرفي وشعره مثالا يحتذى ، يقول : حمدى راتيز ترا خوانم چو عرفي كه ره خوا پيده ومحمل گران (1)

وأما بيت عرفي الذي أنشد فيه الحداء والانغام الحادة فقد أورده اقبال في الهامش وهو قوله :

- نوا را تلخ ترمى زن چو ذوق نغمه كم يابى ... حمدى راتيز ترمى خوان چو محمل گران بينى (2).

كما أخذ عن الجامي الذي عدّ آخر فطاحل الشعر الفارسي بيتا سجّله في مقام المرشد جلال الدين الرومي وبيان قدره ، يقول :

- شاعر راسخ مثل ذلك العالمي الجناب ، لا نبي هو لكن ذو كتاب . (3).

وهو في قول الجامي في الشاعر جلال الدين الرومي :

- ماذا أقول في قدر هذا العالمي الجناب ، لم يكن نبيا لكن له كتاب. (4)

ومن شعراء اللسان الفارسي الذين أخذ عنهم اقبال نظيري النيشابوري الذي هاجر بدوره الى الهند وطبّقت شهرته الآفاق في البلاد الفارسية اللسان ، وقد أشار اقبال الى ما أخذه عنه ونسبه لصاحبه ، من ذلك قوله :

- في كل مكان نجد طريقا وجب علينا أن نغزوه مثل الحصان ، فكيف تمتثل تدبيرنا العزائم (5).

وقوله :

- اننا لم نحط ابن آدم الاجنحة ، فقد شدّ هذا الفقير الى الأرض (6).

---

1 - رسالة المشرق ، ص 242. (أنا مثل عرفي أنشد الالحان الشديدة الحادة ، لأن الحمل ثقيل والمسافرين نيام) .

2 - انظر رسالة المشرق ، قول عرفي ، هامش ، ص 242. (أنشد انغاما قوية شديدة لأن لذة الانغام نادرة ، وتنغمي بحداء حاد (قوى) لأن الحمل ثقيل)

3 - رسالة المشرق ، ص 376.

4 - من محاضرات ألقاها على طلابه السنة الثالثة دراسات قرآنية الدكتور طلعت محمد أبو فرحة .

5 - رسالة المشرق ، ص 308.

6 - رسالة المشرق ، ص 309.

وقال اقبال مقتبلا مصراعا من شعر نظيري علمت ملك جمشيد كشّله وهو العارف لقدر الشعر والرافع من قدر حملته

- بملك جم نه دهم مصرع نظيري را كسي كه گفته نه شد از قبيلة ما نيست(1).

وهو مأخوذ من قول نظيري :

- گريزد از صف ما هركه مرد غوغا نيست كسي كه گفته نشد از قبيله ما نيست(2)

هذا ما أخذه اقبال من شعر نظيري وضمّنه بعض قصائده ، أما الابيات التي تحمل أثره بموسيقى نظيري فنذكر منها قوله:

- مي تراشد فكر من هردم خداوندي دگر رستاز يك دام تا افتاد در بندي دگر (3) .

وهي القافية التي نظم فيها نظيري قوله :

- درد دل رامي كنم باصبر پيوندي دگر بر طبيب خود تغافل من زنم چندي دگر (4

وقال اقبال :

- هواي فوردين در گلستان ميخانه مي سازد سبو غنچه ريزد زگل پيمانه مي سازد (5)

وتال نظيري قبله في النافية نفسها .

- چو عريان شد چمن مرغ از ضرورت خانه مي سازد چو قحط گل شود بلبل بآب و دانه مي سازد (6)

ومن ذلك أيضا قول اقبال :

- خواجه نيست كه چون بنده پرستارش نيست بنده نيست كه چون خواجه خريدارش نيست (7) .

وهو على منوال قافية نظيري في قوله :

- هركه نوشيد مي عشق تو يا ما نش نيست وانكه توشيد انديشه حرمانش نيست(8) .

---

1 - رسالة المشرق ،ص329 ، (أنا لا أبدل ملك جمشيد بمصراع من كلام نظيري ، (ليس من قافلتنا ذلك الشخص الذي لم يصر شهيدا) .

2 - محمد منور ميرزا ، علامه اقبال غزل فارسي ،ص99 ، (يصر من صفنا (قافلتنا ، جمعنا) كل من ليست له وغاء وجلبة ، فالشخص الذي لم يصر شهيدا (قتيلا) هو ليس من قبيلتنا) .

3 - رسالة المشرق ،ص315 (في كل لحظة ينحت فكرنا الها جديدا ، فهو لا يتحرر من قيد حتى يقع في قيد آخر) .

4 - محمد منور ميرزا ،علامه اقبال غزل فارسي ،ص98 ، (المست قلبي لصلته بالمغير ، وتغافل عن الطبيب زمنا آخر) .

5 - رسالة المشرق ص322 . (هواء فوردين يقيم حانة خمر في البستان ، ويصنع من البراعم كؤوسا ومن الورود أقداحا) .

6 - محمد منور ميرزا ،علامه اقبال غزل فارسي - ص99 (عندما تعرى (صار عاريا) طائر الروض (بلبل) للضرورة عمدا ، وعندما جف الورد وأصيب بالقحط صنع من الماء والحب (الميذر) وردا) .

7 - رسالة المشرق ،ص346 (لا وجود لسيد لا يخدم ظل العبد ، ولا وجود لعبد لا يباع ظل السيد) .

8 - محمد منور ميرزا ،علامه اقبال غزل فارسي ،ص100 (لا تعجب (تعجب) قدم كل من شرب من عشقك ، ولا يحرم ذلك الذي صار فكرت) .

وأحيانا أخرى يأخذ اقبال الجملة الاخيرة كاملة ـ ظلما كان له مع حافظ ـ من ذلك قوله :

ـ بشان تازه تراشيد ، اى دريغ ازتو درون خويش نه كاويد ، اى دريغ ازتو (1) .

وبقلت النهاية قال نظيري :

ـ بدست طبع عنان داده ، اى دريغ ازتو بجنبت صد هوس افتاده ، اى دريغ ازتو (2).

أما غني الكشميري فلم نجد لاقبال اقتباسا منه وانما وجدنا ذكرا له في الديوان واشادة بمزهده وفخره في قصيدته غني الكشميري (3).

وأما شاعر الهند في العصر الحديث ميرزا أسد الله خان غالب القريب من عهد اقبال فيمكن القول أنه كان من أساتذة اقبال في الشعر الفارسي والأردي على السواء ، رأى اقبال رغم افول نجم الفارسية في سماء شبه القارة الهندية ظل وفيا للفارسية وظل يكتب بها لتكون له يد في بقائها ، فوافقه على ذلك الحرص وكتب هو الآخر باللغتين وأعطى الفارسية أكبر قدر من الاهتمام .

كانت لغالب مكانة عالية من نفس اقبال وابداعه الشعري ، قال معترفا بفضله وقدره : « ان غالب دون شك واحد من عظماء المفكرين والشعراء ذوى اللسان الفارسي والاردي في شبه القارة » (4)

ومما ضمنه ديوان رسالة المشرق من شعر غالب تذكر قوله :

ـ في ظلام الليل جاء تني من الصبح بشارة ، أطفئي الشمع ولاحت لي من الصبح اشارة (5)

وقال على لسان غالب في احدى القطع الشعرية :

ـ حتى تعير الخمرة أمرّ والصدر أشدّ تمزقا ، فاني أذيب الزجاجة وأملأ كأسي (6)

أما مشاكلته في القوافي والاوزان فكثيرة ، نتذكر منها قوله :

ـ فريب كشمكش عقل ديدنى دارد كه ميرقافله وذوق رهزنى دارد (7).

وهو شبيه بموسيقى غالب في قوله :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص353 (أسفي عليك نحت أصناما جديدة ، أسفي عليك اذ لم تغص وتبحث في نفسك).

2 ـ محمد منور ميرزا ، علامه اقبال غزل فارسي ، ص100 (أسفي عليك ألقيت عنان الطبع من اليد ، أسفي عليك فقد وقعت مهووسا بعاصفة حرب).

3 ـ غني الكشميري : شاعر هندي فارسي اللسان ، من شعراء القرن الحادى عشر الهجري (1077هـ 1666م) ; Opcit , p I76 ; (I988) , Iqbal review

4 ـ Iqbal Review (I988) opcit p I78-I79

5 ـ رسالة المشرق ، ص 363 .

6 ـ رسالة المشرق ، ص 382 .

7 ـ رسالة المشرق ، ص332 ، (انظر الى ذلك الذي أخذ (فتن) بجدال العقل ، يبدو كأمير للفلسفة ولكنه يلسع قاطع الطريق).

- نقاب دارد آئينه رهزنی دارد جمال يوسفي وفر بهمنی دارد (1).

ونختم الحديث عن مكانة غالب من نفس اقبال بقوله فيه: "الى أبعد مايمكن أن أرى، فربّما كان ميرزا غالب المساهم الوحيد في المواصلة التي قدمها الهنود المسلمون للادب العام، كما أنه واحد من الشعراء الذين منحهم خيالهم وفكرهم مكانة سمت على ضيق الحدود العقائدية والقومية لقد علمني ميرزا غالب وميرزا عبدالقادر بيدل كيف أبقى على الشرق في الفكر والتعبير حتى استوعب من الشعر الاجنبي الشيء". (2).

والحق أن تأثر اقبال بهؤلاء وبغيرهم من حملة الفكر والأدب أمر طبيعي لأن الشاعر أو أي مبدع آخر لا ينطلق من نقطة الصفر، بل يبني على موروث أمته الثقافي، والشعر تراث انساني مشترك، ينهل فيه اللاحق من السابق، ثم ان التلميذ لا بد آخذ عن استاذه، وربّما يكون التأثر بالاساتذة باب من أبواب الاعتراف بفضلهم، لاسيما وهو يملك ناصية الشعر ويملك القدرة على الكتابة دون أن يحتاج الى تلك التضمينات ولكنه كان يدرك أن تلك الاقتباسات والتضمينات تضفي على ابداعه بعدا جماليا آخر وتربطه بجذور ثقافته وحضارته.

ان ذلك الاقتباس من السابقين يمكن اعتباره عرفانا لهم بالسبق والبراعة من شاعر أحيا ما أرسوا قواعده، منذ قرون بعد ما كادت تذهب ريحه، وربّما عدد نتاه همسات من اقبال في آذان الراحلين ليطمئنوا ويهنأوا في مراقدهم، مادام في الدنيا من يلهج بما ترنموا به في غابر الزمن.

وهكذا ننتهي الى أن تلك الضمينات لم تؤثر على أسلوب اقبال الذي يحق أن يسمّى بين أساليب الشعراء الفرس الكبار "سبك اقبال"

---

1 - محمد منور ميرزا - علامه اقبال غزل فارسي، ص 149، (وضح النقاب قانون يملكه (يحرفه) قاطع الطريق، وجمال يوسف يملك عظمة ورونق تلال الثلوج المتراكمة فوق القمم).

2- Iqbal Review, (1988) Opcit ,p 178-179

ثانيا : رسالة الشرق والثقافة الغربية .

أ - بين اقبال وغوته :

ان عنوان الديوان موضوع الدراسة رسالة الشرق والعبارة التي سجلها اقبال تحت العنوان "للرد على الديوان الشرقي للشاعر الالماني غوته" ، وان المقدمة التي أطال فيها الحديث عن ديوان غوته الشرقي تقضي منا وقوفا عند رسالة الشرق والبحث فيه عن عناصر الثقافة الغربية وبخاصة الافكار المأخوذة من الديوان الشرقي للشاعر الغربي أو الصحيحة أو المناقضة والمعارضة لما فيه ولا يمكن أن نعتبر هذه المحاولة دراسة مقارنة بين الديوانين ، وانما هي خطوة ضرورية لفهم الديوان وتوضيح أبعاده الفكرية والفنية ، ولم يكن غوته الشخصية الوحيدة التي لفتت انتباه اقبال من أبناء الغرب فهو بحكم دراسته على أيدي أساتذة غربيين في بلاده (الهند) عرف الكثير من مفكري الغرب وأدبائه وشعرائه ، وكان سفره الى أوربا لمواصلة الدراسة الاساس القوي الذي دعم قاعدته في الثقافة الغربية ووسع معارفه وحدد مواقفه منها .

فمن رسالة الشرق وحده نجد ذكرا لاشهر فلاسفة الغرب وعلمائه وأدبائه ، الا أنه لم يقف في حد ذاته عن هؤلاء موقف المقلد المتأثر أو المعجب الذاهل بل وقف موقف الدارس المحلل والناقد المصحح لكثير من جهات النظر . حتى ليمكن القول ان اعمال اقبال لا يمكن أن يفهمه فيها ويوافقه على ما فيها من آراء غير مسلم مثله (1) بل ان بعض المترجمين أسقط من ترجمته للديوان ما سجله اقبال في انتقاد الغرب وفلسفته وعلمه وحكمته ، من أولئك الدكتور ايفاما يورو فيتش التي أسقطت من ترجمتها منظومة "حكمة الغرب" وفيها العقد الكبير .

كان ديوان اقبال رسالة الشرق الصوت الاول الذي استجاب لأمنية غوته وهمزة وصل الأدب العالمي ، وكان أجمل تعبير عن لقاء اقبال الروحي بالمانيا (2) وبعدها بأوربا ، فبواسطته عد اقبال وسيطا بين ثقافة الشرق والغرب ومثلا بارزا للحوار الشرقي الغربي وعلى رأسه حوار الثقافة الاسلامية والالمانية ، وأهمية

---

1 - مجلة فكر وفن ، عدد 32 ، ص 64 ، عدد خاص باقبال .

2 - ابراهيم عبد الرحمن محمد ، النظرية والتطبيق في الأدب المقارن ، دار العودة ، بيروت ، ط 1 ، ص 5 .

اقبال الى جانب كونه داعية الى تجديد التفكير الديني في الاسلام ومصلحا في شبه القارة هنا نهما تعود أيضا الى كونه "المحور الثقافي الذي اطلع على فكر الغرب ويقف في الطرف الآخر الشرقي ... وقد كان المؤهل أكثر من غيره لقيادة هذا الحوار"(1) ولكنه مع هذا كان وسيطا مميزا غير مستلب الفكر .

يعود تعرف أوروبا على الشرق الى العصر الكلاسيكي اليوناني ، وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين نقلت أوروبا عشرات الكتب العربية علمية وفلسفية وطبية أما الآثار الادبية التي أخذت من المشرق فنذكر منها على سبيل المثال كوميديا دانتي التي ذكر فيها نهر الغانج واليماقوت الشرقي وشجرة التيمن الشرقصي والحيوانات الشبيهة بما ورد في المهابهارتا (2) الهندية .

وفيها جعل الجنة الأرضية في سيلان (وهي فكرة هندية أصلا) ، وحتى القرن الخامس عشر ظلت الصورة التي استطاع الغرب أن يكونها عن الشرق مزيجا من الحقيقة والاسطورة فحتى أهل الفكر منه لم يتعرفوا على النواحي الفكرية والفلسفية والدينية والأدبية من بلاد الشرق الا في القرن السادس عشر ومابعده (3) .

وهكذا ننتهي الى أن ظاهرة الاتصال الحضاري بين الأمم والشعوب ظاهرة قديمة كانت التجارة والرحلات احدى وسائلها ، وكان الأدب أشهرها . وفي قدر هذا الشرق وعظمته رددا في النفوس يقول الرومانتيكي نوفاليس: "الشرق هو الدين الكبير في أعماق قلوبنا"(4) ويعني بهذا أن كل الاديان والنظريات الكبيرة للانسانية جاءت من الشرق .

ان تحية غوتة للشرق ، والشرق الاسلامي لم تأت من العدم ، فقد عرفت ألمانيا حركة غنية بالترجمات والدراسات الأدبية ، انطلقت من رهان أساسي وأعمى وهو أن لاجود للشرق ، وأن اللغة وحدها الموجودة ، وهي المواقع الوحيد المعترف به ، لأن الاستشراق الالماني انطلق من دراسة اللغة العربية كلغة ميتة والعرب كشعب بائد (5) . بسبل أن العربية وكثير من الدراسات الشرقية بقيت الى عهد قريب تابعة لقراءة لغة أخرى في المانيا هي العبرية ، ولقراءة دينية لاهوتية للتوراة ، وفوق هذا فقد مرت المانيا بفترة متبع الاصلاح الديني فيها كل مايمكن أن يكون انفتاحا على نصوص كافرة .(6)

---

1 - مجلة باكستان الصورة عدد 1 لعام 62 ص 10 ، (الحوار بين الشرق والغرب في فلسفة محمد اقبال ، محمد عبد القادر قلعه جي)

2 - هو كتاب الهند الديني .

3 - مجلة الفكر العربي ، عدد 31 ، سنة 5 مارس 1983 ، ص 36 ، 43 (الغرب يترقى ، نقولا زياد قا

4 - شاعر المانيا غنائي صوفي ، (1772 - 1801م) من رواد المدرسة الرومنسية الالمانية التي نادت بالاستحياء من القرون الوسطى ومن الاساطير والحكايات الشعبية ، وباطلاق العنان للخيال . (المعجم الادبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، 1984 ، ص 337) .

5 - مجلة فكر وفن عدد 32 ، ص 18 ، عدد خاص باقبال .

فليس غريبا أن يوصف غوته في بعض كتاباته عن الشرق بالكفر والمروق عن الدين . ماكاد ترواية "محمد" تظهر الى الوجود حتى راح خصومه من المتعصبين يتهمونه بالكفر والخروج عن النصرانية فكان أن ردّ على ذلك الاتهام برسالة مشهورة عنوانها : "لماذا آمنت بمحمد". ذكر فيها أنه أحب محمد صلى الله عليه وسلم كما أحب عيسى بن مريم عليه السلام وأنه يرى في الاسلام ديانة الخلق السامي الصحيح (1) .

كما كان جوهان جاكوب رسكه (1716 - 1774) من أوائل الرافضين للقراءة اللاهوتية للنص العربي وكانت دراسته لجرير والبحتري والمعلقات احياء للعربية باعتبارها لغة قائمة بذاتها تحمل قيما اخرى غير القيم اللغوية وكانت سببا في خلافه مع استاذه شولتز الذي يعتقد ان العربية لايمكن أن تكون الا لغة اضافية من أجل دراسة العبرية ، وان الشعر العربي لايمكن ان يكون الا مرجعا لاثبات توراهيين التوراة ، كما يرجع الفضل للباحث ريسكه في التحول بالاهتمامات من الشرقي الى الاسلامي الذي لايشتمل الحضارة العربية وحدها وانما هو سلسلة حضارات وشعوب ، عرب وفرس وأتراك وبربر ... وغيرها من عناصر الشعوب الاسلامية ، وهو الذي سمّى نفسه "شهيد اللغة العربية" (2) .

ومن الآثار الاسلامية المترجمة التي كان لها الأثر في اهتمامات غوته بالشرق ترجمة العالم هامّر برجشتل لتائية ابن الفارض (شاعر الحب الالهي) وقصة عنترة ابن شداد وكتاب الامام الغزالي "أيها الولد" وديوان الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ، وهي الترجمات التي اطلع عليها جميعا في مكتبة فايمار (3) .

ومن الدارسين الالمان للثقافة الشرقية جورج فيلهلم فريتاغ ناشر حماسة أبي تمام وشروح التبريزي ، والاستاذ ج ع د ، كوز غرتن ناشر "ألف ليلة وليلة" و"رحلة ابن بطوطة" و"تاريخ البصري" ، وهو الذي أسماه غوته أستاذ اللغات الشرقية بجامعة يينا أما فريدريك روكرت تلميذ غوته فقد ترجم خمسين سورة من القرآن الكريم ومقامات الحريري ومقاطع من الشاهنامة وكان روزن من أشهر من ترجم في شعر التصوف الاسلامي (4) وغير هؤلاء كثير .

هذا قليل من كثير من اهتمام الالمان بالدراسات الشرقية الاسلامية التي كان لها

---

1 - مجلة الرسالة ، سنة 1 ، عدد 14 ، ص 52 .

2 - مجلة الفكر العربي عدد 31 سنة 5 ، ص 193 عن 1951 ، تاريخ الاستشراق الالماني ، أحمد حسن عبد السلام .

3 - عبد المنعم الخفاجي - الاسلام والحضارة الانسانية ، ص 296 .

4 - المرجع نفسه ، ص 297 .

الأنس في ميلاد الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، والذي كان بدوره سببا في ميلاد ديوان رسالة المشرق ان غوته في المانيا وفي الآداب الانسانية عامة أنبسه بالحديث التاريخي ، فقد ظهر الاتجاه الى الادب المقارن والدراسات الادبية المقارنة في الادب الالماني في محاولات فردية على أيدي بعض الكتاب وعلى رأسهم ليسنج وغوته (1) فقد فتح غوته صفحة جديدة في تاريخ الثقافة. عندما تحدث عن أهمية ظهور الادب العالمي ، وبفضل جهوده خطت الآداب خطوة نحو العالمية ، ففي عام 1827م أعلن أن الشعر أصبح "ملكا للانسانية جمعاء" وأن الوقت قد حان لتشويق أدب عالمي" (2) ، وقال مرة مبيّنا فضل كتابات هردر ، (القس حينا ورئيس الشماسة ودارس العبرية واليونانية) في ادراكه لهذه الحقيقة : "علمتني كتب هردر ان فن الشعر هبة عالمية وهبة للأمم وليس ارثا لبعض المثقفين المهذبين" (3).

فوطن الشعر عنده انما يستمد من أوطان عديدة ، يقول : "سوف يكون من شأن الأدب يوضعه انسانا ومواطنا أن يحب وطنه الأم ، لكن وطن طاقاته الشعرية وتأثيره الشعري هو قيم الخير والنبل والجمال ، وهذه لا ترتبط باقليم معين ولا ببلاد معينة بل هي قيم يعهد الى اعتناقها والتمسك بها وتشكيلها" (4) ، وقد تجد الاديب وهو يلتقط تلك القيم من هنا وهناك بنسر الأمر عنده سواء فيما اذا كان الارنب الذي انقض عليه في بروسيا أو سكسونيا . واذ يدعو لعالمية الأدب انما لأن العالم الاوسع عنده "مهما امتد رقعته واتسعت لا يعدو كونه وطنا موسعا فحسب (5).

وكان انتاج غوته تطبيقا عمليا لما ذهب اليه وهالا حسنا للصلات الثقافية الشرق غربية .

ولعلّ أشهر ما حمل تلك الصلة ديوانه الشرقي ، الذي تجلى فيه أثر الثقافة الاسلامية، ففي أول صفحاته الخاصة للعنوان كتب أعلاه "ولله المشرق والمغرب" (6)، وهي الاية التي أثبتها اقبال في أول ما يطالع القارئ من الديوان صفحة الغلاف الخارجي ، وفيه الكثير من الثقافة الاسلامية ، منها ما اتصل بالقرآن الكريم ، بل أن غوته خاص في أعجب حوار دار بين علماء المسلمين وأخطره وهو قصة خلق القرآن ، ولكنه نزه

---

1 ـ عدنان محمد وزان ـ مطالعات في الأدب المقارن ، الدار السعودية للنشر والتوزيع 1403 هـ (ذكره ص 1 ، ص 2).

2 ـ الكسندر دليطر (مترجم) مبادئ علم الادب المقارن ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1987 ص 100

3 ـ امري نف ، المؤرخون وروح الشعر ، ترجمة توفيق اسكندر ، ط 2 ، 1984 دار الحداثة لبنان.

4 ـ بيتر بورشو غوته ، ترجمة أسعد زروق المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ص 177.

5 ـ المرجع نفسه ، ص 188

6 ـ من قوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) سورة البقرة آية: 115.

نفسه عن القول بذلك أو السؤال عنه ، يقول :

"كان الناس عند ما يذكرون القرآن يذكرون السورة والآية ، ... أما الدراويش الجدد فلا همّ لهم إلا اللغو في القديم والحديث ، ... هل القرآن قديم؟ هذا سؤال لا أسأله ، هل القرآن مخلوق؟ هذا ما لا أعرفه ، أما أنه أم الكتاب فذلك ما أومن به وذلك واجب كل مسلم" (1) .

ومن القصص القرآني تأثر بقصة أهل الكهف وقصة خلق الانسان وغيرها ومن آثار الثقافة الاسلامية في الديوان الشرقي التاريخ الاسلامي ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ولكن الاثر الاكبر كان لحافظ الشيرازي الى الحد الذي يمكن اعتبار الديوان مرآة عكست ديوان الشاعر الفارسي الطهم لروح شاعر الالمان . فأقسام ديوان غوته تحمل عناوين وأسماء جلّها ـ ان لم نقل كلها ـ فارسي مأخوذ من ديوان حافظ الذي كان اكتشافه بمثابة نقطة التحول في حياة غوته ، وهو في الستين من عمره ، عكف على وضع الديوان الشرقي وعكف على الطالعة له وهام فيه بسحر الشرق ، فهاجر اليه بروحه في زمن اضطربت فيه الدنيا واختلت موازينها ولم يبق له أمل الا في الشرق مهد الرسالات السماوية .

كما كان للشعراء العرب وجودهم في فكر غوته وديوانه الذي كان يهدف من ورائه الى تحقيق "فتوحات جديدة في عالم الفكر" (2) منهما اثارة اهتمام الالمان بأدباء الشرق الذين لم يكن أحد في المانيا قد عرف عنهم شيئا . كما كان يهمه بعث الكنوز العربية الدفينة مثل شعراء المعلقات والشعراء الصعاليك ليفتح لهؤلاء جميعا الطريق الى قلوب وعقول الالمان .

اذا أردنا الحديث عن اقبال وغوته ومدى تأثر اقبال بشاعر الالمان فاننا نحتاج الى طرف ثالث لايكمل الحديث الا به ألا وهو حافظ الشيرازي ، الذي كان له حظ من الشهرة والتأثير في الغرب لم يبلغها غير الخيام بين شعراء الشرق . عرفه الانجليز عن طريق الهند (طبع في كلكتا 1791) وعرفه الالمان عن طريق الاتراك واعتمدوا على شرح سودي وهو الاساس الذي قامت عليه ترجمة فون همر (في جزأين 1812) (3) وهي التي كان لها الفضل رغم افتقادها للجودة في التعريف بحافظ في كل أنحاء أوربا .

---

1 ـ غوته ، الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط 2 ، 1980 ، ص 9 .

2 ـ كاترينا موسن ، غوته وألف ليلة وليلة ، ترجمة أحمد الحمو ، وزارة التعليم العالي سوريا ، 1980 . ص 157 .

3 ـ غوته ، الديوان الشرقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، المقدمة ، ص 38 ـ 42 .

اختار غوته حافظا من باب الاعجاب بفنّه كما يقتضيه صريح كلام حافظ بعيدا عن التأويل وبعيدا عن الرموز الحافظية ، أعجب به لاقباله على السرور وعلى التمتع بكل ما تأتي به اللحظة الحاضرة ، قال منتقدا الذين أوّلوا شعره : "لقد لقبوك ، أي حافظ (الاقدس) باللسان الصوفي ، ولكنهم وهم العلماء بالكلام لم يفهموا قيمة كلماتك . انك تسمى عندهم الصوفي ، لأنهم يفكرون في شعرك تفكيرا أحمق ... حقا انك لصوفي ، ولكن لسبب واحد : هو أنهم لا يستطيعون فهمك أنت يا من أنت سعيد ، من غير أن تكون تقيّا" .) (1) .

فالذي لفت انتباه غوته هو ظاهر كلام حافظ ، فعلى الرغم من جمع حافظ بين الجانبين الحسّي والمعنوي وترك الناس في حيرة من أمره ، أيفسرونه تفسيرا صوفيا أم تفسيرا حسيا دنيويا ، فان غوته رجح الجانب الحسي ، ولكنه ـ وعلى غير وعي منه ـ مزج بين الصوفية العميقة المحلقة في سماء الالوهية وبين الحسية الناقدة في أعماق الطبيعة الانسية (2) .

ان القارئ للديوان الشرقي يذهل عندما يدرك أن ما استوعبه غوته من الشرق كان مجرد أفكار لجأ اليهما لنسيان وتجاوز ما حوله من هموم ، مجرد أفكار أو هي معلومات ثقافية عن الشرق الاسلامي أراد أن ينقلها الى القراء ، حتى في حديثه عن الاسلام ، "اذا كان الاسلام معناه التسليم لله فعلى الاسلام نحيا ونموت جميعا" (3) ظل غوته رجلا غريبا فكاره واتجاهاته ومواقفه ، وظل رجلا غريبا عما يكتبه ، يفكر تفكير الغربيين رغم هجرته وتوشحه بسوح الشرق ، وظل ينظر الى الحياة نظرة الرجل الغربي الالماني .

وحتى ديوانه الشرقي أبى الا أن يكون غربيا . فهو الديوان الذي أخذ الالهام من الشرق ولكنه أيضا الديوان الغربي أو ديوان الشاعر الغربي . لأنه فسّر تلك العطاءات الشرقية وذلك الزخم الروحي القادم من الشرق تفسير رجل غربي ، فكان بذلك مزيجا طريفا لا شرقيا ولا غربيا .

ظهر حافظ في بلد تدهورت أحواله الاقتصادية والسياسية ويقي الشعر فيه شامخا وهي المتناقضة التي عرفتها ألمانيا في عهد غوته ، حيث كانت الهوة فسيحة بين التأخر السياسي والاقتصادي وبين النهوض الفكري والأدبي الذي "تطور في ظروف مؤسفة" (4) . وهي الظروف الشبيهة بميلاد اقبال فقد عدّه ملك الشعراء بهمسار

---

1 ـ المرجع السابق ، المقدمة ، ص 44 .

2 ـ المرجع نفسه ، المقدمة ، ص 47 .

3 ـ المرجع نفسه ، المقدمة ، ص 37 .

4 ـ فؤاد المرعي ، المدخل الى الآداب الاوروبية ، ط 2 ، مديرية الكتب والمطبوعات ، ص 172 .

نادرة عصره ورأى أن الزمان زمانه (1)».

كان لحافظ الشيرازي «شاه شجاع» شاه شيراز وماحولها ولي نعمة ومؤيدا ونصيرا يهدي له ديوان شعره ،وكان لغوته الامير «كارل أوغست» الذي قلده الكثير من المناصب السياسية في مدينة ويمر (فايمار) واليه أهدى روائع بيانه ،كما كان اهداؤه الى ذلك الامير وقصته معه أشبه بقصة شكس بكمي مع البرمكي في «الف ليلة وليلة» ،فما كان منه الا أن يشبهه آخر المنعمين بأولهما ، قال في الاهداء الى الامير كارل أوغست : «جعلت عشرين سنة من عمري تمر ،وتمتعت بما أتيح لي ،انها مجموعة جميلة مثل عصر البرامكة (2) لأن البرامكة كانوا نموذجا لأمراء الشرق المشجعين للآداب والفنون وأهلهما .

وفي مقابل هؤلاء الامراء نظر اقبال الى العالم الاسلامي من حوله فموجده هيدا، داريمة ويسرة ،نظر الى قلاع الاسلام القريبة منه فوجد بلاد الافغان تكاد تكون وحدها الطليعة المحطم من قيد الاستعمار آنذاك رغم ماتعرضت له من تهديدات ، فرأى في أميرها الجديد المدني بويع مثالا للمسلم المعتدل ،ورآه جديرا بأن يهدي اليه الديوان لاسيما وقد أرسى الامن في البلاد وكان له سجال مع الانجليز انتهوا فيه الى طلب الهدنة منه وان سير المملكة الحيث في عهده جعل العارفين بأمور البلاد يحكمون أنه لاتمضي عشرون عاما حتى تصير أفغانستان أعز دولة في آسيا الوسطى وتصبح ركنا للشرق وأهله (3).

الا ان آمال هؤلاء وآمال اقبال المعلقة على ذلك الشباب تبخرت وذهبت أحاديث اقبال عنه وحماسه الزائد له ادراج الرياح ،فكانت أشبه بقصيدته في مصطفى كمال أتاتورك واذ صحيح موقفه من اتاتورك ، فان الراجح لم توشدنا الى موقف جديد له من الامير أمان الله خان رغم زيارته لافغانستان عام 1933 بدعوة من حاكم البلاد الجديد نادر شاه ،فكان الاندفاع العاطفي الثاني الذي يخيب فيه اقبال ،يكفي أنه وجد أميرا كما كان لحافظ ولغوته من بعده .

فاذا سرنا مع اقبال وغوته وجدنا قصيدة خلق الانسان ،وفيها اقتصر غوته على أصل الانسان ونفخ الروح فيه ،بينما فصل اقبال القصة كاملة من بدء الخلق الى الهبوط الى الأرض .

1ـ مجلة الرسالة عدد 262 ،سنة 6 مجلد 2 ص 1147 (محمد اقبال عبد الوهاب عزام) .

2ـ كاترينا مومسن ،غوته وألف ليلة وليلة ،ص 160 ، 161 (وفي ترجمة عبد الرحمن بدوي) :
«أمضيت من عمري مدى ، متمتعا فيه بما تيسر ، عهد جميل قد حكى عهد البرامكة المنتصر» ص 57) .

3ـ لوثروب ،حاضر العالم الاسلامي ،مجلد 1 ،جزء 2 ، ص 210 ـ 213 .

هذا وقد كان لاقبال وقفات مع فكرة الخير والشر وضرورة تآلفهما ، فكان ذلك موافقا لما ذهب اليه غوته من ضرورة وجود الشر ليكمل الجزء الآخر من الحياة وهو الخير ، ولكن اقبال استمد ذلك من الشرك الاسلامي ومن سنن الله في الكون ، بل هو من أدل الدلائل على كمال قدرة الولي عزّ وجلّ وعزته وسلطانه وملكه وان خلو الوجود عن بعض هذه المتضادات بالكلية : "تعطيل لحكمته وكمال تصرفه" (1). فقد خلق الله سبحانه : "ابليس ، الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات ، وهو سبب شقاوة العبيد وعطبهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ... ومع هذا فهو وسيلة الى محابّ كثيرة للرب تعالى ، ترتبت على خلقه وجودها أحبّ اليه من عدمها" (2).

فقد وهب الله الانسان عقلا وهداه النجدين وبه يميز بينهما ويعرف الخير من الشر ، وبه اما أن يكون شاكرا واما أن يكون كفورا . بالعقل تعرف قدرات البشر وأقدارهم ، ولو لا وجود الشر الى جانب الخير لما كان هناك عقاب وحساب أو ثواب ولما كانت هناك جنّة أو نار ، ان الشر جزء من سنن الله في الأرض يتحتم على الانسان فهمه وتجنبه لأن الجاهل له أشد الناس وقوعا فيه .

اكتشفت أناماري شيمل وهي المتخصصة في الدراسات الاقبالية مدى جاذبية صورة الشيطان في أعماله (3) الا أنه لم يكن متفردا في تلك النظرة ولا غوته متفرد فيها فهيرقليدس هيراقليطس يعتقد أن "الخير والشر توطئان في سمفونية واحدة ، وسمفونية العالم عنده ، هي نتيجة لتلازم هذين الضدين المتناقضين ، الخير والشر" (4) وان كان البشر لا يرون الا هذين الضدين فان الله يرى السمفونية ويرى كل شيء حقا وصحيحا (5) فلولا الشر ولولا الآلام لتساوى الناس في فهم الحياة ولما وجد تأسرار يتفاوت الناس في معرفتها بتفاوت أقدارهم .

يرى اقبال أنه لا بد من آلام ولا بد من العذاب الذي به تنضج الارواح وبه يصل الناس الى السعادة فالحكمة لا تنقش على القلب الا بحروف من دمائه ، واذا كانت العظمة درجات فان الآلام هي الطريق وهي سلّم العروج اليها ، يقول :

ـ ان كانت الحياة خمرا صافيا يغمرنا من رأسنا الى القدم .

---

1 ـ ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ص 144 .

2 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .

3 ـ مجلة فكر وفن ، عدد 32 ، ص 67 (عدد خاص باقبال) .

4 ـ Syed Abdelvahid , Studies in Iqbal , p 57 ;

5 ـ المرجع نفسه ، ص 65 .

ففي الدموع للحياة جدول تصفو به النفس وتنبت الهمم .
والله في حكمته علمنا ان انشراح الصدر قبله الألم .
آلامنا الى العلا أجنحة تعلو بها فوق مطارات النسور
الروح ستر والحياة ظلمة وشعلة الآلام للأرواح نور (1)

وقد راود اقبال السؤال الذي شغل المفكرين عن الخير والشر فقال : « كيف يمكننا التوفيق بين الخير الالهي المطلق مع السقر العظيم من الشر في خلقه »(2) .

ولكنه لم يكن سؤال المنكر لسنن الله في خلقه ، فقد أعلن رفضه لحياة في عالم فيه الله وليس فيه شيطان ، يقول :

- فلا تعش في عالم باهت ، فيه الاله وليس فيه الشيطان (3) .

ولأنه أدرك أن التناقض والصراع الدائم بين الخير والشر هو الذي يضفي على الحياة نموا وغنى ويمنح الفكر الحركة فقد ناداى ببقاء أقصى درجات الشر عنده وهي المتمثلة في ابليس (أو الشيطان) لأن ابعاده من العالم « قد يعني ابعاد الشر وهذا مايؤدي الى تدهور القانون الالهي »(4) وقال في المعنى نفسه :

- سألت شيخا بعيد النظر ما الحياة ، فاجاب هي خمر الأمر فيها أحلى .
قلت : قد قصرت طبيعتها على الشر ، فأجاب : أنت لا تعلم أن هذا الشر هو عندها خير (5) .

وهذا ماحدا به الى تصوير آدم يوم الحساب يقف معترفا بذنوبه ولكنه يعترف أيضا في حياء بأنه من غير الممكن أن ينحّي قابلياته وأن يسمو بارادته وكفاحه ويصعد ثانية الى السماء بعدما أنزل منها دون مروره بتلك التجربة مع الشيطان ، يقول :

. . . تدنيت الى أسفل الأرض ثم علوت حتى الافلاك ، فالذرة والشمس الضئيلة سجينة سحري .

فان أبعدني الساحر (الشيطان) عن طريق الصواب ، فتجاوز عن خطيئتي وتقبل العذر عن ذنوبي ومعاصيّ .

حتى يذوب هذا الصندوق الحجري من أنفاسي الحارة وتأوهاتي ، فانه يجب على قبل أن أقطع الطريق أن أكون مخلصا له (6)

---

1 - محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان ، الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي ، ص 71 .
2 - Syed Abdulvahid , Studies in Iqal , p 60
3 - رسالة المشرق ، ص 502 .
4 - Syed Abdulvahid , Studies in Iqbal p 60 .
5 - رسالة المشرق ، ص 295 .
6 - رسالة المشرق ، ص 353 .

فالشاعر أحد ثلاثة سنن الله في الكون به تعرف معادن البشر وأقدارهم، وبه تسير الحياة كما تسير بالنصف الآخر الذي هو الخير . ولعل هذا ما حدا بإقبال الى أن يضع الشيطان في ديوانه رسالة الخلود في كوكب المشتري رفقة كبار المتصوفة والشعراء الذين رفضوا البقاء في الجنة وفضلوا البقاء متجولين في الكون (1) .

أما أقصى درجات الشر عند غوته فمثلتها قصة فاوست في صراع الحكام والعبيد وفيها صرّح أن الخطأ وعدم الاتقان والصراع أمور تتعرض لها حياة الانسان وجهده بالضرورة (2) . كما اعترف بضرورة وجود الشر وبأنه سنة الحياة أرسلت على الخاطئين الراغبين الى الراحة حتى تدوقهم ، قال : « يقول الرب (الحاكم) : ان الانسان وجد الراحة مغرية وجذابة جدا ، حبيبة الى القلب دائمة غير محدودة ، وذلك ما جعلني أقدم له رفيقا ، يجب أن يعيش و يدفعه فلما يدفعه الشر »(3)

وقد أقتسم اقبال الفكرة مع مرشده الروحي جلال الدين الرومي الذي يقول : « بالرغم من ان الخير والشر ضدان فيجب أن يقعا في نفس الكل ، حيث لا يمكن أن يكون أحدهما حادثا منفردا ، لأن الحوادث تباعا »(4) .

ان هذه المقتطفات لا تحمل كل ما سجله اقبال للاقناع بفكرته لأنه أعادها في كثير من دواوينه وأعماله ، كما أنها ليست كل ما قاله غوته لتوكيد فكرته ، وانما هي اشارة لوجه من أوجه الشبه بينهما مع اختلاف الشارب وان اتفقت الصادر في بعض الاحيان كما كان العشق قاسما مشتركا بينهما وان اختلفت مواقفهما ، فغوته لا يريد من قصص العشاق السبعة (زال ورودابه - رود اورستم ، زليخا ويوسف ، شيرين وفرهاد ، ليلى والمجنون بثينة وجميل ، وبلقيس وسليمان) سوى العشق الأرضي الدنيوي .

فبعد تلك الاطلة التي خلط فيها بين زال وابنه رستم واختزع قصة حب بين سليمان وبلقيس - ربما أخذها من العهد القديم - بدأ في سرد قصص غرامه وحنينه ، وبدأ البوح بشهواته الجامحة (5) أما اقبال فلم يخصص للعشق بابا أو كتابا ، وانما أطلق له العنان ليسبح في كل اجزاء الديوان ، وأما قصص العشق الأرضي التي استعان بها فقد اتخذها رموزا لعشق أسمى وهو حب الله ، ولما رأى عجزها عن احتواء ذلك الحب الأزلي لجأ الى التصريح والبوح بأن المراد من تلك القصص

---

1 - انظر جاويد نامه - لمحمد اقبال - ترجمة د حسين مجيب المصري . ص 209.

2 - Syed Abdulvahid , Studies in Iqbal ,60 .

3 - المرجع نفسه ، ص 64.

4 - المرجع نفسه ، ص 61 .

5 - انظر الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، ص 115 ، 136 .

ليس ترابيا ،وليس عربيا سريا انه الأعلى نفسه . وكذلك كان موقفهما من الخمر فهي عند اقبال صهباء كلام ومعاني وصهباء سفر وذوق وشوق ،أما غوته فقصد بالخمر الخمر نفسها وبالرمز الرمز نفسه ولاشيء وراء ،وقصد بالجزئي الخاص الجزئي الخاص (1) ولعلّ فيما ذكره لتحريم الخمر أكثر من مرة على المسلمين دلالة على أنه لايريد بها غير بنت العنب ،يقول :

- الحياة العزيزة تهتم بتزويدنا بالهموم ، ومهمة الاعناب طرد الهموم ، الخمر محرم حسبما فهمت ، فان كان لابدّ من الشراب فعلى الاقل لاتشرب غير أجود الخمر .

الساقي : النبي حرمها ،

المشاعر : اسمع اننا معاشر المسلمين يجب علينا أن نظل في صحو (2).

وكان حديثهما عن الخطر أيضا مختلفا ،فبينما اعتمد غوته الاسلوب المباشر ،كان دائما يلجأ اقبال الى الرمز والتلميح ،هذا الى جانب اختلاف الرؤى واختلاف البناء الفكري لكل منهما .

ركز غوته اهتمامه على ضرورة القوة الى حدّ الطغيان ،وأحاط الاقوياء بكثير من اعجابه فوصف المضطهدين بالحمقى ، يقول : "تستطيع أن تدرك جيدا ،أن القوة العالية لايمكن نفيها من العالم ، ويطيب لي التحدث مع الماهرين والطغاة ،لما كان الحمقى المضطهدون يتأهبون على صحو وقاح ... ،فقد أعلنت أنني حرّ من الحمقى ..."(3) وربما كانت هذه الابيات وغيرها من كتابات غوته سببا في احترام الفيلسوف الالماني نيتشه له ، وربما كانت الدعامة التي أقام عليها فلسفته ،فقد قال فيه : "غوته هو آخر رجل المانيّ أكنّ له الاحترام"(4) ولعلها كانت سببا لاحترام بطل فرنسا له (نابليون) وقوله : أنت رجل ياسيد غوته (5). فقد كان غوته يدافع عن الامتياز الفردي الفذّ حتى وان جاء بالدمار ، ويؤمن بتصفية العناصر الضعيفة وابادتها ، ووصف الدين يسوؤهم امتياز المختار وتفوق المتفوق بالكذابين فقال : تيمور يقول ، ماذا؟ هل تقدحون في العاصفة العاتية للكبرياء أيها الكذابون (6).

---

1 - انظر الديوان الشرقي للشاعر الغربي ،ص115 - 136.
2 - غوته الديوان الشرقي ، ص70و182 -183.
3 - المرجع نفسه ، ص167.
4 - Eknez Ali ,Les Maitres penseurs ,HocinLotfi, E.N.A.L.Alger. I985 , p 42.
5 - المرجع نفسه ،ص41.
6 - غوته الديوان الشرقي ،ص180.

أما حياة الخطر عند اقبال فهي دعوة دائمة الى العمل وثورة على الدعة والكسل والخمول ولوبعد الوصول الى الغايات السامية (1)

هذه بعض القضايا التي اشترك فيها الشاعر الغربي والشاعر الشرقي في الفكرة واختلفت أساليب الحديث لاختلاف البناء الفكري والمعتقد ،وهو لقاء عام بينهما أما ما صرّح فيه بالرد على غوته أو التصحيح له أو معارضته فمنه قصيدة: الحور والشاعر" ،ففيها حافظ اقبال على عنوان غوته وسجل شارحا في الهامش أنها في جواب نظم غوته الحور والشاعر ،وفيها يتجلى اتجاه كل واحد منهما .

الاول بفكره الغربي يطلب المتعة المادية بلاحدود ،والثاني بفكره الشرقي يسعى من شالي حسن الى مثالي أحسن ،ويطلب متعة الروح لا الجسد .

صوّر غوته نفسه داخلا الى الجنّة والحور مرتابة من أمره تريد معرفة سبب دخوله الجنة وتطلب منه أن يكشف عن الجراح التي أذنت له بدخولها وصوّر نفسه ملحّا على الدخول ،واضعا نفسه في مرتبة الشهداء ،جاعلا من جراح الحب البشري مفتاحا ،وهناك يختار لنفسه واحدة من الحور في صورة زليخا التي عرفها في الدنيا ، وتتذكر هي الاخرى ماكان ينشدها في الدنيا من أشعار ثم ينشدها " أنت من نصيبي ،ولن أدعك تفارقين السلام الابدي ،ينبغي عليك ألّا تحرسني بعد اليوم"(2)

وهذه القطعة تكشف عن طينية غوته وبشريته بعيدا عن شفافية الروح وتساميها ، انه ينشد الحبّ الارضي ويعيد صوره حتى وهو في الجنة ،بينما يستميت في طلب الجنة من أجل التمتع بنعيمها المادي نجد اقبال في صراع مع الحور التي طالما حاولت اغراءه ، ،ولكن محاولاتها باءت بالفشل أمام طموح اقبال واضطرابه وخفقانه الذي لايلائمه القعود في الجنة .

أجابها بأن الجنة وما فيها من نعيم ليست غاية الغايات، فالمؤمن يكتشف ببحثه ما هو أجمل وأسمى ، وتلك طبيعة رسخت فيه ودرج عليها ، اذا رأى شررا لم يقنع به وطلب القمر ،واذا فاز بالنجوم طلب الشمس،وهكذا ،كلما حققت نفسه أمرا أوجد لها آخر تطلبه ،يقول :

- تخدعين قلب سالك مريد بكلام لاذع ،فربّما لاتبلغ لذته هذه وخزة الشوك.

---

1 - انظر رسالة الشرق ، "اذا كنت تطلب الحياة فعش في خطر" ص 295

2 - غوته - الديوان الشرقي ،ص 318.

ماذا أعمل وطبيعتي لاترتضي القعود في المنازل ، وقلبي قلق خفاق مثل الصبا حول شقائق الروض .

انني كلما استقر نظري وتسلبت عيني صورة مليحة ، يخفق قلبي بما حسنا عن صورة أحسن . طلبت في الشرر نجمة ، وبحثت في النجم عن الشمس ، اني ليقلقني القرار فليس لي هدف أو منزل (1) .

وأما القصيدة الثانية مجرى الماء فقد أشار في الهامش أنها ترجمة حرة لقصيدة غوته النشيد المحمدي ، فقال : هذه ترجمة حرة لقصيدة غوته (Nahme Mohammad) كتبت قبل الديوان الشرقي ، وهذا الشاعر الالماني يوضح فيها الفكر الاسلامي ويشرحه بطريقة رائعة ، ولهذا فان القصيدة يجب أن تشكل جزء من وصف (سير) حياة الاسلام (وحركته) التي لا تزال قائمة ، وأنا لا أريد من خلال هذه الترجمة سوى اظهار وجهة نظر الشاعر (2) .

صاغ غوته قصيدته في وصف فيض الاسلام في قالب حوار بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه و فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، شبه فيها سرعة انتشار الاسلام وقوته بالسيل العارم القوي الذي يأتي من أعالي الجبال الشم وقد باركته الملائكة في السماء ، وهو في هدايته للناس على اختلاف طبقاتهم مثل السيل عندما يأخذ في طريقه كل مايلقاه بلا تمييز . وهو في امتداده الى أقطار كثيرة مثل السيل أيضا في اجتيازه البلاد ، وهو اذ يأخذ الناس الى رحاب الاسلام ويعود بهم الى الدين الذي لن يقبل غيره عند الله مثل السيل الذي ينتهي في الاخير بكل مايحمل الى أبيهم ومصدرهم البحر ، فالاسلام هو السيل الذي طلبت فاطمة وعلي يرجوانه أن يأخذهما معه ، يقول :

علي : انظروا الى السيل العارم القوي ، وقد انحدر من الجبل الشامخ العلي ، أبلج متألقا كأنه الكوكب الدري .

فاطمة : لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير في مهد ، بين الصخور والاد غال .

علي : لاشيء يستوقفه ، لا الوادي الوارف الظليل ، ولا الازهار تلتف حول قدميه وتطوق رجليه ... بل هو مندفع عجلان صامد الى الوهاد .

فاطمة : وهذه أنهار الوهاد تسعى اليه في سماح ومحبة ، مستسلمة له مندمجة فيه .

علي وفاطمة في صوت واحد : خذنا معك ، خذنا معك .

---

1 - رسالة الشرق ، ص 7 و 2 .

2 - M^ed Iqbal ,Message de l'Orient,Tr parEVaMeyerovtchet Mohammed Achena, Les BellesLettres , paris , pI24 .

فاطمة : خذنا معك الى البحر المحيط الازلي ، الذي ينتظرنا باسطا ذراعيه ، لقد طال ما بسطهما ليضمّ أبناءه المشتاقين اليه .

علي : هلمّ جميعا هو ذا العباب يطمّ ويزخر ، ويزداد عظمة على عظمة . هو ذا شعب بأسره ، وعلى رأسه زعيمه الاكبر مرتفعا الى أوج العلا ، وهو في زحفه الظافر يجوب الآفاق ويخلع اسمه على الاقطار وتنشأ عند قدميه المدائن والامصار ...

علي : وعلى متنه الجبار تجري منشآت السفن كالاعلام ، شارعة أشرعتها الخفاقة الى السماء ، شاهدة على قوته وعظمته وهكذا يفضي السيل العظيم الى الامام بأبنائه .

فاطمة : ويفضي الى الامام ببناته .

فاطمة وعلي في صوت واحد : الى أبيهم ذلك البحر العظيم الذي ينتظرهم ليضمّهم الى صدره وهو يعجّ بالفرح العميم . (1)

أما قصيدة اقبال فقد وضع لها عنوانا وهو "مجرى الماء" وهو الرمز الذي أخذه عن غوته ، فيها كثير من نقاط الالتقاء بينهما لأنها كانت ترجمة لقصيدة غوته ولا يميزها عنها سوى سقوط أسلوب الحوار وطرفيه (علي وفاطمة) مما جعل قصيدة اقبال تركب مركب الرمز . فالمجرى عنده سائر في طريقه لا يسلوى على وقوف ، لا يثنيه عن هدفه البحر شيئ ، يقسم منحه على كل من يصادفه ، وكذلك كان الاسلام لا يفرق بين عهد وعهد الا بالتقوى ، يقول :

ـ انظر كيف يجري السيل الثمل ، بين الرياض الخضر مثل المجرة

قد كان نائما في هدوء مهد السحاب ، وفتح عينيه على حبّ أحضان السحاب .

يمكب الانغام فوق الرمال فتجعلها في تناغم وانسجام ، ومن علاماته أنه كالمرآة صافي اللون بلا بقايا غبار .

يسير صوب البحر الّلا محدود ثملا ، هو وحده في نفسه وغريب عن الآخرين .

ـ مئات الانهار والصحارى والخمائل والجبال والحدائق ، تقول : أنت يا من بسطت لك الارض الطريق .

قد ضاق بنا الطريق فنحن لا نقوى على حمل قطرة ماء ، فاحفظنا من اغراء رمال الصحراء .

---

1 ـ مجلة فكر وفن ، عدد 37 ، سنة 19 (1982) ص 4 ـ 5 .

لكنه أصبح صدره متجهاً نحو المشرق والمغرب ، حاملاً كل المسافرين الضعاف والعاجزين .

يسير صوب البحر الملا محدود ثملا ، هو وحده في نفسه وغريب عن الآخرين .

ـ تجاوز البحر الهادر والحواجز والسدود ، واجتاز ضائق الأودية والجبال والتلال .

فاض هذا السيل بلا تفاوت على السهل والمرتفع ، وعلى القصر الملكي والحصن والحقل والخميلة .

مضطرب ، سريع ، هائج ، محترق الفؤاد بلا قرار ، هو في كل زمان يترك قديماً ليعبر جديداً .

يسير صوب البحر الملأ محدود ثملا ، هو وحده في نفسه وغريب عن الآخرين (1) .

والحقيقة أن اقبال وان أعلن أنها ترجمة حرّة لشعر غوته لم يكن مقلداً لأنه أعطى الشاعر حقه ، وأحيا مواهبه ، وقدّر فيه حبّه للشرق وانصافه لأهله وبنيه ودينه ، فانصفه بأن ذكر الشرق بمبعض فضله .

واذا كان غوته مقلداً للشرق وعلى وجه الخصوص لحافظ الشيرازي في ديوانه من اجل التخفيف من وطأة العقل ووطأة الظروف العتودية فان اقبال لم يكن من أهدافه تقليد شاعر الالمان بقدر ماكان تعريفاً به وسلاماً شرقياً اليه والى الغرب عموماً . فان وجدت فكر مشتركة بينهما فلأن غوته أخذها عن الشرق ، ولأن اقبال بطبيعته الشرقية لايستطيع أن يخالف ماذرج عليه .

ثم ان اقبال في حالة ردّه ، لابد متحدث عما طرحه الطرف الآخر من قضايا ، ان هدف اقبال كما بيّنه في الصفحة الاولى هو الرد وجواب من حيّيا الشرق كلّه تحيّة ظلت بلا صدى قرناً من الزمان .

فديوانه اذن هو ردّ للسلام (للتحية) وجّه الى الغرب كلّه ولكنه موجّه أيضاً الى المشرق بفلسفات الغرب وتقنياته والاثر العلمي الذي أحدثه .

وكيف يهتدي اقبال الى التأثر بغوته وهو يعلم أن مصادره شرقية وأنها في متناول يده ، وفي أحسن وأوثق صورة من التي أخذ عنها غوته (اذ كانت مصادر مترجمة) انها المصادر الاسلامية في لغاتها الاصلية من قرآن وحديث وثقافة اسلامية وشعر فارسي ، وهو العارف للعربية الجيد للفارسية ، وهو المسلم الذي درج على قراءتها وفهمها من تصوّر اسلامي .

1ـ رسالة المشرق ، ص 300 .

وهذا ما يدفعنا الى القول ان ديوان رسالة المشرق كان وسيطا ومثلا للحوار الشرقي الغربي ، وكان من أجمل صور اللقاء بين الشرق والغرب ، ولكنه كان أيضا تصحيحا لكثير من وجهات نظر الغرب وعلى رأسهم الشاعر غوته ، ومنهما تصحيحه لموقفه من العشق ومن الخمر والجنّة ومن الحياة عموما . كما كان الديوان ردا لبعض تلك المواقف الى المنابع الاسلامية الصافية .

الا أن ردّ اقبال وتصحيحه لم يمنعاه من اعجابه بغوته والاعتراف بمواهبه كشاعر ضمن لنفسه اسم المواطن العالمي من خلال جهود الفردية حتى قيل انه لايوجد في تاريخ الاهتمامات الشعرية شاعر مبرز يهتم بشاعر آخر مبرز مثله كشاعرنا اقبال الذي اهتم بغوته رغم اختلاف التكوين الثقافي واختلاف لغة الكتابة ، (1) وان المساحة التي خصّ بها غوته من رسالة المشرق تؤكد هذه الفكرة وتدعمها ابتداء من أول الديوان الى آخره .

واقبال يقدم الهدية بين يدي الامير الافغاني لاينسى غوته رغم الحديث الطويل الذي خصّصه به في المقدمة الاردية ، ان غوته في نظره شيخ الغرب ومرشده الذي عرف الغرب على المشرق وهاجر اليه بفكره وروحه فكان المرشد لكل المريدين لذلك المشرق ، كما كان شهيد الآثار الفارسية ، وهو شبيه باقبال نفسه في طلبه الدائم وفي الرسالة التي يحملها الى قومه .

ولكنه رآه انضج منه ـ ربما لأسبقيته ـ ولذلك فهو جدير بأن يخاطب بجلال الملوك وهو أهل للبوح باسرار العشق وروائع الشعر ، يقول :

ـ شيخ الغرب ، ذلك الشاعر الالماني ، قتيل عشق الاساليب الفارسية .

رسم صورة بأبلغ مالديه من الابداع ، وأرسل بها تحية من المغرب الى المشرق .

وقد سجلت رسالة المشرق ردّا عليه ، وسكبت من خلالها على سماء المشرق ضوء القمر

لم أكن أنانيا منذ أن عرفت نفسي ، فلأقل لك من كان هو ومن أكون أنا .

كلانا عالم بما في ضمير الكائنات ، وكلانا يحمل رسالة الحياة في وسط موات .

هو من جرأته قفز من قاع البحر ، حتى مزّق الاصداف

ومازلت أنا أطوي في أحضانها حبيسا ، ومازلت ضائعا في ضمير الكون لم أكتشف بعد

انني أعطي له جلالا ملكيا ، وألقي بالعرش الكسروي تحت أقدامه .

فهو يستحق منّي حديث عشق ، كما يستحق منّي رواء وبهاء شعر . (2)

---

1 ـ Seyed Abdulvahid ,Studies in Iqbal , p 5I .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 186 ـ 187 .

ولا ينسى اقبال وهو في أوج غناء الروحي حق ذلك الشاعر، فيهدي مع نسائم الصبا رسالة الى الكحكيم غوته الذي تنير نظرة منه ومن أمثاله الديار.

الرسالة مهداة الى المدينة التي يرقد فيها جثمانه مدينة ويمر أيمن قضى شطرا من حياته وأين دفن، وهي التي أغنت فكر غوته بمكتباتها والهمته بروائع المشرق والمغرب، حتى رأى البعض المانيا جمهورية الثقافة، ورأوا أن مركز هذه الجمهورية الثقافية انما يقع في مدينة ويمر (1) قال محمد اقبال محيّيا:

- يانسيم الصبا احملي عني رسالة الى روضة ويمز، فنظرة من أولئك الحكماء تنير تراب هذه الديار (2).

وقد رأى بعض الدارسين أن اقبال قصد بهذه التحية الشاعر حافظ الشيرازي تكفيرا عما وقع منه في ديوانه اسرار اثبات الذات، ولكنه أبدل بمولد حافظ مدينة ويمر لأن رسالة المشرق، كان في جواب غوته، ولأنه لم يرد أن يتحدث تحدّا صريحا بين ديوانيه (3).

ولكن الأرجح والاقرب الى اليقين أنه قصد بالمدينة مدينة غوته، فهي الأخرى جديرة بالاحترام وبالتحية، أما مايمكن أن نتعتبره تكفيرا عن الانكار الانفعالي للتجربة الصوفية في ديوانه الاسرار، فهو الرباعيات التي استهل بها رسالة المشرق والتي نهل فيها من خمر الصوفية الى حدّ الثمالة، فجاء كأنها محاولة استرضاء واصلاح لما وقع منه (4) سابقا.

ومرة ثالثة يثني اقبال على شاعر الالمان ثناء سجّله على لسان الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي، فقد صوّره معجبا بنبوته وبفهمه الجيد للحياة، فهما جمع فيه بين المعرفة بمكر ابليس وشرّه والمعرفة بعشق الانسان وتسامحه رغم أصله الترابي ورغم نزعات الشيطان، فكان جديرا بالجنة وبصحبة المرشد الرومي وثنائه، يقول:

- حكيم الالمان في جنة ارم ، قد فاز بصحبة شيخ المجم
تعن على العارف اسرارا قديمة ، قصة الميثاق بين ابليس والحكيم.

فقال الرومي: أنت يامن رسمت للكلام روحا ، أنت صياد ولكن صيدك في السماء
فكرك اختار الخلوة في سويداء الفؤاد ، ليعيد خلق هذا العالم القديم.
ليس كل شخص قد تجلت له أسرار العشق ، وليس كل شخص بأهل لهذه المنزلة.
ذلك السعيد الطيّب الحظ الأممي ، العارف بمكر ابليس وعشق الآدمي (5).

---

1 - الكستدر ديما - مبادئ علم الأدب المقارن، ص 134.
2 - رسالة المشرق، ص 325.
3 - محمد منير ميرزا، علامه اقبال غزل فارسي، ص 75.
4 - Syed Abdulvahid , Studies in Iqbal , p 113 .
5 - رسالة المشرق، ص 376-377.

ب - اقبال والغرب :

قد نعدّد الثناء الذي خصّ به اقبال غوته ثناء على شخص من الغرب لأنه وان وجد في الديوان تقديم لبعض عقول الغرب فان اقبال يقف فيه عند حدود الاعتراف بالفضل من غير اعجاب أو ثناء ، ولأن الجزء الاخير من الديوان الذي خصّ به الغرب، صور الفرنجي غلب عليه الانتقاد والتوجيه والكشف عن خفايا الفلسفات الغربية .

من أول بيت في صور الفرنجي ندرك انها رسالة موجهة الى الغرب، ولكنها ليست تحية طيّبة لطيفة كالتي خاطب بها غوته واما هي تحية صارمة صادقة قوية ، يقول :

- يا نسيم الصبا ابلغي عني عالم الافرنج ، عندما يبسط العقل جناحيه يزداد أسرا (1)

وهي تحية ذات وقفات عديدة مع نظم الغرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ومع منظري الغرب وفلاسفته ، ومع العقل الغربي عموما . وهي الجزء الذي ظهر فيه صراع اقبال مع العالم ، وجات فيه ترجمات لبعض أفكارهم ومحاكمات لجلّ روّاد الفكر والأدب الحديث عندهم .

لقد حاكم الشخصيات المهمة هيجل ، لوك ، برغسون ، لينين ، كانت ، شوبنهاور ، نيتشه ، أوغست كونت ، بيرون ، براونتج ، آينشتاين ... (2) محاكمة لا يمكن فهمها دون عودة الى أهمّ مواقفهم وفلسفاتهم ، حتى شبّهه اقبال سنج برسل التوراة الغاضبين في نقده الدائم الذي ظهر فيه بعيدا عن الوعظ الجاف رغم لحظاته الكبيرة الصاخبة الغاضبة التي كادت أن تكون اعلانا متواصلا باللعنة ، فقال :

وكرسل التوراة الغاضبين جعل الا تهام من أكبر انشغالاته ، انه حاكم وأدان معاصريه والقيم المعاصرة ، الرأسمالية ، الامبريالية ، الديمقراطية ، الاجتماعية ، التقنية كلها دخلت حيز النقد ولكنّه أدان أكثر مذهب القومية الضيّقة والعنصرية وكذلك سرا الخدمات المزيفة للحضارة الغربية التي حاولت هدم الوحدة الروحية للاسلام والوصول به الى ذلك المصير (3) .

من رجال الغرب الذين خصّهم في ديوانه يذكر الفيلسوف شوبنهاور جمع بينه وبين نيتشه في قطعة من ديوانه للعلاقة التي بين أفكارهما ، وهي علاقة تنافر وتضاد .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 357 .

2 - Iqbal Sing , The Ardent pulgrim , p II5 .

3 - المرجع نفسه ، ص 104 .

فقد كانت أفكار شوبنهاور الاساس الايديولوجي لفلسفة نيتشه (1) المناقضة لها الى حدّ كبير .

من ذلك موقفهما من ارادة الحياة ، فهي عند شوبنهاور منبع كل شرّ و خسران ولكنها عند نيتشه مصدر كل خير وفلاح ، الى الحدّ الذي قال فيه الدارسون ان ما يراه شوبنهاور شيطانا يراه نيتشه الها (2)

صور اقبال شوبنهاور عصفورا متشائما ، شاكيا من وخزات شوك الورد وصوّر نيتشه هدهدا مرشدا ينصحه بالصراع من اجل الوجود ، يقول :

- طار من عشه عصفور نحو الروضة ، فأصابت جسمه الهش الرقيق من الغصن شوكة لعين طبيعة الروض واغتاب الزمان ، وارتعش لألمه ولغم الآخرين جميعا .

ورأى أن وسمة الشقائق هي من دم الابرياء ، وأن طلسم بطن البرعم المغلق هو خدعة من خدع الربيع .

وقال ان أساس بناء هذه الدار (الدنيا) معوج ، ايس هو الصبح الذي لا يتبع بليل في انتظام .

ناح حتى تقاطرت من حنجرته نغمات عذاب ، نغمات من دماء ، وهطلت من عينيه دموع غزار .

فاستدرت نار حزنه الهدهد ، الذي راح بمنقاره ينزع الشوكة عن جسده ، وقال له : استخرج من كل خسارة لك ربحا ، فالوردة لا يأتي منها الذهب الخالص الا عندما يمزق صدرها .

اذا أصبت بجرح فاصنع من ألمك وجرحك الدواء ، والف الشوك لتغدو كلّ روضة (3)

وقد خالف اقبال شوبنهاور في قراره من الشر يتجاوز النفس التام أو ما يسمّى با "التبرفانا" ، ومنه فهو موافق لنيتشه فاهم لنظرياته ، متأثر به . الا أنه وان فهم نيتشه وفلسفته مع قلة من المفكرين والادباء فانه يخالفه في نظرية ارادة القوة اذ له في التراث الاسلامي عن الانسان الاعلى ما يغنيه عن ذلك ، ثم ان تلك الفلسفة كانت سببا في الثورة وفي قيام الحرب العالمية وما رافقها من فتن .

ومرة أخرى يذكر نيتشه ويراه شبيها بالعربي الشاعر "أمية بن أبي الصلت"

---

1 - الموسوعة الفلسفية ، مجموعة اساتذة ، ص 266 .

2 - مجلة الرسالة ، السنة 3 ، مجلد 2 ، عدد 122 ، ص 786 (محمد اقبال ابو النصر الحسيني)

3 - رسالة المشرق ، ص 364 - 365 .

الذي قال فيه : لي الله عليه وسلم : "فلقد كاد يسلم في شعره" ، وأن كاد ليسلم" وفي رواية "كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم" (1) ، لأن نيتشه وقف بعد بحثه الطويل في المسيحية عند قوله "لا اله" دون أن يتم الجزء الثاني بعد النفي وهو الاثبات "الا الله" ، لأنه لم يجد في مسيحية القرن السابق ذلك الاله الذي يبحث عنه ، ويقي في حاجة الى شيء آخر يكمل اعتقاده (2) ، يقول اقبال :

ـ خفق فكر الحكيم من ضعف الانسان ، فابدع جسدا أشد احكاما

والقس في بلاد الغرب مائة ثورة وفتنة ، وكالمجنون وصل الى دكان من زجاج

ان كنت تطلب لحنا غير ما فكر من بين يديه ، فمن نايه يشتد الصراخ ويعلو .

غرز في قلب الغرب (طائفة) خنجر ، واحمرت يداه من دم المسيحيين

قد أقام على أرض الحرم معبدا ، فقلبه مؤمن وفكره كافر (3).

ولا يكاد مؤلف لاقبال يخلو من ذكر نيتشه (4) وقد كان يسميه المجذوب (وهو مصطلح صوفي) لما كان يضطرب في قلبه من مشاعر دينية على الرغم من انكاره للاله الذي لم يجده ، واذ يعتبره ميت من القلب كافر العقل ، فذلك لأنه وصل الى جزء من الحقيقة ولم يتعداه ، اذ لا مرشد له يقوده الى اكمال الشطر الثاني من كفاحه . انه عند اقبال "الحلاج بدون خشبة الصلب" (5) أو كما قال فيه :

ـ انه الحلاج لكن أين عوده ، قال قولا وسواه لايعيده (6).

وأما الثورة على الرأسمالية وعلى الاستغلال البشع فقد جاء لها اقبال يراود ها الاواقل وجسد أفكارهم ، وقال على لسان ماركس :

ـ اعلم أن الآدمي قد يصير قاتلا لأخيه من أملاك الرأسمالية ، فهي تحل له قتل بني جلدته (7) وصور هيجل تأثرا على الفروق الطبقية معتبرا اياها سببا في الحرب بين أبناء المجتمع ، فقال :

ـ فروق كثيرة ومعان خفية بين الصحراء والخيلة ، وبين الحنظل والعسل ، فروق تراها عين الحقيقة .

كيف تعطي هذه الطبيعة خالقة الاضداد لذة في القتال ، بين السيد والاجير وبين المأمور والامير .(8)

---

1 ـ صحيح مسلم مجلد 4 ، كتاب الشعر ، ص 1767 .
في كتاب الشعر .
2 ـ مجلة فكر وفن ، عدد 32 ، ص 15 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 368 ـ 371 .
4 ـ مجلة باكستان الصورة ، عدد 19 ، مجلد 12 ، الحوار بين الشرق والغرب في فلسفة محمد اقبال محمد عبد القادر قلعة جي ، ص 11 .
5 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .
6 ـ اقبال : رسالة الخلود ، ترجمة حسين مجيب المصري ، ص 234 .
7 ـ رسالة المشرق ، ص 366 .
8 ـ رسالة المشرق ، ص 367 .

وفي مقارنة بين هيجل وجلال الدين الرومي أظهر تقديره الشديد لهيجل ولكنه تقدير لايرقى بحال من الاحوال الى منزلة جلال الدين الرومي يقول :

لمسلمة بست أفكر وأعاني لأجل ، مشكلات معقدة للفيلسوف الالماني .

ذلك الذي كشف فكره وابداعه ، الابدي من ستر الآني (1)

وجاء اقبال لـ "تولستوي" الكاتب الروسي بما يناسب فكره ، انها ثورة الخدم على السيد المالك .

واذا ذهب رائد النظام الاشتراكي الى أن الدين أفيون الشعوب ، فان هذه الفكرة لم تفت اقبال الذي هذب المقولة وقصرها على الدين المسيحي لأنه كان سبب ميلادها وتسجيلها ، وقد أضاف اليها تولستوي مخدرا آخر للعقول هو التاج والوطن يقول :

ـ ان الخدم القوي لجيش شهريار ، لأجل أن يحصل على خبز الشعير (رفع ، سحب) أخرج سيف الظلم .

ذلك الذي يتخذ من قاتله الغريب صديقا يمزق صدر الاحباب ، لايرى لب الثمرة ونواتها ، فالقبيح في عينه جميل .

ان التاج والكنيسة والوطن مخدرات للعقول ، بكأس واحدة يشتري السيد الروح وهي هبة الله عقل جائر ذلك الذي أبدع فلسفة الظلم والعبودية ، انه هو الذي القى درسا ممتعا في عبودية الاجير (2) .

ولـ "فلاديمير لينين" كلمته في الفكر الذي احتال واخترع الخدع ليدوم استغلال الانسان للانسان يقول :

ـ سنون طويلة ضحت بآدم في هذا الكون القديم ، (وقع) كالحبة التي وقعت تحت الرحى ضحية حيل وخدع استبداد الامبراطور (القيصر) ، كان أسير شباك حلقه الكنيسة ولكنه رأى أخيرا غلاما جائعا ، قد مزق ثوب السيد المتلون بدمائنا .

وأحرق شرر نار الشعب هذا المتاع القديم ، أحرق ثوب (الراهب) شيخ الكنيسة ولباس الملك (3)

ومن حكماء الغرب الذين حظوا بتقدير اقبال الفيزيائي الالماني آينشتاين ، مخترع قواعد الحركة البراونية وصاحب النظرية النسبية (4) ولكنه تقدير لم ينج من نقد يرافقه ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 372 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 366

3 ـ رسالة المشرق ، ص 379 .

4 ـ Petit L arrousse , (1985)

ـ غير صبور مثل موسى ، فقد ظل يطلب التجلي ، حتى حلّ عقله المستنير أسرار الأنوار .

لم يستغرق النزول من السموات العلا الى عين الناظر الآ ثواني . ، سريع الحركة حتى أنه لايشعر بحركته .

صار وحيدا في ظلامه الدامس . ، فماذا يتجلّيه وظهوره أشدّ التهابا من ادغال طور سيناء .

ثابت هو بلا تغير في سحر كيف و كم و كثير ، يجتاز السفل والعلو والمتأخر والعاجز والقريب والبعيد .

هو أصل النور والظلام ، والنار والخفوت والموت والحياة ، من ناره شيطان ومن نوره جبريل والحور .

ما ذا أقول في تقدير مقام هذا الحكيم العظيم ، هو زرد شتي تجلّى من نسل هارون وموسى (1).

وكان لبرغسون أيضا وجود ، فعلى لسانه نقل اقبال رسالة الى القراء تحمل واحدة من افكاره وهي التوكيد على وجود النفس أوالروح ، مأخوذة من قوله : « الجسم هو الاداة التي تستعين بها النفس للتوجه عن أفكارها والتعبير عن ذكرياتها البحتة »(2) يقول :

ـ لكي يتجلى لك سرّ الحياة ، فلا تفارق لظاها كالشرر .

ولا تصحب سوى عارف ذو نظر ، ولا تقطع أرض الوطن كالغريب .

ان ماصوّرته من رسوم أوهام باطلة ، فنفّذ عقلك من دروس القلب وآدابه . (3)

وقال على لسانه مرّة أخرى في تقدير التفسر والاعتراف بها :

ـ هي لم تأخذ في الاول الكأس ولا الخمر ، فقد أخذت الشقيقة نارقها من حرقة وكي قلبها .

فيردّ عليه الفيلسوف الانجليزي المادي بأن الشقيقة تملأ قدحها من أشعة الشمس قائلا :

ـ جاءت الشقيقة فارغة الكأس ، تملأ القدح من شعاع الشمس .

وعليه يردّ الفيلسوف الالماني كانت مؤسس المثالية الالمانية ، وهو الذي سخر من ولع معاصريه بالتصوف والنزعة الروحية ، يقول :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 369 ـ 370 .

2 ـ عبد الكريم الخطيب ، قضية الالوهية بين الفلسفة والدين دار الفكر العربي ، ص 147

3 ـ رسالة المشرق ، ص 377 .

- قد أهدتها الطبيعة خمرا صافية اللون مشرقة ، فهي تملأ نجم كأسها من محرم الأزل (1) .

وعلى هؤلاء يرد جماعة من الشعراء ، منهم الشاعر الانجليزي الرومانسي "بيراونتج"(2 بقوله :

- ان خمرة الحياة الصافية الخالصة بلا فائدة ، لذا فاني أملأ قدحي من ماء الخضر(3) وقال اقبال في "بيرون" وأثر فكره في الغرب :

- لو قطرت من كأسه على أرض البستان قطرات ، لخرجت من الأرض شعلة مشتعل الشقائق والورود .

فهواء الغرب البارد ليس من طبعه ، قد احترق من نار رسالته رسول العشق .

اي فاتنة هذه التي خلقها خياله (أبد عها) ، قد غشي على الشباب من ظهورها وتجليها .

غادر طائر المعاني عشه (القوافي والشعر) ، لأن صانعي الشباك أولى بالوقوع في حلقاتها (4).

كما كان للشاعر المجري "بتوفي" مكانته عند اقبال فلما كانت له مكانته في تاريخ وطنه وتاريخ الانسانية ، فهو الشاب الذي مات في ساحة الوغى وهو يحمي وطنه في حرب التحرير (1848م - 1849) ولم يعثر له على جثمان لتكون له ذكرى ترابية ، وشاءت ارادة الله أن تكون ذكراه في السماء فلما كان طموحه واراداته وكفاحه ، يقول اقبال :

- غنيت كعروس الرياض حينا ، زد تقلبا هبط وحزنا وأسليت قلبا .

وخضبت وجه الشقائق من دمائك المسفوحة ، وفتحت بآهاتك وانغامك الصاخبة قلوب البراعم .

ذبت في الحانك ، فكلما تك هي لحدك ، لم تعد الت التراب ثمانية لأنك لم تكن من تراب (5).

وربما عددنا هذه القطعة مشاركة منه - كما عرف عنه - للشعوب المظلومة أنى كانت وثورة على الاستعمار والظالمين لاقترافهم أبشع الجرائم (6) ولكنها انتقادات قد لا ترقى الى مستوى المحاكمة لأنها لم تخل من اشادة أو تقدير .

---

1 - رسالة الشرق ص 381 .
2 - Petit L arrousse , (T985)
3 - رسالة الشرق ، ص 382 .
4 - رسالة الشرق ، ص 370 .
5 - رسالة الشرق ، 373 .
6 - اقبال - والآن ماذا تصنع يا أمم الشرق ، ترجمة محمد أحمد غازي والصاوي شعلان ، ص 140 .

أما المحاكمة الحقيقية فهي تلك التي أقامها للغرب عموما بنظمه وعلمه وصناعته وكنيسته ومنظماته التي يزعم لها العالمية والانسانية والخيرية ، ان بلاد الغرب عنده أشبه بالحانة الفارغة ، فقد أقام فيها زمنا وعاد منها غريبا عن نفسه ، فارغا من كل زاد ، يقول :

ـ فتعال يا اقبال واشرب كأسا من حان صحابك ، لأنك عدت من حان الغرب غريبا عن نفسك (1) .

هي حان خمرها من غير تجلي ، ونارها من غير خليل ، وخليلها بلا آهات حرّى كالتي عهدها اقبال في بلاد الشرق ونديمها لا يعرف جنون السكارى والعشق فيها مطارد بأغارات العقل المتطالية . لقد أفلح الغرب في صنع الاكواب والاقداح والقوارير وأفلح في صقلها حتى بدت كأنها السلازورد في صفائه دون أن يهتم بالجوهر ، وهذه حال أشبه بالشعوذة ، يقول :

ـ سكب الغرب الزجاج لنا والاكواز والاقداح والقوارير اللازوردية ، وانسي (أتساءل) في حيرة ان لم تكن هذه الشعوذة الخالصة (2) .

أذكر أيام كنت فيها بحانة الغرب ، وكأسها الأشد اشراقا من مرآة الاسكندر . ريحة الخمرة فيها عين الساقي الخلية ، فكانت نظراته (الساقي) رسالات لشارب الراح . وكان تجليها من غير موسى وكانت نارها بلا خليل ، قد أغار العقل الحذر على متاع العشق .

ليس في هوائه آهة حسرى ، وعربيد هذه الحانة لا يعرف جنون السكارى وترنحهم (3) ومفعول خمرة الغرب هذه وأثره يختلف عن غيره ، فيشربها والسكر منها تختل الموازين ، يرى السم العذب محمودا ، وينظر الى الاشياء بقانون جديد هو قانون الربح والخسارة ، لا حسن فيها الا مازاد في جاه ، ولا قبح فيها الا محطم أماني النفس ، هي حان رياء وخداع ، لا صادق فيها ولا مصاف ، وان ظهرت دعوى الصدق والمصافاة فانما هي قناع لنيل مآرب أخرى وستار للوصول الى كرسي الرئاسة الزعيم فيها والشيخ والمرشد يدعون على السواء الى الخداع ، يقول :

ـ هذه حانة الغرب من تأثير خمرها (مفعول خمرها) ، يتجلى لك العذب محمود هنا يوزن الحسن والقبح بميزان آخر ، غير الميزان الذي لليهود والنصارى .

فالحسن ان حطم معشوقك وكسره فهو قبح ، والقبح ان زاد من جاهك وقدرتك فهو حسن .

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 343 .
2 ـ رسالة الشرق ، ص 345 .
3 ـ رسالة العشور ، ص 378 .

مادعوى الصدق والصفاء الا ستار وهدف خفي الى ناموس الرئاسة ، فهذا شيخنا يقول لنا : يجب أن يطلى النحاس بالفضة . (1)

ولكن اقبال نجا من كيدها وكيد الغرب كلّه ، أخذ من خانة العلوم الحديثة وغادرها بسلام ، فكان مثل طائر يقع على شبكة فيأخذ الحب دون أن يعلق بالشرك جلس اقبال في نار الغرب وخرج منها بسلام آمنا مثل ابراهيم عليه السلام في قصته مع نار النمرود ، يقول : .

سكنت كطائر يقع في شبكة فيقرض الحبال ويأخذ الحبّ ويطير بسلام ، وقد جلست في نارها وخرجت منها بسلام كما كان شأن ابراهيم (2) .

ولما رأى اقبال الغرب متحكما بعلمه في الرقاب ، زاعما أنه بتقنياته الحديثة وصناعاته يطوق الحريات ويكمم الافواه ، راح ينقب وراء ذلك العلم وتلك الحكمة الزعومة ، ويكشف مظاهر فسادها للمسلمين الذين انبهروا بالغرب وبريقه ، فالغرب يملك العلم والحكمة ولكنه لايملك اعجاز المسيح ، مرضاه كثيرون وبلا دواء ، وفلسفته عاجزة أمام العشق ولكنهم يزعمون أنهم حققوا المعجزات ، يقول :

ـ ليس عجيبا أن تملك اعجاز المسيح ، ولكن الأعجب من هذا أن مرضاك غدوا أشدّ اعتلالا وعناء .

تجمع العلم وتدخره ، ومن الكنف تلقي الفؤاد ، فما ، على ذلك الكنز الثمين الذي ضيّعته انما الحكمة والفلسفة أمر ليس له نهاية أو حدود ، وليس في مدارسها ضروب العشق والمحبة قد قطعت طريق رجال يقظى القلوب فطنين ، هي ليست بصاحبة طرف فاتن في الكلام لم يصل القلب من يردنا رها الى الخفقان والاضطراب ، وليس في جاذبيتها حقيقة السعادة فتعالوا نرجو من العشق دواء ، نسجد بين يديه ونظهر حاجتنا (3) .

وكيمياء الغرب التي تاه بها فخرا وفتنه الذي قيد به الرقاب عاد على الغرب نفسه بالدمار ، وعلى البشرية كلها ، فقد أحالته تراب ذراء في أعين المسيحيين وكان حربا على النساء والمدن ، تنزع السرور وتحصد النّسار وتقتل الابرياء ، قطع قادتها الطريق وزعموا ذلك أمنا وسلاما ، وعتّوا من دماء الابرياء ، ولكن آن أوان خلع هذه القوانين البالية واستبدالها بقانون جديد ، يقول :

ـ آن الحرب على السلم ، وعبأ الجيوش ونظمها ، فلم يصب بسيفه الا صدور الاصدقاء قطع الطريق وسمّى القطع أمن الدنيا وحفظها ، قد قصم ظلمه المتغطرس وسط عبيد ، (ظهورهم) رقص بلا حياء أو حجاب لصوت الدف والناي ، وفي يده ، كأس من دماء الابرياء الاصفياء (الطاهرين) .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 383 .

2 ـ مجلة حضارة الاسلام ، عدد 1 ـ 2 مجلد 1 ، ص 49 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 358 .

قد آن أوان وضع قانون جديد ، وأوان غسل لوح القلب الطاهر وبدء حياة جديدة (1).

ان هذه الحكمة وتلك التقنيات أولى بها وهي الجاهلة البلهاء المعركة للصفو ، الناشرة للسموم ان تعاد الى القبر مثلما كانت في المعدمين ، فهي لا ترد الأجل عن نفسها ولا عن غيرها ، يقول :

ـ سمعت بفارس عن رجل مميز ، فاهم ، عارف للأسرار ، حكيم .

قد انقبضوا واعتصر بشدة أثناء خروج الروح ، اضطربوا وانكبت روحه على شفتيه في جلال .

لا أحد يملك كمالا في هذا الفن (قبض الارواح) ، ولا أحد يعلم (يعرفها فن بعث الروح .

قد أبدع الغربيون نوادر المعارف وأعجبها ، وغاصوا الى أعماق البحار .

ورسموا دائرة الحياة بفرجار الفكر ، ولكن الموت حوى (ضم) كل حكمتهم (أتى على...)

هذا الذي يعث في بلاد الغرب قديم جاهل ، فاسحبه الى القبر فورا (2)

ومن بلاد الغرب كلمها خمس اقبال انجلترا بخطاب صريح ، فهي التي طال عهده بها وعرف حقيقة أمرها فقد عاشرها وراقبها عن قرب ، عليها فتح عينيه الى الوجود وعلى صورتها الضبابية أغلقها . وقد كانت هذه المعاشرة كفيلة بأن تشكل لديه رأيا فيها ، فيسألها وهو العارف بالاجابة عن اليد التي قيدت الشعوب وأنانيتها ودسائسها وفي ثورتها القادمة يختبئ الجواب ، يقول في "خطاب الى انجلترا":

ـ الشرق يرتشف الخمرة من كأس الغرب ، ليس عجيبا ان أنت كسرت هذا القديم .

فكر الفتى الجديد أخذ يتعلم أساليب وفنون التدبير ، والدماء تغلي وتخفق في عروق العبد المنقاد الطيع .

ايها الساقي لا تجرح (لا تضيق) قلوب المكارى الثائرة المتهيجة ، أنصف نفسك وقل الحقيقة من قيّد هذه القافلة؟ .

ان رائحة الياسمين نفسها هي التي أرشدتها الى الروض ، والا فان البلبل نفسه يجهل أن هناك خميلة .(3).

ومن نظم الغرب التي صبّ عليها اقبال جام غضبه كذبة النظام الرأسمالي الذي سرت أيام اقبال موجة عارمة بين المؤيدين له والناقمين عليه ، فكانت لاقبال وقفات مع رواد ، وهم يعرضون حجحهم الواهية التي تتقاطف منها مادار بين "أو غست كومت" وأجير ، صور فيها كومت بمنطق الحكيم الباحث عن حكم لاقناع الاجير

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 361.

2 ـ رسالة المشرق ، ص 295 ـ 296.

3 ـ رسالة المشرق ، ص 384.

بأن خدمته أمر طبيعي ، اذ الناس بعضهم لبعض وان لم يشعروا خدم ، فهو يقسم الناس الى أصحاب فكر ومال وأصحاب جهد وعرق ، أسياد آمرون وعمال أجراء ، وليبرهن أن ذلك أمر طبيعي جاء يشاهد واه من التاريخ وهو أن للسلطان محمود أعماله ، وللعبيد ايماز أعماله الخاصة به ، ناسيا أن محمودا خدم ايماز ، وجاء بمثال من الطبيعة وهو أن الروض يحتوي الى جانب الورد شوكا ولا يكمل الروض الا بهما (1) ، ولكن رد الأجير كان قويا ، مقنعا وشائرا ، كشف فيه اقبال كثيرا من الحيل وقدم فيه حججا دامغة لفلسفة الغرب الذين أعطوا الحقوق لغير أهلها وعيّرهم بعلمهم المزعوم ، يقول :

- أتسحرني بحكمتك أيها الفيلسوف ، اننا لا نستطيع أن نكسر هذا السحر القديم .

أتطلبي النحاس الخام بالذهب ، وتصنع مني مأمورا مستسلما ؟

قد أسير مركبي البحر ، وشق فأسي أنها رامت فقة من الصخور الصلدة القاسية .

أتعطي ياصاحب الحكم النيرات حق قوهاد ، لبيرويز المنافق الذي لم يكن يعمل (في حقيقة الأمر) شيئا ؟ .

لا تظهر الخطأ بسحرك كالصواب ، فالخضر لم يخدع بشباك السراب .

ان الرأسمالي عبء على ظهر الأرض ، ذلك الذي لا يعرف الا الضي والأكل والشرب .

انما تسعد الدنيا وتفرح بفضل يد ذلك العامل الأجير ، ألا تعلم أن هذا الثري ليس الا لصا محتالا .

أفتأتي باعتذار ومبررات على اثر جرمه ، أولم ينهك هذا العقل والعلم عن الغش والتزوير والخداع . (2) .

وهي الاساليب الواهية نفسها التي حاول قيصر (ولهلم) أن يقنع بها لينين في حوار دار بينهما ، يقول :

- ماذا تطلب المعشوق ذو التيه والدلال ؟ . ان كان البرهمي قد طبع على الطواف به . فهو يظل ينحت الآلهة من حين لحين ، لأنه ضاق بالآلهة القديمة ذرعا .

لا تتحدث عن جور قطاع الطرق ، لأن المسافرين ، أنفسهم يسلبونهم متاعهم الخاص (3) وهلها ما جاء في كتاب القسمة بين الرأسمالي والاجير ، كشف فيها الأجير عن القسمة الضيزى التي توجب الثورة على أصحاب الاملاك ، فمن جهود العامل وأجره الزهيد يلبس السادة أثواب الحرير ، ومن قطرات عرقه يلبس الامراء خواتم قبابها من حبيبات

1 - انظر رسالة الشرق ، ص 374 .
2 - رسالة الشرق ، ص 375 .
3 - رسالة الشرق ، ص 380 .

ذلك العرق ،ومن دموع أطفال العمال تزين سروج الأمراء ، سمنت الكنيسة التي أعانت على ذلك الظلم من دماء الاجراء ، فكانت كالعلق (مصاص الدماء) وازدانت الخرائب والاطلال وتحولت الى بساتين من دموعه واحمرت الشقائق من دم قلبه .

ولكن العصر عصر ميلاد قوانين جديدة تقضي على النظم القديمة (1) يقول اقبال :

- لنضع نظاما وقانونا جديدا للنصارى ولدير النصارى ، ولنحطم البنايات القديمة والحانات القديمة .(2).

وهكذا تنتهي محاكمة اقبال للنظام الرأسمالي بدعوة الى القضاء عليه مستلهما انتهت محاكمته للغرب بدعوة الى دفن قوانينه القديمة ووضع قوانين جديدة .

وفي احدى قصائده ، صور البعوضة في حيرة وشكوى من الاقطاعيين الحريصين على النهب،بعوضة مصت قطرة دم واحدة بعد سهر ليلة كاملة ، تشتكي من الانسان الذي يمص دم الانسان من غير سهر أو تعب ، يقول :

حنين البعوضة أضحى أنينا ... حزين الصدى يستثير العبر .

وليس سوى قطرة من دم ... ظفرت بها بعد طول السهر .

وهذا الحريص الذي لم يكتف ... قد امتص ظلما دماء البشر (3).

ولم تكن تلك المحاكمة الاخيرة ، حيث نجد له كلمة في النظام الجمهوري ، هي محاكمة وانتقاد صبهما اقبال في قالب السخرية من العقول التي أبدعت ذلك النظام وذلك القناع للمزيد من الاستغلال ولتغطية جرائم الغرب ، فالمعاني سامية والشعارات لامعة ،والهمم ساقطة حتى شبهها بالنمل الشديد الحيوية والذي لايستطيع أن يسمو الى طبع سليمان عليه السلام ، ولذلك دعا الى الاحتراز منها ومن النظام الذي وضعته لأن عقل مائتين من أفرادها لايأتي بفكر انسان واحد ، يقول :

- أتطلب المعاني العالية من ساقطي الهمم ، ان الطبع السليماني لايأتي للنمل الشديد الحيوية.

اتبع حكيما ناضجا مجربا ودع طرز الجمهورية ، فان مخ مائتي حمار (منهم) لايأتي بفكر انسان (4).

فهو يرى أن زعماء السياسة الغربية رسلا للشيطان في الأرض ، سئل مرة :"لماذا بعثت الانبياء في آسيا دون أوروبا؟" فأجاب بروحه المرحة المواعية :"لأن العالم قسم بين الله والشيطان ،ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا من نصيب الشيطان" فقيل له :"قد عرفنا رسل الله ، فما يكن رسل الشيطان؟" فأجاب :"انهم زعماء سياسة الخداع والمكر في أوروبا "(5).

---

1 - انظر رسالة المشرق ،ص385 - 386.
2 - رسالة المشرق ،ص386.
3 - محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان ، الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي ،ص398.
4 - رسالة المشرق ،ص305.
5 - أحمد ظاهر البقري ،الفكر الاسلامي في أدب اقبال ، ص7 و

والحقيقة أن اقبال لم يكن يؤمن بأي نظام سياسي لا يعترف بالله ، وكان يقول :
" اذا افتقد السياسة القيم الاخلاقية فانها تصبح طبقا من طقوس جنكيز خان " (1) .
ولعل آخر ما يمكن أن نختتم به محاكمات اقبال للغرب موقفه من " عصبة الأمم " تلك المنظمة التي يحمل اسمها معان أسمى من حقيقتها ، فمن بين أهدافها ارساء دعائم السلام في الأرض ، ولكن الواقع وهو خير متحدث أخبر بخلاف تلك الشعارات الزائفة فقد رأى اقبال كيف اتحد مؤسسوها وتعاونوا من أجل القضاء على الضعفاء ، كما لاحظ اقتسامهم للبلاد التي نصبوا أنفسهم حماتها ، وبذلك اكتشف ان الدعوة الى السلام عندهم مجرد قناع يختفون خلفه ويخفون حقيقتهم ، انهم يباشرون قبور رلاقاة أمن وسلام ، يقول :

— وضع رجال خبراء دهاة قوانين جديدة ، وسعوا لاخماد نار الحرب وازالتها من هذا الوجود .

والذي أعلم قبل هذا أن (سارقي) يباشرون القبور ، كونوا جماعة لتقسيم القبور (2) .

ان هذه الموقفات لاقبال مع الثقافة الغربية ابتداء من عموته فمالى الفلاسفة والشعراء فمالى السياسة والنظم السياسية والاقتصادية ، تدل على ثقافة اقبال الواسعة وعلمه وعيه بواقعه وبما يحيط به ، وعيا جمع فيه بين عناصر الثقافة الاسلامية وبين ثقافة عصره ، فهو لم ينبهر كما انبهر غيره بمدنية الغرب وتقنياته وانما نبه المسلمين الى عيوب الغرب وسقطاته ، انه وان شهد له بالمهارة في الصناعات وفي الجوانب المادية فقد كشف ما لتلك المهارات من خواء روحي فظيع ، لا تملأه الحكمة ولا العلم وانما يملأه الجانب الآخر المعنوي غير المعترف به عندهم .

وقد لاحظ اقبال ذلك الاختلال بين الشرق والغرب ، فالأول يملك غنى الروح والثاني يملك غنى العقل ، والاولى يكمل منهما اكمال نقصه من الطرف الآخر . لأن الشرق ليس بحاجة من محاكمات اقبال ، فقد رأينا كيف وقف على أمراضه وعيوبه ، كما رأينا نصائحه وتوجيهاته له وللناس جميعا والتي أكلها بتبصيرهم بما خفي عنهم من عيوب الغرب ، ولكنها كانت محاكمة ألطف من تلك الوجهة للغرب ، اذ كان الانتقاد يقدر الخطايا ، وقد غطت خطايا الغرب وظلمه الاخضر واليابس .

الا أن اقبال مع لحظاته الغاضبة وما أكثرها في الديوان ومع انتقاداته وتوجيهاته ونصائحه التي رافقتنا من أول الديوان الى آخره ، تجنب الذوبان في الوسط المباشر

---

1 — مجلة الازهر ، مجلد 1 ، سنة 54 ، ص 182 (من أعلام القرن 14 محمد اقبال ، المستشار عزت الطهطاوي
2 — رسالة المسترق ، ص 363 .

والسقوط في التوجيه الجاف ، ساعده على ذلك أسلوب الحوار الذي كثيرا ما اختاره في عرض القضية ونقيضها ، كما ساعده على اقناع القارئ منطقيا وفنيا قضايا قد لا تجد من يقتنع بهما من أبناء الغرب الا القليل من الدارسين المتخصصين الذين وقفوا على فكره وتعمقوا فيه .

وبمقارنة بسيطة بين صيت شعر اقبال في أوساط قراء انجلترا وشعر معاصره "طاغور" يتجلى أن شعره لم يحقق رواجا بالمقارنة بما أحرزه شعر طاغور من شعبية عظيمة بعد الحرب العالمية الاولى . وربما كان سبب ذلك أن مالت أشعار طاغور الى النزعة الانسانية الصوفية فلاءمت فترة نهاية الحرب بمزاجها المأساوي ، في حين لم تحمل أشعار اقبال أي معنى للمواساة والتعزية (1) .

فقد كانت بمثابة الهزة العنيفة التي توقظ الناس من غفلتهم التي كانت بدورها سببا فيما تعرضوا له من محن أثناء الحرب العالمية ، كما كانت أشعاره متفائلة رغم ما حولها من دمار هادفة الى الامام ، متبرمة ثائرة ، وانه كثيرا ما اشتكى من أولئك الذين يقترحون عليه أن يسوّغ بشعره للأموات وينشد تاريخ الوفاة فيخالف رسالة الشعر التي هي الدعوة الى الحياة ، يقول : " لقد أمرتني يا رسول الله أن أبلغ اليهم رسالة الحياة والخلود وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون علي أن أنوح الاموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة فأين هذا مما أمرتني به ." (2)

هذا وقد كان الديوان رسالة المشرق خير مثال على ثورة اقبال وتمرده الشامل ، ثورة على أمراض المشرق وأخرى على علل وعيوب الغرب ، كما كان انتقاده الصريح دليلا على ما يحمله في ثنايا ه من رغبته الصريحة والملحة في الاصلاح والنهوض بالبشرية ، وهو الانتقاد الذي أعجب به الباحث "بانفيلتز" كما أعجب باقبال وفكره على العموم ، فقال : " لقد وجدت من جديد ما عبرت عنه من أن الاتفاق بيني وبين اقبال كبير ، وخاصة هذا التحقيق الكامل الشامل للأنا ... ونقده هو يتفق الى درجة عالية مع نقدنا ." (3).

---

1 - Iqbal Sing , The Ardent pulgrim , p Io6 .

2 - أحمد ماهر البنوي ، الفكر الاسلامي في أدب اقبال ، ص 65 .

3 - مجلة فكر وفن ، عدد 32 ، سنة 16 ، ص 67 (عدد خاص باقبال) .

وهذا ماكان سببا في ثراء ديوانه وغناه بصورة من الشعر والفلسفة ، للشرق أن يفخر بها على الغرب ولعله أن يستفيد من عطائها ، فقد نظر الى انبهار المسلمين بما ذهب اليه الغرب وما أبدعته عقول فلاسفته المجردة في كثير من الاحيان من تصفها الثاني ألا وهو عطاء القلب والروح ووحيهما ولأجل ذلك جعل من الديوان تبصرة لمن لم يخترق حجب الزيف الغربي ببصيرته فلم يكن حديثه في الديوان حديث المعجب المذاهل كما كان غوته ، وانما كان حديث الناقد المحلل المحاكم للكثير من القيم التي تمكنت من انسان عصره وأغرته ببريقها ولاسيما أبناء الشرق الغارقين في الجهل والتخلف اذ اعتقدوا أن فيها خلاصهم مما هم فيه .

وهذا ماجعل اقبال يرتقي بنفسه فلا يبقى وسيطا فحسب ، وانما كان الى جانب ذلك : "محاورا فلسفيا نشدا بين ثقافة الشرق والغرب" (1) ومحللا اجتماعيا وسياسيا ودينيا بين الحضارتين .

---

1 ـ مجلة باكستان المصورة ، عدد 19 ، مجلد 12 ، ص 12 ، (الحوار بين الشرق والغرب في فلسفة محمد اقبال ، محمد عبدالقادر قلعة جي) .

الفصل السادس

رسالة المشرق.دراسة أسلوبية .

أولا : البناء الخارجي لرسالة المشرق (قوالب النظم).

ا- الفنون الأصلية : (فن الرباعي - الغزل . القطعة . المثنوي . المسمط . القصيد) .

ب- الفنون غير الأصلية : (فن الترجيع بند و التركيب بند . فن المستزاد) .

ثانيا : دراسة لبعض الظواهر اللغوية في الديوان.

-ا الألفاظ العربية في رسالة المشرق .

ا= الألفاظ العربية الخالصة .

2- الألفاظ العربية المكتوبة وفق قواعد الفارسية .

3- التركيبات العربية الخالصة .

4- تركيبات عربية في قالب فارسي .

ب- ظاهرة الترادف .

ج- المتقابلات : ظاهرة التضاد).

د- ظاهرة التكرار .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : البنـــاء الخـارجي لرسالـة المشـرق : (قوالـب النظـم)

ان المتـأمـل فـي كليـات اقبـال وفـي مجموع دواوينـه الفارسيـة ، يـرى تفـرّد الديـوان موضـوع دراستنا عـن سائـر مجموعاتـه الشعريـة بالمقدمة التي خصّصه بهـا دونهـا ، وان كانـت باللغـة الاردية ، وفيهـا شـرح أسبـاب وضع الديـوان ودواعـه ، وهـذا دليـل علـى مكانـة الديـوان من نفس اقبـال وعلـو تميّزه عـن غيـره مـن أعمالـه الشعريـة .

ولعـل أول نـاقـد للشـعـر ومقـدر للكلمـة هـو كـاتبهـا نفسـه ، وقـد كـان اقبـال أول نـاقـد لعطيـه هـذا وأوّل مقـيّم لـه بافـراده بالمقدمـة ، فهـو ينحـو فيـه منحـى العالميـة مـن أوّل خـطّ ، ابتـداء بالمقدمـة وانتهـاء بصـورة الغـرنـج ، اذ أعلـن فيـه تحمّلـه لمسـؤوليـة الحـوار الشـرقي الغـربي ، ومنـه رسـالـة الحـوار الشـرقي الشرقي ، لأنـه وهـو يحـاور شـاعـر الالمـان غـوتـه ، حـاور فيـه رسـالـتـه الشـعريـة النـابضـة بـروح الشـرق والمخـاطبـة للشـرق والآخـذة مـن منبعـه ، وبذلـك يكـون قـد أعـاد الحـوار مع الغـرب ومع الشـرق النـائم أيضـا ، لأنـه خـص بمعطيـه الشـرق والغـرب علـى السواء وخصّهـم بالانتقـاد وبتقـديم الحلـول الملائمـة لكـل أدوائهـم . غـفـل الشـرق عـن غنـاه الـروحـي وأهمـل ذلـك الصـدق الشـعري الـذي كـان يتغـذى منـه ويـأخـذ منـه الحمـاس والالهـام والابـداع ، فغـرق فـي أوحـال الغـفلـة عـن النفـس وخمـدت فيـه الارادة فاستسلم واستكان الـى الراحـة ، فكـان علـى اقبـال أن يحـرك فيـه كـوامـن ذلـك الصفـاء الروحـي القديـم ويعيـده الـى فطـرتـه التـي فـطـر عليهـا . وثـار الغـرب وتمـرد عـن كـل مـالـه صـلـة بالقلـب فكـانـت النتـائـج مـاديـة ، مـدنيـة ظـاهـرة علمتـه عبـادة المـادة وتنكـر ان مـاعـداهـا . وكـان علـى اقبـال أن يخـاطبـه وينتقـد مفكريـه الـذيـن كـانـوا سـببـا فـي هـذا الوبـال الـذي حـلّ بالغـرب ، وانتهـى الـى نصـح الكـل بالجمـع بيـن العقـل والقلـب ، يستمـد كـل منهمـا مـن الآخـر ويستسلمهـم منـه ويعمـل بوحيـه .

ومـن علامـات تفـرد رسـالـة المشـرق عـن سائـر الدواويـن ، وان كـان الاسـاس فيهـا الكيـف لا الكـم والاثـر الـذي تتـركـه فـي القـارئ والخـدمـة التـي تقدمهـا للمجتمـع ، انهـا تربعـت علـى مسـاحـة أكبـر مـن سائـر الدواويـن ، اذ خـصّ اقبـال ديـوان رسـالـة المشـرق بمائتيـن واثنيـن وعشريـن صفحـة ، تمتعـت بجماليـات عديـدة منهـا مـاحـوتـه الاشكـال الفنيـة التـي اختـارهـا لصـب أفكـاره فيهـا والظـواهـر اللغـويـة التـي استعـان بهـا لابـلاغ افكـاره والرمـوز والصـور الفنيـة النـابعـة مـن ابـداع اقبـال .

وللشعر الفارسي وان أخذ الكثير من الشعر العربي وبخاصة البحور الشعرية، اشكال وقوالب عديدة للشاعر أن يصب فيها أفكاره، منها ما اتفق مع ماعرفه الشعر العربي كالقطعة والقصيدة وأحيانا فن الرباعي والمثنوي الذي أثر وتأثر بالشعر العربي مع ملاحظة الاختلاف البسيط، اذ يجيز الفرس استعمال بعض البحور كاملة (مثنة)، أو اختلاف في بعض القنياته، ومنها القوالب الفنية التي تفرد بها الشعر الفارسي عن العربي، وكانت مميزة لاصقة به شكل الترجيع بند" و التركيب بند، والمستزاد.

قسم الدارسون للأدب الفارسي هذه الاشكال الفنية الى أصلية وغير أصلية، أما الاصلية فهي القصيدة والقطعة والمثنوي والرباعي والغزل، وأما غير الاصلية فهي ما عداها (تركيب، ترجيع، مسمط، ....).

ان الشاعر وهو ينظم شعره فيخرج في بحر دون سواه ويأتي بقافية معينة، وعندما يسكبه في قالب معين لم يكن مختارا اختيارا واعيا لا للبحر ولا للشكل ولا للموضوع الذي هو حصيلة تجارب طويلة عاشت في أعماق صاحبها ونضجت بها. وما كان على الشاعر الا أن يلبي ذلك النداء الداخلي فيخرجها في الشكل الذي لبسته، ولا علاقة بين الموضوع الشعري والوزن أو الشكل الفني وان كان الفرس قد ارتضوا بعض الفنون لأغراض معينة دون غيرها. ان كل البحور صالحة لكل الاغراض، وكل الاشكال الفنية صالحة لكل الاغراض أيضا، وكل القوافي صالحة لها، ولعل التجربة الاقبالية أكبر دليل على ذلك.

فالشاعر لايختار البحر الذي ينظم فيه اختيارا واعيا ولايختار الشكل الذي يسكب فيه ابداعه اختيارا واعيا، ولايختار لا الالفاظ ولا القوافي ولا الحروف وانما يتم ذلك عن طريق النداء الحر وعن طريق الالهام (1). والقصيدة انما تأتي بحسب الموروث الثقافي للشاعر وقدراته الفنية وموهبته وابداعه ومدى تفاعله مع موضوعه ومع البحور الشعرية والاشكال الفنية، ثم ان الاوزان الشعرية تضفي على القصيدة تناسبا صوتيا للكلمات، كما تعطيها القوافي اكتمالا وتنظيما من الناحية الشكلية (2).

كثيرة هي الاشكال الفنية التي استطاع اقبال بواسطتها أن يلج الى كل ما يعتلج باعماقه، وكل مايرغب في نقده أو وصفه أو توجيهه أو التعبير عنه من لواعج النفس وهمومها وثورتها وحيرتها وقلقها على ما آل اليه انسان العصر الحديث

---

1 - عز الدين اسماعيل - التفسير النفسي للأدب - دار العودة بيروت، ط 4 (1981) ص 76 - 78.

2 - السعيد الورقي - لغة الشعر العربي الحديث، مقوماتها وطاقاتها، دار المعارف، مصر، ط 2 (1983)، ص 186.

من ضياع في عصر الآلة ،ومن حبّ الهي صوفي وافكار صوفية سابحة في رحاب الخيال ،ونقد اجتماعي لاذع وفكر فلسفي معاصر قد يصعب نظمه وسكبه في أبيات من الشعر .

يحتوي الديوان ما يقارب المائة والخمسة والثلاثين منظومة (1) ،صاغها اقبال في جلّ أجناس الشعر الفارسي المعروفة ،الاصلية وغير الاصلية ،وادخل عليها الكثير من ابداعه وسليقته وموهبته .لفن الرباعي الحظ الأوفر من الديوان اذ أخذ جزءً كاملا من أجزائه الاربعة هو شقائق الطور ، الى جانب رباعيات متفرقة ،يأتي بعده فن الغزل الذي خصّه بجزء آخر من أجزاء الديوان هو الخمر الباقية في حين قسم الجزأين الباقيين بين سائر الاشكال ،فكان للقطعة فالمثنوي أكبر نصيب من الديوان ، فالمسمط والقصيدة ،أما التركيب بند والترجيع بند والمستزاد فقد كان حظهما من الديوان ضئيلا بقدر ضآلته في الشعر الفارسي ، فاذا كانت واوين شعراء الفرس تكاد لا تخلو من تركيب أو ترجيع ضلا فانهما تكاد في حقيقتها لا تحتوي الا نموذجا أو نموذجين لهما دليلا على وجود ذلك الفنّ .

ولأن هذه الاشكال والقوالب وجدت لنفسها مجالا في رسالة الشرق أو فكرة عبّرت عنها فانه يمكن القول أن هذا الديوان لم يغلب فيه لون على لون آخر ،اذ لكل نصيبه بقدر حاجة الشاعر اليه ،وبقدر طبيعة الشكل الفني نفسه ،فحتى التركيب بند والترجيع بند كان لهما وجودهما ونصيبهما ، ويكفي ظهورهما واطلالتهما على القارئ دليلا على ذلك ،ودافعا الى التطلع الى طبيعتهما وشكلهما المميز .

أ- الفنون الاصلية : المراد بها تلك التي ارتبطت بداية النظم فيها ببداية الأدب الذي تنسب اليه ،وهي الفنون التي لها جذور ممتدة في الأدب القديم لأمة من الأمم ،مثل فن القصيد في العربية ،ومثل فنّ الرباعي في الفارسية ،ومن أسبقية العرب في فن القصيد فانه يندرج ضمن الفنون الاصلية في الشعر الفارسي ،لأن الفرس نظموا فيه منذ بداية الشعر الفارسي بعد الاسلام (2) وهذه متابعة لقوالب النظم في الديوان .

1- فن الرباعي : سبق الى اختراعه الفرس ونظموا فيه منذ بداية الشعر الفارسي الاسلامي ،فلا يكاد ديوان من دواوينهم يخلو منه ، أطلقوا عليه اسماء عديدة منها "رباعي" و"دُوبيت" و"دُوبيتي" ،و"چهار بيتي"

1- المراد هنا بالمنظومة ليس قسما كاملا من الديوان وانما هي كل وحدة تأخذ قالبا فنيا معينا .

2- اسعاد عبد الهادي قنديل ،فنون الشعر الفارسي ،دار الاندلس ، بيروت، لبنان ،ط 2، 1402 هـ 1981م ،ص 76 .

و "جهار گانه" و "ترانه" وهو عبارة عن بيتين من الشعر تجرى على وزن واحد وقافية واحدة ما عدا السطر الثالث فقد يتفق مع غيره في القافية فيسمى الرباعي كاملا أو يخالفها فيسمى ذو الصاريع الثلاثة .

تفنن الفرس في أوزان الرباعي فجعلوها على أربعة وعشرين وزنا من مستخرجات بحر الهزج ، واستحطوا فيه من الزحاف ما لم يعرف في الشعر العربي القديم(1) أما الوزن المعتاد لهذا القالب عندهم فهو جملة "لاحول ولا قوة الا بالله". وهي من مرافقات بحر الهزج المثمن (2) ولهذا القالب الشعري مكانة عالية عند الفرس فهم يفضلونه على كثير من الاوزان المبتدعة ويرون أن لا وزن منه ومن "الاشعار المخترعة بعد الخليل أقرب الى القلب والطبع أكثر من هذا الوزن"(3) أما الاغراض التي صيغت فيها الرباعيات فكثيرة ومتنوعة (الغزل ، المدح ، الحكمة ، التصوف ، الفلسفة ...) ويعتقد البعض أنه من أصعب أجناس الشعر ، لأن الشاعر "يضمن تلك الشطرات الاربع فكرة معينة ومعنى جديدا ، الى جانب تقيده بوزن خاص ، فكأنه ينضح بحرا في اناء صغير"(4) ، وكذلك كان اقبال في رباعياته ، فقد صب بحرا صوفيا في اناء صغير هو الرباعيات ، سكب بحرا من بحار المتصوفة في ذلك الاناء الصغير "شقائق النور" التي تحمل علامات امتدادها في عنوانها ، فللطور قصته في الأدب الصوفي وفي التراث الديني ، وللشقائق أيضا قيمتها عند الشعراء الفرس والهنود ، ان رباعيات المنظومة المائة والثلاثة والستون (163) "جدّ موجزة وجدّ طويلة ، جدّ بسيطة وجدّ معقدة ، موجزة لأنه يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي : العشق" كما لخصها اقبال في الرباعية (121) وجدّ طويلة لأن هذه الكلمة ليست سوى رمز يخبئ كونا كاملا من التجارب وما لا نهاية من الاحاسيس والادراكات التي لا يمكن أن تنطلها أي لغة يعرفها البشر ، جدّ بسيطة لأنها تستدعي أغلب الناس من عدة مستويات ... وجدّ معقدة لأننا حين نبدأ في تحليل فكرتها ونحاول البرهان عليها لا نجد نهاية للتحليل والادلة"(5) . وهناك رباعيات أخرى أسهب اقبال في التعبير بها عن تصوراته الخالية لأمور شتى ، أشهرها تصوره للعلاقة القائمة بين الله والانسان ، وتصوره لعالمية الاسلام نحو قوله :-

نحن لا أفغان ولا ترك ولا تتار ...

---

1 - محمد عبد المنعم ، دراسات في الشعر الفارسي حتى القرن 5 ، دار الثقافة ، القاهرة 76 و 1 و الموسى السابق ، ص 167 - 168 .

2 - محمد عبد المنعم ، دراسات في الشعر الفارسي ، ص 236 .

3 - المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

4 - Iqbal Sing, The Ardent pulgrim , p 116 .

5 - المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

فالشقائق في مصطلح الصوفية هي من نتائج المعرفة التي يشاهدها الصوفي(1) وهي في الشعر الهندوفارسي مرتبطة بالحب الدنيوي ليس أقل من القدس(2). ولكن الذي صوّره اقبال في هذه الرباعيات هو الحبّ الالهي المقدس، هو عشق الذات الالهية. ثم ان فكرة الشقائق ترافق بطريقة غير مباشرة نشوة النسيان، نسيان كل شيء وافراغ القلب والفكر من كل شيء، ومن كل الاغيار ليعمر الكيان كلّه بشيء واحد.

لذلك ترافق الناس نشوة النسيان الى جانب الشقائق برمز آخر هو جبل سيناء (3). وكذلك كانت شقائق اقبال متصلة بالطور الذي تلقى عنده موسى عليه السلام النور ورأى ربّه، والمراد بالطور عند المتصوفة هو النفس، واندكاك الجبل عندهم عبارة عن فناء النفس بالله، قال علي رضي الله عنه: "ان غبت بعدا وان بدا غيّبني"(4)، ورؤية الله تستلزم أولا نسيانا مطلقا لكل ماعداه.

تطلق اقبال في رحلته مع الرباعيات من أول خطوة نحو الله، وهي مرحلة الصراع مع النفس والتي من أهم عوامل نجاحها معرفة المرء لأدغال نفسه وكوامنها وذلك شرط معرفة الحق والثبات على الطريق اليه. جعل اقبال من تلك الاشطر الاربعة وعاء لهذه الافكار العظيمة وطموحها للحديث عن النفوس الغافلة عن هذه الحقيقة، وهي لغفلتها لن تبلغ الحق بسعيها ولن ترتقي الى درجة النورانيين بطلبها لأنها لم تعرف حقيقة الانسان فأنى لها درجة الملائكة وادراك سرّ الرحمن، انها أسيرة الماضي وترسباته، تعبد، وتعبد الاجداد وما صنع الاجداد، يقول:

ـ لو يكسر الحكماء مائة صنم فانها ستظل مرتبطة بمعبد الذي كان والذي سيكون.

كيف استطاع أن يبلغ الله والملائكة وهو الى الآن لم يستطع أن يصل الى الانسان(5).

تحيط تلك المقاربع الاربعة لتصوير حالات الصراع الذي ينتاب كل نفس ظلمت على فطرتها وطهرها وصفائها وتصوير ما ينتابها من تساؤلات تظل ترتقي بينها، كلما أجابت على واحد منها ارتقت الى غيره حتى تخرج الى صراع مع ما حولها

---

1 ـ حسين مجيب المصري، القاموس الفارسي العربي، (مادة الشين).

2 ـ Iqbal Sing , The Ardent pulgrim , p 112 .

3 ـ المرجع نفسه، ص 133.

4 ـ عبد المنعم الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، 170.

5 ـ رسالة الشرق ص 234.

من ذلك الصراع تلك المدوامة المستمرة بين سموّ الروح وعلوّ مطالبها وترابية الجسد وأرضية رغباته ، كل شيء حول الانسان من تراب كل شيء فيه مستمد تراب ، كل شيء فيه وحوله يذكره بالتراب الا الروح . وهذه المرحلة التي هي احدى خلوات الانسان لغلبة النفس وغلبة حفنة التراب استطاع اقبال على امتدادها أن يصبّها في رباعية واحدة ، يقول :

— سرير كيقباد وتاج جمشيد من تراب
والكنيسة والمعبد والحرم من تراب
لكنني لا أدري ما كنه جوهري ، فنظرتي تعلو الى ما فوق الفلك وجسدي من تراب(1)

ويجعل من تلك الرباعيات وسيلة ليقدم عبرها الحل لتلك التساؤلات اللا منتهية ، والمتسلسلة في الانطلاق من النفس وفي السبحات والنضج ، يقول :

— قلبك يرتعش لفكرة الموت ، فقد بقيت صفراً كالزعفرانة من خوفها .
فامسك نفسك بنفسك ثانية ، وكن أكثر نضجا وثباتا ، ولو تفعل ذلك فانك لن تموت أبدا بعد الموت (2).

أنت تفتح لنفسك طريقا في صدر النجوم ، لكنك لا تدري شيئا عن نفسك .
فانظر مرّة الى نفسك ، لتخرج كنخل باسق من تحت هذا التراب(3).

كما يكمن الحل في اليقين بأن كل ما تقع عليه العين في الكون من جمال هو جمال عابر ما دام لم يهدد ، الفناء لان فوقه جمالا أزليا ، ويكمن في تجاوز النظرة المادية الى الحياة وفي الاعتماد على النفس واتخاذ مواقف وآراء بعيدا عمّا يراه الآخرون ، يقول :

— قال لي شيخ حكيم ، اعلم أن كل يوم لك هو رسالة لغدك .
فلا تحفظ قلبك بالخوف عن الجمال العابر ، فمعبد ، حرام على كل الانام سواه
أنا لا آلف ما تراه طيبا أو قبيحا من أمر الدنيا ، فقد جعلت مقياس ذلك عندك النفع النفع والخسارة .

ليس في هذا الحشد من هو أكثر عزلة وتفردا مني ، لأنني أرى الدنيا بعين أخرى (4).

وهناك رباعيات أخرى سخرها اقبال لكثير من نصائحه وحكمه وانتقاداته منها قوله :

— يا من خلقت للطيران والتحليق حديثا ، فكيانك كلّه تمتع بنشر الجناح والتحليق .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 206 .
2 — رسالة المشرق ، ص 211 .
3 — رسالة المشرق ، ص 203 .
4 — رسالة المشرق ، ص 212 — 213 .

ـ ان الرغائب تتعدد نا عمن الطيران ، فانشر أنت الجناح بأذواق التحليق ومواجيده . (1).

ويطلع بسالرباعيات التي تتائسج التفوق على النفسروغلبة الاهواء وتجاوز قيد الماء والطين ، يقول :

ـ قيمتي في نظرك غالية ثمينة ، لأنك أنت الذي أخرجتني الى سوق الوجود (2) وليست هذه كل المحاور التي أخذ لها لا وعي اقبال وأعماقه من الرباعيات كأسا تسكب فيه ، ففي شقائق الطور ـ كما في كل الديوان ـ حديث طويل عن العشق وتعريفات لطبيعته وطرقه ونتائجه ورموزه ، فالعشق هو الذي يمنح الجنان نسائم الربيع ، والرياض براعم كالثريا ، أنواره تشق بحر القلزم وتهب العين الحادة النظر ، والشقائق اللوّن القاني ، وتهب الروح الرغبة في التسامي وليكن عدما كل من يسمى العشق جنونا . كل هذه المعاني صبها اقبال في أول رباعيات شقائق الطور لتكون عنوانا لها ، يقول :

ـ العشق هو من يمنح اللون القاني لورق الشقائق ، والعشق هو الذي يمنح السبلاء لروحنا .

فلو تتشق قلب هذه الأرض ، فستجري في باطنها دماء العشق مسفوحة (3).

وفي هذه الرباعيات حديث عن الشقائق وعن الطور اللذين هما لبّ المنظومة وعنوانها والدليل عليها ، يقول :

ـ قال العقل انه لاتناله العين (أي الله) ، ونظرة الشوق اليه بين الخوف والرجاء .

وقصة الطور لاأبلى أبدا ، ففي كل قلب (تتنفس) أمنية الكليم مائلة (4).

وفي رباعيتين منها فقط صوّر عالمية الاسلام ومثاليته وهي التي أفاض علماء الاسلام في الحديث عنها ، يقول :

ـ أيها الطفل هذّب نفسك بنفسك ، (أ) مسلم أنت؟ فدع النسب اذن .

اذ اتاه العرب بالجلد والعرق والدم ولونه الأحمر ، فدع كونك عربيا .

نحن لا أفغان ولا ترك ولا تتار ، نحن أبناء حديقة واحدة ومن شجرة واحدة التميز باللون والرائحة عندنا حرام ، فنحن ثمرة لربيع واحد (5).

ويمضي في تدرجه في تحسين الرباعيات بأفكاره المثقلة بالمعاني حتى يصل بها الى قمة ما يمكن أن تحمله لغة أو شكل فنّي ، فيجتاز النفس وصراعها وغوصها والعالم وما فيه ، وهو تصوير العلاقة القائمة بين الخالق والمخلوق ، أو لنقل بين

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 201 .
2 ـ رسالة المشرق ص 235 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 196 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 208 .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 222 .

المعشوق والعاشق ، وحتى هذه العلاقة انتقل فيها بتدرج حتى انتهى الى آخر مراحلها وهي أن فهمها وادراكها هو مبعث السعادة المطلقة التي تستحق كل عناء ، لخص اقبال هذه الحقيقة في أول رباعية من شقائق الطور ، اذ كل مافي الكون يحمل علامات عشقه ، يقول :

- كل مافي الوجود من مظاهر الفرح والبهجة شهداء عشقه ، فهو الحاجة القائمة في جوهر من كان ومن هو كائن .

ألم تر أنه من حب الشمس المنيرة للفلك ، يوجد أثر للسجود على محيّا السحر(1)

تلك الحقيقة القدسية بجلالة معانيها القاها اقبال في مصراعين أخيرين لرباعيتين متتاليتين وكأنهما الغاية التي لأجلها جاء بالمصاريع الستة الاخرى ، يقول :

تتمنى شجرة السرو الحرة الباسقة أن تكون عبدا له ، واشراق وجه الوردة انما مأتاه من خمره .

فالشمس والقمر والكواكب حرم له ، وقلب آدم مسكن مصون له .

من نملة الى نجمة اتسعت الدنيا الى مائة عالم ، عندما يطير العقل منها فانه يتجه نحو السماء .

ولكن عندما أنظر الى نفسي بنفسي ، أدرك أن (نهاية) الازلي (اللا منتهي) كامنة في عالمي (2).

ويمضي في رصد صور هذه العلاقة حتى يأتي بها الى قمتها ، فما المرء الا كائن يستمد عوامل بقائه من الخالق ويحيا وسط الكون الذي أبدعه الخالق ويتمتع بما فيه ، انه في صلته به أشبه بالكوكب الذي هو في أصله مظلما ولكنه يستمد النور من الشمس وهو أشبه بالجزء الواحد من القرآن الذي لايمكن تخيل سائر الاجزاء الا أن الانسان احدى آيات الله في الكون وليس كلها ، يقول :

- أنا كوكب سيار وأنت شمسي ، والانوار التي تغطيني من رأسي حتى قدمي آتية من نظراتك .

أنا لا أعرف المثال بعيدا عنك ، فأنت قرآني وأنا لك أجزاء (بعض أجزائه)(3).

هذا عن رباعية شقائق الطور ، أما الرباعيات الاخرى فجاءت في القسم الثاني من الديوان وهي أربع وحدات (رباعيات) حذا فيها حذو شقائق الطور بترقيمها والاعلان عن الفن الذي تنتمي اليه ، وعنوانها أفكار الانجم . اعترف فيها بفضل الانسان على سائر المخلوقات ، يقول :

---

1 - رسالة المشرق ، ص 215 .

2 - رسالة المشرق ، ص 219 - 220 .

3 - رسالة المشرق ، ص 218 .

- سمعت كوكبا يقول لكوكب (آخر) ، نحن في بحر لا يلوح له سواحل
نحن مسافرون بالفطرة (لقد فطرنا على السفر) ، ولكن ليس لقافلتنا (لركبنا) وقوف.
لا أحد يستطيع تحمل هذا العبء الثقيل ، وان عدمنا الخالد أفضل من حياتنا (وجودنا)
وهذا الفضاء الرحب (الازرق) هو في نظرنا عديم الجمال ، وذلك الغبار السافل (الانسان)
هو عندنا أفضل منه (1).

وهكذا سكب اقبال في تلك الرباعيات أو ذلك الكأس الصغير بحرا من المعاني. ألفت الكتب في وحدة الأمة الاسلامية وأسسها ودعاماتها ومازالت توضع ، فساهم اقبال في ارساء تلك الدعامة الضرورية برباعيات قليلة لخصت الكثير من معاني الاسلام وصور وحدته ، وألفت الكتب في غموض النفس البشرية وصراعاتها الداخلية وصراعها مع العالم الخارجي فحوى اقبال كل ذلك في ابيات من الشعر وفي رباعيات ، فكان ذلك تشريفا منه للشعر بأن طوّعه لمعالجة أدق المواضيع وأشد تعقيدا وهو النفس ، وكان تشريفا لفن الرباعي اذ ارتقى به الى قمة العلاقة بين الله والانسان (2) وهي التي تاه المتصوفة في دروبها وسالت أقلامهم وأرواحهم بوحيها .

وقد جاءت رباعيات اقبال في بحر الهزج المسدس ، وهو الوزن المعتاد للرباعي (2).

2 - فن الغزل : نوع من قوالب الشعر وضرب منه ابتكره شعراء الفرس (3)، وينظموا فيه أشعار غزيرة وقد عاش الغزل فترة في كنف شعر المديح (4) ولا يعني هذا أنه لم يكن لديهم شعر مستقل في الغزل فمسي تلك العصور ، الا أنه لم يكن بالصورة المحددة التي ظهرت فيما بعد ، أين استخدم الغزل كفن مستقل له مقوماته وخصائصه في أوائل القرن السادس الهجري ، وظهر تطبيقة من الشعراء الذين جعلوا منه حرفتهم الخاصة .(5) وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ازداد الاقبال على هذا الفن واحتلت الغزليات حيزا كبيرا من دواوين الشعراء أمثال الانوري والخاقاني والعطار ، وان ديوان العطار يكاد يقتصر كله على فن الغزل - باستثناء خمسة وعشرين قصيدة (6).
والواقع أن فن الغزل بدأ يستقل عن غيره منذ عصر السلاجقة ، أي منذ رواج الشعر الصوفي ، فقد كان لتلك النهضة الروحية أثرها في فنون الأدب وكان ظهور الغزل الصوفي احدى حاجات النفوس آنذاك (7).

أما الغزل من الناحية الفنية فهو ضرب من ضروب النظم الموحدة القافية ، وهو عبارة عن منظومة قصيرة يتراوح عدد أبياتها بين السبعة والخمسة عشر بيتا ، وقد

---

1 - رسالة الغفران ، ص265.
2 - الهزج وتفعيلته هي : مفاعيلن (أربع مرات ، هو مسدس في الأصل ومجزوء وجوبا).
3 - اسعاد عبد الهادي قنديل ، ص201.
4 - محمد عبد المنعم ، دراسات في الشعر الفارسي ، حتى ق 5 هـ ، ص213.
5 - المرجع نفسه ، ص216 - 217.

أما الغزل من الناحية الفنية فهو ضرب من ضروب النظم الموحدة القافية وهو عبارة عن منظومة قصيرة يتراوح عدد أبياتها بين السبعة والخمسة عشر بيتا ، وقد تقل أو تزيد عن ذلك قليلا (1) تأتي مصرعة ، وعادة ما تنتهي الغزلية بأن يذكر الشاعر لقبه الشعري (تخلصه) في البيت الاخير أو البيت قبل الاخير وهو ما يعرف في الفارسية بالتخلص الذي التزم به الشعراء منذ القرن السادس الهجري ولم يغفلوا ذلك الا نادرا (2). وأما الاغراض التي يعالجها هذا الفن في الغالب فهي الحب العفيف والغزل المنزه ، انسانيا كان أو الهيا ، وان طور فيه بعض الشعراء وصنعوه اغراضا أخرى كما في غزليات حافظ الشيرازي ، الذي بلغ الغزل على يديه وعلى يد سعدي الشيرازي درجة الكمال (3).

عهد فن الغزل وزنا درج عليه روّاده واستحسنوا أن يبنى على وزن عذب الوسيقى كالهزج والرمل والخفيف ، ولكنهم لم يوجدوا ما يحول دون صياغته في وزن غير هذه الاوزان (4).

وكما خص اقبال فن الرباعي بقسم كامل في الديوان وحدد القالب الفني له ليميزه عن غيره من الاشكال الشعرية ، خص فن الغزل بقسم منه هو الخمر الباقية ، وأعطاه انتماءه منذ أول صفحة فيه ، حتى لا يحتسب ما خرج فيه عن قواعد هذا الفن في القصائد أو القطع هل الغزليات التي لم يذكر فيها تخلصه أو غير المصرعة الاخر أو التي جاءت في ثلاثة أبيات أو أربعة .

وعلى الرغم من هذا التحديد الذي قصده (بذكره الفن الذي اختاره) فان بعض الدارسين أمثال الاستاذ محمد منور ميرزا رأى امكانية تسمية غزليات زبور العجم ، قطعا ، وان هذه المقولة تصدق الى حد كبير على غزليات رسالة المشرق (5) وقد عدها الدكتور عبد الوهاب عزام قصيدا (6) وهما المتخصصان في الأدب الفارسي وفي الاقبالية.

قسم اقبال الغزليات الخمسة والاربعون الى قسمين ، الاول وأعطاه عنوان الكل "الخمر الباقية" ويتكون من ست وعشرين غزلية ، والثاني "كتاب الى أحد المتصوفة" ويتكون من تسع عشرة غزلية .

لم يتقيد الشاعر فيها بعدد الابيات ، فهو يختلف من واحدة الى أخرى ويبلغ في مجموعه مائة وتسعين بيتا (190) ، احتوت أطول واحدة فيها عشر أبيات ، أما أقصر غزلية فثلاثة أبيات وذلك في غزلية واحدة ، وهي كالتالي :

---

1 ـ اسعاد عبد الهادي قنديل ، فنون الشعر الفارسي ، ص205.
2 ـ المرجع نفسه ، ص 203.
3 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها ، ودراسات في الشعر الفارسي ، ص221.
4 ـ المرجع نفسه (فنون الشعر الفارسي) ، ص 203.
5 ـ محمد منور ميرزا ، علامه اقبال غزل فارسي ، ص
6 ـ مجلة الرسالة ، سنة 6 ، مجلد 1 ، عدد 256.

المتكونة من عشرة أبيات : غزليتان .

المتكونة من تسعة أبيات : ثلاث غزليات .

المتكونة من ثمانية أبيات : أربع غزليات .

المتكونة من سبعة أبيات : ثلاثة عشرة غزلية .

المتكونة من ستة أبيات : عشر غزليات .

المتكونة من أربعة أبيات : غزليتان .

المتكونة من ثلاثة أبيات : غزلية واحدة .

فالغزلية الأكثر تردداً والأوفر حظاً هي المتكونة من سبعة أبيات سبقت الاشارة الى سعة اطلاع اقبال على روائع الشعر الفارسي وافادته منه وتأثره به ، أحياناً في المضامين وأحياناً في الانغام ، واذا تأثر في غزلياته برواد هذا الفن الاوائل فما كثيراً من غزلياته لايشبه غزليات شعراء الفارسية الا في النغمة والاسلوب والالحان (1) .

فقد أحدث اقبال انقلاباً عظيماً في قصيدة الغزل بما استعطه من مفاهيم ، هي مضامين بكر من بنات خياله (2) فهو وان حافظ على طبيعة هذا الفن وعلى كلاسيكيته فبقيت الغزلية عنده هي الغزلية بوزنها وقافيتها وتخلصها ، وبقي الموضوع الاول هو العشق نفسه الذي عالجه كبار هذا الفن ، بل وبقيت كلاسيكية حتى بعنوانها "الخمر الباقية" الذي تمسك به غوته وأثبته في ديوانه الشرقي بعدما أخذه عن الشاعر الفارسي الرائد حافظ وهي خمر المعاني وخمر الحقيقة .

وكان العنوان الجزئي منها "كتاب الى أحد المتصوفة" بدوره كلاسيكياً شبيهاً بما حوته دواوين شعراء الغزل من عناوين ، فلا قبال معرفة حسنة بالغزل الفارسي وكاطلة لمعاني ومصطلحات العشق الصوفي من شمع وفراش وورد وشقائق وبراعم ربيع وطيور ورياض وخمر وساقي وقمص وشاهين ونأي وجرح ودلال ...(3) .

فكان في تصويره للعشق ورموزه وطرقه ، وحال العشاق ، وفي حديثه عن السفر والسعي والاجتهاد وعن الفقر والخفقان والاضطراب وعن البحث الدائم مشابهاً لشعراء قدامى ، وذلك دليل على مدى تفاعل اقبال مع الفكر الصوفي وميله لأنواره ، كما أنه دليل على صلته بالقديم وأصالته ، غير أنه وان اشترك مع القدماء في

---

1 ـ محمد منور ميرزا ـ علامه اقبال غزل فارسي ، ص 153 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 63 ـ 66 .

3 ـ المرجع نفسه ، ص 157 .

البنـاء الفني وفي المواضيع المطروحة فانه لايعتبر مقلدا ، لأنه اذ كتب على ذلك النحو والانغام والاسلوب فلأن العشق لغتا تعامة وأحاسيس انسانية" (1).

تقف قاسما مشتركا بين الاصفياء ، والملاحظ أن اقبال جمع في غزلياته بين الكلاسيكية والتجديد ، فحافظ على بعض معايير الفن كما حافظ في الوقت نفسه على رسالته تجاه عصره وانسان عصره ، فجاءت أشعاره (غزلياته) كما تقول الدكتورة شيمل : "فريدة وحيدة ، متميزة" (2) فهو وان عرف اسرار ورموز الغزل الفارسي فانه استفاد من تلك المصطلحات بحسب الضرورة وأبدع منها ألوانا وتراكيب جديدة ، عرف فقر المتصوفة ، وعرف أنه من المواضيع التي احتواها الغزل ، ولكن الفقر الذي تحدث عنه لم يكن نتيجة رياضة البيوت الصوفية وانما كان فيضا فطريا أضاف اليه اقبال وجعله فقرا غيورا ، يقول :

- أيها الرجل لا تقف بحاجتك بين أيدي الملوك والسلاطين ، فان عمل القادر لايأتي من الجبل بقشة (3)

وعرف قدر العقل عند المتصوفة الذين كانوا حين يصدر القلب أوامره وتوجيهاته ينظرون الى ما القاه الله في القلب من أنوار المعرفة والهداية والى مايدبره العقل فما وجدوه يتفق وأنوار الهداية والعقل أصدروا به الأوامر للجوارح الظاهرة لتنفيذه ، والا نفوه واستبعدوه ، فجاء بنظرة جديدة استمدها من روح عصره الذي انكر القلب وكل مالـه صلة بالقلب ، وتشبث بالعقل فكان من تناقضه ماكان من حروب ودمار ونهب واستغلال مستمرة كلها خلف أسباب وحجج واهية ، واتخذ من بعض غزلياته اناء يصب فيه رد الاعتبار للقلب وتمجيده ، يقول :

- سعيد ذلك الذي أحرق العقل بنار المداومة ، فهو كالشقيقة التي تغتني من نفسها بمتاع .

لا تسأل العقل صاحب ألف حيلة عن علامة للطريق ، وتعال الى العشق الذي بلغ الكمال بفن واحد (4).

فتجاوز العقل ودعه وتعلق بموج بحار العشق ، احذر العقل الذي لايرسم الا كل غير مأمول (5)

ولعل أروع ما تجاوز فيه اقبال بخياله وأحلامه أحلام المتصوفة هو ذلك المطلع الذي حوته غزلياته فقد لايحلم صوفي بنيل أكثر مما ناله موسى عليه السلام ، وما الذي يرجوه مؤمن بعد المشاهدة؟ الا أن اقبال لم تقف به أحلامه عند ذلك الحد ، فانتقد كل من وقفت به أحلامه عند طلب التجلي ، يقول :

- نظرتك قاصرة وعقلك عاجز ، ودعاؤك لايستطيع أن يصل سوى الى دعاء كليم الله موسى وصلواته (6).

---

1 - الموجز السابق ، ص 154.
2 - الموجز نفسه ص 180
3 - رسالة المشرق ، ص 350.
4 - رسالة المشرق ، ص 325 و 353
5 - رسالة المشرق ، ص 347.
6 - رسالة المشرق ، ص 350.

أما الضامين البكر التي ابتدعها اقبال وأدخلها على هذا الفن فكثيرة ، وهي التي جعلت هذه الغزليات خاصة باقبال دون غيره وجعلت الدارسين لشعره والمتخصصين في الاقباليات يتفنون وجود غزلياته أحسن من غزلياته في رسالة المشرق ، يقول الاستاذ محمد منور ميرزا : "ان كثيرا من أبيات اقبال متفردة ، متفردة ، متفردة ... لا نستطيع أن نحدد أبدا غزلياته أحسن من التي في رسالة المشرق . (1)

متفردة لأنها جاءت بمضامين بكر وعنا لجمت مواضيع بكرا لم يكن الغزل لسانا لها من الفلسفة التي أبان عنها في أول غزلياته وأعلن أن شعره يحتوي الى جانب قسم العشق دروسا في الفلسفة ، يقول :

- نحن نستطيع أن نفهم من شعر قلب اقبال ، بأنه يعطي دروسا في الفلسفة ويمارس العشق (2) .

وهو اذ يعتمد أحيانا على الفلسفة والفكر الفلسفي والحوار ، فانه ينتهي بهما جميعا ويجعلهما تصبان في الرافد الذي انطلق منه وهو بناء الانسان الجديد بالعشق الجديد بالنظر الى الحق ، ولعل الاعتماد على النفس احدى أهم الخطوات في ذلك البناء ، وانطلاقا من فلسفته تلك شبه الانسان الذي يعتمد على غيره بالمرآة التي تفقد ملامحها وتفنى في الصور التي ترتسم على صفحاتها ، فهو يختفي في غيره وفي افكارهم وأعمالهم وأقوالهم مثلما يختفي وجه المرآة بظهور الصور على سطحه ، يقول :

- تحرر مثل أريك كان سجينا بقلب البرعمة ، وتعلم التموج واختلط بنسيم السحر لا تكن كالمرآة تفنى في جمال الآخرين ، نزه عينك وقلبك عن خيال الآخرين وتفكيرهم وتعلم التحليق في الفضاء بأجنحتك أنت ، ذلك أنه لا يمكن الطيران بأجنحة الآخرين .

أنا حر غيور الى حد كبير ، يمكن أن تقتلني الخمر الزلال الصافية ان شربتها في كؤوس الآخرين (3) .

وكثيرة هي الغزليات التي سخرها اقبال لفكر فلسفي وغاية صوفية ، فمن دروسه الفلسفية التي استقاها من العصر تلك المعادلة الصعبة التي حللها أحد طالع غزلياته ، هي معادلة اختلال الموازين وتداخل الصور وتشابكها في ذلك العصر فلا السيد سيد ولا العبد عبد ، اذ الاسياد درجات يخدم أصغرهم أكبرهم ، وهم في ذلك أشبه بالعبيد الذين يباعون في الاسواق والذين يخدمون الاسياد ، ولكن بيع أولئك الاسياد يكون في أسواق خفية ، يقول :

---

1 - محمد منور ميرزا ، علامه اقبال غزل فارسي ، ص 154 .

2 - رسالة المشرق ، ص 326 .

3 - رسالة المشرق ، ص 327 و 344 .

ـ لا وجود لسيد لايخدم سخس العبد ، ولا وجود لعبد لايباع مثل السيد (1)

ومن المواضيع البكر ذات الحظ الوافر من فن الغزل في الديوان ، العصر الذي عاش فيه الشاعر فقد واجهه اقبال بكل مافيه من مفاسد وطوّع الفن الرقيق الذي لايخرج عن العواطف الانسانية الا نادرا لانتقاد العصر ومافيه ومن فيه . انه عصر غير جدير بأن يبوح فيه وله العارفون بالاسرار والحقائق التي تجلت لهم لأنهم تجاوزوه بما متد ادهم في الماضي وتطلعهم الى المستقبل في وقت فقد وقاره ، يقول :

ـ من وراء حجب الدنيا لقلت سرّا ، ولكنني لن أبوح به لأن الزمن غير جدير بالوقار (2)

وليس العصر وحده الذي فقد وقاره وقيمته ، ففيه تغيرت كل المعايير وتغيرت طباع البشر فباعوا الوقار ورهنوا الدين في سبيل أغراض دنيوية زائفة ، يقول :

ـ قد رهنّا القلب والدين في حبّ غيد العجم ، فلا أنت تملك نار الشوق الى سليمى ولا أنا (3).

وان آخر غزلية كانت لانتقاد انسان العصر اذ جهل قدر نفسه وهو الزاعم أن العصر عصره ، فكانت ملأى بالاسف على ذلك الجهل ، يقول :

ـ أسفي عليك نحتّ أصناما جديدة ، أسفي عليك اذ لم تغص وتبحث في نفسك .

هكذا انصهرت من حرارة الفرن ج ، أسفي عليك فقد سقطت في نظر نفسك .

في عالم يعطي لهذا التراب قدرا عاليا ، أسفي عليك اذ لا تريد أن تلقى عليك (على نفسك) ولو نصف نظرة .

قد قرأت بلا شك كتاب العقل ، فأسفي عليك اذ لم تفهم حديث الوجود والعشق .

لفت بالكعبة ، وطفت بالدير ، فأسفي عليك اذ لم تطف بأعماقك ولم تلتف حولها (4)

وفي هذا العصر الفاقد للوقار سرى الوهن الى المسلمين فحز ذلك في نفس الشاعر فأبى الّا أن يحمل بعض غزلياته قلقه على ما آلت اليه الأمة بعد ما كانت للتنار اماما .

واذا كان شاعر النسيان الفارسي يحب أن يذكر تخلصه الشعري في آخر غزلية فان تخلص اقبال لم يكن تخلصا عاديا ، ولم يكن فلسفة وبحثا عن الالقاب الجذابة وانما كان وضعا لليد على جرح المسلمين الذي أدمى قلبه ، يقول :

ـ لم أر امرأ أشد غفلة عن نفسه من المسلمين ، في صدورهم أفئدة ، ولكنها أفئدة غريبة تائهة (5)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 346 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 347 .
3 ـ رسالة المشرق ص 338 .
4 ـ رسالة المشرق ، ص 353 ـ 354 .
5 ـ رسالة المشرق ، 342 .

كان تخلّصه في احدى غزلياته يكشف عن فئتين كان يجب تعاونهما لاصلاح حال الأمة ،طائفة الشباب الذين ناموا وطائفة الشيوخ الذين برد ت همتهم وماتت قلوبهم ،يقول :

شبابنا نوم ،وشيوخنا بارد و قلوب(موتى قلوب) ،لا وجود للقلوب التي ترقب تنفس الصباح(1)

كما كانت الغزليات سبيلا لتقويم النظرة الشائعة حول الفن والمعايير التي وضعها له الناس كل بحسب مصلحته ،ولكن معيارهُ الحقيقي كما من في الانسان ونابع من أعماقه .

وحول الفن الذي أراد منه البعض أن يطرب الناس ويمنّيهم بالسلامة والنجاة وان كانوا غارقين الى الاذقان في أوحال الدماء والاحزان ،يقول :

- أتطلب من عودي أن يعزف الحان السلامة والنجاة ، وكيف يأتي بأنغام لا توجد في أوتاره (2).

اما اذا جئنا الى الاوزان التي اختارها الشاعر لغزلياته ،فهي الاوزان المألوفة لفن الغزل ،ولكنه اكتفى منها بمجزوء الرمل والهزج (3) مع غلبة بحر الهزج وكلاهما من البحور الخفيفة المستحسنة في الغزل ، وقد جاءت منغمة كلها كما ألف شاعر الفارسية ذلك وظهرت عليهما جلّ المزاحفات والعلل التي عرفها الرمل والهزج .

هذا عن الاوزان الشعرية ،أما اذا جئنا الى ظاهرة التصريع التي استحسنها الدارسون القدامى في البيت الاخير من الغزلية فاننا نجد اقبال لم يراع ذلك الا في غزليتين من بين الخمس والاربعين غزلية ،كما أنه لم يذكر تخلّصه الشعري الا سبع مرات، ثم انه خالف القدامى في تخلصهم اذ كانوا يتفننون في اختيار اسم التخلص الذي يطغى عليهم فيما بعد لا يعرفون الا به ،وأبى أن يكون له اسما غير الذي يعرفه الناس به ، ولم يسر هذا تمردا منه على قواعد هذا الفن ،وانما هو تجديد منه لهذا الفن حتى يواكب متطلبات العصر ويلائم حاجيات الناس وظروفهم .

ولا تمنعنا هذه الغامين البكر التي جادت بها موهبة الشاعر وتلك الطالع التي ارتقت به الى صاف كبار الشعراء الغزل ،من ملاحظة ذلك التشابه الذي يلوح بين هذه الغزليات لمن يقرأها للوهلة الاولى ، انها فن يحتاج الى طول وقوف وتأمل تقول الدكتورة شيمل أن :"لافرق بينها من نظرة تلقى عليها"(4) . وقد كان ذلك سببا في تحامل بعض النقاد وبعض الشباب غير المة فن اقبال وبعده عن

---

1 - رسالة المشرق ، ص 351.

2 - رسالة المشرق ،ص 347.

3 - الرمل وتفعيلته : فاعلاتن ،فاعلاتن ،فاعلن .

4 - محمد منور ميرزا - عالمه اقبال غزل فارسي ،ص 180.

السذهن ،الى جانب أسباب أخرى كانت وراء ذلك الاعتقاد ، تضلت كما شرحها الشاعر الايراني مظفر الدين بهار . في أن مطالعات هؤلاء لاقبال غير كافية وقراءاتهم ليست كافية ولا مأنوسة وانه ليس كلام اقبال وحده ، التفصيل والغير المأنوس وانما أيضا كلام السنائي والعطار والرومي والفرخي والخاقاني (1).

3ـ فن القصيدة : من الانماط التي تضمنت فيها الاشعار الفارسية منذ العصر الاسلامي ،وهي كما يدل عليها اسمها جزء من قصيدة كاملة انفصل عنها لسبب من الاسباب وقد تكون جزءا من قصيدة لم يقدر لها أن تكتمل ،كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها أنشأها الشاعر من البدء اية ليس منها غرضا من الاغراض ولم يفكر مطلقا في أن يضيف اليها أبياتا أخرى (2) .

وفي كثير من الاحيان يدل أسلوب القصيدة وموضوعها على أن الشاعر قصد بها منذ البداية أن تكون وحدة قائمة بذاتها . (3).

والقصيدة من الناحية الفنية ضرب من ضروب النظم الموحد القافية ،وهي عبارة عن منظومة قصيرة لاتقل عن بيتين ولا تبلغ مبلغ القصيدة من حيث عدد الابيات ،ويذهب البعض الى أنها ينبغي ألا يتجاوز عدد أبياتها اثنى عشر بيتا ، وكلما استطاع الشاعر أن يحصر غرضه في أقل من هذا العدد كان ذلك أفضل ،وقد يتجاوزه الشعراء أحيانا فيصلون العشرين بيتا والثلاثين بيتا أحيانا (4).

تصلح القصيدة لكل الاوزان فلا تقيد بحر ، كما تصلح لكل الاغراض فلا تقيد بغرض دون غيره ،وما يجعلها تختلف عن القصيدة هو أن مطلعها لايكون مصرعا (5).

بينما تفرد القسم الاول من الديوان بالرباعيات والثالث بالغزليات ضم القسم الثاني والقسم الرابع سائر الفنون الاخرى من قصيدة وقطعة ومثنوي ومسمط وترجيع وتركيب ومستزاد وقد كان الحظ الأوفر من القسمين "أفكار" و"نقش الفرنج" من نصيب فن القصيدة ، حيث احتوى الاول ثلاثا وثلاثين قطعة والثاني ثلاثا وعشرين قطعة الى جانب الدقائق ، التي ختم بها الديوان . فكان عدد أبيات قطع الديوان جميعا ما ثنين وأربعين بيتا . فالمسمى ان "أفكار" و"نقش الفرنج" ، يحمل كل منهما مالا حيته ومثله منه لهذا الفن الذي لايتقيد بغرض أو وزن . وان عناوين

---

1 ـ محمد منور ميرزا ـ علامه اقبال غزل فارسي ،ص170.

2 ـ اسعاد عبد الهادي قنديل ـ فنون الشعر الفارسي ،ص 229 ودراسات في الشعر الفارسي ص 193

3 ـ محمد عبد المنعم دراسات في الشعر الفارسي ، ص 114.

4 ـ اسعاد عبد الهادي قنديل ،فنون الشعر الفارسي ،ص 229 ـ 230.

5 ـ الشرح السابق ،ص 230.

القطع نفسها تكاد لا تصلح الّا لهذا الفن ، فاذا جد د اقبال في فن الرباعي وفن المنثور وخطهما الهمام موهبته ، فان فن القطعة استجاب لارادته طوعا ولان لبنات فكره ، فجاء فيه فكر اقبال مجسدا للعصر وظروفه ، معالجا لأمراضه منتقدا للافكار الغريبة التي كانت سبب بلواه ، حينا ناصحا وحينا فاضحا وآخر مادحا أو رائيا أو واصفا .

والملاحظ أن قطع اقبال كانت عبارة عن وحدات قائمة بذاتها ، لها كيانها الخاص بها ، توخى ان يستجيب في كل واحدة منها فكرة . وقد احتوت هذه القطع شعرا اجتماعيا واقعيا هو من نتاج تفاعل اقبال مع الحياة ومع أبناء عصره وتوحده بهمومهم واهتماماتهم وغوصه في عيوبهم وأمراضهم واطلاعه على تاريخهم وأفكارهم وتحليله لعقائهم الفكري لبيان النافع منه من الذي كان سببا في ذلك الفساد والتدهور .

فعشيها ترد د الحديث عن الانسان قبل أن تلعب به الاهواء وتغشى صفحة فطرته الطاهرة (1) من ذلك حب الاطلاع الكامن فيه وحبّ معرفة الاسرار والرموز وخبايا الامور ، مثل لذلك بالحور ، فالحور وهي تنعم بالجنة تتمنى أن تطلّع على الوجه الآخر للحياة وتحبّ أن تعرف الصبح والمساء والليل والنهار ، وهي الخالدة في الجنة تحب أن تعرف معنى الموت والميلاد ، وتلك أسرار عرفتها أصغر المخلوقات وعاش أحدها الزهر وشهدها ثم مضى ولم يبق منه غير الاريج ذكرى ، يقول :

- ضاقت حورية بركن في الجنة فقالت ، لا أحد عرفنا بالوجه الآخر للحياة فأنا لا أعرف لا السحر ولا المساء ولا الليل ولا النهار ، وعقلي حائر في قولهم ما تو ولد .

فتحت برعمة عينا وابتسمت ، وتفتحت وردة ثم سقطت ورقة ورقة على الارض .

لقد ذهب كل أثر لهذا العذاب الدلل ، وبقيت منه آهة للذكرى هي ما يسمى بالاريج (2) .

وكذلك الانسان كلما حقق أمنية طلب الاحسن منها مادا مت غاية سيره ، الا على نفسه يقول :

- اني كلّما استقر نظري و سليت عيني صورة مليحة ، خفق قلبي (الشبيه بقلبي) باحثا عن صورة أحسن (3) .

ويفن القطعة استطاع أن يتسامى بالانسان الى أعلى مراتبه ، صوره في واحدة من القطع في حوار بين يمدى المولى عزّ وجلّ ، عرض فيه ابداعه ومساهمته في الكون ، يقول :

---

1 - الحقيقة أن اقبال سخر لبعض الافكار أكثر من قطعة وحتى لا تكرر جميعها فقد اكتفيت بنماذج منها فقط .

2 - رسالة المشرق ، ص 259 .

3 - رسالة المشرق ، ص 279 .

- الليل أنت خلقته وأنا الذي أصنع السراج ، والطين الحقير أنت خلقته وأنا الذي صنع الكؤوس .

خلقت الخضرة والبيد والجبال ، وأنا صنعت الشوارع والحدائق والجنان .

أنا ذلك الذي صنع من الصخر المرايا ، وأنا ذلك الذي صنع من السّم الدواء المستساغا (1).

كما جاء فيها بفلسفة للحياة على اختلاف الناس في النظر اليها ، فهي عند البعض بكاء أزلي بأحزانها ، وعند البعض الآخر وان طالت مآسيها لمحة من الابتسام لأن ذلك البكاء لا يقاس فيها وانما تقاس تلك اللحظات القليلة منها فقط ، لحظات الابتسام الخاطفة ، وهي عند فريق ثالث خمر الأمّ فيها أحلى ، يقول :

- بكى غمام الربيع وانتحب في جنح الليل وقال ، ان هذه الحياة بكاء أزلي .

فلمع البرق الخاطف (الربيع الذهاب) وقال ، لقد أخطأت ان الحياة هي ابتسامة لحظة .

ليست شعوبا من نقل الى الروض هذا الخبر ، فهو حديث مستمر بين الورد والندى .

سألت شيخا بعيد النظر ما الحياة (شيخا مجربا) ، فأجاب : هي خمر الأمّ فيها يصبح أحلى (2).

وبعض القطع أحيانا اقبال قصير القرآن مثل تتبعه لقصة الانسان من الخلق الى البعث "تسخير الفطرة" ، وجسد في بعضها الاخر فلسفة المسلم في الحياة "هل الملك لله" ، كما جاء بعض القطع دروسا وحكما مكتظة البناء مفعمة بالمعاني ، ذمّ التكبر والفخر فجاء له اقبال بقطعة تفضح زيف صاحبه ، وذمّ الحقد فجاء له بقطعة عالجه فيها ، وذمّ التقليد الأعمى فضرب له مثلا بقدوة العالمين الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا ولم تخل القطع من الموضوع الذي كان همّ اقبال اعادة بعثه من جديد بعد ما أغفله الناس ، واحياء قانونه الدائم والباعث نموا جديدا ليحتوي كل العصور وكل الافكار ويعبر عن كل الازمان وكل الناس ألا وهو العشق الصوفي ، أو لنقل هو العودة الى القلب بعد ما شهد الانسان المعاصر وبال نتاج العقل ، لأنه كان نتاجا مبتورا ، أخذ من وحي العقل وأهمل أمر القلب .

ولم تخل القطع الست والخمسون من ثناء ومدح لبعض أشخاص ليسوا ملوكا أو رجال أعمال أو أصحاب أموال ، انه تقدير لأولي الفكر ، وكثيرا ما جمع فيها بين الثناء على الجانب المشرق والانتقاد للجانب المظلم ، مثلما كان له مع آينشتاين (369)

---

1 - رسالة المشرق ، ص 284 .

2 - رسالة المشرق ، ص 266 .

ونيتشه (371) . مرة ينتقد الرجال ويورد أفكارهم ومرة ينتقد الافكار مجردة لأنها خرجت عن لسان الافراد فآمن الناس بها وخدعوا بسببها ، فمثل انتقاد للنظام الجمهوري (50) وللفلسفة والسياسة (365) وأما النظام الرأسمالي فقد خصّه بثمانية قطع (367 ـ 377 ـ 379 ـ 385 ـ 386)(1).

وبين هذه القطع المدخنية والنقدية والعشقية جاءت مرثية واحدة في الشاعر المجري بتوفي (373) ، وهي التي أكدت أنه لم يكن شاعر مناسبات أو شاعر حفلات ، وانما هو شاعر فكر نيّر ونفس حرّة تؤمن برسالية الكلمة وكرامتها . وفوق هذه الاغراض الهادفة التي جاءت فيها قطعة فانه أدى ما ينتظره منه الأدب عموما بعدما ليتّى ماينتظره المجتمع ، كما نجد له قطعا وصفية كثيرة منها قطعة السيف (305).

والى جانب القصع فقد اختار اقبال أحيانا لأن يخصّ بعض الفكر بيت منفرد من الشعر ، ومجموع الابيات المفردة في الديوان أثنى عشر بيتا ، عرض فيها من الافكار ما يكمل الجزء السابق من القطع ، من هنا يمكن القول أن فن القطعة قدم لاقبال وللقارئ معا خدمة جليلة فمن خلالها طرق من المواضيع ما هو أقرب الى الحياة والى المجتمع ، وبواسطتها فتح أمام القارئ سبل التفكير لاختصارها الشديد ، لأن طبيعة القطعة لا تسمح له أن يقول كل ما يمكن قوله حول فكرة معينة فجاءت بعض قطعه وخزات خفيفة للضمير الانساني ليصحو ويتأمل بنفسه ثم يحكم على الأمر بعد ذلك ، وان أروع الانتقادات للقطع في الديوان موضوع الدراسة هي تلك التي جاءت في بيتين أو ثلاثة أبيات فحتى العشق فيها والتصوف كان له نكهته الخاصة التي تختلف عما جاء في الغزليات نفسها أو الرباعيات لأنه اكتفى فيها باللمح والاشارة القصيرة المؤثرة وهي أقرب الى النفس وأشد وقعا من الشرح المفيد والخطاب الطويل الممتد وان تكررت معانيها بأساليب عديدة حتى رأى بعض الدارسين أنها لاترتبط بخيط متين من الأدلة والعواطف (2).

أما الاوزان الشعرية التي صبّ فيها قطعه فخفيفة ، كان الرمل والهزج أكثرها ورودا الى جانب المتقارب والخفيف (3) وهو في قطعه لم يلتزم نمطا واحدا من الاوزان ، فمرة يستخدم البحر مسدسا وأخرى مثمنا مستفيدا من جل ماعرفه كل وزن من زحافات وعلل .

4 ـ فن المستطرف : من أجناس الشعر الشائعة في الفارسية ، حاول الفرس

---

1 ـ أنظر ص من البحث (الفصل الثالث)

2 ـ Iqbal Sing , The ard dentpulgrim, pII6

3 ـ المتقارب : تفعيلته فعولن ثمان مرات .
الخفيف : وعروضه : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن .

بواسطته التخلص من قيود القافية الوحدة ، فلا تكون الا في جزئي البيت الواحد ، فالمثنوي اذن منظومة تبنى على أبيات مستقلة مصرّعة ، لكل بيت قافيته الخاصة ويسميه العرب المزدوج .

أولع به شعراء الفرس ونظموا فيه القصص الطويلة في البطولات والاخلاق والتصوف (1) ولعل "شاهنامه" الفردوسي هي أول منظومة طويلة يحتويها هذا الشكل (ستون ألف بيت) وكذا منظومته "يوسف وزليخا" (2).

ذهب البعض الى أن المثنوي ضرب من ضروب النظم الفارسي لشدة ولع الفرس به و لأنه عرف في شعر طلائع شعرائه أمثال الرودكي ، والواضح أن العرب أيضا لجأوا الى هذا الفن من النظم منذ زمن ، فقد نظموا فيه القصص التعليمي مثل كليلة ودمنة والصادح والباغم ، والمنظومات التعليمية مثل ألفية ابن مالك ولكنه تقهقر فيما بعد لأن العرب جبلوا على النظم الموحد القافية (3).

أما بالنسبة للشعر الفارسي فقد عدّ اختراعه خطوة هامة ، اذ مال اليه الكثير لما فيه من تنوع القوافي واتساع المجال للقول فيه ، وهو الذي مهّد السبيل الى تناول الموضوعات الطويلة كالمواضيع القصصية والتعليمية التي لا يمكن أن يحتويها الا رسالة أو كتاب (4)

أما المواضيع التي طرقها فن المثنوي فقد قسمها بعض الدارسين الى أبواب عدة :

1 - مثنويات تتناول أغراضا حماسية وتاريخية (الشاهنامه)

2 - مثنويات قصصية تتناول القصص عاطفيا أو صوفيا (يوسف وزليخا ، خسرو وشيرين ، ليلى والمجنون) .

3 - مثنويات تتناول أغراضا صوفية بحتة (مثل حديقة الحقيقة ، منطق الطير ، المثنوي المعنوي ...) .

4 - مثنويات تتناول أغراضا تعليمية وأخلاقية (مثل البوستان ...).

واذا اقتصرت المثنويات العربية على وزن واحد هو الرجز المدس ، فان الفرس تفننوا في استخدام بحور متعددة تجمعها صفة واحدة هي خفة الوزن وسهولته (5) فمن الاوزان التي شاع استعمالها في المثنويات الحماسية والدينية بحر المتقارب المثمن المقصور أو المحذوف ، اختاره لأول مرة الدقيقي الطوسي لنظم شاهنامته أما المثنويات القصصية العاطفية فراج فيها الهزج والخفيف (6)

---

1 - اسعاد عبد الهادي قنديل ، فنون الشعر الفارسي ص 119 ودراسات في الادب الفارسي ص 247.
2 - محمد عبد المنعم ، دراسات في الادب الفارسي ، ص 249.
3 - اسعاد عبد الهادي قنديل ، فنون الشعر الفارسي ، ص 120.
4 - محمد عبد المنعم ، دراسات في الادب الفارسي ، ص 254.
5 - المرجع نفسه ، ص 255.
6 - اسعاد عبد الهادي ، فنون الشعر الفارسي ، ص 121

أول ما استهل به اقبال ديوانه مثنوية طويلة نسبيا اذ بلغ عدد أبياتها واحدا وثمانين بيتا أي مايزيد قليلا عن نصف عدد المثنويات جميعا (المائة والاثنين والخمسة) وهي الهدية أو التحية الموجهة للأمير الافغاني أمان الله خان وللشاعر الالماني غوته فالاول لأن الديوان مهدى اليه ولا بد من ذكر له وتعليق آمال عليه وكانت آمال في غير محلها ، والثاني لأنه نظم الديوان في الرد عليه .

يمكن أن ينظر الى هذه المثنوية الطويلة على أنها مجموعة مثنويات نظرا للفواصل التي كتبها اقبال بطريقة مخالفة ، هي بمثابة البيت الاخير من كل مثنوي ، فاذا أخذنا بهذا الرأي عددناها سبعة مثنويات متفاوتة ، الا أن الوزن الموحد الذي التزم به فيها يجعلنا نجزم بأنها مثنوية واحدة طويلة . أما باقي المثنويات فوزعت على الجزأين الثاني والرابع من الديوان شأنها شأن سائر الفنون عدا الغزليات والرباعيات . فجاء في القسم الثاني أفكار ستة مثنويات وفي القسم الرابع نقتطف مثنويتين ، وبهذا يكون عدد المثنويات الواردة في الديوان تسعة .

ومن العجيب أن عددا غير قليل من الدارسين تعرض للتعريف بأقسام الديوان والذكر لفنون الشعر الواردة فيه ولكنهم أغفلوا فن المثنويات فيه (أمثال : احمد معوض ، عبد الوهاب عزام ، اقبال سنغ) وربما ارجعنا سبب عدم الالتفات الى القسم الاول من المثنويات (الهدية) الى الترجمات التي أسقطتها ، فقد بدأ الدكتور عبد الوهاب عزام في ترجمته بالقسم الاول شقائق الطور [1] وكذلك فعلت ايفا مايوروفيتش [2] الا أننا لانجد مبررا لتجاوزهم واغفالهم لسائر المثنويات رغم اشارتهم لفنون لم تتكرر على امتداد الديوان الا مرة واحدة .

ومن الذين تفردوا بالاشارة اليها محمد رياض الذي رأى أن تأثره بالبيئة الهندية واضحا في المثنويات فقال ان "مثنوياته تطابق الاسلوب الهندي" [3] ورأى ان اقبالا استعمل مثنويات بعض الشعراء كحامل لايصال بعض الصور الشعرية والبلاغية كما نقل بعض معاني الابيات في اتجاهات مختلفة ، هذا الى جانب التشابه الموجود بين مثنوياته ومثنويات العديد من الشعراء ، فقد استعار أوزان وقوافي كثير منهم [4] .

تمثل المثنوية الاولى من الديوان حرص اقبال على أصالة فن المثنوي بغرضها الحماسي الذي جاءت فيه وبعدد أبياتها ، راعى فيها اقبال على امتداد ها الاسلوب الحماسي ولاسيما في الابيات الموجهة الى الامير الافغاني .

---

1 ـ انظر ترجمة عبد الوهاب عزام لرسالة الشرق شعرا .
2 ـ انظر ترجمة ايفا مايوروفيتش ، لرسالة الشرق الى الفرنسية .
3 ـ Iqbal review (1988) ,Opcit , p 173 .
4 ـ الموسى نفسه ، ص 173

وان لم يعهد المثنوي المديح فان اقبال وبدافع الأمل في مصلح يعيد للمسلمين مجدهم الضائع جعل من المثنوي يقبل بسهولة مدحا مليئا بالمبالغات، فالامير هو الشاب الناضج الفكر، المطلع على كل الاسرار العارف لكل الأمور، الثابت العزم، المتيسر بعطفه لكل عسير وهو العالي الهمة والاسير أبدا عن جدّه. ولذلك رأيناه يبثه شكواه من الضياع الذي حلّ بأمة الاسلام لاعتقاده أن الحل في يده ولكنه مع نقمته - التي خيبها الامير فيما بعد - يقدم له بعض النصائح التي من شأنها أن تساعده على الاستمرار فالحل في تجديد منهاج السلف الصالح وفي الجهاد والدراية بالأنفس والآفاق والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم وفي الجمع بين العلم والقوة.

وفي هذه المثنوية شرح سبب وضعه للديوان واتبع ذلك بمقارنة بينه وبين الشاعر الذي سجل ديوانه (رسالة الشرق) في الرد عليه، والى جانب ذلك الحماس وذلك الحزن الذي أبداه على الأمة الاسلامية وتلك الحلول التي استمدها من الدين الاسلامي فانه لم يترك سر العشق، فكان آخر ما يدعو اليه هو احياء العشق من جديد، أما المثنويات الأخرى فتميز فيها اقبال بالتجديد وبالخروج الجزئي عن القواعد التي سار عليها هذا الضرب من النظم من قبل، فاذا عاد اليه الفرس لقدرته على احتواء أطوال القصص فان اقبال حمّله قطعا قصيرة ليست قصصا وانما هي قضايا متفرقة عاد ببعضها لتصب في الاخير في بحر العشق والرمز الصوفي.

(فالصقر مثلا رمز المسافر الدائم الذي لا يعرف قرارا ورمز المعتمد على نفسه ورمز القوة والصبر والانفة لأنه لا يأكل من الطعام الا ما حصله بنفسه، وقطرة الماء رمز العودة الى الاصل والعودة الى الذات وتقديرها حق قدرها)(1).

ومن الاغراض التي طوّع لها من المثنوي الانتقاد الذي كانت له أكبر مساحة من الديوان ومن فكر اقبال واهتمامه، فبواسطة بعض مثنوياته وجه انتقادا للانسان وما عاثه من فساد في الأرض أغمض عنه الجفون وصبا لا ان يتخذ له بيتا في الفضاء، ووجه انتقاد للنظام الرأسمالي واستغلاله وهي النقطة التي بلغ فيها أوج الانسجام مع روح العصر وما يدور فيه من أحداث وبلغ بواسطتها قمة الانتقاد لتلك الفلسفة التي فتحت الباب للمستغلين واجهدت نفسها في البحث عن علل ومبررات لظلمه:

- أفتأتي باعذار ومبررات تطمس اثر جرمه. أولم ينهك هذا العقل عن الغش والتزوير والخداع.(2).

---

1 - انظر رسالة المشرق، ص 272 - 282.

2 - رسالة المشرق، ص 375.

ومما يلاحظ أن اقبال وان خالف بعض ما ألفه فن المثنوي ، فانه ضمن القسم الثاني في ديوانه منها أبيا تا لشعراء المثنوي وأجزاء أبيات (من شعر النظيري النيسابوري ص 30 ، سعدي ، ص 374 ، جلال الدين الرومي ، والجامي ، ص 376) .

أما الاوزان التي جاءت فيها مثنويات الديوان التسع فهي الرمل والهزج والمتقارب استفاد فيها بكل ما عرفته من زحافات وعلل ، وهي كلها أوزان خفيفة تلائم طبيعة المثنوي ، كان الرمل أوفرها حظا ، وهكذا جدد اقبال صلته بفن المثنوي في عهوده الاولى بأوزانه الخفيفة دون أن يتخلى عن ميله الى الابداع والابتكار والتجديد الذي عودنا عليه .

5 ـ فن المسمط : من الفنون التي لم يضمها الدارسون للفنون الاصلية ولا للفنون غير الاصلية . طرقه شعراء الفرس ولكن ماجاء فيه من شعر قليل اذا ماقورن بغيره من الفنون .(1) .

والمسمط مصطلح عام يشمل كل أنواع القصائد المركبة ، مشتق من السمط وهو أن تجمع عدة سلوك في ياقوتة أو خرزة ، ينظم كل سلك منها على حدة ثم تجمع كلها في زبرجدة أو شبهها (2) .

أما من الناحية الفنية فهو عند العرب أن يأتي الشاعر بخمسة أبيات على قافية ثم يأتي ببيت على غير تلك القافية ، ثم يأتي بخمسة أبيات على قافية أخرى ويأتي ببيت على قافية البيت الاول وهكذا الى آخر المسمط .(3) .

الا أن المسمط الفارسي اتخذ طريقا غير هذا منذ القرن الخامس الهجري وتطور على يد بعض الشعراء أمثال "منوچهري الدامغاني" و"لامعي الكورگاني" ، فنظم الشعراء المسمط المربع والمخمس والمسدس ودرجوا على أن يكون لكل المصاريع قافية موحدة ماعدا المصراع الاخير (4) (ثلاثة أشطر موحدة القافية والرابع مخالف ، أربعة أشطر موحدة القافية والخامس مخالف ...)

قل هذا الفن بين فنون الشعر الفارسي وقل في الديوان أيضا اذ لم يتجاوز الخمسة مسمطات ولكنها مع ذلك فاقت فن القصيد في هذا الديوان على شهرته بين فنون الشعر الفارسي ، فاذا كان عدد القصائد قد بلغ ستة وبلغ عدد المسمطات خمسة فان مجموع المسمطات يقارب التسعين بيتا في حين لم يتجاوز عدد أبيات القصائد الثلاثة والستين بيتا ، ولكنه

---

1 ـ اسعاد عبد الهادي ، فنون الشعر الفارسي ، ص 314 .
2 ـ محمد عبد المنعم ، دراسات في الشعر الفارسي ، ص 198 .
3 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .
4 ـ المرجع نفسه ، ص 204 .

أغفل هو الآخر مثلما أغفل فن المثنوي فلم يشر اليه أحد من الدارسين ماعدا مجلة اقباليات الانجليزية التي جاء فيها أن معظم أشعاره الفارسية تحتوي تقريبا كل الاشكال (المثنوي ، الغزليات ، القطع ، ومختلف المستزادات..)(1) والحقيقة أن الدارسين لم يحددوا الاغراض التي تصلح لهذا الشكل من الشعر وكذلك كان تعامل اقبال معه . فلم يخص موضوعا معينا وانما عالج فيها مواضيع مختلفة تدل عليها عناوينها .

فنشيد الوقت "تمثله فلسفته للزمن الذي هو الانسان والذي هو اما مقطوع بأيدي الذين يجهلون أن الوقت هو الانسان واما قاطع لمن جهلوا قدره ، فهو حينا شعلة محرقة ومرة جنة وارفة الظلال .

- ما الانسان ودنياه الا من رسمي وتخطيطي ومن دمه قلوب البشر يأخذ ربيعي ألوانه
فأنا شعلة نيران وأنا جنة رضوان .

وهو مسمط مخمس من خمس وحدات(2) .

والمسمط الثاني هو "اليراعة" مخمس من تسع وحدات وفيه معالجة لمعنى صوفي مثلا في اليراعة رمز لفكرة الاعتماد على النفس .

أيتها اليراعة أنت كالنور (من رأسك حتى قدميك) ، وسيرك سلسلة من الغياب والحضور وقانون الظهور .(3)

والمسمط الثالث عنوانه الوحدة مخمس من أربع وحدات تسامى فيه بالمعنى الصوفي فتوجه الى بعض عناصر الكون يسألها ان كان حالها كحاله من الاضطراب والاحتراق والسفر الدائم ، وكانت تمر كلها صامتة بلا جواب مما اضطره الى اللجوء الى الحضرة الالهية ليطرح تساؤلاته ولكنه لم يتلق على اسئلته غير ابتسامة تفهم منها الرضا عن سعي السائل وطلبه الدائم .

اما الاوزان التي اختارها اقبال لهذا الفن فالمتدارك (4) والهزج وكلاهما خفيف يلائم طبيعة المسمط الذي يميل الى الخفة والغنائية .

6 - فن القصيد : من أول فنون الشعر الفارسي ، وهي عبارة عن شعر منظوم في عدد من الابيات ، اختلف الدارسون فيه ، بينما الذهب الشائع عند العروضيين أن القصيدة مازاد على سبعة أبيات ، أما المتعارف عليه في الفارسية فان القصيدة تقوم على ثلاثين بيتا (5) ، ولكنهم يجعلون الحد "الادنى

1- IQbal Review (I988) ,Opcit , p I7I .

2- رسالة المشرق ، ص 260 .

3- رسالة المشرق ص 277 .

4- تفعيلة المتدارك : فاعلن ، فاعلن ، فاعلن .

5- اسعاد عبد الهادي - فنون الشعر الفارسي ، ص 76 .

لعدد أبياتها يتراوح أحيانا بين الثلاثة عشر بيتا والعشرين ولم يضعوا حد أقصى له (1) . اذ يتوقف الأمر في ذلك على طول نفس الشاعر والموضوع الذي يعالجه .

يشترط في القصائد الفارسية أن يكون البيت الاول فيها مصرّعا وأن تكون سائر أبياتها موحّدة القافية مع مطلعها (2).

أما الاغراض التي تصلح لهذا الفن فكثيرة ومتنوعة ، قسمها الدارسون بحسب موضوعها الى أقسام :

1 ـ مديحة (للمدح) 2 ـ هجوية (للهجاء) 3 ـ مرثية (للرثاء)

4 ـ حكمية (للحكمة والفلسفة والتصوف) . 5 ـ ربيعية (لوصف الربيع) 6 ـ خزانية (لوصف الخريف)

7 ـ شتائية (لوصف الشتاء) 8 ـ مناظرة (للمناظرة بين شيئين هل مناظرة أسدي بين الليل والنهار، والرمح والقوس، أو العجوسي والمسلم ، وغيرها من المناظرات) 9 ـ خمرية (لوصف الخمر)(3) .

ليس للقصائد أوزان محددة عند الفرس، فهم لا يتقيدون فيها بوزن من الاوزان ، شأنهم في ذلك شأن الشعر العربي مع قصائده . فالقصيدة تصلح لأن تكتب فيها كل الاغراض وتصلح لأن تصب في كل الاوزان .

مع عراقة هذا الفن وامتداد جذوره في الأدب الفارسي اذ كان من أوائل الفنون الادبية التي عرفها بعد الاسلام ، فان خطه من الديوان كان ضئيلا ، ليس في الديوان الا ستة قصائد ، لم تزد في مجموعها عن الثلاثة والستين بيتا ـ كما رأينا ـ كانت أقصر واحدة فيها من ثمانية أبيات وأطولها من عشرين بيتا . وكأننا به قلّل منها لأنه كان يعرف غايته من وراء ديوانه وهو رسم صورة واضحة نحو اصلاح وتغيير يكاد يكون جذريا للحياة ، ومما لاشك فيه أن أول انقلاب وتغيير انما يبدأ بالنفس البشرية ويبدأ مع الروح بتنويرها وهي التي تحتاج الى كلام طويل يلائمه فن المثنوي كما يلائم كثرة افكاره وتشعبها فن الرباعي الذي يأذن للشاعر أن يخصص لكل فكرة وحدة قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها .

وان قسم الفرس القصائد بحسب أغراضها وسموها بحسب الغرض الذي تطرحه فان جلّ قصائد اقبال كانت حوارية عدا واحدة وصف فيها الربيع ، ولكنهما وان أشبهتا ما أسماه الفرس مناظرة فقد كانت لهما غاية واحدة اشتركت بينهما جميعا وهي البحث عن الانسان الكامل والتوكيد على انسانيته والاشادة بقدراته مع تلطيفه لها ـ كعادته ـ بشيء من النقد .

---

1 ـ محمد عبد المنعم ، دراسات في الشعر الفارسي ، ص 282 .

2 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها .

3 ـ المرجع نفسه ، ص 185 ، و اسعاد عبد الهادي ، فنون الشعر الفارسي ، ص 78 .

ففي القصيدة الأولى يظهر أسلوب الحوار والمناظرة من عنوانها انكسار ابليس ، ولكنه حوار أو محاولة فاشلة للاقناع من طرف واحد حمّله الشاعر الكثير من التأولات الشيطانية التي كانت بدءا يتهيأ من وقوف ابليس بين يدي الخالق مجادلا محتجا ، رافضا للقضاء الالهي ، مفاخرا مباهيا بأعماله وبما يبعثه في النفوس من حيرة واضطراب .

- أنت تلقى الارواح في الابدان وأنا ألقي الفتنة في النفوس ، أنت توجه الناس الى الهدوء والسكون ، أما أنا فأقودهم نحو الاضطراب والقلق .

لست أنا الذي يطلب منه السجود أمام أحياء ضعاف ، فأنا القاهر بلا جهنم وأنا الاله بلا محشر .

من تراب معتم حقير خلق الانسان قليل العقل ، ولقد بين احسانك ولكنه صار ناجحا بين أحسانني (1) .

وكذلك كانت القصيدة الثانية حوارا من الشيطان ملبسا بالحجج الواهية والحيل والبراهين الى الانسان لاقناعه وجرّه الى الغواية ، فهو يراه مسّرة مسحورا بالجنة خاملا من سحرها ، فيتمنى أن يغير الموازين التي تنظم حياة الانسان هل فكرة القبح أو الشر على الاطلاق كما عرفه الانسان من القانون الالهي ، كان أولها الأكل من الشجرة المحرمة :

- لقد سلبك الكوثر والتسنيم حيوية العمل ، فخذ من حقل الكروم خمرة هيئة متعرقة اللون ،

فالقبح والجمال آت من ابداع خالقك ، فخذ لذة العمل وسر على اثر الرغائب . انهض وسأريك مملكة جديدة ، افتح عينك جيدا للتفرج بكنز فخر وتيسه (3) .

وكانت نتيجة قطعة حوارا من الانسان المعتد بنفسه الى الخالق ، وقف فيها الانسان بين يدي الرحمن مبرزا مواهبه وقدراته معتذرا ، مستغفرا ولكن في ثقة معللا أنه لولا الخطأ الذي يولد احتراقا في النفس فندامة فتوبة خالصة ولولا تلك المعصية ما كان انتهى الى ذلك الاخلاص والى ذلك التسامي .

أما قصيدة الساقي الكشميري (نسبة الى كشمير) فيمكن القول أنها ربيعية اذ خص فيها اقبال ربيع كشمير بالحديث ، تلك الجنة التي بعثها الله في الأرض ، ولكن مسلمي كشمير لم يتأملوا تلك الجنان ولم يستفيدوا أو يتعلموا منها وكل ما فيها يحمل درسا ، فكانوا كمن قصيدته تقدماه وقيد الى خدمة الاسياد بعد ما

---

1 - رسالة المشرق ، ص 256 .

2 - التسنيم : عين في الجنة .

3 - رسالة المشرق ، ص 256 .

جمدت هممهم ،لذلك جمع هذين المتناقضين : اشراقة جنة كشمير وغفلة نفوس مسلميها ،يقول :

— لقد قيد الكشميريون بالعبودية وخدمة « أصنام نحتوها من حجارة الاضرحة . فضائرهم خالية من الخيال السامي الرفيع ، وهم يجهلون أنفسهم ويخجلون من أنفسهم . تعيب أجسادهم من اللباس أسمال بالية ، وسيدهم من محنتهم يلبس أثواب الحرير . فلا تنعكس في أعينهم نظرات مشرقة ، ولا يخفق في صدورهم قلب لايعرف القرار (1)

ولعل القصيدة الوحيدة التي أكتمل فيها الحوار أو المناظرة هي قصيدة "الصقر والسكة" ففيها طرفان للحوار تجلت فيه السكة وهي رمز لكل ضعيف فقد ثقته في نفسه ولم يعرف حقيقتها ولا طاقتها ،خائفة من التماسيح مرتجفة من السيول الجارفة والامواج المتلاطمة ،يقول :

— فلا شيء يستطيع أن يفلت من السيل الذي أخذ كل شيء ،انه في كل مكان فوقنا وتحتنا .

يتجدد في كل لحظة ،يسير ويجري ، ويظل على مر الايام ثابتا بلا زيادة .

ولكن الطرف الثاني في هذا الحوار ظهر قويا هازئا من تلك الحجج الواهية واثقا من نفسه معتدا بها داعيا كل من عداه الى الاقتداء به والتسامي بالنفس ،يقول :

— أنا صقر فماذا أعمل فوق الأرض ،مهما تكن الصحراء والبحر فهما تحت جناحي . ارتفعي عن سطح الماء فالافق الرحب مسخر لك ، انها كلمة دقيقة لاترى الآبعين حادة النظر (2) .

واذا لم يسلبا في القصيدة الاخيرة الى المناظرة ،فانه لجأ الى المقارنة بين هيجل وجلال الدين الرومي انتهى فيها بتوجيه من مرشده الروحي ، يقول :

— ... قال لي انهض لماذا تنام . « انك تجري في سفينة من سراب .

أتبحث بالعقل عن طريق العشق ، أو تبحث بالمصباح عن الشمس (3).

أما الاوزان التي اختارها لقصائده فبحر الرمل مستفيدا فيه من كل ماعرفه من زحافات وعلل . وان هذه القصائد تؤكد مواكبة اقبال لهذا الفن كما عرفه الشعر الفارسي دون أن يصرفه ذلك عن مواكبة عصره بدعوته الناس وبخاصة المسلمين الى البدء بمعرفة الذات والثقة في مواهبها الخارقة ،كما لم ينس أن يخص مسلمي وطنه الصغير (الهند ومنهم أبناء كشمير) ليوقظهم من غفلتهم .

---

1 — رسالة المشرق ، ص 286.

2 — رسالة المشرق ،ص 286 .

3 — رسالة المشرق ،ص 372.

ب - : الفنون غير الاصلية :

7 - فن الترجيع بند والتركيب بند : نوع من القصائد اخترعه الفرس محاولة للتخلص من قيود القافية ، بدأ الاهتمام به في القرن السادس الهجري وكان من أوائل من نظم فيه الفرخي السيستاني ، ويشبه الترجيع بند والتركيب بند والمستزاد في الشعر الفارسي ماظهر فيما بعد في المغرب والاندلس من موشحات (1) على أن هذا الضرب من الشعر قليل التردد في الشعر الفارسي ، فقد يحتوي الديوان عددا محدودا منهما وقد يخلو منهما على الاطلاق ، وربما يضم منظومة واحدة (2) . والنوعان عبارة عن منظومات تتركب كل منظومة من عدد من الوحدات تكون في العادة متساوية في عدد أبياتها ، لكل وحدة قافية خاصة ويفصل بين الوحدة والاخرى بيت مستقل من الشعر يسمى واسطة العقد به تعرف نهاية الوحدة السابقة وبداية التالية لها لتفرده بقافية خاصة فاذا تكرر هذا البيت بنفسه في نهاية كل الوحدات سميت المنظومة ترجيع بند ، اذ معنى الترجيع لغة ترديد الصوت في الحلق أو اعادة النغم (3) . أما اذا تكررت أبيات مختلفة بعد نهاية كل وحدة وكانت متفقة في القافية مع بعضها ومختلفة عن قافية الوحدات سميت المنظومة تركيب بند وللتركيب بند نوعان آخران ، فالأول تكون فيه الابيات الفاصلة من نوع المثنوي (أي مصرّعة) دون أن ترتبط مع غيرها بقافية موحدة فتكوّن اذا جمعت مثنويا ، والثاني هو ما أجازوا فيه أن تكون الابيات الفاصلة بين بنود مختلفة عن بعضها ، فيكون كل بيت منها على قافية خاصة وروي مختلف ، فاذا جمعت لايتكون منها شيئ على شاكلة القصيدة أو المثنوي بيد ولايشترط في تلك الوحدات عددا معينا من الابيات تواتما للشاعر أن يبنيها على ما يشاء من الابيات ، على أن يساوي في ذلك بين كل الوحدات ، وليس للمنظومة عدد محدد من الوحدات وان رأى البعض ألا تزيد عن العشر ولا تقل عن الخمس فقد ورد في دواوين الشعراء ترجيعات وتركيبات زادت على هذا العدد (5) ، أما الاوزان فلابد للمنظومة من وزن واحد يلتزم به الشاعر في كل أبياتها ، وليس لفن الترجيع والتركيب أوزان معينة فقد استعملت فيهما معظم الاوزان كالهزج والرجز والرمل والمضارع والخفيف (6) وأما الاغراض فقد استعملت البنود في المدائح والمراثي والاغراض الصوفية (7) .

---

1 - محمد عبد المنعم - دراسات في الشعر الفارسي ، ص 255 .
2 - اسعاد عبد الهادي قنديل ، فنون الشعر الفارسي ، ص 258 .
3 - المرجع نفسه ، ص 259 . و دراسات في الادب الفارسي ، ص 225 .
4 - محمد عبد المنعم دراسات في الادب الفارسي ، 232 .
5 - اسعاد عبد الهادي ، فنون الشعر الفارسي ص 259 .
6 - الرجز وتفعيلته : مستفعلن ستمرات . المضارع وتفعيلته : مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن فاعلاتن
7 - المرجع نفسه ، ص 260 .

حاكت الترجيعات والتركيبات في رسالة الشرق بقلة ورودها قلتها في دواوين الشعر الفارسي ، فلم يعثر في الديوان الا على ترجيع واحد وأربعة تركيبات كلها من نوع المثنوي . ولم يثر الله وجودهما في الديوان الا قليل من الدارسين أمثال عبد الوهاب عزام .

أما الترجيع بند الوحيد فهو مجرى الماء المركب من أربع وحدات كل وحدة ثلاثة أبيات ، مجموع أبياتها ستة عشر بيتا ، تحدث فيها عن مجرى الاسلام الذي كان منطويا في عالم الغيب حينا من الدهر لكنه ما أن ظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى خرج الى الجميع وأعطى الكل من رعايته وأحاط برحمته القوي والضعيف على السواء ، وظل يواصل طريقه بكل ثقة وقوة ويحمل في مجراه الفجاج كل المسافرين ، انه أشبه بالنهر الدائم الجري الثابت ، ومن أراد أن يعرف حقيقة هذا الدين فان واسطات العقد أو الابيات الفاصلة بين الوحدة والاخرى والتي رجعها الشاعر على امتداد هذه المنظومة تحمل خبرا عن هويته وعلله انها في مواصلة الدرب بلا كلل من أجل الوصول الى بحر الحق اللا متناهي وانه متفرد بهويته متميز عن غيره حتى أنه ليتجلى غريبا عنهم فهذا البند ليس صوفيا وانما هو تعريف بطريقة رمزية للاسلام رغم ما أحاط به من حواجز :

- تجاوز البحر الهادر والحواجز والسدود ، واجتاز ضائق الاودية والجبال والتلال .
فاض مثل السيل بلا تلوث على السهل والمرتفع ، وطغى على القصر الملكي والحصن والحقل والخيلة .

مضطرب سريع ، هائج ، محترق الفؤاد بلا قرار هو في كل زمان يترك قديما ليعبر جديدا .
يسير صوب البحر اللا محدود ثملا .
هو وحده في نفسه وغريب عن الآخرين (1) .

أما التركيب بند فأوله "محاورة بين العلم والعشق" انتهى فيه بدعوة الى الجمع بين الاثنين وتوكيد حاجة أحدهما الى الآخر ، لأنهما كانا قبل ذلك صديقين وكانت لهما أنوارهما ، فلما انفصل العلم الحديث عن اشراقة الروح تحولت أنواره الى نيران محرقة ، ولد في الجنة ولكنه سقط في حبائل الشيطان ، وراح يزعم لنفسه الخوارق وينسب لها المعجزات لذلك تحداه العشق بأن يجعل ينابيع الدنيا رياضا أو يجعل الشيب شبابا أو يخلص الانسان من آلامه أو يعطي الحياة الخلود ، ولأنه لا يستطيع كل ذلك فالاولى أن يعود الى نصفه الثاني (2) .

---

1 - رسالة الشرق ، ص 300 .

2 - أنظر رسالة الشرق ، ص 267 .

والثاني "اذا كنت تطلب الحياة فعش في خطر" ركبه اقبال من بندين لكل واحد بيتان من الشعر ، جاء بهما لمعالجة فكرة صوفية ظهرت منذ بدايتها في العنوان ، واحتواهما البند الثاني :

فقال له رفيقه : أيها الصديق العاقل ، اذا كنت تبغ الحياة فعش في خطر .

واشحذ نفسك في كل حين ، وعش أمضى من السيف الوضاء الا صيقل .

ففي الخطر امتحان للقدرة على الصبر ، وذلك هو القياس الذي تعرف به الارواح والاجساد (1).

والتركيب الثالث "رسالة الافرنج" وهو أطول تركيب ، من تسع وحدات وخمسة وأربعين بيتا . في نقد الغرب وكل شيء فيه .

1 - انتقاد له في ادعائه أنه بعلمه الفارغ من وحي القلب حقق المعجزات والدليل على ذلك أن مرضاه أشد اعتلالا وعناء .

- يا نسيم الصبا أبلغي عين عالم الافرنج ، عند ما يبسط العقل جناحيه يزداد أسرا .

ليس عجيبا ان تملك اعجاز المسيح ، ولكن العجيب من هذا هو أن مرضاك غدوا أشد اعتلالا وعناء (2).

2 - أسف على ماضيه الغرب من كنوز لاشتغاله بالفلسفات القاطعة لقلوب اليقظين المبعدة عن خفقات العشق وعن السعادة ، وفي البيت الاخير منه يدعو الى الوقوف والسجود بين يدي العشق وطلب الشفاء منه ، لأن هذه الفلسفة عادت بخفي حنين :

قد طوت الصحاري والجبال والفيافي دون أن تصطاد غزالا ، وطافت بالبستان فلم تكن تصوّقه أية وردة .

فتعالوا نرجو من العشق دواء ، نجد بين يديه ونظهر حاجتنا (3).

3 - يستمر في انتقاده للعقل الذي وان أحدث الكثير في الأرض فانه لا ينوّر القلوب وانما سحرهم وكان كقاطع طريق لبني الانسان ، الذين زرعوا منه شرا وحصدوا نارا ، حولت كيمياؤه رمال الصحراء الى ذهب خالص ، الا أنه لم ينر في قلوبنا اكسير المحبة .

فمالي متى ونحن نزرع الشر ونحصد النار ، والى متى تعقد للقلب هموما ثم نحلها (

4- وخمس البند الرابع بمقارنة بين العقل والقلب ، الاول لضعفه مثل جناح البلبل ، والثاني لقوته مثل جناح الصقر وهو السعيد في الاخير لأنه أحاط بالعالمين (الدنيا والآخرة) والمتى بنور الملائكة في قلوب البشر .

---

1 - رسالة الشرق ، ص 293 .

2 - رسالة الشرق ص 375 .

3 - رسالة الشرق ، ص 358

4 - رسالة الشرق ، 359 .

ولكن ما أسعد ذلك العقل الذي أحاط العالمين ، ذلك الذي يأخذ النور من الملائكة ليقذفه في قلوب البشر (ليشعله) . (1)

5 ـ خصه ليوسف أهل الشرق واختيارهم درب العشق :

قد برزنا من خلوة معبد العشق ، وأعطينا التراب الذي تطأه أقدامنا صفة العرايا .

فتأمل همتنا وانظر كيف نلعب بالعطايا . قد أضعنا جهرا ذينك العالمين الذي حزناهما سرا .

كنا شعلة فانتشرنا وتطايرنا كالشرر . قد تحولنا الى أصحاب عشق وشوق وحنين (2) .

6 ـ فيه انتقاد صريح لما آل اليه العقل الذي اختار الحرب التي طعن بها قلوب اصدقائه ، وقطع الطريق مسببا ذلك أمن طريق ، وسكب دماء الابرياء ، وهي مظالم تلح على ضرورة وضع قانون جديد يطهر القلوب :

ـ آثر الحرب على السلم وعبأ الجيوش ونظمها ، فلم يصب بسيفه الا صدور الاصدقاء .

قطع الطريق وسعى لقطع أمن الدنيا وحفظها ، قد قصم ظلمه المتغطرس وسط عبيده .

رقد بلا حياء أو حجاب لصوت الدف والناي ، وفي يده ، كأس من دماء الابرياء الاصفياء

قد آن أوان وضع قانون جديد ، وأوان غسل لوح القلب الطاهر وبدء حياة جديد (3)

7 ـ كان البند ثورة على النظام الرأسمالي ممثلا له بالملوك ، وكان دعوة الى ابادة ذلك الواقع اعتمادا على قوة عاملة ، هي أشبه بقوة فرهاد نحات الجبال ، كما شبه تلك الدوامة العجيبة التي سخرها انصار ذلك النظام الاستغلالي بقصة يوسف عليه السلام وقصة سجنه ثم قصة تحوله الى حافظ لخزائن الأرض ، يقول :

ـ قوة الملك زالت ، قد أغير عليها ، ومضى لحن الاسكندر ، وهشت نغمة دارا .

حمل فرهاد نحات الجبال الفأس بيده قاصدا ملك پرويز ، فقد ولت خدمة الاسياد وانتهت مسخنة العبيد .

ويوسف أخرج من سجنه لكي يصير ملكا ، فقد توارت خرافات زليخا وسحرها ولعبن (4) .

8 ـ حمل هذا البند معنى صوفيا عن أسر العشق وهو ما يبعثه في النفس من بعد نظر ، يتجاوز المرئيات تنظر الى الذرة فتراها كنجوم ناظرات ، والى البذرة في الأرض فتراها أشجارا مثمرة والى الجبل الطود الراسخ فتراه قشة ، انه يبعث في النفس استقلالا بما لم تشهد السماء والافلاك مثيلا له :

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 360 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 360 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 361 .

- انني أبصر في هذا العالم الترابي جوهرة الروح ، وكل ذرة فيه تراها عيني كنجوم ناظرات .

وتلك البذرة التي لا تزال بصدر الأرض الى الآن أراها ، ذات أغصان وجذع وثمار يانعات والجبل أراه خفيفا كقشة التبن ، وأرى القشة كالجبال الراسخات .

أرى ولا أعلم قط كيف أرى ، انه انقلاب لا يحتويه قلب السماوات (الافلاك) .(1)

لا - كما كان البند الاخير حديثا عن العشق أين انتهى فيه بالفوز بالمشاهدة ؛ قد أصبح العشق من لذة المشاهدة كله نظرا ، اشتاق الحسن الى الظهور ويستجلي دائما .

في ظلام الليل جاء تني من الصبح بشارة ، أطفئ الشمع ولاحت لي من الشمس اشارة

أما التركيب الرابع فيتكون من بند يرد لكل بند ثمانية أبيات (أي من 8 أبيات) عرض فيه موازنة بين الملك لرؤوس الاموال ، المترف المتنعم والعامل الاجير ، وبين حظ كل منهما في البند الاول .

- بفضل أجرة العبد المسكين ومحنه ولبسه القطن . يكون حظ السيد المتقاعد أثواب الحرير .

وقبة خاتم الوالي من عرقي (المتساقط) المتقاطر ، وجوهر سرج الامير من دموع طفلي (3) .

من دموع بكائي في السحر تحولت الاطلال (الخرائب) الى بستان ، ومن دماء قلبي أشرقت الشقائق والورود .

أما البند الثاني فوضع فيه حدا للظلم :

- لنضع نظاما وقانونا جديدا للنصارى ولدير النصارى ، ولنحطم البنايات القديمة والحانات القديمة .

فحتى متى نعيش مثل الفراشة الطوافة حول الشموع ؟ ، وحتى متى ونحن نحيا غرباء عن أنفسنا (4) .

وهكذا نستطيع القول أن الموضوع الرئيسي الذي غلب على كل ما مر من بنود هو موضوع العشق ، مع عدم خلوها من الانتقاد الذي يمثل جزءا من عمل اقبال الرسالي مرة بانتقاد المخرب جميعا في تقديسه للعقل واهماله للقلب ، ومرة بدعوته الى الجميع بنهج منهاج كانا من قبل :

---

1 - رسالة المشرق ، ص 362

2 - رسالة المشرق ، ص 363

3 - رسالة المشرق ، ص 386

4 - رسالة المشرق ص 386 .

أما الاوزان التي اختارها اقبال لهذين الفنين (الترجيع والتركيب) ، فبحر الهزج الذي لأمها بخفته ، مستفيدا مما يطرأ عليه من زحافات .

8 - فن المستزاد : من أنواع النظم الفارسية الا أن البعض لايعتبره نوعا مستقلا وهو عبارة عن رباعية أو غزلية أوقصيدة يزاد بعد نهاية كل مصراع من مصاريعها زائدة موزونة لايستلزمها المعنى أو الوزن ، تتقفى هذه الزوائد مع بعضها الى حد يمكن اعتبارها قصيدة منفصلة قائمة بذاتها . فمعنى القصيدة ووزنها متوفران بغير الزيادة (1) . والمستزاد أشبه بالترجيع بند لولا ذلك الشطر الزائد اذ كل وحدة منه قافية خاصة لم يشر الى وجود هذا الفن أحد من الدارسين ماعدا ماجاء في مقال مجلة اقباليات أين أعترف الكاتب بكثرة مستزادات اقبال في ديوانية "رسالة المشرق" و"زبور الغجم" وانها لذلك تثير الهيجان (2) بل وأشار الى المستزاد حدا في "رسالة المشرق" والى بعض العناصر الجمالية فيه والتي منها تكرار عبارة "تيز ترك گام زن منزل مادور نيست" ، ومعناه : حي الخطى سريعا منزلنا قريب . وهو المقطع الذي يتكرر في وحدة وحدة وكل زيادة في الوزن . والى جانب هذا المستزاد (أو التذييل) فهناك مستزاد آخر هو قطرة الندى .

لم يلتزم اقبال في مستزاداته بالزيادة عند نهاية كل مصراع وانما جاءت الزيادة فيها بعد كل ثلاثة أبيات من الشعر لتؤكد مرة أخرى ميله الى التجديد ، وقد سمى ذلك تذييلا حسن الصوت (3) ، لمافيه من تكرار لمقطع واحد يظل يتردد على المسامع من جهة وتكرار لبعض الالفاظ أو الاصوات الخاصة مثل ماجاء في مستزاد الحداء :

يا ناقتي السيارة ، وجودنا نظامنا ، وخمرنا دلالنا ، دوراتنا بلا مقام .

والملاحظ أن اقبال في هذه المستزادات سار بكل وحدة حتى نهاية الشطر الزائد على قافية واحدة ليبدأ في الوحدة الوالية لها قافية جديدة . ففي المستزاد الاول حداء أحيا مالم يعتد عليه الشعر الفارسي من تقاليد العرب وتراثهم الزاخر ، أحيا تحية الشعراء للناقة وأحاديثهم الشجية في اسفارهم ، في زمن الطائرة التي خصتها بأحد مثنويات الديوان ، ولكنه خالف الشعراء في الغاية التي لأجلها يطلبون الرحيل ، فغايتهم عشق ترابي وغايته عشق صوفي الهي

---

1 - محمد عبد المنعم ، دراسات في الشعر الفارسي ، ص 232 .

2 - مجلة اقباليات ، (1987) ص 152 (تأثير ومقام شعر وأدب ازد يدگاه علامه اقبال دكتر محمد رياض) .

المرجع نفسه ، ص 123 .

هم يرهقون النوق للّحاق بظعائن الاحبة ويضربون بها في الصحاري الممتدة بحثا عن طسيف الاحبة أو تجرعا للذكريات بالوقوف على أطلالها والبكاء عند ربوعها وأحيانا بالبكاء والاستبكاء ، أما غاية اقبال فهي الحب ، ولكنه حبّ الأرض التي نزل في ربوعها الوحي على سيد البشر ، يقول :

- يا ناقتي السيارة ، ياغزالي التتري ، يادرهمي وديناري ، ياكل ما أملك (من قليل أو كثير) ياسعادتي اليقظة ، حثي الخطى سريعا ، منزلنا قريب ، بلا طعام أو شراب تواصلين سيرك في الصباح والمساء ، وتتألمين وتضجرين من التوقف ، حثي الخطى سريعا منزلنا قريب ... (1).

جاءت فيه كل وحدة من بيتين مصرعين وشطر زائد على قافيتهما وهي في مجموعها ثمان وحدات من حوالي عشرين بيتا تحققت فيها أنغام عذبة خفيفة كانت الابيات المجزوءة والاشطر الزائدة سببا في بعثها .

أما المستزاد الثاني فيتكون من تسع وحدات لكل منها ثلاثة أبيات تعقبها الزيادة أو التذييل والمتمثلة بدورها في شطر من الشعر ، ولكل وحدة قافيتها بما في ذلك الشطر الزائد ، في هذا المستزاد "قطرة الندى" عالج اقبال فكرة صوفية لخصها في آخره بدعوة الى بدء عهد جديد هو عهد مصاحبة أهل الشوق والعشق الحاملين لآثار كدّهم وكي عشقهم وهم أهل النظر الذين ليس لهم من همّ غير التحليق في الآفاق ، يقول :

- فانهضي وابتعدي بقلبك عن صحبة القديم ، واختاري من جديد صحبة الشقائق وشمه الوجود والاضطراب ، وصاحبي أهل النظر ، وافتحي الفلك بعينيك مثلي ، وفضّلي (قدّمي) التحليق على كل شيء .(2).

رأى الدكتور محمد عبد المنعم أن الزيادة أو التذييل يجب أن يرافق كل شطر من أبيات القصيدة الا أن اقبال في هذين المستزادين عاد بنا الى الفنون الاولى التي تجلت فيها قدرته الفنية . فخالف ماعهدته قواعد الشعر الفارسي فلم يأت بالتذييل الا بعد بيتين مرة وبعد ثلاثة أبيات أخرى ، فكانت في بنائها أشبه بالبنود لولا تلك الزيادات ، ولكنها ستبقى مستزادات (باعتراف الدارسين) في الأدب الفارسي وفي أدب اقبال ، فقد أضفى عليها طابعا جماليا جديدا ، اذ لم ينهكها بتلك الصنعة المتكلفة التي تضطر الشاعر الى نظم كل زيادة في معنى خاص يستغنى عنه معنى الوحدات الاخرى ، ثم يجمع كل الزيادات ليركب منها قطعة أو قصيدة .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 279 - 280.

2 - رسالة المشرق ، ص 291.

وبذلك التجديد منه أبعد الدارسين عن الاهتمام بالشكل واغفال حقيقة الشعر وجوهره كما حفظ الشعر عن الاشتغال بالقشور على حساب الاهداف وعلى حساب البعد الفني الذي منحه اقبال بتنقله من قافية الى أخرى أصواتا حسنة وصلت به الى حدّ العزف بين دقة الابداع والترنّم ،(1) وقد ساعده على وصولها الى جانب تقنياته الفنية الاوزان الخفيفة التي اختارها لها حيث جاء المستزاد الاول في بحر الرمل والثاني في الهزج ،ثم ان هذا الوزن الخفيف لم يكن مثقلا تثقيلا بتفعيلاته القافية ، وانما كان الرمل والهزج المشطورين (من تفعيلتين) .

وهكذا ننتهي الى القول أن اقبال بديوانه رسالة الشرق دعا الى اعادة العلاقة بين الاداب العالمية وعلى رأسها آداب الشرق والغرب ، وقد استطاع في ديوانه أن يجمع بين كل الاشكال والقوالب الفنية التي عرفها الشاعر الفارسي ،وقد أثبت بتوظيفه لكل قوالب الشعر الفارسي قدرته الفنية اذ ذللها ليصبح كل فنّ منها صالحا لاحتواء أية فكرة يريد الشاعر التعبير عنها ،وبذلك أيضا أثبت قدرته على الابداع والتجديد اذ خالف الشعراء الغرض في قصرهم بعض قوالب الشعر على أغراض بعينها فخاض بعض القوالب التي لا تصلح في نظر الشعراء القدامى والدارسين الا لأحاديث الروح ونفحاتها واشراقاتها وأحدث القضايا وهي فلسفة العصر وهموم وكان ذلك تفريغا منه للشعر بأن طوّعه لمعالجة أدق المواضيع وأشدها تعقيدا وظل مع ذلك فنا اسلاميا بكل مقومات الفن وبكل خصائص التصوّر الاسلامي ، في وقت كان الشاعر عند نقاد الأدب هو من بالغ في الوصف والغزل ومن أقام بين الأدب والحياة سدا .

لا الشعر يعبر عن مشكلاتها وواقعها ولا الحياة تزوّده بما فيها من قضايا ، فيعيش في برج عاجي مفعم بالاحلام والرومانسيات والمغالطات بالسعادة والبشر والناس في هوّة الفقر والاستعمار .

واذا جدد اقبال في المواضيع وفرض على قوالب الشعر الفارسي مالم تحتويه من قبل وهو تجديد في المواضيع والشكل الشعري ،فان من تجديد اقبال في قوالب الشعر مايجعل الدارس يحكم أن لاقبال أسلوبه المتميز، الخاص بفكره وعصره .

فهو في الرباعي خالف الشعراء الذين تنظمد على ابداعهم في أوزانه ،وفي الغزليات اكتفى أحيانا بمئات أبيات حتى حسبها الدارسون قطعا لا غزاليات ،وأهمل التصريح

---

1 ـ مجلة اقباليات ،(1988) ،ص 152 .

الذي سار عليه كثير من الشعراء في آخر بيت من الغزلية ، فلم يصرع الا في غزليتين بين 45 غزلية ، وجدد في تخلصه اذ لم يرهق نفسه بالبحث في قواميس الاسماء وهو يحمل اسما يعرفه الناس به ، ولم يتذكر تخلصه الشعري الا في سبعة من غزلياته .

وفي فن المثنوي الذي أغفل كثير من الدارسين الاشارة الى وجوده في الديوان كانت له فلسفته الخاصة ، نظر اليه كسائر الفنون فلم يسخره للغاية التي لأجلها فضله سابقوه وهي صلاحيته للمنظومات الطويلة ، واكتفى بمثنوياته قصيرة صب في كل واحدة منها فكرة انتهى بها في الاخير الى بحر العشق والرمز الصوفي دون أن يهمل الانسان الذي هو أهم عناصر ذلك العشق ، بل أنه انتقد بمثنوياته النظام الرأسمالي وتلك قمة تذليل الفن لمعالجة مشاكل الحياة ، فذلك القالب الفني الذي رآه الدارسون لا يصلح الا لاحتواء الفن الرقيق وخلجات الأنفس ومشاعره تحول به اقبال من الرقة واللين الى الجد والانتقاد .

أما فن القصيد فقد قصر جل قصائده على ما أسماه الفرس مناظرة عدا واحدة خصها لوصف فصل الربيع وهي مناظرات لا تخرج عن ظروف العصر وما يعتلج في النفوس والفكر .

وان استعملت الترجيعات والتركيبات في المدائح والمراثي والاغراض الصوفية فان اقبال وظفها للتعريف بالاسلام ولبيان سبيل الحياة كما اتخذ منها أداة لانتقاد الغرب في تقديسه للعقل واهماله للقلب ولكشف النتائج الوخيمة لذلك الانقياد الاعمى للعقل وحده كما انتقد في أحد تركيباته النظام الرأسمالي .

وكان الابداع الاقبالي متجليا في مستزاداته أين خالف القدامى في البناء الفني وخلص المستزاد من الصنعة والتكلف .

ثم ان اقبال لم يكلف نفسه الخوض في أوزان الشعر الثقيلة الطويلة التي يراها البعض عنوان الشاعرية ووسيلتها ، لم يكلف نفسه الاتيان بها على حساب افكاره ومواضيعه الحيوية الثائرة ، الناقمة ، الناقدة ، الحاكمة لكل ما حوله — كما سبق وأن رأينا — وهي بطبيعتها تحتاج الى أوزان خفيفة تحتوي ثورتها وحماسها ولذلك رأيناه لم يخرج عن الاوزان الخفيفة ، فتوزع الديوان بين خمسة بحور شعرية هي الهزج (تردد عبر ستة قوالب شعرية : الرباعي ، الغزل ، القطعة ، المثنوي ، المسط المستزاد) وبحر الرمل (ترد د عبر خمسة قوالب شعرية : الغزل ، المثنوي ، المقطع القصيدة ، المستزاد) ثم المتقارب (جاء مرة في القطعة وأخرى في المثنوي) وأخيرا الخفيف (في قطعة) والمتدارك (في مسمط) .

ثـــانيـــا : دراســـة لبـــعـــض الظـواهـر اللغـويـة فـي الديـوان .

تمتلك اقبـال بـثـروة لغـويـة هـائـلـة اكتـسـبـهـا مـن اللغـة الفـارسـيـة التـي أحـبـهـا ورآهـا اللغـة الاولـى التـي يمكنـه بـواسطتهـا التعبيـر عـن روائـع فـكـره ، كمـا اكتـسـبـهـا مـن اللغـة الأرديـة التـي يـمكـن اعتبـارهـا الثـانيـة بعـد الفارسيـة في قـامـوس اقبـال وانتـاجـه الأدبـي ، وقـد أوجـدت أثـرا فـي الـديـوان ، اذ كـتـب بعـض الالفـاظ الفـارسيـة بالطريقـة الـهـنـديـة المتـمثـلـة فـي الأردية ، وان كـانـت تلـك الكلمـات قليلـة ومميـزة حـوت حـروفـا معـيـنـة علـى رأسـهـا الكـــاف والگـاف.

هـذا وقـد تـمتـلـك الديـوان بقـامـوس عربـي خـاص كـان لـه حـضـور عبـر كـل أقـسـام الديـوان الـى جـانـب كـم وافـر مـن الـمـصـطـلـحـات الصـوفـيـة يمكـن أن نخـرج منـه بقـامـوس مصـغـر للمـصـطـلـحـات الصـوفـيـة والمصـطـلـحـات الاسـلامـيـة المشـتـركـة . وان تـفـاعـل هذه القواميس وتـآلفـهـا يجعـل القـارئ ينـظـر الـى اقبـال علـى أنـه كـان أشبـه فـي ديـوانـــه بـالـقـامـوس المـتـنـقـل .

وقـد مكـنـتـه هـذه الـثـروة اللغـويـة مـن الجـمـع بيـن مـواضيـع مـختـلـفـة علـى رأسـهـا معالجة قضـايـا المسلميـن ومحـاولـة احـيـاء مـا اغفـل مـن عنـاصـر حـيـاتـهـم ، فكـان لـذلـك لغـتـــه الخـاصـة وكـان لـرمـوز الـتـصـوف لغـتـهـا الخـاصـة ، وكـان للحـديـث عـن فـلـسـفـات الغـرب وانتقـاد الـزائـف منـهـا أيـضـا لغـتـه الخـاصـة .

والـى جـانـب ذلـك القـامـوس الغـنـي فـان اقبـال اعتـمـد عـلـى فـنـيـات أخـرى سـاعـدتـه عليـهـا تـمكـنـه مـن اللغـة الـفـارسيـة ، ومـن ذلـك مـا عـاش بـيـن ثـنـايـا ديـوانـه مـن مـتـرادفـات ومتـقـابـلات ، كـمـا جـنـود قـصـائـده ، بـبـعـض التكـرارات الـصـوتـيـة اذ زوّدهـا بتـرديـعـات عـذبـة الانغـام ، وكـثـيـرة هـي الـمـقـطـع والقـصـائـد المـردفـة فـي الـديـوان .

أ - الالفاظ العربية في رسالة المشرق :

تردد الكلمات العربية عبر مايزيد عن مائة وتسعين صفحة من الديوان انتشرت في بعض الصفحات عبر مايزيد عن السبعة أبيات من الشعر وهذا ما يدل على غزارة قاموس اقبال العربي (أي القاموس) في ديوانه الفارسي .

تنوعت اشكال الالفاظ العربية وأبنيتها وتراكيبها في الديوان ، فمرة نجد الكلمة العربية مفردة ومكتوبة بالطريقة التي عرفتها الالفبائية العربية ، بل نجد التنوين العربي منبثا فيها أحيانا ، ومرات نجد الكلمة العربية مكتوبة في قالب فارسي ، أو مرسومة وفق قواعد الاملاء الفارسية ، كأن يسقط من كلمة همزتها العربية ، أو نقطتي تائها المربوطة في الاخير فيكتبها هاء فارسية ، أو يكتب تاء ها المربوطة أصلا في العربية تاء مفتوحة - وما أكثر هذه الظواهر في الديوان - وأحيانا يطوّع الكلمة العربية حتى يأتي بها وفق البناء الفارسي ، وأحيانا يأتي بألفاظ عربية مجردة من التعريف الذي يلازمها في النص المقابل لما جاء ت فيه من الفارسية .

كما لجأ اقبال في مرات كثيرة الى وصل الكلمات العربية بأدوات فارسية أكثرها ضمائر المخاطبة ثم ضمائر الملكية وبناء التنكير ، وربما زوّد الكلمة العربية أو ألحقها بفعل فارسي مثل "موجمزن" أو جعلها في بناء مصدري مثل "فهميدن" ، أو ألحقها بمكان تصغير مثل "طائرك" أو طبق عليها قاعدة الاشتقاق الفارسية نحو نفهميده أو أدخل عليها الرابطة أو حرف جرّ أو أداة من أدوات النفي مثل "بيقرار - نفهميد" أما فيما يتعلق بجمع الكلمات العربية فقليلة هي الكلمات المجموعة وفق قواعد اللغة العربية مثل سالمات أمهات ، مسامات ، مكتسبات خرابات ، أنجم ، اذ لجأ في معظم الكلمات العربية التي تحتاج في معناها الى الجمع الى قواعد الجمع الفارسية ، وهذه جداول للألفاظ العربية الواردة في الديوان هي أكبر دليل على سعة قاموس اقبال العربي وغناه .

1 - الالفاظ العربية الخالصة (المكتوبة بطريقة عربية)(1).

قتيل : 186

حديث : 187 - 204 - 239.

صبا : ريح صبا : 188 - 217 - 275

صبح : 208 - 220 - 275 - 287 - 289.

استحقاق : 188 (بناء عربي في صورة جيدة رغم صعوبته وقلته .

طواف : 199

تبسم : 201.

قرار : 216 - 242 - 350.

موج : 218 - 230 - 288 - 302.

فوج ، زوج : 302.

ساحل : 229 - 233 - 234 - 287 - 298 .

زورق : 302 - 329.

تقدير : 220 - 260.

تقصير : 324.

كائنات : 189.

أحمر : 226.

خيال : 219 - 340 - 344 - 370.

حاصل : 255 - 260 - 340.

وصال : 302 - 338 - 345.

واصل : 229.

وصل : 257.

هجران - هجر : 338 - 345.

فراق : 315.

عذاب ثواب : 229.

شعاع : 331

تمام : 234.

واعظ : 234

تشريف : 237.

قدام : 239 - 292 - 342 - 389 .

---

1 - من الملاحظ على هذه الالفاظ أنها جاءت مجلبها ساكنة وغير الساكن منها انما هو مؤود بكسرة الاضافة

خراج : 240-385-(كلمة عربية دينية).
محمل : 242-292 (عربية نادرة)
متاع : 240-241-276-378.
عيار : 241-254-260-276-299-331.
مضمون : 243.
محكم : 244
اكليل ، سرير : 206.
انسان : 266-284.
عمل : 294-298
عالم : 259-334-360.
نظام : 268-306.
ظهور : 270-277.
مقدار : 272-309
نصيب : 326-338-350-351-352.
مثال ، مثل (للتشبيه) : 295-305-325-362.
فكر : 315-384.
نقاب : 315-319.
قدر : 321-325.
طلوب : 331-341.
غزال : 247-281.
آخر : 249.
حسن : 255
كوكب : 258.
مستنير : 258.
عذر : 258
صواب : 258.
طوفان : 260
درّاج : 261
طرف : 261
صغير : 262
محروم : 265

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دوام : 268

شعور : 270.

جسور وغيور : 272.

هلاك : 272

بساط : 273.

مشعل : 277.

طلب : 277.

سيار : 278.

سبيل : 287.

عيش : 289.

آفاق : 289.

امتحان : 293.

صوت : 294.

قال : 294.

ميل : 297.

صبور : 297.

زمان : 297.

معلوم : 298.

سحاب : 299.

بسيط : 300.

بحر : 300

برقع : 302.

مشرب : 304.

جبروت 304 .

جوهر : 306 (گوهر في الفارسية) .

نظير : 307.

انتظار : 306.

واقف : 308.

مسلك : 326.

ناموس : 328

شيخ : 333.

خرقة : 333.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معنى ،عيار : 335.
حجاب: 318.
ربط : 318.
رباط : 352.
جبين : 337.
أسلوب : 339.
صاحب: 349.
غافل : 352.
دهليز : 353.
ظن وتخمين : 360.
لوح : 361.
عيان : 363.
صواب: 375.
عروس: 375.
كتاب : 376.
غلام : 379.
قميص: 379.
شرار: 379.
جمهور : 379.
تأثير : 383
محمود ومذموم : 383.
مقصود : 384 .
خطاب: 384.
تدبير ،تقدير : 384.
انصاف : 380.
خبر : 384.
حرير : 386.
شباب : 386.
طي : 387.
ديوان : 387.
مضمر : 388.
ظلمات: 388.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مشكل : 388.

قلم : 388.

طبع : 390.

شرح : 239ـ390.

فارغ : 391.

منال : 391.

أجداد : 392 .

لامكان : 239.

هذا عن المفردات العربية ،أما الجموع العربية فقد جاء منها في الديوان عدد يسير غلب عليه ماكان على وزن فاعلات وهو جمع مؤنث سالم مثل :

ـ الجموع العربية .

سالمات: 256.

أمهات: 256.

كائنات: 264

ومنها ماجاء على وزن فعالات :

مساومات: 271.

فرايات: 333ـ334.

وعلى وزن فعل نجد : أمم : 286

وعلى وزن أفعال نجد : أيام 287

وعلى وزن أفعل نجد : أنجم : 220ـ 268 : .(1).

---

1 ـ كثيرة هي الالفاظ العربية التي أهمل أنباتها في الجداول لأنها عدت ثابتة في اللغة الفارسية محسوبة فيها .

2 ـ الالفـاظ العربيـة المكتوبـة وفـق قـواعـد الفـارسيـة (1)

أ ـ تحول التـاء المربوطـة الى مفتـوحـة . :

همـمـت: 185 محنـت : 272.

أمـت: 190 قـوت: 188

حكمـت ـ دولـت ـ ملـت : 189 ـ 190.

محبـت: 171 ـ 217 ـ 249.

حقيقـت: 198 ـ 279.

قيـامـت: 206 ـ 351.

خلـوت ـ جلـوت: 214 ـ 278.

حيـات: 215 ـ 276.

جنـت : 228 ـ 348 . حضرت: 288.

عبـرت: 253 . كيفيـت: 260

فطـرت: 246 ـ 270 ـ 271

صحبـت: 291 ـ 365 . حكمـت: 296 ـ 308 ـ 375

منّـت: 305 ـ 382 ، تربـت: 314.

غيـرت: 315 ـ شكايـت: 316.

فرصـت: 317 ـ 329. غـارت: 322 ـ 343 ـ 378.

رقـابـت: 322 . صـورت: 324 ـ 360.

صـفـت: 328 ـ 360 ـ 348.

عمـرت: 327 ـ طـراوت: 386.

جـدت ـ حيرت: 325 . سلطنـت: 330.

سطوت: 342 . رخـصـت : 342.

عـافيـت: 352 . عشـرت: 361.

لـذت: 367 . نعمـت : 367.

قسمـت : 374 ـ 385.

ب ـ تحول التـاء المربوطـة الـى هـاء صامتـة :

هـديـنـه : 185 . قـطـره : 209 ـ 243 ـ 324.

حـلـقـه : 314 ـ 345 . قصـه : 376.

---

1 ـ أكـثـر هـذه الالفـاظ ماكـانت نهايتـه تـاء مربوطـة ،فأحيانـا يـأتـي بهـا مفتوحة وأخـرى يجـرد هـا مـن نقطتـيهـا . كـمـا يلحـق بالالفـا ظ العربيـة حـروفـا أو ضمائر فـارسيـة أو يقـلـب بعـض حـروفهـا .

قبيلـه : 326ـ329 . حوصـلـه : 326 ـ 364.

عقـــده : 359ـ 372 . سفينـه : 372 .

سجـــده : 234ـ نعمه :21 2ـ 242ـ282.

قـــافلـه : 261ـ282ـ 303ـ314ـ 319 .

فتنـــه : 282ـ 293ـ 360.

ج ـ كلمات عربية مضافة الى أفعال فارسية أو مصرفة تصريف الفعل الفارسي أو مشتقـــة :

موجزن : 188.

رقصيد : 310ـ361ـ 367 (مصرفة تصريف الفعل الفارسي)

انقلا بيست : 340 (مضافة الى الرابطة) .

صحراستي : 280 (مضافة الى الرابطة).

فهميده : 354 (من المشتقات الخمسة) .

د ـ الجموع الفارسيـــة :

عقابان : 196 بلبلان : 218.

قدسيان : 234 . حكيمان : 235.

صوفيان : 237 بلبلگان ـ صلصلگان : 262.

كافوريان : 273 . نفسهـا : 308.

طائران : 309 . بصران : 315.

مشتاقان : 343 . (مكرر 3 مرات) مسلمانان : 351.

حجابان : 361 . عزيزان : 361.

غريبان : 377 . نوريان : 373 .

هـ ـ كلمات عربيـة مضافة الى ضمائر أو حروف فارسيـة :

ـ الى ضمائر الفاعلية أو الملكيـــة :

طائرم : 137

ضميرم : 232 .

تمامم : 218ـ 257 ـ 320.

حيرانم : 228.

ضميرم : 232.

خيالم : 243.

صرصرم : 255.

مضرم : 256.

سيارم : 260.

كلامم : 30.

خيالم : 313.

متاعم : 315.

أسيرم : 320.

خامم : 320.

وصالم ـ خيالم : 324.

أثرم : 325.

تكبيرم : 327.

تعبيرم : 327.

مشريم : 330.

غيورم : 344.

انفسم : 349 .

طلبيم : 358.

سحرم : 386.

عيارش : 213.

غمش : 219.

قامتش : 266.

رفيقش : 293.

طلبش : 340.

قمارش : 349.

طبعش : 370.

ـ الـى يـاء التـنكيـر :

غبـاري : 199ـ246ـ286ـ316.

نقـابي : 222ـ224.

منـزلـي : 288ـ297.

صبحـي : 293ـ304.

متـاعي : 307ـ325 .

اعجـازي : 226 . غريبـي : 243.

نصيبـي : 245 . كـوكبـي (مكـرر) 265.

سـاحلـي : 265 . أصيلـي : 273.

شرابي ـ كتابي ـ ربانه : 285.

غزالي : 293 . غزلي : 297.

بصري : 304 . عربانى : 306.

أمثى : 308 . طائرى : 309.

فقيهى 313 . حكايتى : 329.

حاجتي : 350 . نظرى : 360.

اسيري : 361. انقلابي : 362.

صحبتي : 376 . أيامى : 378

عجيبى : 384 . صريرى : 388.

نورى : 210.

ـ الى حروف نفي فارسية :

بيمقرار : 266 ـ 286.

نفهميده : 274.

و ـ قلب بعض الحروف :

تمنّا (بدل تمنّى) : 228.

صهباى (صهباء) : 231.

صداى (صدى) : 242.

شكوه : 235.

حبدى : 279.

طيباره : 296 ـ 309.

سيماى : 299 ـ 353.

هواى : 322.

ز ـ حذف بعض الحروف :

صحرا : 188 ـ 292 ـ 254 ـ 280 ـ 292 ـ 308.

أشيا ـ اسما : 189 (مكررة أكثر من مرة).

قضا : 228.

ضيا : 241.

انتها : 247.

خطا : 272 ـ 375.

ريا : 383.

ج ـ كلمات عربية بتصغير فارسي :

طائرك : 290.

ط ـ هذا الى جانب مصطلحات اسلامية مشتركة نحو:

شهيد : 197ـ196ـ257.

محشر : 200.

أجل : 295.

حق : 337ـ375.

تفسير : 212.

ونحو بعض المصطلحات الدينية المشتركة مثل :

صنم : 200ـ 209ـ 345 .

زنار : 209ـ219ـ 322.

ديروحرم : 209.

وغير هذا كثير في الديوان .

3 ـ التركيبات العربية الخالصة (1):

تمارت بالحجاب : 187 (جملة قرآنية)

الا الله : 187.

آل عثمان : 188.

صاحب أم الكتاب : 189 (جملة قرآنية) .

ربّ زدني : 189 (جملة قرآنية) .

عدل فاروقي وفقر حميد ري : 190 (كسرة الاضافة)

مثل سليمان : 190.

غير سجود (نياز) : 256.

نور بصر : 291.

أهل نظر : 291ـ 345 (جرد من التعريف).

طوفان جمال : 292.

شوق مضمر : 295.

الملك لله : 299 (عنوان المنظومة).

طبع سليماني : 305 (نسبة عربية)

مبلغ اسلام : 306.

أيّده الله : 308 .

صلح عام : 310.

يسفك الدماء خصيم مبين : 10 3 (نصر قرآني كتبه بخط مميز توكيدا لقرآنيته).
غائب ووجود : 314.
مشعل قمر : 317.
بقدر تبسم شرر : 317.
بمربط سليمى : 329.
قيد وصيد : 329.
هوس منزل ليلى : 338.
شوق سليمى : 338.
عشق فلان بن فلان : 342.
لا (اله) الا : 353.
يا رسول الله : 353.
صاحب نظر : 362.
جوهر نغمه : 362.
حسن مشتاق : 363.
تقسيم قبور : 363
معنى ستر : 367
قاتل آدم : 366 .
آمر ومأمور : 367.
قصر سلطان وأمير : 367.
ضمير مستتير : 369.
نسل موسى وهارون : 370.
محاورة مابين حكيم ... 374.
بني آدم : 374.
طلسم قديم : 375.
أوهام باطل : 377.
صدق وصفا : 383.
دعوى صدق وصفا : 384.
عرش معلا : 385.
خاتم والى : 386.
يا مثال سيل : 391 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 - تركيبات عربية في قالب فارسي :

رمز حياة : 186 (أسقط التعريف وكتب التاء مفتوحة).

عهد شباب : 186 (أسقط لتعريف وكتب التاء مفتوحة)

خنجر صبح : 186 . (أسقط التعريف وكتب التاء مفتوحة)

مشرق ومغرب : 188 . (أسقط التعريف وكتب التاء مفتوحة)

بعلم أنفس وآفاق : 188 . (أسقط التعريف وكتب التاء مفتوحة).

علّم أشيا وعلم أسما : 189 (أسقط التعريف وهمزة الاشياء والاسماء) .

هم عصا وهم يد بيضاء : 189 (أسقط التعريف وهمزة بيضاء كما أدخل حروفا فارسية (هم)

علم ودولت ... علم ودولت اعتبار ملّت : 189 (أسقط التعريف فتح تاء دولة ومسلّمة على

برق بينا : 189 (أسقط الهمزة) (الطريقة الفارسية).

غدر ونفاق : 189 (أسقط التعريف).

حكم غير : 208 . (أسقط التعريف)

زواني معنى قرآن چه پرسد : 211 (كلمات عربية داخل تراكيب فارسية).

يم أيام : 217 (أسقط التعريف)

ترك نسب - ترك عرب : 222 (أسقط التعريف)

متاع عقل ودين : 225 (أسقط التعريف).

أسير عالم كون وفساد : 226 (أسقط التعريف)

اسير انقلاب صبح وشام : 228 (أسقط التعريف).

رابطه سالمات ، ظايفه أمهات : 256 (هاء فارسية صامتة)

صبح قيامت : 258 (أسقط التعريف وكتبها بتاء مفتوحة)

روضه رضوان - كسوت انسانم : 260 (هاء فارسية ، تاء فارسية مفتوحة ، ضائر فارسية)

محاوره علم وعشق : 266 (هاء فارسية - أسقط التعريف)

نسيم صبح : 271 (أسقط التعريف)

صبح أزل : 275 (أسقط التعريف)

حكمت وشعر : 276 (تاء فارسية مفتوحة - أسقط التعريف)

سلسلة غيب وحضور : 277 (أسقط التعريف)

غير تفيلا ستى : 279 (تاء فارسية مفتوحة - رابطة فارسية) .

محاوره مابين خدا وانسان : 284 (اسقط التعريف ، كلمة فارسية)

طائر نغمه : 284 (هاء فارسية ، تقديم وتأخير).

رحمتش آدمى : 285 (اضافة حروف فارسية).

محنت انتظاری : 295 (تاء فارسية مفتوحة - ياء تنكير فارسية)

سفر نصيب : 298 (بناء فارسي ، تقديم وتأخير) .

عيار ممكنات ، جسم وجان : 293 (بناء فارسي)

دعوت عام : 294 (تاء فارسية - أسقط تاء عامة) .

حور وقاصر : 296 (اسقط التعريف) .

خطر ازلطمه طوفان : 302 (بناء عربي وربط فارسي)

لذت عقل : 302 (تاء فارسية مفتوحة) .

مضمون أو به مطلع پرجسته تمام : 305 (عربيات تتخللها أخرى فارسيات) .

محتاج خضر مثل سكندر : 305 (بناء فارسي) .

بلبل صفير : 307 (بناء فارسي ، تقديم وتأخير) .

فقير وبأقليم معنى أمير : 307 (بناء فارسي) .

درس حكيمان : 315 (جمع فارسي) .

صحبت صاحب نظران : 315 (تاء فارسية مفتوحة جمع فارسي) .

بحر ساحلي : 318 (بناء فارسي ، تقديم وتأخير) .

زعشق درس عمل گسير : 321 (بناء فارسي) .

رمز حيات : 323 (تاء فارسية مفتوحة) .

عيار معرفت شتر ى اسم : 326 (تاء فارسية مفتوحة ، أسقط التعريف) .

امام حرم : 326 .

فرار شهيدان : 33 (جمع فارسي) .

متاع قافله ما حجازيان : 335 (ضمير فارسي وجمع فارسي) .

حذر زبيعت : 329 (تاء فارسية مفتوحة - حرف ربط فارسي)

دليل منزل شوقم : 339 (ضمير فارسي)

عشق غيورم : 340 (ضمير فارسي) .

قافله موج : 341 (هاء فارسية صامته)

بيا بسلسل اقبال : 346 (فعل فارسي)

مصلحتا رو بمجاز : 346 (حرف فارسي)

نخمه عافيت از پريط : 347 (هاء فارسية وتاء فارسية وحرف ربط فارسي) .

كليم الهي : 350 (كتابة صوتية) .

دير وحرم محرم اسرار : 347 (أسقط التعريف)

كاتبان عمل : 352 (جمع فارسي)

وافر نصيب : 353 (بناء فارسي ، تقديم وتأخير) .

اكسير محبت : 357 (تاء فارسية مفتوحة)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

آن تراشد قول حق راحجبت نما .
ايـن تراشد قول بباطل رادليل محكمي : 364 (عربيات تتخللهما حروف وأفعال فارسية) .
عيـن حقيقت : 367 (تاء فارسية مفتوحة) .
فطرت اضداد : 375 (تاء فارسية مفتوحة)
ناموس رياست : 384 (تاء مفتوحة)
عروس اقتدار سحر من : 380 (بناء فارسي ، ضمير فارسي) .
نخلي كه ميوه خراج : 385 (حروف وكلمات فارسية) .

والملاحظ أن الالفاظ أو التراكيب العربية الواردة في الديوان ليست من قاموس القبال العربي بحكم تعلمه العربية فحسب ، ولكنها من قاموسه الفارسي والاردي ، اذ كثيرة هي الالفاظ العربية التي تسربت اليهما وأخذت مكانها من قاموسهما اللغوي ، ولا سيما المصطلحات الاسلامية . منها ماتردد في الديوان أكثر من مرة وبخاصة الالفاظ المفردة ، سواء ماجاء منها وفق قواعد العربية وأبنيتها أو ما جاء منها وفق قواعد الفارسية ، ولعل جل ما احتواه الديوان من مفردات عربية كان مجردا من التعريف الذي يرافقها في النص العربي المقابل ، وذلك لأن التعريف في الفارسية أن تأتي اللفظة مجردة .

ومن الابنية العربية التي كثر ترددها في الالفاظ العربية ماجاء على وزن فعال (منها : طواف ـ قرار ـ خيال ـ عيار ـ وصال ـ عذاب ـ ثواب ـ شعاع ـ خراج ـ تمام ـ كمال ـ غزال ـ غبار ـ مقام ـ دوام ـ نظام ـ هلاك ـ بساط ـ سراب ـ أمان ـ شمال ـ نقاب ـ فراق ـ حجاب ـ رباط ـ عيان ـ طراز ـ صواب ـ متاع ـ غلام ـ [illegible] ـ سرار) ثمانية عشر منها على وزن فَعال (بالفتح) واحد ى عشر على وزن فِعال (بالكسر) وأربعة على وزن فُعال (بالضم) .. يأتي بعدها ماجاء على وزن فعيل (جاء تسع مرات هي : قتيل ـ شريك ـ حديث ـ يقين ـ سرير ـ نصيح ـ نظير ـ جبين ـ قميص .) وكذلك ماجاء على وزن مفعل (تسع مرات هي : محكم ـ محمل ـ منزل ـ مشعل ـ مرقد ـ مشرب ـ مطرب ـ حنظل ـ مقمر) ثم ماجاء على وزن فاعل (جاء سبع مرات : حاصل ـ واعظ ـ ساحل ـ عالم ـ صاحب غافل ـ فارغ) .

بعد ، ماجاء على وزن مفعول (سبع مرات : مضمون ـ محروم ـ مطلوب ـ معلوم ـ محمود مذموم ـ مقصود) . ومنها ماجاء على وزن فعل (عدم ـ سفر ـ طلب ـ فلك ـ قمر) . وماجاء على وزن فعول (شعور ـ جسور ـ غيور ـ عروس) وماجاء على وزن مفعال مثل (هجران) وصيغ أخرى كثيرة .

أما الجموع العربية فأكثرها جمع المؤنث السالم الذي جاء سبع مرات (ثلاثة على وزن فعاعلات واثنتان على وزن فعالات ، منها واحدة مكررة ثلاث مرات) كما نجد جمع التكسير الذي جاء على وزن فعل (أمم ـ مرة واحدة) وجمع الكثرة على وزن أفعل (مرة واحدة أنجم) ، أما التركيبات العربية والتي جاءت في قالب عربي فقليلة اذا ماقورنت بالتركيبات العربية الخاضعة لقواعد اللغة الفارسية ولكنها مع ذلك لاتخلو من كسرة الاضافة ولا تخلو من النهايات الساكنة ، كما لا تخلو من سقوط التعريف لأن تعريفها في الفارسية أن تأتي مجردة من التعريف وربما كان أكمل نموذج لها في الشكل والرسم العربي تلك المقتبسة من القرآن الكريم (تعوارت بالحجاب ، رب زدني ـ الملك لله ـ أيده الله ـ يسفك الدماء خصيم مبين ...)

ولايخلو الديوان من تركيبات عربية راقية توحي بمعرفة اقبال الحسنة للعربية وهو الذي عين استاذ اللغة العربية بلندن طيلة غياب استاذه طوماس أرنولد ـ منها المستمد من التراث العربي الراقي الذي لن يجد له بديلا في قاموسه الفارسي نحو : آل عثمان ـ عدل فاروقي ـ فقر حيدري ـ مثل سلمان بن در مدائن ـ شوق مختصر ـ طوفان جمال ـ صلح عام ـ بقدر تبسم شرر ـ هوس منزل ليلى ـ قاتل آدم ـ تقسيم قيصر ـ آمر مأمور ـ ضمير مستتير ...)

فهذه التركيبات العربية تعود بالقارئ الى التراث الاسلامي فتذكره بآل عثمان وبعمر الفاروق وعدله وتواضع على وفقره ، والى سليمان وما قدمه للدين الجديد ، والى نبي الله سليمان عليه السلام وما الهمه الله ، والى الطوفان وأبعاده ، وتعود بنا من جهة أخرى الى التراث العربي وقصصه وعلى رأسها قصة ليلى والمجنون والرمز الذي ترد د في كثير من قصائد الشعر العربي سلمى وأحيانا سلمى أما الالفاظ العربية التي جاءت في قالب فارسي فأكثرها ترد دا في الديوان ما تحول بالتاء العربية المربوطة الى تاء مفتوحة أوها صامته ، يليه ما ألحقت به ياء التنكير الفارسية أو ياء الاضافة ثم ما ألحقت به الضمائر الفارسية وأغلبها ضمائر الفاعلية والملكية ، كما وجدت في الديوان كلمات عربية جمعت وفق قواعد الجمع الفارسية وأكثرها دورانا في الديوان جمع العاقل ففي حين لم يترد د جمع غير العاقل الا مرة واحدة .

وفي الديوان كلمات نصفها عربي والآخر فارسي ، مرة يأتي الشطر الثاني دالا على فعل مثل : موجزن ، ومرة يتحول بالكلمة العربية الى فعل يصرف وفق قواعد

تصحيف الافعال الفارسية ، مثل : رقصيد ،ومرة يكون كلمة تضيف معنى جديدا مثل : صاحبدلي ،وأحيانا يكون الزائد حرفا مثل : مد عائي (215) صبحيكاهي (217، 373) ،صور تكرك (234). وفي الديوان كلمات يعرف القارئ عربيتها وان قلب اقبال بعض حروفها وحذف البعض مثل : تمنّى ،جاءت في الديوان : تمنّا ،صهباء ،جاءت فيه صهبا ، صدى جاءت صدا ،حداء جاءت حدى ،سكون جاءت شكوه ، هواء جاءت هوا . وهذا ميل الى التخفيف لبعد الثقل الذي يجده الفارسي اللسان ،ومن هذا التخفيف أيضا اسقاطه همزة أواخر بعض الكلمات مثل صحراء ،أشياء ،أسماء ، قضاء ،ضياء ،انتهاء ،ريماء .. وهناك من الكلمات العربية ماجاء مقرونا بحرف فمي أكثره بسي (أي من غير - بدون) . كما تحول اقبال ببعض الالفاظ الى قواعد الاشتقاق الفارسية مبتدئا في ذلك بتحويل اللفظة العربية الى بناء المصدر الفارسي مثل فهميدن (معنى أن يفهم) ثم اشتق من ذلك المصدر اسم المفعول فهميده (مفهوم) ،وأحيانا يخضع اللفظة العربية لقواعد التصغير الفارسي وهذه الظاهرة لم ترد في الديوان الا مرة واحدة .

هذا عن المفردات العربية التي جاءت في قالب فارسي ،أما التراكيب العربية التي جاءت في قالب فارسي فكثيرة ومتعددة ،على رأسها ما اعتمد نظام التقديم والتأخير المعروف في قواعد الفارسية مثل : طائر نغمه (نغمة الطائر :ص284) ، سفر نصيب (نصيب السفر ،ص286) ،وافر نصيب (نصيب وافر : ص353)، بلبل صفير (صفير البلبل : ص307) ،بحر ساحلي (ساحل البحر : ص318) .

وهناك التركيبات المتضمنة لأكثر من لفظة عربية الا أن مايحيط بها من حروف أو كلمات فارسية يجعل معناها متوقفا على المعنى الاجمالي الذي لايكتمل الا بما حوله من سياق .

ومن التراكيب العربية ما الحقت بأحد مفرداته حروف فارسية أو روابط تمنحه معنى آخر مثل رحمتش آدمي ،حكمتش معقول . ومنها الذي يأتي محافظا على بناء الجملة العربية صوتيا ،وفيه من الكلمات مايكتب وفق قواعد الكتابة الفارسية وربما غلب عليها القالب الفارسي ،فأحيانا نجد التاء الموبوطة هاء وأحيانا نجدها مفتوحة ،وأحيانا يلحق بأحدها حرفا أو رابطة أو ضميرا فارسيا وأحيانا يسقط أحد حروف الكلمة العربية أو يجمع بعضها وفق قواعد الجمع الفارسية. وفي ثنايا تلك التراكيب نجد من حين لآخر مفردات عربية راقية تؤكد كما أكدت سابقتها معرفة اقبال بالعربية مثل : جنت رضوان ،ضابطه امهات ، قافلة سياره

كما نجده أحيانا يرسم الكلمة وفق نطقها في العربية مثل رسمه للتنوين عوضيا في قوله : مدسلحتا (546) ومثل قوله : كسيم اللهي (550) .

هذا عن الالفاظ العربية ، ولعلنا نلحظ شيئا في الديوان يمكن تسميته هنديات اقبال وهي الحالات التي خالف فيها طريقة كتابة بعض الالفاظ الفارسية وربما كان في ذلك متأثرا باللغة الاردية أو غيرها في اللغات الهندية ، أغلبها ما أصله في الفارسية بالكاف أو الگاف (1) ، مثل :

نيرنگي : 216 (السحر والطلسم) ، هي في القاموس الفارسي بالكاف ولكنها جاءت في الديوان بالگاف أكثر من مرة (مثل : نيرنگ ص 321) .

گره كشا 292 (حلال العقد ، ميسّر الامور) ، كتب النانية بالكاف مع أنها من المصدر گشادن (أن يفتح) .

شگفد گل : 295 (تفتحت البراعم أو الورود) من المصدر شكفتن بالكاف ، ولكن اقبال كتبها بالگاف .

ارژنگ : 321 (كتاب مانى الذي ادعى النبوة) وهو في الفارسية بالكاف .

فگنيم : 329 وافگندن : 368 من المصدر أفكندن (أن يسقط) كتبها بالگاف .

نازگنر : 364 (الذي يتحمل دلال الآخرين) هي في القاموس بالكاف .

موشگافي : 390 (الدقيقة النظر والبحث) ، هي في القاموس بالكاف .

وأحيانا يكتب الهاء بساء مشلثة فارسية مثل :

كرپاس : 223 و 386 (نوع من القماش منسوج باليد من خيوط القطن) هي في القاموس بالبا وأحيانا يحول الجسيم المثلثة الى جيم عادية مثل :

جندن : 190 (الصندل) هي في القاموس بالجيم المثلثة (چندن) .

كما يزيد في أحيان قليلة بعض الحروف للضرورة الشعرية ، مثل : پيمچاك (380 أغصان وأعشاب) هي في القاموس پيچك من غير مد .

ومما يجب الاشارة اليه أن هذه الالفاظ العربية الغزيرة والتراكيب العربية وهذه الهنديات القليلة لا تنبئ عن ضعف اقبال أو فقر في قاموسه اللغوي ، وانما هي دليل على ابداع اقبال وثقافته الواسعة التي شملت المدّ الاسلامي بأشهر لغاته المعروفة في شبه القارة الهندية ، كما أنها تقف دليلا على تميّز أسلوب اقبال وتفرّده .

---

1 ـ بُحِثَت في القاموس الفارسي فرهنگ آموزگار وفرهنگ عميد ، وفي القواميس الفارسية عربية (قاموس الفارسية ـ عبد المنعم محمد حسنين ، المعجم الجامع ، حسين مجيب المصري) .

ب ـ ظـاهـرة التـرادف :

من الخصائص الاسلوبية التي تشهد على غزارة قاموس اقبال الشعري أن يأتي باللفظة ومرادفها حينا دون أن يحدث خللا في النص أو يثقله ، وحينا يأتي باللفظة ومقابلها (ضدها) وأحيانا يكرر اللفظة نفسها ، وكل تلك خصائص وفنيات لا يبلغها الا من ملك ناصية اللغة التي يكتب بها .

ـ المترادفات (ظاهرة الترادف) : الترادف في اللغة هو انصراف عدة ألفاظ الى المعنى الواحد أو المسمّى الواحد (1) وقد فسر الدارسون الترادف بالمجاز ذلك أن كثيرا من الالفاظ المترادفة هي في حقيقتها ليست اسما أصيلا للشيء وانما استخدمت فيه استخداما مجازيا على سبيل الاستعارة (2) فليس الترادف تكرارا للمعنى كما يعتقد البعض أو ضعف وفقر لغوي ، وانما هو في كثير من الاحيان احد علامات تمكن الاديب من أداته وقدرته على التعامل مع قاموسه اللغوي . فقد يأتي بالمرادف لشرح ما قبله أو توكيده أو اضافة بعض المعاني الجديدة .

جاءت مترادفات الديوان في اشكال مختلفة منها ما يمكن تسميته مترادفات طبيعية وهي التي يأتي فيها الشاعر باللفظة ثم بمرادفها وهي الصورة الغالبة على مترادفات الديوان ، ومنها ما خلق الترادف بحرف النفي الذي يتقدمه أو بالمعنى العربي المقابل للمعنى الفارسي أو العكس .

فمن المترادفات الطبيعية :

رنگ ـ نيرنگ : المكر والحيلة ـ خداع ومكر وسحر وحيلة (109 : فطبعهم السحر والتلون ، وظاهرهم مصداق ذلك ، بينما باطنهم أشبه بكي نار ظل يتصاعد دخانه سيميا ـ نيرنگ : السيمياء ـ السحر ، في قوله :

321 : سيأخذها ناظرك الباحث المنقب بنظرة عشق ، ما الدنيا في نظر العقل الا ضرب من السحر والشعوذة .

سوز وساز : مصطلحان صوفيان يأتيان مترادفين للتعبير عن حالات الوجد والصبر والتحمل لها .

202 : أتبسحر رمادي وقعت السحر ، ولكن امنحني حرقة (واضطراب) وأنا ليلة من قبل ذلك

206 : قال الاسكندر للخضر كلمة طيّبة ، كن شرر يكسا لي في الجدّ والاجتهاد بشرا وبحرا .

239 : ان الحديث عن توقنا واحتراقنا طويل ، فما الدنيا سوى مقدمة لخرافتنا .

256 : ان حياة الحرقة والاضراب والحركة أفضل من السكون الدائم ، فالحمامة الوديعة تصير عقابا من الهياج داخل الكبكة .

---

1 ـ محمد حسين آل ياسين ـ الاضداد في اللغة ـ مطبعة المعارف بغداد ط1 1394 ـ 1974 ص

2 ـ الجرجاني نفسه ، ص 45 .

257 ـ سأجعل أن نجعل الحياة في احتراق واضطراب .

263 : وأيامنا ينام فوق الثرى هامدة ساكنة بلا احتراق أو اضطراب .

340 : فما حاصل كل هذا الاحتراق والاضطراب سوى قلب دام جريح .

سوز وگداز : يأتيان مترافقين بمعنى عدم التحمل والاضطراب أمام الاحداث والمصائب.

344 : ... ، قد ع معبد الفلاسفة وادخل حرم احتراقي وحمّاي وانصهاري .

هاى وهو : مصطلحان صوفيان كثيرا ما يأتيان متتابعين ، يطلقان على الجلبة والضجيج والاصوات الصادرة عن المرء في لحظات وجده .

201 : كانت الحانة فارغة من كل أنين (وعويل) وجلبة (هائى وهو) .

221 : أي ألم أصابك أيها الجسور والغريب عن العشق ، ذلك أن نفسك تطلب هذه الغوغاء والضجيج (هاى وهو)

233 : قلبي لا يعرف قرارا من الأمل ، وفي صدري غوغاء وجلبة (هاى وهو) .

324 : أنينك وغوغاؤك يقيمان بالروح محشرا ، فلا تدع الغوغاء والجلبة اذ قد تلوى في صدرك نفس (هاى وهو) .

تب وتاب : من المصطلحات الصوفية أيضا ، يأتيان متتابعين ويطلقان على الاحتراق في الحب الالهي .

277 : أي شعلة هذه التي تجعلك دائما في احتراق وهيام واضطراب .

344 : لن تبلغ حمى واحتراق معبد العجم الى درجة احتراقي وانصهاري .

پيچ وتاب : يأتيان مترافقين بمعنى الانفتال والالتواء من شدة الألم .

212 : فأنا نفير حائر ، مضطرب في حنايا وحرقة نفسي ، ينبعث أنيني كنغمة حرى من صدر الناي (پيچ وتاب)

214 : أيها العلماء اني في اضطراب واحتراق (پيچ وتاب)

222 : عن أي شيء تبحث ولماذا أنت مضطرب محترق ، ذلك أنه ظاهر (سافر) وأنت الذر خلف النقاب (پيچ وتابي) .

278 : فارتفع صوت سمك من أعماق البحر ، أجل يوجد شيء هناك ، وهو في هياج واضطراب (پيچ وتاب)

تپش وسوز : مصطلحان صوفيان ، بمعنى الخفقان والاحتراق .

236 : أنا في حاجة لأن أعيش متسولا بغير حاجة ، أخفق ، أذوب ، وأعزف الالحان .

332 : أين أجد الآهة التي تحرق الروح ، وأين أجد الدمعة التي تذيب القلب ؟ ، سأشرب الكأس بحجر واحد وأحلّ عقد العقل .

نـاليـد ، ـ گـريـسـه : الانيـن والبكـاء :

266 : يكـسى غمـام الريـح وانتحـب فـي جنـح الليـل وقـال ، ان هـذه الحيـاة بكاء أزلـي .

340 : بـكـاؤنـا بـلا جـدوى وأنيـنـنـا بـلا صـدى ، فـمـا حـاصـل كـل هـذا الاحتـراق والاضـطـراب سـوى قلـب (احتراقنـا واضـطرابنـا) دام جـريـح (گـريـه مـا ـ نـالـه مـا) .

301 : لابكـاء شيـخ كنعـان حـركـه ، ولا أنـات ألـم أيـوب استـدرت رحـمتـه (گـريـه ـ آهي تـراشيـدا ـ پـرسـتيـدم : انقـدت ، عشـقـت وتمـزقـت .

235 : ولكـن كـل قـدتـي في هاتيـن الكلمتيـن ، وهـو أنـي تـمـزقـت وتقطعـت وعشقـت .

كـبـريـونـاز :

274 : غـرور ودلال .

قـال الجـلـيـد فـي كـبـريـاء وغـرور (دلال) لمجـرى الجـبـل ، نـواحـك أفـسـد حـيـاتـنـا وعـكـر صفـونـا .

مـنـاز ـ منـسى :

274 : أجـاب المجـرى (قائـلا) لا تقـل مـثـل هـذا الكـلام المـمـزق للقلـب ، دع التيـه والخيـلاء ودع الغـرور والتعـالـي .

سـوز ـ گـريـم / تيـم ـ گـدازم : احتـرق وابكـي ، اخـفـق .

292 : وأنا فـي غيـر حاجـة لتجلـي العلـوم ، احتـرق وابكـي ، أخـفـق وأذوب .

زبـون ـ زار : عـاجـز ـ ضعـيـف .

300 : لكنـه أفـسـح صـدره متجهـا نحـو المشـرق والمغـرب ، حـامـلا كـل المـسافريـن الضعـاف والعـاجـزيـن .

سـيـرى ـ سـرورى : امـارة ، زعـامـة ورئـاسـة .

345 : ان دنـيـا العشـق لاتعـرف سيـدا أوأميـرا ، يكـفـي المـرء فقـط أن يتعلـم أساليب وقـوانيـن الخـدمـة .

ومـن الالفـاظ التـي كـانـت في حقيقتهـا أضـداد ، ولكنهـا تحـولـت الـى مـتـرادفـات بحـروف النفـي التـي تتقـدمهـا ،

مـرگ ـ نيـسـت : المـوت والعـدم :

237 : ... فـان القلـب يبقـى عنـدمـا تمـوت الانفـاس (تتـوقـف) ولا يبقـى الحـزن .

تيـز بيـنـاك : حـاد ، قـوى والشجـاعـة وعـدم الخـوف .

264 : عـش متماسـكـا ومحكمـا مـثـل الجـبـال ، ولا تعـش مثـل الاعشـاب الضعيفـة لأن الشعلـة قـويـة ملتهـبـة غـيـر هيـابـة .

تيـره ـ بـي آنـسـتـابـي : المظلـم ، مـن غيـر شمـس ، مـن غيـر نـور

274 : ولكنني لم أفهم حكمة الحياة ، وهكذا أقضي أيامي بلا نور وفي نفس الظلام .

لب به بند - مكو : أغلق الشفة ، لا تقل :

327 : قالوا (لي) احفظ لسانك ولا تبح بأسرارنا ، فقلت حسنا اني أريد أن أرفع صوتي مكبّرا . (ولا تقل كل كلام) .

تيش بيقرار : الاضطراب والخفقان ، بلا قرار .

34 : الحياة خفقان واضطراب ، خفقان أزلي ، فلتكن كل ذرات تسرابي قلبا خافقا بلا قرار .

ومن المترادفات التي جمع فيها اقبال بين لفظة فارسية وأخرى عربية أو العكس :

دغل - ريمن .

الغش والخداع والنفاق :

ريمن - غدر - نفاق

18 : يبدي أنه لا عيب شريف بينما كمعيتنا نرده غش وخداع ، مكّار يتأبط الغدر والنفاق .

د يوانگيست - جنون : جنون :

187 : حتى لا تظنه جنون ، (فان العقل) فالحكمة في كمال هذا الجنون .

غم دارد / د رد - غم : يملك الألم ، يأتي به ، ألم وغم :

225 : الكلام يأتي بالألم والغم ، ولكن الألم والحزن (الغم) أحسن ، فالانين التواصل بالنسبة لي أحسن .

364 : لعن طبيعة الروض واغتاب الزمان ، وارتعش لألمه ولغمّ الاخرين جميعا .

مستنير - افروختي : مضيء ، مستنير .

258 : يا من استنار كوكب الروح من شمسه ، ويا من أوقدت من قلبي شمعة .

فسونش - گناهم - غلطم : السحر ، الخطيئة ، الذنب والغلط :

258 : فان أبعدني السحر عن طريق الصواب ، فتجاوز عن خطيئتي وتقبل العذر عن ذنوبي ومعاصي .

نمود - عيان : ظاهر ، عيان :

363 : قد أصبح العشق من لذة المشاهدة كلّه نظر ، اشتاق الحسن الى الظهور وسيتجلى دائما .

رمز وايما :

330 : لا تتحدث ولا تقل كل كلام فانه (الصمت) كمال الحديث ، فما في الخلوات من حديث غير الرمز والاشارة .

سفلة - دون :

137 : ما أكثر ما يرعى الفلك الادنياء والسفلة ويحنو عليهم ، فوا حسرتاه لكل صاحب قيمة وفضل .

لاصبر - ضجر :

270 : ما طبيعة اللا صبر والضجر .

تقصير - كوتاهى : كوتاه : قاصر .

350 : نظرتك قاصرة وعقلك عاجز ، ودعاؤك لايستطيع أن يصل سوى الى دعاء كليم الله ، وصلواته .

قرار - مقام :

349 : فلتكن كل ذرات ترابي قلبا خافقا بلا قرار ، ليس له في طريق وقوف ، وليس له في منزل اقامة .

ظن - تخمين :

360 : الاول ينظر من ذلك الجانب الخفي المستور فيرى ظنا وشكا واحتمالا

صدق - صفا :

383 : لو تتأمل وتنظر ، فان الحياة ليست سوى رياء ، كل من كان فيها مصافيا صادقا وفيا فهو عدم .

384 : ما دعوى الصدق والصفاء الا ستار وهدف خفي الى ناموس البرئاسة ، فهذا شيخنا يقول لنا يجب أن يطلى النحاس بالفضة .

ومما يلاحظ أن أغلب المترادفات السابقة جاءت على شكل مصادر ، لم يمراع فيها اقبال وحدة البناء .

ج - المتقابلات (ظاهرة التضاد) :

ان جاءت المترادفات بقدر محدود في الديوان فربما ذلك بدافع تجنب ما قد يظنه البعض قصورا أو عجزا ومحاولة لتغطية فقر لغوي وطاقات لغوية محدودة ، ولذلك فانه لجأ الى التراد ف بقدر توضيح المعنى وتوكيده وليس بغرض الاعادة أو ارهاق الكلمة ليستقيم له الوزن .

أما الاضداد فقد كانت لاقبال فلسفته الخاصة في الجمع بين المتناقضات ، وطالما افتخر بقدرته على الجمع بينهما ، يقول :

يا اقبال انك عجيب في جمعك بين الاضداد ، وبمحفلك الذي أقمت مازلت متفردا (1) .

---

1 - Iqbal Sing , Studies in Iqbal , p 57 .

والمتضاد في الفارسية آخشيج (1) وهو أن يجتمع في القول الفاظ متضادة ، ويسميه الفرس التضاد (2) وهو ما اصطلح عليه عند العرب بالمطابقة اذا اعتبر في فن البديع ، وبالمقابلة اذا دخل ضمن الدراسة الاسلوبية اللغوية ، والمقابلة تكون في استعمال لفظين متضادين بحكم الوضع اللغوي لايشترك في ذلك معهما ثالث (3).

لم يكن اقبال متفردا في تأليفه بين الاضداد ، فذلك باب من أبواب الابداع يشترك فيه كثير من الادباء ، لأن خلق عالم من الاضداد وبناء معان منها يعطي صورا فنية هي أقرب الى الصورة التي يجمع فيها الرسام بين اللونين الابيض والاسود وهما ضدين وهي في عذوبتها أشبه بظلام الليل الدامس وقد تخللته نور القمر ، وهي في الاخير صور تؤكد ضرورة تآلف الاضداد فالانسان روح وجسد ، ولحظة الميلاد لابد أن تنتهي بموت ، والنهار لا بدّ أن يعقب بليل ، والحق لابدّ له من باطل ينافسه فيعرفه الناس ويجتنبوه ، والقوة لابدّ لها من ضعف يربي النفوس ويهذبها ، وهكذا ...

فالجمع بين الاضداد صور انسانية كونية تجسد احدى سنن الله في الكون وهي تأليفه بين عناصر الكون وعناصر الانسان بكل اضدادها . وهو بعد ذلك صور فنية تعطي النصّ دلالات جديدة وقيما جمالية جديدة . وأن من الدارسين من سمّى هذه الظاهرة اللغوية الاسلوبية بالتناسب لما بين الضدين من تآلف(4) فالضدية بصورة عامة هي نوع من أنواع العلاقة بين الاشياء والمعاني وهي في المعاني أقوى منها في غيرها . فما أن يرد الى المخيلة معنى من المعاني أسرع التداعي الى تصور ضده ، (5) كما اسرع التداعي بالشاعر الى خلق الصورة المقابلة له فيحقق للمتلقي مما خالج نفسه ودار في مخيلته أو يفاجئه بعالم يخطر له على بال فيقع في لحظة ذهول واعادة تفكير وتأمل ، لأن اعتماد أسلوب التضاد يجذب القارئ ويدفعه الى تخيل مقارنات عديدة بين المعاني الواردة ويضع بين يديه معاني جديدة والمقابلة بمختلف أنواعها وأشكالها تأتي لتعزز الدلالة وتبين وجه الصلة العميقة بين شيئين متضادين في الظاهر من الدلالة ، وسرّ أسلوب المقابلة أنها تهيء مفاجأة أو خلق غرابة أو خرق عادة بتصوير حركة معينة في الانتقال من نقطة الى أخرى (6)

---

1 ـ آخشيج : عنصر ـ مخالف ـ ضد .

2 ـ محمد بن عمر الرادوياني ـ ترجمان البلاغة ـ ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1967 ، ص 77 .

3 ـ محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الاسلوبية في الشوقيات ـ منشورات الجامعة التونسية ، الطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1981 ، ص 98 .

4 ـ محمد عبد المطلب ، البلاغة والاسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984 م ص 126 .

5 ـ محمد حسين آل ياسين ـ الاضداد في اللغة ، ص 165 ـ 166 .

6 ـ محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الاسلوبية في الشوقيات ، ص 121 .

وقد استحسن الدارسون التماثل في المتقابلين ، كأن يقابل المفرد بالمفرد والجمع بالجمع والفعل بالفعل والمصدر بالمصدر والصفة بالصفة واسم الفاعل باسم الفاعل . واذا كانت الصياغة العربية تجعل هذه الصيغ متقاربة في البناء الصرفي ، فانها في الفارسية تختلف لاختلاف أصولها عن العربية . ولعل أسلوب التضاد من أبرز الظواهر اللغوية في الديوان ، وهو على كثرته جاء في قوالب واشكال مختلفة ففيه نجد المتضادات التامة (وهي مايقابل في العربية الطباق التام) ، يجمع فيها الشاعر بين الكلمة ومقابلتها ، وقد أخذت بدورها اشكالا ، منها ماقابل فيه اللفظة الفارسية بأخرى فارسية وهو الغالب ، ومنها ماقابل فيه اللفظة الفارسية بأخرى عربية أو العكس ، وأحيانا يكون طرفا المقابلة عربيان . مرة يكون شقاها مفردين ومرة يجعل طرفا مفردا وآخر مركبا من أكثر من كلمة أو العكس ، وأحيانا يركب الطرفين ، فنجد في بعضها وفي المقابلة الواحدة مقابلتين فرعيتين ، واحيانا نجد الكلمة ومقابلتها ثم مراد ف المقابلة فتتحقق مقابلتان أيضا .

والى جانب الاضداد التامة نجد الاضداد الناقصة (غير التامة) وهي مايقابل في العربية الطباق الناقص الذي يعتمد على المقابلة بين اللفظة في حالتي الاثبات والنفي ، وهي قليلة في الديوان .

وقد شملت الاضداد في الديوان أبوابا كثيرة ترد بعضها حول معان متشابهة فكان ذلك سببا في تصنيفها في جداول وفق المعاني الواردة فيها .

أ - الاضداد التامة (المتقابلات التامة) .

- الحياة والموت والوجود والعدم :

حيات - موات (الحيات الموت) ، عربيتان - على بناء واحد - مفردة غير مركبة .

186 - فالمرشد الرومي ذلك الحكيم الظاهر المنبت ، كشف لنا سر الموت والحياة .

عدم - زندگى (العدم الحياة) ، عربية فارسية - على بناء واحد - مفردة .

202 : سمعت فراشة كانت تقول في العدم : ، امنحني لحظة من حياة الحرقة واللهفة .

بود - عدم (الوجود (الكينونه) العدم) ، فارسية عربية ، على بناء واحد - مفردة .

205 : كن بعيدا عن مشكلة الوجود والعدم ، وصر (كن) أكبر من دنيا الكم والكيف هذه .

237 : لم الحزن والغم ، ان حياة القلب ليست من الانفاس ، وان القلب ليس في دوامة الوجود والعدم .

مرگ - باقي (الموت - البقاء) ، فارسي عربي ، على بناء واحد ، مفردة .

237 : أيها المحدود النظر لا تخف من فكرة الموت ، فان القلب يبقى عندما تتوقف الانفاس ولا ينسى الحزن .

مرده - زنده (الميت - الحي) فارسيتان - على بناء واحد - مفردة .

314 : لن يصير الميت حيا ولو بمزامير داود .

مرگ - زندگي (الموت - الحياة) ، فارسيتان - على بناء واحد - مفردة .

388 : قال الخضر للاسكندر وهو يجتاز الظلمات ، الموت مشكل (عسير فهمه) ولكن الحياة أشد اشكالا .

باقي - فاني (بان - فان) ، عربيتان - على بناء واحد - مفردة .

372 : النوم يغريني ويسحر عيني ، فاغلقت عيني عن الباقي والفاني .

- الزمن : كثيرة هي الابيات التي فيها مقابلات بين الليل والنهار والصبح والمساء واليوم والغد والحاضر والمستقبل ، وهذه بعض النماذج لها :

روز - شام (النهار - المساء) ، فارسيتان - على بناء واحد - مفردة .

1و1 : فليس للروز من طمأنينة سوى عشقه ، فعشقه هو النهار الذي لا مساء له .

صبح - شام (الصبح - المساء) ، عربية فارسية ، على بناء واحد - مفردة .

220 : لا تسأل الشمس عن صبحي وليلي ، ذلك أنه ليس أمام أيامي الطويلة سوى الماضي الزائل (الفاني) .

363 : في ظلام الليل جاءتني من الصبح بشارة ، أطفئ الشمع ولاحت لي من الصبح اشارة .

228 : دنيانا ليست سوى مخطط غير كامل ، فهي أسيرة لتقلب الصبح والمساء .

شام - سحر (مساء - سحر) فارسية عربية - على بناء واحد - مفردة .

230 : لا شخص يعرف خبرا عن بدايته ، انه يدور في حلقة الايام والليالي .

340 : لا وجود للقمر الدوار في دنيا قلوبنا ، هي دنيا متقلبة ولكن لا وجود فيها لصبح أو مساء .

25و : فأنا لا أعرف لا السحر ولا المساء ولا الليل ولا النهار ، وعقلي حائر في قولهم مات و ولد .

شام - صبح (المساء - الصباح) ، فارسية ، عربية - على بناء واحد - مفردة .

281 : بالليل أنت في اليمن ، بالصبح أنت في قرن .

صبح - غلس ، عربيتان - على بناء واحد - مفردة .

281 : وتنفس الصبح من المشرق ، ممزقا ثوب الغلس .

صبح - شامها (صبح - ليالي) ، عربية ، فارسية - الأولى مفردة والثانية جمع.

304 : وقال ان أسامر بناء هذه الدار معون ، أين هو الصبح الذي لا يتبع بليال في انتظام

أمروز - دوش (اليوم - البارحة) ، فارسيتان - على بناء واحد - مفردة .

209 : العقل مقيد (اليوم والبارحة) ليل نهار بقيد (أبدي) ، هو مقيد بحجب العين والاذن .

أمروز - فردا (اليوم - غدا) ، فارسيتان ، على بناء واحد - مفردة .

212 : قال لي شيخ حكيم ، اعلم أن كل يوم لك هو رسالة لغدك.

244 : خذ اليوم بقوة لأن الغد ، الى الآن ساكن في ضمير الزمن .

334 : أنا لست أسير اليوم ولا أمس ولا غد .

260 : أرى سر غدي في كأس يومي .

دوش - فردا (الامس - غدا) ، فارسيتان - على بناء واحد - مفردة.

353 : لابد من ثورة تبعث من أعماق اليوم في سيرة الفلك ، تعيد لي أمسي في جلسة غدي .

الماء والطين : كثيرة هي الابيات التي وردت فيها هذه المقابلة اللغوية ، منها:

آب - گل (الماء - الطين) ، فارسيتان - على بناء واحد - مفردة.

200 : قد صنع الله من الماء والطين جسدا سويا ، وصنع دنيا أجمل من ارم

230 : لقد اختوت الوحدة بين الماء والطين ، وانفصلت عن افلاطون والفارابي .

235 : انني فتحت بجناحي الأزل الممتد ، وكنت غريبا عن قيد الماء والطين .

248 : أنت لم تتحرر الى الآن من قيد الماء والطين ، فأنت تقول انك رومي وانني أفغاني

284: خلقت العالم من ماء وطين ، وأنت خلقت تتارا وفرسا وزنجيا .

309 : لقد صنع العقل من ماء وطين جبريلا ، وصنع من التراب في السماء دليلا .

247 : أنت تقول أنا وجود والله غير موجود ، وليس لعالم الماء والطين فناء .

الطين والكأس :

سفالم - جامم (طيني أو فخاري - كأسي) فارسيتان - على بناء واحد - مفردة.

209 : فخمره جلست من فخاري كأس جمشيد في صفائه ، ولقد أخفت البحر داخل قطرة الماء التي هي أنا .

284 : الليل أنت خلقته وأنا الذي صنع السراج ، والطين الحقير أنت خلقته وأنا الذي صنع الكؤوس .

الروح والجسد :

تن - جان (الجسد - الروح) فارسيتان - على بناء واحد - مفردة.

212 : أنت تسأل عن الرابطة والصلة بين روحي وجسدي وأنا لست ممن يفتح في شراك كم و كيف.

248 : فللون متمام على كيفية ما في الجسد ، بحيث لا نستطيع القول انهما هنا ولا نستطيع القول انهما هناك .

تين - جاني (الجسد أو جسد - رون) فارسيتان - على بناء واحد - مفردة .

224 : الشخص الذي ليس له ألم خفي ، يملك جسدا ولكن لايملك روحا .

جسم - جان (الجسم والرون) ، عربية ، فارسية ، على بناء واحد ، مفردة .

232 : ان قلبي يعرف سر الرون والجسد ، فلا تتصور أن الأجل بالنسبة لي غال وثمين .

جان - تن (الروح - الجسد) ، فارسيتان على بناء واحد ، مفردة .

245 : فالرون متهيئة الى أي طريقة في الوجود ، لأنهما اذا طلبت أسلوبا واحدا تحولت الى جسد .

جان - پيسكر (الروح - الجسد) ، فارسيتان على بناء واحد ، مفردة .

376 : قد رأيت احتراق الروح واضطرابها في الجسد ، ورأيت الجوهر يملأ الصدف .

الظهور والخفاء : غالبا ما يميل بهما اقبال نحو المنزع الصوفي .

بمرهنه - تيام (عار - غمد) ، فارسيتان ، ليست على بناء واحد ، مفردة .

186 : كلا فما كفلق الصبح الباسم في صفاء المرآة ، هو مجرد (عار - مستل من الخنجر) وأنا مازلت في الغمد .

آشكار - پنهانم (ظاهري - باطني) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

187 : قليل النظر لم يرمني بسودة روحي ، فقد رأى مني ظاهري ولم ير باطني .

پيدا - زير نقابي (ظاهر - تحت (خلف) نقاب) فارسيتان ، على بناء واحد ، الاولى مفردة والثانية مركبة من كلمتين أعطتا معنى الخفاء .

222 : عن أي شيء تبحث ولماذا أنت مضطرب ، محترق ، ذلك أنه ظاهر وأنت الذي خلف النقاب .

جلوه - حجاب (تجلي أو جلوة - حجاب) ، عربيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

316 : انني اشتكي من عيني الناقبة للنظر ، لأنك عندما تتجلى تكون نظرة عيني لي حجابا .

224 : كم جلوة من تحت حجاب ، أنت لا تستطيع صبرا على نظرات شوقنا .

پردگيان - پيدا شد (المختفون - ظهر ، صار ظاهرا) ، فارسيتان ، ليستا على بناء واحد ، الاولى مفردة والثانية مركبة من صفة الظهور والفعل صار .

255 : وذاع خبر مسن السماء الى قبة الأزل ، ان حذار أيها المحتجبون فقد ظهر مزق الحجب .

پسيدانم - پنهانم (أتجلى - اختفي) فارسيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

260 : أنا أتجلّى بروحك واختفي في روحك .

غيب - حضور - ظهور : عربية ،على بناء واحد ، مفردة .

277 : أيتها اليراعة أنت كملك نور ، وسيرك سلسلة من الغياب والحضور ، وقانون الظهور .

پسرد ، - ظهور (حجاب - ظهور) ، فارسية ، عربية ، ليستا على بناء واحد ، مفردة .

270 : لماذا الحجب والظهور ؟

پسرد ، - عريان (حجاب - عار) ، فارسية ، عربية ، ليست على بناء واحد ، مفردة .

٢٧١ : فهلّم لنزيل الحجب عن حرق قلوبنا ، فان الشمس قد غشيت الدنيا عندما تعرّت .

پسرد ، - آشكار (حجاب - ظاهر) فارسيتان ، ليستا على بناء واحد ، مفردة .

پنهان - پيدا (مختف - ظاهر) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

353 : أقول للرحمن من خلف الحجب ، وأقول لك يلا حجاب ، يارسول الله ان كان هو خاف فانك أنت ظهوري .

پنهاني - پيدائي (خفي - ظاهر) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

337 : أتطلب أسرار الأزل ؟ افتح العين على نفسك اذن ، وانظر الوحدة والتفرد والتجمع ، وانظر السر الخفي والظاهر .

السفل والعلو : أحيانا يقصد بهما اقبال الاشياء المادية الملموسة وأحيانا يريد أشياء معنوية .

سفله ودون - صاحب جوهر (السفلة - أصحاب الفضل) عربيتان في صياغة فارسية مترادفتان مقابل كلمة مركبة ، على بناء واحد .

187 : ما أكثر مايرعى الفلك الادنياء والسفلة ويحنو عليهم ، فواحسرتاه لكل صاحب فضل .

زمين - آسمان (الارض - السماء) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

228 : عندما أسير بعد الموت في الجنة ، تتجلى لعيني هذه الأرض والسماء .

239 : لكي تفهم أسرار السماء فعليك بالأرض ، ولكي تشرح اللامكان (العدم) فعليك بالمكان .

240 : اختفت دنيا الألوان والروائح بعيدا عني ، وغدت الأرض والسماء والفضاء بعيدة عني .

زمين - فلك (الأرض مدار النجوم السماء) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

239 : ما الارض سوى حجر (عثرة في طريقنا) على باب حانتنا ، وما السماء سوى احدى دوراتك أسنا .

258 : تمد نيت الى أسفل الأرض ، ثم علوت حتى الافلاك ، فالذرة والشمس الضئيلة سجينة سحري .

روى بحر ـ سركو هسار (وجه (سطح) البحر ـ قمة الجبل) فارسيتان مع شطر عربي (بحر) على بناء واحد ، مركبة .

271 : أجئ من عرس البحار ومن قنن الجبال ، ولكنني لأعلم من أي مكان انبثقت .

پالائي سر ـ تة پاست (رأس مرتفع ـ قدم منخفضة) فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبة ، كل واحدة مركبة من كلمتين نستطيع أن نخرج منهما بمقابلتين : پالائي ≠ تة ، سر ≠ پاست .

320 : لماذا تسأل عن مقامي ؟ انني أسير سحر قلبي ، فهبوطي لم يتزلني اذ لم ينقص من قدري ولم يرفعه صعودي .

نشيب ـ فراز (السهل ـ المرتفع) ، فارسيتان ، على بناء واحد مفردة .

300 : فاض هل السيل بلا تفاوت على السهل والمرتفع ، ومضى على القصر الملكي والحصن والحقل والخميلة .

نشيبي ـ فرازي (منخفض ـ مرتفع) ، فارسيتان ، على بناء واحد مفردة .

334 : أنا لست أسير اليوم ولا أمس ولا غد ، وليس لي نجاد أو وهاد أو مقام .

جاد ، ـ كوه (السهل ـ الجبل) فارسيتان ، على بناء واحد مفردة .

329 : أنا مريد ذلك المسافر ، صاحب الهمة الذي لا يقطع الا الطرقات ، حيث تلتقي مخاطر السهل والصحراء والبحر والجبل .

خاكيان ـ بلندا مت (الترابيون ـ الاعلون) فارسيتان ، ليست على بناء واحد فالاولى جمع والثانية مركبة من صفة وا رابطة .

348 : قل لأولئك النورانيين ، نحن من طين (ترابيون) ، ولكن قد تسامينا بالعقل فأمسكنا الثريا والنجوم .

بفلك پرشد ـ بزمين درشد (صار فوق الفلك ـ صار في التراب) فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبتان ، ومنهما يمكن الحصول على متقابلتين : فلك ≠ زمين ، بر ≠ در .

338 : مائدة مسّرة تتسامى حتى الفلك ، ومائدة مسّرة تتهاوى حتى الأرض .

الشباب والشيخوخة :

جوان ـ پير (شباب ـ شيخ) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

185 : أيها الامير الوقور ، أنت مليك شاب الا أن فعالك تتسم بالنضج (كالشيخ) مثل الشيوخ .

268 : تمثل واجبي من هذا الشباب رياضا ، وحول صيد نيانا الى شباب (جديد) .

245 : لو أنك تخدو شيخا من الضعف ، فخذ لك نصيبا من شباب هذه الدنيا .

جوان ـ پیرکهن (شباب ـ شیخ طاعن في السن) فارسیتان على بنائه واحد الاولى مفردة والثانية مركبة .

338 : أنا سان ناشيئ (شباب) وأنت شيخ الحان القديم .

جوانان ـ پیران (شباب ـ شیوخ) فارسیتان ،على بناء واحد ، مفردة .

351 : شبابنا نسوم وشيوخنا باردو قلوب ، لا وجود للقلوب التي ترقب تنفس الصبح .

طفلك ـ برنا ـ پیر (طفل ـ شاب ـ شيخ) فارسيات ،على بناء واحد ، مفردة .

388 : مهما يكن المتحدث طفلا أو شيخا أوشابا ، فان الكلام نفسه يجهل السنين والشهور .

المشرق والمغرب :

أفرنگی جوانان ـ پیران شرق (شباب الغرب ، شيوخ الشرق) فارسيتان مقابل فارسية عربية على بناء واحد (كلاهما جمع) مركبتان ،ومنهما نحصل على متقابلتين :

افرنگی ≠ شرق ، جوانان ≠ پیران .

186 : فهو بين شباب الغرب كالبرق الخاطف ،أما شعلتي أنا فمن انفاس شيوخ المشرق .

مشرق ـ مغرب ،عربيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

188 : وآل عثمان في عذاب الدهر ، فالمشرق والمغرب روض للشقائق من دمائهم .

شرق ـ غرب ،عربيتان على بناء واحد ، مفردة .

لكنه أفسح صدره متهجما نحو الشرق والمغرب .

مشرق ـ فرنگ : عربية فارسية ،على بناء واحد ، مفردة .

384 : المشرق يرتشف الخمرة من كأس الغرب ، ليس عجيبا أن انت كبشرت هذا القديم .

العرب والعجم :

عرب عجم ،عربيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

317 : أوقدت أناتي نار العجم القديمة ، ولكن العرب الى الآن في غفلة عن انغام عشقي وأشواقي .

الكم والكيف : ترددت كثيرا في الديوان ، منها :

كيف ـ كم ،عربيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

236 : لو أنك تعرف كل طاقاتك كيفا وكما ، فانك تملأ من ندائك بحرا .

205 : (كن بعيدا عن) أخف من مثقلة الوجود والعدم ، وتجاوز (صراً أكبر من) دنيا الكم والكيف .

چند وچون (كم ـ كيف) ، فارسيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

212 : أنت تسأل عن الرابط والعلة بين روحي وجسدي ،وأنا لست من يقع في شراك كم وكيف .

جون ـ جسد :

36 : ثابت هو بلا تغير في سحر كيف وكم وكسير وقليل ، يجتاز المفصل والعلو والمتأخر والعاجل والقريب والبعيد .

الخير والشر ، الجمال والقبح : .

خوب ـ زشت (حسن ـ قبيح) ، فارسيتان على بناء واحد ، مفردة .

213 : أنا لا آلف ما تراه طيبا أو قبيحا ، فقد جعلت مقياس ذلك عندك الربح والخسارة .

زشت ـ نكو (قبيح ـ حميد) فارسيتان ،على بناء واحد . مفردة .

223 : أي سر قبيح أو جميل سأقول ،فقد انزلق اللسان لأن المعنى كان عميقا .

256 : ما القبح والجمال إلا من أبداع خالقك ، فخذ لذة العمل وسر على أثر الرغائب .

جمال ـ زشتيم (جمال ـ قبحي) ،عربيا فارسية ،ليستا على بناء واحد ، مفردة .

292 : أوصلت سفينتي الى الساحل ،وفاض قبحي وصار بحرا (طوفانا) من جمال .

تلخ تر ـ نكو تر : مركبة جدا ـ جلو جدا ، فارسيتان ،على بناء واحد ،مركبة .

295 : سألت شيخا بعيد النظر مآل الحياة ،فأجاب هي خير الأمر فيها يصبح أحلى .

نيك ـ بد (حسن ـ قبيح) ، فارسيتان ،على بناء واحد ،مفردة .

383 : هنا يوزن الحسن والقبح بميزان آخر ، غير الميزان الذي لليهود والنصارى .

خوب ـ زشت/ زشت خوب : متقابلتان ،فارسيتان على بناء واحد ،مفردة ، المقابلة الثانية هي قلب للأولى ،وهذا دليل على قدرة اقبال اللغوية ،وقدرته على التلاعب بالقاموس اللغوي :

383 : فالحسن ان حطم معشوقك وكسره هو قبح ،والقبح ان زاد من جاهك وقدرتك فهو حسن .

شر ـ خير ،عربيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

275 : قلت قد فطرت طبيعتهما على الشر فقال : أنت لا تعلم أن هذا الشر هو عندها خير .

مذموم ـ محمود ،عربيتان ،على بناء واحد ، مفردة .

383 : هذه طائفة الضرب من تأثير الخمر فيها ،يتجلى ذلك المحمود مذموما

الخطأ والصواب :

خطاست - رواست (خطأ - صواب وأراد بهما الحرام والحلال) فارسيتان على بناء واحد متصلة بالرابطة أست .

341 : أنشد مطرب الحان بالامس حكمة قلب : « تذوّق الراح حرام (خطأ) ، والسكر منها مباح (صواب) .

خطأ صواب ، عربيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

375 : لا تظهر الخطأ بسخرك كالصواب ، فالخضر لم يخدع بشباك السراب .

الضر والنفع - الداء والدواء - الحزن والفرح .

زيان - سود (الضر - النفع) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

198 : دنيانا تلك التي وجودها عدم ، وهي تلد الضّر توأما لنفعها .

سود - زيان (النفع - الضر) :

365 : وقال له استخرج من كل خسارة لك ربحا ، فالوردة لا يأتي منها الذهب الخالص الا عندما يمزق صدرها .

بزم - جنازة (حفل - مأتم) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

269 : تارة تعقد (نقيم) الافراح ، وتارة تحمل الجنائز على الاكتاف .

بسه دلى غم فزودى - زدلى غمى ريودى (زدت قلبا هما - تزعت عن قلب همّا) جملتان فارسيتان على بناء واحد ، تختص منها على متقابلتين : بسه ≠ زد ، فزودى ≠ ريودى .

373 : غنيت كعصفور الرياض حينما ، زدت قلبا همّا وحزنا وأسليت قلبا .

فتنه ربا - فتنة زاى (الساحرة ، مخرجة السحر) فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبة .

282 : هي الداء والدواء (هي الساحرة وهي مخرجة السحر) .

زهر - نوشينه (السم - الدواء) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

284 : أتأذلك الذي صنع من السّم الشراب المستساغا (الدواء) .

النور والظلام :

تيرى - شعاع (مظلم - شعاع) ، فارسية عربية ، ليستا على بناء واحد ، مفردة .

231 : فهي على الرغم من تفجرها من تراب معتم ، الا أن بصرها متجه الى شعاع الشمس .

شب تاريك - جراغ (ليل حالك أو مظلم - مصباح) فارسيتان ، ليستا على بناء واحد الاولى مركبة والثانية مفردة .

231 : فليس في هذه الدنيا ظلام ليل (حالك) ، لأن شعلته أنارت في قلب كل شمعة (مصباحا)

تيره خاك — اختر (تراب معتم — نجم) فارسيتان ، ليستا على بناء واحد ، فالاولى صفة والثانية موصوف ، والاولى مركبة والثانية مفردة .

253 : تنفست من تراب معتم وليست ثوب الورد ، ولكنني نجم غير متصل بالثريا .

تيره شبان — مشعل (ليال مظلمة — مشعل) ، فارسية ، عربية ، ليستا على بناء واحد ، الاولى مركبة والثانية مفردة ، في ظلام الليالي الحالكة أنت مشعل ليل الطيور .

شب = چراغ ، (ليل — مصباح) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

284 : الليل أنت خلقته وأنا الذي صنع السراج

خاك سياه — آئينه (تراب معتم مرآة) فارسيتان على بناء واحد الاولى مركبة والثانية مفردة

310 : ذلك الذي ينير وجهه بمزينة المعرفة ، تجعل من ترابه المعتم الاسود مرآة .

مستنير — ضرير ، عربيتان على بناء واحد ، مفردة .

258 : يا من استنار كوكب الروح من شمسه ، ويا من أوقدت من قلبي شمعة للدنيا الظلمة (الضريرة) .

الورد والشوك :

خار — گل (الشوك — الورد) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

223 : انظر الى الشوك والورد ، انهما خارجان عن الغصن ، فليس بالداخل ورد ظاهر ولا شوك .

257 : ما أجمل أن ترى شيئا واحد طيبا ، وهو هجوم جحافل من الورد على الانظار ، وأن ترى الشوك المؤلم من حين لآخر يتفوق على الورد .

الوصال والهجران :

وصال — هجران ، عربيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

302 : يقينها غير مقيد بهجر وعسى ، وليس لوصالها تفكير في الهجر .

338 : كن معي ومعه (في الصلاة) ، أهو هجر أم وصال في الصلاة .

پيوستن — گسستن (وصل — قطع) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

345 : أنت يا من هو أقرب الى الروح ولا أبصره ، هجرك عندي أحلى من وصال الآخرين .

خاك واصل — خاكدان دور (موصولة بالأرض — بعيدة عن الأرض) فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبة .

229 : موصولة أنت بالأرض ، وبعيدة عن العالم الترابي (الأرض) فأينك يا من يسهر العيون ومزقت الهدب .

القـديم والجـديد :

كهـن - نـو (قديم - جـديد) ، فارسيتـان ، على بناء واحـد ، مفـردة .

198 : فجدد القـديم وانتهج خطـة جـديدة ، فقلبنـا لمن نخـلق آجـلا وعاجـلا .

تازه - كهـن (جـديد - قديم) ، فـارسيتـان ، علـى بنـاء واحـد ، مفـردة .

. هـو في كـل زمـان يتـرك قديمـا ليعبـر جـديدا .

لنضع نظامـا وقـانونـا جـديدا للنصـارى ولدير النصـارى ، ولنحطـم البنـايـات القـديمـة والحـا القديمـة .

البـر والبحـر :

بحـر - بـر ، عربيتـان ، على بنـاء واحـد ، مفـردة .

190 : كـل مـن كـان متـاعـه حب المصطـفى ، تعلّـق البحـر والبـرّ جميعـا بأطـراف أذيالـه

د شـت - دريـا (الصحـراء - البحـر) فارسيتـان ، على بناء واحـد ، مفـردة .

329 : أنـا مريـد ذلـك المسـافـر صاحب الهمـة الذي لا يقطـع إلّا الطرقـات ، حيث تلتقي مخـاطـر السهـل والصحـراء والبحـر والجـبـل .

الـروض والصحـراء :

چمـن - صحـرا (روض - صحـراء) ، فارسيـة ، عربيـة ، على بنـاء واحـد ، مفـردة .

186 : هـو كـالبلبـل في الروض يستمـد أنغـامـه مـن الفـردوس ، وأنـا في الصحـراء كجـرس حـادّ الصـراخ .

چمـن - دشـت (روض - صحـراء) فارسيتـان ، على بنـاء واحـد ، مفـردة .

283 : لقـد رأيـت الـروضـة والصحـراء والسهـول .

خـاكـدان - گلستـان (الـيبـاب (الغربلـة) - الروض) فارسيتـان ، على بناء واحـد ، مفـردة .

268 : تعـال واجعـل مـن هـذا الـيبـاب ريـاضـا .

بـاغ - راغ (روض - صحـراء) ، فارسيتـان ، على بنـاء واحـد ، مفـردة .

367 : فـروق كـثـيـرة ومعـان خـفـيـة بيـن الصحـراء والخميلـة ، وبيـن الحنظـل والعسـل .

فـروق تـراهـا عيـن الحـقـيـقـة .

السيـد والاميـر - والغنـي والفقـيـر :

فـقـيـر - غنـي ، عربيتـان ، على بنـاء واحـد ، مفـردة .

333 : ليـس اقبـال شيـخ المدينـة ولا شـاعـرهـا ولا صـوفيهـا ، هـو الفـقـيـر الغـريـب الذي لا مـأوى لـه وهـو الغنـي القلـب .

خـواجـه - بنـده (السيد - العبـد) ، فارسيتـان - على بنـاء واحـد ، مفـردة .

346 : لاوجود لسيد لايخدم مثل العبد ، ولا وجود لعبد لايباع مثل السيد .

خواجه ـ مزدور (السيد ـ الاجير) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

367 : كيف تعطي هذه الطبيعة خالقة الاضداد لذة في القتال ، بين السيد والاجير وبين الآمر والمأمور .

ميرى ، سروري ـ چاكرى (السيادة والعظمة ـ الخدمة والعبودية) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة ، المقابلة الاولى تحتوى مترادفتين .

345 : ان دنيا العشق لاتعرف سيدا أو أميرا ، يكفي المرء فقط أن يتعلم أساليب وقوانين الخدمة .

مير ـ سفته گوش (السيد ـ العبد (المشتوق الأذن) ، فارسيتان ـ على بناء واحد ، الاولى مفردة والثانية مركبة .

270 : أمير الدنيا وعبد ، ننظر ثم نمضي لحالنا .

كرباس ـ رخت حرير (ثياب القطن ـ ثياب الحرير) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، الاولى مفردة والثانية مركبة .

بنده ـ خواجه (العبد ـ السيد) ، فارسيتان على بناء واحد ، مفردة .

386 : يفضل أجرة العبد المسكين ومحفه وليسه أثواب القطن ، يكون حظ السيد المتقاعد أثواب الحرير .

القيد والاطلاق :

گشادن ـ بستن (أن يطلق ـ أن يقيد) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

226 : أتطلب كمال الدنيا ؟ فتعلم فتح العين اذن ولا تغلقها الا على تفسك .

بست ـ گشود (العقد والحل) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

301 : ألا تعلم أن الله موجود منذ الأزل ، يرى كل شيء ويزن الأمور ، بيده العقد والحل بسته داشت ـ تخته را (يغلق ـ يفتح) فارسيتان ، على بناء واحد مركبة .

307 : عندما يكون داخل بيته فانه يغلق بابه ، فاذا غادر البيت ترك بابه مفتوحا .

الحركة والسكون :

آسوده ـ سيّاره (هادئ ، ساكن ـ سائرة) فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

236 : تفضل أيها الحكيم ، واشرح لي هذه الحكمة ، كيف يكون الجسد هادئا والروح سيّارة .

سكون ـ تاب وتب (سكون ، اضطراب) عربية ، فارسية ، (من مترادفتين) على بناء واحد ، مفردة .

فأمواج الأمل رفعت السكون نتيجة لبحر ى الخطرب ، فأنا تاحت الدهر وأنا شعلة الجوهر وناره .

سكون - حرام (سكون حركة) ، عربية ، فارسية ، على بناء واحد ، مفردة .

294 : أنت يا من تحرص على أخطائك وتحفظها ، ان كل ما بد الك ساكنا فهو في حركة هنا .

خموش - خروش (الصمت - الصياح) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

269 : الأرض الخرساء (الجامدة) وحركتها ، تنتظر ثم تمضي لحالتنا .

الانسان والشيطان :

ابليس - ادريس
آدم - شيطان

الفاظ دينية مشتركة ، على بناء واحد مفردة .

189 : ما أكثر البشر (الآدميين) الذين يأتون فعل الابالسة ، وما أكثر الشياطين الذين يأتون بأعمال الادارسة .

المسجد والدير : هي الفاظ دينية مشتركة في الغالب .

كنيسه - مسجد - معبد - دير ، على بناء واحد ، مفردة .

208 : الكنيسة والمسجد والمعبد والدير ، لم تفز الا بهذه القبضة من الطين (لم تصنع) .

دير - حرم ، على بناء واحد ، مفردة .

209 : جعلت العقل في رأسي معبدا للنيران (أقام) وجعلت من دير عشقي حرما للخلخيل .

340 : القلب في اضطراب وخفقان الى وصاله قد أقام دير ا وحرما ، نحن نتمناه وهو يتفرج علينا .

كعبة - بتخانه (كعبة - معبد) ، عربية ، فارسية ، على بناء واحد ، مفردة .

335 : لا يرى العاشق الولهان فرقا بين الكعبة والمعبد ، فهذه جلوة الأرواح وتلك وحدتها وخلوتها .

335 : قد شققت طريقا من الكعبة الى المعبد .

حرم - بتخانه : عربية فارسية ، على بناء واحد ، مفردة .

347 : ... فالدير والحرم ليسا محرما لأسراره .

دير - كعبة / زنّار - تسبيح ، على بناء واحد ، مفردة .

322 : فأنا في الدير أبدي التضرع والاحتياج وفي الكعبة أقيم الصلاة ، الزنار على كتفي ، والمسبحة في يدي .

سجود - خيز (السجود - القيام) ،عربية ،فارسية ،على بناء واحد ،مفردة .

256 : لاشيء يصدر عنك سوى سجود العجز ،انهض مثل السرو السامق يا من تريد أن تشرع في عمل جميل .

المؤمن للكافر :

مومن - كافر ،عربيتان ،على بناء واحد ،مفردة .

371 : قد أقام على أرض الحرم معبدا ،فقبلطلبه مؤمن وفكره كافر .

مسلم - كافر : على بناء واحد ،مفردة .

214 : ولكن ليس فيه خطيئة ولا كتاب ولا ميزان ،وليس فيه حساب المسلم ولا لكافر .

پورخليل - آزرى (أبناء الخليل (ذريته) - آزري) فارسية ،عربية ،على بناء واحد ، الاولى مركبة ،والثانية مفردة .

346 : فماذا أقول لك عن المسلمين اللا مسلمين ،ما هم الا أبناء الخليل عادوا الى الا الآزرية .

العقل والجنون :

. . . . ديوانگيست - فرزانگيست (المجنون - العقل والحكمة) فارسيتان ،على بناء واحد ، مركبة .

187 : (حتى) لا تظنه حديث جنون ،فالحكمة في اكتمال هذا الجنون .

عقل - جنون : عربيتان على بناء واحد ،مفردة .

368 : العقل ممزق ،والجنون يلقي غشاوة على البصائر ،تجلّ فان روحي مفعمة بالاشواق والوله .

جنون كرد ،حكيم (جنّ - حكيم) ،فارسية ،عربية ،ليست على بناء واحد ، الاولى مركبة والثانية مفردة .

49 2 : فماذا تطلب من اقبال الذي يطوى الافلاك؟ ،فقد جنّ حكيمنا الفيلسوف.

فرزانه يگفتارم - ديوانه بكردارم (عاقل الاقوال - مجنون الافعال) ، فارسيتان ، على بناء واحد ،مركبة ،تحصل منهما على متقابلتين ،فرزانه ≠ ديوانه ،كردارم ≠ گفتارم .

322 : انني عاقل الاقوال ،مجنون الفعال ،وخمر شوقك أيقظتني وأسكرتني .

اليقظة والنوم :

بيدار - خوابيده (يقظ - نائم) ،فارسيتان ، على بناء واحد ،مفردة.

238: ان الله أعطاك عينا حادة النظر فلا تمر بعقل يقظ وقلب نائم .

هشيارم ≠ مستم (صحوت ما فقت ≠ نمطلسمت) فارسيتان ،على بناء واحد ،مفردة .

322 : وخمر شوقك أيقظتني وأسكرتني .

التجمع والوحدة والتفرقة :

يلتزم - خلوت (حفل - خلوة) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

214 : فكن أنت كذلك في حفل الرفاق وحشدهم ، بحيث تصير الرياض خلوة لك دونهم .

ابتجمعن - خلوت (تجمع - خلوة) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

272 : فلا تبحث عن التجمع مثل النعاج والغزلان ، وكن باحثا عن الوحدة والتفرد مثل أجدادك .

الكثير والقليل ، القريب والبعيد :

تزد - دور (قريب - بعيد) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

270 : ما هذا التقارب والتباعد ؟ انتظر ثم تغني لحالنا .

اندك - بسيار (قليل - كثير) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

279 : يا قليلي وكثيري (يا كل ما أملك من قليل وكثير) .

يكتائي - بسيار (التفرد - التجمع والكثرة) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

337 : أتطلب أسرار الأزل ؟ افتح العين على نفسك اذن ، وانظر الوحدة والتفرد والتجمع ، وانظر السر الخفي والظاهر .

نزد - دور (قريب - بعيد) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

369 : ثابت هو بلا تغير في سحر كيف وكم وكثير وقليل ، يجتاز السفل والعلو ، والمتأخر والعاجل والقريب و البعيد .

الداخل والخارج :

ازكنار عرصه - اندر (على هامش الساحة (الميدان) - داخله) ، فارسيتان ، على بناء واحد الاولى مركبة والثانية مفردة .

206 : أنت تراقب هذه المعركة من بعيد ، فمت داخل الميدان لتزداد خلودا .

درجانه - آز جانى برفت (في الروح ، خارجها) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة مركبة

221 : تتبعت الانغام لضربما تعودك من أعماقي ، فكيف أنت داخل هذه الروح وكيف أنت خارجها .

الزرع والحصاد :

كاشتن - درود (أن يزرع - الحصاد) ، فارسيتان ، ليست على بناء واحد ، فالاولى مصدر والثانية فعل مصرف ، مفردة .

35 : فالى متى ونحن نزرع الشرور ونحصد النار ؟ ، والى متى نعقد للقلب هموما ثم نحلّها ؟ .

كشت ـ حاصل (بذر ـ محصول أو حصاد) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

225 : تعال أيها العشق ، ياسكّر قلوبنا ، تعال يابذرنا ويا حصادنا .

أضداد أخرى :

گمان ـ يقين (الشك ـ اليقين) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

257 : أنا كل نار غير مكتملة وكل بقية من أمل ، أدع الظن من أجل اليقين لأنني شهيد البحث والتفتيش عن الحقائق .

پاكباز ـ دغل وريمن (تنظيف اللعب ـ ماكر ، محتال) فارسية (متمرادفتين) ، ليست على بناء واحد ، (شريف) والثانية (غش وخداع) ، مفردة .

18 : يسجدون أنه لاعب شريف بيتما كسبتنا نرد ، غش وخداع ، مكّار يتأبط الغدر والنفاق .

انجام ـ آغاز (البداية ـ النهاية) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

199 : أنا لا أفتش عن البداية ولا النهاية ، فكلي سرّ ولكنني مع هذا أطلب دنيا الاسرار .

آتش سوزانم ـ روضة رضوانم (شعلة نيران ـ جنة رضوان) ، فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مركبة فيها متقابلتين : آتش ≠ روضة ، سوزانم ≠ رضوانم .

260 : فأنا شعلة نيران وأنا جنّة رضوان .

سال ـ دمي (حول ـ عام ، لحظة) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

270 : وحولك ثوان عندنا .

نرم ـ درشت (ندي ـ غليظ) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

282 : تلك الالحان الخافتة والمرتفعة تنعش الارواح .

أندوخته ـ انداخته (تجمع ـ تلقى) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

358 : تجمع العلم وتدّخره ومن القلب تلقي الفؤاد ، فآه على ذلك الكنز الثمين الذي ضيّعته .

بيرون ـ يزم ـ درون رزم (ظاهر عذب ـ باطن فظ غليظ) فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبة ، فيهما متقابلتين : بيرون ≠ درون ، يزم ≠ رزم .

زيان اوز سيبح ـ دلش زجنگيز (لغته من الصبيح وقلبه من جنگيز خان) فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبة .

368 : ظاهره عذاب أليم ، وباطنه فظ غليظ ، كلامه من كلام المسيح عليه السلام وقلبه قلب جنكيز خان .

يمرخيز — خفته (انهمس — نام) فارسيتان ، ليست على بناء واحد ، مفردة .

372 : قال لي : انهمس ، لماذا تنام؟ انك تجري في سفينة من سراب .

خواب رامرگ سبك — مرگ راخواب گران (النوم موت خفيف — الموت نوم ثقيل)

فارسيتان على بناء واحد ، مركبة .

390 : اعلم أن النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل .

ب — الاضداد بأداة نفي (متقابلات ناقصة)

الوجود والعدم :

بود — نبود (وجود — عدم) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

265 : لا أحد يستطيع تحمّل هذا العبء الثقيل ، وان عدما الخالد أفضل من حياتنا (وجودنا) .

322 : انني ذلك السيل السريع الحركة أحطم كل الحواجز والقيود ، صار لعقلي ظنون وهواجس من تفكيره في وجودي وعدمي .

348 : وجودنا وعدم وجودنا هو من شعلة الحياة ، انها لذّة الذات التي مزّقتنا قطعا قطعا كالشرر .

بود — رفت (كان — ذهب) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

نبود — بود (لم يكن — كان) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

362 : ذلك الذي كان ولم يكن يجب بقاؤه سوف يذهب ، وذلك الذي كان يجب أن يوجد ولم يكن فيما سيكون .

بودن — نبودن (الوجود — العدم) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

336 : الانبعاث من نوم العدم بدونك مستحيل ، والوجود من غيرك مستحيل والعدم من غيرك مستحيل .

هستي — عدم (وجود — عدم) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

292 : عرفني معنى الوجود والعدم ، وجعل من معبد عقلي حرما .

هستم — نيستم (وجودي — عدمي) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

298 : فشمال الموج في صخب شديد (وسير) جريان ، وجودي في أن أسير ووقوفي هو عدمي .

ماند — نماند (بقي — لم يبق) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة .

188 : لم يعد هناك الحماس السلماني للعشق ، بقيت أرض ايران ولم يبق الايرانيون.

باقي - نيست (بماق (يبقى) - لا تكون (تعدم) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة.

237 : أيها المحدود النظر لا تخف من فكرة الموت ، فان القلب يبقى عندما تتوقف الانفاس ولا يبقى الحزن .

نا استوار - ابد (النفاء - عدم الخلود = الخلود) فارسية ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة.

244 : لا تقل ان الاشياء دنيانا زائلة ، فكل ثانية من وقتنا تعلن الخلود .

النظر وعدمه :

د يد يم - ند يديم (نظرنا - رأينا ≠ جهلنا - لم نبصر) فارسيتان ، على بناء واحد مفردة .

278 : نيجبير (أبصرنا) في اضطراب ، نجهل (جهلنا) في اضطراب .

ديده - نادي ده (مرئي - غير مرئي) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة.

286 : ملئ هو بالتناقض التي زمجرتها أحد من الرعد ، وصدره يخبئ كلمات معروفة ومجهولة .

القول وعدمه :

حرف تكفته - بمرلب كود كان رسيد (سر أو حرف لم يقل - وصل الى الشفاه) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مركبة .

31 : سركم المكتوم وصل الى شفاه الاطفال ، فانقل عني هذا السر بلا كلام لأولئك الحافظين للأسرار .

گفتم - مگو (قلت - لا تقل) ، فارسيتان على بناء واحد مع اختلاف الفاعل ، مفردة.

384 : سأبوح لك بالاسرار الخفية للحياة ان كنت تبغي بلوغ مرادك فلا تبح به لأحد .

أنداد أخرى ناقصة :

آنسوى نه پرده - اين سوى پرده (ذلك الجانب الظاهر - هذا الجانب المستور الخفي) ، فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة ، وفيها متقابلتين : اين سوى ≠ آن سوى نه پرده ≠ پرده .

360 : الاول ينظر من (هذا) ذلك الجانب الخفي المستور فيرى ظنا وشكا واحتمالا ، والاخرين يرسل نظراته من هناك (من الجانب الظاهر) يجتاز كل الحجب.

مسلمان - ترا مسلمان (المسلمين - غير المسلمين) ، عربية في قالب فارسي ، على بناء واحد ، مفردة .

346 : فماذا أقول لك عن المسلمين اللا مسلمين .

خواهم - نه خواهم (أطلب - لا أطلب) ، فارسيتان - على بناء واحد ، مفردة .

235 : أي شيء أطلبه من هذه الحديقة وأي شيء لا أطلبه ، شرابا أو كتابا أو ريابا أو معشوقا فاتنا جذابا .

مكان - لامكان ، عربية ، على بناء واحد ، مفردة .

ع 23 : ... ولكني تحت ستر اللا مكان ، فعليك بالمكان .

مشترى - تخريد (المشترى - لم يشتر) ، عربية ، فارسية ، ليستعلى بناء واحد ، مفردة .

326 : ولقد اخترت هذا الجنس من الكلام حتى أتطلع الى معرفة المشترى ، وانني لسعيد بهذا : وهو أنه لاشخص قد اشترى متاعي .

نشيب - نه نشيبي

فارسيات على بناء واحد واحدة مفردة والثانية مركبة .

نه فراز - فرازى

320 : لماذا تسأل عن مقامي ! انني أسير سحر قلبي ، فهبوطي لم ينزلني اذ لم ينقص من قدري ولم يرفعه صعودي .

گدا ن - بينيازى (سائل ، متسول ، غير محتاج) فارسيتان ، على بناء واحد ، مفردة ، مركبة

320 : كله دلال وبدون حاجة ، وكله موزون وبلا لحن ، اضطرب قلب الملك من متسول بغير حاجة .

236 : أنا فقير حاجة لأن أعيش متسولا بغير حاجة ، أخفق ، احترق ، أذوب ، وأعزف الالحان .

فقير - بينيازى (فقير - غير محتاج) ، عربية ، فارسية ، على بناء واحد ، مفردة ، مركبة .

330 : أنا فقير ولكنني في غنى عن هذا وذاك .

د - ظاهرة التكرار :

أما ظاهرة التكرار فهي وان قلت في ثنايا الديوان الا أنها حققت أهداف التكرار في اللغة ، والتي على رأسها توكيد الفكرة التي يريدها الشاعر ولفت انتباه المتلقي اليها بذلك النغم الموسيقي الذي يحدثه التكرار ويعلق من خلاله بذهن المتلقي وذاكرته ويحدث رجعا في أعماقه ، اذ يمثل التكرار لونا من الوان التنويع الفني ، ويحقق لونا من الايقاع الموسيقي أقرب الى الغناء (1) لما فيه من تجاوب مع النفوس .

---

1 - محمد عبد المطلب البلاغة والاسلوبية ، ص 220 - 224 .

وللمنفصلة الى تلك المناجاة وذلك العتاب العذب الذي وجهه اقبال الى قلبه الذي تجاوز عتمة الطين وانطلق الى حمى المعشوق الأزلي تاركا الجسد وحيدا ولكن هذا القلب وان تسامى مرة يعود ثانية الى التراب فينجذب اليه ويظل بين صعود وهبوط ، يقول :

- أيها القلب ، أيها القلب ، لقد انطلقت الى حماه ، وتركتني وحدي أيها القلب ، أيها القلب أنت تخلق لي الرغائب في كل لحظة ، أليس لك عمل آخر تعتني به (يشغلك) أيها القلب ، أيها القلب (1)

وهكذا يتردد ذلك النداء الحزين ، العاتب ، اللوام ، فيحس القارئ بمرجع الألم في أعماق اقبال مرسوما على تلك النداءات المتلهفة الظمأى المعاتبة الحانية .

ومثل ذلك مناجاته الدافئة لقلبه مرة أخرى ، وفيها شبه قلبه بالبحر حينا لسعته وبالسفينة آخر لاضطرابه وخفقانه الدائم ، وبالساحل آخر باعتباره موطن أمنه وراحته وسبب طمأنينة البشر ويقينهم ، يقول :

- قلبي ، ياقلبي ، ياقلبي ، بحري سفينتي ساحلي

أأنت الندى الذي سقط على ضريحي (قطرة ، قطرة) ، أأنت البرعم الذي نما من رمادي ؟ (طيني - ترابي) .(2)

هذا وقد اتخذ في بعض الاحيان من التكرار اداة لينفّس بها القارئ مما لا يرتضيه من المواقف ، منها ظاهرة التذلّل والخضوع أمام البشر ، فلم يكتف فيها بالتهويل بالكلب مع شدة وقعه وأثره في صرف النفوس وانما أضاف للتهويل بذلك الحيوان احدى تقنياته في التعامل مع أداته الشعرية وهي التكرار ، ليوسخ في النفوس ذلك الاشمئزاز ويرفعه درجات حتى يدفعها الى الاقلاع عما هي فيه ، يقول :

قد جعلته معنى العبودية عندي ، أحقر من الكلب ، فأنا ما رأيت كلبا يطأطئ الرأس أمام كسلب (3) .

ولعل أروع لوحة جاء فيها التكرار ابداعا ووشيا هي تلك اللوحة من الكلمات التي ترجم بها اقبال لوحة أخرى من الطبيعة الكشميرية رآها في فصل الربيع وقد لونتها قدرة الخالق المبدع .

رأى من حوله جنات الحدائق الواحدة تلو الأخرى كالقوافل ، ورأى أمواج النسيم تتساوى بعضها خلف بعض ، ورأى طيور الربيع أسرابا أسرابا فتراءت له هذه

---

1 - رسالة المشرق ص 202 (المعنى المكرر هو : أي دل - اي دل ، أي : أيها القلب ، أيها القلب)
2 - رسالة المشرق ، ص 223 (المعنى المكرر هو: دل ما - جك . اي : قلبنما ، قطرة) .
3 - رسالة المشرق ، ص 304 .

اللوحات قوافل جاء بها الربيع يتبع بعضها بعضا قافلة الشقائق وقافلة النسائم العذبة ، قافلة الطيور ، قافلة الحمائم والزرازير ، أمام ذلك المنظر أبى اقبال الا أن يكرر تعبيرا عن سروره وانتشائه تلك اللوحة ويعيد رسمها ولكن هو رسم بالكلمات جاء منسجما الى حد بعيد والمشهد الماثل أمامه :

خذ الطريق الى كشمير وتأمل الجبال والتلال والأودية ، وتأمل خضرة الدنيا الدنيا وشقائق الخمائل الخمائل .

تأمل رياح الربيع أمواجا أمواجا ، وطيور الربيع أفواجا أفواجا ، واليمام والزرازير تعزف الالحان أزواجا أزواجا .

أسكب الخمر في الكأس واضرب على طبلك بالعود ، وانظر الى قوافل الربيع فوجا فوجا (1).

والى جانب هذا التكرار المألوف الذي يتردد في البيت الواحد ، فهناك تكرار آخر عرفه الشعر الفارسي هو أقرب الى التكرار الموسيقي منه الى التكرار كظاهرة لغوية وأعذب ما حقق ذلك تلك الترديفات(2) التي رافقت بعض قصائد وقطع الديوان فأضفت عليها صورة صوتية مميزة ساعدت عليها نظام الجملة الفارسية التي كثيرا ما تنتهي بفعل أو رابطة ، فلو حدث ذلك التكرار الصوتي المرافق لكل بيت من أبيات القطعة المردفة في القصيدة العربية لعد ذلك عيبا وقصورا من الشاعر وعجزا في ديوانه الشعري، ولكنه في الشعر الفارسي يعطي القصيدة أبعادا جمالية خاصة، ثم أن الخاصية التي امتازت بها الجملة الفارسية في تأخير الفعل تعلل كثرة اعتماد اقبال في ترديفاته على الافعال والرابطات أكثر من غيرهما سواء الرابطة المثبتة أو المنفية ، التامة والمخففة والمصرفة مع الضمائر ، وهذه أشكلة لها في لغتها الفارسية التي بها يظهر رونق ذلك التكرار وصداه :

خاكيم وتند سير شال ستاره ايم — در نيلگون يمى بتلاش كناره ايم
بود ونبود ما ست زيك شعله حيات — ازلذت خود ى چو شرر پاره ايم
يا نوريان بگوكه زعقل بلند دست — ما خاكيان بدوش ثريا سواره ايم
در عشق غنچه ايم كه لرزد زباد صبح — در كار زندگى صفت سنگ خاره ايم
چشم آفريد ، ايم چو نرگس درين چمن — رو بند بركسا كه سراپا نظاره ايم (3)

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 302 ـ 303 .
2 ـ الترديف : تكرار كلمة أو عبارة بعينها في آخر الابيات . (فنون الشعر الفارسي ، ص 343) .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 348 ـ 349 .

والمعنى : نحن من طين جبلنا ، ولكننا في سرعة السير مثل النجوم ، نطلب الساحل في خضم بحر أزرق .

وجودنا وعدم وجودنا هو من شعلة الحياة ، انها لذة الذات التي فرقتنا قطعا قطعا كالشرر .

قبل لأولئك النورانيين (الملائكة) نحن من طين ، ولكن قد تسامينا بالعقل فأمسكنا الثريا والنجوم .

نحن في العشق كبرعمة ترتعد من ريح الصبا ، أما في الحياة اليومية (العادية) فمثل الصخور .

قد خلقنا في الروض أعيننا ناظرات مثل النرجس ، فارفع الحجب عنا ، اذ كلنا أعين ناظرات.

تیر و سنسان وخنجر شمشیر م آرزوست — بأمن میاکه مسلك شبیر م آرزوست
ازبهر ٦ شبانه خسانندوزیم نگر — با زایـن نگرکه شعله درگیرم آرزوست
گفتند لب به بند و اسرار ما مگو — گفتم که خیر ا نعرهٔ تکبیرم آرزوست
گفتند هرچه در دلت آید ز ما بخواه — گفتم که بی حجابی تقدیر م آرزوست
ازروز گار خوش ندانم جزایـن قـدر — خوایم زیاد رفته وتعمیرم آرزوست
کوآن نگاه نازکه اوّل دلم ربود — عمر تدرا زیاد همان تیرم آرزوست (1)

وقال مردّفا بالرابطة است :

سوز سخن زنالهٔ مستانهٔ دل است — بین شمع رافروغ زپروانهٔ دل است .
مستیّ نگیم وذوق فغانی نداشتم — غوغائی ساز گردش پیمانهٔ دل است
ایـن تیره خاکدان که جهان نام کرده‌اند — فرسوده پیکری زصنم خانهٔ دل است.
اندر صدف نشسته حکیم ستاره بین — درجستجوی سرحدِ ویرانهٔ دل است .(2).

وأما الرابطة منفيـة فمن ذلـك قولـه :

در جهـان دلِ مادورِ قمر پیدانیست — انقلابست ولی شام وسحر پیدا نیست
واثـی آن قافلـه کزدونی همت میخواست — رهگذا ری که درو هیچ خطر پیدانیست
بگداز عقل ودرآویز بموج یم عشق — که درآن جوی تنك مایه گهر پیدانیست
آنچه مقصودِ تگ وتازِ خیالِ من وتست — هست دردیده وماننـد نظر پیدا نیست (3

وكذلك قولـه : خواجـه نیستکه چون بنده پرستارش نیست — بنده نیست که چون خواجـه خریدارش نیست .
گرچه از طور وکلیم است بیانِ واعظ — تاب آن جلوه بآئینهٔ گفتارش نیست .
پیر ما مصلحتا رویبجاز آورداست — ورنه بازهره وشان هیچ سروکارش نیست

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 326 ـ 327، والمعنى : تمنيت السهم والسنان والخنجر والسيف ، وأطلبي ألا تصحبني لأنني سلكت طريق الحسين .
تأطلبني وأنا أجمع القش لعشي ، ثم انظر كيف أطلب النار التي تحرقه .
قالوا (لي) : احفظ لسانك ولا تبح بأسرارنا ، فقلت : حسنا اني أريد أن رفع صوتي مكبرا .
قالوا : أطلب منّا ما تريد ، قلت : اني أحب أن أرى قدري بلا حجاب .
لأنني لا أعرف من عمري سوى هذا القدر ، غادرت أحلامي ذاكرتي وها أنذا أطلب تفسيرها .
أين تلك النظرة الفاتنة التي اختطفت قلبي لأول مرة ، لتعمر طويلا . أما أنا فانني أتمنى ذلك السهم الذي يودي بحياتي .

2 ـ رسالة المشرق ، ص: 341 ، والمعنى : ما نحن إلا حفنة طين لا تملك شوق الألم ولا الحزن ، وغوغاؤنا وضجيجنا هي من دوران كؤوس قلوبنا الظمأى .
هذا التراب المعتم المسمى بالدنيا ، هو بقايا جسد من معبد القلب.
لن يبلغ بحثه وتفتيشه حدود القلب أبدا ، ذلك الحكيم الفلكي البعيد النظر الجالس للترصد .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 340 ، والمعنى : لا وجود للقمر الدوار في دنيا قلوبنا ، هي دنيا متقلبة ولكن لا وجود فيها لصبح أو مساء .
وا أسفاه على القافلة التي تطلب فتور الهمة وضعفها ، هي تجتاز طريقا ليس فيه من خطر .
فتجاوز العقل ودعه وتعلق بموج بحار العشق ، اذ لا يوجد في هذا النهر الفقير جواهر قط .
ذلك الهدف الذي يقصده خيالي وخيالك ، هو على باب أعيننا ولكنه مثل العين لا يمكن أن يرى .

دل به او بند وازین خرقه فروشان بگریز نتوی صید غزالی که زنانار ش نیست .
نعمهٔ عافیت از بربط من می طلبی ؟ از کجا بمرکشم آن نغمه که درتا رش نیست
دل ما قشقه زد ویرهمتما کردوی آن حنان کرد که شایسته زنارش نیست .
عشق در صحبت میخانه بگفتار آید زآنه در دیروحرم محرم اسرارش نیست .(1)

وأما التردیف بالافعال فنذکر منه قوله :

دانهٔ سبحه به زنار کشید ن آموز گر تنگاه تودو بین است تدیدن آموز .
بازخلوت کدهٔ غنچه بیرون زن جوشمیم با نسیم سحر آمیز ووزید ن آموز .
آفرید نداگر شیم بی مایه قسرا خیمز وبرداغ دل لاله چکید ن آموز .
اگرت خار گل تازه رسی ساخته اند بیارس ناوس چمن دار وخلید ن آموز
بباغبان گرز خیابان تو برکند ترا صفت سبزه دگر باره دمید ن آموز .
تا تو سوزنده تر وطبع ترآتشی بیرون عزلت تخم کدهٔ گیر ورسید ن آموز .
در بتخانه زدم صبح بجسکانم گفتند آتشی در حرم افروز وتپید ن آموز (2) .

وأما ترديفه بفعل منفي فنقتطف قوله :

بی تواز خواب عدم دیده کشود ن نتوان بی تو بود ن نتوان ، باتو نبود ن نتوان
درجهات است دل ما که جهانند رد ل ماست لب فرو بند که این عقده کشود ن نتوان
دل بیاران زنواهای پریشانم سوخت من ازان نغمه تپیدم که سرود ن نتوان

---

1 — رسالة العشق ، ص 346 — 347 ، والمعنى :

ـ ان يتحدث الواعظ عن طور سينا ويبين ، فان كلامه خال من حرارة التجلي والظهور .
ان يصلح شيخنا ، فبوجه مجازي يصلح لأنه لم يحظ أية أهمية للجمال الطاير .
صل قلبك به واشعل النيران في تلك الخرقة ، ولاتقصد غزالا ان لم يكن تتريا .
أتطلب من عودي ان يعزف ألحان السلامة والنجاة ، وكيف يأتي بانغام لاتوجد في أوتاره
ثارت قلوبنا وصارت برهمية ، الا أنها لم تظهر مع هذا جدارتها بذلك الحزام .
للعشق كلام لايحضره الا في صحبة ندامى الحان خمارة الدير والحرم ليسا محرط لأسرا

2 — رسالة العشق ، ص 327 — 328 ، والمعنى :

ـ تعلم سحب حبات المسبحة على خيط الزنار ، وان كانت عينك ترى اثنين فتعلم ألا ترى .
تحرر مثل أريج كان سجينا بقلب البرعمة ، وتعلم التموج واختلط بنسيم السحر .
ان كنت قد خلقت بلا قدرة مثل قطرة الندى ، فانهض وتعلم كيف تقطر على قلب
الشقائق الظامئ المحترق .
ان تقتلع من أعماق التراب ، فكن حارس قوانين الرياض والبساتين وتعلم الايلام بأشواكك .
وان ألقاك حارس البستان في الصحراء بعيدا ، فتعلم التنفس والظهور من جديد مثل
الاشجار التي تتجلى أشد احتراقا وتألما ، اختر عزلة معبد وتعلم بلوغ النضج .
فالى متى وأنت تحلق تحت أجنحة الآخرين ، تعلم سلم الطيران وحيدا
في بهو الحديقة (الروض) .

ضربت على باب المعبد فقال لي صغار المجوس ، أو قد تارا في الحرم
وتعلم الخفقان .

ای صبا ازتنك افشانی شبنم چه شود　　تب وتاب از جگرِ لاله ربودن نتوان .
دل بحسن بتمد وگشادن زسلاطین طلب　　که جبین پردرایین بتکده سودن نتوان (1)

ومن تردیفه بالدعاء نقتطف قوله :

عرب از سر شك خونم همه لاله زار بادا　　عجم رمیده یورا نفسم بهار بادا
تپش اسپرندگانی ، تپش استجاودانی　　همه ذرّه هائی خاکم دلِ بی قرار بادا
نه به جادهٔ قرارش ، نه به منزلی مقامش　　دلِ من مسافرِ من که خدا س یار بادا
جذ راز خرد که بندد همه نقش نامرادی　　دلِ ما برد بسازی که گسسته تار بادا
تو جوانِ خام سوزی ، سخنم تمام سوزی　　غزلی که می سرایم بتو ساز گار بادا
چو پریشانِ من دراشی دگر آرزو نه بینی　　گمر ایین که شبم تو یم بی کنار بادا
نشود نصیب جانت که دمی قرار گیرد　　تب وتاب زندگانی بستو آشکار بادا (2)

وقليلا ما يأتي التذييل في الاسم لا الفعل أو الرابطة ، مثل قوله :

مثل آئینه مشو محو جمالِ دگران　　ازدل ودیده فروشوی خیال دگران .
آتش ازادهٔ مرغانِ حرم گیروسوزان　　آشیانی که نهادی به نهالِ دگران
در جهان بال وپرخوش کشودن آموز　　که پریدن نتوان باپروبالِ دگران
مرد آزاد م وآن گونه غیور م که مرا　　می توان کشت بیك جامِ زلالِ دگران .

---

1 — رسالة الشرق ، ص : 336 — 337 ، والمعنى :
— الانبعاث من نوم العدم بدونك مستحيل ، والوجود من غيرك مستحيل والعدم من غيرك مستحيل .
قلوبنا (نابضة) في هذه الدنيا ، لأن الدنيا في قلوبنا ، لاشيء يمكن أن يقال ، فحل هذه المعادلة مستحيل .
احترقت قلوب الاصدقاء من الحاني المضطربة الحائرة ، أما أنا فتمزقت من تلك الالحان التي غناؤها مستحيل .
ايه يا نسيم الصبا متى ينتشر من قضره الندى ، فان اضطراب قلب الشقائق واحتراقه وزوال كيفه مستحيل .
صل قلبك بالحسن (الرحمن) ولا تسجد أمام السلاطين ، لأن السجود على عتبة المعبد المتهدم مستحيل .

2 — رسالة الشرق ، ص 349 — 350 ، والمعنى :
لتجعل العرب من قطرات دمي حقل شقائق ، وليجعل العجم (الفرس) من أنفاسي ربيعا .
الحياة خفقان واضطراب ، خفقان أزلي ، فلتكن كل ذرات ترابي قلبا خافقا بلا قرار .
ليكن قلبي مسافرا وليمرعه الله ، ليرحله في طريق وقوف وليرحله في منزل اقامة .
احذر العقل الذي لا يرسم الا كل مأمول (كل صور اليأس) ، مزقت الحانه قلوبنا ، فلتحترق أوتاره .
أنت شاب غير مجرب ، وكلامي شعلة تشعل فيك حريقا ، وليصنع الغزل الذي أنشده فيه فتاغما وانسجاما .
ان تتوغل في روحي ، فانك لن تجد آمالا أخرى لتطلبها ، فعسى أن تصير قطرة ندى هذه ، بحرا عريضا بلا حدود .
ولتحرم روحك من الهدوء والاستقرار ولو للحظة واحدة ، وليتجلى لك احتراق الحياة واضطرابها .

ای کـه تـزدیـت تـراز جـانـي وپـنـهـان زنگـه هجـر تـوخـوشـتـرم آیـد ز وصـال دگـران (1)

واحیانا یـردف اقسال قصیدته بجملة کاملة لخفتهـا نحـو نـه تـودار ی ونـه مـن في قوله :

هـوس منـزل لیلـی نه تـودار ی ونـه مـن جـگـر گـر مـی صحـرانـه تـودار ی ونـه مـن

مـن جـوان سـاقـی وتـو پـیـر کهـن میکـده بـزم مـا تشـنـه وصهبـانـه تـودار ی ونـه من

د ل ودیـن در گـرو زهـره وجـان عجمـي آتـش شـوق سلیمی نـه تـودار ی ونـه من

خـز في یـود کـه از سـاحـل دریـا چـیـد یـم د انـهٔ گـوهـر یکتـانـه تـودار ی ونه مـن

بـه کـه بـانـور چـراغ تـه دامـان سـا زیـم طاقـت جـلوهٔ سینـا نـه تـود ار ی و نـه مـن (2)

ولعـل هـذه أطـول قصـائده المـردفـة علـى الاطـلاق ،وأحیانـا یتـردد هـذا التکـرار الصـوتي المحذب في شـطـري القصیدة وفي صورة تـکـاد تکـون واحـدة ،فهـو في قصیدتـه "کتـاب القسمـة بیـن الرأسمـالي والاجیـر" وذلـك الحـوار الشیـق الذي أجـراه الاجیـر في القسمـة الضیزی یـردد في صـدر البیـت "آنِ تـو" وفي عجـزه "زآنِ مـن" یقـول :

غـو غـای کـار خانـهٔ آهنگـری زمـن گـلبـانـگ ارغـنـوانِ کلیسـا ازان تـو

تخـلـی کـه شـه خـراب بـروحـی نهـد زمـن بـاغ بهشـت وسـدره وطـوبـا ازان تـو

تـلخـا بـهٔ کـه د رد سـرآرد ازان مـن صهبـای پـاك آدم وحـوا ازان تـو .

مـرغـابـی وتـدر و وکـبـو تـرازان مـن ظـل هـمـا وسـهـمیر عنقـا ازان تـو

ایـن خـاك وآنچـه در شکـم اوازان مـن وزخـاك تابـه عـرش معـلا ازان تـو (3) .

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 344 ـ 345 ، والمعنى :

لا تکـن کالمـرآة تفنى في خطـاب الآخرين ، تـوّه عينك وقلبك عن خيال الآخرين وتفكيرهم .

خـذ من أنيـن طيور الحوم نارا ،واحرق عشك الذي أقمته على أغصان الآخرين .

وتعلم التحليق في الفضاء بأجنحتك أنت ، ذلك أنه لا يمكن الطيران بأجنحة الآخرين .

وتعلم التحليق في الفضاء بأجنحتك أنـت ، ذلك أنه لا يمكن الطيران بأجنحة الآخريـن

أنا حرّ وطيور الى حدّ كبيـر ، يمكن أن تقتلني الخمر الزلال الصافية ان شربتها في كؤوس الآخريـن .

أنت يا من هو أقرب الى الروح ولا أبعده ، هجرك عندي أحلى من وصال الآخرين

2 ـ رسالة المشرق ،ص 338 ـ 339 ، والمعنى :

لا أنت تملك هوى ليلى ولا أنا ، ولا أنت تملك احتراق القلب في الصحراء ولا أنـا .

أنا سـاق نـاشئ (شاب) وأنت شيخ الحان القديم ، جمعنا ظامئ ولكن لا أنت تملك الصهباء ولا أنـا قد رهنّا القلب والدين في حبّ غيد العجم وحسانهـم ، فلا أنت تملك نار الشوق الى سليمى ولا أنا

جنينا من ساحل البحر الحجارة ، فلا أنت تملك الجوهرة اليتيمة المتفردة ولا أنـا .

لا يمكن أن يقال حديث جديد في بلوى يوسف الضائع ، اذ لا أنت تملك غليان دم زليخا وخفق قلبها ولا أنا

كنا نور الصباح ، قد غطيناه بأستار ، فلا أنت تملك الجرأة على تأمل تجلّي النور في سيناء ولا أنـا .

3 ـ رسالة المشرق ،ص: 345 . والمعنى :

لي أنا صخب مصانع الحديد وأصواتها الدوية ، ولك أنت نشيد وتراتيم الكنيسة المرتفعـة .

لي أنا حقل النخيل أجنى خراج الملوك منه في عناء ، ولك أنت روض الجنة وأشجار طوبـا .

لي أنا العمارة المؤلمة لرأسي المنغصة لحياتي ، ولك أنت صهباء آدم وحواء الصافية المتلألئـة .

لي أنا البسط والدرج والحمام ، ولك أنت ظل العنقاء وريشها .

لي أنا هذه الأرض وكل الذي في بطنهـا ، ولك أنت كل الذي من التراب حتى العرش الأعلى .

والملاحظ أن جل هذه التوديعات جاءت في القسم الثالث من الديوان وهو الغزليات أما التكرار في المعاني فلو عدّد ذلك عيبا في الأدب ولم ينظر الى اختلاف الاساليب والصور لكانت أول رائحة نشتمّها في الديوان هي رائحة الفناء لاسيما ما تعلق بالمعاني الصوفية .

وتبقى هذه الظواهر النحوية وهذه التركيبات تدليلا على غنى القاموس الاقبالي ودليلا على تمكن الشاعر من أداته الفنية ، وذلك من أبرز سبل نجاح الاديب فنّيا ورساليا لأن ابلاغ ما يريد انما يحتاج الى نظم وتفاعل بين المفردات فهو لا يبتني بما يعرفه الكاتب أو الشاعر من الفاظ غريبة وحوشية نادرة الاستعمال أو مفردات غزيرة وانما يقوم على التأليف بين ذلك الدفق الهائل من المفردات في بساطة لبلوغ افهام المتلقين واقناعهم فنيا وعقليا وهكذا ننتهي الى وضع ايدينا على بعض اللمسات الابداعية لاقبال تجلّت أولاها في تعاملها الخاص مع القوالب الشعرية التي وسّع بها نطاق الشعر الفارسي وفك كثيرا من القيود التي فرضها عليه الدارسون والمنظرون ، وجعل البحور كلّها والاشكال الفنية والقوافي صالحة لكل الاغراض الشعرية فكل صيغة هي الاشكال التي ولج بواسطتها الى كل ما يعتلج بأعماقه وما يخطر بباله وما يريد التعبير عنه من لواعج النفس وهمومها وثورتها وحيرتها وقلقها على ما آل اليه انسان العصر الحديث من ضياع في عصر الآلة ، ونشوتها بالحب الالهي الصوفي وأفكار صوفية سابحة ، كما ولج بواسطة بعض القوالب الشعرية الى النقد الاجتماعي والفكر الفلسفي المعاصر الذي قد يصعب ايجاد لغة للتعبير عنه فما بالك نظمه وسبكه في أبيات من الشعر .

كانت لفن الرباعي الحظ الاوفر لملاءمته طبيعة الشعر الفارسي الذي كثيرا ما جاء على شكل وحدات كل منها مستقل بفكرة خاصة ، فقد سهلت هذه الرباعيات على اقبال التنقل من موضوع الى آخر ومن فكرة الى أخرى مادامت الرباعيات مستقلة عن بعضها حتى في القافية ، لذلك رأيناه في رباعياته بين الغزل والمدح والحكمة والتصوف والفلسفة ويجعل من تلك الاشطر الاربعة وذلك الاناء الصغير وعاء لافكار عظيمة ، ثم أن لفن الرباعي صداه في الشعر الفارسي مما جعله يتفاعل وثقافة اقبال ويمتد الى موروثه الثقافي وينفذ الى أعماق نفسه .

يأتي بعد الرباعي فن الغزل الذي نظمت فيه آثار أدبية كثيرة ، وبرز فيه شعراء اعطوه حيزا واسعا من دواوينهم أمثال الخاقاني والانوري والعطار ، بل ان ديوان العطار يكاد يقتصر عليه ، وفي غزليات الديوان يبرز النسق والروح الاقبالليين رغم

شأنه فيها بكبار روّاد هذا الفن، فهو وان احتفظ للغزليات ببعض كلاسيكيتها من حيث الاوزان والقوافي والتخلص، بل وحتى العناوين (الخمر الباقية ...) فان ذلك لم يمنعه من رسالته تجاه عصره من هداية ونصح وبناء ، وبذلك تجاوز ما وقف عنده المتصوفة اذ لم تقل أسمى مما وصلوا اليه ، يقول

تنظر تك قاصرة وعقلك عاجز ، ودعاؤك لايستطيع أن يصل سوى الى دعاء كليم الله موسى وصلواته (50).

ففي غزلياته جاء بمضامين بكر وعالج مواضيع بكرا لم تكن الغزليات أداة لها كالفلسفة والحياة بكل روافدها والانسان بخبايا نفسه وانفعالاته ، بل أنه اتخذ من ذلك الفن الرقيق الذي لم يخرج عند القدامى عن العواطف الانسانية ولواعج الاشواق وأغوار القلوب الا نادرا ، لسانا وأداة انتقد بهما ما في عصره من مفاسد وأمراض.

وقد برز اقبال في فن القطع نظرا لتحرره (أي فن القطعة) فهو أبيات قليلة تزيد على البيت وتقل عن الثمانية أبيات ، وهي بقلة أبياتها وعدم تقيدها بشكل وقاعدة تصبح أصلح من غيرها لحمل ما يجول بأفكار الشعراء ، وكلما استطاع الشاعر أن يكون عدد الابيات المعبّر بها في القطعة قليلا كلما حسن ذلك حتى لاتشتت قضاياها وتتشعب ، وربما كانت القطعة من الفنون المناسبة لفكر اقبال وانشغالاته وأغراضه اذ طرق بواسطتها ما هو أقرب الى الحياة وفتح سبل التفكير أمام القراء بتركيزها واختصارها .

كما كان لفن المثنوي وزنه في الديوان ، واذ اختاره الفرس لنظم القصص الطويلة نظرا لاستقلال كل بيت في قافيته فان اقبال لم يركب بهما البطل الذي عرفته وانما جمع بين الأمرين فكانت أطول مثنوياته المكونة من واحد وثمانين بيتا ، الا أنها قسمة الى مثنويات جزئية ستة . أما ماعداها من المثنويات فقصير ، وقد خالف اقبال القدامى في مثنوياته وجعل بعضها وسيلة للانتقاد مثل انتقاده للفلسفة ولبعض النظم الحديثة .

أما الفنون الأخرى فقليلة التردد في الديوان بما فيها القصيدة بتمكنها في الأدب الفارسي. فلم نجد في الديوان الا ستة قصائد ، ولم يتجاوز عدد سطراتها الخمسة . كما لم نجد في الديوان الا ترجيعا واحدا وأربعة ترکيبات ومستزادين .

وان قلة هذه القوالب الفنية في الديوان انما هي تبع لقلتها في سائر دواوين الشعر الفارسي باستثناء القصيدة لأن ما فيها من ضوابط وقيود شكلية يصرف الشاعر عن الاهتمام بما يمكن التعبير عنه ، وذلك ما حدا باقبال الى الاقلال منها وان لم يخضع للشابات من قواعدها وانما أخضعها جميعا لابداعه وتجدده . هذا وقد عبّر الديوان على الثروة اللغوية الهائلة التي تمتع بها اقبال ، اكتسبها من اللغة الفارسية التي رآها الوحيدة القادرة على ايصال بنات أفكاره وابداعاته ، مع أنها تبقى لغة مكتسبة

فـــــــان حبّه لهما وذوقه الرفيع جعلـه يبتدع فيهما جملا ويبتكر استعمالا تلغوية وتراكيب جديدة هي دليل سيطرته المدهشة على أداته كما اكتسب تلك الثروة اللغوية من الأردية اللغة النسانية في القاموس الاقبالي والنسانية في الابداع الاقبالي أيضا .

كما اكتسب من اللغة العربية بدورها ثروة لغوية وزادا أضفى به على أعماله الشعرية الفارسي منها والأردي رونقا يزينها ، فهي لغة القرآن الذي طالما جلس اليه اقبال وقد حمل الديوان موضوع دراستنا لمسات من جمال أضفتها تلك التركيبات العربية . والواضح أنها ليست من قاموس اقبال العربي بحكم تعلمه العربية فحسب وانما هي من قاموسه الفارسي الاردي بحكم اتصالهما بالعربية والحرف العربي .

أما المفردات العربية التي تخللت الديوان فانها نادرا ما تأتي عربية خالصة كالجموع نحو أممٍ أنهم ... وأما غيرها فقد خضع لقواعد الكتابة الفارسية فستحت تاءات بعضها وقلبت اخرى هاءات واسقطت من بعضها لامات التعريف وأضيفت الى أخرى ياءات اضافة فارسية أو ياءات تنكير أو ضمائر فاعلية أو ملكية ، وكثيرة هي المفردات التي يعرف القارئ عربيتها وان أضيفت اليها حروف أو كلمات فارسية وان قلبت بعض حروفها .

كما كانت التركيبات العربية الخالصة قليلة اذا ما قيست بغيرها من تركيبات خاضعة لقواعد اللغة الفارسية ، بل ان تلك العربية الخالصة لا يخلو بعضها من كسرة اضافة أو نهاية ساكنة كما لا تخلو بعض مفرداتها من سقوط تعريف ، وربما كان أكمل نموذج للتراكيب العربية تلك المستقاة من القرآن الكريم والتراث العربي نحو : (تسوارت بالحجاب ، صاحب أم الكتاب ، ربّ زدني ، يسفك الدماء خصيم مبين ، عدل فاروقي ، وفقر حيدري ، طوفان جمال ، هو من منزل ليلى ، بربط سليمى ...) هذا وفي الديوان ما يمكن تسميته هنديات اقبال ، هو متأثر فيها بالكتابة الاردية وغيرها من لغات الهند ولهجاتها . والى جانب هذه الثروة اللغوية التي تمتع بها اقبال فانه يلاحظ في الديوان قدرته على التحكم فيها دون أن يخضع لغزارتها فيتيه بينها وتلتوي معانيه ، وربّما كانت أبرز صورة لذلك التحكم ظاهرة الترادف وظاهرة الاضداد .

فليس الترادف تكرارا للفظة السابقة وليس تكرارا للمعنى السابق ، وان مترادفات كثيرة تقع موقع الاستخدام المجازي ولو كان الترادف تكرار وعيبا لما زخرت به اللغات ، فقد يغلو المعنى أو يذهب الشاعر في تأويله بسبب مفردة معينة ، حتى اذا نظروا الى ما بعدها من مترادفات تجلّت غاية المتحدث وزال اللبس فقد تأتي المرادفة اذن شارحة لما قبلها أو مكملة معناه أو مؤكدة له أو مضيفة اليه معان جديدة لا تتحقق إلّا بها ، والملاحظ ان اقبال استعان في هذا الديوان بمترادفات كثيرا ما تأتي مجتمعة في الاساليب

الفارسية لاسيما منها المصطلحات الصوفية ، مثل (هماى وهو ـ سوز وساز ، تب وتاب تب وسوز) وان معظم مترادفاته كانت اداة لتوضيح بعض المعاني الصوفية التي لاتدعو الى التواكل والاستكانة وانما العمل ، فهذه الفراشة رمز الكفاح في سبيل من تهوى لاظله شيئا وهي تعلم أن مآلها الى رماد سوى أنس ليلة قيل ذلك المآل :

ـ انثر رمادي وقت السحر ، ولكن امنحني حرقة (اضطراب) وأنس ليلة من قبل (1)

وفي ذلك تعليم للناس كيف يحبون ربهم وكيف يتوقون الى السكن اليه ومناجاته وكيف يتفانون في سبيل ذلك .

ومثل قوله : اين أجد الآهة التي تحرق الروح واين أجد الدمعة التي تذيب القلب؟

... سأنسرب الكأس بحبر واحد وأحل عقد العقل (2)

وانا نجد أحيانا تدرجا عجيبا في مترادفات اقبال يكون احيانا تصاعديا وأخرى تنازليا بحسب تفاعله مع فكرته ، يقول على لسان آدم بين يدي ربه يوم الحشر ، وعلى لسان الانسان بصفة عامة :

فان أبعدني السحر عن طريق الصواب ، فتجاوز عن خطيئتي وتقبل العذر عن ذنبي ومعاد فالخطأ مالم يتعمد والذنب هو الاثم وبذلك تدرج اقبال في معانيه تدرجا تصاعديا .

وانما اعتبرت مترادفات تشير الخطيئة بالذنب والذنب بالمعصية (3) لما بينهما من صلات .

ويقول : ماطبيعة اللا صبر والضجر (5) . فمن الملاحظ أن الضجر نتيجة تالية لانعدام الصبر ومترتبة عنه ، ولن يظهر ضجر مع صبر .

كما يظهر التدرج التنازلي في مترادفاته بأجلى صوره في قوله مقارنا بين العقل والقلب . الاول ينظر من ذلك الجانب الخفي المستور فيرى ظنا وشكا واحتمالا (6) .

فالشاعر يتدرج نزولا من الظن الذي فيه الترجيح واليقين لفكرة على اخرى الى الشك أين يلتبس الأمر على صاحبه الى الاحتمال الذي يتيه فيه بين أوجه مختلفة واحتمالات كثيرة للقضية الواحدة لايدرى أيها يرجح ، فقد جاء في لسان العرب أن الظن شك ويقين غير أنه ليس بيقين عيان ، انما هو يقين تدبر ، في حين أن الشك ضد اليقين أما الاحتمال فيكفي مافي عالم الرياضيات من احتمالات وأوجه تتيه في تعدادها العقول .

وأحيانا يتدرج في مترادفاته من المعنى الشامل الى الجزئي أو العكس ، من ذلك قوله :

لو تتأمل وتنظر فان الحياة ليست سوى رياء ، كل من كان فيها مصافيا صادقا وفيا فهو عدم (7)

---

1 ـ المترادفة هنا هي ساز وسوز . رسالة المشرق 202 .
2 ـ المترادفة هنا هي : تاب ـ گداز . رسالة المشرق ، ص 332 .
3 ـ رسالة المشرق ، ص 258 .
4 ـ انظر لسان العرب .
5 ـ رسالة المشرق ، ص 27 .
6 ـ رسالة المشرق ، ص 360 .
7 ـ رسالة المشرق ، ص 383 .

فالمصافاة أوسع من الصدق ومن الوفاء وأشمل منهما ولكنها مع هذا تبقى احدى اسبابهما ويبقى الصدق والوفاء من نتائجها البارزة ،ومرة أخرى يبدأ بالجزء والنتيجة التي هي الصدق الى المصافاة التي هي أعلى درجة منه

ما دعوى الصدق والمصافاة الا ستار وهدف خفي الى ناموس الرئاسة ،فهذا شيخنا يقول لنا يجب أن يلبس النحاس بالفضة . (504).

هنا الى جانب ما في المترادفات من جمال ،وان المترادفة تؤازر معنى مرادفتها فيرسخ بها في القلوب والافهام ويتضح بها .

ومع هذا تبقى مترادفات اقبال قليلة في الديوان اذا ما قورنت بفلسفته وبراعته في الجمع بين الاضداد ،وربما كان ذلك منه بدافع البعد عما قد يتهم به من قصور .

فقد كان لاقبال فلسفته الخاصة في الجمع بين المتقابلات التي طالما افتخر بها ،وهي الفلسفة التي استقاها من مظاهر الكون وطبيعة الحياة ،وربما رجحنا بداية هذه الفلسفة الى منطلق ديني هو الصراع بين الخير والشر الذي كثيرا ما جسده اقبال في صراع الانسان والشيطان لاسيما في قصيدته "تسخير الفطرة" لتمتد تلك الفلسفة الى الكون وما فيه من تآلف أضداد ،فالشاعر يرى من حوله الخير والشر ، الليل والنهار ،النور والظلام ،الحق والباطل ،الميلاد والموت ،القوة والضعف ،فيرى فيها لوحات فكرية حية وطبيعية كل منها يؤدي دوره المنوط به دون أن يزيغ عنه ، بل ان تلك الاضداد تتآلف فيما بينها لتقوم صورة صادقة لاحدى سنن الله في الخلق وكما تنقل بعضها ريشة رسام فتتفاعل فيها الالوان بما تحمله بدورها من تضاد ،تنقل بعضها الآخر أقلام الادباء ،وربما صور قلم الاديب معظمها اذ لا تعجز الاضداد المعنوية عن التعبير كما تعجز الرسام ،وفوق هذا فان كثيرا من المعاني ما لا يعرف وتكشف حقائقه الا بضده .

وقد تجلت عبقرية اقبال في التأليف بين الاضداد في الاثواب المختلفة التي ألبسها ، فهناك متقابلات تامة جمع فيها بين اللفظة ومقابلتها وجاءت بدورها في اشكال مختلفة منها ما تقابل فيه اللفظة الفارسية بمقابلتها الفارسية وما قابل فيه بين فارسية وأخرى عربية أو العكس ،وأحيانا يكون طرفا المقابلة كلمتين عربيتين ،مرة يكون شقاهما مفردين أي كل منهما عبارة عن كلمة واحدة ومرة يأتي الطرف الاول مركبا من أكثر من كلمة والثاني مفردا أو العكس ، وأحيانا يركب الطرفين فينتج عن ذلك متقابلتين فرعيتين وأحيانا يأتي بالكلمة ومقابلتها ثم مرادف المقابلة فتتحقق مقابلتان أيضا ،هذا فيما أسميناه أضدادا تامة ، أما الاضداد الناقصة فهي تلك التي اعتمد فيها اقبال على المقابلة بين لفظة مثبتة في طرف وأخرى منفية في الطرف الآخر .

أما ظاهرة التكرار في الديوان فقليلة اذا ما قورنت بالمترادفات أو الاضداد ولكنها مع قلتها وصلت بإقبال الى جلّ غايات التكرار من توكيد لبعض المعاني ، وتحبيب لاشياء وتفسير من أخر ، الى الانغام الموسيقية والترجيعات الصوتية المحببة الى النفس والتي الى جانب المتعة الفنية تدفع بالنفوس من حيث لا تدري نحو الغايات التي يريدها الشاعر .

والى جانب تلك التكرارات هناك ظاهرة فنية في التكرار يعرفها الشعر الفارسي ، وهي ظاهر الترديف ، فقد رافقت بعض قصائد الديوان فأعطتها رونقا وجمالا وبنت لها في النفوس قبولا واقبالا .

أخيرا لا يسعنا ازاء تجديد اقبال في ديوانه الّا أن نردد ماقاله الاستاذ عبد الوهاب عزام من أنه كانت له : " تركيبات لم تؤثر في الأدب الفارسي ، فقصاراه انه ابتكر عبارات في الفارسية ، والرجل له فلسفة مبتكرة وآراء مبتدعة روّض لها الشعر وذلّله ، فلا عجب أن يضع الفاظا مفردة لمعان محددة ، أو يحرفها عن معانيها قليلا ولا غرو أن يصوغ تركيبا أو تعبيرا يدعو لمعانيه المبتدعة ... ويزيد ، فخرا أنه نقل الفاظا من معان ايحائية مبتذلة تتصل بالخمر والسكر واللهو والخلاعة الى معان روحية عالية واسعة لا تحدها حدود المادة ... وفصل اقبال الاعظم وفخره أنه أودع اللغة الفارسية هذه الثروة من الفلسفة العالية والآراء السديدة وذللّها للشعر ، وما أعظم حظ اللغة التي يختارها اقبال لشعره ، فهل يؤاخذ على هذا الفيلسوف الشاعر أن خرج بألفاظ عن معانيها ... واخترع تركيبات غير مألوفة في الأدب الفارسي ، وهل عمل النابغين الّا الخلق والاختراع والتجديد والتصحيح في الافكار ... ثم في المعاني .... والالفاظ والاساليب " (1) .

---

1 ـ عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال ـ سيرته وفلسفته وشعره ، ص 174 .

الفصل السابع
البناء الداخلي لرسالة المشرق
(الصورة الشعرية)

أولا : طبيعة الصورة الشعرية ، وظيفتها و عناصرها .

ا- طبيعة الصورة الشعرية .
ب- وظيفة الصورة الشعرية وعناصرها .

ثانيا : الصورة الشعرية في رسالة المشرق .

ا- التصوير بالتشبيه .
ب- التصوير بالرمز .
ج- التصوير بالتراث.
د- التصوير بالقصة .
ه- تكامل عناصر الصورة الشعرية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : طبيعة الصورة الشعرية ، وأهميتها وعناصرها .

أ - طبيعة الصورة الشعرية : للشعر مناسكه (1) هي مقولة نستشف منها أن الشعر فن له خصائصه ومميزاته وله ضوابطه التي ترتقي به عن مجرد الكلام الموزون المقفى الى الكلام الموزون المقفى المعبر عن حالة نفسية ، والمصور لتموجات الحياة وكل مايخطر على البال . فتلك الأساليب الفنية التي مرت بنا وتلمست المواضيع المختلفة التي حواها الديوان ، لكي تحسب في الشعر لابد لها من معايير فنية ، تخولها الانتماء اليه ، ولا بد لها من مقاييس تمر بها لتعد في الشعر ، ولاتقف تلك المعايير عند الحالات الشاعرية الذهنية والتأملية وتصوراته الغروضية والموسيقية وانما تتعداه الى مايقدمه من عمليات خيالية بين أفكاره وصوره وأخيلته والفاظه ، يتشرف من خلالها آفاقا جديدة ويبني بواسطتها علاقة تكامل نفسية وروحية وفنية بين الذات والموضوع وبين اللغة والشعر الشعري والصورة الثقافي والواقع الاجتماعي . وربما كانت الصورة الشعرية الجامع لهذه العناصر والكاشف عن العلاقات الحميمة التي قامت بين عناصر الديوان وأجزائه ، بما تموج به من الوان وأضواء وظلال ورؤى مختلفة .

والأهم في الصورة الشعرية أنها بوطئت لتحقق بعد الفن عن الاساليب المباشرة يلجأ اليها الشاعر ليعبر عن أحاسيسه وانفعالاته بطرق التلميح والايحاء الخفيف البعيد عن التقرير ، الخاطب للقلب والفكر للروح لا للحواس وحدها . بل ان الصورة الشعرية "تفقد قيمتها اذا كانت الحواس وحدها هي التي تجيزها وتستحسنها" (3) ، فليست الصورة الداخلية النفسية الوسيلة الوحيدة التي إعتمدها شاعر العصر الحديث في تصويره الشعري ، فقد لجأ بعض الشعراء الى الأساطير واتخذوا منها وسيلة للتصوير الشعري ولجأ البعض الى التراث يستمد من رموزه ، وكثيرا ما يمزج هؤلاء بين الصور النفسية الداخلية وبين الصور التراثية والاسطورية أين يجتمع في النص الواحد أكثر من صورة .

ولا يعني هذا الدعوة الى الانتظام بالشعر الى برج عاجي بعيدا عن بواعثه التي هي الحياة ومايدور بين دفتيها ، كما لايعني الدعوة الى التسامي بالأدب بعيدا عن الواقع ، بقدر ما هو دعوة الى : "محاولة القبض على الواقع والسيطرة عليه

---

1 - الشعر : الوعي المعتاد ، يقع على العنصر والزمان والمكان ، ومنه سميت أمور الحج كلها مناسك ، ويقال : ان لفلان منسكا يعتاده ، وتسلك الرجل الى طريقة جميلة أو نسيجة ، دأب عليها (لسان العرب) .

2 - أبو سرحان المانع ، الموت والرثاء في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير مخطوطة ، معهد الدراسات الشرقية ، 1 - 1 ، ص 304 .

3 - عبدالقادر فاضل ظافر ، الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان الاردن 1983 ص58 .

... بلغة خاصة"(1) ، تستلهمن مما هو كائن لتتخطاه الى مايكون اذ تكمل نقائصه و تتفقد عيوبه وتكشف الخفي منه ، الذي لايقف عليه الا قلة من الناس ، لأن وظيفة رئيس الأدباء أن يلفت الانظار الى ما يستطيع أن يراه " ويخلق لغير مالم يعرف"(2) . ينتبه لهم مايعرفون كل عناصره ، كل أسبابه ، ولكنهم ساكانوا ليفقدوا ببصائرهم اليه كاملا .

فالواقع هو المادة الحية للأدب التي لايمكن التعبير عنها في صورة ذات فكر سديد و فن جيد الا اذا استطاع الاديب أن يقدم فنه بمواقفه في صياغة سليمة مؤثرة مقنعة ينطلق من الواقع لا ليصوره ويسجله بكل مافيه بقدر مايصور موقف الانسان وما اتخذه تجاه هذا الواقع ويصور نظرته الخاصة اليه وموقفه منه وردّ فعله عليه . فقد ينقل الينا اعجابه بظاهرة أو يصحح نظرتنا لبعض الظواهر أو ينقدها ، كل ذلك يأتي في صورة هي أقرب الى الاقناع الشعوري منه الى البرهان العقلي اذ لمثل هذا البرهان مجالسه .

والصورة الشعرية هي المعادل الفني للفكرة ، والشاعر المبدع هو الذي يحول المعادلات الذهنية الى تجارب شعورية (3) وهي مصطلح يتضمن جميع الطرق الممكنة لمساعدة فن التعبير الذي يمارسه الشاعر الاشياء.(4) وان أوحى المصطلح بدلالتها على كل مالديه صلة بالحواس فانه يضطرب في الدراسات المعاصرة مرادفا أحيانا للاستعمال الاستعاري ، وبذلك يكون التصوير مرادفا للتعبير المجازي(5) ومن الدارسين القدامى الذين ألمحوا للصورة عبد القاهر الجرجاني الذي قرب بين التصوير بالرسم والرسم بالكلمات ، اذ رأى أن وصف الشاعر لحالة معينة وعرضه لفكرة هو صورة ولكن أساسها الكلمات لا الالوان والظلال ، يقول : " فكما أن التصاوير والرسوم تعجب وتخلب وتسرّ وتؤلف وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن تمس رؤيتها ، ويستفاد بها ضرب من الفتنة لاينكر مكانه ولايخفى شأنه ، كذلك حكم الشعر فيما يضعه ويشكله من البديع ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها اجسام لطاف ... في صورة الحي الناطق ، والصوات الأخرس في هيئة الفصيح المعرب

---

1 ـ سامية عساف ، الدورة الدموية وتطورها في ابداع أبي نواس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط 1 1402 هـ ـ 1982م ، ص 11 .

2 ـ ت . س . اليوت ، دراسات في النقد والادب ، ترجمة عبد الرحمن ياغي ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط 2 1980 ، ص 124 .

3 ـ النقد التحليلي ، محمد محمد عناني ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص 58 .

4 ـ عبد الفتاح خالد نافع ، الصورة في شعر بشار بن برد ، ص 78 .

5 ـ المرجع نفسه ، ص 51 .

والمبين المتميز ،والمحدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد". (1)

فالصورة اذن لاتتأتى من الكلمة وحدها أو الفكرة وحدها وانما مأتاها من ذلك التأليف العجيب بين التراكيب والافكار والمشاعر والانفعالات النفسية والمواقف وبذلك يصبح معنى التصوير عند أديب معيّن هو القدرة على التعبير عن الحياة في نواحيها المختلفة ،بكل مافيها من تناقض وتوافق ،وهو القدرة على النفاذ الى اعماق النفس البشرية ليصوّرها في شتى انفعالاتها ،" فيستطيع بوضوحات مألوفة أن يوقظ في عقول الآخرين شعورا مماثلا أو قريبا منه"(2) .

وفي هذه الصورة تبني اللغة الشعرية مستمدة من معجم الحالات النفسية لا من معجم اللغة ،لأن الاديب يضفي عليها أبعادا وجدانية موحية تخلّصها من طبيعتها المعجمية المجردة الجامدة ، اذ لم تعد مهمة الاديب المحافظة والجمود على دلالة اللغة في المعجم بقدر ما هي بعث حياة جديدة في النّص الادبي (3). من كل هذه المقدمات تنتهي الى أن الصورة الشعرية في أجلى معانيها هي الرسم بالكلمات ، الرسم الذي تعطي فيه الكلمات ظلالا و ايحاءات وتبعث أفكارا ومشاعر وتضمر عقولا ووجدانات .

ب- وظيفة الصورة الشعرية وعناصرها :

سبق وان عرفنا أن الصورة الشعرية هي تصوير الواقع بكل مافيه من متآلفات ومتخالفات وأضداد ، والحياة بكل مافيها من ظاهر يقف عليه الناس جميعا وخفي لايتبيّنه الا قلة ، عليهم كشفه للناس . وهذه العلاقة الحتمية للأدب بالواقع هي التي تحدد وظيفة الصورة الشعرية .

وربما كان أول مايلفت اليه في الشعر وفي الفنون عامة هو الجانب الفني الجمالي لأن طلب الجمالية في الفن أمر ضروري بل هو أساس مافيه ،الا أن هذا الجمال لاينطلق من فراغ ولايعبّر عن فراغ .

فاذا كانت القصيدة تشكيلا جماليا للغة ذات الايقاع الموسيقي ،فانها أيضا تعبير عن موقف فكري يلتزم به الشاعر اذ " الوعي بحركة التاريخ المعاصرة والالتزام بقضايا تحرير الانسان عند أديب أصيل يمنحان الادب بلاغة متجددة " (4). ويضيفان عليه أبعادا جمالية أخرى ، فالشاعر الى جانب مسؤوليته تجاه الفن الذي يجب

---

1 - جابر أحمد عصفور ،الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ،دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، 1974 ،ص 340 .

2 - عبد الفتاح صالح نافع ،الصورة في شعر بشار بن برد ، ص 84 .

3 - طه وادي ،جماليات القصيدة المعاصرة ،دار المعارف ،ص 35 .

4 - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

ألا يخلّ بمسؤوليته الجمالية مسؤول أمام ضميره عن الفضيلة التي تناسبه كشاعر « انه يتبغي أن يحمل الحق والعدل في فكرة واحدة »(1)

وهكذا ننتهي الى أن الصورة الشعرية تجمع بين وظيفتين أساسيتين ، :

الوظيفة الجمالية والوظيفة الاجتماعية ، هدفها الاولى احداث المتعة الفنية فحسب ، والجمال فيها مقصود لذاته - وهي الفكرة التي استهوت الكيشيريود فعتهم الى الفن للفن وجعلتهم لايرون الجمال إلّا فيما تجرد من الاهداف ، قال تيوفيل جوتييه « لا وجود لشيء جميل حقا الّا اذا كان لافائدة له ، وكل ماهو نافع قبيح »(2) والحقيقة ان الجمال ليس مقصورا على ما يحيط به ، بل ان اختلاف معاييره من منطقة الى أخرى يقف دليلا على اتصاله الوثيق بالموروث الحضاري والثقافي والتاريخي لكل أمة من الأمم ، فالفن ليس مظهرا في الفراغ ولكن له أصوله الاجتماعية والسياسية ان العمل الفني ليس ترفا ولهوا ولا متعة مجردة من الغاية ، انه يتحول في الانسان وعيا وادراكا واحساسا وشعورا ، وانه « حقيقة لا وهم ووعي لاغيبوبة وصحوة لاسكر وانتباه لا خدر »(4) وبذلك يرتفع الادب ليصبح تعبيرا جميلا عن هموم واهتمامات الانسان ولكي تقوم الصورة الشعرية بهذه الوظيفة المزدوجة ، فانها تحتاج الى عناصر هي الدعامة الاساسية التي تقوم عليها ، وهي المحقق لمواصفاتها التي حدّدها الدارسو كالايحاء والعاطفة والخيال والرمز .

فالعاطفة من أهم معاني الصورة الأدبية والاساس فيها ، فلا ترتقي الصورة لأن تكون معيار العبقرية والابداع الفني الّا بقدر ما تكون محكومة بانفعال طاغ أو أفكار مصورة أو مشاعر أثارها انفعال ما (5) ، ولايعني ارتباط الصورة بالعاطفة ان الاديب يعمد الى تصوير كل مايتعلق بفكرة معينة من مشاعر ، وانما يعني تركيز الشاعر أو الأديب على لحظة شعورية معينة يسيطر عليها الفنان ويخضعها للصورة أو يجعلها محط على ماعداها من عواطف حتى رأى بعض الدارسين أن « الصورة مرادفة للاحساس »(6) ، الادب والفن عموما تعبير عن خلجات النفوس ، فحتى وان عالج شيئا من سبحات الفكر وتأملاته فانه يربطه بالاحاسيس ويقدمه على شكل تجارب عاطفية ولايمر النقد الحديث الصورة الادبية ناجحة الّا اذا حملت شحنة عاطفية فاذ « العاطفة تضفي على الفن ما في الرمز من خفّة هوائية »(7) ، ولكن الصورة لايمكن أن

---

1 - السن تيت ، دراسات في النقد والأدب ، ص 154 .
2 - عدنان علي رضا النحوي ، الأدب الاسلامي انسانيته وعالميته ، ص 246 .
3 - المرجع نفسه ، ص 240 .
4 - المرجع نفسه ، ص 230 .
5 - عبد الفتاح صالح نافع ، الصورة في شعر بشار بن برد ، ص 81 .
6 - محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الادبي بين القديم والحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت (د ت) ، ص 103 .
7 - عبد الفتاح صالح نافع ، الصورة في شعر بشار بن برد ، ص 79 .

تقوم على العاطفة وحدها ، فالى جانب العاطفة نجد الايحاء عنصرا أساسيا ودعامة من دعاماتها ، فكلما كانت الصورة ايحائية كلما ترفعت عن الابتذال وكانت أقوى وأبعد أثرا في الصور التقريرية الوصفية ، وكثير من الكلام لايحسب في الشعر اذا خلا من الايحاء لأن الكلمات الموحية تكون في النص أشبه بالصدى الذي يتبعث من صوت آخر يختفي وراءه ، وهي بذلك القدر تساعد الشاعر على نقل مايجول في نفسه ، كما تمهد له سبيل النفاذ الى قلب القارئ والسامع(1)، فتحرك فيهما الاحاسيس وتبعث فيهما الصور التي بواسطتها تتحقق الغاية من الادب ، والى جانب العاطفة والايحاء ، يأتي الخيال الشعري والرمز وسيلتين قويتين من وسائل الاديب في بناء صورة الاديبة .

فالخيال الشعري هو الذي يصهر الظواهر الخارجية فيحولها عن طبيعتها الى صور نفسية تتطاير ظلالا نفسية تنفتح عنها عوالم رحبة .(2) ، وهي ليست اختراعا لمعنى جديد من معاني الحياة لأن معاني الحياة ستبقى كما كانت بكل سننها ومعاييرها ، وانما هي "ابداع لهيئة جديدة للتعبير"(3) عن الحياة وقد ذهب ابن عربي الى أن الخيال هو أعظم قوة خلقها الله ، فلولا الخيال لما أمر النبي أحدا أن يعبد الله كأنه يراه" .(4).

وجوهر الفن عامة والشعر خاصة هو ابراز الحقيقة الكبرى التي يعتنقها الفنان وفي هذا الصدد يرى شلنج أن "وصول الانسان الى الحقيقة انما يكون بملكة الخيال" .(5) بل ويفترض أن كل صورة شعرية انما هي وليدة الخيال الشعري واذا عرفنا أن المقصود من ضرورة العاطفة في الصورة الادبية هو التركيز على عاطفة بعينها واعطائها الدور الاكبر والسيطرة على ماعداها من مشاعر وتغطيتها ، فان المحقق لهيمنة صورة أو عاطفة في قصيدة هو الخيال (6) ، وهو الملكة التي يتفاضل فيها الفنان عن الرجل العادي الذي ينظر الى ماحوله نظرة عادية بلا جديد أو جديد بالتأمل ، في حين يتمتع الفنان بقدر أكبر من ملكة التخيل والقدرة على التأثير بما يحيط به ، فهو قادر على أن يجد دائما جديدا وثيرا في الموضوع الذي يتأمله ومن ذلك فهو قادر على تحطيم ما القته العادة والتقاليد

---

1 ـ ياسين الايوبي ـ مذاهب الادب (معالم وانعكاسات) ، الجزء الثاني ، الرمزية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 1402 هـ 1982 ، ص 35 .

2 ـ ساسين عساف ، الصورة التعبيرية ونطاقها في ابداع ابي نواس ، ص 28 .

3 ـ خلف موزون ، النقد والدراسة الادبية ، دار النهضة العربية بيروت ، ط 1 ، 1402 هـ ، 1982 ، ص 120

4 ـ جابر أحمد عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، ص 60 ، وربما كانت نظرة ابن عربي الى الخيال هي الدافع الى انتقاده للفقهاء الذين يكتفون بالظاهر ولايولون أهمية للخيال .

5 ـ محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الادبي بين القديم والحديث ، ص 57 .

6 ـ المرجع نفسه ، ص 63 .

على الموضوع من حجب كثيرة مثلما رآها اقبال .

(حجب الحرب وعبادته ـ حجب الاستعمار ـ حجب الشعارات الانسانية البراقة ...)

ان الفنان بخياله الرحب ينظر الى أي موضوع كما لو كان ينظر اليه للمرة الاولى ، وتثار لديه من الاحاسيس مثلما يثار لدى الطفل الذي يتعرف على الشيء الاول مرة(1) فيثيرها بدوره في متلقي ابداعه ويلفت انتباهه الى اشياء طالما رافقته في حياته اليومية فعاد تلتقان معاً تأطره .

ولا غنى لأي شاعر أو اديب أو فنان عن الخيال ، لأنه القوة التي بها يستطيع التوفيق بين المتناقضات ، وبها يصنع صورة واحدة تختفي وراءها كل المتناقضات المكونة لها . فهو وان جمع صوره من الطبيعة والكون بكل مافيه والحياة ، فانه لا يقف عند مجرد التجمع للعناصر بل يتجاوزه الى تنظيم الصور والتوفيق بين مافيها من متناقضات ومتشابهات ، فينشيء من الاشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة علاقات فريدة ، فالخيال اذن لايجمع ما في الطبيعة فحسب ، ولاينقله ، كما هو وانما يحاول أن يخلع عليه ماهو متفرق في الطبيعة روحا واحدة ، فاذا المتفرق في الطبيعة يصبح متكاملا وموحداً (2) وكأنه قام بمصالحة بين الصفات المتعارضة والاشياء المتناقضة المتنافرة وأوجد بينهما تناغما وتوافقا ، ولذلك أقبل رواد الشعر المعاصر على الخيال واتخذوا منه وسيلة كشف واهتدوا الى عوالم الحرية الابداعية الطلقة (3) ، والخيال الشعري نشاط خلاق لايهدف الى نسخ الواقع أو الى عكس حرفي لعناصره وحوادثه المعروفة ، ولايهدف الى تصوير ، كما هو أو تفصيل حقائقه ، ولكنه يهدف الى تصوير الاشياء كما تخيلها الفنان والى دفع المتلقي الى اعادة التأمل في واقعه من خلال رؤية شعرية لاتستمد قيمتها من مجرد الجدة والطرافة وانما من قدرتها على اثراء الاحساس وتعميق الوعي بما حولنا ، وبذلك يقف الخيال أساسا لكل صورة ولعل احساس البرتو مورافيا بأهمية الخيال هو الذي جعله يكشف عن قلقه من تقارب البعد بين التصور في الادب والشيء المتصور ـ من الواقع ـ ومضى ذلك البعد في التناقض الى حد أصبح الادب فيه أشبه بموزيقة تاريخية ، ويرى أنه عندما تمحى تلك المسافة تماما فلن يبقى للخيال الذي نعرفه وجود ". (4)

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 8 .
2 ـ المرجع نفسه ، ص 59 .
3 ـ السعيد الورقي ، لغة الشعر العربي الحديث ، ص 181 .
4 ـ فالنتينا ايفاشيفا . الثورة التكنولوجية والادب ، ترجمة عبدالحميد سليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 ، ص 67 ، بتصرف .

فالادب ينطلق من الواقع لا ليصوره كما تلتقطه آلة التصوير وانما يسلط الاضواء على نقطة من قضايا الواقع المتشعبة أو على جزء بسيط منها ليغور في أعماقها ويستجلبها مطبوعة بتصوره وفلسفته الخاصة .

كما يأتي الرمز دعامة قوية من دعامات الصورة الادبية ان لم نقل أكبر دعاماتها فيه تحافظ الصورة الادبية على سحرها وسرها وتعددية معانيها طويلا والى جانب وظيفة الخيال في الربط والتأليف بين المتناقضات بل وبين كل عناصر الصورة ، فان الرمز يؤلف بدوره بين بعض عناصر الصورة الادبية وبخاصة بين المرئي واللا مرئي .

ومن وظائفه التعبير عن طائفة من الاشياء ذات الطابع الكلي ، والاشياء الحاضرة والغائبة ماضية كانت أو مستقبلية ، وقد يستخدم في الكشف عن الاشياء المجهولة ، وهكذا يخدم الرمز الانسان في «وظائف التذكر والتوقع والتعرف والادراك الحاضر للأشياء» (1) وقد بالغ بعض الدارسين في توكيد ضرورة الرمز الى الحد الذي اعتبروا فيه الشعر مجموعة رموز تجعله سهلا لأن يقترأ منه الناس اللا مرئي ، قال بعالانش ، « الشعر رمز وكذا فليكن كل بيت يتساوى فيه » (2) وقال لويس هورتيك « لاشعر دون مقدار من الرمز» (3) ، فالرمزية تسمي الى حركة فنية مثالية يتم فيها الربط بين العالم الحسي والعالم المجرد ، واذا كان الرمز ضروريا للصورة الادبية فان ذلك لايعني الافراط في الافادة منه حتى لايتحول الادب الى طلاسم معماة وحتى لايتحول الى تلك الموجة الحارمة التي شهدها الادب الرمزي في القرن الماضي أين مال الى احتواء كل ماهو «خدر وكآبة وسأم من الحياة وابتعاد عن الناس ومناهضة للحضارة التكنولوجية» (4) كما لايعني اللجوء الى الرمز امتطاء الالغاز وركوب الغرابة والغوص وبصورة أوضح فان « الرمز وسيلة لادراك مالايمكن التعبير عنه الا بواسطته ، فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لايوجد له معادل لفظي ، وهو بديل عن شيء يستحيل تناوله في ذاته» (5) ، ولكنه مع هذا لاينافر أو يلخص شيئا معلوما لأنه يوجه الانظار الى شيء مجهول ، بل هو صياغة لذلك المجهول نسبيا ، ويمكن القول أن « الرمز يموت اذا ما وجد بطريقة أخرى تفضله في الصياغة والتبيير» (6)

---

1 ـ عباس جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، دار الاندلس ، بيروت ، لبنان ، ط 3 1983 ص 87 .

2 ـ هنري بيير ، الادب الرمزي ، ترجمة هنري زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، ط 1 ، 1981 ، ص 12 .

3 ـ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

4 ـ المرجع نفسه ، ص 68 .

5 ـ صالح لمفاضلة ، الصورة الادبية ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، ص 153

6 ـ عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص 20 .

ثم أنه من الوسائل التي تتحقق بها غايات الادب من وراء اعتماد « على الصورة مثل البعد عن الاسلوب المباشر ، كما أنه « لون من الكتابة الشعرية ، تلغي فيها عناصر السرد والتقرير والمباشرة »(1)

ولذلك يتداخل الرمز الشعري مع الخيال مع العاطفة مع الايحاء مع الصورة كلها بل أنه مرتبط أشد الارتباط بالتجربة الشعرية لايكاد ينفصل عنها ، فهذه التجربة الشعرية اما ان تفرغ شحنتها في رموز قديمة تستدعيها وتستحضرها واما ان تركز الشحنة العاطفية أو الفكرية في الفاظ تضفي عليها طابعا رمزيا فيكون الرمز المستخدم جديدا (2) .

والصورة الشعرية لاتقوم على واحد من هذه العناصر وانما تحتاج لها بحسب طبيعة الموضوع ، فقد لاتقوم أحيانا الا بها جميعا ، وتقوم أحيانا على بعضها وربما عرضت صورة أدبية وليس فيها الا الرمز أو العاطفة دون أن تعدم وظيفتها الجمالية الفنية والاجتماعية .

ثم أن الصورة الادبية وهي في أكمل معانيها تتخذ قوالب وأشكالا معينة تحقق أهداف مبدعها ، فهي مرة تأتي بايحائها وخيالها ، بعاطفتها ورمزها في قالب قصة طويلة أو قصيرة ، ومرة تأتي في ثوب حوار يتبادله طرفان أو أكثر ، وأحيانا تغوص في التراث والتاريخ القديم وليكنه مع ذلك لايمكن اعتبارها قصة أو حوارا أو سردا لفترة تاريخية أو قصة تراثية ، كما لايمكن اعتبارها وصفا مفصلا للواقع لأن غايتها ليست السرد للماضي وانما الافادة منه والدعوة الى تأسيسه من جديد لأخذ العبر والدروس ، وليست غايتها وصف الحاضر وانما اصلاحه والنظر الى ماخفي من قضاياه لمعالجتها وبيانها للناس .

---

1 ـ ساسين عساف ، الصورة الشعرية ونماذجها في ابداع ابي نواس ، ص47 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 40 .

ثـانيـــا : الـصـورة الشـعريـة في رسالـة المشـرق .

ان الـصـورة الشعريـة لا تخص أمـة دون أخـرى ولا قـومـا دون سواهم ، وانما هـي قاسم مشترك بين الأمم بمختلف لغاتهما ، نجد لها أشكالا وأصنافا في الآداب القديمة ، ونجد لها أشكالها وأصنافها في أدب العصر الحديث .

ولعلّ الديوان (رسالة المشرق) يقف مثالا حياً على الصورة الأدبية المستمدة من خيال الشاعر ومن الرموز التي أبدعها باجتماع كل مواهبه من فكر وخيال وثقافة خاصة وعامة ، والخاصة معرفة مايتعلق بالابداع الشعري والعامة معرفة ثقافة الماضي والحاضر ورؤى المستقبل وأمانيه ، لأن الشعر ابداع لا تقليد وتركيب خاص واعادة للمعروف والمألوف والباسه ثوبا جديدا يخدم فكرة الشاعر وتصوّره وتصوّر الذي يلقى اليهم ، ولأن طبيعة الأدب "لا تكتمل الا اذا كان نابعا من فلسفة تكون له مرجعا منه يصدر كل أدبه ، وهذه الفلسفة هي حصيلة تجارب الانسان الواعي وثقافته وحساسيته وعمقه" (1) .

ولعل أول مايلفت الانتباه في هذه الصورة وظيفة الخيال عند اقبال وهي رسالة واضحة منذ أول سطور رسالة المشرق ايمن عبّر عن قيمة خياله (هو العارف لسموّه وامكانيته .

لقد ارتقى خيال الشاعر الى حدّ اتخذه مثلا اسمى يمكن أن تشبه به الاشياء دون تدانيه لأن المشبه به عادة مايفضل المشبه ، ولأن المشابهة ليست مساواة بقدر ماهي قرب المشبه من المشبه به ومشاركته في بعض صفاته لا كلّها ، قال مخاطبا الامير الافغاني :

— وهمتك عالية مثل خيالي ، تجمع شتات الشعب المسترق الى مائدة قطعة فتقيده الى بعضه (2) .

كما ان اقبال يمضي في ديوانه هذا بين الجانب الفني والجانب الاجتماعي ، حيث تظافرت فيه الوظيفة الجمالية والوظيفة الاجتماعية للصورة الشعرية . وكثيرا ماسخر الابداع الفني لخدمة الفكرة التي يريد ايصالها ، وهي عادة ماتعود بالفائدة على المجتمع ، دون أن يهمل المتعة الفنية لتلك الصورة ، اذ كثيرا مايصل الى اقناع المتلقي بفكرة أو تنبيهه اليها بواسطة الصورة الفنية التي يسكبها فيها .

أما الصورة الشعرية التي صبّ فيها الشاعر افكاره فقد أخذت قوالب شتى كلها

---

1 — مدحي الشطي ، الفكر والادب في ضوء التنظير والنقد ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1405 هـ ، 1985 — ص 19 .

2 — رسالة المشرق ، ص 185 .

تصب في بحر غايته الكبرى نحو فن يستمد وحيه من اتحاد ذات الشاعر بكل مايلمسه في شعره ليحقق في النماس نفخة اسرافيل ، لأن من يظل بعيدا عن ذاته في انتاجه الادبي فان "شعره لايلمع قطوبنا" (1).

والملاحظ ان اقبال اتحد بكل مامطرقه في ديوانه ، بالشقائق ، بالبلابل والفراش بالورود ، بمواقع الصليبين المتردى ، بآمالهم وآلامهم ، بفلسفة الغرب وشطحاتها (من أجل انتقادها) ، بخمر المتصوفة ومعانيهم ، بسياسة العصر وخدعها ، بماضي أمة الاسلام المشرق ، أو لنقل اتحد بكل ذرات الديوان اتحادا جاء مرة في قالب صور تقليدية قامت على التشبيه البسيط بين أمرين أو على الاستعارة السطحية دون أن تنفذ الى اعماق الاشياء وعمق التصوير ، ولكنها مع ذلك لاتقتصر الى عنصر جمالي ينفذ بها الى اعماق المتلقي ، وجاء اتحاد ، بمعاني ديوانه مرة أخرى موزعا بين الرمز الصوفي والرمز الشعري ، واخرى في انواب صور قرآنية واعية سريعة ، وتسامى في بعض صوره الى اسلوب قصصي قائم على السرد حينا وعلى الحوار أحيانا وارتقى في بعضها الآخر الى قمة الابداع الشعري وان كانت وسائله بسيطة .

أ ـ التصوير بالتشبيه :

ان ابسط عناصر الصورة وأولها التشبيه الذي هو اقدم عناصرها فقد تستكف الصورة الشعرية بالافادة من التشبيه ، ولو أنها أوسع منه نطاقا وأخصب اشراقا فليس بينهما جفوة (2) .

في الديوان تشبيهات بسيطة لاتتعدى الصورتين الحسيتين ، ولكن براعة اقبال وامتلاكه لأداته جعلته يجمع فيها بين أمر حسي من البشر وآخر من الطبيعة ، وبذلك الجمع يخفف من برودة الصورة وان لم ينفذ الى اعماقها ، من ذلك مقارنته بينه وبين شاعر الالمان غوته ، يقول :

ـ فمن بين شباب الغرب كالبرق الخاطف ، أما شعلتي أنا فمن انفاس شيوخ الشرق
هو كالبلبل في الروض يستمد انغامه من الفردوس ، وأنا في الصحراء كجرس حداد الصراخ
كلانا كفلق الصبح الباسم في صفاء المرآة ، هو مجرد وأنا مازلت في الغمد (3)

وقليلا يتدرج الشاعر بالتشبيه الى التعبير عن الحالات النفسية على الرغم من اعتماده في بعض صوره على اداة التشبيه ، ويتحول به احيانا الى ترجمات لحالات نفسية ومواقف

---

1 ـ منجي الكعلي ، الفكر والادب في ضوء التنظير والنقد ، ص 25 .
2 ـ ياسين عساف ، الصورة الشعرية ونماذجها في ابداع ابي نواس ، ص 39 .

معينة ، فالوفاء موقف وحالة لا تدركها الحواس وانما تقف عليها البصائر يقر بثمنها الوجودة في الواقع ، وهي ما يصدر عن الناس من افعال .

تلك القيمة الخلقية رآها اقبال غير متوأعد مت في القلوب فوجد تان اقرب صورة الى الحياة مجردة في اوساط الناس دون أن تعيش في اعماقهم ، هي صورة الغريب التائه الضال الذي يبحث بكل ما فيه عن طريقه فلما يبحث الوفاء عن أهله ، يقول :

— لقد كان الوفاء بعيدا عني مثل الغريب ، فنسطراته وراحته في تفتيش(1)

ومرة أخرى ينظر الى مكان العشق في النفس والوجود الخلق الذي يفوز به المعشوق من كيان عاشقه ، انه يشعر به ماثلا في كل ذرة من ذراته وفي كل نفس من أنفاسه وفي كل قطرة من دمائه فما بالنا اذا كان ذلك المعشوق هو المحبوب الأزلي لاقبال ولكل مسلم ولكل مخلوق حي الضمير ، يقول :

— أنت تجري في دمنا مثل الخمر (المسكر) ، ولكنك غريب الطبع (صعب الانقياد)(2).

معلوم ان الافكار تجول في اعماق صاحبها وتسبح في بحر خياله ، وأما أن يدب المعشوق ويسري في دم صاحبه فذلك هو الجديد الذي أبدعه خيال اقبال بابسط أدوات بناء الصورة الشعرية بتشبيه لم يخل حتى من الاداة ، كان الشعراء يصفون دبيب الخمر في الجسم ويشبهونه وهو الخفي بصورة من الواقع محسوسة (3)، فشبه اقبال بذلك المشبه الخفي وهو فعل الخمرة وسريانها في الدم شبها آخر أشد خفاء ، وهو امتلاك المعشوق لكل كيان عاشقه .

ومن التشبيهات التي بلغ فيها قمة الربط بين الانسان والطبيعة بأبعادها الخفية قوله في تقدير فضل القلب : الدنيا حفنة تراب والقلب حاصلها (4) ، وقوله: كيف يحتبس الخلد القلب في حفنة من تراب بينما ، القلب هو الفلاة التي ترتع فيها ظباء الخيال (5) . وهذان تشبيهان بليغان تجاوز فيهما حدود التشبيه الكلاسيكي وتجاوز التقليد الى الابداع الفني ، فالقلب صحراء ترتع فيها غزلان ، ولكنها صحراء من نوع خاص لأن الغزلان التي ترتع فيها ليست ككل الغزلان ، انها الافكار ، بنات خيال البشر ، وبالتشبيه استطاع اقبال أن يرتقي بالعلاقة القائمة بين عناصر الطبيعة الى تصوير أسمى العلاقات وأجلها جميعا وهي علاقة العبد بخالقه ، فالعبد يستمد أنوارا لدربه من الهام الخالق له ، مثلما تستمد الكواكب نورها من الشمس ، اذ ما تظهر به

---

1 — رسالة المشرق ، ص 7 .

2 — رسالة المشرق ، ص 8 .

3 — من ذلك قول ابي نواس يصف الخمرة : تدب دبيبا في العظام كأنه ، دبيب نعاس في فتى يتهيّل .

4 — رسالة المشرق ، ص 197 .

5 — رسالة المشرق ، ص 214 .

من نور انما هو انعكاس أشعة الشمس ، ولم يكتف بهذا التشبيه فاردفه بتشبيه آخر ركب عناصره من القرآن الكريم واجاز انه .

فشبه الانسان وهو المحسن في قلك الرحمن العاجز عن الانفصال عنه - وان أراد - بجزء من أجزاء القرآن التي لا تنفصل عن الكل والتي هي احدى دلائله وآياته في الكون ، يقول :

- أنا كوكب سيّار وأنت شمس ، والانوار التي تغطيني من رأسي حتى قدمي آتية من نظراتك .

أنا لا أعرف الكمال بعيدا عنك ، فانت قرآني وأنا أجزاء (1) .

وبالخيط المتين القائم بين الانسان - حيّا وميّتا - وبين الطبيعة ، رسم اقبال صورة لعلاقة الانسان بقائد الروح وأميرها ، القلب ، يقول :

- قلبي ، ياقلبي ، ياقلبي ، بحري ، سفينتي ، ساحلي (2)

أأنت الندى الذي سقط على شريحي (قطرة قطرة) ، أأنت البرعم الذي نما من رمادي (3)

فشبه القلب بالبحر مرّة في امتداد آفاقه ، وبالسفينة أخرى في اضطرابه وحركته الدائمة وبالساحل ثالثة لأنه مصدر الأمن لصاحبه ومركز الطمأنينة واليقين ، ثم شبهه بالندى الذي ينعش تراب البستان ويحييه بعد ما شبه الجسم بالضريح لأنه من غير حياة القلب يحسب في الاموات ، ومرة أخيرة شبه القلب بالبرعم النامي في جسم الانسان الشبيه بالرماد لأنه في غياب حياة القلب يكون رمادا أو ترابا وهذه قمة الرسم بالكلمات لأسمى الحالات النفسية وأشدها عسرا على الرصد والتتبع ، ولكن اقبال تتبعها والتقط لها بخياله صورة كان التشبيه أداتها ببساطة ، وقد تكون العظمة بالبسيط من الاشياء . وقد تجلى في هذه الصورة الى جانب الرسم تناغم موسيقي بين عناصر الابيات فنداءات ستة وزعها اقبال بدقة بين شطري البيت الاول ، وسوالان قسمهما بدقة فائقة بين شطري البيت الثاني وهذا ابداع فني وأسلوب اقبالي يدفع بتقنياته وبتلك الاضواء المسلطة على القلب القارئ ويحمله على اعادة تأمل واعادة تفكير ومراجعة للنفس حتى يردّ للقلب اعتباره لأنه بما فيه من عشق وجنون ونور هو البذر والحصاد في آن .

وقد كانت الحياة بامتدادها الخرافي وبتشعب قضاياها وتشابكها في نظر اقبال أشبه بالبحر وذلك تشبيه ربما وجدت له صور قريبة عند غيره من الشعراء - الا أنه لم يقف

---

1 - رسالة المشرق ، ص 218

2 - رسالة المشرق ، ص 223 .

3 - رسالة المشرق ، ص 225 .

عند ذلك البحر وانما ناظر الى الشطر الرئيس وهو مايجب أن يكون فيه ، وتدبر صراع الانسان في الحياة ، وفي ذلك البحر ، وذلك مايتفاوت الادباء في رصده ، رأى اقبال الانسان وهو يصارع الحياة ويكدح بين أمانيها ، مثل الموج الذي لاقيمة للبحر الا به ، ولاقيمة له الا بالبحر ، فشبه الانسان في علاقته بالحياة بما هو قائم حوله من علاقات بين عناصر الكون ، والتي منها علاقة الموج بالبحر ، فهو يرتمي فيها ويصارعها ولايقبل غير صراعها ، رغم مايلقاه فيها من عنت ، ولايبحث عن غيرها ولو لا حفاظه على نفسه فيها لكان عدما بمغادرتها ، يقول :

- أن وجودي من السيل العارم مثل الموج ، فلا تظنن أنّي أفتش في هذا البحر عن ساحل(1)

وفي هذا اليم أنا مثل الموج لا أعرف قرارا ، ولو لم انطو على نفسي لكنت عدما(2)

ولما كان ذلك البحر أو ذلك المحيط" الحياة" يؤول الى الفناء ، فما أشبهه على عظمته بقطرة ماء غارقة في كأس الذي فهمها وتجاوزها .

الق نظرة على قلبك ، حتى ترى محيط الايام قطرة غارقة في كأس(3) .

وهذا الذي تحولت الحياة في نظره الى قطرة صغيرة أو نقطة باهته يرى بتساميه وتخلصه من نزعاته الترابية وصفائه الروحي الأرض مجرد حجر عثرة في طريقه بل ان السماء وان تعالت فما هي في نظره الا احدى دورات كأس صفائه ونشوة ايمانه ولذة أشواقه ، فهو بالتأمل يرتقي أحيانا الى مدارج الكمال الفني فتأتي صوره معبّرة حيّة نابضة .

وهكذا كل شيء في الطبيعة له شبه قريب أو بعيد بالانسان ، هو مثل الموج حينا ومثل الورد آخر ، ومثل النرجس حينا ومثل نسيم الصباح ، ومثل البراعم وهي تتفتق أحيانا ، يشبهها جميعها لا في شكله أو شكلها وانما في تفاعله الداخلي وفي تأمله وفي أحاسيسه .

فسلوك الوردة الفاتنة أشبه بسلوكه وحاله في طلب الحق أشبه بحالها ، وطلبه للمعشوق أشبه بطلبها له ، شبه نفسه بها في كل ذلك ثم كشف عن خوفه الحقيقي وخوفها تخيل خوفه وجعله أشبه بخوفها من العذاب ، ولكنه لاينكر حاجتها اليه كما لاينكر حاجة الانسان الى العذاب .

فالوردة تجتهد وتتذوق ، ولكنها لن تبلغ الكمال الا بذلك الجرح الذي يفجعها في عمرها القصير ، وكذلك يسعد الانسان في طريقه الى الله بكل مايتحمّله في سبيل ذلك من عذاب .

---

1 - رسالة الطير ، ص 216 .

2 - رسالة العشق ، ص 224 .

3 - رسالة العشق ، ص 217 .

بالتشبيه وحده ، فمال اقبال الى أغوار النفس البشرية وما يخامرها من لحظات الخوف والرجاء فأوجد لها صورة مماثلة شطرها من الطبيعة والشطر الآخر من ابداع خياله ، حتى اضطر الى تأويل الحال الظاهر (المشبه به) وأعطاه بعدا صوفيا ليلائم المشبه وما خفي من أحواله واستتر ، يقول :

- للوردة الفاتنة مثل مثلي ، كلانا أسير لسحر التلاقي .

لغة لسانها قاتلة لا تفعلوا ، ولكن بصدرها المزق قلب يقول افعلوا . (1)

وهو أشبه بالشقائق ليسرقي لونها أو في فلسفة التصوف التي البسها لها اقبال ، انه يشبهها وأمثاله من الذين لم يحيروا أي اهتمام لمغريات الدنيا فكأنهم يعيشون على هامش مثلما تعيش الشقائق على هوامش الحقول والحدائق ، فيكون التشبيه قد عادل فكرة نفسية و صورها :

- أنا مثل الشقائق نبت على هامش الخميلة ، قد مزق قلبي سهم تلك النظرة وكوى كبدي (2) لأنهما تنتشي بوحدتهما وحيائهما على الهامش وتنعم بالنظر الى معشوقهما وتنفرد بذلك فلا يشاركهما في متعتهما أحد . وكذلك يجب أن يكون متفردا في نشوته بحبه الخالق انسانا من تميزه عن غيره . وهو أشبه في تلك الحياة بالبرعم قبل أن تتفتح فشعور الانسان بالعين وطلبه للتحرر من كل القيود حالة نفسية نفذ اليها اقبال بالتشبيه ، انه أشبه في صراعه واضطرابه وقلقه بالبرعمة المجينة وهي تصارع من أجل أن تتفتح وتضحي الى الوجود .

- أنا مثل البرعمة كل أعمالي في ضيق وقيد ، انتعشت روحي من شوق تجلى الشمس لحظة (3) .

وحتى النسمن أوجد له مماثلا ومشابها في الطبيعة ، الانسان في حاجة الى يقظة والى تأمل للكون ولعظمة الخالق فيه ، ولتحقيق ذلك ولبلوغ تلك المنزلة يمكنه أن يحاكي الطبيعة وهي الطبيعة في كل ما تفعله ، فالنرجس في شكله أشبه بالعين المفتحة الناظرة المتأملة وما على الانسان الا أن ينظر مثلها لما حوله بعين يقظة متفتحة ، وبهذا التشبيه ارتفع اقبال في تصويره الجمال الفني الادبي والجمال الاخلاقي الاجتماعي :

- مثل النرجس لا يمر دون أن يتأمل الخميلة ولا تمر منطويا على نفسك مثل رائحة وردة غير ناضجة .

ان الله أعطاك عينا حادة النظر ، فلا تمر بعقل يقظ وقلب نائم (4) .

---

1 - رسالة الشمس ص 332 .
2 - رسالة الشرق ، ص 317 .
3 - رسالة النون ، ص 313 .
4 - رسالة النون ص 238 .

وأحيانا يتسامى اقبال بالتشبيه الى قمة التصوير فنراه يقيم بأدواته البسيطة وحدها معادلا موضوعيا فنيا للحظات الانتشاء الروحي التي يعيشها الاصفياء أيـــــن تتقطع أواصرهم بالدنيا حتى يراهم الناس شمارديين ، ذاهلين ، يتجاوزون بنظراتهم المادي المحسوس فيحسبهم الناظر اليهم غافلين ولكنهم في حقيقتهم يالبون الاكبر من المرئي والمحسوس :

ـ أنا هائم على وجهي مثل نسيم الصباح ، وقلبي ممزق الى مائة قطعة مثل الوردة نظراتي لاترى حتى الماهر ، فهي تصبو الى الشهادة من لذة النظر الى المعشوق(1)

فهذه لحظات من الوجد الروحي تحولت أمامنا الى كلمات تعادلها ، والى صورة نراها متحركة حية ، وتحولنا الى حياة بكل عناصرها دون أن ننسى أن أداتها كانت تشبيها ، اذ ليس هناك حسّ يلين هائم على وجهه كالنسيم ، وليس هناك كائن ممزّ دال على جراحه بكل مافيه من لون وشكل وشكوك وموت يتهدده كالورد ، ولكنهما مع ذلك رمز اشراق وحياة وصفاء .

وبالتشبيه أيضا صوّر حال الانسان في أسمى علاقاته ، علاقته بالخالق ، الاقرب الى العبد من حبل الوريد ، يقصده الناس بأعماقهم وخيالهم دون أن تدركه الاعين . وربما كان أشبه بالعين وحدها التي ترى غيرها ولاترى نفسها :

ـ ذلك الهدف الذي يقصده خيالي وخيالك ، هو على باب اعيننا ولكنه مثل العين لايمكن أن يرى ولاتعني هذه النماذج القليلة توفيق اقبال في كل مواطنه من تشبيهات وهي كثيرة ، فقد كان احيانا يرهن التشبيه بالشرع الكثير الذي يفقده بلاغته وايحاءه ، ومن ذلك قوله :

ـ دماغي جاحد مثل الكافر صاحب الزنار (الحائل لحزام الرهبان) ، هو عابد للمعشوق الذي عظم حزنه وزاد ألمه (2) .

فالجحود وحده يكفي لتصوير المعنى وبيانه والايحاء له ، ولكن اقبال عوّدنا على التأكيد والمزيد من الشرح ، فشبّه الفكر في حالة تمرّده ، وتكرانه وجحوده ، بالكافر فأضعف بذلك الصورة الثنية رغم نجاحه في تصوير الفكرة ، لأن كلمة جاحد تصل بالعقل الى صورة الكافر وهو يعلن جحوده بأمور شتى ، وترتقي به الى التشخيص في حين تعود به أداة التشبيه (جو) الى اسلوب التقرير المباشر والى الصورة المتشابهة لا المطابقة أو الاقرب من المطابقة .

ب ـ التصوير بالرمز :

وكان من وسائل اقبال الرمز الذي جمع فيه بين الرمز الصوفي والرمز

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 340 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 21 .

الفني اذ كثيرا ما كان ينطلق من الرمز الصوفي ليصل الى رمز فني مبدع يرمي من وراء جمالياته وتقنياته الى اصلاح أو تغيير في المجتمع أو كشف لخفي فيه بغية النظر فيه أول ما يلفتنا في الديوان بعد المقدمة شقائق الطور وهي تحمل معنى صوفيا جليا ، اذ لم يجد الصوفية عوضا أو بديلا يغني عن التركيب الرمزي في أشعارهم (1) ، ولكن اقبال وان أنسبت ذلك المعنى الصوفي و وانطلقنا للعودة الى قاموس المتصوفة اذ لا يحتاج الرمز الصوفي الى " أكثر من دراية بمفردات معجم المتصوفة الاصطلاحي "(2) فانه استهدف أيضا من وراء تلك الرموز الصوفية اصلاح واقعه يتوكيد المخطط الذي رسمه في افتتاحية الديوان وهو حاجة الناس الى حبّ الله ، ذلك الحب القطري المتجذر في القلوب ، الكامن في جوهر كل الكائنات وهو الذي يبرّر صحة وجوده في أعماق كل شيء بواسطة رموز فنية وأخرى منطقية — الم تر أنه من حبّ الشمس المنيرة للفلك ، يوجد أثر للسجود على محيّا السحر (3) فنظر الدارسون الى الطور على أنه أحد الرموز الصوفية لتسامي النفس بالطلب ، فتحول به اقبال الى رمز فني ، فقال :

— ذهبت الى قمة الطور تتجدد الصلوة وتسألها ، ذلك لأن روحك غريبة عنك وليست محرما لدمائك (4) .

وليس المقصود بالطور ذلك الجبل الذي وقف به موسى وسأل التجلي فحسب ، لأن تلك أمنية يتمناها الكثير ، وانما الى جانب هذا المعنى الصوفي ، فان اقبال حمّله سخرية ونقدا لاذعا قوى الاضداد ، سخرية من كل من يطلب القرب من الله ، في أي صورة كان ذلك القرب ، وليكن في صورة التجلّي التي طلبها موسى عليه السلام ، دون أن يبدأ ذلك الطلب بمعرفة الذات ودون أن يكون الراغب في التجلي ، قد حمّل قلبه الى مكان مقدس ، الى محرم تطوف في شرايينه دماء الحياة .

ومن أهداف المتصوفة أيضا السفر ، فهم الذين كتبوا فيه قصصهم ، وسكبوا فيه رموزهم الصوفية وجعلوا له مسالك ومقامات عديدة لا يجب الوقوف عندها ، لأن في الوقوف انقطاع عن الغاية ، لم يجد الشعر الصوفي يأسا من الاهابة بالرحلة . والاغتراب المكاني والروحي " فكما تمر قافلة المسافرين بحيون الماء وقد سطا الليل على الطبيعة بظلماته بعضها فوق بعض ... كذلك يقطع المحبون في تربصهم بالتجليات الالهية مسافة تخصهم التي بدت تلهم حجابا على الحقيقة "(5)

---

1 — عاتف صيودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص 170 .
2 — ياسين الايوبي ، مذاهب الادب ، معالم وانعكاسات ، ج 2 ، الرمزية ، ص 129 .
3 — رسالة الشرق ، ص 195 .
4 — رسالة الشرق ، ص 210 .
5 — عاتف صيودة نصر ، الرمز الشعري عند المتصوفة ، ص 179 — 180 .

وقد استفاد اقبال من فلسفة السفر الصوفية واتخذها رمزا للمسعى الدؤوب المستمر ويحدد في ذلك الرمز بأن أضفى عليه من معطيات الواقع .

اختار المتصوفة المقامات التي كثيرا مايضعف السالكون عند عتباتها أو عند اجتياز واحدة منها ، فما اختار اقبال المحطات وهي احد مبنات العصر لأنه أدرك أن التجديد البناء لايعني تدمير القديم أو تحطيمه ... فالقديم وحده جمود وموت والحديث وحده عجز وحرمان وأما الحياة النفسية الواعية فما هي الا نتيجة اتصال وتفاعل بين القديم والحديث (1) فجمع بين القديم الصوفي والحديث المعاصر ، يقول :

- أنا تحمل من السفر ونكوته ، فما المحطات عندي سوى حجر عثرة في طريقي (2) .

والمحطات تتسم ما رمز لكل ما من شأنه أن يثني الانسان عن غاياته لأن :

- القلب السالك لايحتمل البقاء في المنزل ، ولايحتمل لا الماء ولا النار ولا الطين (3).

واذا كان الرمز الصوفي لايحتاج الى أكثر من دراية بمفردات معجم المتصوفة الاصطلاحي (4) فان اقبالا تمسن بعض رموزه الصوفية ، من ذلك ماكان له مع المنظومة الكاملة الخمر الباقية اذ لم يحسن القارئ مشقة البحث في صفحات معاجم المصطلحات الصوفية وشرح معنى تلك الخمرة بملاء انائه :

- هلم فاني أرشف من كأس شيخ الروم خمرا ، هي صهباء كلام ، هي أصبى من خمر العنب (يشير الخنب) (5) .

وبذلك المزيج العجيب بين الرمز الصوفي وبين تصوير اقبال الفني وبين الهدف الذي يريد أن يوصل بالقارئ اليه من خلال تلك الرموز مجتمعة حقق اقبال احدى غايات الأدب وهي البعد عن الاسلوب المباشر ، فقد الغى عناصر السرد والتقرير والمباشرة ، وربما كانت منظومة الخمر الباقية التي هي مجموعة غزليات من أغنى اجزاء الديوان بمعاني الصوفية ورموزهم ، لأن أصلح اطار لنقل التجربة الصوفية هو الرمزية ، ولأن الشعر الصوفي شعر اصطلاحي الى حدّ بعيد ، وقد سبقت الاشارة الى تلك الرموز والمصطلحات ، لذلك فاننا ندع الرمز الصوفي جانبا للنظر في بعض نماذج الرمز الشعري عنده ، اذ الرمز من أهم عناصر الصورة الشعرية .

---

1 - ريحي محمد علي عبد الخالق ، أثر التراث العربي في الشعر العربي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 1983 ، ص 55 .
2 - رسالة المشرق ، ص 215 .
3 - رسالة المشرق ، ص 222
4 - ياسين الايوبي ، مذاهب الادب معالم وانعكاسات ج 2 ، ص 129 .
5 - رسالة المشرق ، ص 335 .

الهمس اقبال رموز ديوانه أبوابا عديدة كان أشهرها جميعا الرموز المستمدة من الطبيعة بكل مافيها من أحياء وجمادات .

فقصيدة "مجرى الماء" أو لنقل مجرى الاسلام أو نهر الاسلام حملت الرمز من الطبيعة بكل مافيها من عناصر الحياة منذ أول كلمة فيها وهي العنوان ،ولولا التعليق الذي سجّله في حاشية الصفحة ولولا وجود القصيدة المحاكاة (قصيد قوته) لصعب ادراك معنى مجرى الماء ذاك ،ولأعطاه كل من يقرأه معنى خاصا ،لأن الرمز يحتمل كثيرا من التأويلات، وليس ذلك من باب ميل اقبال الى الغموض والالغاز وانما لأن الرمز لايكتسب صفة الرمزية الا اذا دلّ على معان أبعد من التي تحملها كلماته وحروفه في الظاهر لأن الرمز جماع لحظة تاريخية فريدة من نوعها ولأنه وان بدا للبعض محدودا من جهة فقد يبدو من جهة أخرى مشتملا على غير محدد ،فمهما حاول المرء ايضاح الرمز ،فان فيه بقية من سرّ (1) ،والحقيقة ان اقبال خوفا من ذلك التأويل الذي قد يذهب اليه القارئ والدارس سجل في الهامش أن القصيدة ليست سوى نظم لقصيدة الشاعر الالماني غوته "نشيد محمد" فالاسلام سيل تحمل من فرحته بمن في طريقه ،عرف معانيه الانبياء فأسلموا وجوههم لله رب العالمين ،ولكن ساعة الأمر بنشره على الكافة لم تحن . فقد كان اذن نائما ولم يكن عدما ،وجاء ينشر في الدنيا أمنا وسلاما مثل لهما اقبال بسير ذلك المجرى عبر الرمال وانسكابه على أرجائها بانغماسه ولكنه ينسكب بمدين الطهر والصفاء ، والنهر من علاماته اذا كان ماؤه جاريا الصفاء ، هدف الاسلام الوصول الى الحق ،الى الأزلي ، الى الاول والآخر ،والى مرضاته وهدف النهر أيضا الوصول الى البحر ، الى المصب الاعظم لكل الروافد . المجرى يغيض على من حوله فيخضّر (ويطلب منه الكل أن يبقى)وأي خضرة تطلب مفارقة الماء ،لذلك تسرب اقبال ببيانه الى أعماقها ،فصوّرها تطلب منه البقاء الى جانبها . والاسلام اذا لامس القلوب والنفوس طلبته وارتاحت اليه ،ولكنه يمضي في طريقه الابدي ليقصر عطاؤه أبدا :

ـ انظر كيف يجري السيل النمير ، بين الرياض الخضر مثل المجرّة .

قد كان نائما في هدوء بمهد السحاب ، وفتح عينيه على حضن السحاب .

يمتلئ الانغام نون الرمال فيحملها في تناغم وانسجام ، من علاماته أنه كالمرآة صافي اللون بلا بقايا أوغبار .

يسير دوب البحر اللامحدود ثملا ، هو وحده في نفسه ،وغريب عن الآخرين .

أقام الربيع على طريقه قصرا فاخرا ، ونثر (على عاطفته) النرجس والشقائق والياسمين .

---

1 ـ عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص 114 ـ 115 .

قالت له وردة في دلال : يجب أن تبقى قليلا عندنا ، ابتسم البرعم ، وجذب طرف ذيله ليبقى .

لكنه لم يصاحب هؤلاء اللطاف المتجليين في ثياب خضر ، فقد تطلع الصحراء وصدر الجبل والسهول .

يسير صوب البحر اللا محدود ثملا ، هو وحده في نفسه ، وغريب عن الآخرين (1)

النهر يزحزح كل ما يلقاه في طريقه ، يزحزح الصخرة ويحمل القشة الصغيرة ، والاسلام هو الدين الذي لا يميز بين الداخلين فيه ، يقبل القوي والضعيف والفقير والغني ، دون أن يمنعه ذلك من الاستمرار بهم والمضي في طريقه لأنه دين العالمين ، يقول :

ـ لكنه أفسح صدره متجهما نحو الشرق والمغرب ، حاملا كل المسافرين الضعاف والعاجزين

يسير صوب البحر اللا محدود ثملا ، هو وحده في نفسه ، وغريب عن الاخرين (2) .

والسيل يفيض على كل ما حوله بما تمييز ويظل سائرا في طريقه ، وكذلك الاسلام ، يمنح من فيض أنواره كل من يلقاه في طريقه :

ـ فاض مثل السيل بلا تفاوت على السهل والمرتفع ، وسما على القصر الملكي والحصن والحقل والرواسة .

يسير صوب البحر اللا محدود ثملا .. هو وحده في نفسه وغريب عن الآخرين (3) .

وهكذا تكتمل الصورة أجزاءها والقصة الخيالية عناصرها بروز شتى من معين واحد هو النهر وتتبع دقيق لكل ما يشكل وجوده في الواقع (مجراه ، مياهه ، ما يجتازه ، سيره ، منسابه ، حالاته بين السرعة والبطء والهدوء والهيجان) بذلك المجرى البسيط بكل عناصره الواقعية رمز اقبال للنهر العظيم الاسلام ولكل ما يحطمه من قيم ومعان سامية وحركة في الحياة ويكفي لمعرفة ابداعات اقبال وصناعته لرموزه الفنية أن نختم باحدى لوحاته ، فيها تصوير للعشق فكرة تغزو القلوب وسلوكا متحكما فيها مسيطرا على وجهتها ، قال مخاطبا العشق نفسه :

ـ أقدامك ثابتة بلا خوف ولا وجل في محرم أرواح المشتاقين ، فلماذا تأتي متخفيا كاللص ما دمت صاحب المنزل .

تغير على قراء رأسمالهم التسبيح ، وتغير ليلا فجأة وتحطم قلوب (حفظة الوقار) الرهبان .

فأنت أحيانا تهيج مائدة جندي وتشيرهم لتسكب دماء أصحابك ، وأحيانا تذهب الى جمعهم وأنت تحمل الخمر والكأس .

بلا أدب تسكب النار على نخل الكليم ، ثم تأتي وتطوف بشمعة اليتيم في صورة فراشة (4)

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 299 ـ 300 .

2 ـ رسالة الشرق ، ص 300 .

3 ـ رسالة الشرق ، ص 300 .

4 ـ رسالة الشرق ، ص 343

القصيدة صوفية ، ولكن اقبال يلمس فيهما قمة الرمز الشعري والتصوير الفني ، حيث لايكفي النظر في معجم المصطلحات الصوفية وحده لفهم هذه الصورة الشعرية أو تذوق جمالها ففيها نجد أسمى الحالات ، أسمى المشاعر وهي لحظات العشق وطرق تمكنه من النفوس وأساليب تخييره الخفية لطباع المرء ووجهاته ، وقلبه لمواقفه واعماله وبخاصة اذا كان ذلك العشق لذات الله .

تلك الحالة النفسية المعقدة ، المتشابكة العناصر ، المتداخلة المراحل ، الخفية عن الابصار طال زمانها الحسن وصار الموجه لها ، لذلك رآه اقبال بطلا أسطوريا ، ثابتا راسخ الاقدام ، غير هيّاب ، مقيما في أروع العشاق ، متخذا منها محرما ، الا أنه على الرغم من ثباته وقوته وسلطانه على النفوس ، اذ لا ينجو من سلطانه صارم أو متجبر قلب ، فانه لايأتي الا متخفيا ، يهجم على الضعيف ويهجم على الحماة والابطال القاتلين ، فيلين قلوبهم ، وهذا معادل فني أبدعه اقبال برموزه وبعاطفته وخياله ، بتشكيله النصري شأنه كشأن سائر المعادلات الفنية التي احتواها الديوان .

وهكذا ننتهي الى أن اقبال كانت له فلسفته الخاصة وتعامله الخاص مع الرمز تجلى ذلك بخاصة في قدرته على الجمع بين البعد الصوفي للرمز والبعد الفني الجمالي له ، فكانت تلك مزاوجة فريدة انتقل فيها اقبال بالقارئ الى مرحلة هي مرحلة مابعد مرحلة معنى المصطلحات الرمزية التي يقف عندها الطلع على الشعر الصوفي عموما .

جـ - التصوير بالتراث :

رأى جانب التصوير بالرمز نجد التصوير بالتراث الذي لم يكن مجرد سرد للماضي وقصصه وانما كان توظيفا جديدا للتراث ، من أحداثه صنع اقبال صورا استرك في بنائها الخيال والرمز والعاطفة والايحاء ، واشتركت فيها قدرات اقبال وتقنياته الخاصة في التعامل مع مادة شعره والاهداف التي يبغي الوصول اليه والمقصود بالتراث هنا هو ذلك الجانب المشرق في كل ما ورثته الانسانية ، الوحي بوحدة تاريخ الانسان المتألق دوما الى العدالة والحرية السياسية والوحدة الانسانية (1) ولايكتسب التراث قيمته في النص الأدبي الا من نبض الحياة الجديدة الذي يحمله ومن الاتصال الحي بالواقع الذي وظف فيه والعصر الذي أبدع فيه والبيئة التي نشأ فيها فالشاعر وان اتصل بالتراث الانساني كله يجب أن يكون على اتصال وثيق

---

1 - علي عشري زايد ، استلهام التراث في القصيدة المعاصرة ، ص 71

ببيئته وتراثها الذي يوظفه لخدمتها وخدمة أمته وهذا مايتطلب من الأديب ادراك الماضي في الحاضر (1) حتى يستطيع أن يعنح لما هو حي من قيم الماضي الفرصة أن يظل حيّا ليستمر في المستقبل .

للصندل والعود ارتباط وثيق بالشعوب الاسلامية وبخاصة المسلمين في الهند (2) وقد أبى اقبال الا أن يكتب هذه الكلمة وفق الصورة التي ثبتت عليها بعد تعريبها عن الهندية .. وللصندل قيمته كما لكل القيم وكل الافكار والاعمال والمواقف قيمتها ، فاذا اختلط أحدهم بين هذا الأمر وذاك ، كانت النتيجة هلاك الأمم ، كما كان الخلط بين الأمور سبب هلاك الأمم السابقة ، يقول :

- فكل هلاك كان لأمة سابقة (قديمة) ، هو من ظنها الصندل عودا (2) .

وقد كان انتماء الشاعر الى تراثه انتماء اختياريا واعيا ، الى تراث الهند المسلمة وتراث الاسلام في كل أنحاء العالم يقول :

جسمي وردة من رياض كشمير ، وقلبي من حرم الحجاز ولحني من شيراز (3) .

هو هندي نشأ في الهند ، فكأنه احد ورود رياض كشمير الوارفة الظلال ، ولكنه قبل هذا مسلم ينتمي بروحه الى الحجاز ، كما ينتمي في الحان شعره وانغامه الفارسية الى مدينة شيراز ، ومن تراث الهند المسلمة ، صفحات مشرقة لبعض أبنائها شكل منها اقبال صورا فنية ذات أهداف تعليمية ، فالشخصية العالمكيرية صداها في أوساط المسلمين الهنود بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة لما أثمر عنها من خدمة للاسلام ، استرجع اقبال في ديوانه أحد المواقف الاخيرة للسلطان عالمكير والمستمدة في ردّه على أحد أبنائه عندما دعا عليه بالموت .

دعا الابن على أبيه بالموت فاجابه ان من الذين اتجهوا الى الله بالدعاء من هم أطهر منه (من الابن) بل هم أطهر الناس وأصفاهم وأخلصهم لله ، غرق منهم من غرق في دمائه ومنهم من سالت من قلبه أنّاته وآهاته أمثال يعقوب وأيوب والحسين . ولم يستجب الله لهم وهم من الانبياء والصديقين والصالحين ، فكيف يستجيب لابن عاق يدعو على أبيه بالموت .

وهل يقبل ذلك الشيخ الطاغي في السن أسير شباك دعاء ابن متسلط ، يقول :

- ألا تعلم أن الله موجود منذ الازل ، يرى كل شيء ويزن الامور ، بيده العقد والحل .

ومن صدور هذه الأرض المزقة المحتقة ، سمع مئات أنّات الحزانى المتألهين .

---

1 - بل ان الكلمة مستمدة من التسمية الهندية : چندن ، (محمد اسماعيل الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، ص 33) .
والصندل : خشب أحمر ومنه الأصفر ، وقيل هو شجر طيب الريح ، (لسان العرب)

2 - رسالة الشرق ، ص 0 ر 1 .

3 - رسالة الشرق ، ص 348 .

أناس كثيرون غرقوا في دمائهم مثل الحسين ، ولكن لا آهة انبعثت من صدورهم ، لابكاء شيء كتعسان حسركه ، ولا أنات ألم أيوب استدرت رحمته

فلا تتصور أن هذا الصيد المسن ، سوف يقع أسير شباك دعائك (1)

فعلى العبد اذن الدعاء وتبقى الاستجابة بأمر الله وتدبيره ، ولا تكون الا كما يريد الحق لا كما يريد الخلق ، وقد كان لهذه الصورة التراثية التي وظف في ثنايا ها صورا تراثية أخرى منها صورة مقتل الحسين وصورة ألم يعقوب وشكواه وتضرعه الى الله أن يرد اليه ابنه الضائع ، وبكاء وأنين أيوب ، وأخيرا صورة من الدعاء الفاشل الراغب في غير سنة الله في الأرض ، وهو دعاء ابن السلطان المسلم الصالح أورنكزيب على أبيه .

كما استوحى اقبال جو الاسطورة اذ ما تزال أساطير الانسان الاول معينا لاينضب للوحي الفني ومما تزال قادرة على أن تخصب أي فكر يستعين بها (2) اذ من مزايا الرمز الاسطوري الكيفية السحرية التي تظهر بها موضوعاته وأشياؤه وذلك التشكيل الدراماتي للعالم الذي يسيطر عليه دائما طابع الصراع (3) ومنه فان الاديب في حاجة الى الاستعانة بالخبرات القديم كلها حتى يستطيع أن يحدث مايسمى "التحويل الرمزي" (4) من بين القصص الاسطورية التي تردد تعبير صفحات الديوان قصة الاسكندر والخضر وقصة الملك جمشيد ، استوحاهما الشاعر ليس من أجل سرد تفاصيلها المشغولة بالخرافات الطويلة ولكن من أجل خدمة صورة الحياة المعاصرة ، فالاسكندر رمز القوة والبأس الشديد وجمشيد رمز العرش العلمي ، ولكن لا الاول يستطيع أن يسلب سعادة الناس لأن قوته لا تمتد الا الى مرئي محسوس وكذلك الملوك لايقدرون على أخذ شيء غصبا الا اذا كانت تقع عليه العين وتقع عليه اليد ، وتقيده السلاسل ، أما السعادة الحق فلا تلمس باليدي ولا ترى ، كما أن ملك جمشيد المبني على دعامات مادية لا يفضل تلك السعادة أو يدانيها فأنى للملوك استلابها ؟

- الكلام يأتي بالالم والغم ، ولكن الالم والحزن أحسن ، فالانين المتواصل بالنسبة لي أحسن .

حتى الاسكندر لايستطيع أخذ سعادتي ، وتلك النغمة العذبة هي أفضل من ملك جمجاه (5) وكانت قصة الاسكندر التي تروي بها القصر ورحلته من أجل غرفة من ماء الحياة منبعا

---

1 - رسالة الصدر ، ص 305 .
2 - [illegible] واد ، مجلة آداب القاهرة المعاصرة ، ص 43
3 - عبد الحميد يونس ، الرمز الشعري عند الصوفية .
4 - [illegible] واد ، مجلة آداب القاهرة المعاصرة ، ص 74 .
5 - رسالة الصدر ، ص 225 .

ثـــراً ، استقى منه اقبال عبرة للناس وذكرهم بأن الاسكندر صاحب القـــوة والعلم والرخاء ما استطاع بسلطانه أن يضمن لنفسه الخلود ، فذهب وذهب معه كل ما يملك ، ومن الشعوب ما تموت بموت ملوكها ، بل تبقى تتجدد وان ارتحلوا :

— فذهب الاســـكندر والسيف والعلم ، وذهب خراجه وكنزه وبحره

فاعلم أن الشعوب أخلد من الملوك ، ألا ترى أن ايران باقية وان جمشيد ذهب(1)

وهكذا كان التراث بأسطوريته تفكيلا فنيّا من أجل ايصال حكمة للمجتمع وهي اعلم ان الشعوب أخلد من الملوك .

ومن التراث استوحى اقبال قصة الخضر ، فقد نبت في التراث الاسلامي ، قصص القرآن ، روايات المسلمين عن اساطير الناس القديمة ومنها الفارسية ، اخبار عن حكمته وعن العلم الذي ألهمه الله ، بحيث اتفقت جميعها على أنه كان مرشداً ، ليكن مرشد موسى عليه السلام أو مرشد ذا القرنيين ، أو ليكن مرشد الاسكندر ، أو مرشد كل باحث عن الحقيقة هذا الرمز التراثي المشترك لجأ اليه اقبال لا لينقله بكل تفاصيله ومجزئياته ، فقد تجاوز حدود زمانه ومكانه ليصبح للناس تصورا ربّما سيسلط على بعض العقول فجعلها حبيسته وصرفها عن العمل الى اضاعة العمر في السؤال عن الغيبيات ، وهو اذ يقذف بتلك الحكمة على لسان الخضر انما ليخدم بهذه الصورة الفنية التراثية واقعه ، ويعطي لما يذهب اليه ويدعو الناس اليه مصداقيه لها جذورها في التاريخ والتراث :

— لاشيخ يعرف خبرا عن بدايته (أصله) ، انه يدور في حلقة الايام والليالي .

فقد سمعت من الخضر هذه الحكمة الثمينة ، ليس البحر بأقدم من أمواجه (2)

ومن التصور الاسطورية التي تحول بها اقبال تحولا رمزيا قصة فرهاد ، نحّات الجبال اذ جعلها رمزا لسرورة أفول نجم الظلم ، كما اتخذها رمزا للصراع القائم في العصر الحديث بين الرأسمالية وطبقة العمال ، وهو أمر يدل على براعة اقبال في استخدامه للتراث وانتقائه لما يلتقي من أحداثه مع مضمون تجربته الشعرية ، كما يدلّ على قدرته على التحكم في التراث وتطويع أحداثه وفق مارسمه من أهداف ، بحيث يجعل من الصورة التراثية الواحدة معادلا فنيا لصورته فكريتين دون أن يرهق صورته الفنية أو يظهر عليها التكلف والاستدعاء ،

— قوة الملك زالت ، قد أغير عليها ، وضعي لحين الاسكندر وضعت نعمة دارا .

---

1 — رسالة الشرق ، ص 240 .

2 — رسالة الشرق ، ص 230

حمل فرهاد تحيات الرسال الفأر بيده ، قاصدا ملك پرويز ، فقد ولّت خدمة الاسياد وانتهت محنة العبيد (1).

ولخدمة الفكرة نفسها أعقب اقبال هذه الصورة الترائية بصورة أخرى وتلك من مميزات اقبال وأهمّ خصائصه ، فهو لايترك للقارئ فرصة للتردد أو التفكير حتى يقنعه فكريا وفنيا ، انها قصة يوسف عليه السلام الذي تحول من سجين متهم مملوك الى مالك لزمام الامور و حافظ لخزائن دنيا زمانه ، وبذلك قامت هذه القصة هي الاخرى رمزا لفكرة راسخة في اعماق اقبال ويتمنى منه أراد أن ينقلها الى القراء ليعيشوا حقيقتها كما عاشها ويوقنوا بحتميتها كما أيقن هو بأن عسر الحاضر تصيره ايام طوال ، يقول :

- ويوسف أخفى من سجنه لكي يصير ملكا ، فقد توارت خرافات زليخا وسحرها ولى (2).

وتبقى فكرة استغلال الرأسماليين وامتهانهم للانسان محورا هاما يشغل فكر اقبال فيمضي يقلب صفحات الماضي لايجاد صور أخرى مماثلة لها ، معبرة عنهما في التراث ، ليعيد تشكيل عناصرها الدينية والاسطورية والتاريخية على لسان رجل ايران القديمة مزدك وهو الذي دعا الى مساواة الناس فلا يفضل أحدهم الاخر فيما يملك (3) وهو العارف لجزء من تاريخ بلاده ، فصوره يعلن عن ميلاد ايران جديدة تمحي فيها الفوارق القديمة بموت الملوك والامراء والاسياد ، ثم أعقبها بصورة ترائية عن الخليل ابراهيم وملقيه من النمرود من عذاب في سبيل الحق ، أو كما فلسفه اقبال ورآه - ككل العذابات التي لها ذكر في ديوانه - أحد سبل تطهير القلب من السبودات القديمة ، ثم أعقب هاتين الصورتين بصورة ترائية ثالثة للموقف نفسه هي قصة پرويز الملك وفرهاد العبد القتيل الذي آن له أن ينهض ويسترد حقه الضائع .

فهذه ثلاث صور ترائية في ثلاثة أبيات من الشعر سكبها اقبال جميعا في الدعوة الى الثورة ضد الظلم ، يقول :

- انما انبجست بشرة ايران من (ذاهاب) مزارع القياصرة ، فالموت يخيم على قصور الملوك والا احترق الخليل مدة في نار نمرود ، حتى يطهر حرم قلبه من الاصنام القديمة .

قد مضى زمن پرويز فياقتيل پرويز انهض ، واسترجع المجد الضائع من خسرو (4)

والى جانب ارتباط الشاعر ببيئته الهندية واستعانته على أفكاره بصور منها ، فان

1 - رسالة المشرق ، ص 361 .
2 - رسالة المشرق ، ص 362 .
3 - انظر ص 48 من كتاب ماوراء الطبيعة في ايران ، ففيه يسمي مزدك اشتراكي ايران العظيم . يقول : « قد ظهر نبي الثنوية القديم في عهد أنوشيروان الملك العادل . . . وعند مزدك أن الناس جميعا يمتلكون سواء ، أما فكرة تملك الفرد فما كانت الا من نزغات الشيطان ، وهو عدو يرغب في جعل دنيا الرب مسرحا للشقاء ليبرأه من نهاية . . »
4 - رسالة المشرق ، ص 367 .

كان يعرف أبعاد انتمائه التي حددها من قبل (فهو ممتد بجذوره الى الهند والى شيراز والى الحجاز) ومن البيئة العربية الحجاز ،اختار أعمق الصور بها ، أي راس القافلة (1) ، فلأجراس القوافل جذورها العميقة في الحياة العربية ،أيمن يستحيل التركيب بالحداء على مشارف الطريق ، ولها في الشعر العربي والفارسي حضور قوي وتردد كثير ،وهذا يدل على حنين الشاعر العميق الى تلك الحياة البدوية بقوافلها وحداتها وأجراسها ، يقول :

- من ألحاني اخترت رنين الجرس ، فالحاني واحدة من أجراس القافلة .

أنا منذ عرفني أتقد الالحان الشديدة المحاذة ،لأن الحمل ثقيل والمسافرين نيام(2)

ويوعي منه بجوهر التراث وطبيعة الادب والفن سايير اقبال سنة الحياة في التطور والتجدد دون أن يغفل الماضي ،لأن التجديد البناء لايهدم الماضي وانما يفيد منه بمقدار مايخدم الحاضر ويعدّ للمستقبل ،ان تجديده في التراث في منظومته "حداء" وغيرها من المنظومات هو التجديد القديم نفسا الحياة النفسية الواعية في النص الادبي غير "نتيجة التمازج والتفاعل بين القديم والحديث" (3) ومن صور التراث العربي القديم اختيار اقبال صورة الناقة في رحلتها ، وهي التي جعل منها الصوفية "رمزا على التفسير التي تستغل السير لتقطع مراحل السلوك متجاوزة عقبات الطريق المضنية الى الله ،ورمزا على الاعمال الباطنة والظاهرة التي يحمل عليها الصوفي في هجرته الى الله" (4) . وأما صاحب الناقة فهندي ،وهو الشاعر نفسه ،وفي هذه الصورة تفاعل اقبال بالتراث وعاش جزءا منه وذاب فيه ، الناقة تسير والشاعر يهمس في أذنها وينشدها لتواصل المسير ،حداء أشبه بحداء شعراء العرب لنوقهم ، ولكنه متفرد عنه بصوره الدقيقة ، فناقة اقبال هي سعادته لليقظة ، وهي مصدر تحسسه عليه الصور وتثار منه ليلمى ،هي السفينة التي لا شراع لها ،وهي السحاب العابر لضفتها ،وهي غزال الختن ،وهي التي تنيم القمر وتبيت الليل ساهرة ساهرة .

جمع اقبال في هذه المنظومة بين التقليد والابداع ،ولكنه لم يقف بحداته عند حدود الموصوف وان لم يكن واعيا تنزيريا لما فيه من تركيز على بعض الحالات النفسية ، من سعادة يقظة وغيرة وحسد ونوم وسهر ،لم يقف عند هذه النقطة لطل مجترا لما جاء به الراحل ،فقد كانت لاقبال غاية وهدف عظيم دلت عليه عذوبة الحداء ورقته وشفافيته ،ولو كان كأهداف كثير من حداة العرب القدامى ، ولو كان يريد من ناقته أن توصله الى ديار الاحبة أو اطلالهم أو توصله الى ظعائنهم لحدد نداه انسجاما عن الواقع اذ لم تعد النوق وحدها أداة سفر - والديوان

---

1 - والجرس هو الصوت والصوت نفسه ،أجراس الحادي اذا حدا للابل (لسان العرب
2 - رسالة الشرق ،ص 242 .
3 - ربيع محمد علي عبد الخالق ،أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر ص 55 .
4 - عاطف جودة نصر ،الرمز الشعري عند الصوفية ،ص 7 و 16 .

شاهد على ذلك به نظومة الطائرة (1) ولعدد نساء ابتعادا عن الانتماءات القبلية التي حددتها زالهند وطن انتماء الجسدي التراثي ،والحجاز موطن الدين وبغداد موطن الفن) ،ولكن هدف اقبال كان عظيما ،به أحيا ما أميت في الأرواح والنفوس من حنين وتعلق الى الحرم الشريف ،فكانت الصورة التراثية بكل عناصرها بعثا لقديم ، كانت له حياته كفكرة مجردة ولكنه كان ميتا في نفوس المسلمين ،وكانت الصورة التراثية خلقا لوجهة جديدة يجب أن يلتفت اليها المسلمون ، من ذلك قوله :

- يا نسائمتي السحارة ،يا غزالي التتري ،يا رهبي ودنياي ،ياكل ما أملك (من قليل أو كثير) يا سعادتي اليقظة ، حتى الخطى سريعا فمنزلنا قريب ...

ألحاني آسرة للقلوب ، تلك الألحان الخافقة والمرتفعة تتعبق الارواح ، هي جرس(1) القافلة هي الداء والدواء (هي الساحرة وهي مخرجة السحر) ،يا من تتسجدين في الحرم ، حي الخطى سريعا فمنزلنا قريب(1) ،

وكان الحظ الأوفر من التصوير بالتراث للصور التراثية الدينية المستمدة أحيانا من القرآن الكريم وقصصه وأحيانا من عناصر الشريعة الاسلامية وأحيانا أخرى من سائر الديانات والمعتقدات كالمسيحية والهندوسية ،

فمن التراث القديم ، تراث ماقبل الاسلام ،سار بنا الى سالكي العهد القديم اذ التراث ليس هو التحويل الحرفي ،وانما هو عودة الى الواقع ونصيحة للاجيال الحاضرة ، لأن الحكمة ضير كنز يراث تتشى وجده المرء أخذه ،وان كان من سالكي العهد القديم ولو كان اقتداء بهم ، يقول :

- لقد استعرت هذه الخمرة كسالكي العهد الاول ، من عين الساقي الناعسة السكرى (2 ولاينكر اقبال الهندي هنديته ،ولايخفل التراث الهندي ،الا أن فهمه لذلك التراث يختلف عن فهم الهنادك له ،فهو يستعين بالتراث الهندي بقدر مايخدم فكرته التي يؤمن بها ويحقق هدفه وهنا تكمن قيمة الصورة الادبية وقيمة التصوير بالخبرات أيمن يحفظ الأديب أو الفنان نفسه فلا يتحول الى عبد يسيّره تراث الأمم الاخرى كيفما تشاء - وهذا ما حدث لبعض اعلام الادب العربي المعاصر شبه اقبال المتمثل في سيطرة كثير من الظنون والاعتقادات عليه بابنة البراهط الواجب عليها أن تحمل حزام أبيها توكيدا لبرهبتها ،فقال :

- انه يخفي في ثنايا ه من المعشوق ،ان ابنة البراهط التي تحمل حزام براهما (3)

---

1 - رسالة المشرق ،ص 272 - 282.

2 - رسالة المشرق ،ص 209.

3 - رسالة المشرق ،ص 208.

أما التراث الاسلامي وهو الاوفر مجالا فنجد منه قصة الطور التي رمز بها اقبال للحنين الازلي الكامن في كل نفس الى المولى عز وجل ، يقول :

- وقصة الطور لا تبلى أبدا ، ففي كل قلب (تتنفس) أمنية الكليم (مائلة) (1).

كان التجلي أمنية موسى عليه السلام وأسمى أمانيه جميعا ، ومنها يتعلم الانسان دون أن يقف عند حدود ما وصله وكيف يقف عند حدود دعاء موسى وقد جاء بعده الدين الجامع الخاتم ، يقول :

- نظرتك قاصرة وعقلك عاجز ، ودعاؤك لا يستطيع أن يصل سوى الى دعاء كليم الله موسى وصلواته (2).

وهكذا تأمر اقبال بالتراث ودعا الى الافادة منه ولكن ليس الى الاقتداء به مثلما كان لأنه ابن فترة معينة ، فلابد من ابداع فيه واضافات اليه دون خروج عن هن أهدافه.

وله صورة الصراع الدائم بين القلب والعقل الذي اشتد أواره في العصر الحاضر أين مال الناس الى تقديس العقل وعبادته والحط من شأن القلب وكل ماله صلة به أو بالروح ، على أنه سبب قرون من الظلمات ، هذا الصراع الذي ظهرت نتائجه اليوم وذلك الصراع الخفي بين العقل والقلب والذي قد تظهر بعض آثاره في سلوكات البشر ، أبدع له فكر اقبال صورة فنية مقابلة استمد عناصرها من التراث ، لم يكن فيها مجترا لما تختزنه الذاكرة . وبذلك يبلغ حقيقة العمل الفني كما وصفه اليوت بأنه : "هو ذلك الذي ينتمي الى تراث الأمة الادبي من ناحية ولا ينتمي اليه من حيث هو عمل جديد يضيف على هذا التراث ويعدل فيه ويجدد تسطرتنا اليه " (3).

الكل يعرف قصة ابراهيم الخليل ونار النمرود الذي ظن أن النار هي السلاح الوحيد الذي به يقضي على ابراهيم ، وتحجر العقل ورأى أن قتل القلب يكون بالتضييق ، فأخطأت موازين النمرود وموازين العقل ، وكانت النار والتعذيب صقلا وتهذيبا وتطهيرا لابراهيم ، وكان الخفقان والتضييق حياة للقلب ، يقول :

- لماذا تسأل الراني عن معاني القرآن ، وضمائرنا علامة على آياته (هي الدليل الى آياته) .

فالعقل يشعل النار بينما القلب يحترق ، وهذا هو تفسير قصة النمرود والخليل (4)

ولعلنا لا نستطيع الفصل بين التراث والرمز اذ تقف الصورة التراثية في كثير من الاحيان

---

1 - رسالة الطور ، ص 203.

2 - رسالة المشرق ، ص 350.

3 - ريحي محمد علي عبد الخالق ، أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر ، ص 13.

4 - رسالة الطور ، ص 363.

رمزا لفكرة معينة ، أين يتجاوز الشاعر حدود كلمة يعينها ليجعل من الصورة كلها رمزا . ومن الخفايا التي رصدتها ريشة الشاعر وابداعه تلك الطبيعة الراسخة في النفس البشرية ، وهي طلب المزيد ، والحنين الفطري الذي يتبعه توق المرء للفوز بكل عالم يدركه ماديا كان أو معنويا وان ملك خزائن الدنيا ، وان أقام في جنات الفردوس ، وهي حالة لا يدركها الا متأمل لطباع البشر وليس هناك ملك أو نعيم أو سعادة أعظم من سعادة أهل الجنة بما حباهم به الخالق من نعيم الا أن اقبال ليزيد فكرته جدة وصراعة شكل صورة للحور وحقق بهما احدى سنن الله في الخلق وهي حب معرفة كل خفي ، وحب نيل كل بعيد عن اليد ، وبذلك تحول بها المدركات الى الرمز فالى الواقع فالى رصد الخفي منه ومن طبائع البشر :

— فاذا قلت حورية يسرحن في الجنة فقالت ، لا أحد عرفنا بالوجه الآخر للحياة فاننا لا نعرف لا السحر ولا المساء ولا الليل ولا النهار ، وعقلي حائر في قولهم ما تولد (1) . وحتى الفلسفة المعاصرة والفلاسفة المعاصرون والعلم والعلماء طوع اقبال لتصويرهم الترك ، كما طوعه لتصوير الخلافة التائمقينهم وبين ابداعاتهم ، وطوعه لتحليل عناصر ذلك الابداع نفسه ، فمستمد آينشتاين ، كان مبدعا وكان لابداعه وجهان ، الاول يحمل الخير والاخر يحمل الشر والوبال ، ولا رمز أقوى للتعبير عن الشر من الشيطان ولا رمز أقوى للتعبير عن الخير من جبريل وأمثاله من النورانيين ، فكان الترك أداة لايصال أفكار اقبال ونقل مواقفه وتصوره الخاص .

وكما عودنا اقبال على الصور المتتالية للفكرة الواحدة والاحساس الواحد فقد أعقب الصورة بصورة تراثية أخرى ، اذ مثل ذلك الفكر أشبه بأبناء من نسل هارون وموسى ولكنهم مع ذلك زرادشتيون و مجوس وبذلك يجتمع فيهم الشر والخير ، يقول في الحديث عن منزلة الفيلسوف آينشتاين :

— هو أصل النور والظلام والنار والخفوت والموت والحياة ، من ناره شيطان ومن نوره جبريل والحور (2) .

بماذا أقول في تقدير مقام هذا الحكيم العظيم ، هو زرادشتي تجلى من نسل هارون وموسى (3) . ومن حياة المسلمين وعناصر شريعتهم الصلاة ، ولها جاء اقبال بتلميح عذب بديع الا مسه من نوم المسلمين عن قرآن الفجر ، فقال :

---

1 — رسالة المشرق ، ص 25 .
2 — رسالة المشرق ، ص 36 .
3 — رسالة المشرق ، ص 370 .

- لقد مضيت مسرين الخطى يا نجم الصباح ، وربما مضيت ضائقا من نومنا أنا من غفلتي أنك مضيت مسرعا وحيدا ، أما أنت فجئت يقظا ومضيت يقظا (1).

وهي صورة فنية بديعة ، فيها من مواجع اقبال متجلت في المقابلة بين معاني الصحو والنوم ، وفيها تشريح عند يد للانسان الذي فضل على كثير من المخلوقات وتفوقت عليه تلك بصحوها واستسلم هو بضعفه للنوم .

ولعل اقبال لايقصد غريزة معاني صلاة الصبح وقرآن الفجر عن النفوس فحسب وا نما يرمي الى كل التيمم الضاعة في ديار المسلمين المغرّبة عن قلوبهم وأرواحهم .

هيام الادباء العصريين والمسلمون بكثير من أعياد الأمم الاخرى مثل عيد النوروز ، عيد الفصح وأعياد اليونان والرومان ... وكان أمام اقبال ركام من الاعياد بقدر ركام ثقافاته (عربية ، فارسية ، أردية ، أنجليزية ، ألمانية وقبل هذه بعيدها ثقافة اسلامية) ، فاختار من مناسبات المسلمين العيد الذي جاء بصورة جديدة له ولهلاله .

من من المسلمين لاينتظر الى هلال أول الشهر ويقف به على حساب الزمن ، ومن منهم لم يتعلق ببصره يتأمل هلال العيد وهو يمثل بظهوره شعائر المسلمين ومناسكهم ، أعين تتجه اليه في مشارق الأرض ومغاربها فتطوقه كما تطوق الشراك العيد ، أما الذين يتأملون هزال ذلك الهلال ويفكرون فيه ومنه في ضحالة أنواره في أيامه الاولى ، وأما الذين يحاولون تبرير ذلك الفقر الى النور بأن الهلال حينها يحمل دلالة على كمال شهر وميلاد آخر من جهة ، فقليلون ، ولأنه هلال عيد فان كماله في ذلك النقر اذ يقصره وهزاله يبارك الله ذلك اليوم ، ويفقره تغني القلوب والارواح والأمم ، وهكذا كانت الصورة التراثية معادلا فنيا أكبر من الفكرة نفسها ومن الصورة الواقعية ، يقول :

- يا هلال العيد أنت هلا تستطيع فرارا من نظرات الشوق ، لقد ألفت مائة نظرة في طريق شباك صيد .

فانظر الى نفسك فان فقرك لن يضرك ، ففي صدرك يوجد البدر كاملا (2) .

وبهذه الصورة الفنية أكد اقبال حاجة الشاعر القومية الى التراث بكل أبعاده اذ الانسان بماضيه وحاضره ومستقبله ، ومن يقطع نفسه عن ذلك التراث الانساني ومن يقطع نفسه عن تراث أمته ، فانه يكون قد قطع نفسه عن ماضيه فيعيش حاضرا مبتورا .

كما أكد اقبال بهذا تماسك الفن مع التراث أن النص ليس تمثلا للتراث أو ابرازا

---

1 - رسالة الشرق ، ص 200 .

2 - رسالة الشرق ، ص 254 .

لكل جوانبه ، وهو ليس مجرد سرد لقصته الاسطورية أو الواقعية أو مجرد مرور عابر بأحداثه وعناصره ، ولكنه تفاعل ذات (الفنان) الاديب لعناصر التراث وتفاعل الاداة الفنية بصفتها تشكيلا لنسيج النص من ذلك التراث لا بكل أجزائه ، ثم تفاعل هذه جميعا (أعني الفنان ، أداته ، الصورة التراثية ...) وذلك ماكان من اقبال في الديوان ، فقد تفاعل بعمق مع عناصر ما وظفه في النص من تراث وجعله خادما لفكرته التي أراد مخاطبة الناس بها أو كشفها لهم وخادما أيضا للهدف الذي سخّر له تلك الصور الفنية التراثية ألا وهو التبصير والتصحيح والتغيير والتجديد .

د - التصوير بالقصة :

ومن بين عناصر صور اقبال التصوير بالقصة أو الحكمة أو المثل ، النقد بواساتها أو الاصلاح أو الرد أو التربية .

ولعل هذه الرؤية وسيلة من وسائل اقبال في تصويره وايصال أفكاره ، وهي وسيلة عالما وجد لها أثر في الفكر الاسلامي الذي ارتبط ارتباطا وثيقا بالامثال والقصص ، فقد كان للعقلية العربية والفارسية تراث ضخم ، من الامثال والحكم ملأت دفات الكتب وقدمت للناس دروسا وعبرا ، وهي العقلية التي لم يشذ عنها اقبال حيث وجدناه يستعين بالتصوير على أداء أفكاره وهو قصص في الغالب رمزي أبدع عبره خيال الشاعر وكثيرا ما كان ينطلق فيه الطبيعة والكون بكل ما فيهما من أحياء وجمادات (الورود ، الشقائق ، الشمع ، الفراش ، اليراع ، الطيور ...) في محاورات أدبية ظاهرها قصص أبدع فيها الخيال ، وباطنها جدّ وحكمة لأنها تحرك نفس القارئ وتبعث فيه تأملات وتساؤلات ، فاذا اتصفت تلك الكائنات بذلك القدر من الحكمة والسعي والجد والاعتماد على النفس ، فالاولى بالانسان أن يتصف بذلك .

واقبال اذ يلجأ الى هذا الصنف من ضرب الامثال والقصص والحكم ليحرر به افع الخوف من ظلم الحكام واستبدادهم ، وانما بدافع فنّي لأن هذا النوع من التعبير أصبح من وسائل الاداء الفني في الأدب ، ثم أن "التمثيل كلام الانبياء" (1) وهي أداة اصلاح وأداة جمال فني خاص فيها يكون الجمال الفني اداة مقصودة للتأثير الوجداني تخاطب حاسة الوجدان

---

1 - ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 4 ، 1983 ، بيروت ص 48 .

بلغة الجمال الخيالية ، (1) و تمثل جانبا هاما من التراث الثقافي في كل أمة وتنطق بتجارب الانسان وتعكس قيم المجتمع (2).

وربما كانت أكبر غاية للقصة ولضرب الامثال عند اقبال هي بعث الانسان جديد والمجتمع جديد شبيه بالنماذج التي قدمها في قصصه الكثيرة التي وان اتخذت ظاهرا صوفيا فان لها أهدافها العملية الواقعية .

والقصص عنده ، ليست فقط على لسان الحيوان ، وانما هي قصص حكاها عن الطبيعة بكل ما فيها من أحياء وجماد ات ، مرة يكتفي بسرد ما تخيله بين عناصرها ومرة يترك المجال لأطرافها لتدخل في حواره ، ولكنها تنتهي كلها لتصب في بوتقة الانسان تقدم له درسا أو عبرة أو نصيحة ، وتصحح له اعتقادا خاطئا ، أو تكشف له أمرا خفيا ، فهي قصص وحوار حوأمثال من أجل الانسان جمعت بين الفن لأنها من ابداع خيال الشاعر ولأنها تحمل في ثنايا ها رموزا وايحاءات فنية ، وبين الوظيفة الاجتماعية لأنها موجهة الى المجتمع لتخدمه بطرق شتى ، ونظرا لغلبة هذا الاسلوب القصصي على جزء كبير من الديوان فقد عمدت الى اختيار نماذج منه تتجلى فيها معالم التصوير بالقصة والتمثيل . سبعة رباعيات أو لنقل أربعة عشر بيتا كانت كلها لصورة قصة ، كان الحوار أهم وسائلها ، يمكن اعادة صياغتها على شكل حوار مسرحي بين غصن ورد وعصفور ، وفيه كان النصيب الاوفر للغصن الذي يحمل على ساقيه كل المتناقضات التي لا تقوم الحياة الا بها ، بعد مقدمة لم تزد عن البيت :

ـ ما أعجب ما كان يقول غصن للطائر مترنم ، في البستان وقت السحر .

الغصن : بح بكل (ما) الذي في صدرك ، سواء أكتمان نشيدا أو نواحا أوتأوها .

اذا شئت أن تأخذ عني درسا في الحياة ، فاني أقول لك سرا بد يعا دقيقا عجيبا .

ستموت اذا لم يكن بجسدك روح ، فاذا كان في جسدك روح فستكون خالدا .

دع عنك حراسة تلك الذبالة وهي تذوب ، فحسبك احتراقها طيلة أذن .

فأنا أعد فراشة بحسن تلك الفراشة التي ، روحها في كفاح دائم وهي تتمتع بذوق الشعلة .

ليس لدي ذلك الشراب الطرب ، الذي يجعلك غريبا عن نفسك

فلا تفتش عن متاع غيره عندي (في سوقي) ، فليس لدي سوى صدر ممزق كالوردة .

ان سرت في بستاني فلك الخير والاذى ، ان لم تكن روحك شهيدة العشق والطرب .

فأنا أبدي تلك الاسواك الكائنة في أغصان الزهر ، وان ربيعي ليس ذلك الزيح العجيب من اللمسون والأريج .

---

1 ـ سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق بيروت ط 11 ، 1405 ـ 1985 ص 43

2 ـ محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الاسلوبية في الشوقيات ، ص 331 .

الحسن من منطلق الوجود والعدم ، وتجاوز دنيا الكم والكيف (كن أكبر منها ...) واعمر كيانك بالذات ، واعمر البيت الحرام كابراهيم (ارفع القواعد)

العصفور : أنا غريب عن طيور الروض ، فأنا متفرد اللحن فوق غصن العنق .

الغصن : ان كنت رقيق القلب فاجتنبني ، فان دمائي تقطر من نغمتي ولحني (1).

فهذه صورة رؤيوية تفذ بها الشاعر من الرؤية البصرية الى الرؤية الشعرية ، وهي قصة لاتصلح لأن تقرأ فقط ويجهد للشاعر سعة الخيال الذي أبدعها وانما هي قصة تقرأ لتحليل رموزها وينظر الى غاياتها ، وكأنها تخاطب كل من يتأملها ، "هكذا كن أو لاتكن" واذا أخذت فلسفة الحياة من الفلاسفة كتبا ومجلدات فان لاقبال وللشعر طريقته الخاصة في تناولها ، لقد لخصها اقبال في بيتين من الشعر ، في حوار لطيف بين البرق والغمام. الغمام رمز البكاء والبرق رمز الاشراق والوعي الخفيف ، ولحظات السعادة القليلة أو أنفاسها ، يقول :

- بكى غمام الربيع وانتحب في جنح الليل وقال : ، ان هذه الحياة بكاء أزلي .

فلمع البرق الخاطف أن ، قد أخطأت انها لمحة من الابتسام (2)

ما الحياة؟ ومن يستطيع أن يفهم حكمتها ؟ وما السبيل الى تجاوز الموت الذي يتهددها بالخلود؟

الاجابة في فكر اقبال بسيطة ، ان ذلك لايكون الا بالسعي والجهاد ، وهي حكمة لاتستفاد من الكتب وانما من الحياة نفسها ، وقد ابتعد الشاعر في طرحه لفكرته عن الاسلوب المباشر بأن صاغ فكرته في قصة أساسها حوار قصير بين سوسة كتب عليها معاشرة الكتب ، وفراشة كتب عليها معاشرة الحياة ، ومن هنا يكون اقناع الادب وتأثيره في الشعور والوجدان .

سؤال قصير تطرحه سوسة الكتب ، تمازجه الحيرة والقلق لأنها ظنت نفسها وهي المجاورة لتراث العلماء والفلاسفة أنها تملك سبيل الوصول الى الاجابة عنه من صفحات الكتب والمخطوطات ، وهو سؤال يطرحه كل من لم يصل الى تلك الحقيقة ، يقول :

- سمعت بمكتبتي ذات ليلة ، سوسة الكتب تقول للفراشة ،

جلست على أوراق كتب ابن سينا ، ونقبت كثيرا في مخطوطات الفارابي (3)

ولكنني لم أفهم حكمة الحياة ، وهكذا أقضي أيامي بلا نور وفي نفس الظلام (4)

---

1 - رسالة المشرق ، ص 203 - 205.

2 - رسالة المشرق ، ص 266.

3 - رسالة المشرق ، ص 273 - 274 .

4 - رسالة المشرق ، ص 274.

فيأتي الجواب وهو الفكرة التي آمن بها اقبال وأراد أن يكشفهما للناس ليؤمنوا بها على لسان الفراشة في بيتين من الشعر ، يقول :

- حسبنا قالت الفراشة المحترق نصفها (لم يكتمل احتراقها) ، انك لن تجد ى هذه الحكمة في كتاب .

انه السعي والجهد (الكفاح) الذي يجعل الاحياء أكثر حياة ، انه السعي الدؤوب الذي يمنحها الاجنحة (الطكينة) .(1)

فكان الكشف بالتصوير التصحي ، وكان بذلك اجتماع الجمال الفني والجمال الاجتماعي والجمال الفكري .

ومثل هذه القصة قصة الفخر والكبرياء ، فلكي ينتقد اقبال الظاهرة انتقدها بالفن وبالتصوير وبالتشخيص فما لكبرياء داء يجب استئصاله من المجتمع ولكن قبل القضاء عليه لابد من تحطيم أصنامه في النفوس بتبغيضه اليها وبيان أضراره بصورة أبدعها خياله هي على بساطتها ووضوح معانيها تعبر عن غايته ، حوار بسيط بين قطعة جليد ومجرى ماء على سفح الجبل ، وبلغة الصورة التي قدمها خياله استطاع أن يصل الى مخاطبة العقل والقلب معا .(2)

وقد يخلق اقبال لقصته راويا يسردها ويكون بدوره طرفا في حوارها أو سيرا لدفته فيجعل التائر ينتقل بين قال وقلت ، في منظومته قطرة الندى ، كان الراوى قطرة الندى نفسها ، وهي التي شبه بها الانسان في صراعه للحياة أكثر من مرة في ديوانه -

بدأت تلك القطرة تحكي قصة حياتها وكفاحها التي هي قصة حياة الانسان وكفاحه ، ثم أعقبها بتفاصيل الحوار الذي دار بينها وبين الوردة .

عشر أسئلة محيرة من الوردة تخامر الاذهان :

- قالت لي الوردة : عالم تدل (ماستر) جلبة الطيور في السحر ، ولماذا هم مجتمعون بانتظام على الشجر ؟ ، ما السفلي ما العلو ؟ ، ما الخفي ما الجلي ؟ ، لماذا شوك الورد ؟ ، من أنت ، من أكون ؟ ولماذا صحبتنا ؟ لماذا يجلس فوق غصني هذا الطائر الصغير الطرب ؟ ما هذا الغناء ؟ ، ما هذا في ريح الصبا ؟ ،

---

1 - رسالة المشرق ، 274 .

ما هذا العالم القديم (الحقيد) (1) وتأتي بعدها الاجابة على هذه الاسئلة:

- فقلت (قلرة الندى): ان الرياض (الخمائل) هي حقل صراع الحياة.

هي حقل يفتهي بلذة الفراق، النفس؟ انه لحن دافئ، الروح؟ انها كاشفة الحجب، انها سرّ الهي، أنا نزلت من عالم الافلاك، وأنت تنفست من تراب، انه من لذة ظهورنا وتجلينا تنفست أنت وقطرت. ... لقد مزّقت مائة حجاب حتى تصلي الى نفسك، ان الدمّ الجاري في عروق الزمن هو من دموع سحرنا، (وتسألين) ما السفل ما العلو؟ انها خدعة أبصارنا ... فانهضي وابتعدي بقلبك عن صحبة القديم، واختاري من جديد صحبة الشقائق وشمس الوجود والاضطراب، وصاحبي أهل النظر، وافتحي الفلك بعينك، مثلي، وفضّلي (قدمي) التحليق على كل شيء (2).

بهذه القصة عالج اقبال قضايا فكرية كبيرة ومشكلات فلسفية حول الحياة والوجود، حول النفس والروح، حول الكون، لو نقلها الشاعر بأسلوب مباشر لحوّل القصيدة الى جدل فلسفي منطقي قد يقنع بعض العقول، وقد يثير جدلا عنيفا حادّا وربما يصل الى حدّ العراك، ولكن عرضه تلك القضية في قالب قصة مسّهد السبيل و فتح لتلك المعاني الكبيرة طريقا الى القلب والوجدان وأوجد لها أصداء في النفوس التي تميل من حيث لاتدري الى الايحاء والتلميح دون التصريح والمباشرة.

أما في منظومة الحياة فقد كان المراد اقبال نفسه، وكان الشيخ طرفا اخر في الحوار الذي دار حول حقيقة الحياة التي تجمع بين أضداد شتى قد تثير تساؤلات، وقد تضلل تعبيرا ولكنه يسقي مجرد فكرة خطرت على البال دون أن تثير من الواقع شيئا، اذ لابدّ للخير من شرّ يمد فعه الى رسم طريق للخلود، أما تساؤلاته تلك فقد حبّهما في حوار له مع شيخ ذ حكيم قد يكون مرشده الروحي جلال الدين الرومي تخيله اقبال والقى بالاجابة على لسانه، خلاصتها أن للحياة خمر الأمر فيها يصبح أحلى، وان ما تراه من شرّ فيها فربما كان منه الخير وربما اعتبرته هي خيرا: "أنت لاتعلم أن هذا الشرّ هو عندها خير":

- سألت شيخا بعيد النظر: ما الحياة؟، فأجاب: هي خمر الأمر فيها يصبح أحلى.
قلت: قد فكرت طويلا على الشرّ، فأجاب: أنت لاتعلم أن هذا الشرّ هو عندها خير.

---

1 - رسالة المشرق ص 289 - 290.
2 - رسالة المشرق ص 291.

فقلت : ان شوق (حب) السير لايحطنا الى الهدف ، فأجاب : ان ذلك الهدف مضمر في الشوق نفسه .(1)

ومن قصة الحور جاء اقبال يرمز لحكمة عاشت في نفسه وأطلت من الديوان في أكثر من بيت .

استعان اقبال بقصة الحور ليصور لحظات الطموح في أوج قمته ، حتى لو فاز بالحور وحتى لو فاز بجنة ارم وبحورها فان طموحه لايقعد به عندها وانما يدفعه للبحث عما بعدها من سعادة وأمن و يقين ، وتلك طبيعة كل طموح . ما أن يحقق أمرا حتى يطلب الاكبر منه ، ويظل العظماء كذلك يتدرجون الى أن يصل بهم الطموح غايته ، فيطلبون الملا منتهى وتكون غاية سيرهم الاعلى نفسه وهي الغاية التي لم يدن بها اقبال في هذه القطعة وانما أراد أن يشغل فكر القارئ بالبحث عن غاية الغايات ، ليبحث في قاموس أمانيه عن أمنية أكبر :

- اني كلما استمر نظري وسلبت عيني صورة طيحة ، خفق قلبي باحثا عن صورة أحسن طلبت في الشور نبعة ، وبحثت في النجم عن الشمس (2) .

وهكذا الشعور في تسامية ، وهكذا يرتقي بها التصوير الفني الى التفكير والتأمل ، فالى القرار والعمل .

أما قصة الدليقة الكادحة في العالم فتصدر عند لها اقبال أكثر من قصة ، نقتطف منها واحدة دارت أحداثها وتبادل أطراف الحوار فيها كل من لينين رافع لواء الثورة العمالية والقيصر ولهملم ، في هذا الحوار نتخيل طرفين على خشبة مسرح يتكلم الطرف الاول ويلقي بكل حججه وبراهينه الرمزية التي تتطلب أعمالا للفكر وتحليلا لدلالا تها . وبعد أن ينتهي من بيان مايحمله من أفكار ، يأتي دور الطرف الثاني ليلقي بدوره بكل ماعنده وقد كان بامكان اقبال أن يجعل الحوار بينهما متبادلا ، لا أن يبقى أحدهما ساكتا منصتا منتظرا حتى ينتهي الطرف الآخر من عرض كل ماعنده ، والملاحظ أنه ركز في هذه المنظومة على الجانب الفكري أكثر من تركيزه على الجانب الفني ، من احتجاجات لينين ، لسان حال الدليقة العاملة :

- الانسان مظلوم منتهب مثل حبة القمح تحت الرحى .

- كسنيرا مما احتال عليه الملوك والقياصرة والحكام وشاركهم في ذلك رجال الكنيسة أيضا بأسرهم له بخدعهم .

وقد آن الاوان أن يثور ويمزق ثوب سيده المذلون بدماء قلبه ، ويحرقه ويحرق ثوب

---

1 - رسالة المشرق ، ص 1 و 2.

2 - رسالة المشرق ، ص 6 و 7 و 2 .

الراهب وشوب الملك بعد أن اكتشف هندسهم .

ومن بنود قيصر واحتياجاته في صورة العمال ما يمكن تلخيصه :

- مناسب الاسياد والملوك اذا كان من طبع الناس التحلّق حولهم والالتفاف بهم ، انها طبيعة راسخة فيهم ، وهي البحث عن معبودات جديدة .

- مناسرق الملوك والتيجان وأصحاب رؤوس الاموال الا لأن الاخرين ساعدوهم على السرقة ولم يمنعوهم .

- يجد الصعب التيسير والقضاء على الهوة التي بينهم وبين الحكام ، وبين الاغنياء ، ولو فعلوا ذلك لأصبحت الصنائع تنتج (ما يشترك في استهلاكه الجميع) .

- الا أن سبب تواكلهم وانتهم هو ذلك الخضوع الفطري الكامن في أعماقهم للقوة ، الاشبه بالعروس الفاتنة والاسبه في دلالها بقيصريين التي تجد دائما المعجبين بها والعاشقين لها (1) .

ومرة أخرى يستخدم اقبال بالقصة ، والنقد بها أشد وقعا منه بواسطة الاسلوب التقريري المباشر ، فتضي تنايا هما وعلى لسان أشخاصها ينقل الاديب أفكاره ويطرح وجهات نظره .

ربما كان حديث العصر أيام اقبال العقل البشري وقدرته على الاختراع والابداع ، لأنه عمر الارض بالاجهزة والمصانع ولكنه عمرها أيضا بالدافع والدبابات وبالرصاص والقنابل ثم اتجه الى السماء ليناقس الكائنات الوحيدة التي تفرد ت بها ذوات الاجنحة فصنع لنفسه جناحا وحلّق في السماء ولكن أي شيء أصلحه في الأرض حتى يتجه الى السماء .

ذلك ما دفع حتمه المناظرة التي دارت بين اقبال وضابط مشفق على الانسان الفقير كان آخر ما قاله له :

- أصنعت عمالا حسنا في الأرض ؟ حتى جئت لتصلح أحوال السماء ؟ (لتصلح أيضا في السماء) (2) .

هـ - تكامل عناصر الصورة الشعرية :

ومرة تجد اقبال يجمع كل مواهبه ليبدع صورا فنية متميزة بتركيبها لا بما تحتويه من مواضيع لأن الشاعر لا يخترع الحياة وانما يخترع المعاني الشعرية المستمدة عنها . فالابداع انما يتمثل في المعنى الشعري ، لأن الناس لن تخترع معنى جديدا وانما تختص هيئة جديدة للتعبير ، فالناس لا تخترع الحب ولا الشجاعة

---

1 - رسالة الصين ، ص 358 .

2 - انظر رسالة الطير ، ص 359 .

ولا الاقدام ولا الحزن وانما تخشع هيئة الاحساس بذلك كله "(1) وفي معاني الاحساس بذلك اكتشافه أو علاجه أو فهمه فهما جديدا ، فلكي يلفت انتباه الناس الى ما يقول لم يقبل عليهم الشاعر باللغة المباشرة الصريحة للتعبير عن أحوال الشرق المتردية بالانتقاد ، ولكنه بكلمات موحية اجتاز الصورة التقريرية الوصفية حيث أغنته عن تراكيب كثيرة وأوصاف كثيرة لتجعلها تتداعى جميعا في ذهن القارئ وتحركه يقول :

ـ هو ولد في الخمائل وترعرع بين أحضانها ، بينما نبت أنا في أرض ميتة .

كلانا عالم بمعاني ضمير الكائنات ، وكلانا يحمل رسالة الحياة في وسط الموت (2)

كانت كلمة الموت التي رددها اقبال في البيتين من غير شرح محركة لفكر القارئ ، دافعة له الى التفكير والتساؤل : أي أرض ميتة هذه ، ولماذا هي ميتة ، وهل يعقل أن تحمل الرسائل وسط الاموات ، وينتهي في الاخير الى أدراك طبيعة تلك الأرض الميتة وذلك الوسط الميت من الناس ، ويجد نفسه عنصرا منهم ويجد لنفسه بدا في ذلك الموت الذي يشهد الشاعر فيشاركه في الادراك والاحساس بما حوله وينتقل معه من مجرد الشعور الى التفكير في سبيل للخلاص ، وفي هذا تلميح لطيف للنوم الذي غرقت فيه شعوب المشرق . وان صور اقبال كثيرا ما تدفع قارئها ومتأملها الى التفكير والتحليل والسؤال والاجابة والتغيير ، كما تدفع المتلقي الى البحث بنفسه والنظر فيما حوله .

للعلم صندوق يؤخذ منه وهو الصدر الذي يعطيه حرارة ودفئا واشراقا لأن ما تحمله أوراق الكتب ، اذا لم يهذب به عالم ، صاحب صدر مفعم ، يظل معرفة مجردة من روحها والى هذه الحكمة أشار اقبال :

ـ فخذ هذا الاول من صدور الاحرار ، وتلك انزعها من صدور الجبال (3) (العلم القوة) .

سبقت الاشارة الى أن الشعر رسم بالكلمات وأن الصورة الأدبية معادل موضوعي ومعادل صوتي ومعادل فني لفكرة أو شعور خفي ، وتحوّل بغير المرئي الى المرئي .

وذلك ما كان من صور اقبال في ديوانه ودلالتها على تمكنه من أداته الفنية وقدرته على النفاذ الى أعماق ما يتناوله ، قال :

ـ ما أكثر البشر الذين يأتون فعل الابالسة ، وما أكثر الشياطين الذين يأتون بأعمال الادارسة (4) .

في البيت معادلة بين شطريه ذات بعد جمالي فني تتمثل في حسن تقسيمه

---

1 ـ حلمي مرزوق ، النقد والدراسة الادبية ، النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ط1 ، 1402هـ ص20 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 106 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 132 .

4 ـ رسالة المشرق ، ص 132 .

وتوزيعه لعناصر فكرته على شطري البيت ،وفيه بعد اجتماعي اخلاقي في تحويل في كشفه لهذه الحقيقة الازلية .

وقد أعقب هذه الصورة التعبيرية بثمانية صور فيها تأصّل الخيانة وتجذرها في طباع الناس ،أتبعها بثمانية لظاهرة الغش والخداع التي عانى منها المسلمون .

فالمكر على خفائه عن أعين الناس والنفاق على خفائه نفذ اليهما اقبال بمعانيه الشعرية ولغته ،فصوّر أولئك الذين لايصدر عنهم الا ماشابه أفعال الشياطين يتأبطون المكر والخداع لا تصافهم به ولصوقه بهم ولركوبهم كل السبيل لاخفاء حقيقتهم عن الانظار ،يقول :

فطبعهم المكر والتلون وظاهرهم مصداق ذلك ، بينما باطنهم أشبه بكير نار دام يتصاعد دخانه .

يعتقد أنه لاعيب شريف بينما كعبتا نرده غش وخداع ، مكّار يتأبط الغدر والنفاق (1).

وربما كانت أكبر غايات اقبال من فكره وشعره ومنه من صوره القلب والتغيير ، الغاء تصور وبناء تصوّر جديد ، تحطيم فكرة وبناء فكرة جديدة لم يكن لها وجود ،أو غسل الناس عن جوهر وجودها وأوجدوا لهما صورا أخرى علقت بأذهانهم فرأوها كل شيء .

من تلك التصورات التي عمد اقبال الى قلبها وتغييرها فكرة الزهد ،فقد اعتقد الكثير أن الزهد في ثوب الصوف أو في الرقعة البالية ،فصرف اقبال الاذهان الى هدر الزهد وحقيقته لا الى قشرته ،ومما ذا لو زهد المسلم بقلبه دون اخلال بمظهره ،يقول :

- عش زاهدا تحت عباءة ملك (2).

وهو الشطر الذي أعقبه بصور شارحة له ومزيلة عنه كل لبس أو ابهام :

- فضائل المِلّة والمليك المرتجى ، هو من يكون البرق والرعد ربائب سيفه ونتائجه .

هو فقير ولكنه مليك للفلك الاعلى ، وهو كأردشير بروح أبي ذر الغفاري .

ان يكن جسده عاريا في الدروع فان له في الصدر قلبا متشحا بخرقة الصوف .

هو حاكم وليس له متاع ، وليس بيده غير السيف والقرآن (3) .

وكان هذا ديدن اقبال كلما أراد لفت الانتباه الى قضية كرّرها وشرحها وعرضها في أكثر من ثوب ،وربما ألبسها الثوب نفسه في أكثر من موضع ،وذلك منه تصحيح بالفن ورسم لفكرة جديد وبناء لها بالكلمات ففي الديوان صور كثيرة متشابهة .

---

1 - رسالة المشرق ،ص 21 .

2 - رسالة المشرق ،ص 10 .

3 - رسالة المشرق ،ص 10 .

ومن ذلك يحمل انسان العصر باختراعه وابداعه عقله عن سبيل الى مدارج الافلاك فمذلك اختلاع عذر لو هذبه قليلا ،ولوكانت قاعدته هي معرفة الذات أو لم تكن بعدها معرفة السماء :

أنت تفتش لنفسك طريقا في صدر النجوم ، لكنك لاتدري شيئا عن نفسك ،
فانظر مرة إلى نفسك ، لتعلم كيف تخل باسق من تحت هذا التراب(3) .

وان اعتمد الشاعر أسلوب الامر الذي يقربه من التقريرية والمباشرة ،فانه أفسح المجال للخيال لينسج بفكر من أسديت اليه النصيحة في عالم من الواقع والعلم ، ولكنه حلم قد يصير حقيقة ،ان تبسط الناس بالنخل وطيب ثمره وطول عمره ،فجاء هم اقبال بصورة مستوحاة من ذلك الواقع ،من أراد لنفسه نباتا وتسامى وعطاء وخيرا ومن اراد لخشفة ترابه ذلك ،فما عليه الا أن يبدأ معركته من نفسه ويبدأ باصلاحها فلا تكون آخر ما يمكن التعرف عليه ،ولا تبقى المجهول الوحيد الذي لايعرف عنه شيئا ، فهذه الصورة وان اعتمد فيها على التشبيه الا أنه لم يقف به عند حدوده التقليدية وانما أعطاه وظائف أخرى جديدة هدفها التغيير للكائن نحو مايجب أن يكون .

وهذا قلب وتغيير للمفاهيم المعروفة يمكن أن يوصف ازاءه اقبال بأنه كان "شاعر انقلاب"(2) والانقلاب والتغيير لابد لهما من حركة عارمة ،وربما كانت هذه الحركة سببا في ذلك الكم الهائل من أفعال الامر الموجهة أحيانا في قالب نصح وأخرى في قالب تقريع أو توبيخ أو توغيب أو ترهيب "كن بعيدا عن ..." ، "اعركيانك... قمستدا خل الميدان" ، "تعلم البكاء من سحاب الربيع" ، "كيف تسأل ماذا ..."

ومن تلك الصور المتحركة النابضة بالحياة صورة زحزحة الدنيا من القلب ،وهي تحمل ايحاءات عديدة ، هل جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ؟ بلى ، "ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه".(3)

أراد الشاعر أن يرسم بهذه الصورة طبيعة الانسان الذي لايملك أن يتجه الى أكثر من أفق واحد ،ولا أن يتبع أكثر من درب واحد ،"الا نافق واضطربت خطاه ،ومادام لايملك الا قلبا واحدا فعليه أن يتجه الى الله واحد وأن يتبع نهجا واحدا ويدع ماعداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات"(4) قال اقبال :

ـ اذا ما جعلتني تذوق اللحن في حال جلوة ، فاني أقيم القيامة في محفل الصحاب .
واذا ما طلبت الفوز بلحظة خلوة ، فاني أخز الدنيا من سويداء قلبي .
قلبي غير متعلق بهذه الدنيا الزائلة كالبستان ، فقد تحررت من قيد هذا وذاك(5).

---

1 ـ رسالة الشرق ،ص 203.

2 ـ [illegible] ; (1938) ; Iqbal Review

3 ـ سورة الاحزاب ،الاية 4.

4 ـ سيد قطب ، تفسير الظلال ،ج 5 ،ص 2819.

5 ـ رسالة الشرق ،ص 220.

ولاخراج الدنيا من سويداء القلب جاء بصورة أخرى مفعمة بالحركة ، هي صورة نكث الخيوط التي تربطه بها ، وصورة الباب الذي منه تفتح الطريق الى مدارج العظمة والكمال ـ لا تقيد قدمك بسلسلة التذر ، فتحت هذه القبة الدوّارة يوجد طريق .

اذا كنت لا تعتقد في وجوده فانهض وانظر ، فلو أنك نكثت الخيوط التي تربطك بالدنيا فان العظمة ستفتح لك (1).

فهو الى جانب الحركة التي تحطمها كلمة نكث الخيط وفعل النكث ، عاد بنا الى التراث والى تلك التي ضرب بها القرآن ـ وهي تغزل خيوطها ثم تنكثها ـ مثلا وشبهها بالاخسرين اعمالا .

غثيت العادات والتقاليد الاجتماعية والواقع المرّ أعين الناس فقبلوا كل ما هم فيه من أوضاع ، أما اقبال الفنان فبخياله وبتحكمه في زمام اللغة حطّم ذلك الاعتقاد ومحا بمايحياه اته تلك الغشاوة عن المشرق الخطرب ونفخ فيه من ابداعه مايحييه يقول :

ـ لقد أثرت الروح الثائرة الضمائر المشاعل ، والقيت في صدر المشرق قلبا .

فاحترقت طينته من أنيني ، لقد توهجت في أعماقه مثل البرق (2)

ولعلّه بتلك الانفاس المحترقة المتكلى حرك كوامن غيرته على تهابته وأعاد اليه انفاس الحياة ، انه صدر يعيش حشرجة الموت فالقى الشاعر في ذلك الصدر قلبا نابضا وسرى بخفة في أعماقه كأنه البرق فأثار دياجيه ، وبذ لك اختفى التشبيه واكتسب جدّة وحسيوية تلائم الصورة التي جاء فيها بعيدا عن الوصف والتقرير .

ومن تصحيحات اقبال لبعض التصورات تصحيحه لمصطلح البطولة في انظار الناس ، متى نصف الانسان بالبطولة ، أو بالفروسية ، ومتى تصفه بالاجادة والابداع ، ان ذلك لايكون الا عندما تمّحي الحدود المقيدة للمواهب ، وكذلك هي الحياة الاشبه بالبحر ، تكون لها قيمتها ويكون للبحر قيمته اذا تجاوز مادوته من قيود واذا تخلّص من الحدود الضيّقة يقول :

ـ قارئ هو البحر اخجل سواحله ، فيه جواهر الانفاس الزاهية الالوان .

ولكنني لم أجسر سنبتني فيه ، اذ ليس في أمواجه سمك القرش (3)

وهكذا تتحول القناعة بفكرة معينة الى يقين ، هو يقين الطالب للحق ، ويقين المتمسك به مهما كانت الصعاب ، فيعيش المرء حالة من الشجاعة الرضية الصحيحة ، وحالة يقين متمكّن من النفس سكبه اقبال ببساطة في بيتين من الشعر فيهما تصوير

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 220.

2 ـ رسالة المشرق ، ص 242.

3 ـ رسالة المشرق ص 244.

ورصد لليقين وفيهما اغراء للناس ليقبلوا على ذلك السبيل ،وفيهما تصحيح للخاطئ من التصورات البائدة .

ومرة أخرى رأى اقبال الناس يتجهون الى الاضرحة وينحنون لأنفسهم أصناما ويضعون أسماء يتوسلون بها ، فجاءهم اقبال بصورة عمن يحبون ليعرفهم بواسطتها على معنى الحياة وقد رآه الناس أنفاسا تخرج ،ولكن يمكن أن يوصف الاحياء بالموتى وينسبون اليهم اذا كانوا خاطئي أرواح ،واذا لم يكن لهم أثر في الحياة :

— سمعت صوتا قادما من تراب ضريح يقول ، ان الحياة يمكن أن تدب تحت الثرى ذلك الشخص الذي يحيا وفق أهداف الاخرين ، يملك الانفاس ولكنه لا يملك الروح (1)

وهكذا خاطب اقبال الناس بقدر عقولهم وبما يؤمنون به ،ولكنه أتخذ من ذلك التصور الذي يؤمنون به سلاحا لهدم معتقد آخر راسخ في النفوس وهو ليس كل من يتنفس حي .

كما لاحظ الشاعر شغف الناس بالبحث عن معبودات جديدة ،ورأى أن ظروف عصره أنجبت منها الكثير وكان أكبرها وأشدها سيطرة على عقول أهل المشرق ،بريق الغرب و زيفه ،وقد تنبه الى خطورته بعض أبناء المشرق وشكل في نفوس بعضهم رعبا وخوفا ، ولكن الاهتمام بالمعبود القادم من الخارج أنساهم ما بالداخل من معبودات تذخر المفكر الشرقي ، فكانت مهمة الشاعر كشف ماخفي عن الانظار ،يقول :

— أنت خائف من معبودية الغرب ، ولكنك تسجد أيضا أمام القبة والضريح .

مثلما تعودت على عبادة الاسياد ، فقد نحتّ لنفسك سيدا من صحراء طريقك .(2)

ونظرا لخطورة تصور الناس للعبودية وأثر ذلك على حياتهم فقد حرص اقبال على معالجتها بمفهوميها الخاطئ والصحيح حتى لا يدع منفذا لكل مبتقول .

أما العبودية بالمفهوم الصحيح فلا تتجاهل الحاجة الكامنة في نفس الانسان ولا تغفل حبه الفطري للطلب الدائم ،ولكنها تأذن له أن يطلب مايشاء دون أن يصل به الطلب الى رغبة في استبدال المعبود الازلي بمعبود استزافة ،وذلك مانصحه به الراهب الذي أبدعه خياله بالحفاظ عليها وبأن يحفظ نصحه وحكمته كما يحفظ الكنز يقول :

— قال لي الراهب العجوز بائع الخمر ليلة البارحة ، اسمع عنّي هذا الكلام واحفظه مثل الكنز .

. . . نحن تراب الطين محبّ الطلب طبيعة فينا ، ولكن لا تتبع عبوديتك بأي جبروت .(3)

وأما العبودية بالمفهوم الخاطئ فهي عبودية البشر وعبودية الحكام والسلاطين وأي اقبال أولئك الذين لا يفهمون شيئا من معاني العبودية أحقر من الكلب وهو الذي ضرب الله به مثلا لأولئك الذين يحملون أسفارا دون أن يفقهوا ماجاء فيها أو يتبعوه

---

1 — رسالة المشرق ،ص 246 .
2 — رسالة المشرق ،ص 244 .
3 — رسالة المشرق ،ص 404 .

بالكلب الذي «أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث »(1) كما رأى الشاعر ذلك الذي يقبل من الناس أن يلتفوا حوله ويسقط سموه أشبهه بالكلب ، ثم أعلن عن عجبه الشديد الصفت للأنظار عجب من كلب يطأطئ الرأس أمام كلب ، يقول :

— رضي الانسان الجاهل الاعمى عبودية البشر ، هو يملك جوهرة ولكنه يقدم النذر لقبساد وجمشيد .

— قد جعلته معنى العبودية عنده أحقر من الكلب ، فأنا ما رأيت كلبا يطأطئ الرأس أمام كلب (2).

والتمثيل اذا كان ذمّا — كما قال عبد القاهر الجرجاني — يكون «مشبهه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أسرع وحدّه أحد »(3).

فهذه الصورة الشعرية خلقت من جهة كشفا لحقائق ربما كانت خافية عن الناس ، وربّما فوجئوا — عن جهل — لسلامتهم منها رغم تجذرها فيهم ، وأقامت من جهة أخرى حاجزا بين ذلك المرض والناس اذ عرضته في صورة تشمئز منها النفوس وتأباها العقول ، وهي صورة كلب أو أحقر منه يركع لكلب آخر ، وهي احدى أساليب اقبال الادبية المعتمدة أساسا على فن السخرية الذي كثيرا ما هذّب النفوس .

والسخرية عند اقبال «لون من ألوان التأديب والتهذيب ، أو اشارة الى وضع شائن يجب أن يباد ، واعتناد أحسن يجب أن يقبر »(4) .

ومن الامراض التي سرت في المجتمع المعاصر حمّى الربح والخسارة ، تبغتها ضجة في الحديث عن رؤوس الاموال ، وكان من اقبال أن اتجه اليها بفكره ونفسه ، فسيطر على ذلك بطريقته التصويرية الخاصة ورؤاه الثاقبة ، انطلق مما وجد الواقع عليه وهو مرض الربح والخسارة وتجاوزه الى اكمال النقص الذي فيه بلغته الخاصة ، فهناك رأسمال آخر اكتشفه ووجه اليه الانظار والعقول ، ألا وهو القلب وما يحتويه من لفحات العشق ، يقول :

— اجعل من الحبة رأسمال لي ، ومن أنفاسي الحداد حتى تراب سيناء الى شعلة مستعرة وعندما أموت أصنع من ترابي مباخرا متلألئا ، يحيا بآلامي المتجددة ويهتز دروب الصحراء (5)

وعلى لسان الانجم ألقى اقبال بشطر من فلسفته في الحياة ونظراته ، ترك لها المجال لتتحدث لأنها هي الصاحية التي ترقب كل ما حولها مستلهما كان هو صاحيا يتأمل ما حوله ولأن نظرتها ممتدة عبر التاريخ فقد نظرت الى الاسكندر وقيصر الروم والى نظم الحياة وتبدّلها من حين الى حين .

نظرت الى المخطئين التائبين في خطاياهم في جنح الظلام ، تأملت تداول السنين والاعوام .

---

1 — سورة الاعراف ، آية 176 .

2 — رسالة المشرق ، ص 304 .

3 — عبد القادر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، 1402هـ 1982م ، ص 92 .

4 — اقبال ، والآن ماذا تفعل يا أمم الشرق ، ترجمة محمود أحمد غزني والصاوي شعلان ص 168 .

5 — رسالة المشرق ، ص 254 .

دون أن تحرك ساكنا ، نظرت الى كل متناقضات الحياة الى التاج والمشنقة ، الى العرش عندما يكون قائما ثم يهوي فجأة ويذل أصحابه ، الى الاسياد والعبيد ، الى الحياة والعدم والقوة والضعف الى الافراح والمآتم ، الى النور والظلام ، نظرت الى كل هذا وأعلنت بسيرها الدائم أن الحياة ستستمر رغم كل تلك المتناقضات وأن سير الامور فيها سيبقى مابقيت الحياة .

وعلى لسان الاقنوم قذف اقبال بكلمته وحكمته ، وهي أنه لابد من زوال بعض الاضداد للمزيد الذي في طياتها لابد من زوال قانون الاسياد والعبيد ، لابد من زوال قانون خدمة العبيد للاسياد ، لابد من أفول سيطرة الملوك ، لابد من أفول عبادة الاصنام ، أغنية النجوم (1) :

وجودنا تألقنا (تناغمنا)
حضرنا ومشية دلالنا
دورانا بملا تعود
حياتنا الخالدة
يدور العالم بأسنا ننظر ثم نمضي لحالنا .
جلوة الشهود .
وظهور المعابد
معركة العدم والوجود
والصانع الزمني ، ننظر ثم نمضي لحالنا .
حرارة المعارك
خطايا غفلة المجرمين العجريين (الفضح)
التيجان والعروش والمشانق
وذلة السلاطين
ولعبة الدهور ، ننظر ثم نمضي لحالنا
زمن تفوق الاسياد انتهى
وزمن خدمة العبيد انقضى
ديمقة القياصرة ولّت
وعهد الاسكندر مضى
ومراسيم اتخاذ الاصنام زالت ، ننظر ثم نمضي لحالنا .
الأرض الحرساء الجامدة وحركتها .

---

1 - رسالة المشرق ، ص 268 - 269 .

طبيعة الضعف التي تنحو الى القوة

تارة تعتقد مخاوف الافراح

وتارة تحمل الهنائز على الاكتاف

أيسر الدنيا وعبد ، تنظرثم تمضي لحالنا

قد سحرت بـ"كيف" و"لماذا"

فعقلك في حلّ وعقد

مثل الغزال في الحبال (القيود)

ذليل عاجز متألم

ونحن بالعلياء نجلس ، تنظرثم تمضي لحالنا

كعيرك قليل عندنا

وحولك تسوان عندنا

أنت يا من أعماقك بحر

كنت تغنى بقيثارة شدني

عندما تمضي للبحث عن عالم ، تنظرثم تمضي لحالنا .

والى جانب هذه الصورة التعبيرية فاننا نجد في المنظومة نفسها صورة موسيقية أعطتها لغة راقصة مترنمة ، ولاسيما بذلك الشطر من الشعر الذي ظلّ يعيد نفسه في كل وحداتها ، كأنه أهم ما فيها جميعا ، اذا الكل ينظر لما حوله في الحياة ولكن عليه أن يعيش حياته أيضا ولا يبقى متأملا ناظرا لأنه بعيره وحياته يعطي صورة متكاملة عن الحياة بكل عناصرها .

وهذه الصورة التوبيرية النيرة المصححة أعقبها اقبال بتعويل آخر لاذع الوقع شديد الاسر ، انتقد فيه المتخفين خلف شعارات السياسات الجديدة ، خصّ منهم المنادين بالنظام الجمهوري والزاعمين الديمقراطية ، لأن الشرق الاسلامي لم يذق من تلك النظم والشعارات الا الويلات فلا العدل عدل ولا الحرية حرية ولا السلام سلام .

ان حملة تلك الشعارات - كما يراهم الشاعر - ساقطو همم تحت قناع أصحاب الهمم العالية ، وأنهم حمر خاوية الروح أو مثل الحمر التي كسيرا ما ضرب المثل بها مثلا ، يحملون شعارات لا يفقهون فحواها ولا يطبقونها كالحمار يحمل أسفارا (1) انهم بمخ مائتي حمار ، وهي مجتمعة لا يمكن أن تأتي بفكر انسان واحد ، يقول :

- أتطلب المعاني العالية من ساقطي الهمم ، ان الطبع السليمانى لا يأتى للنقل الشديد الحيوية .

---

1 - سورة الجمعة ، آية 5 .

اتبين حتميما ناضجا مجربا يدع لمرز الجمهوريين ، فان مخ مائتي حمار لايأتي بفكرانسان(1) كما أماط اقبال اللثام عن حقيقة الحرب التي صورها قبل أن يزيحها ، ثم صور الفظاعة الكامنة التي تحيط بها ، حقيقة الاستعمار وظلمه ، فمن كثرة سفكه للدماء خضبت أياديه آثار ذلك ودلائله عليه ، ولكنه غطى أياديه الملطخة بالدماء عن الابرياء بقفازات ، وليس يعلم أنه من أنصار السلام راح يمثل شوطا آخر من أشواط المسرحية فالقى السيف من الحزام

وأما الفصل الثالث من المسرحية فهو انه اتجه بأياديه الملوثة بالدماء القذرة الى المعبد ليغسلها عن الدماء

وهي مسرحية طريفة اتقن الاستعمار أدوارها وكشف اقبال زيفها ، ان ذلك الساحر المخادع انكشفت حقيقته في الحرب ، اذ دار كل مواثيق الصلح وأبان عن حقيقته وهي أنه خصيم مبين يسفك الدماء :

— ذلك الذي ينير وجهه بمزيفة المرنة ، تجعل (تتخذ) من ترابه المعتم الاسود مرآة .

قد ألبس يديه قفازا من حرير ، وسحب الأثام بقلمه وأسقط السيف من الحزام

قد عقد هذا الداهية في المعبد صلحا عاما ، وطاف راقصا حول انغام العود والزهر

اني رأيته عند ما مزقت الحرب الحجاب أسراره ، انه كان يسفك الدماء خصيم مبين(2)

والانسان شأنه شأن المفكر يفسد الحقيقة(3) ويميط اللثام عن جوهرها وفي هذه القطعة التي بين أيدينا اماطة للثام عن حقيقة وكشف لها .

أعقبها بفصل للشعارات البراقة والجمعيات المنشأة والاهداف العظيمة التي تنادى بها .

فأهدافها أمن وسلم وحفظ لكرامة الانسان وحقيقتها نهب وقتيل وسلب الا أن الشعوب الاسلامية أخذت تبدد البريق الزائف وخدعت بأسماء الجمعيات ، من عصبة الأمم وهيئة الامم وغيرهما ، وراحت تعلق الآمال العراض على تلك الجمعيات لتحل لها مشاكلها وتحررها ، ولكن منذ متى كان الذئب محافظا على مال من يسرقه وراعيا للبيت الذي يلجه وهي الفكرة التي أوجد لها خيال اقبال صورة فنية معادلة لها ، ان أولئك أتبعه ينبشون القبور وسارقي الاكفان ، ما جمعتهم الا غاية واحدة هي تقسيم القبور وهي الغاية نفسها التي جمعت أعضاء عصبة الأمم ، بغية تقسيم تركة الدولة العثمانية فكيف يكون هؤلاء رجاء في اخماد نار الحروب :

— وضع رجال خبراء دهاة قوانين جديدة ، وسعوا لإخماد نار الحروب وازالتها من هذا الوجود والذي أعلم قبل هذا أن (سارقي الاكفان) نباشي القبور ، كونوا جمعية لتقسيم القبور(4) .

---

1 — رسالة المشرق ص 363 .
2 — رسالة المشرق ، ص 310 .
3 — جيروم ستولنتيز ، النقد الفني ، ت د / فؤاد زكريا ، ص 455
4 — رسالة المشرق ، ص 363 .

وبإحدى القطع ذات الابعاد الصوفية قدم اقبال صورة رؤيوية أفصحت عمّا ينسوء به الواقع من حدّ لحرية الانسان قد تفرضه أساليب الحياة وقد تنبع أسبابه من الانسان نفسه فيركن الى التواكل و الاستسلام ، وقد عودنا اقبال على امتداد صفحات الديوان على شجب الكثير من الصور المخفقة في الحياة وعلى صنع بديل لها أو بيانه للناس ولنقل هذه الحقيقة والتنبيه اليها ، ثم لطرح بديل لها ، لجأ اقبال الى القطيعة يستلهم منها أدواته لتصوير الواقع وفي الوقت نفسه لاصلاحه ؛

ـ تحرر مثل أريج كان سجينا بقلب البرعمة ، وتعلم التموج واختلط بنسيم السحر
ان كنت قد خلقت بلا قدرة مثل قطرة الندى ، فانهض وتعلم كيف تقطر على قلب الشقائق الظامئ المحترق .

ان تقطع من أعماق التراب ، فكن حارس قوانين الرياض والبساتين وتعلّم الايثار بأشواكك .
وان كان لك حارس البستان في الصحراء بعيدا ، فتعلم التنفس والظهور من جديد مثل الاشجار .
وحتى تتجلى أشد احتراقا وتألما ، اختر عزلة معبد وتعلّم بلوغ النضج .
فالى متى وأنت تحلق تحت أجنحة الآخرين ، تعلم الطيران وحيدا في بهو الحديقة (1)

فحال الانسان بين تلك القيود أشبه بحال الاريج عندما يكون سجينا في الاكمام أو قلب البراعم قبل أن تتفتح فاذا كانت هذه النسمات من الاريج لا تقبل القيد ، وتتحرر لتعيش ، لأن حياتها في ذلك التنفس ، فالاولى بالانسان أن يسعى في سبيل الخلاص من كل ما يحيط به من قيود ، واذا كان النسيم يتموج حرّا فالاولى بالانسان أن يمضي في حياته ويتموج فيها حرا طليقا .

خلق الانسان ضعيفا وسينتهي ضعيفا ، وكذلك خلقت قطرة الندى ضعيفة ولكنها مع ذلك واصلت حياتها ومنحت مما ظنّته ضعفا قوة للآخرين ، فهروب قلب الشقائق وهي الظامئة المحترقة الكبد والفؤاد ، مجرد تضييق على الانسان أو محاولة لابعاد ، من موطن الى آخر يبعث فيه اليأس ويدفعه نحو الافول ، في حين تنقل الشجرة ولا تموت . وهذه كلها مواقف يجب أن يقتدي بها الانسان ، لأنه اذا تمادى في تواضعه لن يكون الا كطائر يختفي تحت أجنحة الآخرين ، وتلك علامات الجاهل لقدر نفسه حتى تصابير الشعر والنقد الادبي نفذ اليها اقبال برؤاه الشعرية وعمق تناوله فهو مرة يصوّر الشعر والابداع الادبي متماعا له قيمته ، التي استنتجها الشاعر من قيم المجتمع المختلفة البالية ، اذا أدبر الناس عنه فذلك يعني أن الشعر قد بلغ الكمال لأنه تجاوز مداركهم وأذواقهم المريضة ولأنهم أعموا حاسة تذوقهم للفن والادب

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 327 ـ 328 .

بطلبهم الطرب فيه والاضحاك والمجون وان كانوا غارقين في أوحال التخلف والجهل والاستعمار ، يكفي أن يعزف لهم الشاعر الحان السلامة التي لايعرفونها الا في أحلامهم والا في لحظات سطوعهم لشاعر حالم يهرب بهم بعيدا عن الواقع المتردي . ولكن ليس في حنجرة اقبال الحان السلامة وهو الذي شبّ في بلد مشتت ممزق ، ان فيها الحانا تدق أجراس الانذار لتوقظ الناس من غفوتهم ، يقول :

ـ أتطلب مني عودي أن يعزف الحان السلامة والنجاة ، وكيف يأتي بانغام لاتوجد في أوتاره ؟ (1) .

ومرة أخرى نجد كشفا اقباليا جديدا لمواقف قد لا يلتفت اليها غيره ، فكرة الذوبان والفناء في الآخرين ، أيان يفقد الانسان كل مميزاته وخصائصه بتحوله الى تابع مسلوب الارادة والى إمّعة يقول مايقول غيره ويفعل مايفعلون ، الفكرة واحدة هي فكرة الاعتماد على الآخرين . ولما كان لهذا الموقف اشكال وأساليب فقد خصّه اقبال بأكثر من معادل فنّي ، يقابله ويحوّله الى صورة متحركة تسم بعقبه بعلائق لتلك المعادلة الفكرية متساوق وتابع للمعادل الفني المبدع للفكرة ، المرآة تفقد قيمها الجمالية في صور الآخرين المرتسمة عليها وكذلك الانسان عندما يفقد مميزاته ويتحول الى تابع ، والحل لهذه التبعية والخلاص منها يكمن بتنزيه العين والقلب عن خيال الآخرين وعن صورهم وتفكيرهم فهو كالمرآة اذن ، وهو مثل الطائر الذي يبني عشّه على أغصان الآخرين ، فليحرق ذلك العش بنار المعرفة التي اقتبسها من الحرم ، ثم هو في اعتماده على الآخرين وفنائه فيهم مثل الطائر المحلق ولكن بأجنحة الآخرين ، وان الخمر الزلال الصافية تقتله اذا شربها في غير كأسه ، وهذا رمز وتلميح الى كل مايمكن أن يصل اقبال وأمثاله من أحرار الارادة من الغير ، ولاسيما اذا تعلق الامر بالقلب والروح ، يقول :

ـ لاتكن كالمرآة تغني في جمال الآخرين ، نزّه عينك وقلبك عن خيال الآخرين ، وتفكيرهم .

خذ من أنين طيور الحرم نارا ، واحرق عشك الذي أقمته على أغصان الآخرين .

أنا حرّ وغيور الى حدّ كبير ، يمكن أن تقتلني الخمر الزلال الصافية ان شربتها في كؤوس الآخرين (2) .

الا أنه لابد من سؤال يطرح أمام هذا المعادل الفني الموضوعي الرمزي ، وكيف السبيل الى

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص347 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص344 .

ذلك ؟ لهذا السؤال الذي قد يخطر على بال المتلقي جاء اقبال بمعادل فني آخر هو الحبل الحي المتحرك الذي تحول من فكرة الى حقيقة ، قدم فيه اقبال صورة عن تحرره من الاغيار الى حد كبير واتصاله بمعشوقه الازلي ، وهي صورة يمكن أن تختتم بها اكتشافات اقبال وتصحيحاته ، فلأن يفرغ قلبه من كل ماعداه وان كان نصيبه من معشوقه الابدي بعد وهجر ، خير له من وصال الآخرين الذين قد ينسى معهم غاياته ، ولذا فان الاتصال بالاخرين لايجب أن يكون فناء فيهم وافناء للذات وانما يجب أن يكون اثباتا وتوكيدا لها حتى ترتفع نحو من تحب ، يقول :

— أنت ياسن هو أقرب الى الروح ولا أبصره ، هجرك عندي أحلى من وصال الاخرين (1)

ومن رسم اقبال الكلمات وتحوله بالخفي والمعمى الى الجلي الظاهر ، تلك الالتفاتة التي قفز فيها بلغته الشعرية من دلالاتها المعجمية الى دلالات فنية رمزية بعثت فيها حياة جديدة وهي صورة استوحاها من عناصر الطبيعة .

هناك صحراء ممتدة الاطراف ولكنها لاتعرف حدودا كالتي تعرفها الصحارى وان امتدت . وبتلك الصحراء ظباء ولكنها لاتعرف قيودا ، تلك هي صحراء القلب وتلك هي ظباء الخيال ، وهما (الصحراء والغزلان) بذلك الامتداد الخرافي الذي لهما يقبعان في حفنة من تراب هم جسم الانسان ، ان هذه الصورة الفنية تعود بالمرء الى تأمل هذه الحقيقة وادراك حقيقة موجدها ، اسكن ماشئت بقلبك الذي لايسكن الا في حفنة من تراب ، يقول :

— أيها العلماء انني في اضطراب واحتراق ، وليس في مقدور العقل فهم هذا المعنى .

كيف يحتبس البعد القلب في حفنة من تراب ، بينما القلب هو الفلاة التي ترتع فيها ظباء الخيال (1)

من حفنة ترابي ولدت عوالم ، فتعال لتختني من عطائي .

لقد انزلقت عن الدرب الى منزلي الحبيب ، فابق بصحراء قلبي (2) .

فكان للقلب وما سرح فيه من خيالات وأفكار معادلا مرسوما بالكلمات ومستمدا صورته من الطبيعة ومثله حالات الضعف والخوف والقوة والشجاعة ، وهي حالات تنتاب النفس البشرية من حين لآخر يصعب تحسس نبراتها ، الا أن اقبال ارتقى بذلك المعنى الذهني ، وحول تلك الحالات النفسية المعقدة التي يصعب الحديث عنها أو وصفها الى صورة تتحول بالقارئ الى مشاهد يقف أمام خشبة مسرح توالت فيه المشاهد ، فيرى صورة الخائف المرتعد الفرائص ويشاركه في تخيل ما يملأ ذهنه

---

1 — سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، ص 36 .

2 — رسالة المشرق ، ص 214 .

من أوهام وربما أضاف إليها مما يعرفه ، ويرى مقابلهما صورة الشجاع ويتخيل معه مايخطر ببباله ، وتصبح الحالة الملامرئية منظرا يعرض وحادثا يقع وليس حكاية لمنظر أو حادث ، "انها الحياة هنا وليست حكاية الحياة "(1) وانها المعادل الموضوعي والفني لتلك الاحساسات الخفية .

كما نفذ الشاعر بلغته الشفافة الى أدق دقائق أعماق الانسان وأدق أفكاره وأدق خلجات نفسه ، ورسم لها صورة يسلم القارئ أنها تجسيد لها وتصوير بديع لايكون الا لتواء في المسير الا للمرئيات ، ولو بأحدث الاجهزة ، ولا يكون الا في الدروب الوعرة ، ولكن الصدر الذي هو موطن الانفاس قد يشبهه بما يحطه من هوم بلاد الجبل ، يشين به أحيانا مسار الانفاس بقدر قيمتها وقيمته فتأخذ في الالتواء لتستمر الحياة :

ـ أنينك وغوغاؤك يقيمان بالروض محتضرا ، فلا تدع الغوغاء والجلبة اذ قد تلوى في صدرك نفس(2) .

وهكذا وبسهولة يتحول في لغة اقبال وريشته الملامرئي الى مرئي ولكنه يتحول احيانا وبلغته نفسها وأداته الفنية بالمرئي الى خفي لأجل أهداف يعرفها ويحب أن يعرف القارئ عليها ، أن يتحول الانسان الى سر خاف فذلك أمر عسير وممكن في آن ، لايكون الا بقدر طاقة الانسان نفسه ، وأن يتحول الانسان الى معنى غامض لايستطيع حتى الحكماء وأهل المنطق شرحه وتفسيره ، وانما مفسره الاول هو الانسان ، كل تلك صور تعود بنا الى أن الانسان ليس بجسمه الذي يراه الناس ولكنه بعواطفه وفكره وروحه ، يقول :

ـ أنا سر خاف كلي ومعنى غامض ، فلا ينالني تفسير الحكماء ولا يشغلني رأي المنطقة (3) .

وفي خطايا صوره الصوفية عرّف اقبال بنفسه تعريفا يستشف منه تحديد لهوية كثير من أعماله المتفردة عن الناس وان لم تخالفهم في عيشهم ، لم يكن حديث اقبال عن فقره وغناه حديثا تقريريا مباشرا يرى فيه البعض تشكيا والبعض الآخر تفاخرا أو تدللا ، وانما كان تلميحا خفيفا لمحاييز فقره من جهة وغناه وتميزه من أخرى ، يقول :

ـ مائدتي خالية من لحم الطير المشوي ، وكأسي فارغة من الخمر الخبيثة المتلألئة . غزالي يرعى من أوراق الاشجار ، ولكن دماء قلبه مسك خالص (4) .

---

1 ـ رسالة الطير ، ص 235 .
2 ـ رسالة الطير ، ص 324 .
3 ـ رسالة الطير ، ص 215 .
4 ـ رسالة الطير ، ص 247 .

ليس في ساعدتي علامات التوقف ، فليس فيها لحم طيور مشوي ، وليس فيها المنتقى الصافي من الخمور المتلألئة ، انه كمثل الناس ، كالآخرين يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون .

ومن تحولات اقبال بالامرئي الى المرئي تصويره لثمار السجود ، قوله :

ـ انني أسكب من سجداتي جبيني ورودا على طريق المعبد الطويل ، لأن عشقي واحتياجي وشوقي لا يمكن أن يستحوذ في ركعات صلاتي (1) .

من أسمى ساعات يقين الروح ولما نينتهيا لحظات السجود ، وهو أسمى لحظات الاتصال بين الله والانسان تجسدها اقبال وجسد ثمارها المعنوية من يقين وطمأنينة وأمن ووجد في ثمار حسية هي الورود .

وكذلك كان تعامله مع العقل والقلب في مقارنته بينهما ، فهما طاقتين خفيفتين أوجد لهما خيال اقبال معادلات فنية كان جوهرها التوفيق بين كيفيات متناقضة ، جمع صورها من الطبيعة بتناقضاتها لأنه يحدد تصوير مبراه الناس أضدادا لا متكاملات تكاملت تكاملها بما يؤمن فيهما من تضاد كالذي بين الليل والنهار والنور والظلام ، ولا تعرف قيمة أحدهما الا بوجود الآخر ، يقول :

ـ هذا عقل أناني (لا يرى غير نفسه) ، والآخر عقل يحمل كل العالم ، فالاول مثل جناح البلبل ضعفا ، والآخر مثل جناح الصقر قوة .

هذا يلتقط الحب الساقط من فوق الثرى ، وذاك يأخذ طعامه من حب الثريا .

الاول يسير بالروح مثل النسيم ، والآخر يتوغل بأعماق الورد والنسرين ليهيب سرا .

الاول ينظر من ذلك الجانب الخفي المستور فيرى ظنا وشكا واخطلا والآخر يرسل نظراته من هناك مجتازا كل الحجب (2) .

وهكذا حمّل الشاعر اللامرئي الذي هو العقل والقلب ، انطلاقا من وظائفهما الى مرئي في صورتين متقابلتين يمكن اعادتهما بهذه الصورة :

أ ـ العقل :	ب ـ القلب :
ـ مثل جناح البلبل ضعفا	ـ مثل جناح الصقر قوة .
ـ يلتقط الحب الساقط من فوق الثرى	ـ يأخذ طعامه من حب الثريا
ـ يسير بالروح مثل النسيم (سير سلحي)	ـ يتوغل في أعماق الورد والنسرين بحثا عن الحقيقة
ـ ينظر في عنه من باب خفي فلا يرى غير الشك والظن والاحتمالات .	ـ يرسل نظراته بعيدا ويجتاز كل الحجب

---

1 ـ رسالة المعقول ، ص 320 .

2 ـ رسالة المعقول ، ص 35 ـ 360 .

ويعيش كما يعيشون ولكن التفرد والتميز للعظماء هبة ربانية يتبعها جهاد بشري وكفاح مستمر ،وهي الفكرة التي أوجد لها اقبال معادلا فنيا يصورها ويساويها فالتفاضل بين البشر والتميز لايكون بالمأكل والمشرب والمسكن ولكنه بالقلب والروح والمساعي ، اعتمد الذين تحدثوا عن الوقت في الغالب أسلوبا وصفيا قائما على النصح المباشر ،وربّ اشارة بعيدة عن الامر والنصح خفية ،كانت أبلغ وأشدّ أثرا ، وحتى لايتحول اقبال الى متحدث أو ربما الى خطيب ،فانه أفسح المجال للمعنوي فألبسه ثوب الموجود الظاهر وترك الوقت يتحدث بنفسه عن نفسه ، مؤلفا تركيبا عجيبا بين البنيات والافكار وبين المشاعر والانفعالات ،جامعا بين اشكال للحياة مختلفة وصور فيها متناقضة ، مستمدا لغته الشعرية من معجم الحالات النفسية لا من معجم المعاني اللغوية ،باعثا في النص والصورة نبض حياة جديد شكلته صور أخرى ذات ايحاء ورمز واصلاح لما هو كائن . من هذه الصور الجزئية التي تبني الكل والتي يمكن اعتبارها كشفا شعريا اقباليا قوله :

— الوقت لايرى ولكنه روح الانسان ،فلو تنظر الي فأنا لست شيئا قط ،ولو تنظر الى نفسك فأنا روحك . (1)

— الوقت ييسر لمن أراد البناء تعميرا وقصورا ،ومن أراد الركود والخمول فحظه صحاري خاوية أوأكواخ حقيرة ، هذه الحقيقة الخلفية عن الكوخ ،ألبسها اقبال ثوبا ايحائيا فلم يصرح بأن الوقت يختلف من شخص الى آخر ومن مجتمع الى آخر ،بحسب نظرة الناس اليه ،وانما لمح لاختلاف مايحدث فيه ،اذ القيمة ليست للوقت وحده ، مجردا عن الحياة ،فهو اما أن تبنى فيه المدن وتشيد القصور أوتنسام فيه المواعيد ويسكن الناس الاكواخ ،وهو أما داء يتعلل به الناس ويشكون منه ،أو دواء يتجاوزون به عللهم ،وهو اما ضامن للمرء بما انجز فيه خلودا وان مات ،أو كاتب لسيه في الاموات المنسيين .

وهو اما نافخ في ثورة الافرنسج ضد الظلم أو نافخ في سواعد الثائرين أمثال جنگيز خان وتيمور لنگ ،واما أن يأتي على كل شيء فيحرقه ،أو يأتي على الاشياء فيبعث فيها الحياة ،وهو مقيم خالد مع الخالدين ومتحرك حي مع الاحياء ، متواصل يبني غده على ثمار يومه .

ثم يصل اقبال الى قيمة التصوير الفني ،ان الوقت هو الوعاء الذي يتحرك فيه الانسان ويمارس فيه كل أعماله ،يعيش فيه بكل اهتماماته ،بكل مايحب ،بالدنيا بالخير ،بالآمال ،بالله ،لأن تلك العلاقات لاتكون الا في قلب الزمن ، وقد أوجد لها اقبال معادلا فنيا شاملا لها جميعا : " أنت مجنون بليلى وأنا صحراء جنونك " ، وهذه مقتطفات من حديث اقبال على لسان الزمن

---

1 — رسالة المشرق ،ص 259 .

ـ أنا فيدن عامرة وحضارتي خواء ، أنا في قصر وكوخ ، أنا داء ودواء ، وأنا العيش الرغيد أنا السيف الذي يقطع الحياة ، وأنا عين الحياة .

ما الجنكيز خانيون والتيموريون سوى حفنة من ترابي ، وما ثورة الافرنج الا نفخة (نفثة) من شراري ، فأنا شعلة نيران وأنا جنة (روضة) رضوان .

أنظر الى هذا الجانب الغريب فأنا مقسم سيّار ، أرى سرّ غدي (كيفيته) في كأسريومي .

سحري التقدير والتدبير من سحرك ، أنت مجنون بليلى وأنا صحراء جنونك (1) .

بل ان الانسان هو ثمرة ذلك الوقت والزمن الحقل الذي تنمو فيه البذور اذا تعهدت أو تموت اذا أهملت :

أنا المسافر الجوّال وأنت هدفي (غايتي) وأنا الحقل وأنت محصولي (الحاصل ـ حاصلي) .(2) .

وللطبيعة أيضا وجودها في الصورة الشعرية فاذا كانت بعض جوانبها صورا بألوانها وأشكالها فان بعض قصائد اقبال كانت رسما لها بالحروف والكلمات والانغام من ذلك ماجاء في منظومته "فصل الربيع" .

ان الصورة الشعرية وان اعتمدت احيانا على الوصف فان الشاعر فيها لايصف من أجل الوصف ، بقدر مايصف من أجل النفاذ الى جزئيات وخفايا الاشياء وفي هذه المنظومة أضفى اقبال على الطبيعة ذات الحياة الهادئة الملا زادية حياة متحركة ، نابضة متفجرة بما تحمله من جماليات ، فالورود في روضه لا تنبثق عن الأرض ولا تمزق الاكمام فحسب وانما تتكتل أيضا في قوافل وتقبل على الانظار فتأسرها ، والطيور لاتغرد كما فطرت على التغريد وانما تتفنن في اختيار الالحان وصناعتها .

فهذه لوحة فنية للطبيعة في فصل الربيع ، كل مافيها متحرك ، فكأنها كانت انتشى فغسلت الدماء بأعماقه وتفجرت بكل مايعتلج بداخله ، يقول :

فصل الربيع :(2)

انهض فقد بسط الربيع استاره على السهل والحزن والجبال

ألف نحل يحترنم

فقد غرّد البلبل والدرّاج والحمام

على حافة الساقية

فتعال لتتفنن على

حقل الورود وروضة الازهار

انهض فقد بسط الربيع استاره على السهل والحزن والجبال .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 260 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 261 ـ 263 .

ـ 2 ـ

انهض فقد أقبلت قافلة الورود محملة بالخمائل والرياض
وهذه نسائم الربيع المتوجة .
والطير قد أبدع الالحان العذاب
ومزقت الشقائق أكمامها
وانطلقت منها بحسن فتي جديد
واكتسى (اكتسب) العشر بغنم جديد
انهض فقد أقبلت قافلة الورود محملة بالخمائل والرياض

ـ 3 ـ

البلابل الغريدة في ترنم وغناه على الاغصان
ودماء الخميلة الساخنة في غليان
فيا أيها الجالس في صمته انهض
وحطم نواميس صمو الانام
أشرب من خمر المعاني
البلابل الغريدة في ترنم وغناه على الاغصان .

وهذا مشهد جديد يدعو الناس الى تأمله ، ثم أعطى الشاعر (نيسانه) صفة الانسان (الأب ـ الأم) وأعطى نتاج ذلك الربيع وعلامات ظهوره صفة الابناء ، فالورود والشقائق والطيور والنسائم فلذات كبد نيسان ، أقبلت تمشي في اختيال ، وبذلك توغل اقبال في اعماق صورته وجعل من تفكيره فيها وتأويله لظاهرها صورة مرئية متحركة ، بامكانها أن تعمق وعي الاخرين وتحول نظرتهم الى الطبيعة من مجرد نظرات ظمأى ذاهلة عن نفسها الى نظرات متأملة محللة رابطة ذلك الجمال بموجده ، مستنبطة لفلسفة الحياة التي مصدر معرفتها الاول "الانفس والآفاق" وهذه حالة معنوية وخلجة فكر غير مرئية ، يقول :

ذر القعود في الديار واطلب الفيافي والصحاري
اجلس على شاطئ النهر
تأمل تدفق مائه وانسيابه
وانظر الى نرجس ذو دلال
فلفلذات كبد نيسان في اختيال
ذر القعود في الديار واطلب الفيافي والصحاري ... (1)

---

1 ـ رسالة المعارف ، ص 263 .

وتستمر الحياة في كل خط وفي كل لمسة من لمسات هذه اللوحة ، فتبدو الشقائق وكأنها حلقات متداخلة بعضها في بعض ، ويبدو ذلك التوهج الاحمر القابع منها نارا علقت بأذيالها كما تعلق بأذيال الضباب ، ويترا ى الندى المتمثل لها (للسواد) دمعة دائمة تنزل تعليقا لفلسفي* حرقتها ، يقول :

ـ أنت يامن تجهل كل ظاهر للعيان أفتح عين البصيرة ، فالشقائق قد تجلت حلقات في حلق ، والنار قد علقت بأجزائها ، وبللت أكبادها دمعة هطلت في انسجام ، من ندى أدمع السحر الجارية ، فانظر فقد لاحت انجم في الشفق ، أنت يامن تجهل كل ظاهر للعيان افتح عين البصيرة ، فالشقائق قد تجلت حلقات في حلق (1) .

وهكذا فان الشاعر الذي آمن برسالية الكلمة لايقف عند حدود الفن للفن ، ولكنه قفز الى الفن من أجل الحياة ، من أجل شرح قوانين الحياة ، من أجل تصحيح مسارها وكشف الخفي منها ، فبهذه اللوحة الفنية المتحركة عبر كلمات ، تحول السامع الى را* يتخيل روعة اقبال قائمة أمامه بالوانها وروائحها ، بأصواتها وخريرمائها وبما أضفى عليها الشاعر من خياله ، فيرى الورود مقبلة عليه ويتخيل كل مافي الربيع أبناء يتحركون ، يمشون في دلال وتيه ، ويتخيل بريق الحمرة في أطراف الشقائق نارا والسواد الذي يتوسطها كبدا والندى دموعا ... فيجمع بين الحقيقة والخيال في صورة طريفة ويحيثر لحظات من التركيز واعادة التفكير فيما حوله .

وقد أراد من هذه الصورة أن تكون وسيلة ينتهي بها الى فلسفة في الحياة ، والى الاعتراف بسنة الله في الكون وهي أن ليس لشيء* قط من ثبات أو دوام ، فبعد أن وصل بالمتلقي الى ذلك التركيز وذلك الانقياد الطلق لبنات خياله ، وبعد أن جعله ينتظر في لهفة مزيدا من الصور ألقى بين يديه صورته الاخيرة وفلسفته لمثل ذلك الموقف ، لأن الشعر لايخلو من قدر من الاحساس الفلسفي الذي يعصمه من البلى السريع . وهي حقيقة لايملك المتلقي أن ينكرها لاسيما وقد أصبح ينظر الى الطبيعة بالطريقة التي أرادها الشاعر وعرضها ، كم عمر الشقائق ، كم عمر الورود ، كم عمر الخريف ... ؟ هي أيام قصار ، ولابقاء الا للواحد القهار ، "ليس لشيء* قط من ثبات أو دوام" ؟ (2)

وهذه قمة التوفيق بين الوظيفة الجمالية والوظيفة الاجتماعية اذ مهمة الاديب الكشف والتبصير .

ثم ان هذه المنظومة حملت صورة موسيقية (صوتية) تمتعت بها كل تذييلات اقبال في الديوان ، فحتى الذي لايعرف اللغة الفارسية يستطيع أن يتابع تلك الوجدات المتتالية من الانغام

---

1 ـ رسالة الشرق ، ص 263 .
2 ـ رسالة المشرق ، ص 264 .

المتجاوبة والاصوات المتناغمة .(1)

ومرة نجد اقبال يخلع على الطبيعة صفات الانسان وافكاره واسئلته ومواقفه ففي منظومة "نسيم الصبا" نجد النسيم يحكي لنا قصته الاشبه بقصة الانسان ، يبدأها بالسؤال الذي يطرحه الانسان عن مصدره ، والنسيم يؤدي عطره الذي خلق لأجله ، فانه يتأمل طبائع من يمرّ بهم وحالاتهم ، والتأمل صفة البشر ، ثم انّه يعامل من يمر بهم من الكائنات (الازهار ، الورود) في رفق حتى لايثقل كواهلهم بخفته و هوائيته ، كما أنه يستمع لكل الانات والآهات ، أنات الشعراء وآهاتهم ثم يوجهها بأنفاسه ويمضي لأنها أنفاس ، وحري بالانسان أن يكون كذلك في تعامله مع من حوله وحري به أن يقتدي بالنسيم ، يقول :

ـ أجيء من عرف البحار ومن قنن الجبال ، ولكنني لا أعلم من أي مكان انبثقت .

أبلغ الطائر الحزين رسالة من فصل الربيع ، وانثر في منزله فضة أزهار الياسمين ، اتقلب في العرج والتفاف (انحني) على أغصان الشقائق ، فابعث من سامها اللون والرائحة . وأتعلق رفيقا رفيقا بأوراق الشقائق وأكمام الورود ، حتى لاتنوء أغصانها بجولاتي ، واذا رأيت شاعرا هاجه النسيم ، خلطت (مزجت) أنفاسه وأنينه بأنفاسي (2)

ولاقبال ولع بالطبيعة المتحركة الحية ، دفعه لأن يبدع لها في كل مرة صورة تعبّر عن أحاسيسه وانفعالاته بما يشاهده فيها وبخاصة ، فصل الربيع وما يراه فيه من هيام الأرض والورود والشقائق والطيور ، ثم تفاعل هذه جميعا لأنها ابنة ذلك الفصل ، فتتجاوب أصواتها وأشكالها والحانها وألوانها في تناغم وانسجام وتعطي ربيعا يقيم حفلات متجددة في الروض ، تفتح أنغام البلابل في تلك الحفلات أعين براعم الروض ، فكأنها كانت غارقة في نومها حتى اذا سمعت تلك الانغام الشجية المجنونة في نشوتها استفاقت وتفتحت ، ويضفي تأمل الخلق لذلك المشهد على أوراق الشقائق نضرة وبهاء ، وتحول نسائم الربيع البستان الى حانة خمر ، وتصنع من البراعم كؤوسا ومن الورود أقداحا وأكوابا ، وهكذا تتداخل كل عناصر الصورة وتتفاعل ، وتمضي باقبال بعيدا عن السرد والوصف الذي لاينتج الا لوحة صامتة جامدة ، وتصل به الى صورة جديدة أنجبها خياله بالبحث عن العلاقات القائمة بين عناصر الطبيعة وتفاعلها مع كل ما في الكون ، فكل ما صنعته هذه الصورة مؤثر ومتأثر ومتفاعل ومتناغم مع غيره ومع أهداف الشاعر ، يقول :

ـ قد أقام الربيع حفلا في الروض (حفل طرب وغناء) ، وفتحت أنغام البلابل المجنونة الهائجة عين البراعم ،

---

1 ـ انظر رسالة الشرق ص 261 .

2 ـ رسالة الشرق ، ص 271 .

قيد الربيع كل الاوراق المبعثرة ، وزادت نظراتنا الشقائق ورواء (1)

هواء فرورد يسن يقيم في البستان حانة خمر ، ويصنع من البراعم كؤوسا ومن الورود أكوابا وأقداحا (2) .

وكذلك وجود الانسان الذي لايكتمل الا باتصاله بالمجتمع وتوحّده بكل ما في محيط الحياة . الى درجة يصبح فيها طلب الكمال بعيدا عن المحيط ضربا من الخوض خبط عشواء ، وقد شبهه الشاعر مرة أخرى بالطبيعة التي يجعلها أحيانا مشبهها وأحيانا مشبها به ، الانسان أشبه بقطرة ماء تطلب انفصالها عن البحر مع أنها لاتتحول الى جوهرة الا بين أحضانه :

ـ ياقطرة انفصلت عن نفسها انك طالبين مستحيلا ، ان لم تخرجي من البحر جوهرة ثمينة فعار عليك أن تعيشي بين أحضانه .

لأنك لاتعرفين قدر نفسك لذلك رحت طيعينه ، فلولا ك لصار الياقوت المتلألئ قطعة من الحجر (3) .

ان المتأمل لهذه الصوره يستحضر حاسته الفنية ويتذوق ذلك الرمز الخفيف ويتفاعل مع اجزائه البسيطة ، ولكنه يستحضر أيضا فكره وخياله ليتأمل مقابل الرمز المرموز له ، الانسان في بعض دقائق حياته وتأملاته ومواقفه من الحياة ، كما يتجاوز ذلك الى التفكير في وظيفة الصورة نفسها والرمز نفسه وهي وظيفة خفية . انها نصيحة ثمينة تمرّ للانسان اعتباره وتعطيه قيمته التي أغفلها أو طلبها في غير صورتها الحقيقية .

فهناك علاقة (جدلية) بين الأدب والاطار الاجتماعي المنعكس عنه ، وهي التي تحدد وعي الاديب بواقع أمته من جهة وبأدوات البناء الجمالية من جهة أخرى ، وكلاهما من عوامل ضمان الجودة والخلود للعمل الادبي .

ومن تأملات اقبال في الواقع والحياة نظراته النفاذة الى طبيعة الانسان في الحياة التي شبهها بمعمل يتنازعه التخطيط والتدبير والتطبيق ، فينجز فيه أحيانا مالم يخطط له ، وتظل التصاميم والمخططات جامدة على الورق .

شعور باطن ينتاب الجميع حول طبيعة الانسان الذي يفكّر ويخطط ويدبر ولكن الله يسبق بالتقدير فلا يكون الا مايريد الله ، خطط كثيرة معظمها الحياة وغايات كثيرة ولكن لا يحقق منها الا القليل ، ويظل الناس غرقى في ذلك المعمل الكبير بين الحمل حينا والتخطيط أحيانا ، بل وتأتي أشياء أخرى لم يخطط لها الانسان ، ويرى حوله مساكن يجب زواله ثابتا راسخا ويرى عدا

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 313 .

2 ـ رسالة المشرق ، ص 322 .

3 ـ رسالة المشرق ، ص 321 .

من حواليه ماكان يجب بقاؤه ... وهكذا ، يقول :

ـ كم من خلال قد رسمت ولم أنفذها في معمل حياتي ، وكم من شيء كان يجب ذهابه ولم يذهب وكم من شيء كان يجب بقاؤه ولم يبق (1).

وبالصورة الشعرية أشاد اقبال بشاعر رسم الحياة بريشته وبروحه وهو الشاعر العجمي يتوفى ، فقال :

ـ غنيت كعروس الرياض حينا ، زدت قلبنا همّا وحزنا وأسليت قلبا .

خضبت وجه الشقائق من دمائك المسفوحة ، وفتحت بآهاتك وانغامك الصباحية قلوب البراعم .

ذبت في الحانك ، فكلماتك هي لحدك ، لم تعد الى التراب ثانية ، لأنك لم تكن من تراب .(2)

شعور عاثر في وجدان اقبال تجاه من خدموا بلادهم ، نقله الى صورة ليستدعي الشعور نفسه في وجدانات المتلقين ، شاعر يستشهد في ساحات الوغى ذودا عن الوطن يموت ولا يعثر له على جثمان يذكر به ، فيجتمع له الجهاد بالكلمة والجهاد بالنفس ، ثم يحرم من أبسط ما يمكن أن يقدمه له الوطن وهو شبر من تراب.

هذه الصورة المؤثرة أقام لها اقبال مقابلها ومعادلها رسما بالكلمات ، جسما مؤثرا باعثا للحزن ولكنه كان أيضا رسما مبشرا ، معللا تعليلا فنيا لتلك المأساة ان لم يكن ليتوفى من أرض الوطن لحد ، فيكفي أنه بثى صروحا من الكلمات والبطولات وليختر أيها شاء قبرا له . ولأنه كان نورانيا لأنك لم تخلق من تراب ، فلذلك اختفى جثمانه .

بل ان اقبال يصنع صوره أحيانا بالحكم ، فقد عبر في أكثر من مرة بالحكمة عن أدق أحوال النفس البشرية ، تدلّ كلها على قدرات اقبال وتحكمه في أداته الفنية ، نقتطف منها :

ـ كل ذرة فينا ثائرة مشتعلة ، وفي كل نفس من أنفاسنا محشر مضمر .

حبّة الدرّ تعرف البحر لكن ، أي علم لها بدوران المرحى

يصير القلم القارع اللبّ ، وليس للقلم الذي مردوده كحصل صرير .

سأبين يا أخي دليلا على الحياة ، اعلم أن النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل .

يا قاطف الورد لا تتألم من وخزات الشوك ، لأن الشوك نفسه من ثمار الربيع (3)

لا تبتئس وشما وخضابا وتلوينا ، فليس الشباب سرقة السنين .

---

1 ـ رسالة المشرق ، ص 314.

2 ـ رسالة المشرق ، ص 373.

3 ـ رسالة المشرق ، ص 390 ـ 391.

ان نقد الشعر بالاسواق غير لائق ، اذ لا يمكن شراء خبز بفضة الياسمين .(1)

وكان آخر ماختم به الديوان حكمة ودرس في الحياة :

ـ ما أجمل أن يكون الانسان حرّ المصير ، ويصير حرّا من كل القيود .

لو كان التقليد نهجا حسنا ، لاتبع الرسول (ص) نفسه طريق الاجداد (2)

أخيرا فان هذه الدراسة الفنية في هذا الفصل تكشف عن سيطرة اقبال وتمكنه من أداته الفنية ،وتكشف عن فهمه لرسالية الادب وعلمه ان الادب تعبير جميل مؤثر ولكنه تعبير فعال أيضا في مجتمعه وفي كل من يقرأه ،وتعبير مرتّب ومهذب ومصلح للنفوس وبان لها .

وذلك الاصلاح والبناء الجديد للنفوس ،وتلك الصياغة الجديدة للحياة تحتاج حتما الى أسلوب فني مميز يضمن النجاح لها منفذا الى العقول والنفوس .

وقد لاحظت من خلال دراستي للديوان "رسالة المشرق" وناظمه أن اقبال وفق الى حدّ كبير في الجمع بين عنصري الصورة الشعرية (الفني والاجتماعي) ، اذ لايعرف التصور الاسلامي شيئا من غير هدف أو غاية ،ولا يعرف شيئا اسمه الفن للفن ،ان التصوّر الاسلامي يعرف الفن للحياة والفن للناس ،والصورة الشعرية من خلال هذا التصور ، وكما سبق ـ هي ذلك الكيان المتكامل الذي يجمع بين الوظيفتين الجمالية والاجتماعية ، وهي بعد ذلك رسم بالكلمات ،ورسم للظلال النفسية وخبايا الشاعر والانفعالات .

ومن خلال ذلك التتبع للديوان يمكن أن ننتهي الى القول أن اقبال اعتمد في تصويره الشعري على عناصر عديدة ، تتنقل بواسطتها عبر أجزاء ديوانه وأعرب بها عن تصوراته ومواقفه وأفكاره .

وقد قسمت تلك العناصر بحسب أهميتها في ثنايا الديوان وبحسب الابداع الاقبالي فيها ، وان كانت النماذج المقدمة لاتمثل الديوان كله فانها تمثل أعذب صوره وأروعها فليس بالضرورة أن يحتوي الديوان من أوّله الى آخره صورا شعرية مستقلة بعضها بعض ، بل ليس بالضرورة أن تحمل القصيدة كلّها آيات الابداع والتصوير الشعري ، فقد نجد الصورة في بيت من الشعر أو بيتين ،وقد يحمل شطر بيت منها صورة مبدعة تطغى على كل أجزائها ،وتكون هي بيت القصيد فيها .

لذلك بدأت بالتشبيه أداة من أدوات تصوير الشاعر ،ثم تدرجت بعد ذلك الى التصوير بالرمز فالى التصوير بالتراث فالقصة واخترت في الاخير بعض النماذج رأيت أن عناصر التصوير الفني قد اكتملت فيها .

---

1 ـ رسالة المشرق ،ص 392 .
2 ـ رسالة المشرق ص 392 .

فمعظم الديوان تشبيهات بسيطة لم يتجاوز الشاعر فيها حدود المشبه والمشبه به ولكنه ألقى عليها من ابداعه ما جعلها تتجاوز حدود ما وقف عنده القدامى في دراستهم التشبيه بالبحث عن طرفيه وفيهما ، وترقى الى ما يسمى اليوم في الدراسات الادبية النقدية صورة شعرية، والعمل الذي خوّل لها ذلك هو سلوك اتصال بها مسلكا معنويا أو نفسيا . وكثيرا ماشبه حالة أو موقفا نفسيا بحالة أخرى نفسية مثل تشبيهه شباب الوفاء بالرجل الغريب ، كما ربط في بعض تشبيهاته بين الانسان بدوافعه وهواجسه ونفسه وضعفه وقوته وتردده وبين الطبيعة بما يقارب تلك الصفات والحالات في الانسان .

وحتى أسمى لحظات الصفاء الروحي وأسمى لحظات الانتشاء الروحي أوجد لها الشاعر من هذه الاداة البسيطة معادلا فنيا .

أما تدوير اتصال بالرمز فانه كثيرا مايبدأ قيه برمز صوفي لينتهي في الاخير الى رمز فني هادف وان بعض عناوينه تحمل رموزا صوفية وان جمعت بين اطلها شتى افكار اتصال مثل منظومته "شقائق النعمان" فهو لم يبق تلك الرموز الصوفية بأبعادها التي وضعها المتصوفة ، ولكنه اتخذها بدورها رموزا لما يمكن أن يصطلح به واقعه ويصحح تصوراته ، ربما كانت أعظم صوره الرمزية تلك المستقاة من الطبيعة بكل عناصرها الحية والجامدة ، وقد يتجاوز الشاعر برموزه الفكرة والشطر والبيت الشعري والمقطع ليحتوي القصيدة كاملة ، فتأتي كلها رمزا أو رموزا لقضايا جزئية متشعبة بفروعها وتفاصيلها مثل قصيدته مجرى الماء ، وهي رمز للاسلام في سرّه وطبيعته وظهوره وصفائه وشموليته واستمراريته وعالميته ورأفته وغاياته المثلى .

وأما التصوير بالتراث فقد كان من دعاماته الخيال والرمز والايحاء والعاطفة الى جانب تقنيات اتصال في تعامله مع مادته .

بل انه أحدث تحويلا رمزيا بواسطة التراث بما فيه الاسطورة ، من ذلك قصة الاسكندر مع الخضر وقصة الملك جمشيد . الاسكندر رمز القوة والبأس الشديد وجمشيد رمز العرش الملآ ولكنهما بسعيهما أوتياه لن يستطيعا أخذ سعادة المؤمنين بربهم ، الولهى في مناجاته ، المشوقين المتلهفين الى لقياه لأنهما لايأخذان إلا المرثي ولا يقتلان أو يتنفذان الا المرثي أما السعادة فلن تطالها أيديهما ، انهما أشبه بأولئك الذين تحداهم المولى أن يستنقذ وأما أخذه الذباب ، كما كان في اسطورة الاسكندر الذي طلب ماء الحياة ليخلد ولم يطلبه ولبسه الفناء ، وكان في جمشيد الذي أبدع وعمر ايران ثم ذهب ويقيت ايران بشعبها عبرة ودرسا .

ومن القصص التراثية التي تحوّل بها الشاعر تحولا رمزيا قصة نحات الجميل فرهاد فجعلها مرة رمزا لحتمية القضاء على الظلم ومرة رمزا للصراع الذي عرفه عصر الشاعر بين طبقة الحمال وأصحاب رؤوس الأموال ،ولتوكيد فكرة القضاء على الفوارق الطبقية عاد بنا الى أعماق التاريخ الى مزدك في دعوته الى المساواة بين الناس ثم أعقب ذلك بشيء من قصة ابراهيم في صراعه مع الشعر والظلم وانتصاره عليه. وهذه الصور التي قد يحتل شارحها الى صفحات لم يعطها اقبال غير أبيات ثلاثة مركزة هادفة.والملاحظ ان النصيب الأوفر من هذه التقنية الاقبالية كان للصورة التراثية الدينية المستمدة من القرآن وقصصه ومن الاسلام وأحيانا من الديانات الاخرى . لكنه لم يستمد لذلك التراث التهريب عن الاسلام وانما أخضع التراث لموهبته وأدى به فكرته ، فحتى صور التراث الاسلامي تجلى فيها تجديد اقبال، مثل تجديده في الدلالة من الرحلة (من ديار الاحبة الى ديار الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم) ومثل تجديده في قصة موسى عند ما رفض الثبات والجمود على تلك الامنية (التجلي) وهي دعوة الى محاولة الارتفاع بالنفس كلما نالت أمنية ارتقى بها الانسان الى أمنية أكبر .

والى جانب هذه الايحاءات الجديدة التي خلعها اقبال على صوره التراثية فانه جعل من بعضها أداة لتصوير عالمه المعاصر بفلسفته وفلاسفته ، بعلمه وعلمائه ، بواقعه المرير في الحاضر والمستقبل .

كما كان من بين لوحات الشاعر في تصويره الفني الصور القصصية وكثيرا ما اختار أبطال قصصه من الطبيعة والكون من طيور وورود وشمع وفراش وشقائق ... وجليد وانهار وبحار وندى ... وظباء ... ومن البشر وغير هؤلاء جميعا .

وقد وفق الى حد بعيد في صوره القصصية في الجمع بين الوظيفة الجمالية بما في القصة من ايحاء ورمز وبين الوظيفة الاجتماعية لأن تلك القصص كانت أشبه بالرمز وكان هدفها الاول التربية والبناء والاصلاح والتجديد والانتقاد .

فالمرفح من صبر الانسان وكفاحه يأتي بحوار قصصي بين بلبل ضعيف يبكي من وخزة شوك وبين غصن ورد قد ملأه التوق وقامت حوله كل المتناقضات (ورد يجتلبه ولكن بسرعة زواله ،بحضوره وذبوله ،وشوكه بضره وأذاه ...)

وقد أخذت صور الشاعر القصصية قوالب عديدة منها ما جاء في قالب سرد قصصي ومنها ما جاء على شكل حوار بين طرفين أو أكثر ، ومنها ما صنع لها خيال اقبال راويا يحكيها ،وأحيانا يكون الشاعر هو الراوي ، وهي أسا ليب كلها فتح الى النفوس والعقول .

هذا وان المتصفح للديوان يقف أمام صور شعرية يجد فيها ان كل عناصر التصوير قد تعاونت وتشابكت ،ويحس وهو يتابعها أن الشاعر قد عاشها نفسا نفسا بفكره وروحه ووجدانه ،ويحسّ في الاخير أنها هيئة تعبيرية جديدة ، كثيرة ما تحث القارئ بروعة ابداعها على التأمل والتدبر والتحليل والاجابة على علامات الاستفهام الكبرى التي يطرحها الشاعر .

وهكذا فان اقبال يتتبع لأسمى حالات النفس البشرية وأشدها عسرا على التتبع يكون قد أرضى الحاسة الكامنة في رون العصر ،وهي حاجة الغوص الى أعماق الاشياء ، وأعماق الانسان والتوغل في حنايا كل ما من شأنه أن يكون موضوعا يطرقه الشاعر بأبسط الادوات ولكن بأحسن التجارب الفنية وأعمق المشاعر الانسانية .

والحقيقة أن الديوان لم يخل من حكم ونصائح وتوجيهات ألبسها الشاعر أسلوبا مباشرا ، تمثلها بصورة جلية أفعال الأمر والنهي وصيغ النداء التي لو أحصيناها في ديوانه رسالة المشرق لوجدناها ماثلة في كل منظومة ، ولوجدناها تتجاوز التسع والتوبيه المباشرين ، غير أن اقبال بتلك الادوات الفنية وبتلك الصور الشعرية غلب على أسلوبه المباشر ونفذ الى نفوس المتلقين بفتوحات نفسية وبمراعات فنية ابداعية واقناعات عقلية ،كما نفذ اليها بذكائه في تعامله مع أداته .

خاتمة البحث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خـاتمـة البحـث

من النتائج التي توصلت اليها من خلال بحثي :

1 - أن التصوّر الاسلامي وان تباعدت به الحدود الجغرافية وأبعدته يظل متقاربا ان لم نقل موحّدا ، طالما ظلت مصادر المسلمين ثابتة ، وقد كانت حياة المسلمين في شبه القارة التي تتبعت شطرا منها وهو المتمثل في كفاحهم دليلا على ذلك ، كما كان الديوان موضوع البحث دليلا آخر قويا عليه ، وكذلك حياة اقبال فقد تجلّت شخصيته قوية متفوقة على الأسر الهندي الذي عاش بين أحضانه والاسر الغربي الذي عرفه مرّة في الهند وأخرى في بعض البلاد الغربية ووقفت نداً قويا ممثلا الطرف الاسلامي بفكره وتصوّره و ثقافته .

2 - ان الديوان كان غنيا بتلك النفحات الروحية التي رأى ضرورة بعثها من جديد اذ هي الشطر الثاني المكمل لمادية الحياة ولكن الفلسفات الحديثة ، أهملتها وظنت الحياة مادة بلا روح ، ولم يكن اقبال يريد بتلك القبسات الصوفية أن يعود الى شطحات المتصوفة لأنه كان يدعو الى تصوف عملي معتدل ، وهو انما عاد اليه ونصح بذلك لمّا رأى الخواء الروحي يهدد العالم بالفناء والدمار في وقت طغت فيه الفلسفات المادية لأن الحياة لا تقوم الاّ على التوازن بين هذين دون أن يطغى الاهتمام بالروحانيات فتكون عصور من ركود ونوم ، أو يطغى الاهتمام بالماديات فيكون الدمار والخراب .

ثم أنني لاحظت ان العمل الادبي المكتوب بالفارسية يكاد لايخلو من أثر صوفي وربما كان سبب ذلك غنى المصادر الادبية الفارسية بالذوق الصوفي ، وقرب هذا المعين من النفوس وسرعة نفاذه اليها ، وان لم ينج من هذا الاثر الصوفي الكبير ، فانهم يتفاضلون في النهاية من توظيفه ونظرتهم اليه ، بين داع الى التواكل المفضي الى التكاسل والخمول والخنوع وداع الى العزة والعمل المستمر ... وذلك ما يميز اقبال ، اذ كان التصوف عنده حياة لافكرة وكلمة وكان عنده عملا وليس تنويما أو دعوة الى تواكل أو خمول .

3 - كما لاحظت أن الشاعر الفارسي اللسان يستطيع أن يجمع في ديوانه أو عمله الشعري أصنافا شتى من ضروب النظم من قصائد وقطع ورباعيات ومنثوياتوغزليات وتركيبات وترجيعات ومسمطات ومستزادات ، بخلاف الشعر العربي الذي يقوم في كثير من الاحيان على القصائد والقطع وان وجدت فيه المسمطات والموشحات .

ولعلّ هذه الانوال تعطي العمل الادبي نفسا جديدا اذ ينتقل الشاعر بالقارئ من

فمن الى آخر فيتعبره بالجديد ،وربما كان هذا فتحا نفسيا تنفذ به الافكار المطروحة الى الجمهور لأن النفس كثيرا ما تمل النسق الرتيب ، كما كانت هذه القوالب الفنية عاملا آخر من عوامل التخفيف من تكرار بعض الافكار وفي مقدمتها ما تعلق بالتصوف ،فبفضلها ظهر التكرار فنا وأضفى على الديوان جمالا ،ولوجاء الديوان على نسق واحد لبدا التكرار فيه عيبا .

5 — ستبقى العلاقات الادبية بين الشرق والغرب حية مشرقة ،فاذا كان الساسة والفلاسفة وبعض رجال الدين يميلون بتلك العلاقات في كثير من الاحيان الى التناحر والتطاحن ،والحرب المعلنة حينا والخفية أحيانا كثيرة ،فان رجل الأدب استطاع أن يحافظ على صفاء تلك العلاقة وبراءتها من الغايات المادية ، وربما كان الادب ورجاله الصوت الذي يعرف بالوجه الآخر للعملة التي لم يكشف الساسة لشعوبهم الا وجهها الاسود بينما يكشف الاديب عن الوجه الآخر المشرق لها .

وذلك مافعله غوته في ديوانه الشرقي اذ ظهر مأخوذا بكل مافي الشرق من غنى روحي ،وجاء ديوانه تكرارا للشرق بعطاوينه وأفكاره وصوره ،وربما كشف الأدب عن الوجهين وتجاوز الاعجاب المفرط الى الانصاف ،وكذلك كان اقبال في ديوانه ، فقد أزاح النقاب عما خفي من كيد الغرب ودهاء ساسته وغدرهم وزيف شعاراتهم ولم يمنعه ذلك من الاعتراف لبعض روادهم بالفضل أمثال نيتشه وغوته وبتوفي وبذلك يكون الاديب أكبر وسيط بين الشعوب .

وقد انتهيت من هذه الاطلالة البسيطة على كل من اقبال وغوته الى أن مجال المقارنة بينهما مازال خصبا بمادته العلمية ليس فقط في ديوانيهما الشرقيين ان صح التعبير — بل في كثير من أعمالهما ، وان المقارنة بين الاديبين الشرقي والالماني تخبئ الكثير من العلاقات الحميمة الجديرة بالدراسة ، هذا وقد استنتجت أن اقبال لم يكن وسيطا فحسب ،بل كان محاورا شرقيا وندا للغرب في أدبه وسياسته وفكره وفلسفته واستطاع أن يقف أمام الثقافة الغربية بجميع روافدها بثقافة شرقية اسلامية نابعة من تصور اسلامي شامل .

4 — والحقيقة أن هذه القوالب الشعرية اخترعها أدباء مبدعون وقلدهم من جاء بعدهم ،وانتهى الامر بالدارسين والنقاد المحدثين أن ينظروا لها وفق ما وقف عنده أولئك المبدعون ويعتبرون كل خروج عنها عيبا ، كما انتهوا الى قصر بعض الفنون على أغراض بعينها مادام الاوائل لم ينظموا في غيرها . وان التزم اللاحقون بذلك النمط وكادت أعمالهم أن تجمد عليه فان الحق للعبد عين أن يجدد وا ذلك القديم ويطعموه

بعصرهم وظروفهم وضريبة تفكيرهم وأدواتهم الفنية وقد كان ديوان رسالة المشرق آية التجديد في تلك القوالب التقليدية وما جمد عليه نظريات أصبح من الكفر الفني مثالها فقها . فقد بدأ اتصال في بعضها وتمرد على بعض قيودها ، وكان أعظم ابداع له أن خرج بها من المواضيع الضيقة التي حددها الدارسون الى مواضيع جديدة كالسياسة والفلسفة والانتقاد لكل مايمكن أن تنتقده النفس البشرية ، وبذلك أثبت أن الشاعر المبدع لاتقف أمامه القواعد الفنية ولا تعوقه عن أداء مهمته ، كما أثبت أن الشاعر المبدع يستطيع أن يجعل من الشعر أداة لمعالجة كل القضايا .

6 ـ ولعل النتيجة التي لأجلها ازداد تمسكي بموضوع البحث هي يقيني بأن لكل شيء ـ على الأقل ـ في التصور الاسلامي غايته ، وللأدب غايته التي تتجاوز المتعة الفنية وان كانت من أهم دعاماتها الى الوظيفة الاجتماعية (1) .

---

1 ـ قد تكون هذه الوظيفة أخلاقية أو دينية أو تربوية أو فكرية ، يكفي أنها تقدم خدمة للمجتمع .

قائمة المصادر و المراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ ـ المصادر

بعد القرآن الكريم .

كتب الحديث .

1 ـ ابن حنبل ، مسند ابن حنبل ، دار الفكر ، بيروت .

2 ـ ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت .

3 ـ البخاري ، صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1401 ـ 1981 .

4 ـ الترمذي ، سنن الترمذي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط 2 ، 1403 ـ 1983 .

5 ـ الدارمي ، سنن الدارمي ، دار الفكر للطباعة والنشر .

6 ـ السيوطي ، الجامع الصغير لأحاديث البشير النذير ، دار الفكر ط 1 ، 1401 ـ 1981

7 ـ مسلم ، صحيح مسلم ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1401 ـ 1981 .

8 ـ مسلم ، صحيح مسلم ، دار الكتاب المصري (القاهرة) دار الكتاب اللبناني (بيروت)

9 ـ النسائي ، سنن النسائي ، دار المعرفة بيروت ، ط 1 ، 1411 ـ 1991 .

مؤلفات اقبال :

10 ـ كليات اقبال (فارسي) ، طبع غلام علي پرنترز ، لاهور ، اشاعت پنجم 1985 .

11 ـ ديوان الأسرار والرموز ـ ترجمة عبدالوهاب عزام ، دار المعارف ، مصر .

12 ـ تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ترجمة عباس محمود ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط 2 ، 1968 .

13 ـ جنك جيرس ، ترجمة عبدالمعين ملوجي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ط 1 ، 1987 .

14 ـ رسالة الخلود ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ، رسالة دكتوراه ، مؤسسة سجل العرب ، 1974 ، وترجمة حسين مجيب المصري ، مكتبة الانجلو المصرية .

15 ـ رسالة الشرق ، ترجمة عبدالوهاب عزام ، طبعة مصر ، شركة مساهمة مصرية ، جماعة الأزهر للنشر والتأليف 1952 .

16 ـ ضرب الكليم ، ترجمة عبدالوهاب عزام ، طبعة مصر ، شركة مساهمة مصرية ، جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، 1952 .

17 ـ ما وراء الطبيعة في ايران ، ترجمة عن الفرنسية حسين مجيب المصري ، مكتبة الانجلو المصرية

18 ـ هدية الحجاز ، ترجمة حسين مجيب المصري ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1975 .

19 ـ والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق ، ترجمة محمود أحمد غازي والصاوي شعلان ، دار الفكر ، دمشق ، سورية 1408 ـ 1988 .

20 ـ Message de l'Orient , traduit par [illegible] Mohammed A_ Achena , Paris , Societe d'edution ([illegible]) , 199[illegible] .

ب- المراجع :

1 - المراجع بالعربية :

21 - ابراهيم عبد الرحمن محمد ، النظرية والتطبيق في الادب المقارن ، دار العودة ، بيروت 1982.

22 - ابن سيده ، المخصص ، تحقيق لجنة احياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة بيروت .

23 - ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين بين منازل ايـاك نعبد واياك نستعين ، دار الكتاب العربي بيروت ، 1392 ، 1972 .

24 - ابن الهقفع ، كليلة ودمنة ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 4 - 1983 بيروت

25 - أبو الاعلى المودودي ، نحن والحضارة الغربية ، الدار السعودية للنشر والتوزيع 1404هـ 1984م

26 - أبو جرة سلطاني ، الموت والرثاء في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير مقدمة الى معهد الاداب قسنطينة ، 1986 .

27 - أبو الحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، دار القلم ، الكويت ، ط3 ، 1389 - 1969 .

28 - أبو الحسن الندوي ، روائع اقبال ، دار الشهاب للطباعة والنشر ، باتنة ، الجزائر .

29 - أبو الحسن الندوي ، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، دار الندوة للتوزيع لبنان ، ط 2 1338 هـ 1968 م وطبعة دار القلم ، الكويت ط 5 ، 1405 هـ ، 1985 م .

30 - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط 8 ، 1404 - 1984 .

31 - احسان حقي ، باكستان ماضيهما وحاضرهما ، دار النفائس ، بيروت ، ط 1 ، 1393هـ 1973م

32 - أحمد حسن الباقوري والسيد سجاد حيدر ، محمد اقبال فيلسوف الاسلام وشاعر الباكستان ، بدون تاريخ ولا دار نشر ، طبع في سوريا .

33 - أحمد ماهر البقري ، الفكر الاسلامي في أدب اقبال ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الاسكندرية ، 1408 هـ - 1988م .

34 - أحمد محمود الساداتي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ، مكتبة الاداب ومطبعتها بالجماميز ، مصر .

35 - أحمد محمود ، العلامة اقبال حياته وآثاره ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980 .

36 - اسعاد عبد الهادي قنديل ، فنون الشعر الفارسي ، دار الاندلس ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1402هـ 1982 م .

37 - اسماعيل العربي ، نماذج في روائع الادب العالمي ، الجزء 3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1986

38 - أليمر مباركبوري ، الهند والعرب في عهد الرسالة ، ترجمة عبدالعزيز عزت الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973 .

39 - الكسندر ديما ، مبادئ علم الأدب المقارن ، ط 1 ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، 1987 .

40 - السن تيت دراسات في النقد ، ترجمة عبد الرحمن ياغي ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط 2 ، 1980 .

41 - امبرى تشف ، المؤرخون وروح الشعر ، ترجمة توفيق اسكندر ، دار الحداثة ، لبنان ، ط 2 ، 1984 .

42 - أميرة نور الدين داود ، دور من اشعر اقبال ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1371 هـ 1951م

43 - أنور الجندي ، ترجمة الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي ، مكتبة الانجلو المصرية ط 1 ، 1970م .

44 - أنور الجندي ، العالم الاسلامي والاستعمار ، مطبعة القاهرة ، الرسالة ، 1985 .

45 - أنور الجندي ، العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي ، دار المعرفة ط 1 ، 1970 .

46 - ب ، فايشر ، الشرق في مرآة الغرب ، دار سراس للنشر تونس ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 .

47 - بديع جمعة ، دراسات في الادب المقارن ، دار النهضة العربية بيروت ط 2 ، 1980

48 - البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنس الطباع ، عمر أنس الطباع .

49 - بيتر بونسر ، غوته ، ترجمة أسعد رزوق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت لبنان ، 1975 .

50 - البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ، الهند 1377 هـ - 1958 م .

51 - الثعالبي ، غرر السير (المعروف بـ غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم) ، مكتبة الاسدى ميدان بهارستان طهران ، أعيد طبعه سنة 1963 .

52 - جابر أحمد عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، 1974 .

53 - جبور عبد النور ، المعجم الادبي ، دار العلم للملايين ، ط 2 ، 1984 .

54 - جراهام بيلي ، الادب الاسلامي في شبه القارة ، ترجمة حسين مجيب المصري مكتبة الانجلو المصرية .

55 — جمال الدين الشيال ، تاريخ دولة أباطرة المغول الاسلامية في الهند ، دار المعارف ، مصر ط 1 ، 1957 .

56 — جيروم ستولنيتز ، النقد الفني ، ترجمة فؤاد زكريا

57 — حسن أحمد محمود ، الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1968 .

58 — حسين فوزي النجار ، من الاحداث في الشرق الاوسط ، مكتبة القاهرة ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، ط 1 ، 1957 .

59 — حسين مجيب المصري ، اقبال والعالم العربي ، مطبعة الانجلو المصرية .

60 — حسين مجيب المصري ، اقبال والقرآن الكريم ، مطبعة الانجلو المصرية .

61 — حسين مجيب المصري ، اقبال بين المصلحين الاسلاميين ، مطبعة الانجلو المصرية

62 — حلمي مرزوق ، النقد والدراسة الادبية ، دار النهضة العربية ، بيروت ط 1 ، 1402 — 1982 .

63 — حميد مجيد هدو ، اقبال الشاعر والفيلسوف والانسان ، مطبعة القرى الحديثة ، النجف الاشرف ، العراق ، ط 1 ، 1963 ، 1383هـ .

64 — خالد عباس أسدي ، محمد اقبال ، قصائد مختارة ودراسات ، مكتبة مذبولي ، القاهرة .

65 — ربيعي محمد عبد الخالق ، أثر التراث الحربي القديم في الشعر العربي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر ، 1988 .

66 — روجيه غارودي ، حوار الحضارات ، ترجمة عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، باريس ، ط 1 (نيسان ابريل) 1978 .

67 — رومان رولان ، خاتمة وكفاحه المسالم ، ترجمة محمد التونجي ، دار الفكر ، 1988

68 — زكي مبارك ، التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا بيروت ، ج 1 — 2 .

69 — السعيد الورقي ، لغة الشعر العصري الحديث ، دار النهضة بيروت ، ط 1 ، 1979 .

70 — سامية حسن عسمان ، الصورة الفنية ونماذجها في ابداع أبي نواس المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط 1 ، 1402 — 1982 .

71 — السهروردي ، عوارف المعارف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1983 .

72 — سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 10 ، 1408 ، 1988 .

73 — سيد قطب ، تفسير الظلال ، دار الشروق ، بيروت ، ط 11 ، 1405 ، 1985 .

74 ـ الشريف عبد الحي فخر الدين الحسيني ، نزهة الخواطر ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، 1378 هـ ، 1959.

75 ـ شاخت و بوزورث ، تراث الاسلام ، ترجمة محمد زهير السمهوري ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، 1978 ، 1398 (سلسلة ثقافية).

76 ـ شيرين عثمان ، زبور العجم ، رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى قسم اللغة الفارسية ، الازهر ، 1407 ـ 1986. (كلية البنات) .

77 ـ صبحي محمصاني ، المجاهدون في الحق ، دار العلم للملايين ، ط 1 ، 1979.

78 ـ صدر الدين بن علي الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، صححه محمد اقبال منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ط 1 ، 1404 هـ ، 1984.

79 ـ صلاح الدين بن شمس الدين ، الاتجاه الاسلامي في شعر اقبال ، رسالة دكتوراه (مخطوطة) مقدمة الى الازهر .

80 ـ طه ، ندى ، فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، القاهرة

81 ـ طه واد ى ، جماليات القصيدة المعاصرة ، دار المعارف ، مصر .

82 ـ عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، دار الاندلس بيروت ط3، 1983 .

83 ـ عبد الرحمن صدقي ، الشرق والاسلام في أدب غوته ، دار الهلال .

84 ـ عبد العزيز سليمان نوار ، الشعوب الاسلامية ، دار النهضة العربية ، بيروت 1973.

85 ـ عبد الفتاح صالح نافع ، الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان الاردن ، 1983.

86 ـ عبد الفتاح عبد الله بركه ، في التصوف والاخلاق ، دار القلم الكويت ، ط1 ، 1403 ، 1983.

87 ـ عبد القادر محمود ، الفلسفة الصوفية في الاسلام ، دار الفكر العربي .

88 ـ عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، تحقيق محمد عبده ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، 1402 هـ ـ 1982م.

89 ـ عبد الكريم الخطيب ، قضية الالوهية بين الفلسفة والدين ، دار الفكر العربي .

90 ـ عبد اللطيف الجوهري ، مع اقبال ، مكتبة النور ، مصر ط 1 ، 1405 ، 1986.

91 ـ عبد المنعم الحفني ، معجم المصطلحات الصوفية ، دار السيرة ط 2 ، 1987 .

92 ـ عبد المنعم النمر ، تاريخ الاسلام في الهند ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط 1 ، 1401 ـ 1981 .

93 ـ عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، اقبال أكادمي ، باكستان ـ ط 3 ، 1985.

94 ـ عدنان علي رضا النحوي ، الادب الاسلامي ، انسانيته وعالميته ، دار النحوى للنشر والتوزيع ط 2 ، 1407 هـ ، 1987م .

95 ـ عدنان محمد وزان ، مطالعات في الادب المقارن ، الدار السعودية للنشر والتوزيع 1403 هـ ـ 1983م .

96 ـ عز الدين اسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ، بيروت ، ط 4 ، 1981 .

97 ـ عطية سلمان عودة ، مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الاسلامي الحديث عند كل من الامام محمد عبده ومحمد اقبال ، دراسة مقارنة ، دار الحداثة ، ط 1 ، 1985 .

98 ـ علي حسون ، فلسفة اقبال ، دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق ، ط 2 ، 1986 ، 1406 هـ .

99 ـ علي الشابي ، مباحث في علم الكلام والفلسفة ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع تونس ، ط 2 ، 1977 .

100 ـ عمر الخيام ، الرباعيات ، ترجمة خليل حنا تادرس ، مطبعة النصر ، .

101 ـ غنيمي هلال ، الادب المقارن ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، 1983 .

102 ـ غوته ، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 2 ، 1980 .

103 ـ فؤاد المرعي ، المدخل الى الاداب الاوربية ، منشورات حلب ط 2 ، 1980 ـ 1981 .

104 ـ الفردوسي ، الشاهنامه ، ترجمة الفتح بن علي البنداري ، أكمل الترجمة وصححها وعلق عليها عبد الوهاب عزام ، مكتبة الاسدي ، طهران ، أعيد طبعه بالافست في طهران 1970 .

105 ـ فريد الدين العطار ، عطارنامه ، (منطق الطير) ترجمة أحمد ناجي القيسي ، ساعد جامعة بغداد على نشره ، مطبعة الارشاد بغداد ، ط 1 ، 1398 هـ ، 1978 .

106 ـ فالنتينا ايفانوفنا شيشكينا ، الثورة التكنولوجية والادب ، ترجمة عبد الحميد سليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 .

107 ـ القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان .

108 ـ كاترينا موسيجين ، غوته والفلسفة الليلية ، ترجمة أحمد الحمو ، وزارة التعليم العالي ، سوريا ، 1990 .

109 ـ كلوم ـ بنانكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، مصر 1968 .

110 ـ لوثروب ستيودارد ، حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ، ط 4 ، 1394 ـ 1973 .

111- لويس رينو ، الادب الهندي ، ترجمة بهـــيـــن شعبان دار بيروت للطباعة والنشـــر ، بيروت ، 1955 .

112- مـا نوراما مودالك ، الهند شعبها وأرضها ، تـرجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم مكتبة النهضة العربية ، 1964 .

113 - محمد اسماعيل الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ، ط 1 .

114 - محمد اسماعيل الندوي ، الهند القديمة ، حضارتها وديانتها ، دار الشعب بمصر ، 1970 .

115 - محمد بن عمر الرادويـاني ، ترجمان البلاغة ، تـرجمة محمد نورالدين عبدالمنعـم ، دار الثقافة للنشـر والتوزيع ، 1987 .

116- محمد البهي ، الفكر الاسلامي الحديث ، وصلته بالاستعمار ، دار الفكر بيروت ط 6 ، 1973 .

117- محمد حسـن الاعظمي والصاوي شعـلان ، الاعلام الخمسة للشعر الاسـلامي ، مؤسسـة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، 1402 ، 1982 .

118 - محمد حسـن الاعظمي والصاوي شعـلان ، اقبال والفلسفة الاسـلامية في شبه القارة الهندية ، دار الفكر ، دمشـق ، سوريـا .

119 - محمد حسـن الاعظمي ، حقائق عن باكسـتان ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .

120 - محمد حسن الاعظمي ، فتى الهند وقصة الباكستان ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

121 - محمد حسـن الاعظمي ، محمد علي جناح باعث الباكستان ، منشورات دار مكتبة الحياة .

122 - محمد حسين آل ياسين ، الاضداد في اللغة ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ط1 ، 1394 - 1974 م .

123 - محمد حسـن جوهـر ، محمد مرسي أبوالليل ، دار المعارف بمصر ط2 ، سلسلة شعوب العالم .

124- محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الادبي بين القديم والحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت 1979 .

125 - محمد زكي العشماوي ، الادب وقيم الحياة المعاصرة ، دار النهضة العربية بيروت ، 1980 .

126- محمد السعيد جمال الدين ، الفن مهمته ووظيفته عند الشاعر محمد اقبال ، ندوة الادب الاسلامي بكلية اللغة العربية بالرياض ، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، 1404 - 1405 هـ .

127 - محمد السعيد عبد المؤمن ، الاساليب الفارسية المعاصرة ، كلية الآداب ، ط2 ، 1984 (القاهرة) .

128 - محمد عادل الهاشمي ، الانسان في الادب الاسلامي المعاصر ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة .

129- محمد عبد المطلب ، البلاغة والاسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984 .

130 - محمد عبد المنعم خفاجي ،الادب في التراث الصوفي ،مكتبة غريب ، الفجالة مصر .

131 - محمد عناني ،النقد التحليلي،مكتبة الانجلو المصرية .

132 - محمد الغزالي ،نظرات في القرآن الكريم ، دار الشهاب ،باتنة .

133 - محمد قطب ،منهج الفن الاسلامي ،دار الشروق القاهرة ،ط 7 ، 1408 - 1987.

134 - محمد الكتاني ،محمد اقبال مفكرا اسلاميا ،دار الثقافة ،الدار البيضاء ،ط 1 ، 1978 .

135 - محمد نور الدين عبد المنعم دراسات في الشعر الفارسي حتى ق 5 ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1976 .

136 - محمد الهادي الطرابلسي ،خصائص الاسلوب في الشوقيات ،منشورات الجامعة التونسية المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1981 .

137 - مديحة أحمد محمد نصار ،مثنوى پس چه بايدكرد أي أقوام شرق وسافر للعلامة محمد اقبال (ترجمة ودراسة) ماجستير مقدمة لكلية الدراسات الاسلامية العربية ،قسم اللغة الفارسية وآدابها ،الازهر ،كلية البنات ، 1409 ، 1988.

138 - مريم جميلة ، الاسلام في النظرية والتطبيق ،ترجمة س حمد ، مكتبة الفلاح ، ط 1 ، 1978.

139 - مصطفى ناصف ، الصورة الادبية ،دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ،لبنان .

140 - منجي السلمي ،الفكر والأدب في ضوء التنظير والنقد ،دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1405 - 1985.

141 - ناجي معروف ،علماء النظاميات ومدارس الشرق الاسلامي ،مطبعة الارشاد ، بغداد ط 1 ، 1393 - 1973 .

142 - نجيب الكيلاني ،اقبال الشاعر الثائر ،الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ط 1 ، 1959 .

143 - النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، ط 2 مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، 1347 ، 1929.

144 - هنري بيتر ،الادب الرمزي ، ترجمة هنري زغيب منشورات عويدات بيروت - باريس ط 1 ، 1981 .

145 - ول ديورانت ،قصة الحضارة ،الهند وجيرانها (الجزء الثالث من المجلد الاول) ، ترجمة زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،ط 3 ، 1968.

146 - ياسين الايوبي مذاهب الادب (معالم وانعكاسات) ج 2 ،الرزيعة ، المؤسسة العامية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت ،ط 1 ، 1402 - 1982.

147- يوسف القرضاوي ، قيمة الوقت في حياة المسلمين ، دار القلم ، الكويت ، ودار الصحوة ، القاهرة

148- ندا" اقبال ، مقالات لعدد من المؤلفين ، دار الفكر ، عن مؤسسة اقبال بدمشق ، لعام 1985 ، ط 1 ، 1407 هـ - 1986م.

3 - المراجع الفارسية :

149 - جاويد اقبال - جاويدان اقبال ، ترجمت شهيند خت كامران مقدم صفياري ، اقبال أكادمي پاكستان ، جلد سوم ، چاپ أول 1984.

جلد أول ، اقبال أكادمي ، چاپ 1987 .

جلد چهارم ، اقبال أكادمي چاپ أول 1987 .

150 - صادق شفق زاده شفق ، تاريخ أدبيات ايران ، در چاپخانه دانشگاه پهلوى ، أنستت گرديد ، 1352 .

151 - محمد منور ميرزا ، غزل فارسي علامه اقبال ، ترجمة شهيد خت كامران مقدم صفياري ، اقبال أكادمي ، پاكستان ، چاپ أول 1987.

4 - المراجع بالفرنسية :

Cheik Bouamrane , Louis Gordet, Panoramade la pensée Islamique Islam Sindbad , Paris , I984 .

152- Eknez Ali , Hocin Lotfi , Les Maitres Penseurs , E N A L Alger 1989 .

153- Jaque Dupus , Histoire de l'Inde et de la civilisation Indienne Petit Bibliotheque , Payot , Paris .

154- Jean Paul, l'Islam En Asie , Bibliotheque Histrique,Payot, Paris

155- Luce Clode ,Maitre Med Iqbal , Paris , I964 .

156- Mohammed Iqbal, I877 - I977 , Commemoration du Centenaire de sa naissance , France .

157- Petit L'Arrousse , 1986 .

5 - المراجع الانجليزية

158- Iqbal Sing ,The Ardent Pulgrim, An Introduction to the life and workofIqbal Orient longmans , L.T.D. Bombay, Calcuta,Madras .

159- Kenneth Cragg , Islamic Surveys 3, Edimburgh at the University Press .

160- Syed Abdulvahid , Studies In Iqbal ,Sh, Mohammed Ashraf Kashmir Bazar, Lahor , Second Edition ,I976 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6 - المعاجم والموسوعات:

161 - فرهنك آموزكار ، حبيب الله آموزكار ، كانون معرفت ، تهران ، چاپ ششم .

162 - فرهنك دانش وفن وسامل (دائرة المعارف) ، چاپخانه أفست أحمد ايرانمهر ، چاپ ششم 1352 .

163 - فرهنك فارسي عميد ، حسن عميد ، چاپخانه سپهر تهران ، چاپ ششم 1364 .

164 - قاموس الفارسية عبد النعيم محمد حسنين ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، ط 1 ، 1402 ، 1982 .

165 - المعجم الفارسي الانجامي حسين محيب المطوي ، طبعة الانجلو المصرية .

166 - لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، مصر .

167 - المعجم الادبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، ط 2 ، 1984 .

168 - المنجد في اللغة والادب ، ط 26 ، دار الشروق ، بيروت ، 1982 .

170 - دائرة المعارف الاسلامية ، دار المعرفة بيروت لبنان .

171 - دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 3 ، 1971 .

169 - الموسوعة اللسفية ، لجنة من العلماء والاكاديميين السوفيات ، ترجمة سمير كرم دار الطليعة بيروت ، ط 6 ، 1987 .

ب- المجلات :

1- الدوريـــة :

172- مجلة الازهر ،عدد 42مجلد السنة 54، من أعلام ق 14 ، محمد اقبال (شاعر هام بحسب الاسلام) المستشار محمد عزت الطهطاوي .

173- مجلة الأمة عدد 47 ،الامير صديق حسن خان د/ محمد اجتباء الندوي ،(1404هـ).

174- مجلة باكستان الصورة ،عدد 1، مجلد 2 ، الحوار بين الشرق والغرب في فلسفة محمد اقبال ،محمد عبد الستار قلعه جي .

175- مجلة التراث الشعبي ،عدد 23 ، سنة 6 (شعبان 1406 ،أبريل 1986) فارسيات اقبال ،صادق آينه وند .

176- مجلة الثقافة (الجزائر) عدد 49سنة 14 (1404 - 1984) فلسفة اقبال الدينية والسياسية ،د/ أبو عمران الشيخ .

177- مجلة الثقافة الباكستانية عدد 13 (نيسان آيار 1989) محمد اقبال فيلسوفا ، د/ محمد سعيد رمضان البوطي ، وعدد 16(كانون الثاني 1989) صور من شاعرية اقبال د/ عبدالكريم اليافسي .

179- ثقافة الهند ،الكتاب السنوي ، 1963 ، 86 .

180- مجلة ثقافة الهند عدد 2مجلد 12 ، (أفريل 1961) نظام التعليم في الهند خلال العصور الوسطى د/ يوسف حسين خان .

181- وعدد 2 مجلد 18 ، (1967) دار المصنفين باعظم گره ، محمد نعيم الندوي .

182- وعدد 43مجلد 28، (1987) ،محمد اقبال بين الشعر والتجديد د/ فيضان الله الفاروقي .

183- وعدد 1 - 2 مجلد 39، (1988) ،أبو الكلام آزاد ومعاصره شاعر الشرق محمد اقبال البروفسور عبد القوي دسنوي

184- مجلة الجامعة الاسلامية،عدد 2سنة 2،(1389هـ) الدبانة الهندوسية فضيلة الوحمن الاعظمي

185- مجلة الدراسة الاسلامية بالمدينة المنورة عدد 47 - 48 سنة 12 (1400 هـ) من أعلام الدعوة الاسلامية في الهند ، صديق حسن خان د/ محي الدين الالوائي .

186- مجلة حضارة الاسلام ،عدد 1-2 مجلد 1 (ز 1380 -1960) ،اقبال في مدينة الرسول أبوالحسن الندوي .

187- مجلة الرسالة عدد 14سنة 1 ، في الادب الغربي ،محمد لجيته ، ترجمة الاستاذ الارناؤوط .

188- مجلة الرسالة ،عدد 122 ، مجلد 2 سنة 3 ،الدكتور محمد اقبال ،فلسفته ، (معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب) ،السيد أبو النصر الحسيني الهندي .

189- مجلة الرسالة ،عدد 256،مجلد 8،سنة 6 ، محمد اقبال، شاعر الاسلام وفيلسوفه ، عبدالوهاب عزام

190 - مجلة الرسالة ،عدد 262 مجلد 2،سنة 6 ، محمد اقبال ،عبدالوهاب عزام

191 مجلة العالم الاسلامي عدد 155 (1407 - 1987) محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف الثورة (ندوة العالم) .

192 - مجلة العربي عدد 230 مجلد 1 (سنة 1978) ، محمد اقبال للمستقبل بمناسبة مرور قرن على ميلاده ، د/ عبد العزيز كامل .

193 - مجلة الحرية الوثقى ،جمال الدين الافغاني ،محمد عبده ،دار الكتاب العربي ،بيروت، لبنان ط 3 ، 1403 - 1983 .

194 - مجلة العلم والايمان ،عدد 42 ، السنة 4 (1979) العلامة محمد اقبال ،شريف المجاهد .

195 - مجلة الفكر العربي عدد 31 ،السنة 5 تاريخ الاستشراق الالماني .

196 - مجلة الفكر العربي ،عدد 31 ، السنة 5 ،(1983) الاستشراق التاريخ والمنهج والصورة -

197 مجلة الفكر العربي عدد 31 ، السنة 5 ، الغرب يشرق ، د/ نقولا زيادة .

198 - مجلة فكر وفن عدد 32 ،سنة 16 - (1979) هرمان هسه واقبال .

199 - وعدد 37 ،سنة 10 (1982) العدد خاص باقبال والمانيا .

200 - مجلة الفيصل ،عدد 30 (1399 - 1979) غوته والاسلام ،د/ مصطفى ماهر .

201 - مجلة المعرفة ،مجلد 7 عدد 41 ،محمد اقبال فيلسوف الباكستان وشاعرها د/ يحي الخشاب .

202 - مجلة المسلم المعاصر ،عدد 37 ،سنة 10 (1404 - 1984) نقد الشعر الحديث ، القاعدة والمنهج والواقع الاسلامي د/ أحمد بسام ساعي .

203 - مجلة المنار عدد 3 ،سنة 12 (1407 - 1986) عقيدة التوحيد في أدب اقبال د/ أحمد ماهر البقري .

204 - المجلات غير العربية :

205 - شماره اقباليات - 1987 ، تاثيس وفكر شعر وأدب ازديد كاه علامه اقبال ، دكتر محمد ريماض، اقبال أكادمي ،پاكستان .

206 - شماره اقباليات 1989 ، بزرگداشت اقبال بزرك ،د/ خليل هاشميان ، اقبال أكادمي

207 - Iqbal Review (1988) , Allama Iqbal's Poetic Style And Diction ... Persian ., Dr Mohammad ...

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

مقدمة البحث أ

الشكر والتقدير ب

الفصل الاول : الوجود البريطاني والحركات الاصلاحية الاسلامية في شبه القارة .

تمهيد : طبيعة المجتمع الهندي 1

1 ـ الاسلام وصراعه مع الهندوس . 6

2 ـ الوجود البريطاني في الهند . 12

3 ـ المدارس الاسلامية ودورها في بعث الوعي . 16

4 ـ المسلمون والحركات التحررية . 25

الفصل الثاني : محمد اقبال حياته واثاره

اولا : حياة اقبال . 44

اسرته . 44

ميلاده . 48

التعليم والاسفار 49

اقبال في اوربا. 53

عودته الى الوطن . 56

اقبال والسياسة . 61

العوامل المؤثرة في تكوين اقبال . 68

ثانيا : آثار اقبال . 83

الفصل الثالث : ديوان رسالة المشرق ، تعريف وعرض

تمهيد : الادب الفارسي في شبه القارة . 103

اولا : تعريف بالديوان واسباب وضعه وترجماته 108

ثانيا : عرض لمحتويات الديوان وآراء اقبال فيها . 119

أ ـ المقدمة . 120

ب ـ الهدية . 121

ج ـ شقائق النعمان 126

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

د - افكـــــــــار 139
هـ - الخمـــر البـــاقـــيـــة 165
و - صـــــورة الـفـــرنـســـي 184

الفصل الثالث : رسالة المشرق والتراث الاسلامي .
تمهيد : اقبال والادب الاســلامـــي . 201
اولا : رسالة المشرق والقرآن الكـريـم . 208
ثانيا : رسالة المشرق والحديث الشريف والتاريخ الاسلامي . 234
ثالثا : رسالة المشرق والاثر الصوفي . 249

الفصل الخامس : رسالة المشرق بين الثقافة الفارسية والثقافة الغربية
اولا : رسالة المشرق والثقافة الفارسية . 287
1 - رسالة المشرق والتاريخ والقصص الفارسيين . 287
ب - رسالة المشرق والشعر الفارسي . 294
ثانيا : رسالة المشرق والثقافة الغربية . 306
1 - بين اقبال وغوتة . 306
ب - اقبال والغرب . 323

الفصل السادس : رسالة المشرق دراسة اسلوبية .
اولا : البناء الخارجي لرسالة المشرق . (قوالب النظم) 338
1 - الفنون الاصلية : 340
1 - فن الرباعي . 340
2 - فن الغزل . 346
3 - فن المقطعة . 353
4 - فن المثنوي . 356
5 - فن المسمط . 360
6 - فن القصيد . 361
ب - الفنون غير الاصلية : 365
7 - فن الترجيع بند والتركيب بند . 365
8 - فن المستزاد . 370

ثانيا : دراسة لبعض الظواهر اللغوية في الديوان . 374
ا ـ الالفاظ العربية في رسالة المشرق . 374
1 ـ الالفاظ العربية الخالصة . 376
2 ـ الالفاظ العربية المكتوبة وفق قواعد الفارسية . 381
3 ـ التركيبات العربية الخالصة . 385
4 ـ تركيبات عربية في قالب فارسي . 387
ب ـ ظاهرة الترادف . 393
ج ـ المتقابلات : (ظاهرة التضاد) 397
د ـ ظاهرة التكرار . 417

الفصل السابع : البناء الداخلي لرسالة المشرق ،
(الصورة الشعرية)

اولا : طبيعة الصورة الشعرية ،وظيفتها ،وعناصرها . 431
ا ـ طبيعة الصورة الشعرية . 431
ب ـ وظيفة الصورة الشعرية وعناصرها . 433
ثانيا : الصورة الشعرية في رسالة المشرق . 439
ا ـ التصوير بالتشبيه . 440
ب ـ التصوير بالرمز . 445
ج ـ التصوير بالترك . 450
د ـ التصوير بالقصة . 460
هـ ـ تكامل عناصر الصورة الشعرية . 466

خاتمة البحث . 492
قائمة المصادر والمراجع . 496
فهرس الموضوعات . 110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية